



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِحَمْدِهِ الْكَرِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِحَمْدِهِ الْكَرِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دارمشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِحَمْدِهِ الْكَرِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فى ظلال التوحيد: دراسه مبسطه حول التوحيد و الشرك و تحديد معالمها

كاتب:

جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمىة باصفهان للتحريات الكمبيوترىة

الفهرس

٥	الفهرس
٢٢	فى ظلال التوحىء: ءراسه مبسطه حول التوحىء و الشرك و ءءءىء معالهما
٢٢	اشاره
٢٢	اشاره
٢٧	مقءمءء ءءءقق -
٢٧	كلمه الناشر:
٢٨	مقءمه المؤلف:
٣٢	الفصل الأؤل: العبءه ءءءها و مفهوما
٣٢	اشاره
٣٤	ءمهىء
٣٤	اشاره
٣٤	ءءصص العبءه و الاسءعانه بالله سبءانه
٣٨	المسألة الأولى: مفهوم العبءه و ءءءها
٣٨	اشاره
٤١	لئسء العبءه نفس ءءضوع أو نهائءه
٤٤	ءوءبه ءبىر سءىء
٤٤	و هناك ءعارف للعبءه لءمله من المءءققن نأءى بها وءءء بعء الأءر:
٤٤	١- نظرىهصاءب المنار فى ءفسىر العبءه
٤٤	اشاره
٤٥	بلاءظ على هذا ءءرف: -
٤٥	٢- نظرىه الشىء شلءوء، زعمب الأزهىر -
٤٤	٣- ءءرف ابن ءبمبه -
٤٤	اشاره
٤٧	ءءرف الأؤل: العبءه هى ءءضوع للشىء ء بما أنه إله

٤٧	اشاره
٥١	ترادف الإله و لفظ الجلاله
٥٣	التعريف الثانى: العباده عباره عن الخضوع للشىء على أنه رب
٥٥	نتيجه البحث
٥٧	الفوضى فى التطبيق بين الإمام و المأموم
٦١	المسأله الثانيه: حصر الاستعانه فى الله
٦١	اشاره
٦٢	الآيات التى تنسب الظواهر الكونيه إلى الله و إلى غيره:
٦٤	حصيله البحث:
٦٨	إجابته على سؤال
٦٩	الجواب:
٧٤	الفصل الثانى: البدعه و آثارها الموبقه
٧٤	اشاره
٧٦	تمهيد
٨٢	المبحث الأول نصوص البدعه فى الكتاب و السنه
٨٢	اشاره
٨٢	البدعه فى الكتاب
٨٤	البدعه فى السنه
٩٥	المبحث الثانى البدعه لغه و اصطلاحاً
٩٥	اشاره
٩٥	البدعه فى لغه العرب:
٩٧	البدعه فى اصطلاح العلماء
١٠٤	المبحث الثالث تحديد مفهوم البدعه و مقوماتها
١٠٤	اشاره
١٠٥	١- التدخّل فى الدين بزياده أو نقيصه
١١١	٢- البدعه إشاعه و دعوه

- ١١٢ - ٣- عدم وجود أصل لها في الدين -
- ١١٥ - المبحث الرابع الابتداء في تفسير البدعه -
- ١١٥ - اشاره -
- ١١٦ - بدعه «ما لم يكن في القرون الثلاثه» -
- ١٢٤ - بدعه «جعل السلف معياراً للحق و الباطل» -
- ١٢٧ - المبحث الخامس أسباب نشوء البدعه -
- ١٢٧ - اشاره -
- ١٢٧ - ١- المبالغه في التعبد لله تعالى -
- ١٣١ - ٢- اتباع الهوى -
- ١٣٢ - ٣- حب الاستطلاع إلى ما هو دونه -
- ١٣٣ - ٤- التعصب الممقوت -
- ١٣٥ - ٥- التسليم لغير المعصوم -
- ١٣٨ - المبحث السادس تقسيمات البدعه -
- ١٣٨ - ١- تقسيم البدعه إلى حسنه و سيئه -
- ١٣٨ - اشاره -
- ١٣٨ - أصل نشوء هذا التقسيم:
- ١٤٢ - سؤال و جواب:
- ١٤٣ - ٢- تقسيم البدعه إلى عاديه و شرعيه -
- ١٤٣ - اشاره -
- ١٤٧ - الإسلام بين التزمت و التحلل من القيود الشرعيه -
- ١٥٤ - الأصل في العادات الإباحه -
- ١٥٦ - ٣- تقسيم البدعه إلى حقيقيه و إضافيه -
- ١٥٦ - اشاره -
- ١٥٨ - ١- شمول الدليل لجميع الحالات و الكيفيات -
- ١٥٩ - ٢- التداوم على هيئه أو فرد لا يرجع إلى تخصيص التشريع -
- ١٦٢ - المبحث السابع لا بدعه فيما فيه الدليل نصاً أو إطلاقاً -

١٦٨	المبحث الثامن الخطوط العامه لتحصين الدين من الابتداع
١٦٨	اشاره
١٦٨	الأول: التحذير من البدع و المبتدعين
١٦٩	الثاني: الإشاره إلى وجود الكذباه على لسانه
١٧٤	الثالث: محاوله كتابه الصحيحه
١٧٤	الرابع: التعريف بالثقلين
١٧٦	الخامس: التعريف بسفينه النجاه
١٧٦	اشاره
١٧٧	دور أئمه أهل البيت في مكافحه البدع:
١٨٠	السادس: دعم الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر
١٨٣	خاتمه المطاف كيفيه التوصل إلى مكافحه البدع و القضاء عليها
١٨٩	دراسه لأربع مسائل فقهيه تدور بين البدعه و السنه
١٨٩	مقدمه الحقيقه بنت البحث
١٩١	المسأله الأولى: القبض بين البدعه و السنه
١٩١	اشاره
١٩٢	كيفتهصلاه النبي صلى الله عليه و آله في روايات الفريقين
١٩٢	أ- حديث أبي حميد الساعدي:
١٩٤	ب- حديث حماد بن عيسى:
١٩٥	أدله القبض عند أهل السنه
١٩٥	اشاره
١٩٦	أ- حديث سهل بن سعد
١٩٧	ب- حديث وائل بن حجر:
١٩٨	ج- حديث عبد الله بن مسعود:
٢٠١	المسأله الثانيه:صلاه الضحى
٢٠١	اشاره
٢٠١	ما هو حكمها؟

- ٢٠٢ متى وقتها؟
- ٢٠٢ كم عدد ركعاتها؟
- ٢٠٢ أدلتها؟
- ٢٠٢ اشاره
- ٢٠٣ الطائفة الأولى:
- ٢٠٥ الطائفة الثانية:
- ٢٠٧ الطائفة الثالثة:
- ٢١٠ موقف الإماميه منصلا الضحى
- ٢١٢ المسألة الثالثة: إقامة صلاة التراويح جماعه
- ٢١٢ اشاره
- ٢١٢ ١- هل تُسنُّ الجماعة في مطلق النوافل أو لا؟
- ٢١٤ ٢- التراويح لغةً و اصطلاحاً:
- ٢١٤ اشاره
- ٢١٤ عدد ركعاتها عند الفريقين
- ٢١٧ حكم إقامتها جماعه
- ٢٢٠ صلاة التراويح في حديث الرسول صلى الله عليه و آله
- ٢٢٥ جمع الناس على إمام واحد في عصر عمر
- ٢٢٨ التشريع مختص بالله سبحانه
- ٢٣٢ خاتمه المطاف
- ٢٣٣ المسألة الرابعة: الطلاق ثلاثاً دفعه أو دفعات في مجلس واحد
- ٢٣٣ اشاره
- ٢٣٦ دراسه الآيات الواردة في المقام
- ٢٣٩ وقفه مع الجصاص في تفسير الآية:
- ٢٤١ الاستدلال على بطلان الطلاق ثلاثاً
- ٢٤١ اشاره
- ٢٤٢ أوثماً: الاستدلال بالكتاب:

- ٢٤٧ ثانيًا: الاستدلال بالسنة:
- ٢٤٨ الاجتهاد مقابل النص
- ٢٤٨ اشاره
- ٢٥١ ١- نسخ الكتاب بالإجماع الكاشف عن النص:
- ٢٥٢ ٢- تعزيزهم على ما تعدوا به حدود الله:
- ٢٥٥ الفصل الثالث: الزيارة في الكتاب و السنة
- ٢٥٥ اشاره
- ٢٥٧ تمهيد: الإسلام دين الفطرة
- ٢٥٧ اشاره
- ٢٥٩ الصلة بين الأحياء و الأموات
- ٢٦٠ الآثار التربويه لزياره القبور
- ٢٦٢ الآثار الاجتماعيه لزياره أكابر الدين
- ٢٦٦ المبحث الأول زياره القبور في الكتاب و السنة
- ٢٦٦ اشاره
- ٢٦٦ زياره القبور في القرآن الكريم
- ٢٦٩ زياره القبور في السنة النبويه
- ٢٧٢ المبحث الثاني أعلام الأمة و زياره قبر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
- ٢٧٢ اشاره
- ٢٧٣ كلمات أعلام المذاهب حول الزياره
- ٢٩٠ المبحث الثالث زياره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في الكتاب و السنة
- ٢٩٠ زياره النبي الأكرم في القرآن الكريم
- ٢٩٤ زياره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في السنة النبويه
- ٢٩٧ تجريد المتون عن الأسانيد
- ٣٠٠ زياره النبي الأكرم في حديث العتره
- ٣٠٣ المبحث الرابع شد الرحال إلى زياره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
- ٣٠٣ اشاره

- ٣٠٧ إطباق السلف و الخلف على جواز السفر إليه
- ٣٠٨ حديث عدم شد الرحال إلّا إلى ثلاثه
- ٣١٠ دراسه كلمه ابن تيميه فى النهى عن شد الرحال
- ٣١٣ المبحث الخامس شبهات حول زياره الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله
- ٣١٣ اشاره
- ٣١٤ الشبيهه الأولى: فى تقسيم الزياره إلى شرعيه و بدعيه
- ٣١٨ الشبيهه الثانيه: إنّ زياره النبيّ بدعه
- ٣٢١ الشبيهه الثالثه: إنّ الزياره تؤدى إلى الشرك
- ٣٢٤ خاتمه تذكره و إنذار
- ٣٢٤ اشاره
- ٣٢٧ الاحتفال بمولد النبيّ صلى الله عليه و آله
- ٣٢٧ حبّ النبيّ أصل فى الكتاب و السنّه
- ٣٢٨ حبّ النبيّ فى الكتاب:
- ٣٢٩ حبّ النبيّ صلى الله عليه و آله فى السنّه
- ٣٣٢ اختلاف الأئمّه فى درجات حبّهم للنبيّ صلى الله عليه و آله
- ٣٣٢ مظاهر الحبّ فى الحياه
- ٣٣٣ للحبّ مظاهر وراء الاتباع
- ٣٣٨ السنّه النبويّه و كرامه يوم مولده
- ٣٤٠ الاستدلال بالإجماع
- ٣٤١ أوهام و تشكيكات
- ٣٤١ اشاره
- ٣٤١ أ- الاحتفال نوع من العباده
- ٣٤٢ ب- لم يحتفل السلف بمولد النبيّ
- ٣٤٢ ج- إنّها مضاهاه للنصارى فى ميلاد المسيح
- ٣٤٣ د- تخصيص المولد بيوم للاحتفال به بدعه!!
- ٣٤٤ ه- الاحتفالات تشتمل على أمور محرّمه

- ٣٤٧ الفصل الرابع صيانته الآثار الإسلاميه
- ٣٤٧ اشاره
- ٣٤٩ تمهيد الآثار الإسلاميه و نتائجها الإيجابيه
- ٣٥٤ المبحث الأول: صيانته الآثار من منظار القرآن الكريم
- ٣٥٤ الآية الأولى: الإذن برفع بيوت خاصة
- ٣٥٤ اشاره
- ٣٤٢ ما هو المراد من الرفع؟
- ٣٤٥ الآية الثانيه: اتخاذ المساجد على قبور المضطهدين فى سبيل التوحيد
- ٣٤٥ اشاره
- ٣٤٨ الرأى المسبق يضرب عرض الجدار
- ٣٤٨ تقرير القرآن على صحه كلا الاقتراحين
- ٣٧٣ الآية الثالثه: صيانته الآثار و تعظيم الشعائر
- ٣٧٣ اشاره
- ٣٧٤ ما هو المقصود من شعائر الله؟
- ٣٧٥ الآية الرابعه: صيانته الآثار و موته ذوى القربى
- ٣٧٤ المبحث الثانى: صيانته الآثار من منظار القواعد الفقهيته
- ٣٧٤ الأصل فى الأشياء الإباحه و الحليه
- ٣٨٠ المبحث الثالث: المشاهد و المقابر من خلال سيره المسلمين فى خير القرون
- ٣٨٠ اشاره
- ٣٨٢ ١- كلمه المسعودى فى حق قبور أئمه أهل البيت عليهم السلام
- ٣٨٣ ٢- كلمه ابن الجوزى:
- ٣٨٣ ٣- كلمه الحافظ محمد بن محمود بن النجار:
- ٣٨٣ ٤- الرخاله ابن جبير و الأبنيه على المشاهد:
- ٣٨٣ اشاره
- ٣٨٤ مشهد رأس الحسين بالقاهره:
- ٣٨٥ مشاهد الأنبياء و أهل البيت فى مصر:

- ٣٨٦ مشاهد الصحابه في مصر:
- ٣٨٨ القباب الرفيعه لأهل البيت في مكّه المكرمه:
- ٣٨٩ المشاهد المكرمه ببقيع الغرقد:
- ٣٩٠ مشاهد الكوفه:
- ٣٩١ قبور العلماء و الأولياء المشيّد به بغداد:
- ٣٩٢ المشاهد المكرمه و الآثار المعظمه في الشام:
- ٣٩٨ ٥- ابن الحجّاج و القبه البيضاء على قبر الإمام على عليه السلام.
- ٣٩٨ اشاره
- ٣٩٩ السيّد محسن الأمين و الردّ على ابن تيميه
- ٤٠٣ المبحث الرابع: ذرائع الوهابيه في هدم الآثار
- ٤٠٣ اشاره
- ٤٠٣ الأولى: روايه أبي الهياج الأسدي
- ٤٠٣ اشاره
- ٤٠٤ سند الروايه و أقوال العلماء فيه:
- ٤٠٧ ضعف دلالة الحديث
- ٤١١ الثانيه: حديث جابر
- ٤١٥ الثالثه: أحاديث ثلاثه في الميزان
- ٤١٥ اشاره
- ٤١٦ آخر ما في كنانه المستدلّ
- ٤١٩ الفصل الخامس الحياه البرزخيه
- ٤١٩ اشاره
- ٤٢١ تمهيد: ابن تيميه و أثر منهجه في العقيد و الشريعة
- ٤٢٧ المبحث الأول حقيقه الإنسان؛ روحه و نفسه
- ٤٢٧ اشاره
- ٤٣٠ الشخصيه الإنسانيه المعتر عنها بال «أنا»:
- ٤٣١ ثبات الشخصيه الإنسانيه في دوامه التغيرات الجسديه:

- ٤٣٣ علم الإنسان بنفسه مع غفلته عن بدنه:
- ٤٣٤ القرآن و حقيقه الشخصيه الإنسانيه:
- ٤٣٤ اشاره
- ٤٣٥ الآية الأولى:
- ٤٣٧ الآية الثانيه:
- ٤٣٩ الآية الثالثه:
- ٤٣٩ ما هي حقيقه النفس الإنسانيه؟
- ٤٤١ المبحث الثاني استمرار الحياه بعد الانتقال من الدنيا أو بقاء الروح بعد الموت
- ٤٤١ اشاره
- ٤٤١ الآية الأولى
- ٤٤١ اشاره
- ٤٤٢ توضيح الاستدلال يتوقف على التمعن في أمرين:
- ٤٤٢ الآية الثانيه
- ٤٤٣ الآية الثالثه
- ٤٤٤ الآية الرابعه
- ٤٤٨ الآية الخامسه
- ٤٤٩ الآية السادسة
- ٤٥٠ الآية السابعه
- ٤٥١ الآية الثامنه
- ٤٥٢ الآية التاسعه
- ٤٥٣ الآية العاشره
- ٤٥٣ اشاره
- ٤٥٤ تفسير خاطئ للآيه:
- ٤٥٤ المبحث الثالث وجود الصله بين الحياه الدنيويه و الحياه البرزخيه
- ٤٥٤ اشاره
- ٤٥٧ القرآن الكريم و الصله بين الحياتين

- ٤٥٧ ١- النبيّ صالح يكلم قومه بعد هلاكهم:
- ٤٥٧ ٢- النبي شعيب يخاطب قومه الهالكين:
- ٤٥٨ ٣- النبي يأمر بالتكلم مع الأنبياء:
- ٤٥٩ ٤- السلام على الأنبياء:
- ٤٦١ السنه الشريفه و الصله بين الحياتين -
- ٤٦١ اشاره
- ٤٦١ ١- النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله يكلم أهل القلب:
- ٤٦٤ ٢- الإمام على عليه السلام يكلم رؤساء الناكثين:
- ٤٦٤ ٣- السلام على النبيّ صلى الله عليه و آله في ختام الصلاه:
- ٤٦٥ ٤- الميت يسمع قرع النعال:
- ٤٦٥ ٥- قول الميت عند حمل الجنازه:
- ٤٦٦ ٦- النبيّ صلى الله عليه و آله يسلم على الأموات:
- ٤٦٦ ٧- تعذيب الميت في القبر:
- ٤٦٦ اشاره
- ٤٦٧ كلام لابن عبد البرّ في المقام:
- ٤٦٩ المبحث الرابع الحياه البرزخيه في كلمات العلماء
- ٤٦٩ اشاره
- ٤٦٩ ١- الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ):
- ٤٦٩ ٢- أبو جعفر الطحاوي (ت ٣٢١ هـ):
- ٤٧٠ ٣- الإمام الأشعري (٢٦٠-٣٢٤ هـ):
- ٤٧٠ ٤- البغدادي:
- ٤٧٠ ٥- أبو اليسر محمد البزدوي (٤٢١-٤٩٣ هـ) (و هو من الماتريديه):
- ٤٧١ ٦- الفخر الرازي:
- ٤٧١ ٧- ابن أبي العزّ الدمشقي:
- ٤٧٢ ٨- ابن تيميه:
- ٤٧٣ ٩- التفتازاني:

- ٤٧٤ ١٠- الشريف الجرجاني:
- ٤٧٥ ١١- الألوسى:
- ٤٧٥ ١٢- الشيخ المفيد قدس سره:
- ٤٧٧ إجابته عن سؤال
- ٤٧٩ المبحث الخامس البرزخيون ينتفعون بأعمال المؤمنين
- ٤٧٩ اشاره
- ٤٨٠ انتفاع الإنسان بعمله و بعمل غيره
- ٤٨٢ عرض المسألة على الكتاب:
- ٤٨٣ الأحاديث الدالة على انتفاع الميت بفعل الحي:
- ٤٨٨ موقف المذاهب الإسلامية من هذه المسألة
- ٤٩٢ المبحث السادس حول الشبهات المطروحة
- ٤٩٢ اشاره
- ٤٩٣ الشبهة الأولى
- ٤٩٥ الشبهة الثانية
- ٥٠٠ الشبهة الثالثة
- ٥٠١ الشبهة الرابعة
- ٥٠١ الشبهة الخامسة
- ٥٠٢ الشبهة السادسة
- ٥٠٢ اشاره
- ٥٠٤ كلمه في النذور
- ٥٠٤ اشاره
- ٥٠٤ ما يترتب على هذا الأصل:
- ٥٠٧ الفصل السادس الشفاعة في الكتاب و السنه
- ٥٠٧ اشاره
- ٥٠٩ تمهيد
- ٥١٢ المبحث الأول موقف علماء الإسلام من الشفاعة

المبحث الثاني الشفاعه فى القرآن الكريم	٥٢٠
اشاره	٥٢٠
١- الصنف الأول: ما ينفى الشفاعه	٥٢٠
٢- الصنف الثانى: ما يفتد عقيدته اليهود فى الشفاعه	٥٢١
٣- الصنف الثالث: ما ينفى شمول الشفاعه للكفار	٥٢٢
٤- الصنف الرابع: ما ينفى صلاحية الأصنام للشفاعه	٥٢٣
٥- الصنف الخامس: يخص الشفاعه به سبحانه	٥٢٤
٦- الصنف السادس: يثبت الشفاعه لغيره سبحانه بشروط	٥٢٥
الصنف السابع: يسمى من تقبل شفاعته	٥٢٨
اشاره	٥٢٨
الشفاعات المرفوضه:	٥٢٩
الشفاعات المقبوله:	٥٣١
المبحث الثالث حقيقه الشفاعه	٥٣٢
اشاره	٥٣٢
أ- الشفاعه التكوينية	٥٣٢
ب- الشفاعه القيادية	٥٣٤
ج- الشفاعه المصطلحه	٥٣٦
المبحث الرابع مميزات الشفاعه	٥٣٨
اشاره	٥٣٨
أ- ابتلاء الناس بالذنوب و التقصير	٥٣٨
ب- سعه رحمته لكل شىء	٥٣٩
ج- الأصل هو السلامه	٥٤١
د- الآثار البتاء و التربويه للشفاعه	٥٤٢
هـ- الأمر بيده سبحانه أولاً و آخرأ	٥٤٤
المبحث الخامس أثر الشفاعه	٥٤٥
المبحث السادس طلب الشفاعه من المأذونين بالشفاعه	٥٤٩

- ٥٤٩ اشاره
- ٥٥٢ السلف و طلب الشفاعة من النبي الأكرم صلى الله عليه و آله -
- ٥٥٦ المبحث السابع أسئلته حول طلب الشفاعة -
- ٥٥٦ اشاره
- ٥٥٦ السؤال الأول: الشفيع ميت كيف يُطلب منه الدعاء؟
- ٥٥٦ اشاره
- ٥٥٦ على هامش السؤال: -
- ٥٦٠ السؤال الثاني: الشفيع ميت و هو لا يسمع؟
- ٥٦٠ اشاره
- ٥٦٠ على هامش السؤال
- ٥٦٢ السنه لا تتفق مع عدم السماع
- ٥٦٢ اشاره
- ٥٦٢ ١- ما أنتم بأسمع منهم
- ٥٦٢ ٢- روايه الصحابي الجليل: عثمان بن حنيف
- ٥٦٣ السؤال الثالث: الشفاعة فعل الله
- ٥٦٣ اشاره
- ٥٦٣ على هامش السؤال
- ٥٦٥ السؤال الرابع: طلب الشفاعة يشبه عمل المشركين -
- ٥٦٥ اشاره
- ٥٦٥ على هامش السؤال
- ٥٦٦ السؤال الخامس: إن طلب الشفاعة دعاء الغير، و هو عباده له
- ٥٦٦ اشاره
- ٥٦٧ على هامش السؤال
- ٥٧٠ المبحث الثامن الشفاعة في الأحاديث الإسلاميه
- ٥٧٠ اشاره
- ٥٧١ أحاديث الشفاعة عند أهل السنه:

٥٨٥	أحاديث الشفاعة عند الشيعة الإمامية
٥٨٧	أحاديث الشفاعة عن الإمام علي عليه السلام:
٥٩٠	أحاديث الشفاعة عن سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام:
٦٠٢	خاتمة المطاف: بحث و تمحيص حول الروايات الواردة في الشفاعة
٦٠٥	الفصل السابع التوسل
٦٠٥	اشاره
٦٠٧	تمهيد
٦١١	التوسل لغه و اصطلاحاً
٦١٤	اقسام التوسل
٦١٤	(١) التوسل بأسمائه وصفاته
٦١٧	(٢) التوسل بالقرآن الكريم
٦١٩	(٣) التوسل بالأعمال الصالحه
٦٢٤	(٤) التوسل بدعاء الرسول الأكرم
٦٣١	(٥) التوسل بدعاء النبي في حياته البرزخيه
٦٣١	اشاره
٦٣٢	الأول: حياه الأنبياء و الأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ:
٦٣٥	الثاني: الصله بين الحياه الدنيويه و الحياه البرزخيه:
٦٣٦	الثالث: سيره السلف الصالح في التوسل بدعاء النبي بعد رحيله:
٦٣٦	اشاره
٦٤٢	التلّون في الاستدلال
٦٤٣	(٦) التوسل بدعاء الأخ المؤمن
٦٤٦	(٧) التوسل بالأنبياء و الصالحين أنفسهم
٦٤٦	اشاره
٦٤٧	توسل الضرير بنبي الرحمه
٦٥٠	إجابه عن سؤال
٦٥١	التوسل بذات النبي بعد رحيله

- ٦٥١ - اشارة
- ٦٥٣ - مناقشه فى سند الروايه
- ٦٥٤ - سيره الأمم فى توسلهم بالذوات الطاهره
- ٦٥٤ - اشارة
- ٦٥٤ - ١- استسقاء عبد المطلب بالنبي و هو رضيع
- ٦٥٥ - ٢- استسقاء أبى طالب بالنبي و هو غلام
- ٦٥٦ - ٣- توسل الخليفه بعنّ النبي: العباس
- ٦٦٠ - (٨) التوسل بحقّ الصالحين و حرمتهم و منزلتهم
- ٦٦٠ - اشارة
- ٦٦٢ - ١- التوسل بحقّ السائلين
- ٦٦٣ - ٢- التوسل بحقّ النبي و بحقّ من سبقه من الأنبياء
- ٦٦٦ - ٣- توسل آدم بحقّ النبي
- ٦٦٦ - اشارة
- ٦٦٨ - الشبيهه الأولى
- ٦٧٠ - الشبيهه الثانيه
- ٦٧٢ - (٩) التوسل بمقام النبيّ و منزلته عند الله
- ٦٧٢ - اشارة
- ٦٧٧ - خاتمه المطاف: آيتان على مائده التفسير
- ٦٧٧ - اشارة
- ٦٧٧ - الآية الأولى
- ٦٧٩ - الآية الثانيه
- ٦٨٢ - (١٠) التوسل بالنبي متواتر إجمالاً
- ٦٨٢ - اشارة
- ٦٨٣ - ١- توسل الأعرابي بالنبي نفسه
- ٦٨٣ - اشارة
- ٦٨٤ - دلالة الحديث:

- ٢- شعريته في رثاء النبي ٦٨٤
- ٣- خبر العتيق ٦٨٥
- ٤- خبر حاتم الأصم ٦٨٥
- ٥- اللهم رب جبرئيل وميكائيل ٦٨٦
- ٦- حديث السؤال بالأنبياء ٦٨٦
- ٧- حديث دعاء حفظ القرآن ٦٨٧
- ٨- حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد صلى الله عليه و آله ٦٨٧
- ٩- توسل الشافعي بآل البيت ٦٨٧
- ١٠- استسقاء بلال بن حرث ٦٨٨
- تلك عشره كامله ٦٨٨
- حكم التوسل ٦٨٩
- ما أُلّف حول التوسل بقلم علماء الإسلام ٦٨٩
- كلام لابن حجر حول التوسل ٦٩١
- تعريف مركز ٦٩٤

فی ظلال التوحید: دراسه مبسطه حول التوحید و الشرك و تحديد معالمها

اشاره

سرشناسه : سبحانی تبریزی، جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : فی ظلال التوحید: دراسه مبسطه حول التوحید و الشرك و تحديد معالمها/ تالیف جعفر السبحانی

مشخصات نشر : دارمشعر، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ص ۷۱۲

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلی

یادداشت : عربی

یادداشت : کتابنامه: ص. [۶۸۱] - ۶۹۷؛ همچنین به صورت زیرنویس

عنوان دیگر : دراسه مبسطه حول التوحید و الشرك و تحديد معالمها

موضوع : توحید -- جنبه های قرآنی

موضوع : شرك -- جنبه های قرآنی

رده بندی کنگره : BP۱۰۴/ت۹س۲۴ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹

شماره کتابشناسی ملی :

ص: ۱

اشاره

مقدمات التحقيق

كلمه الناشر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و به نستعين و عليه تتوكل

و الحمد لله رب العالمين، و الصلاه و السلام على سيد رُسُلِهِ و خاتم أنبيائه و آله و من سار على خطاهم و تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لقد اهتم المسلمون- و منذ صدر الإسلام- اهتماماً بالغاً بالتوحيد لأنه يشكل حجر الزاوية في سلوكهم و مناراً يضيء دربهم و زاداً لمعادهم.

و لهذا كرس رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جهوده في الفتره المكيه من حياته الرساليه لإرساء أسس التوحيد الخالص، و مكافحه الشرك و الوثنيه، ثم بنى عليها في الفتره المدنيه صرح النظام الأخلاقي و الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي.

و لهذا- و نظراً للحاجه المتزايدة- رأينا أن نقدم للأمم الإسلاميه الكريمه دراسات عقائديه- حول التوحيد و الشرك- مستمدّه من كتاب الله العزيز، و السنّه الشريفه الصحيحه، و العقل السليم، و ما اتفق عليه علماء الأمم الكرام، و الله الموفق.

معاونتيه شئون التعليم و البحوث الإسلاميه في الحجّ

فى ظلال التوحيد و نبذ الشرك

مقدمه المؤلف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فى ظلال التوحيد و نبذ الشرك

التوحيد و نبذ الشرك من أهم المسائل الاعتقاديّة التى تصدّرت المفاهيم و التعاليم السماويّة، و يُعدُّ أساساً للمعارف العليا التى جاء بها سفراؤه سبحانه و أنبيأؤه.

إنّ للتوحيد مراتب متعدّده النظير:

أ: التوحيد فى الذات: إنّه واحد لا ثانى و لا نظير له.

ب: التوحيد فى الخالقيه: إنّه لا خالق للكون إلّا الله سبحانه.

ج: التوحيد فى الربوبيّه: إنّه لا مدبّر للعالم سواه.

د: التوحيد فى العباده: إنّه لا معبود إلّا هو.

إلى غير ذلك من مراتب التوحيد المطروحه فى كتب العقائد.

و قد أولى الذكر الحكيم مزيداً من الاهتمام بالمرتبه الرابعه، أعنى: التوحيد فى العباده، و لذلك نجد المسلمين يشهدون خلالصلواتهم اليوميّه بالتوحيد فى العباده، حيث يتلون قوله سبحانه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» و بالتالى أصبح التوحيد فى العباده شعاراً للمسلمين، و لا يدخل أحد حظيره الإسلام إلّا بالاعتقاد به، و تطبيق العمل

على وفقه، فمن رفضه اعتقاداً أو خالفه عملاً فهو مشرك و ليس بمسلم.

إنه سبحانه يركّز على أنّ الهدف من وراء بعث الأنبياء هو دعوة الناس إلى التوحيد في العبادة، و نبذ عباده الطاغوت، يقول سبحانه: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (١).

إنه سبحانه جعل التوحيد في العبادة أصلاً مشتركاً بين الشرائع السماوية التي أنزلها على المصطفين من عباده، و أمر النبي صلى الله عليه و آله أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمه سواء بينه و بينهم ألا و هي التوحيد في العبادة، و قال: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٢).

إنّ الحدّ الفاصل بين الموحد و المشرك هو أنّ الموحد يستبشر بذكر الله سبحانه خلافاً للمشرك الذي يستبشر بذكر غيره.

قال سبحانه: «وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» (٣).

نعم هذا هو حال المشرك فهو يستكبر عن عبادته سبحانه، كما يقول تعالى:

«إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (٤).

فعلى ضوء ذلك فلا- اختلاف بين المسلمين في التوحيد في العبادة، و هو أصل اتّفقت عليه كافة مذاهبهم، غير أنّ هناك موضوعات ربّما يتصوّر أنّها من مقوله العبادة لغيره سبحانه أو من مصاديق البدعه، فهذا و ذاك دعانا إلى طرح

١- النحل: ٣٦.

٢- آل عمران: ٦٤.

٣- الزمر: ٤٥.

٤- الصافات: ٣٥.

الموضوعات التاليه على طاوله البحث.

١- العباده حدّها و مفهومها.

٢- البدعه و آثارها الموبقه.

٣- الزياره فى الكتاب و السنّه.

٤- صيانه الآثار الإسلاميه.

٥- الحياه البرزخيه.

٦- الشفاعه فى الكتاب و السنّه.

٧- التوسّل مفهومه و أقسامه و حكمه.

و فى الختام، أودّ أن أشير إلى نكته جديره بالاهتمام و هى أنّ الفهم الخاطئ للمسائل المطروحه بات مانعاً أمام وحده المسلمين، و رصّفوفهم، و توحيد كلمتهم، التى هى أمنيه كلّ المصلحين الذين يحملون هموم الأُمّه.

و انطلاقاً من ذلك، فقد آثرنا دراستها على ضوء الكتاب و السنّه بعبارات واضحه لا لبس فيها يفهمها الجميع، و بلغه هادئه من دون أن تُثير حفيظه الآخرين، و أظنّ أنّ القارئ الكريم يشاطرنى الرأى فى ذلك شريطه أن يتجرّد عن كلّ رأى مسبق، و أن يُنشد الحقيقه التى هى أولى بالاتباع.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جعفر السبحانى

قم - مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

٢٤ صفر المظفر من شهور عام ١٤١٢ هـ . ق.

الفصل الأول: العباده حدّها و مفهومها

اشاره

العباده من الموضوعات التي تطرّق إليها الذكر الحكيم كثيراً. وقد حثّ عليها في أكثر من سورة و آيه و خصّها باللّه سبحانه و قال: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» (١) و نهى عن عباده غيره من الأنداد المزعومه و الطواغيت و الشياطين، و جعلها الأصل الأصيل بين الشرائع السماويه و قال: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» (٢) كما جعلها الرساله المشتركه بين الرسل فقال سبحانه: «وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» (٣).

فإذا كان لهذا الموضوع تلك العناية الكبيره فجدير بالباحث المسلم أن يتناولها بالبحث و التحقيق العلمى، حتى يتمييز هذا الموضوع عن غيره تمييزاً منطقياً.

١- الإسراء: ٢٣.

٢- آل عمران: ٦٤.

٣- النحل: ٣٦.

و الذى يُضفى على الدراره أهمله أكثر، هو أنّ التوحيد فى العباده أحد مراتب التوحيد التى لا محيص للمسلم من تعلمه، ثم عقد القلب عليه، و التحزّر عن أى لون من ألوان الشرك. فلا تُنال تلك الأُمنية فى مجالى العقيدة و العمل إلاّ بمعرفة الموضوع معرفه صحيحه، مدعمه بالدليل حتّى لا يقع فى مغبّه الشرك، و عباده غيره سبحانه.

و رغم المكانه الرفيعه للموضوع لم نعر على بحث جامع حول مفهوم العباده يتكفّل بيان مفهومها، و حدّها الذى يفصله عن التكريم و التعظيم أو الخضوع و التذلّل، و كأنّ السلف (رضوان الله عليهم) تلقّوها مفهومًا واضحًا، و اكتفوا فيها بما توحى إليهم فطرتهم.

و لوصح ذلك فإنّما يصحّ فى الأزمنه السالفه، دون اليوم الذى استفحل عند بعض الناس أمر ادعاء الشرك فى العباده، فيما درج عليه المسلمون منذ قرون إلى أن ينتهى إلى عصر التابعين و الصحابه فأصبح - بادعائهم - كلّ تعظيم و تكريم للنبيّ، عباده له، و كلّ خضوع أمام الرسول شركًا، فلا يلتفت الزائر يمينًا و شمالًا فى المسجد الحرام و المسجد النبوى إلاّ و توقر سمعه كلمه «هذا شرك يا حاج» و كأنّه ليس لديهم إلاّ تلك اللفظه، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلاّ بذلك.

فاللازم على هؤلاء - الذين يعدّون مظاهر الحبّ و الودّ، و التكريم و التعظيم شركًا و عباده - وضع حدّ منطقيّ للعباده، يميّز بها، مصاديقها عن غيرها حتى يتّخذها الوافدون من أقاصى العالم و أدانيه، ضابطه كليّه فى المشاهد و المواقف، و لكن - وللأسف - لا تجد بحثًا حول مفهوم العباده و تبيينها فى كتبهم و نشرياتهم و دورياتهم.

فلأجل ذلك قمنا فى هذا الفصل، بمعالجه هذا الموضوع، بشرح مفهومها لغه و قرآنًا، حيث بيّنا أنّ حقيقه الشرك فى تعاليم الأنبياء أخصّ ممّا ورد فى المعاجم و كتب اللغه.

تخصيص العباده و الاستعانه بالله سبحانه

إنَّ المسلم في شرق الأرض و غربها، يخصّ العباده و الاستعانه بالله سبحانه في كلِّ يوم فيصلواته الخمس فيقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (١) و لا خلاف بين المسلمين في هذه الضابطه الكليه، أى أنَّ العباده مختصه بالله سبحانه، و لا يصح إصدار هويّه إسلاميه لشخص إلّا بعد الاعتراف بهذه الكبرى، و إنّما الخلاف بينهم في بعض الأمور و الأحوال الخارجيه، فهل هي عباده أو لا؟ فلو صحت كونها عباده، فلا يجوز الإتيان بها لغيره سبحانه و إن أتى بها لغيره يُعدّ مشركاً.

مثلاً تقبيل الأضرحة هل هو عباده لصاحب القبر أو تكريم و تعظيم له؟

و هكذا الصلاه في المشاهد و عند قبور الأنبياء، فهل هي عباده لصاحب القبر (و إن كانت الصلاه لله) أو هي عباده لله و لكن تتضمن التبرّك بصاحب القبر؟

و مثل ذلك مسأله الاستعانه في نفس الآيه، فمع الاعتراف بحصر الاستعانه بالله سبحانه، فلا شكّ عند العقلاء عامّه أنّه تجوز الاستعانه بالأحياء في الأمور الدنيويه، و لكن إذا استعان بإنسان حيّ فيما يرجع إلى الأمور الغيبيه، كردّ ضالته

و برء مرضه، فهل هو استعانه تخالف الحصر المذكور فى الآيه أو لا؟

و هنا كصوره ثالثه أبهم من الصوره الثانيه و هى: إذا استعان بميت بنحو من الأنحاء كما إذا طلب منه الدعاء و الاستغفار فى حقّه، فهل هى استعانه تخالف الحصر أو لا؟ و قس على ذلك بعض ما يرد عليك من الصور المرذده بين العباده و التكريم، أو بين الاستعانه الجائزه و المحرّمه.

و لأجل أن يكون البحث أكثر علميه و موضوعيه علينا أوّلًا البحث فى مسألتين:

١- تحديد مفهوم العباده حتى تتميز عن التكريم و التبجيل و التبرّك.

٢- تحديد الاستعانه المختصه باللّه و فصلها عن الاستعانه الجائزه.

كلّ ذلك فى ضوء القرآن الكريم.

المسأله الأولى: مفهوم العباده و حدّها

اشاره

بالرغم من عنايه اللغويين و المفسرين بتفسير لفظ العباده و تبيينها، لكن لا تجد في كلماتهم ما يشفى الغليل، و ذلك لأنهم فسروه بأعم المعانى و أوسعها و ليس مرادفاً للعباده طرداً و عكساً.

١- قال الراغب فى المفردات: «العبوديه: إظهار التذلل، و العباده أبلغ منها؛ لأنها غايه التذلل، و لا يستحقّ إلّا من له غايه الإفضال و هو الله تعالى و لهذا قال:

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...».

٢- قال ابن منظور فى لسان العرب: «أصل العبوديه: الخضوع و التذلل».

٣- قال الفيروزآبادى فى القاموس المحيط: «العباده: الطاعه».

٤- قال ابن فارس فى المقاييس: «العبد: الذى هو أصل العباده، له أصلان متضادان، و الأوّل من ذينك الأصلين، يدلّ على لين و ذلّ، و الآخر على شدّه و غلظ».

هذه أقوال أصحاب المعاجم و لا تشدّ عنها أقوال أصحاب التفاسير و هم يفسرونه بنفس ما فسّر به أهل اللغه، غير مكترئين بأنّ تفسيرهم، تفسير لها

بالمعنى الأعم.

١- قال الطبرى فى تفسير قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» اللَّهُمَّ لَكَ نَخْشَعُ وَ نَذَلُّ وَ نَسْتَكِينُ إِقْرَاراً لَكَ يَا رَبَّنَا بِالرَّبُوبِيَّةِ لَا لِغَيْرِكَ. إِنَّ الْعِبُودِيَّةَ عِنْدَ جَمِيعِ الْعَرَبِ أَصْلُهَا الذَّلَّةُ وَ إِنَّهَا تَسْمَى الطَّرِيقَ الْمَذَلَّلَ الَّذِى قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ وَ ذَلَّتْهُ السَّابِلَةُ مَعْبُداً، وَ مِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِلْبَعِيرِ الْمَذَلَّلِ بِالرُّكُوبِ لِلْحَوَائِجِ: مَعْبُدٌ، وَ مِنْهُ سَمِيَ الْعَبْدُ عَبْداً، لِذَلَّتْهُ لِمَوْلَاهُ «(١)».

٢- قال الزجاج: معنى العبادة: الطاعة مع الخضوع، يقال: هذا طريق معبّد إذا كان مذللاً لكثرة الوطاء، و بعير معبّد إذا كان مطلياً بالقطران، فمعنى «إِيَّاكَ نَعْبُدُ»:

إِيَّاكَ نَطِيعُ، الطاعة التى نخضع منها «(٢)».

٣- و قال الزمخشري: العبادة: أقصى غاية الخضوع و التذلل، و منه ثوب ذو عبده؛ أى فى غاية الصفاقة، و قوه النسج، و لذلك لم تستعمل إلّا فى الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع «(٣)».

٤- قال البغوى: العبادة: الطاعة مع التذلل و الخضوع و سَمِيَ الْعَبْدُ عَبْداً لِذَلَّتْهُ وَ انْقِيَادَهُ يُقَالُ: طَرِيقٌ مَعْبُدٌ، أَيْ مَذَلَّلٌ «(٤)».

٥- قال ابن الجوزى: المراد بهذه العبادة ثلاثه أقوال:

أ- بمعنى التوحيد «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» عن على و ابن عباس.

ب- بمعنى الطاعة كقوله تعالى «لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ» «(٥)».

ج- بمعنى الدعاء «(٦)».

١- تفسير الطبرى ١: ٥٣، ط دار المعرفة، بيروت.

٢- معانى القرآن ١: ٤٨.

٣- الكشاف ١: ١٠.

٤- تفسير البغوى ١: ٤٢.

٥- سورة مريم: ٤٤.

٦- زاد المستنير ١: ١٢.

٦- قال البيضاوى: العبادة أقصى غايه الخضوع والتذلل، ومنه الطريق المعبد؛ أى مذلل، و ثوب ذو عبده، إذا كان فى غايه الصفاقه، و لذلك لا تستعمل إلّا فى الخضوع لله تعالى «(١)».

و سيأتى أنّ تفسير العباده بغايه الخضوع ربّما يكون تفسيراً بالأخصّ؛ إذ لا تشترط فيصدقها غايه الخضوع، و لذلك يعدّ الخضوع المتعارف الذى يقوم به أبناء الدنيا أمام الله سبحانه عباده، و إن لم يكن بصوره غايه التعظيم، و ربّما يكون تفسيراً بالأعمّ؛ فإنّ خضوع العاشق لمعشوقه ربّما يبلغ نهايته و لا يكون عباده.

٧- و قال القرطبي: «نَعْبُدُ»، معناه نطيع، و العباده: الطاعه و التذلل، و طريق معبد إذا كان مذللًا للسالكين «(٢)».

٨- و قال الرازى: العباده عباره عن الفعل الذى يؤتى به لغرض تعظيم الغير، و هو مأخوذ من قولهم: طريق مُعَبَّد «(٣)».

و إذا قصرنا النظر فى تفسير العباده، على هذه التعاريف و قلنا بأنّها تعاريف تامّه جامعها للأفراد و مانعه للأغيار، لزم رمى الأنبياء و المرسلين، و الشهداء و الصديقين بالشرك، و أنّهم - نستعيد بالله - لم يتخلّصوا من مصائد الشرك، و لزم ألاّ يصحّ تسجيل أحد من الناس فى قائمه الموحّدين. و ذلك لأنّ هذه التعاريف تفسّر العباده بأنّها:

١- إظهار التذلل.

٢- إظهار الخضوع.

٣- الطاعه و الخشوع و الخضوع.

١- أنوار التنزيل ١: ٩.

٢- جامع أحكام القرآن ١: ١٤٥.

٣- مفاتيح الغيب ١: ٢٤٢، فى تفسير قوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ».

٤- أقصى غايه الخضوع.

و ليس على أديم الأرض من لا يتذلل أو لا يخشع و لا يخضع لغير الله سبحانه و إليك بيان ذلك:

ليست العباده نفس الخضوع أو نهايته

إنَّ الخضوع و التذلل حتّى إظهار نهايه التذلل لا يساوى العباده و لا يعدّ حدّاً منطقيّاً لها، بشهاده أنّ خضوع الولد أمام والده، و التلميذ أمام أستاذه، و الجنديّ أمام قائده، ليس عباده لهم و إن بالغوا فى الخضوع و التذلل حتّى و لو قبل الولد قدم الوالدين، فلا يعد عمله عباده، لأنّ الله سبحانه يقول: «وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» (١).

و أوضح دليل على أنّ الخضوع المطلق و إن بلغ النهايه لا يعدّ عباده هو أنّه سبحانه أمر الملائكه بالسجود لآدم و قال: «وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» (٢) و آدم كان مسجوداً له ككونه سبحانه مسجوداً له، مع أنّ الأول لم يكن عباده و إلّا لم يأمر بها سبحانه، إذ كيف يأمر بعباده غيره و فى الوقت نفسه ينهى عنها بتاتاً فى جميع الشرائع من لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه و آله، و لكن الثانى - أى الخضوع لله - عباده.

و الله سبحانه يصرّح فى أكثر من آيه بأنّ الدعوه إلى عباده الله سبحانه، و النهى عن عباده غيره، كانت أصلاً مشتركاً بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: «وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (٣) و قال سبحانه: «وَ مَا

١- الإسراء: ٢٤.

٢- البقره: ٣٤.

٣- النحل: ٣٦.

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (١) و في موضع آخر من الكتاب يعدّ سبحانه التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» (٢)، و معه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذي هو من مصاديق الخضوع النهائي؟ و هذا الإشكال لا يندفع إلا بنفي كون الخضوع عباده، ببيان أنّ للعبادة مقومًا لم يكن موجوداً في سجود الملائكة لآدم.

و لم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره؛ فقد سجد له أبواه و إخوته، و تحقّق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف عليه السلام: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحْيَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» (٣).

كما يحكى تحقّقه بقوله سبحانه: «وَ رَفَعَ أَبُوتَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» (٤) و معه كيف يصحّ تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته؟

إنّه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت الذي ليس هو إلا حجراً و طيناً، كما أمر بالسعى بين الصفا و المروه، قال سبحانه: «وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٥) و قال سبحانه: «إِنَّ الصَّفا وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ

١- الأنبياء: ٢٥.

٢- آل عمران: ٦٤.

٣- يوسف: ٤.

٤- يوسف: ١٠٠.

٥- الحج: ٢٩.

اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» (١).

فهل ترى أن الطواف حول التراب و الجبال و الحجر عباده لهذه الأشياء بحججه أنه خضوع لها؟!

إن شعار المسلم الواقعي هو التذلل للمؤمن و التعزز على الكافر، قال سبحانه:

«فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ» (٢).

فمجموع هذه الآيات و جميع مناسك الحج يدلان بوضوح على أن مطلق الخضوع و التذلل ليس عباده. و لو فسرها أئمة اللغة بالخضوع و التذلل، فقد فسروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذ عن القول بأن العبادة ليست إلّا نوعاً خاصاً من الخضوع. و لو سُمي في بعض الموارد مطلق الخضوع عباده، فإنما سُمي من باب المبالغة و المجاز، يقول سبحانه: «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (٣) فكما أن إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز فكذا تسميه متابعه الهوى عباده له، ضرب من المجاز.

و من ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (٤).

فإن من يتبع قول الشيطان فيتساهل في الصلاة و الصيام، و يترك الفرائض أو يشرب الخمر و يرتكب الزنا، فإنه بعمله هذا يقترف المعاصي؛ لا أنه يعبده كعباده الله، أو كعباده المشركين للأصنام، و لأجل ذلك لا يكون مشركاً محكوماً عليه بأحكام الشرك، و خارجاً عن عداد المسلمين، مع أنه من عبده الشيطان لكن بالمعنى الواسع الأعم من الحقيقي و المجازي.

١- البقرة: ١٥٨.

٢- المائدة: ٥٤.

٣- الفرقان: ٤٣.

٤- يس: ٦٠ - ٦١.

و ربما يتوسّع في إطلاق العبادة فتطلق على مطلق الإصغاء لكلام الغير، و في الحديث: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله عزّ و جلّ فقد عبد الله، و إن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان» (١).

توجيه غير سديد

إنّ بعض من يفسّر العبادة بالخضوع و التذلل عند ما يقف أمام هذه الدلائل الوافرة، يحاول أن يجيب و يقول: إنّ سجود الملائكة لآدم أو سجود يعقوب و أبنائه ليوسف، لم يكن عباده له و لا ليوسف؛ لأنّ ذلك كان بأمر الله سبحانه و لو لا أمره لانقلب عملهم عباده لهما.

و هذا التوجيه بمعزل عن التحقيق؛ لأنّ معنى ذلك أنّ أمر الله يُغيّر الموضوع، و يبدل واقعه إلى غير ما كان عليه، مع أنّ الحكم لا يغيّر الموضوع.

فلو نفترض أنّه سبحانه أمر بسبّ المشرك و المنافق فأمره سبحانه لا يخرج السبّ عن كونه سباً، فلو كان مطلقاً الخضوع المتجلى فيصوره السجود لآدم أو ليوسف عباده، لكان معنى ذلك أنّه سبحانه أمر بعباده غيره، مع أنّها فحشاء بتصريح الذكر الحكيم لا يأمر بها سبحانه، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (٢).

و هناك تعاريف للعبادة لجملة من المحقّقين نأتى بها واحداً بعد الآخر:

١- نظر به صاحب المنار في تفسير العبادة

إشاره

إنّ صاحب المنار لمّا وقف على بعض ما ذكرناه حاول أن يُفسّر العبادة بشكل يبعده عن بعض ما ذكرناه، لذلك أخذ في التعريف قيوداً ثلاثة:

١- الكافي ٦: ٤٣٤.

٢- الأعراف: ٢٨.

أ- العباده ضرب من الخضوع بالَّغ حدَّ النهايه.

ب- ناشئ عن استشعار القلب عظمه المعبود، لا يعرف منشأها.

ج- و اعتقاده بسلطه لا يُدرَك كنهها و ماهيتها «(١)».

يلاحظ على هذا التعريف:

أولاً: أنّ التعريف غير جامع، و ذلك لأنه إذا كان مقوم العباده، الخضوع بالَّغ حدَّ النهايه فلا يشمل العباده الفاقده للخشوع و الخضوع التي يؤدّيها أكثر المتساهلين في أمر الصلاه، و ربما يكون خضوع الجندي لقائده أشدّ من هؤلاء المتساهلين الذين يتصوِّرون الصلاه عباده و جهداً.

و ثانياً: ما ذا يريد من قوله: «عن استشعار القلب عظمه المعبود لا يعرف منشأها»؟ فهل يعتقد أنّ الأنبياء كانوا يستشعرون عظمه المعبود و لكن لا يعرفون منشأها. مع أنّ غيرهم يستشعر عظمه المعبود و يعرف منشأها، و هو أنّه سبحانه:

الخالق البارئ، المصوِّر، أو أنّه سبحانه هو الملك القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر.

و ثالثاً: ما ذا يريد من قوله: «و اعتقاده بسلطه لا يدرك كنهها و ماهيتها»؟.

فإن أراد شرطيه هذا الاعتقاد في تحقّق العباده، فلازم ذلك عدم صدقها على عباده الأصنام و الأوثان، فإنّ عبّاد الأوثان يعبدونها و كانوا يعتقدون بكونهم شفعاء عند الله سبحانه فقط لا أنّ لهم سلطه لا يدرك كنهها و ماهيتها.

٢- نظريه الشيخ شلتوت، زعيم الأزهر

و قد عرّف شيخ الأزهر الأسبق العباده بنفس ما عرّفها صاحب المنار، و لكنّه يختلف عنه لفظاً و يتّحد معه معنئ، فقال: العباده خضوع لا يحدُّ، لعظمه لا تحد «(٢)».

١- تفسير المنار ١: ٥٧.

٢- تفسير القرآن الكريم: ٣٧.

و هذا التعريف يشترك مع سابقه نقداً و إشكالاً، و ذلك أنّ العباده ليست منحصره فى خضوع لا يحدّ بل الخضوع المحدّد أيضاً ربّما يعدّ عباده، كما إذا كان الخضوع بأقلّ مراتبه. و كذلك لا- يشترط كون الخضوع لعظمه لا تحدّ؛ إذ ربّما تكون عظمه المعبود محدوده فى زعم العابد كما هو الحال فى عباده الأصنام، الذى كان الدافع إلى عبادتها كونها شفعاء عند الله.

٣- تعريف ابن تيميه

إشاره

و أكثر التعاريف عرضه للإشكال هو تعريف ابن تيميه إذ قال:

«العباده اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله و يرضاه من الأقوال و الأعمال الباطنيه و الظاهريه كالصلاه و الزكاه و الصيام، و الحجّ، و صدق الحديث و أداء الأمانه، و برّ الوالدين وصله الأرحام» (١).

و هذا الكاتب لم يفرّق- فى الحقيقة- بين العباده و التقرب، و تصوّر أنّ كلّ عمل يوجب القربى إلى الله، فهو عباده له تعالى أيضاً، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، فهناك أمور توجب رضا الله، و تستوجب ثوابه لكنها قد تكون عباده كالصوم و الصلاه و الحجّ، و قد تكون موجبه للقرب إليه دون أن تعدّ عباده، كالإحسان إلى الوالدين، و إعطاء الزكاه، و الخمس، فكلّ هذه الأمور (الأخيره) توجب القربى إلى الله فى حين لا- تكون عباده. و إن سمّيت فى مصطلح أهل الحديث عباده، فيراد منها كونها نظير العباده فى ترتّب الثواب عليها.

و بعبارة أخرى: أنّ الإتيان بهذه الأعمال يعدّ طاعه لله و لكن ليس طاعه عباده.

و إن شئت قلت: إنّ هناك أموراً عباديّه، و أموراً قربيّه، و كلّ عباده

١- مجله البحوث الإسلاميه، العدد ٢: ١٨٧، نقلا عن كتاب العبوديه: ٣٨.

مقرّبه، و ليس كلّ مقرّب عباده، فدعوه الفقير إلى الطعام، و العطف على اليتيم - مثلاً - توجب القرب، و لكنّها ليست عباده بمعنى أن يكون الآتى بها عابداً بعمله لله تعالى.

و إذا وقفت على قصور هذه التعاريف هنا نذكر فى المقام تعريفين، كلّ يلازم الآخر.

التعريف الأول: العبادة هى الخضوع للشئ بما أنه إله

إشاره

إنّ لفظ العباده من المفاهيم الواضحه، و ربّما يكون ظهور معناها الواضح مانعاً عن التحديد الدقيق لها، غير أنه يمكن تحديدها من خلال الإمعان فى الموارد التى تستعمل فيها تلك اللفظه، فقد استعملها القرآن فى مورد الموحّدين و المشركين، و قال سبحانه فى الدعوه إلى عباده نفسه: «وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» (١) و قال سبحانه: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» (٢).

و قال فى النهى عن عباده غيره: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا» (٣) و قال: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» (٤)، فعلى الباحث أن يقتنص معنى العباده بالدقه فى أفعال العباد، و عقائدهم من غير فرق بين عباده الموحّدين و عباده المشركين فيجعله حدّاً منطقياً للعباده.

إنّ الإمعان فى ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأنّ العباده عندهم عباره عن الفعل

١- يونس: ١٠٤.

٢- الزمر: ١١.

٣- العنكبوت: ١٧.

٤- الصافات: ٩٥.

الدال على الخضوع المقترن مع عقيدته خاصه في حق المخضوع له، فالعنصر المقوم للعباده حينئذ امران:

١- الفعل المنبئ عن الخضوع والتذلل.

٢- العقيدته الخاصه التي تدفعه إلى عباده المخضوع له.

أمّا الفعل، فلا يتجاوز عن قول أو عمل دال على الخضوع والتذلل بأي مرتبه من مراتبها، كالتكلم بكلام يؤدى إلى الخضوع له أو بعمل خارجي كالركوع والسجود بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك مما يدل على ذلته و خضوعه أمام موجود.

و أما العقيدته التي تدفعه إلى الخضوع والتذلل فهي عبارته عن:

١- الاعتقاد بألوهيته.

٢- الاعتقاد بربوبيته.

أمّا الأول فالألوهيه منسوبه إلى الله، وهو ليس بمعنى المعبود- وإن اشتهر في الألسن- بل كونه معبوداً من لوازم كونه إلهاً لا أنه نفس معناه، بل الاله- كما يشهد عليه الذكر الحكيم- مرادف، للفظ الجلاله و يختلف معه في الكليه و الجزئيه، فالإله كلى و لفظ الجلاله علم جزئى.

و توضيح ذلك أنّ الموحدين عامه و الوثنيين كلهم، و عبده الشمس و الكواكب يعتقدون بألوهيه معبوداتهم؛ إمّا لكون المعبود إلهاً كبيراً أو إلهاً صغيراً، إمّا إلهاً صادقاً أو إلهاً كاذباً، فالاعتقاد بألوهيه المعبود بهذا المعنى هو المقوم لصدق العباده.

و لأجل أنه لا يستحق العباده إلا من كان إلهاً لذلك يؤكد القرآن بأنه لا إله إلا الله و مع ذلك فكيف تعبدون غيره؟

يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (١).

«وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» (١).

«وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» (٢).

«أَأَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى» (٣).

و حاصل الآيات أنّ غيره سبحانه لا يستحقّ العبادة؛ لأنها من شئون الألوهية، و هي من خصائص الله سبحانه لا غير، فيتحصّل من ذلك أنّ العبادة عباره عن الخضوع أمام موجود للاعتقاد بأنّه إله حقيقيّ أو مجازي، و لو لا ذلك الاعتقاد لا يوصف الخضوع بالعبادة، و الشاهد عليه أنّ العاشق الولهان إذا خضع لمعشوقته، خضوعاً بالغاً لا يعدّ عباده لها؛ لأنّه لم يصدر عن الاعتقاد بألوهيتها و أنّها إله، و إنّما صدر عن اعتقاد أنّها جميله تجذب الإنسان بنفسيتها و جمالها.

و يدلّ على ما ذكرنا من أنّ دعوه المشركين و خضوعهم و نداءهم و سؤالهم كانت مصحوبه بالاعتقاد بألوهيه أصنامهم، أنّه سبحانه يفسّر الشرك في بعض الآيات باتّخاذ إله مع الله.

و يقول: «وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (٤).

و في بعض الآيات يندّد بالمشركين بأنّه ليس لهم إله غير الله فكيف يعبدون غيره، و يقول: «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (٥).

و الإمعان في هذه الآيات و نظائرها يؤكد أنّ اندفاع المشركين إلى عباده الأصنام أو اندفاع الموحّدين إلى عباده الله هو اعتقادهم بكونهم آلهه أو كونه إلهاً،

١- الفرقان: ٦٨.

٢- مريم: ٨١.

٣- الأنعام: ١٩.

٤- الحجر: ٩٤-٩٦.

٥- الطور: ٤٣.

فهذا الاعتقاد كان يدفعهم إلى العبادة، ولأجل ذلك كانوا يقدمون لمعبوداتهم النذور و القرابين و غيرهما من التقاليد و السنن. و لما كانت كلمه التوحيد تهدم عقيدتهم بألوهيه غيره سبحانه لذلك كانوا يستكبرون عند سماعها، كما قال سبحانه: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (١).

ثم إن الاعتقاد بألوهيه الأصنام لا يلازم الاعتقاد بكون المعبود خالقاً للعالم حتى يقال بأن المشركين فى الجاهليه كانوا موحدين فى الخالقيه، كما يدل على ذلك أكثر من آيه. قال سبحانه:

«وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» (٢).

إذ للألوهيه شئون عندهم يقوم ببعضها الإله الأعلى كخلق السماوات و الأرض، و بعضها الآخر الآلهه المزعومه المتخيله عندهم، كغفران الذنوب و الشفاعه المطلقه المقبوله بلا قيد و شرط، و بما أن هذين الأمرين الأخيرين من شئون الإله الأعلى أيضاً و ليس للآلهه المزعومه فيها حظٌ و لا نصيب، يركز القرآن على إثباتهما لله سبحانه فقط و يقول: «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» (٣). و يقول: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» (٤).

و فى ضوء ذلك فالمشركون كانوا معتقدين بالإله الأعلى الأكبر، و فى الوقت نفسه يعتقدون بألهه شتى ليس لهم من الشئون ما للإله الأعلى منها، و فى الوقت نفسه كانت الآلهه عندهم مخلوقه لله سبحانه، مفوضه إليهم بعض الشئون كما عرفت.

١- الصافات: ٣٥.

٢- الزخرف: ٩.

٣- آل عمران: ١٣٥.

٤- الزمر: ٤٤.

ترادف الإله و لفظ الجلاله

إنّ الدليل الواضح على أنّ الإله يرادف لفظ الجلاله و لكن يفترق عنها بالجزئيه و الكليه الأمور التاليه:

أ- وحده المادّه؛ إذ الأصل للفظ الجلاله هو الإله، فحذفت الهمزه و عوّض اللام، و لذلك قيل في النداء: «يا الله، بالقطع كما يقال: يا إله» (١).

ب- الآيات التي استدلتّ فيها على وحده الإلهصريحه في أنّ المراد من الإله هو المتصرّف المدبّر، أو من بيده أزمه الأمور أو ما يقرب من ذلك، و لا يصحّ تفسير الإله بالمعبود و إلّا لفسد الاستدلال، و إليك الآيات الواردة في ذلك المجال:

١- «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» (٢) «فإنّ البرهان على نفى تعدّد الآلهه لا يتمّ إلّا إذا جعلنا «الإله» في الآية بمعنى المتصرّف المدبّر أو من بيده أزمه الأمور أو ما يقرب من هذين، و لو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقض البرهان لبداهه تعدّد المعبودين في هذا العالم، مع عدم فساد النظام الكونى و قد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمه بالآلهه بل و مركزها مع انتظام العالم و عدم فساد.

و عندئذ يجب على من يجعل «الإله» بمعنى المعبود أن يقيّده بلفظ «بالحق» أى لو كان فيهما معبودات- بالحق- لفسدتا، و لمّا كان المعبود بالحقّ مدبراً أو متصرّفاً لزم من تعدّده فساد النظام، و هذا كلّه تكلف لا مبرر له.

٢- «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (٣).

و يتمّ هذا البرهان أيضاً لو فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنّه كلّى ما يطلق عليه لفظ

١- الكشاف ١: ٣٠.

٢- الأنبياء: ٢٢.

٣- المؤمنون: ٩١.

و إن شئت قلت: إنّه كناية عن الخالق أو المدبّر المتصرّف أو من يقوم بأفعاله و شئونه، و المناسب فى هذا المقام هو الخالق، و يلزم من تعدّده ما رتبّ عليه فى الآيه من ذهاب كلّ إله بما خلق و اعتلاء بعضهم على بعض.

و لو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، و لا يلزم من تعدّده أى اختلال فى الكون. و أدلّ دليل على ذلك هو المشاهده؛ فإنّ فى العالم آلهه متعدّده، و قد كان فى أطراف الكعبه المشرفه ثلاثمائة و ستون إلهاً و مع ذلك لم يقع أى فساد أو اختلال فى الكون.

فيلزم من يفسّر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلف بما ذكرناه فى الآيه المتقدمه.

٣- «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا» (١) «فإنّ ابتغاء السبيل إلى ذى العرش من لوازم تعدّد الخالق المدبّر المتصرّف، أو من بيده أزمه أمور الكون أو غير ذلك ممّا يرسمه فى ذهننا معنى الألوهيه، و أمّا تعدّد المعبود فلا يلزم ذلك إلّا بالتكلف الذى أشرنا إليه فيما سبق.

٤- «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هُوَ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا» (٢) «و الآيه تستدلّ بورود الأصنام و الأوثان فى النار، على بطلان كونها آلهه؛ إذ لو كانت آلهه ما وردوا النار.

و الاستدلال إنّما يتمّ لو فسّرنا الآلهه بما أشرنا إليه؛ فإنّ خالق العالم أو مدبّره و المتصرّف فيه أو من فوّض إليه أفعال الله أجلّ من أن يحكم عليه بالنار و أن يكون حصب جهنم.

و هذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود فلا يتمّ البرهان؛ لأنّ المفروض أنّها كانت معبودات و قد جعلت حصب جهنم. و لو أمعنت فى الآيات التى ورد فيها لفظ

١- الإسراء: ٤٢.

٢- الأنبياء: ٩٨-٩٩.

الإله و الآلهه لقدرت على استظهار ما اخترناه.

حصيله البحث: أنّ العباده عباره عن الخضوع الصادر لمن يتّخذّه الخاضع إلهاً، و ما ذكرناه على وجه التفصيل هو الذى أفرغه الشيخ جواد البلاغى فى قالب التعريف و قال: العباده ما يرونه مشعراً بالخضوع لمن يتّخذّه الخاضع إلهاً، ليوفيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالألوهيه «(١)».

التعريف الثانى: العباده عباره عن الخضوع للشىء على أنه ربّ

و اللغويون و إن ذكروا للربّ معانى مختلفه كالخالق و المالك و الصاحب و المصلح، و لكنّ الظاهر أنّ أكثر هذه المعانى من لوازم المعنى الواحد، و يمكن تصويره بأنّه من فوّض إليه أمر الشىء من حيث الإصلاح و التدبير و التربيّه، فلو أطلق الربّ على الخالق فلأنّه يقوم بإصلاح مخلوقه و تدبيره، و تربيته. و لو أطلق علىصاحب المزرعه ربّ الضيعه، أو على سائس القوم أنه ربّهم، فلأنّ الأوّل يقوم بإصلاح أمور المزرعه، و الثانى بتدبير أمور القوم و شئونهم، و قس على ذلك سائر الأمور، فالله سبحانه ربّ العالمين، و «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» «(٢)» و «هُوَ رَبُّ الشَّعْرِى» «(٣)» فلأجل أنه سبحانه مدبّر و مدير و متصرّف فى شئونها و القائم عليها.

فلو أطلق الربّ على مالك الدابه فلأجل أنه فوّض إليه إصلاح المملوك.

هذا من جانب، و من جانب آخر نرى الله سبحانه يعلّل فى بعض الآيات

١- آلاء الرحمن: ٥٧، ط صيدا.

٢- الصافات: ٥.

٣- النجم: ٤٩.

حصر العباده فى الله سبحانه حيث حصر الربوبيه به دون غيره، فتدلّ بصراحه على أنّ العباده من شئون الربوبيه، و إليك بعض الآيات:

و قال المسيح:

«يا بنى إسرائيل اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» (١). «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (٢). «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (٣).

و إذا عرفت هذين الأمرين:

١- الربّ من فَوْضِ إِيْلِهِ تَدْبِيرِ الشَّيْءِ وَ إِصْلَاحِهِ وَ تَرْبِيَّتِهِ.

٢- إِنَّ الْآيَاتِ تَعَلَّلَ حَصْرَ الْعِبَادَةِ فِي اللَّهِ بِكَوْنِهِ رَبًّا.

فستعرف أنّ اتّسام الخضوع، و السؤال و الدعاء بالعباده من شئون الاعتقاد بكون المخضوع له ربّاً بيده مسير الخاضع و مصيره، و إن شئت قلت: بيده شأن أو شئون من حياته الدنيويه أو الأخرويه بيده، فالخضوع المقرون بهذا الاعتقاد يُضفى عليه عنوان العباده.

و ليعلم أنّ المراد من كون الرب مالكاً لشأن من شئون حياته ليس المراد هو المالكيه القانونيه و الوضعيه التى تُعطى للإنسان حيناً و تسلب عنه حيناً آخر، بل المراد المالكيه التكوينيّه المستمدّه من الخالقيه كما فى الإله الأعلى أو من تفويض الإله الأعلى لها، كما هو الحال عند آلهه المشركين - على زعمهم - الذين يعتقدون بأنّه سبحانه فَوْضِ إِيْلِهِمْ بعضَ شئون حياتهم، كغفران الذنوب و الشفاعة، بل يظهر ممّا نقله ابن هشام فى سيرته أنّ الشرك دخل مكّه فيصوره الشرك فى الربوبيه فيما يرجع إلى الاستمطار، يقول ابن هشام:

١- المائدة: ٧٢.

٢- الأنبياء: ٩٢.

٣- آل عمران: ٥١.

«كان عمرو بن لحي» أول من أدخل الوثنيه إلى مكّه و نواحيها، فقد رأى في سفره إلى البلقاء من أراضى الشام اناساً يعبدون الأوثانَ و عند ما سألهم عمّا يفعلون قائلاً:

ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، و نستنصرها فتنصرنا!

فقال لهم: أ فلا تعطونى منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟

و هكذا استحسن طريقتهم و استصحب معه إلى مكهصنماً كبيراً باسم «هبل» و وضعه على سطح الكعبه المشرفه، و دعا الناس إلى عبادتها «(١)».

إذن فاستمطار المطر من هذه الأوثان و الاستعانه بها يكشف عن أنّ بعض المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لهذه الأوثان دخلاً فى تدبير شئون الكون و حياه الإنسان.

نتيجه البحث

إذا عرفنا أنّ مقوّم العباده عباره عن اعتقاد السائل و الخاضع و الداعى أو المنادى بأنّ المسئول و المخضوع له «إله» و «ربّ» يملك شيئاً ممّا يرجع إليه فى عاجله أو آجله، فى مسيره و مصيره، و إنّهُ يقوم بذلك لكونه خالقاً أو مفوضاً إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال و الأصاله، تستطيع أن تقضى فى الأعمال التى يقوم بها اشياح الأنبياء و محبّوهم، بأنّها ليست عباده أبداً و إنّما هى من مصاديق التكريم و الاحترام و إن بلغت نهايه التذلل، لأنّها لا تنطلق من اعتقاد الخاضع بألوهيه النبى، و لا ربوبيته بل تنطلق عن الاعتقاد بكونهم عباد الله الصالحين، و عباده المكرمين الذين لا يعصون الله و هم بأمره يعملون، نظير:

١- تقبيل الأضرحة و أبواب المشاهد التي تضم أجساد الأنبياء و الأولياء؛ فإن ذلك ليس عباده لصاحب القبر و المشهد؛ لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل و اللمس و ما شابه ذلك.

٢- إقامة الصلاة في مشاهد الأولياء تبركاً بالأرض التي تضمنت جسد النبي أو الإمام، كما تبرك بالصلاة عند مقام إبراهيم أتباعاً لقوله تعالى: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ» (١).

٣- التوسل بالنبي سواء كان توسلاً بذاته و شخصه، أو بمقامه و شخصيته أو بدعائه في حال حياته و مماته؛ فإن ذلك كله لا يكون عبادة؛ لعدم الاعتقاد بألوهية النبي و لا ربوبيته، و يعدّ من التوسل بالأسباب، سواء كان المدعو قادراً على إنجاز العمل أو عاجزاً، غاية الأمر يكون التوسل فيصوره العجز غير مفيد، لا متمسماً بالشرك، فلو افترضنا أنّ الأنبياء و الأئمة في حال الممات غير قادرين على شيء فالدعاء و التوسل بهم مع كونهم عاجزين لا يجعل العمل شركاً، بل يجعله لغواً، مع أنّ أصل المبنى باطل؛ أي أنّهم غير قادرين في حال الممات.

٤- طلب الشفاعة من الأنبياء أو النبي الأكرم ليس شركاً؛ لأنه يطلبها منه بقيد أنه عبد مأذون لا أنه مفوض إليه أمرها، و في الواقع إما أن يكون مأذوناً فيشفع، و إما أن يكون الطلب لغواً.

٥- الاستغاثة بالأرواح المقدّسة ليس إلّا كالاستغاثة بهم في حال حياتهم، فهي على وجه تتسم بالشرك من غير فرق بين حالي الحياه و الممات و لا تتسم به على وجه آخر، كذلك فلو استغاث به بما أنه عبد أقدره الله تعالى على الإجابة حياً و ميتاً، يكون من قبيل التوسل بالأسباب، و إن استغاث به بما أنه إله أو ربّ يقوم بالاستغاثة أصاله و استقلالاً، و أنه فوض إليه حياه المستغيث عاجلاً و آجلاً، فهو

شرك من غير فرق بين الحاليتين.

هذا خلاصه البحث حول حصر العباده باللّٰه سبحانه، و إذا أمعنت فيما ذكرنا يمكنك الإجابة على بعض ما أثارته بعض المناهج الفكرية فى الأوساط الإسلاميه حول هذه الأمور، التى نسبت جلّ المسلمين إلى الشرك فى العباده مع أنّهم بمنأى عن الشرك.

الفوضى فى التطبيق بين الإمام و المأموم

لقد ترك الإهمال فى تفسير العباده تفسيراً منطقياً، فوضى كبيره فى مقام التطبيق بين الإمام و المأموم فنرى أنّ إمام الحنابله أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) صدر عن فطره سليمه فى تفسير العباده، و أفتى بجواز مسّ منبر النبيّ صلى الله عليه و آله و التبرّك به و بقبره و تقبيلهما عند ما سأله ولده عبد الله بن أحمد، و قال: سألته عن الرجل يمسّ منبر النبيّ صلى الله عليه و آله و يتبرّك بمسّه، و يُقبّله، و يفعل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرب إلى الله عزّ و جلّ، فقال: «لا بأس بذلك» (١).

هذه هى فتوى الإمام- الذى يفتخر بمنهجه أحمد بن تيميه، و بعده محمّد بن عبد الوهاب- و لم يرَ بأساً بذلك، لما عرفت من أنّ العباده ليست مجرد الخضوع؛ فلا- يكون مجرد التوجّه إلى الأجسام و الجمادات عباده، بل هى عباره عن الخضوع نحو الشىء، باعتبار أنّه إله أو ربّ، أو بيده مصير الخاضع فى عاجله و آجله، و أمّا مسّ المنبر أو القبر و تقبيلهما، كلّ ذلك لغايه التكريم و التعظيم لنسبى التوحيد، و إن كان لغايه التبرّك، فلا- يتجاوز التبرّك فى المقام عن تبرّك يعقوب بقميص ابنه يوسف، و لم يخطر بخلد أحد من المسلمين إلى اليوم الذى جاء فيه ابن تيميه بالبدع الجديده، أنّها عباده لصاحب القميص و المنبر و القبر أو لنفس تلك الأشياء.

١- العلل و معرفه الرجال ٢: ٤٩٢/٣٢٤٣، تحقيق الدكتور وصيّ الله عباس، ط بيروت ١٤٠٨.

و لَمَّا كَانَتْ فَتَوَى الْإِمَامُ ثَقِيلَهُ عَلَى مُحَقِّقِ الْكِتَابِ، أَوْ مِنْ عَلَّقَ عَلَيْهِ لِأَنَّهَا تَتَنَاقَضُ مَعَ مَا عَلَيْهِ الْوَهَابِيَّةُ وَ تَبْطُلُ أَحْلَامُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَ مِنْ لَفِّ لَفٍّ، حَاوَلَ ذَلِكَ الْكَاتِبُ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ جَوَابِ الْإِمَامِ وَ مَا عَلَيْهِ الْوَهَابِيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ، فَقَالَ:

«أَمَّا مَسَّ مِنْبَرِ النَّبِيِّ فَقَدْ أَثْبَتَ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي الْجَوَابِ الْبَاهِرِ (ص ٤١) فَعَلَهُ عَنِ ابْنِ عَمْرِو دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَ رَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنُفِ (١٢١ / ٤) عَنْ زَيْدِ بْنِ الْحَبَابِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مَوْدُودَ قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ قَسِيْطٍ قَالَ: رَأَيْتُ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ إِذَا خَلَا لَهُمُ الْمَسْجِدَ قَامُوا إِلَى زَمَانِهِ الْمَنْبَرِ الْقِرْعَاءَ فَمَسَحُوهَا، وَ دَعَوْا قَالَ: وَ رَأَيْتُ يَزِيدَ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وَ هَذَا لَمَّا كَانَ مِنْبَرُهُ الَّذِي لَامَسَ جِسْمَهُ الشَّرِيفَ، أَمَّا الْآنَ بَعْدَ مَا تَغَيَّرَ لَا يُقَالُ بِمَشْرُوعِيَّةٍ مَسَحَهُ تَبْرَكًا بِهِ».

وَ يَلَاظُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ: بَعْدَ وَجُودِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ مَا نَقَلَ عَنِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ مِنْ تَخْصِيصِ الْمَسِّ بِمَنْبَرِ النَّبِيِّ بِابْنِ عَمْرِو، وَ مَا نَقَلَهُ عَنِ الْمَصْنُفِ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مَسْحِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ رَمَانَهُ الْمَنْبَرِ:

أَوَّلًا: لَوْ كَانَ جَوَازَ الْمَسِّ مَخْتَصًّا بِالْمَنْبَرِ الَّذِي لَامَسَهُ جِسْمُ النَّبِيِّ الشَّرِيفِ دُونَ مَا لَا يَمَسُّ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ الْمَفْتَى أَنْ يَذْكَرَ الْقَيْدَ، وَ لَا يُطْلَقَ كَلَامُهُ، حَتَّى وَ لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ الْمَنْبَرِ الْمَوْجُودَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ فِي عَصْرِهِ كَانَ نَفْسَ الْمَنْبَرِ الَّذِي لَامَسَهُ جِسْمُ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، وَ هَذَا لَا يَغِيبُ عَنِ ذَهْنِ الْمَفْتَى، إِذْ لَوْ كَانَ تَقْيِيلُ أَحَدِ الْمَنْبَرَيْنِ نَفْسَ التَّوْحِيدِ، وَ تَقْيِيلُ الْمَنْبَرِ الْآخَرَ عَيْنَ الشَّرْكَ، لَمَا جَازَ لِلْمَفْتَى أَنْ يَغْفَلَ التَّقْسِيمَ وَ التَّصْنِيفَ.

وَ ثَانِيًا: أَنَّ مَا يَفْسُدُهُ هَذَا التَّحْلِيلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَصْلِحُهُ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ لَجِسْمَهُ الشَّرِيفَ تَأْثِيرًا فِي الْمَنْبَرِ وَ مَا تَبْرَكَ بِهِ، وَ هَذَا يَنَاقِضُ التَّوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّ مِنْ أَنَّهُ لَا مَوْثُرَ فِي الْكُونِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ يَعْتَرَفُ الْوَهَابِيُّ بِأَنَّ لَجِسْمَهُ الشَّرِيفَ فِي الْجَسْمِ الْجَامِدِ تَأْثِيرًا وَ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِهِ عِبْرَ الْقُرُونِ.

ثم إنَّ المعلق استثنى مسَّ قبر النبي صلى الله عليه وآله والتبرُّك به، و منعهما و قال فى وجهه:

«و أمّا جواز مسِّ قبر النبيّ و التبرُّك به فهذا القول غريب جداً لم أرَ أحداً نقله عن الإمام، و قال ابن تيمية فى الجواب الباهر لزوار المقابر (ص ٣١): اتَّفَق الأئمة على أنه لا يمسُّ قبر النبيّ و لا يقبله، و هذا كلّه محافظه على التوحيد؛ فإنَّ من أصول الشرك بالله اتِّخاذ القبور مساجد» (١).

لكن يلاحظ عليه: كيف يقول: لم أجد أحداً نقله عن الإمام، أو ليس ولده أبو عبد الله راويه أبيه و كتبه يروى هذه الفتوى؟ و هو ثقة عند الحنابلة!

و أمّا التفريق بين مسِّ المنبر و القبر بجعل الأوّل نفس التوحيد، و الثانى أساس الشرك، فمن غرائب الأمور؛ لأنَّ الأمرين يشتركان فى التوجّه إلى غير الله سبحانه، فلو كان هذا محور الشرك، فالموضوعات سيّان، و إن فرّق بينهما بأنّ الماسّ ينتفع بالأوّل دون الثانى لعدم مسِّ جسده بالثانى فلازمه كون الأوّل نافعاً و الثانى أمراً باطلاً دون أن يكون شركاً.

و لو رجع المحقّق إلى الصحاح و المسانيد و كتب السيره و التاريخ، لوقف على أنّ التبرُّك بالقبر و مسّه، كان أمراً رائجاً بين المسلمين فى عصر الصحابه و التابعين، و لأجل إيقاف القارئ على صحّه ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:

١- إنّ فاطمه الزهراء سيده نساء العالمين بنت رسول الله حضرت عند قبر أبيها صلى الله عليه وآله و أخذت قبضه من تراب القبر تشمه و تبكى و تقول:

ما ذا على من شمّ ترابه أحمد ألاً يشمّ مدى الزمان غواليا

صُبَّت علىّ مصائب لو أنّها صُبَّت على الأيّامِصرن لياليا (٢)

١- تعليقه المحقّق، نفس الصفحه.

٢- لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم: السمهودى فى وفاء الوفا ٢: ٤٤٤؛ و الخالدى فى صلح الاخوان: ٥٧، و غيرهما.

إِنَّ هَذَا التَّصَرَّفَ مِنَ السَّيِّدِ الزَّهْرَاءِ الْمُعْصُومَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ التَّبَرُّكِ بِقَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَتَرْبَتِهِ الطَّاهِرِهِ.

٢- إِنَّ بِلَالًا- مُؤَدِّنَ رَسُولِ اللَّهِ- أَقَامَ فِي الشَّامِ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

«مَا هَذِهِ الْجَفْوَةُ يَا بِلَالُ؟ أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنِي يَا بِلَالُ؟»

فَانْتَبَهَ حَزِينًا وَجَلًّا خَائِفًا، فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَقَصَدَ الْمَدِينَةَ فَأَتَى قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي عِنْدَهُ وَيَمْرَغُ وَجْهَهُ عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ فَجَعَلَ يَضْمَهُمَا وَيَقْبَلُهُمَا... إِلَى آخِرِ الْخَبَرِ «(١)».

١- أُسْدُ الْغَابَةِ ١: ٢٨، وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَصَادِرِ.

المسأله الثانيه: حصر الاستعانه فى الله

المسأله الثانيه: حصر الاستعانه فى الله

اشاره

هذه هى المسأله الثانيه التى طرحه فىصدر المقال و قلنا: إن المسلمين فى أقطار العالم يحصرون الاستعانه فى الله سبحانه و مع ذلك يستعينون بالأسباب العاديه، جرياً على القاعده السائده بين العقلاء، و لا يرونه مخالفاً للحصر، كما أن المتوسّمين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم فى مشاهدتهم و مزاراتهم، و لا يرون ذلك تعارضاً مع حصر الاستعانه بالله سبحانه، و ذلك لأن الاستعانه بغير الله يمكن أن تتحقق بصورتين:

١- أن نستعين بعامل - سواء أ كان طبيعياً أم غير طبيعى - مع الاعتقاد بأنّ عونهُ مستند إلى الله، بمعنى أنّهُ قادر على أن يعين العباد و يزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبه من الله و إذنه.

و هذا النوع من الاستعانه - فى الحقيقه - لا - ينفك عن الاستعانه بالله ذاته، لأنّه ينطوى على الاعتراف بأنّه هو الذى منح تلك العوامل ذلك الأثر، و أذن بها، و إن شاء سلبها و جرّدها منه.

فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعيه كالشمس و الماء و حرث الأرض، فقد

استعان بالله- فى الحقيقه- لأنه تعالى هو الذى منح هذه العوامل القدره على إنماء ما أودع فى بطن الأرض من بذر و من ثم إنباته و الوصول به إلى حد الكمال.

٢- و إذا استعان بإنسان أو عامل طبيعى مع الاعتقاد بأنه مستقل فى وجوده، أو فى فعله عن الله، فلا شك أن ذلك الاعتقاد يصير شركاً، و الاستعانه به عباده.

فإذا استعان زارع بالعوامل المذكوره و هو يعتقد بأنها مستقلة فى تأثيرها أو أنها مستقلة فى وجودها و مادتها كما فى فعلها و قدرتها، فالاعتقاد شرك، و الطلب عباده.

و بذلك يظهر أن الاستعانه المنحصره فى الله المنصوص عليها فى قوله تعالى «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» هى الاستعانه بالمعونه المستقلة التابعه من ذات المستعان به، غير المتوقفه على شىء، فهذا هو المنحصر فى الله تعالى، و أما الاستعانه بالإنسان الذى لا يقوم بشىء إلا بحول الله و قوته و إذنه و مشيئته، فهى غير منحصره بالله سبحانه، بل إن الحياه قائمه على هذا الأساس؛ فإن الحياه البشريه مليئه بالاستعانه بالأسباب التى تؤثر و تعمل بإذن الله تعالى.

و على ذلك لا مانع من حصر الاستعانه فى الله سبحانه بمعنى، و تجويزها بغيره بمعنى آخر و هو ما له نظر فى الكتاب العزيز.

و لإيقاف القارئ على هذه الحقيقه نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونيه فى الله تاره، مع أنها تنسب نفس الأفعال فى آيات أخرى إلى غير الله أيضاً، و ما هذا إلا لعدم التنافى بين النسبتين لاختلاف نوعيتهما فهى محصوره فى الله سبحانه مع قيد الاستقلال، و مع ذلك تنسب إلى غير الله مع قيد التبعية و العرضيه.

الآيات التى تنسب الظواهر الكونيه إلى الله و إلى غيره:

١- يقول سبحانه: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (١). بينما يقول سبحانه فى

العسل: «شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» (١).

٢- يقول سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ» (٢) بينما يقول: «وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا» (٣).

٣- يقول سبحانه: «أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّازِعُونَ» (٤). بينما يقول سبحانه: «يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» (٥).

٤- يقول تعالى: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ» (٦). بينما يقول سبحانه: «بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَهُمْ يَكْتُبُونَ» (٧).

٥- يقول تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (٨). بينما يقول سبحانه:

«فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» (٩).

٦- يقول سبحانه: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» (١٠). بينما يقول: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ» (١١).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونية تاره إلى الله، و تاره إلى غيره تعالى.

١- النحل: ٦٩.

٢- الذاريات: ٥٨.

٣- النساء: ٥.

٤- الواقعة: ٦٤.

٥- الفتح: ٢٩.

٦- النساء: ٨١.

٧- الزخرف: ٨٠.

٨- يونس: ٣.

٩- النازعات: ٥.

١٠- الزمر: ٤٢.

١١- النحل: ٣٢.

و الحل أن يقال: إنَّ المحصور بالله تعالى هو انتساب هذه الأمور على نحو الاستقلال، و أمّا المنسوب إلى غيره فهو على نحو التبعية، و بإذنه تعالى، و لا تعارض بين النسبتين، و لا بين الاعتقاد بكليهما.

فمن اعتقد بأنَّ هذه الظواهر الكونية مستنده إلى غير الله على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئاً و لا مشركاً، و كذا من استعان بالنبى أو الإمام على هذا الوجه.

هذا مضافاً إلى أنه تعالى الذى يعلمنا أن نستعين به فنقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» يحثنا فى آيه أخرى على الاستعانه بالصبر و الصلاه فيقول: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ» (١) و ليس الصبر و الصلاه إلّا فعل الإنسان نفسه.

حصيلة البحث:

إنَّ الآيات الواردة حول الاستعانه عليصنفين:

الصنف الأول: يحصر الاستعانه فى الله فقط و يعتبره الناصر و المعين الوحيد دون سواه.

و الصنف الثانى: يدعونا إلى سلسله من الأمور المعينه (غير الله) و يعتبرها ناصر و معينه، إلى جانب الله.

أقول: أتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، و تبين أنه لا تعارض بين الصنفين مطلقاً، إلّا أن فريقاً نجدهم يتمسكون بالصنف الأول من الآيات فيخطئون أى نوع من الاستعانه بغير الله، ثم يضطرون إلى إخراج (الاستعانه بالقدره الإنسانيه و الأسباب الماديه) من عموم تلك الآيات الحاصره للاستعانه بالله بنحو التخصيص، بمعنى أنهم يقولون:

إنَّ الاستعانه لا تجوز إلّا بالله إلّا فى الموارد التى أذن الله بها، و أجاز أن يستعان

فيها بغيره، فتكون الاستعانه بالقدرة الإنسانيه و العوامل الطبيعیه- مع أنّها استعانه بغير الله- جائزه و مشروعه على وجه التخصيص، و هذا ممّا لا يرتضيه الموحّد.

فى حين أنّ هدف الآيات هو غير هذا تماماً؛ فإنّ مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد و هو: عدم الاستعانه بغير الله، و أنّ الاستعانه بالعوامل الأخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانه فى الله، بل تكون بحيث تعدّ استعانه بالله لا استعانه بغيره.

و بتعبير آخر: إنّ الآيات تريد أن تقول: بأنّ المعين و الناصر الوحيد و الذى يستمدّ منه كلّ معين و ناصر قدرته و تأثيره، ليس إلّا الله سبحانه، و لكنّه- مع ذلك- أقام هذا الكون على سلسله من الأسباب و العلل التى تعمل بقدرته و أمر باستمداد الفرع من الأصل، و لذلك تكون الاستعانه به كالأستعانه بالله؛ ذلك لأنّ الاستعانه بالفرع استعانه بالأصل.

و إليك فيما يلى إشاره إلى بعض الآيات من الصنفين:

«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (١).

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (٢).

«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٣).

هذه الآيات نماذج من الصنف الأول، و إليك فيما يأتى نماذج من الصنف الآخر الذى يدعونا إلى الاستعانه بغير الله من العوامل و الأسباب:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» (٤).

١- آل عمران: ١٢٦.

٢- الحمد: ٥.

٣- الأنفال: ١٠.

٤- البقره: ٤٥.

«وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى» (١).

«مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» (٢).

«وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَاعَلَيْكُمْ النَّصْرُ» (٣).

و مفتاح حلّ التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه، و ملخصه:

إنّ في الكون مؤثراً تاماً، و مستقلاً واحداً، غير معتمد على غيره لا في وجوده و لا في فعله و هو الله سبحانه، و أمّا العوامل الأخر فجميعها مفتقره- في وجودها و فعلها- إليه و هي تؤدّي ما تؤدّي بإذنه و مشيئته و قدرته، و لو لم يعط سبحانه تلك العوامل ما أعطاه من القدره و لم تجر مشيئته على الاستمداد منها لما كانت لها أيّه قدره على شىء.

فالمعين الحقيقي في كلّ المراحل- على هذا النحو تماماً- هو الله، فلا يمكن الاستعانه بأحد باعتباره معيناً مستقلاً. لهذه الجبهه حصر هنا الاستعانه في الله وحده، و لكن هذا لا يمنع بتاتاً من الاستعانه بغير الله باعتباره غير مستقلّ (أى باعتباره معيناً بالاعتماد على القدره الإلهيه) و معلوم أنّ استعانه- كهذه- لا تنافى حصر الاستعانه في الله سبحانه لسببين:

أولاً: لأنّ الاستعانه المخصوصه بالله هي غير الاستعانه بالعوامل الأخرى؛ فالاستعانه المخصوصه بالله هي: ما تكون باعتقاد أنّه قادر على إعانتنا بالذات، و بدون الاعتماد على غيرها، في حين أنّ الاستعانه بغير الله سبحانه إمّا هي على نحو آخر أى مع الاعتقاد بأنّ المستعان قادر على الإعانه مستنداً على القدره الإلهيه،

١- المائدة: ٢.

٢- الكهف: ٩٥.

٣- الأنفال: ٧٢.

لا بالذات، و بنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة - على النحو الأول - خاصه بالله تعالى، فإن ذلك لا يدل على أن الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصه به أيضاً.

ثانياً: إن استعانه - كهذه - غير منفك عن الاستعانه بالله، بل هي عين الاستعانه به تعالى، و ليس في نظر الموحّد (الذي يرى أن الكون كلّ من فعل الله و مستنداً إليه) مناص من هذا.

و أخيراً نذكر القارئ الكريم بأن مؤلف المنار حيث إنّه لم يتصوّر للاستعانه بالأرواح إلّا صورته واحده لذلك اعتبرها ملازمه للشرك فقال:

«و من هنا تعلمون: إن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة و القبور على قضاء حوائجهم و تيسير أمورهم و شفاء أمراضهم و نماء حرثهم و زرعهم، و هلاك أعدائهم و غير ذلك من المصالح هم عنصر الطوحيد ناكبون، و عن ذكر الله معرضون» (١).

و يلاحظ عليه: أن الاستعانه بغير الله (كالاستعانه بالعوامل الطبيعيه) على نوعين:

إحداهما عين التوحيد، و الأخرى موجه للشرك؛ إحداهما مذكّره بالله، و الأخرى مبعده عن الله.

إن حدّ التوحيد و الشرك ليس هو كون الأسباب ظاهريه أو غير ظاهريه، و إنّما هو استقلال المعين و عدم استقلاله. و بعبارة أخرى المقياس: هو الغنى و الفقر، هو الأصاله و عدم الأصاله.

إن الاستعانه بالعوامل غير المستقله المستنده إلى الله، التي لا تعمل و لا تؤثر إلّا بإذنه تعالى غير موجه للغفله عن الله، بل هو خير موجه، و مذكّر بالله. إذ معناها:

انقطاع كلّ الأسباب و انتهاء كلّ العلل إليه.

و مع هذا كيف يقول صاحب المنار: «أولئك عن ذكر الله معرضون»؟ و لو كان هذا النوع من الاستعانه موجبا لنسيان الله و الغفله عنه للزم أن تكون الاستعانه بالأسباب الماديه الطبيعیه هي أيضاً موجبه للغفله عنه.

على أن الأعجب من ذلك هو شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذى نقل - فى هذا المجال - نصّ كلمات عبده دون زياده و نقصان، و ختم المسأله بذلك، و أخذ بالحصر فى «إِيَّاكَ نَسِيْتَعِينُ» غافلاً عن حقيقه الآيه و عن الآيات الأخرى المتعرضه لمسأله الاستعانه (١).

إجابه على سؤال

إذا كانت الاستعانه بالغير على النحو الذى بيّناه جائزه فهى تستلزم نداء أولياء الله و الاستغاثه بهم فى الشدائد و المكاره، و هى غير جائزه؛ و ذلك لأنّ نداء غير الله فى المصائب و الحوائج تشريك الغير مع الله، يقول سبحانه: «وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (٢) و يقول تعالى: «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصِيرَكُمْ وَ لَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (٣) و يقول عزّ من قائل: «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (٤). إلى غير ذلك من الآيات التى تخصّ الدعاء لله و لا تسيع دعوه غيره.

و قد طرح هذا السؤال الشيخ الصنعانى حيث قال: و قد سمى الله الدعاء عباده بقوله: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» (٥) فمن هتف

١- راجع تفسير شلتوت: ٣٦-٣٩.

٢- الجن: ١٨.

٣- الأعراف: ١٩٧.

٤- فاطر: ١٣.

٥- سوره غافر: ٦٠.

باسم نبي أو صالح بشيء فقد دعا النبي و الصالح، و الدعاء عباده بل مٌخها، فقد عبد غير الله و صار مشركاً «(١)».

الجواب:

إنَّ النقطه الحاسمه فى الموضوع تكمن فى تفسير الدعاء و هل كل دعاء، عباده و بينهما من النسب الأربع هى التساوى حتى يصح لنا أن نقول كل دعاء عباده، و كل عباده دعاء، أو أن الدعاء أعم من العباده و أن قسماً من الدعاء عباده و قسماً منه ليس كذلك؟ و الكتاب العزيز يوافق الثانى لا الأول، و إليك التوضيح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء فى مواضع عديده، و لا يصح وضع لفظ العباده مكانه، يقول سبحانه حاكياً عن نوح: «رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِنِإْمَا وَ نَهَاراً» (٢) و قال سبحانه حاكياً عن لسان إبليس فى خطابه للمذنبين يوم القيامة: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» (٣) إلى غيرهما من الآيات التى ورد فيها لفظ الدعاء، أ فصح القول بأن نوحاً دعا قومه أى عبدهم، أو أن الشيطان دعا المذنبين أى عبدهم؟ كل ذلك يحفزنا إلى أن نقف فى تفسير الدعاء وقفه تمنع حتى نميز الدعاء الذى هو عباده عما ليس كذلك.

و الإمعان فيما تقدم فى تفسير العباده يميز بين القسمين؛ فلو كان الداعى و المستعين بالغير معتقداً بألوهيه المستعان و لو ألوهيه صغيره كان دعاؤه عباده، و لأجل ذلك كان دعاء عبده الأصنام عباده؛ لاعتقادهم بألوهيتها، قال سبحانه:

«فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» (٤).

١- تنزيه الاعتقاد كما فى كشف الارتباب: ٢٨٤.

٢- نوح: ٥.

٣- إبراهيم: ٢٢.

٤- هود: ١٠١.

و ما ورد من الآيات فى السؤال كلها من هذا القبيل؛ فإنها وردت فى حق المشركين القائلين بألوهية أصنامهم و أوثانهم باعتقاد استقلالهم فى التصرف و الشفاعة و تفويض الأمور إليهم و لو فى بعض الشئون. ففى هذا المجال يعود كل دعاء عباده، و يفسر الدعاء فى الآيات الماضيه و التاليه بالعباده، قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ» (١). «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لَا تَحْوِيلًا» (٢). «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» (٣). «وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ» (٤). «إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ» (٥). و ما ورد فى الأثر من أن الدعاء مُيخَّ العباده، أريد منه دعاء الله أو دعاء الآلهه لا مطلق الدعاء و إن كان المدعو غير إله لا حقيقة أو اعتقاداً.

و فى روايات أئمه أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين فى ضمن دعائه: «... فسَمَّيتَ دعاءك عباده و تركه استكباراً و توعدت على تركه دخول جهنم داخرين» (٦) و هو يشير فى كلامه هذا إلى قوله سبحانه: «وَ قَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (٧).

١- الأعراف: ١٩٤.

٢- الإسراء: ٥٦.

٣- الإسراء: ٥٧.

٤- يونس: ١٠٦.

٥- فاطر: ١٤.

٦- الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم ٤٥.

٧- غافر: ٦٠.

هذا هو الدعاء المساوى للعباده، و هناك قسم آخر منه لاصله بينه و بين العباده، و هو فيما إذا دعا شخصاً بما أنه إنسان و عبد من عباد الله غير أنه قادر على إنجاز طلبه بإقدار منه تعالى و إذن منه، فليس مثل هذه الدعوه عباده، بل سنه من السنن الإلهيه فى الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوماً مضطهدين يطلبون منه أن يجعل بينهم و بين يأجوج و مأجوج سداً فعند ذلك يخاطبهم ذو القرنين بقوله: «ما مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا» (١) و ها هو الذى من شيعه موسى يستغيث به، يقول سبحانه: «فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ» (٢) و هذا هو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يدعو قومه للذب عن الإسلام فى غزوه أحد و قد تولوا عنه، قال سبحانه: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ» (٣) فهذا النوع من الدعاء قامت عليه الحياه البشريه، فليس هو عباده، و إنما هو توسل بالأسباب، فإن كان السبب قادراً على إنجاز المطلوب كان الدعاء أمراً عقلاً و إلا يكون لغواً و عبثاً.

ثم إن القائلين بأن دعاء الصالحين عباده، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآيات و ما تقتضيه الحياه الاجتماعيه، يتشبثون بكل طحلب حتى ينجيهم من الغرق و يقولون إن هذه الآيات تعود على الأحياء و لاصله لها بدعاء الأموات، فكون القسم الأول جائزاً و أنه غير عباده؛ لا يلازم جواز القسم الثانى و كونه غير عباده.

و لكن عزب عن هؤلاء أن الحياه و الموت ليسا حدّين للتوحيد و الشرك و لا ملاكين لهما، بل هما حدّان لكون الدعاء مفيداً أو لا، و بتعبير آخر ملاكان للجدوائيه و عدمها.

١- الكهف: ٩٥.

٢- القصص: ١٥.

٣- آل عمران: ١٥٣.

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلاً تكون الدعوه أمراً غير مفيد لا عباده له، و من الغريب أن يكون طلب شىء من الحى نفس التوحيد و من الميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أن القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد و الشرك، بل لم يدرسوا الآيات الواردة فى النهى عن دعاء غيره، فأخذوا بحرفيه الآيات من دون تدبر مع أنه سبحانه يقول: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ» (١)».

ثم إن الكلام فى أن دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمه الله مفيد أو لا؟ يتطلب مجالاً آخر، و سوف نستوفى الكلام عنه فى بحث خاص حول وجود الصله بيننا و بين أولياء الله فى ضوء الكتاب و السنه.

الفصل الثاني: البدعه و آثارها الموبقه

اشاره

تعدّ البدعه في الدين من المعاصي الكبيره و المحرّمات العظيمه، التي دلّ على حرمتها الكتاب و السنّه، كما و أوعده صاحبها النار على لسان النبي الأكرم، و ذلك لأنّ المبتدع ينازع سلطان الله تبارك و تعالى في التشريع و التقنين، و يتدخّل في دينه و يُشرّع ما لم يشرّعه، فيزيد عليه شيئاً و ينقص منه شيئاً في مجالى العقيدته و الشريعته، كلّ ذلك افتراء على الله.

و قد بُعث النبي الأكرم بحبل الله المتين، و أمر المسلمين بالاعتصام به، و نهى عن التفريق، و قال: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» (١).

و لكن المبتدع يستهدف حبل الله المتين؛ ليوهنه و يخرجته من متانته بما يزيد عليه أو ينقص منه، و بالتالى يجعل من الأئمّه الواحده أمماً شتّى، يبغض بعضهم بعضاً و يلعن بعضهم بعضاً، فيتحوّلون إلى شيع و طوائف متفرّقين، فرائس للشيطان و أذنابه، و على شفا حفرة من النار، على خلاف ما كانوا عليه في عصر الرساله.

إنَّ المسلمين بعد رحيل الرسول تفرَّقوا إلى أُمم و مذاهبٍ مختلفه، و لم يكن ذلك إلا أثر تلاعب المبتدعين في الدين و الشريعة، بإدخال ما ليس من الدين، في الدين. و كان عملهم تحويراً لصميم العقيدة الإسلاميه و شريعته، فلولا البدعه و المبتدعون و انتحال المبتلين، لكانت الأُمَّه الإسلاميه أُمَّه واحده؛ لها سيادتها على جميع الأُمم و الشعوب في أنحاء المعموره، و ما أثنى ظهورهم إلا ديبُّ المبتدع بينهم، فشتتهم و فرَّقهم بعد ما كانوا صامدين كالجبل الأشم.

و الحروب الدمويه- التي خاضها المسلمون في عصر الخلافه و بعدها، و خضَّبت الأرض بالدماء الطاهره، و سلَّ المسلمون سيوفهم في وجه بعضهم، فسقط منهم آلاف القتلى و الجرحى على الأرض- هي من جزاء البدع النابعه عن الأهواء و الميول النفسانيه؛ حيث كانوا يتحاربون باسم الدين، و الحال أن الدين كان في جانب واحد، لا في جوانب متكثره.

إنصراط النجاه في الإسلام هو صراط واحد مستقيم دعا إليه المؤمنین عامه و قال: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١).

و أمر المسلمين أن يدعوا الله سبحانه، أن يثبتهم على هذا الصراط كي لا ينحرفوا يميناً و شمالاً كما يقول سبحانه تعليماً لعباده: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» (٢) و لكن المبتدع يسوق الناس إلى سبل منحرفه لا تنتهي إلى السعاده التي أراد الله سبحانه لعباده.

فحقَّ التشريع و التقنين لله تبارك و تعالی، و قد استأثر به و قال: «إِنَّ الْحُكْمَ

١- الأنعام: ١٥٣.

٢- الفاتحه: ٦.

إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (١). و المراد من الحكم هو التشريع بقريته قوله:

«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ». فالبدعه هو تشريك الناس في ذلك الحق المستأثر، و دفع زمام الدين إلى أصحاب الأهواء، كى يتلاعبوا في الشريعة كيفما شاءوا، و كيفما اقتضت مصلحتهم و مصلحه أسيادهم و أربابهم، فذلك الحق المستأثر يقتضى ألا يتدخل أحد في سلطان الله و حظيرته، قال سبحانه: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا» (٢).

و المبتدع يتصرف في التشريع الإسلامى فيجعل منه حلالاً و حراماً بدون إذن منه سبحانه في ذلك. يقول تعالى:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» (٣) فالآيه واردة في عمل المشركين؛ حيث جعلوا ما أنزل الله لهم من الرزق بعضه حراماً و بعضه حلالاً، فحرموا السائبه و البحيره و الوصيله و نحوها، لذا يرد عليهم سبحانه: «اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» أى أنه لم يأذن لكم فى شىء من ذلك، بل أنتم تكذبون على الله، ثم يهددهم بالعذاب فيقول: «وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» (٤). و يؤكد عليه فى آيه أخرى و يقول:

«وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» (٥).

١- يوسف: ٤٠.

٢- الأحزاب: ٣٦.

٣- يونس: ٥٩.

٤- يونس: ٦٠.

٥- النحل: ١١٦.

إِنَّ أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ حَتَّى فِي عَصْرِ الرِّسَالَةِ، كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَى النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ أَنْ يَغَيِّرَ دِينَهُ، وَيَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا، لَكِي يَكُونَ مُطَابِقاً لِمَا تَسْتَهْوِيهِ أَنْفُسُهُمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرُدَّ اقْتِرَاحَهُمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (١).

وَكَانَ فِي عَصْرِ الرِّسَالَةِ مِنْ يَتَقَدَّمُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا مَشِيئاً وَإِنَّمَا يَقْدَمُ رَأْيُهُ عَلَى الْوَحْيِ فَنَزَلَ الْوَحْيُ مُنَدِّدًا بِهِمْ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٢).

وَكَانَ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ الْمُبَقَّةِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ، وَالْبَدْعَ مِنْ أَفْحَشِ الْكُذْبِ؛ لِأَنَّهَا افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (٣). فَالْمُبْتَدِعُ يَظْهَرُ بَزِيٍّ الْمَحْقُوقِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَيَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى دُونَ أَنْ يَكْشِفَهُ النَّاسَ فَيُضِلُّهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَمِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ حَكْمًا إلهِيًّا لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ وَفَقَّ ذَلِكَ الْحَكْمَ فَهُوَ حَاكِمٌ عَادِلٌ مُعْتَمِدٌ عَلَى مَنْصَةِ الْحَقِّ، إِلَّا أَنْ الْمُبْتَدِعَ يَحْكُمُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ الْحَقِّ، لِذَلِكَ يَصِفُهُ سُبْحَانَهُ بِكَوْنِهِ كَافِرًا وَظَالِمًا وَفَاسِقًا، قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (٤).

١- يونس: ١٥.

٢- الحجرات: ١.

٣- الأنعام: ٢١.

٤- المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٦.

فما حال إنسان يحكم عليه القرآن بالكفر تاره، و الظلم ثانياً و الفسق ثالثاً؟

فهل ترجى له النجاه بعد أن أضلّ كثيراً من الناس، و شقّصوف المسلمين، و جعل السبيل الواحد سُبُلًا كثيرة تضلّهم إلى مهاوى الهالكين.

و لعلّ هذا القدر من التقديم يكفى فى بيان موضع البدعه و موقف الله تعالى من المبتدع، و لأجل ذلك نرى أنّ النبىّ الأكرم قد شدّد على البدعه أو ندّد بالمبتدع بأفصح العبارات و أبلغها كما سيّضح ذلك فى الروايات الآتية.

و قد ألّف العلماء قديماً و حديثاً كتباً و رسائل حول البدعه نذكر بعضها:

١- البدع و النهى عنها، لابن وضّاح القرطبي.

٢- الحوادث و البدع، للطرطوشى.

٣- الباعث، لأبى شامه.

٤- الاعتصام، لأبى إسحاق الشاطبى الغرناطى فى جزءين و قد أسهب الكلام فيها.

٥- البدعه أنواعها و أحكامها، لصالح بن فوزان بن عبد الله فوزان طبع الرياض.

٦- البدعه تحديدها و موقف الإسلام منها، تأليف الدكتور عبد الملك السعدى طبع بغداد.

٧- البدعه فى مفهومها الإسلامى الدقيق، تأليف الدكتور عبد الملك السعدى طبع بغداد.

٨- البدع، تأليف أبى الحسين محمّد بن بحر الرّهنى الشيبانى، ذكرها النجاشى فى رجاله برقم ١٠٤٤.

٩- البدع المحدّثه، للشريف أبو القاسم الكوفى المتوفى بفسا سنه ٣٥٢ هـ و طبع باسم الاستغاثه، فى النجف الأشرف.

١٠- البدع، تأليف الدكتور الشيخ جعفر الباقرى، و هى دراسه موضوعيه لمفهوم البدعه و تطبيقاتها على ضوء منهج أهل البيت.

و مع احترامنا و تكريمنا لجهودهم، إلّا أنّ أغلب هؤلاء الكُتّاب نظروا إلى المسأله على أساس إمام مذهبهم. فالأوّل و الثانى من هذه الكتب اعتمدا على رأى الإمام مالك رضى الله عنه كما أنّ الكتاب الخامس اتّخذ من مذهب ابن تيميه مقياساً فى حكمه، فخرج بنفس النتيجة التى خرج بها إمام مذهب.

و أمّا الإمام الشاطبى فقد أطنب و أسهب كثيراً فى تأليفه و لم يركّز على نفس البدعه تحديداً و مصداقاً.

و دراسه البدعه تتوقّف على دراسه منهجيّه غير منحازه لمذهب خاص، و هذا يتوقّف على الاجتهاد الحرّ، من دون أن يتّخذ رأى إمام محوراً، و رأى إمام آخر مسنداً، بل ينظر إلى الكتاب و السنّه و سيره المسلمين نظره عامه شموليه فاحصه.

نعم لا تفوتنا الإشارة إلى الميزه الموجوده فيما كتبه الدكتور السعدى، فقد أفاض الكلام فى الجزئيات التى ربّما وصفت بالبدعه، و أثبت بدليل قاطع كونها غير بدعه، كما لا تفوتنا الإشاده بمنهجيه البحث فى كتاب الدكتور عزّت على عطيه، و الذى نال به درجه الدكتوراه بمرتبه الشرف الأولى، و لكنّه فى بعض المواضع افتقد الشجاعه الأديبه و لم يتجرأ على تجاوز الخطوط الحمراء التى فرضتها عليه البيئه، فتراه يتوقّف فى التوسّل بالنبى صلى الله عليه و آله مع تضافر الروايات على جوازه.

و للجميع منّا الشكر الجزيل، و لكن الحقيقه بنت البحث فلا- عتب علينا إذا ناقشنا بعض آرائهم نتيجة الاجتهاد الحرّ، رزقنا الله توحيد الكلمه كما رزقنا كلمه التوحيد.

المبحث الأول نصوص البدعه فى الكتاب و السنه**اشاره**

اتفقت الأدله الشرعيه على حرمه البدعه، و قد ذكرنا فى المقدمه قسماً وافراً من الآيات الكريمه و سنأتى بذكر ما تبقى منها:

البدعه فى الكتاب

١- قال سبحانه: «و رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» (١).

فالآيه تعتبر الرهبانيه من مبتدعات الرهبان التى لم تكن مفروضه عليهم من قبل، و إنما تكلفوها من عند أنفسهم و سيوافيك تفسير الاستثناء فى مبحث تحديد البدعه.

٢- «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (٢).

١- الحديد: ٢٧.

٢- الأنعام: ١٥٩.

و قد فسّرت الآيه بأهل الضلاله و أصحاب الشبهات و البدع من هذه الأُمّه.

قال الطبرسى: «و رواه أبو هريره و عائشه مرفوعاً، و هو المروى عن الباقر عليه السلام، جعلوا دين الله أدياناً لإكفار بعضهم بعضاً و صاروا أحزاباً و فرقاً، و يخاطب سبحانه نبيه بقوله: «لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» و إنّه على المباعده التامه من أن يجتمع معهم فى معنى من مذاهبهم الفاسده، و ليس كذلك بعضهم مع بعض؛ لأنهم يجتمعون فى معنى من معانيهم الباطله، و إن اختلفوا فى شىء فليس منهم فى شىء؛ لأنه برىء من جميعهم» (١).

٣- «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَ لَكُمْ شِيْعًا وَ يُدِيقَ بَعْضَ كُمْ بِأَسْبَعْضٍ» (٢).

و الآيه بعموم لفظها تبين أنواع النذر التى أنذر الله بها عباده، فتبدأ من بعث العذاب من فوق، إلى بعثه من تحت الأرجل، و تنتهى بتمزيق الجماعه إلى شيع، فتفرق الأُمّه إلى فرق و شيع يعادل إنزال العذاب عليها من كل جهاتها. قال الحسن البصرى: «التهديد بإنزال العذاب و الخسف يتناول الكفار، و قوله: «أَوْ يَلْبَسُ لَكُمْ شِيْعًا» يتناول أهل الصلاه» (٣).

و قال مجاهد و أبو العالیه: إن الآيه لأُمّه محمد صلى الله عليه و آله، أربع؛ ظهر اثنتان بعد وفاه رسول الله فالبسوا شيعاً و أذيق بعضهم بأس بعض و بقيت اثنتان (٤).

٤- «اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (٥).

١- مجمع البيان ٢: ٣٨٩.

٢- الأنعام: ٦٥.

٣- المصدر نفسه ٢: ٣١٥.

٤- الاعتصام ٢: ٦١.

٥- التوبه: ٣١.

يظهر ممّا رواه الطبري وغيره أنّهم كانوا مشركين في مسألة التقنين، روى عن الضحاك: «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ» أى قرّاءهم و علماءهم «أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعنى سادهم لهم من دون الله، يُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْاصِي اللَّهِ، فَيُحَلِّونَ مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِمَّا قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيُحَرِّمُونَ مَا يَحَرِّمُونَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا قَدْ أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُمْ.

و روى أيضاً عن عدى بن حاتم قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو يقرأ في سورة براءة: «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال: قلت: يا رسول الله إنّنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحَرِّمُونَ ما أحلَّ الله فتحرمونه، و يُحَلِّونَ ما حرّم الله فتحلّونه؟» قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» (١)

البدعه في السنه

روى الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله حول البدعه و التشديد عليها روايات كثيره نقتبس منها ما يلي:

١- روى الإمام أحمد عن جابر قال: خطبنا رسول الله فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: «أما بعد فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، و إنّ أفضل الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ بدعه ضلاله» (٢)

٢- روى أيضاً عن جابر قال: كان رسول الله يقوم فيخطب فيحمد الله و يُثنى عليه بما هو أهله و يقول: «من يهد الله فلا مضلّ له، و من يضلل فلا هادي له، إنّ خير الحديث كتاب الله و خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ محدثه بدعه» (٣)

٣- روى أيضاً عن عرباض بن ساريه قال: صلّى بنا رسول الله الفجر ثمّ أقبل

١- الطبري، التفسير ١٠: ٨٠-٨١.

٢- مسند أحمد ٣: ٣١٠، بيروت، دار الفكر.

٣- المصدر نفسه: ص ٣٧١.

علينا فوعظنا موعظه بينه، قال: «أوصيكم بتقوى الله... وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثه بدعه، و كل بدعه ضلاله»
 ﴿١﴾

٤- روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله: كان رسول الله إذا خطب احمرت عيناه ثم يقول: «أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كل بدعه ضلاله» ﴿٢﴾

٥- روى مسلم في صحيحه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا خطب احمرت عيناه و علاصوته، و اشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: «صبحكم و مساءكم، و يقول:

بُعِثْتُ أنا و الساعه كهاتين، و يقرن بين إصبعيه: السبابه و الوسطى، و يقول: أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كل بدعه ضلاله، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، و من ترك ديناً أو ضياعاً فالى و على» ﴿٣﴾

٦- روى النسائي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى خطبته: «نحمد الله و نشنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: من يهدى الله فلا مضلّ له، و من يضلّ فلا هادى له، إن أصدق الحديث كتاب الله، و أحسن الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كل محدثه بدعه، و كل بدعه ضلاله و كل ضلاله فى النار، ثم يقول: بعثت أنا و الساعه كهاتين، و كان إذا ذكر الساعه احمرت وجنتاه، و علاصوته، و اشتد غضبه، كأنه نذير جيش، يقول: صبحكم و مساءكم، ثم قال: من ترك مالاً فلأهله، و من ترك ديناً أو ضياعاً فالى، (أو على) و أنا أولى بالمؤمنين» ﴿٤﴾

١- المصدر نفسه ٤: ١٢٦؛ و لاحظ أيضاً ص ١٢٧، و لاحظ البحار ٢: ٢٦٣ فقد جاءت فيها نفس النصوص و فى ذيلها: و كل ضلاله فى النار.

٢- سنن ابن ماجه ج ١، الباب ٧، باب اجتناب البدع، الحديث ٤٥، ط دار إحياء التراث العربى ١٣٩٥ هـ.

٣- جامع الأصول ٥: الفصل الخامس، الخطبه رقم ٣٩٧٤.

٤- المصدر نفسه.

٧- روى ابن ماجه: قال رسول الله: «لا يقبل الله لصاحب بدعه صوماً ولا صلاة ولا صدقه ولا حجاً ولا عمره ولا جهاداً» (١)

٨- قال رسول الله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٢)

قال الشاطبي: وهذا الحديث عدّه العلماء ثلث الإسلام؛ لأنه جمع وجوه المخالفه لأمره عليه السلام ويستوى في ذلك ما كان بدعه أو معصيه (٣).

٩- روى مسلم عن أبي هريره قال: قال رسول الله: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (٤)

١٠- روى مسلم عن جرير بن عبد الله: «من سنّ في الإسلام سنّه حسنه فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شىء؛ ومن سنّ في الإسلام سنّه سيئه فعمل بها بعده، كتب له مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شىء» (٥)

١١- روى مسلم عن حذيفه أنه قال: يا رسول الله هل بعد هذا الخير شرّ؟

قال: «نعم، قوم يستنون بغير سنّتي ويهتدون بغير هداى...» (٦)

١٢- روى مالك في الموطأ من حديث أبي هريره: أن رسول الله خرج إلى المقبره فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون- إلى أن قال:- فليُذادَنَّ رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضالّ، أناديهم ألا هلمّ! ألا

١- ابن ماجه، السنن ١: ١٩.

٢- مسلم، الصحيح ٥: ١٣٣ كتاب الأفضيه الباب ٨؛ مسند أحمد ٦: ٢٧٠.

٣- الاعتصام ١: ٦٨.

٤- مسلم، الصحيح ٨: ٦٢ كتاب العلم؛ ورواه البخارى فى الصحيح ج ٩: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

٥- مسلم، الصحيح ٨: ٦١ كتاب العلم.

٦- مسلم، الصحيح ٥: ٢٠٦ كتاب الإيماره.

هَلَمْ! أَلَا هَلَمْ! فيقال: إنَّهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: فسحقاً! فسحقاً! «(١)»

و عموم اللفظ يشمل أهل البدع أيضاً. وإن لم يرتدوا عن الدين.

نكتفى بهذا القدر من الأحاديث التي رواها الحفاظ من المحدثين من هذا الطريق، و أمَّا ما رواه أصحابنا عن النبي الأكرم أو عن أئمة أهل البيت فكثير و ربما تكون هناك وحده في المعنى و اختلاف جزئي في التعبير:

١٣- روى الكليني عن محمد بن جمهور رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله» «(٢)»

١٤- و بهذا الاسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أتى ذا بدعه فعظمه فإنما يسعى في هدم الإسلام» «(٣)»

١٥- و بهذا الاسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبى الله لصاحب البدعه التوبه» قيل: يا رسول الله و كيف ذلك؟ قال: «إنه قد اشرب قلبه حبها» «(٤)»

١٦- روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «أيها الناس إنما يبدأ وقوع الفتن، أهواء تُتبع، و أحكام تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله، يتولَّى فيها رجال رجالاً، فلو أن الباطل خلس من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، و لو أن الحق خلس من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث، فيمزجان فهناك يستولى الشيطان على أوليائه، و ينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنی» «(٥)».

١٧- روى الحسن بن محبوب رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن من

١- الموطأ، كتاب الطهارة، الحديث ٢٨، باب جامع الوضوء؛ مسلم، الصحيح ١: ١٥٠ كتاب الطهارة.

٢- ٥ الكافي ١: ٥٤-٥٥ ح ٢ و ٣ و ٤ و ١ باب البدع. و لفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغه الخطبه ٥٠، دون الكافي لكونه أتم.

٣- الكافي ١: ٥٤-٥٥ ح ٢ و ٣ و ٤ و ١ باب البدع. و لفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغه الخطبه ٥٠، دون الكافي لكونه أتم.

- ٤- الكافي ١: ٥٤-٥٥ ح ٢ و ٣ و ٤ و ١ باب البدع. و لفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغه الخطبه ٥٠، دون الكافي لكونه أتم.
- ٥- الكافي ١: ٥٤-٥٥ ح ٢ و ٣ و ٤ و ١ باب البدع. و لفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغه الخطبه ٥٠، دون الكافي لكونه أتم.

أبغض الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ لرجلين: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعه، قد لهج بالصوم و الصلاة فهو فتنه لمن افتتن به، ضالَّ عن هدى من كان قبله، مضلَّ لمن اقتدى به في حياته و بعد موته، حمَّال خطايا غيره، رهن بخطيئته» [\(١\)](#)

١٨- روى عمر بن يزيد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا تصحبوا أهل البدع و لا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

المرء على دين خليله و قرينه» [\(٢\)](#)

١٩- و روى داود بن سرحان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: إذا رأيتم أهل الريب و البدع من بعدى فأظهروا البراءة منهم، و أكثروا من سبهم و القول فيهم و الوقيع...» [\(٣\)](#)

٢٠- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما اختلفت دعوتان إلَّا كانت إحداهما ضلالة» [\(٤\)](#).

٢١- و قال عليه السلام: «ما أحدثت بدعه إلَّا ترك بها سنَّه، فاتَّقوا البدع و ألزموا المهيع، إنَّ عوازم الامور أفضلها، و إنَّ محدثاتها شرارها» [\(٥\)](#)

٢٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: «من تبسَّم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه» [\(٦\)](#).

٢٣- قال عليه السلام: «من مشى إليصاحب بدعه فوقَّره فقد مشى في هدم الإسلام» [\(٧\)](#)

. و قد روى أيضاً باختلاف يسير «مضى» (تحت رقم ١٤).

١- الكافي ١: ٥٥ ح ٦ باب البدع.

٢- و ٣ الكافي ٢: ٣٧٥.

٣- الكافي ٢: ٣٧٥.

٤- و ٥ البحار ٢: ٢٦٤ الحديث ١٤ و ١٥؛ و لاحظ أيضاً ٣٦: ٢٨٨ - ٢٨٩.

٥- البحار ٢: ٢٦٤ الحديث ١٤ و ١٥؛ و لاحظ أيضاً ٣٦: ٢٨٨ - ٢٨٩.

٦- البحار ٨: ٢٣ الطبعه القديمه و ٤٧: ٢١٧.

٧- البحار ٢: ٣٠٤ ح ٤٥.

٢٤- روى مرفوعاً عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يقول: «عليكم بسنّته، فعمل قليل في سنّته خير من عمل كثير في بدعه» [\(١\)](#)

٢٥- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إذا رأيت مصاحب بدعه فاكفّهروا في وجهه؛ فإنّ الله ليبيغض كلّ مبتدع، ولا يجوز أحد منهم على الصراط، ولكن يتهافتون في النار مثل الجراد والذباب» [\(٢\)](#)

٢٦- وقال صلى الله عليه وآله: «من غشّ أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» قالوا: يا رسول الله وما الغشّ؟ قال: «أن يبتدع لهم بدعه فيعملوا بها» [\(٣\)](#)

و للإمام على عليه السلام في نهج البلاغه وراء ما نقلناه كلمات دُرِّيّه في ذمّ البدعه، نقتبس ما يلي:

٢٧- «فاعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى و هدى فأقام سنّته معلومه، و أمات بدعه مجهوله... و إنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ و ضلّ به، فأمات سنّته مأخوذه و أحبى بدعه متروكه» [\(٤\)](#)

٢٨- و قال: «أوّه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، و تدبّروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّته و أماتوا البدعه» [\(٥\)](#)

٢٩- و قال أيضاً: «و إنّما الناس رجالان: متّبع شرعه، و مُبتدع بدعه» [\(٦\)](#)

٣٠- و قال: «طوبى لمن ذلّ في نفسه و طاب كسبه- إلى أن قال:- و عزل عن

١- البحار ٢: ٢٦١ ح ٣.

٢- و ٣ جامع الأصول ٩: ٥٦٦؛ كنز العمال ١: ١١١٨/٢٢١ و يشتمل الأخير على أحاديث لم نذكرها و قد بثّها في الأجزاء التاليه من كتابه: ٨، ١٥، ٧، ١١، ٢، ٣ فلاحظ.

٣- جامع الأصول ٩: ٥٦٦؛ كنز العمال ١: ١١١٨/٢٢١ و يشتمل الأخير على أحاديث لم نذكرها و قد بثّها في الأجزاء التاليه من

كتابه: ٨، ١٥، ٧، ١١، ٢، ٣ فلاحظ.

٤- نهج البلاغه: الخطبه ١٦٤.

٥- المصدر نفسه: الخطبه ١٨٢.

٦- المصدر نفسه: الخطبه ١٧٦.

الناس شرّه وَ وَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ» (١)

هذا قسم ممّا وقفنا عليه من الروايات، وهى كثيره يفوتنا حصرها. و قد نقل الشاطبى قسماً وافراً من كلمات الصحابه و التابعين و من أراد فليرجع إلى كتابه الاعتصام و نكتفى بهذا المقدار.

١- المصدر نفسه: الحكمة ١٢٣.

المبحث الثاني البدعه لغه و اصطلاحاً

اشاره

لقد مضت نصوص الكتاب و السنه في حرمه البدعه و آثارها الهدامه، و لأجل تحديد مفهومها تحديداً دقيقاً يلزمنا نقل أقوال أهل اللغه و كلمات الفقهاء و المحدثين في تفسير البدعه، حتى تلقى ضوءاً على ما نتبناه من الوقوف على مفهوم البدعه.

البدعه في لغه العرب:

قال الخليل: البدع؛ إحداث شىء لم يكن له من قبل خلق و لا ذكر و لا معرفه... البدع: الشىء الذى يكون أولاً فى كل أمر كما قال الله: «ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» أى لست بأول مرسل، و البدعه اسم ما ابتدع من الدين و غيره، و البدعه ما استحدث بعد رسول الله من الأهواء و الأعمال «(١)».

و قال ابن فارس: البدع له أصلان؛ ابتداء الشىء و صنعه لا عن مثال، و الآخر الانقطاع و الكلال «(٢)».

١- ترتيب كتاب العين: ص ٧٢.

٢- المقاييس ١: ٢٠٩ ماده «بدع».

و المقصود فى المقام هو المعنى الأول.

وقال الراغب: الإبداع إنشاء صنعه بلا احتذاء ولا اقتداء، و البدعه فى المذهب إيراد قول لم يستنّ قائلها و فاعلها فيه بصاحب الشريعة و أمثالها المتقدمه و أصولها المتقنه «(١)».

وقال الفيروز آبادى: البدعه- بالكسر- الحدث فى الدين بعد الإكمال أو ما استحدث بعد النبى من الأهواء و الأعمال «(٢)».

إلى غير ذلك من الكلمات المماثلة للغويين، و لا نطيل الحديث بنقل غير ما ذكر.

و الإمعان فى هذه الكلمات يثبت بأنّ البدعه فى اللغة و إن كانت شامله لكلّ جديد لم يكن له مماثل سواء أ كان فى الدين، أم العادات، كالأطعمه و الألبسه و الأبنيه و الصناعات و ما شاكلها، و لكن البدعه التى ورد النص على حرمتها هى ما استحدثت بعد رسول الله من الأهواء و الأعمال فى أمور الدين، و ينصّ عليه الراغب فى قوله: «البدعه فى المذهب إيراد قول لم يستنّ قائلها و فاعلها فيه»، و نظيره قول القاموس: «الحدث فى الدين بعد الإكمال».

كل ذلك يعرب عن أنّ إطار البدعه المحرّمه، هو الإحداث فى الدين، و يؤيّدّه قوله سبحانه فى نسبه الابتداع إلى النصارى بإحداثهم الرهبانيه و إدخالهم إيّاها فى الديانه المسيحيه، قال سبحانه: «و رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» «(٣)».

فقوله سبحانه: «ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» يعنى ما فرضناها عليهم و لكنهم نسبوها

١- المفردات: ص ٣٨ و ٣٩.

٢- القاموس المحيط ٣: ٦.

٣- الحديد: ٢٧.

إلينا عن كذب.

و أمّا التطوير في ميادين الحياه و شئونها فإن كان بدعه لغه فليس بدعه شرعاً بل يتبع التطوير في الحياه جوازاً و منعاً الحكم الشرعى بعناوينه، فإن حرّمه الشرع و لو تحت عنوان عام فهو محرّم، و إلّا فهو حلال؛ لحاكميه أصل البراءه ما لم يرد دليل على الحرمة. و سيوافيك تفصيلها في المستقبل.

البدعه في اصطلاح العلماء

لا- ريب أنّ البدعه حرام، و لا- يشك في حرمتها مسلم واع، لكن المهم في الموضوع تحديدها و تعيين مفهومها بشكل دقيق، حتى تكون قاعده كليّه يرجع إليها عند الشك في المصاديق، فإنّ واجب الفقيه تحديد القاعده، و واجب غيره تطبيقها على مواردّها، و هذا الموضوع من أهمّ المواضيع فيها.

و قد عُرفت البدعه بتعاريف مختلفه، بين متشدد لا يتسامح فيها، و بين متسامح في تعريفها، و إليك بعضها:

١- البدعه: ما أحدث ممّا لا أصل له في الشريعه يدلّ عليه، أمّا ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس بدعه شرعاً، و إن كان بدعه لغه «(١)».

٢- البدعه: أصلها ما أحدث على غير مثال سابق، و تطلق في الشرع في مقابل السنّه فتكون مذمومه «(٢)».

و يقول ابن حجر في موضع آخر: المحدثات جمع محدثه، و المراد بها أى في

١- جامع العلوم و الحكم: ص ١٦٠ ط الهند.

٢- فتح البارى ٥: ١٥٦.

حديث «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»؛ ما أحدث و ليس له أصل في الشرع يسمّى في عرف الشرع بدعه، و ما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس بدعه «(١)».

٣- البدعه لغه: ما كان مخترعاً، و شرعاً: ما أحدث على خلاف أمر الشرع و دليله الخاص أو العام «(٢)».

٤- البدعه في الشرع موضوعه: الحادث المذموم «(٣)».

٥- إنّ البدعه الشرعيه هي: التي تكون ضلاله، و مذمومه «(٤)».

٦- البدعه: طريقه في الدين مخترعه، تضاهي الشرعيه، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقه الشرعيه.

و عرّفه الشاطبي أيضاً في مكان آخر بنفس ذلك و أضاف في آخره: «يقصد بالسلوك عليها: المبالغه في التعبد لله تعالى» «(٥)».

و ما أضافه ليس أمراً كلياً كما سيوافيك عند البحث عن أسباب نشوء البدعه و دواعيها.

و هذه التعاريف، تحدّد البدعه تحديداً، و تصوّر لها قسماً واحداً. و المحدود في هذه التعاريف هو البدعه في الشرع و الدين الإسلامي، و التدخّل في أمر التقنين و التشريع.

و هناك من حدّدها ثمّ قسّمها إلى: محموده و مذمومه، منهم:

١- عن حرمله بن يحيى، قال: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: «البدعه بدعتان:

١- فتح الباري ١٧: ٩.

٢- التبيين بشرح الأربعة: ص ٢٢١.

٣- الإبداع: ٢٢.

٤- أحسن الكلام: ص ٦.

٥- الاعتصام ١: ٣٧.

بدعه محموده و بدعه مذمومه، فما وافق السنّه فهو محمود و ما خالف السنّه فهو مذموم».

٢- و قال الربيع: قال الشافعي رحمه الله: «المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما يخالف كتاباً أو سنّه أو إجماعاً أو أثراً، فهذه البدعه الضلاله.

و الثاني: ما أحدث من الخبر لا خلاف فيه لواحد من هذا، فهي محدثه غير مذمومه» (١).

٣- قال ابن حزم: «البدعه فى الدين؛ كلّ ما لم يأت فى القرآن، و لا عن رسول الله، إلّا أنّ منها ما يؤجر عليه صاحبه و يُعَدَّر بما قصد إليه من الخير، و منها ما يؤجر عليه صاحبه و يكون حسناً و هو ما كان أصله الإباحه، كما روى عن عمر رضى الله عنه:

«نعمت البدعه هذه- إلى أن قال:- و منها ما يكون مذموماً، و لا يُعَدَّر صاحبه، و هو ما قامت الحججه على فساده فتمادى القائل به» (٢).

٤- و قال الغزالي: «و ما يقال: إنّه أُبدع بعد رسول الله، فليس كل ما أُبدع منهيّاً بل المنهى عنه بدعه تضاد سنّه ثابتة، و ترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب فى بعض الأحوال إذا تغيّرت الأسباب» (٣).

٥- و قال الشيخ عبد الحق الدهلوى فى شرح المشكاه: «اعلم أنّ كل ما ظهر بعد رسول الله بدعه، و كلّ ما وافق أصول سنّته و قواعدها أو قيس عليها فهو بدعه حسنه، و كلّ ما خالفها فهو بدعه سيئه و ضلاله» (٤).

٦- و قال ابن الأثير: «البدعه بدعتان: بدعه هدى، و بدعه ضلال، فما كان فى

١- فتح البارى ٧: ١٠.

٢- الفصل فى الملل و النحل كما فى البدعه للدكتور عزت: ١٦١.

٣- الاحياء ٢: ٣ ط الحلبي.

٤- الكشاف لاصطلاحات الفنون كما فى البدعه للدكتور عزت: ١٦٢.

خلاف ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وآله فهو في حيز الذم والإنكار، و ما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه، و حث عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح. و ما لم يكن له مثال موجود، كنوع من الجود و السخاء و فعل المعروف، فهو من الأفعال المحموده، و لا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله قد جعل له في ذلك ثواباً فقال: «من سنَّ سنَّه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها» و قال في ضدّه: «و من سنَّ سنَّه سيئه كان عليه وزرها و وزر من عمل بها» و ذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به و رسولهُ صلى الله عليه وآله.

و من هذا النوع قول عمر رضى الله عنه: «نعمت البدعه هذه (التراويح) لما كانت من أفعال الخير و داخله في حيز المدح» سمّاها بدعه و مدحها، إلّا أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يسنّها لهم و إنّما صلّاها ليالى ثم تركها و لم يحافظ عليها، و لا جمع الناس لها، و لا كانت في زمن أبى بكر، و إنّما عمر رضى الله عنه جمع الناس عليها و ندبهم إليها، فبهذا سمّاها بدعه، و هى على الحقيقة سنّه، لقوله صلى الله عليه وآله: «عليكم بسنّتي و سنّ الخلفاء الراشدين من بعدى» و قوله: «اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر و عمر» و على هذا التأويل يحمل الحديث الآخر: «كل محدثه بدعه» إنّما يريد ما خالف أصول الشريعة و لم يوافق السنّه. و أكثر ما يستعمل المبتدع عرفاً فى الذم» (١).

هذه كلمات أعلام السنّه و إليك ما ذكره أصحابنا فى الموضوع مقتصرأ على نماذج منها:

٧- قال السيد المرتضى: «البدعه: الزيادة فى الدين أو نقصان منه من إسناد إلى الدين» (٢).

-
- ١- النهاية ١: ٧٩ و كلامه صريح فى أنّ النبى لم يصلّها جماعه إلّا ليالى و تركها، و إن أقامتها جماعه كانت من سنّه عمر، إذ للخليفين - حسب الروايه - حقّ التسنين الذى يعبر عنه بسنّه الصحابى.
 - ٢- الشريف المرتضى، الرسائل ٢: ٢٦٤.

٨- قال العلامة في المختلف: «إنَّ الأذان عباده متلقاه من الشرع؛ فالزيادة عليها بدعه كالتقصان، و كلِّ بدعه حرام» (١).

٩- قال الشهيد السعيد محمد بن مكى العاملى (ت ٧٨٦هـ): «محدثات الأمور بعد عهد النبي صلى الله عليه وآله تنقسم أقساماً، لا يطلق اسم البدعه عندنا إلَّا على ما هو محرّم منها» (٢).

و مع ذلك كلّه فقد خالف الشهيد كلامه فى كتاب الذكرى، و قال:

١٠- «إنَّ لفظ البدعه غير صريح فى التحريم؛ فإنَّ المراد بالبدعه ما لم يكن فى عهد النبي صلى الله عليه وآله ثمَّ تجدد بعده، و هو ينقسم إلى: محرّم و مكروه».

١١- قال الطريحي (ت ١٠٨٦هـ): «البدعه: الحدث فى الدين و ما ليس له أصل فى كتاب و لا سنّه. و إنّما سمّيت بدعه؛ لأنَّ قائلها ابتدع هو نفسه، و البدع- بالكسر و الفتح- جمع بدعه و منه الحديث «من توضعاً ثلاثاً فقد أبدع» أى فعل خلاف السنّه؛ لأنَّ ما لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وآله فهو بدعه» (٣).

١٢- و قال المجلسى (ت ١١١٠هـ): «البدعه فى الشرع: ما حدث بعد الرسول و لم يرد فيه نصّ على الخصوص، و لا يكون داخلًا فى بعض العمومات، أو ورد نهى عنه خصوصاً أو عمومًا؛ فلا تشمل البدعه ما دخل فى العمومات مثل بناء المدارس و أمثالها، الداخلة فى عمومات إيواء المؤمنين و إسكانهم و إعانتهم، و كإنشاء بعض الكتب العلميه، و التصانيف التى لها مدخل فى العلوم الشرعيه، و كالألْبسه التى لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وآله و الأطعمه المحدثه؛ فإنّها داخله فى

١- المختلف ٢: ١٣١.

٢- القواعد و الفوائد ٢: ١٤٤-١٤٥ القاعده ٢٠٥. و قد ذكر الأقسام الخمسه غير واحد من الفقهاء منهم القرافى فى الفروق ٤:

٢٠٢-٢٠٥. و سيوافيك الكلام فى عدم صحه هذا التقسيم.

٣- مجمع البحرين ج ١: ماده «بدع» لاحظ «ترتيب المجمع».

عمومات الحليته، و لم يرد فيها نهى.

و ما يفعل منها على وجه العموم إذا قصد كونها مطلوبه على الخصوص كان بدعه، كما أنّ الصلاة خير موضوع و يستحبّ فعلها فى كلّ وقت. و لو عيّن ركعات مخصوصه على وجه مخصوص فى وقت معيّنصارت بدعه، و كما إذا عيّن أحد سبعين تهليله فى وقت مخصوص على أنّها مطلوبه للشارع فى خصوص هذا الوقت بلا- نصّ ورد فيها كانت بدعه، و بالجمله إحداث أمر فى الشريعة لم يرد فيه نصّ بدعه، سواء كانت أصلها مبتدعه أو خصوصيتها مبتدعه» ثمّ ذكر كلام الشهيد عن قواعده «(١)».

١٣- و قال المحدّث البحرانى (ت ١١٨٦ هـ): «الظاهر المتبادر من البدعه لا سيما بالنسبه إلى العبادات إنّما هو المحرّم، و لما رواه الشيخ الطوسى عن زراره و محمد بن مسلم و الفضيل عن الصادقين عليهما السلام: «ألا و إنّ كلّ بدعه ضلاله، و كلّ ضلاله سيّلتها إلى النار» (٢)»

١٤- و قال المحقق الآشتيانى (ت ١٣٢٢ هـ): البدعه؛ «إدخال ما علم أنّه ليس من الدين فى الدين و لكن يفعله بأنّه أمر به الشارع» (٣)».

١٥- و قال أيضاً: «البدعه: إدخال ما لم يعلم أنّه من الدين فى الدين» (٤)».

١٦- و قال السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١ هـ): «البدعه: إدخال ما ليس من الدين فى الدين كإباحه محرّم أو تحريم مباح، أو إيجاب ما ليس بواجب أو ندبه، أو نحو ذلك سواء كانت فى القرون الثلاثه أو بعدها، و تخصيصها بما بعد القرون الثلاثه

١- البحار ٧٤: ٢٠٢-٢٠٣.

٢- الحدائق ١٠: ١٨٠؛ وسائل الشيعة ٥: ١٩٢ ذ ح ١.

٣- و ٤ بحر الفوائد: ٨٠ و ترى قريباً من هذه الكلمات فى فرائد الشيخ الأنصارى: ٣٠ و فوائد الأصول للمحقق النائى ٢: ١٣٠.

٤- و ٤ بحر الفوائد: ٨٠ و ترى قريباً من هذه الكلمات فى فرائد الشيخ الأنصارى: ٣٠ و فوائد الأصول للمحقق النائى ٢: ١٣٠.

لا وجه له، و لو سلّمنا حديث «خير القرون قرني» فإنّ أهل القرون الثلاثه غير معصومين بالاتّفاق. و تقسيم بعضهم لها إلى حسنه و قبيحه، أو إلى خمسہ أقسام ليس بصحيح، بل لا- تكون إلّا قبيحه. و لا- بدعه فيما فهم من إطلاق أدلّه الشرع أو عمومها أو فحواها أو نحو ذلك، و إن لم يكن موجوداً في عصر النبيّ ﴿١﴾.

تلك سته عشر نصّاً من كلمات مشاهير علماء الإسلام، فمنهم من خصّ بالتعريف بالبدعه في الدين فجعله قسمًا واحداً، و منهم عمّمها فقسّمها إلى ممدوحه و مذمومه، و الحافظ الوحيد إلى ذاك، هو اقتفاء قول عمر فيصلاه التراويح، و لو لاصدور ذاك لما خطر ببال هؤلاء هذا التقسيم.

و يبدو أنّ أوضح التعاريف ما نقلناه عن العلمين: الأشتياني و السيد الأمين؛ فإنّهما ٠ أتيا باللّب، و حذفوا القشر، فمقوم البدعه هو التصرف في الدين عقيدته و تشريعاً؛ بإدخال ما لم يعلم أنّه من الدين فيه، فضلاً عمّا علم أنّه ليس منه قطعاً.

و الذي يؤخذ على تعريفهما أنّه لا يشمل البدعه بصوره النقص كحذف شيء من أجزاء الفرائض.

تحديد مفهوم البدعه و مقوماتها

المبحث الثالث تحديد مفهوم البدعه و مقوماتها

اشاره

إنَّ الأمر المهم بعد الوقوف على النصوص، هو تحديد مفهوم البدعه التي وقعت موضوعاً للحكم الشرعى كسائر الموضوعات الواردة فى المصدرين الرئيسيين، فما لم تحدّد و لم نقف على مفهومها الدقيق و على ما هو معتبر فيصميمها عند الشرع، لا يمكن لنا تطبيق الحكم الكلى على مصاديقها و مواضعها.

و قد اتّضح بعد دراسته الأدلّه أنّ قيود البدعه التي هى الموضوع لدى الشرع ثلاثة، نذكرها بالتدرّج:

الأول: التدخّل فى الدين عقيدته و حكماً، بزياده أو نقيصه.

الثانى: أن تكون هناك إشاعه و دعوه.

الثالث: أن لا يكون هناك دليل فى الشرع يدعم جوازها لا بالخصوص و لا بالعموم.

و إليك دراسته هذه القيود المكوّنه لمفهوم البدعه التي اتّخذها الكتاب و السنّه موضوعاً للحكم.

١- التدخّل في الدين بزياده أو نقيصه

هل إنّ الموضوع في المصدرين هو نفس البدعه أو خصوص البدعه في الدين؟

فلو قلنا بأنّ الموضوع نفس البدعه بسيطاً، سواء كان الإحداث والإبداع راجعاً إليصميم الدين أو غيره، فيكون الحكم بحرمة ذلك الموضوع الواسع أمراً غير ممكن، ولأجل ذلك لجأ أصحاب ذلك القول إلى تقسيمها إلى أقسام خمس حسب انقسام الأحكام.

و أما إذا كان الموضوع هو الأمر المركّب، أي البدعه في الدين، فذلك له حكم واحد لا يقبل التخصيص. إلّا أنصححه إحدى النظرتين متوقفه على دراسه الآيات و الروايات. و قد أتضح ممّا سبق، عند استعراض النصوص، أنّ الموضوع في الكتاب و السنّه هو البدعه في الدين لا- مطلقها، فلو كان الكتاب و السنّه يتكلّمان فيها فإنّما يتكلّمان فيها باسم الدين و الشريعة و عن البدعه فيهما، لأنّ كلّ متكلم إنّما يتكلّم في إطار اختصاصه و مقامه و حسب شأنه، فالكتاب العزيز كتاب إلهي جاء لهدايه الناس و إلى ما فيه مرضاه الله بتشريع القوانين و السنن، و النبي الأكرم مبعوث لتبيان ذلك الكتاب بأقواله و أفعاله و تقريراته، قال تعالى: «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

و على ضوء ذلك فإنّ الكتاب و السنّه يتكلّمان بتلك الخصوصيه التي يمتلكانها، فإذا تكلمنا عن البدعه فإنّما يتكلّمان عن البدعه الوارده في حوزتهما، و قيد الدين و الشريعة و إن لم يذكر في متون النصوص غالباً؛ لكنهما مفهومان من القرائن الموجوده فيها، فلا عبره بالإطلاق بعد القرائن الحافّه على الكلام، هذا ما نستنبطه

من مجموع الخطابات الواردة في الأدلة. و إليك بيان و دراسه تلك الأدله تفصيلاً:

١- تضافرت الآيات على ذم عمل المشركين حينما كانوا يقسمون رزق الله إلى ما هو حلال و حرام فجاء الوحي مندداً بقوله: «قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» (١) و في آيه أخرى يعد عملهم افتراءً على الله كما يقول: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» (٢) و من المعلوم أن المشركين كانوا ينسبون الحكمين إلى الله سبحانه، و أنه سبحانه قد جعل منه حلالاً و حراماً، فكان عملهم بدعه في الدين.

٢- وقفت في التمهيد، أنه سبحانه يصف من لم يحكم بما أنزل الله، بكونه كافراً و ظالماً و فاسقاً و من المعلوم أن أحبار اليهود كانوا يحرفون الكتاب فيصفون ما لم يحكم به الله، بكونه حكم الله، قال سبحانه: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (٣) فقولهُ «هذا من عند الله» صريح في أنهم كانوا يتدخلون في الشريعة الإلهية فيعرفون ما ليس من عند الله على أنه من عند الله، و هذا يؤكد بأن الموضوع في هذه الآية و أمثالها هو البدعه في الدين لا مطلقها.

٣- ذم الله سبحانه الرهبان لابتداعهم ما لم يكتب عليهم، قال سبحانه:

«وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» (٤) و معنى الآية أنهم كانوا ينسبون الرهبانية إلى شريعة المسيح مدعين بأنه هو الذى شرع لهم ذلك العمل، و القرآن يردهم بقوله: «ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ».

٤- أنه سبحانه وصف أهل الكتاب بأنهم اتخذوا رهبانهم و أحبارهم أرباباً

١- يونس: ٥٩.

٢- النحل: ١١٦.

٣- البقره: ٧٩.

٤- الحديد: ٢٧.

من دون الله، وقد فسّره النبي الأكرم بأنهم كانوا يحرمون ما أحلّ الله فيتبعونهم أتباعهم، أو يحللون ما حرم الله عليهم فيقبلونه بلا تردد، و من المعلوم أنّ الأحبار و الرهبان كانوا يعرّفون ما تخيلوه من الحرام و الحلال على أنّه حكم الله سبحانه، و ليس هذا إلّا بدعه في الشرع، و تدخلًا في أمر الشرعيه.

و إذا تدبّرت في هذه الآيات و أمثالها يتّضح لك أنّ الآيات تدور حول محور واحد هو البدعه في الدين لا مطلقها، و لا يضّرّ عدم ذكر القيد في اللفظ؛ إذ هو مفهوم من القرائن القطعيه.

ثمّ إنّ في قوله: «إلّا ابتغاء رضوان الله» وجهين: فمنهم من يجعله استثناءً منقطعاً، أى ما كتبنا عليهم الرهبانيه و إنّما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، و منهم من يجعله استثناءً متّصلاً، بمعنى أنّه سبحانه كتب عليهم أصل الرهبانيه، لأجل كسب رضوان الله، و لكنّهم لم يراعوا حقّها؛ فتكون البدعه على الأوّل نفس الرهبانيه و على الثاني الخروج عن حدودها.

هذا كلّه حول الآيات، و أمّا السنّه، ففيها قرائن كثيره تعطى نفس المفهوم الذي أعطته الآيات، و إليك تلك القرائن.

١- ففي الروايه الأولى يتدئ النبي كلامه بقوله: «أصدق الحديث كتاب الله، و أفضل الهدى هدى محمد» و هذا يدلّ على أنّ ما اتّخذه النبي موضوعاً للبحث هو ما يرجع إلى كتاب الله و هدى نبيّه، فإذا قال بعده: «و شرّ الأمور محدثاتها» يكون المراد ما دخل في الشرعيه من أمور، و إذا قال: «كلّ بدعه ضلاله»، أى البدعه فيما يتكلّم عنه، و من المعلوم أنّه يتكلّم عن دعوته و شريعته، فتحوير كلامه إلى مطلق البدعه، و إن لم يمسّ الكتاب و السنّه، تأويل للظاهر بلا دليل.

٢- ثمّ إنّه صلى الله عليه و آله يحكم على كلّ بدعه بالضلال، و من المعلوم أنّه لا يصدق إلّا على البدعه في الشرعيه، و أمّا غيرها فهي على أقسام كما قالوا.

٣- روى مسلم في صحيحه أنّ رسول الله إذا خطب احمرّت عيناه و علاصوته، و اشتدّ غضبه كأنّه منذرٌ جيشٍ ثمّ يقول: «أمّا بعد فإنّ خير الحديث كتاب الله و خير الهدى هدى محمد..» و من المعلوم أنّ الأرضيه الصالحه لثوران غضبه ليس إلّا تدخّل المبتدع فى شريعته، لا مطلق التدخل فى شئون الحياه و إن لم تمسّ دينه، خصوصاً إذا كان فى مصلحه الإنسان.

٤- إنّه صلى الله عليه و آله وصف البدعه بالضلاله و قال: «إنّصاحبها فى النار» و لا تصدق تلك القاعده إلّا عليصاحب البدعه فى الشريعه.

٥- إنّه صلى الله عليه و آله عند ما رأى أنّ رجالاً يُذادون عن حوضه فأخذ يناديهم بقوله:

«ألا هلّمّ ألا هلّمّ ألا هلّمّ» فإذا نادى المنادى بقوله: «إنّهم قد بدّلوا بعدك» فيقول النبى: «فسحّاقاً! فسحّاقاً! فسحّاقاً!» و من المعلوم أنّه قد بدّلوا دين الرسول و شريعته و إلّا لما كانوا مستحقّين دعاءه بقوله: «فسحّاقاً...».

٦- دلّت الروايات السابقه على أنّه إذا ظهرت البدع فى الأمّه فعلى العالم أن يظهر علمه و إلّا فعليه لعنه الله.

٧- كما دلّت على أنّصاحب البدعه لا تقبل توبته.

٨- و إنّ من زار ذا بدعه فقد سعى فى هدم الإسلام.

٩- و أوضح من الكل خطاب الإمام على عليه السلام حيث قال: «إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله».

١٠- و فى روايه أُخرى: «ما أحدثت بدعه إلّا تركت فيها سنّه، فاتركوا البدع و الزموا المهيع إنّ عوازم الأمور أفضلها، و إنّ محدثاتها شرارها» [\(١\)](#).

١١- هذا ما تعطيه نصوص الكتاب و السنّه، و تليهما نصوص لفيفٍ من أهل اللغه التى سبق ذكرها، مثل:

١- قد سبقت مصادرها فى نصوص البدعه فى الكتاب و السنّه فلاحظ.

قول الخليل: و البدعه ما استحدثت بعد الرسول.

و قول الراغب: البدعه فى المذهب إيراد قول لم يستنّ قائلها و فاعلها فيه بصاحب الشريعة.

و قول الفيروزآبادى: البدعه: الحدث فى الدين بعد الإكمال أو ما استحدثت بعد النبى من الأهواء و الأعمال.

و تليه نصوص لفيف من الفقهاء، نظير قول ابن رجب الحنبلى: البدعه ما أحدث ممّا لا أصل له فى الشريعة يدلّ عليه.

و قول ابن حجر العسقلانى: البدعه ما أحدث و ليس له أصل فى الشرع.

و قول ابن حجر الهيتمى: البدعه ما أحدث على خلاف أمر الشارع و دليله الخاص.

و قول الزركشى: البدعه الشرعيه هى التى تكون ضلاله «(١)».

و من يدرس هذه النصوص جليلها و دقيقها يقف على أنّ موضوع البحث فى جميع الأدلّه هو الأمر الذى يمت إلى الشريعة بصله، و أنّ الله سبحانه و نبيه الصادع بالحق يهيبان بالمجتمع الإسلامى عن البدعه و الكذب على الله، و التدخّل فى الكتاب و السنّه، و التلاعب بما أنزل الله فى مجالى العقيدة و الشريعة، و هذا أمر واضح لا غبار عليه، و بذلك يختلف اتجاهنا فى تفسير النصوص عن غيرنا.

فإذا ثبت ذلك اتّضح أنّ البدعه ليس لها إلّا قسم واحد، و لها حكم واحد لا يُخصص و لا يُقيّد بل هو بمثابة لا يقبل التخصيص، و هذا نظير قوله سبحانه: «إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» «(٢)» فإنّ تلك القاعدة لا تقبل التخصيص أى يمتنع تجويز الظلم و الشرك فى مكان دون مكان، نظير قوله سبحانه: «أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ

١- قد مضت النصوص فى مواضعها.

٢- لقمان: ١٣.

كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (١).

ثم إنَّ النتيجة التي توصلنا إليها قد توصل إليها الشاطبي بطريقة أخرى هذا موجزها:

«قال: الباب الثالث: في أنَّ ذمَّ البدع و المحدثات عام لا يخصُّ محدثه دون غيرها- إلى أن قال:- فاعلموا- رحمكم الله- أنَّ ما تقدّم من الأدلّة حجّه في عموم الذمّ من أوجه:

أحدها: أنّها جاءت مطلقة عامه على كثرتها لم يقع فيها استثناء البتة، و لم يأت فيها ما يقتضى، أنَّ منها ما هو هدى، و لا جاء فيها: كلُّ بدعه ضلاله إلّا كذا و كذا.

و لا شىء من هذه المعانى فلو كان هنالك محدثه يقتضى النظر الشرعى فيها الاستحسان، أو أنّها لاحقه بالمشروعات، لذكر ذلك فى آيه أو حديث، لكنّه لا- يوجد، فدلّ على أنَّ تلك الأدلّة بأسرها على حقيقه ظاهرها من الكليّه التي لا يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد.

الثانى: أنّه قد ثبت فى الأصول أنَّ كلّ قاعده كليّه أو دليل شرعى كلى إذا تكرّرت فى مواضع كثيره و أتى بها شواهد على معان أصوليه أو فروعيه، و لم يقترن بها تقييد و لا تخصيص، مع تكرّرها و إعادته تقررها، فذلك دليل على بقائها على مقتضى لفظها من العموم، كقوله تعالى: «أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ أَلَّا لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ» (٢)، فما نحن بصدده من هذا القبيل إذ جاء فى الأحاديث المتعدّده أنَّ كلّ بدعه ضلاله، و أنَّ كلّ محدثه بدعه، و ما كان نحو ذلك من العبارات المدالّه على أنَّ البدع مذمومه، و لم يأت فى آيه و لا حديث، تقييد و لا تخصيص، و لا ما يفهم منه خلاف ظاهر الكليه فيها.

١- القلم: ٣٥.

٢- النجم: ٣٨ - ٣٩.

الثالث: إجماع السلف الصالح من الصحابه و التابعين و من يليهم على ذمها كذلك، و تقييحها و الهروب عنها- إلى أن قال:- فهو بحسب الاستقراء، إجماع ثابت، فدلّ على أنّ كلّ بدعه ليست بحقّ، بل هي من الباطل.

الرابع: أنّ متعلّق البدعه يقتضى ذلك بنفسه، لأنّه من باب مضاده الشارع و أطراح الشرع، و كل ما كان بهذه المثابه فمحال أن ينقسم إلى حسن و قبيح «(١)» و أن يكون منه ما يمدح و منه ما يذمّ، إذ لا يصحّ في معقول و لا منقول استحسان مشاقّه الشارع» «(٢)».

إلى هنا تمّ الكلام في تحديد البدعه من حيث كون الموضوع بسيطاً و مركّباً، و يترتب عليه أنّه لا- تعمّ البدعه غير الشريعه، كالعادات و الصناعات و الأعلام و غيرها، بل يستخرج حكمها من الكتاب و السنّه بنفس عناوينها، لا بما هي بدعه، فربّما تكون حلالاً و أخرى حراماً، لكن ليس كلّ حرام بدعه. كما سيأتى.

٢- البدعه إشاعه و دعوه

إذا كانت البدعه هي إدخال ما ليس في الدين فيه أو نقصه منه في مجال العقيدة و الشريعه؛ فهل يتحقّق مفهومها بقيام الشخص بذلك العمل؛ وحده في بيته و منزله، كأن يزيد فيصلاته ما ليس فيها أو ينقص منها شيئاً، أو أنّه ليس ببدعه و إن كان عمله باطلاً و بفعله عاصياً؟ بل البدعه تتوقّف على إشاعه فكره خاطئه في العقيدة، أو عمل غير مشروع في المجتمع و دعوتهم إليه بعنوان أنّه من الشرع، و لك أن تستظهر ذلك القيد من الآيات و الروايات، فإنّ عمل المشركين في التحليل

١- لا- يخفى أنّ الإمام الشاطبي يقول في كلمته هذه بالحسن و القبح العقليين مع أنّه خلاف مذهبه، لاحظ الصفحه ١١٤ من الاعتصام.

٢- الاعتصام ١: ١٤١-١٤٢.

و التحريم لم يكن عملاً شخصياً في الخفاء، بل إنّ المُبتدع الأوّل قد أحدث فكره و أشاعها و دعا الناس إليها، كما كان الحال كذلك في الرهبان و الأخبار، و يشهد على ذلك بوضوح ما رواه مسلم، عن أبي هريره قال: قال رسول الله: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، و من دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١)

و يدلّ عليه قول القائل يوم القيامة: «إنّهم قد بدلوا بعدك» فإنّ تبديل الدين، ليس عملاً شخصياً بل هو عمل جماعي، إلى غير ذلك من القرائن الموجوده في الروايات.

الى هنا خرجنا بنتيجتين:

الأولى: إنّ مصبّ البدعه في الأدلّه هو الدين و الشرع.

الثانية: إنّ البدعه لا تنفك عن الدعوه إلى الباطل.

و إليك بيان القيد الثالث.

٣- عدم وجود أصل لها في الدين

العنصر الثالث المقوم لمفهوم البدعه هو فقدان الدليل على جواز العمل بها، لا في الكتاب و لا في السنّه، و ذلك ظاهر؛ إذ لو كان هناك دعم من الشارع للعمل؛ لما كان أمراً جديداً في الدين أو تدخلاً في الشرع، و لأجل ذلك قلنا: إنّ أفضل التعاريف هو قولهم: «إدخال ما ليس من الدين في الدين» أو «إدخال ما لم يُعلم من الدين في الدين».

١- لاحظ المبحث الأوّل: نصوص البدعه في الكتاب و السنّه، الحديث التاسع.

و بعبارة واضحة: البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول، و لم يرد فيه نصّ على الخصوص، و لم يكن داخلًا في بعض العمومات.

و إن شئت قلت: إحداث شىء في الشريعة لم يرد فيه نصّ، سواء كان أصله مبتدعاً، كصوم عيد الفطر، أو خصوصيته مبتدعه كالإمساك إلى غسق الليل نواياً به الصوم المفروض، معتقداً بأنه الواجب في الشرع. و في النصوص السابقة للعلماء تصريح بذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: «و المراد بالبدعة، ما أحدث و ليس له أصل في الشرع، و ما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة».

قال ابن رجب الحنبلي: «البدعة: ما أحدث ممّا لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، أمّا ما كان له أصل في الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعاً و إن كان بدعه لغه» [\(١\)](#).

و قال العلامة المجلسي: «البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول صلى الله عليه و آله و لم يرد فيه نصّ على الخصوص و لا يكون داخلًا في بعض العمومات، أو ورد نهى عنه خصوصاً أو عموماً» [\(٢\)](#).

و على ضوء ذلك تنحل هنا عويصه المصاديق التي ربّما تعدّ من البدعة؛ لعدم ورود نصّ خاصّ فيها و لكن تشملها العمومات بصورة كليّة، فهذه لا تكون بدعه، و ذلك لأنّه لو كان هناك نصّ خاصّ؛ لأخرجه عن البدعة و هذا واضح جداً، أمّا إذا لم يكن هناك نصّ خاصّ، و لكن العمومات تشملها بعمومها فهذا ما نوضحه بالمثل التالي:

إنّ الدفاع عن بيضه الإسلام و حفظ استقلاله و صيانته حدوده عن الأعداء

١- مضت النصوص في محلّها.

٢- البحار ٧٤: ٢٠٢.

أصل ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسِيَّتْطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا اللَّهَ وَعَدُّواكُمْ» (١)» فَإِنَّ قَوْلَهُ: «مِنْ قُوَّةٍ» مفهوم كلّي يشمل كيفية الدفاع، و نوعيّة السلاح، و شكل الخدمة العسكريه المتبعه في كلّ عصر و مصر، فالجميع برّمته هو تطبيق لهذا المبدأ، و تجسيد لهذا الأصل، فالتسلّح بالغواصات و الأساطيل البحريّه و الطائرات المقاتله إلى غير ذلك من أدوات الدفاع، ليس بدعه بل تجسيد لهذا الأصل و من خلاله.

و إنّ من يعد التجنيد العسكري بدعه فهو غافل عن حقيقه الحال، فإنّ الإسلام يأمر بالأصل و يترك الصور و الأشكال لمقتضيات العصور.

إلى هنا خرجنا بلزوم وجود قيود ثلاثه في تحقّق البدعه و صدقها:

١- أن يكون تدخلاً في الشريعة و تصرفاً فيها عقيداً و حكماً.

٢- أن تكون هناك إشاعه بين الناس.

٣- أن لا يكون هناك أصل على المشروعيه لا خاصاً و لا عاماً.

و يجمع الكلّ «القول في الدين بغير علم على الأغلب، بل مع العلم بالخلاف و لكن يقدم رأيه عليه، بظنّ الإصلاح أو غيره من الحوافر».

هذا هو تحديد البدعه بمفهومها الدقيق الذي نتخذه قاعده كليّه، و نستكشف به حال الموضوعات التي تضاربت فيها الأقوال و الأفكار بين موسّع و مضيقّ.

و سيوافيك شرحها.

المبحث الرابع الابتداع فى تفسير البدعه

اشاره

لقد ارتحل النبى الأكرم إلى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل الشريعة و بين جليلها و دقيقتها و ما تحتاج إليه الأُمه إلى يوم القيامة، قال سبحانه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١) و حفاظاً على دينه و صيانتته من التحريف و التبديل، أمر التمسك بالثقلين. و لم يرض للأُمه غيرهما لئلا يكون الدين ألعوبه بأيدي المغرضين و الطامعين. و المقياس فى تميز البدعه عن السنّه هو الرجوع إلى الثقلين سواء أفسر بالكتاب و العتره، كما هو المتضافر، أم بالكتاب و السنّه، كما رواه الإمام مالك فى الموطأ بسند مرسل (٢)، و الحديثان متقاربا المضمون؛ لأنّ العتره لا تنشد إلّا السنّه النبويه، التى أخذوها كابر عن كابر إلى أن تصل إلى النبى الأكرم، فما وافقهما فهو سنّه و ما خالفهما فهو بين معصيه و بدعه، مع الفرق الواضح بينهما؛ فلو أذيعت الفكره أو شاع العمل بين الناس بها فتصير بدعه، و إن اكتفى بها من دون دعوه و إشاعه فهى معصيه.

١- المائده: ٣.

٢- الموطأ: ١٦١٩ / ٦٤٨.

بدعه «ما لم يكن في القرون الثلاثة»

و من العجب أن أناساً صاروا إلى تحديد البدعه و تمييزها عن السنّه، و لكنهم جاءوا حين تحديدها ببدعه و فريه جديده لا دليل عليها في الكتاب و السنّه، و هي أن المقياس في تمييز البدعه عن السنّه هو القرون الثلاثة الأولى بعد رحيل الرسول.

فما حدث فيها فهو سنّه، و ما حدث بعدها فهو بدعه، و إن تعجب فإليك نصّ القائل:

«و ممّا نحن عليه، أن البدعه- و هي ما حدثت بعد القرون الثلاثة- مذمومه مطلقه خلافاً لمن قال: حسنه و قبيحه، و لمن قسّمها خمسه أقسام إلا إن أمكن الجمع بأن يقال: الحسنه ما عليها السلف الصالح شامله للواجبه و المندوبه و المباحه، و تكون تسميتها بدعه مجازاً، و القبيحه ما عدا ذلك شامله للمحرّمه و المكروهه فلا بأس بهذا الجمع» (١).

و هذه النظرية الشاذّه عن الكتاب و السنّه نظريه خاصّه استنتجها القائل ممّا رواه الشيخان في باب فضائل أصحاب النبيّ و إليك نصّها:

روى البخارى قال: سمعت عمران بن الحصين يقول: قال رسول الله: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثه، «ثم إن بعدكم قوماً، يشهدون و لا يستشهدون، و يخونون و لا يؤتمنون، و يندرون و لا يفون، و يظهر فيهم السمّن».

و روى أيضاً عن عبد الله رضى الله عنه أن النبيّ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يجي ء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، و يمينه شهادته»، قال: قال

إبراهيم: و كانوا يضربوننا على الشهاده و العهد و نحنصغار [\(١\)](#).

إنَّ الاحتجاج بهذه الروايه على أنَّ الميزان في تمييز البدعه عن السنّه، هو أنَّ كلَّ ما حدث في القرون الثلاثه الأولى ليس ببدعه؛ و أمّا الحادث بعدها فهو بدعه؛ باطل بوجوه:

الأول: إنَّ القرن في اللغه هو النسل [\(٢\)](#) و هو الأمّه بعد الأمّه و بهذا المعنى استعمل في القرآن الكريم، قال سبحانه: «فَأَهْلَكْنَا هُم بِعَدُوِّهِمْ وَ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ» [\(٣\)](#) و بما أنَّ المتعارف في عمر كلِّ نسل هو الستون أو السبعون، يكون المراد، مجموع تلك السنين التي تتراوح بين ١٨٠ و ٢١٠ و أين هذا من تفسير الحديث بثلاثمائه سنه؟!

الثاني: على الرغم من اختلاف شراح الحديث في تفسير الروايه، إلّا أنَّ جميعها لا يستفاد منها ما يتبناه الكاتب، فبعض قال: إنَّ المراد من القرن في قوله:

«قرنى» هو أصحابه، و من «الذين يلونهم» أبناءهم و من «الثالث» أبناء أبنائهم.

و قال آخر: بأنَّ قرنه ما بقيت عين رأته، و من الثاني ما بقيت عين رأت من رآه، ثمَّ كذلك.

و ثالث قال: إنَّ قرنه الصحابه، و الثاني التابعون، و الثالث تابعوهم [\(٤\)](#).

و على كلِّ تقدير تكون المدّه أقلّ من ثلاثه قرون، حتى لو أخذنا بالقول الأخير الذى هو أعمّ الأقوال و أوسعها. فإنَّ آخر من مات من الصحابه هو أبو الطفيل، و قد اختلفوا في تاريخ وفاته على أقوال: فقيل: أنه توفّى سنه ١٢٠ أو

١- فتح البارى في شرح صحيح البخارى ٧: ٦ باب فضائل أصحاب النبى؛ صحيح مسلم بشرح النووى ٨: ٨٤-٨٥.

٢- لسان العرب ١٣: ٣٣٣ ماده «قران».

٣- الأنعام: ٦.

٤- صحيح مسلم، شرح النووى ١٦: ٨٥.

دونها أو فوقها بقليل، و أما قرن التابعين فأخر من توفى منهم كان عام ١٧٠ أو ١٨٠ و آخر من عاش من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من توفى حدود ٢٢٠، فيقل عن ثلاثة قرون بثمانين سنة، وهذا كثير جداً، ولأجل عدم انطباقه على ثلاثة قرون قال ابن حجر العسقلاني: «و في هذا الوقت ٢٢٠ هـ ظهرت البدع فاشياً، و أطلقت المعتزلة ألسنتها، و رفعت الفلاسفة رءوسها، و امتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، و تغيرت الأحوال تغيراً شديداً و لم يزل الأمر في نقص الى الآن» (١).

و لو افترضنا أن القرن يستعمل في مائه سنة فلا يصح تفسير الحديث به، لأن المحور في الحديث في تمييز قرن عن قرن آخر هو الأشخاص حسب أعمارهم، فعلى ذلك يجب أن يكون الملاك في تبادل القرون و تمايزها ملاحظه من كانوا يعيشون فيه حيث قال: «خير أمتي قرني» و لم يقل القرن الأول، ثم قال: «ثم الذين يلونهم» فلم يقل ثم القرن الثاني، و قال: «ثم الذين يلونهم» و لم يقل القرن الثالث، فلا محيص عند حساب السنين ملاحظه الأشخاص الذين كانوا يعيشون في قرنه و القرنين اللذين يليانه.

*** الثالث: ما ذا يراد من عباره خير القرون و شرّها، و ما هو الملاك في الوصف بالخير و الشر؟

هناك ثلاثة ملاكات للاتصاف بالخير و الشر، كلّها محتمل:

١- إن أهل القرن الأوّل كانوا خير القرون، و ذلك لأنهم لم يدبّ فيهم ديب الخلاف في الأصول و العقائد، و كانوا متماسكين في الأصول، متّحدين في العقائد.

٢- كونهم خير القرون و ذلك لسياده الطمأنينه فيهم، و كان الجميع متظلل بظلّ الصلح و السلم إخواناً.

١- فتح الباري في شرح صحيح البخارى ٧: ٤.

٣- كونهم خير القرون و ذلك لتمسكهم بأهداف الدين فى مقام العمل و تطبيق الشريعة.

و أى واحد أريد من هذه الملاكات؛ فالقرآن و السنّه و التاريخ القطعى لا يدعمه بل يكذبه، و إليك البيان:

فإن كان الملاك هو العقائد الصحيحه و الباطله، و أنّ المسلمين كانوا متمسكين جملة واحده بمعتقد واحد صحيح فى القرون الثلاثه الأولى ثم ظهرت رءوس الشياطين، و دبّت فيهم المناهج الكلاميه الفاسده،- فإن كان الملاك هذا- فتاريخ الملل و النحل لا يؤيد ذلك بل و يكذبه، فإنّ الخوارج ظهوروا بين الثلاثين و الأربعين من القرن الأول، و كانت لهم ادعاءات و شبهات و عقائد سخيغه خضّبوا فى طريقها وجه الأرض، و لم يتمّ القرن الأول إلّا و ظهرت المرجئه، الذين دعوا المجتمع الإسلامى إلى التحلل الأخلاقى، رافعين عقيرتهم بأنّه لا تضرّ مع الإيمان معصيه، فقد ضلّوا و أضلّوا كثيراً حتّى دبّ الإرجاء بين المحدثين و غيرهم فى القرن الثانى، و قد ذكر أسماءهم جلال الدين السيوطى فى تدریب الراوى «(١)». حيث كان الإرجاء يقود المجتمع الإسلامى إلى التحلل الأخلاقى، و الفوضى فى جانب العمل. إلى أن ظهرت المعتزله فى أوائل القرن الثانى عام ١٠٥ هـ قبل وفاه الحسن البصرى بقليل، فتوسّع الشقاق بين المسلمين، و انقسموا إلى فرق كثيره، حيث كان النزاع قائماً على قدم و ساق منذ أن ظهر الاعتزال على يد واصل بن عطاء حتى أواسط القرن الخامس الذى قضى فيه على هذه الفرقة.

و أما القرن الثانى فكان عصر ازدهار المذاهب الكلاميه، و كانت الأمصار ميداناً لتضارب الأفكار.

فمنهم مترمت يقتصر فى وصفه الله سبحانه على الألفاظ الوارده فى الكتاب

و السنّه، و يفسرها بمعانيها الحرفيه، من دون إمعان و تدبّر، و يرفعصوته بأنّ لله يداً و وجهاً و رجلاً و أنّه مستقرّ على عرشه.

و منهم مرجئى يكتفى بالإيمان بالقول، و يقدّمه و يؤخر العمل و يسوق المجتمع إلى التحلل الخلقى و ترك الفرائض.

و آخر محكّم يكفر كلّ الطوائف الإسلاميه غير أهل نحلته، الذين كانوا يبغضون الخليفتين عثمان و عليّاً، و كانوا يكفّرون الصديق الأعظم عليّ عليه السلام.

و معتزلى يؤوّل الكتاب و السنّه بما يوافق معتقده و عقليته.

و جهمى ينيصفت الله كلّها، و ينفى الاستطاعه و القدره عن الإنسان، و يحكم بفناء الجنّه و النار، و قد هلك جهم بنصفوان عام ١٢٨ هـ.

و كرامى يقول: الإيمان قول باللسان، و إن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن، و أنّه سبحانه جسم لا كالأجسام و قد هلك «كزام» عام ٢٥٥ هـ.

إلى غير ذلك من المناهج الرجعيه التى أفسدت المسلمين و المجتمع الإسلامى بعقائدها الفاسده، فكيف يمكن - من هذا الجانب - وصف هذه القرون خيراً؟!

و أمّا إذا كان الملاك هو صفاء المجتمع من حيث السلم و الصلح و سياده الطمأنينه على المسلمين، فهذا ما يكذّبه التاريخ، فإنّ القرن الأوّل كانصحيفه سوداء فى التاريخ الإسلامى، و كان قرناً دمويّاً لم يرّ التاريخ مثله. فكيف يكون خير القرون؟! و أىّ يوم فيه كان الصفاء و الصلح؟!

أمّ يوم قُتل فيه الخليفه عثمان بن عفان فى عقر داره بمرآى و مسمع من المهاجرين و الأنصار؟

أمّ يوم فتنه الجمل الذى قتلت فيه عشرات الآلاف من الطرفين بينصحابى و تابعى، و قد عقب ذلك ترميل النساء و أيتام الأطفال، و حدوث الأزمه و الشدّه؟

أمّ يومصفين الذى خرج فيه أمير الشام بوجه الإمام عليّ عليه السلام، الذى بايعه

المهاجرون و الأنصار بيعه لم ير لها نظير في التاريخ، فوقعَصِدَ دَمًا بين طائفتين من المسلمين كانت نتيجه إراقه دماء عشرات الألوْف، إلى أن انتهى إلى التحكيم؟

أم يوم ظهر الخوارج على الساحة الإسلاميه يغيرون و يقتلون الأبرياء إلى أن انتهت فتنهم بقتل مشايخهم في النهروان؟

أم يوم أُغير على آل رسول الله بكربلاء، حيث قتل فيه أبناء المصطفى، و فيهم سبطه و ريحانته سيد شباب أهل الجنه، و سُبيت بنات الزهراء و من معهنّ من نساء أهل البيت حتى لم يبق بيت له برسول الله صلّه إلّا و قد ضُيِّت فيه النوائح و عمته الآلام و الأحران؟

أم يوم أُبيحت فيه مدينه رسول الله في وقعه الحرّه الشهيره فقتل الأَصْحَاب و التابعون، و نهبت الأموال، و بقرت بطون الحوامل و هتكت الأعراض حتى ولدت الأَبْكَار دون أن يعرفن أولادهن؟ «(١)» أم يوم حاصر جيش بنى اميه مكّه المكرمه و البيت العتيق و رموه بالحجاره، لأجل القضاء على عبد الله بن الزبير؟

أم يوم تسلّم عبد الملك بن مروان منصفه الخلافه، و قد عيّن الحجاج بن يوسف عاملاً على العراق، فسفك دماءً طاهره، و قتل الأبرياء، و زجّ بالسجون رجالاً و نساءً من دون أن تظلمهم مظله تقيهم حرّ الشمس و برد الليل القارص؟

فكل تلك الحوادث الدمويه قد وقعت و لما ينقضى القرن الأوّل، فكيف يمكن أن يكون خير القرون و أفضلها؟!

و إن كانصاحب القرن هو الرسول الأعظم أفضل الخلق؟ إلّا أنّ سيرته،

تختلف عن سيره أُمَّته التي وقفتَ عليصوره مجمله من أفعالها الدمويه «(١)».

و إن كان الملاك هو تمسكهم بالدين فى مجال الأحكام و الفروع فهو أيضاً لم يتحقق، و إن شئت فارجع إلى ما حدث بعد رحيل النبى فى نفس عام الرحله، فإن كثيراً ممن رأى النبى الأكرم و أدركه و سمع حديثه أصبح يمتنع عن أداء الزكاه، بل و ارتد بعض عن دين الإسلام، لو لا أن يجمعهم الخليفه الأول و يرد عاديتهم.

لكن لا ندرى هل نصدق هذا الحديث أم نؤمن بما حدث القرآن الكريم، حيث يعتبر قوماً أعرف بمواقع الإسلام و يفضلهم على من كان فى حضره النبى من الصحابه الكرام و قد ارتد، يقول سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «(٢)» قل لى من هؤلاء الذين يعتز الله بهم سبحانه و يفضلهم على أصحاب النبى؟ فلاحظ التفاسير «(٣)».

لا ندرى هل نؤمن بهذا الحديث الذى رواه الشيخان أم نؤمن بما رواه أنفسهما فى باب آخر، قال: قال رسول الله: «يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى فيحلثون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابى، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقرى» «(٤)»

هل نؤمن بهذا الحديث أم نؤمن بما رواه المؤرخون فى حياه الوليد بن عقبه و هو الذى وصفه سبحانه بكونه فاسقاً و قال: «إن جاءكم فاسق بنبأ

١- للوقوف على هذه الحوادث المره، لاحظ تاريخ الطبرى، تاريخ يعقوبى، مروج الذهب للمسعودى، و تاريخ الكامل للجزرى، و الإمامه و السياسه لابن قتيبه إلى غير ذلك من المعاجم التاريخيه المعتمده.

٢- المائده: ٥٤.

٣- مفاتيح الغيب ٣: ٤٢٧؛ تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٦: ١٦٥.

٤- جامع الأصول ١١: ١٢٠: ٧٩٧٣.

فَتَبَيَّنُوا» (١١) و قد أطبق المفسرون في نزولها في الوليد بن عقبه.

هذا و قد ولى الكوفه أيام خلافه الخليفه الثالث فشرّب الخمر، و قام يصلى بالناس صلاه الفجر فصلّى أربع ركعات، و كان يقول في ركوعه و سجوده:

اشربى و اسقنى، ثمّ قاء في المحراب ثمّ سلّم و قال: هل أزيدكم إلى آخر ما ذكره (٢).

و ليس الوليد شخصاً وحيداً بين من عاصر النبى الأ-كرم، بل كان فيهم أصناف مختلفه لا يمكن الحكم باستقامتهم فضلاً عن الحكم بعدالتهم.

فقد كان فيهم المنافقون المعروفون بالنفاق (٣)، و المختفون به (٤)، و مرضى القلوب (٥)، و السّماعون كالريشه في مهبّ الرياح (٦)، و خالطوا العمل الصالح بالسيئ (٧)، و المشرفون على الارتداد (٨)، و المسلمون غير المؤمنين (٩)، و المؤلّفه قلوبهم (١٠)، و المولّون أمام الكفّار (١١)، و الفاسق (١٢).

نحن نترك تفسير الحديث إلى آونه أخرى، و لعلّ المحقّقين يجدون له تفسيراً ينطبق على التاريخ القطعى المشهود و الملموس.

١- الحجرات: ٦.

٢- الكامل ٢: ٥٢؛ اسد الغابه ٥: ٩١ إلى غيرهما من المصادر الكثيره.

٣- المنافقون: ١- ٨.

٤- التوبه: ١٠١.

٥- الأحزاب: ١٢.

٦- التوبه: ٤٥- ٤٧.

٧- التوبه: ١٠٢.

٨- آل عمران: ١٥٤.

٩- الحجرات: ١٤.

١٠- التوبه: ٦٠.

١١- الأنفال: ١٦.

١٢- الحجرات: ٦.

بدعه «جعل السلف معياراً للحق والباطل»

إن من البدعه فى تفسيرها، هو جعل السلف معياراً للحق والباطل والإصرار عليه، فترى أن كثيراً ممن ينتمون إلى السلفيه يصفون كثيراً من الأمور بالبدعه بحجّه أنّها لم تكن فى عصر الصحابه والتابعين، وهذا ابن تيميه يصف «الاحتفال فى مولد النبى بدعه بحجّه أنّه لم يفعله السلف، مع قيام المقتضى له و عدم المانع منه، و لو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً، لكان السلف-رضى الله عنهم- أحقّ ممّا فإنّهم كانوا أشدّ محبّه لرسول الله و تعظيماً له ممّا و هم على الخير أحرص» (١).

و يقول فى حقّ القيام للمصحف و تقيله: «لا نعلم فيه شيئاً مأثوراً عن السلف» (٢).

و قد ورث هذه الفكره كثير ممن يؤمن بمنهجه. و هذا هو عبد الله بن سليمان بن بليهد الذى قام باستفتاء علماء المدينه بتخريب قباب الصحابه و أئمه أهل البيت فى بيع الغرقد عام ١٣٤٤ هـ و قد نشر مقالاً فى جريده أمّ القرى فى عدد جمادى الآخر سنه ١٣٤٥ هـ جاء فيه: لم نسمع فى خير القرون أنّ هذه البدعه (البناء على القبور) حدثت فيها بل بعد القرون الخمسه (٣).

و بدورنا نشكر الشيخ ابن بليهد حيث وسع الأمر على المسلمين و أدخل عليها قرنين آخرين بعد ما قصر مؤلف الهديه السنيه العصمه على أهل القرون الثلاثه الأولى، و لكن نهيب بصاحب المقال بأنّ المسلمين و فى مقدمتهم عمر بن

١- اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٧٦.

٢- الفتاوى الكبرى ١: ١٧٦.

٣- كشف الارتباب: ص ٣٥٧-٣٥٨.

الخطاب رضى الله عنه قد فتحوا القدس، و فيها مقابر الأنبياء و مقام إبراهيم و يعقوب و أولادهم، و عليها قباب و أبنيه و لم يُدر بخلد أحدٍ حتى الخليفة بأنّها بدعه كى يهدموها بمعاولهم.

إنّ هناك كلاماً جميلاً للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، فقد أَلّف كتاباً باسم «السلفيه مرحله زمّتيه مباركه لا مذهب إسلامى» و قد أدّى فيه حقّ المقال، نقتطف منه ما يأتى:

إنّ من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمه (السلف) فنصوغ منها مصطلحاً جديداً، طارئاً على تاريخ الشريعه الإسلاميه و الفكر الإسلامى، ألا و هو «السلفيه» فنجعله عنواناً مميزاً تدرج تحته فئه معيّنه من المسلمين، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوماً معيناً، و تعتمد فيه على فلسفه متميزه، بحيث تغدو هذه الفئه بموجب ذلك جماعه إسلاميه جديده فى قائمه جماعات المسلمين المتكاثره و المتعارضه بشكل مؤسف فى هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها و ميولاتها بل تختلف عنهم حتى بمزاجها النفسى و مقاييسها الأخلاقيه كما هو الواقع اليوم فعلاً.

بل إننا لا نعدو الحقيقه إن قلنا: إنّ اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديده التى أشرنا إليها، بدعه طارئه فى الدين، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمّه و لا الخلف الملتزم بنهجه.

فإنّ السلف - رضوان الله عليهم -، لم يتخذوا من معنى هذه الكلمه بحدّ ذاتها مظهراً لأىّ شخصيه متميزه، أو أى وجود فكري أو اجتماعى خاص بهم، يميّزهم عمّن سواهم من المسلمين، و لم يضعوا شيئاً من يقينهم الاعتقادى أو التزاماتهم السلوكيه و الأخلاقيه فى إطار جماعه إسلاميه ذات فلسفه و شخصيه فكريه مستقلّه. بل كان بينهم و بين من نسّمهم اليوم بالخلف منتهى التفاعل و تبادل الفهم

و الأخذ و العطاء تحت سلطان ذلك المنهج الذى تمّ الاتفاق عليه، و الاحتكام إليه، و لم يكن يخطر فى بال السابقين منهم و لا اللاحقين بهم أنّ حاجزاً سيختلق ليرتفع ما بينهما بضيع طائفه من المسلمين فيما بعد، و ليقسم سلسله الأجيال الإسلاميه الى فريقين، يصنع كلاً منهما بلون مستقلّ من الأفكار و التصوّرات و الاتجاهات، بل كانت كلمتا السلف و الخلف فى تصوّراتهم لا تعنى - من وراء الانضباط بالمنهج الذى ألمحنا إليه - أكثر من ترتيب زمانى كالذى تدلّ عليه كلمتا: (قبل و بعد) «(١)».

إنّ ما ذكره هذا المحقق هو الحق القراح الذى لا يرتاب فيه من له إمام بالكتاب و السنّه و سيره المسلمين و تاريخهم، و أين هذا ممّا ذكره الدكتور سيد الجميلى حيث جعل للسلفيه و السلف حقيقه شرعيه و قال: كلمه السلفيه و السلف مصطلحان شرعيان «(٢)» و ليس هذا الاشتباه منه ببعيد لفضّاله علمه بالتاريخ و إن كنت فى شك فانظر كيف فشّر الأشاعره بقوله: هم أتباع أبى موسى الأشعري المتوفّى سنه ٤٤ هـ مع أنّهم من أتباع أبى الحسن الأشعري المولود عام ٢٦٠ هـ و المتوفّى عام ٣٢٤ هـ و هو من أحفاد أبى موسى الأشعري، فهذا مبلغ علمه و يريد أن يقضى بين الفقهاء و المجتهدين و المحدثين!!

١- السلفيه مرحله زمنيّه لا مذهب إسلامى: ص ١٣-١٤.

٢- مناظرات ابن تيميه مع فقهاء عصره: ١٠٣.

المبحث الخامس أسباب نشوء البدعه**أشاره**

البدعه عمل اختياري للمبدع و لها- كسائر الأفعال الاختياريه- أسباب و غايات يعدّ الجميع مناقشئ لها و لا توجد البدعه إلّا فى ظلّ أسباب و غايات و من خلال عرض النصوص الدينيه و ما دخل فى التاريخ من بدع، يمكن التوصل إلى ما نتبناه فى هذا الفصل.

١- المبالغه فى التعبد لله تعالى

هذا العنوان ذكره الشاطبى لى تعريفه للبدعه، حيث قال: «طريقه مخترعه تضاهى الشرعيه يقصد بالسلوك عليها المبالغه فى التعبد لله تبارك و تعالى» (١).

و هذا و إن لم يكن أمراً كلياً صادقاً فى جميع مواردّها لكّنه أحد أسباب نشوء البدع، كما يشهد له التاريخ و لعلّ من هذا المنطلق استأذن عثمان بن مظعون النبئ فى الإخصاء، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «ليس منّا من خصى أو اختصى، إنّ إخصاء أمّتى

الصيام» إلى أن قال: ائذن لي في الترهّب، قال: «إنّ ترهّب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة» [\(١\)](#)»

فإنّ المبتدع ربّما يتصوّر أنّ ما اخترعه من طريقه توصله إلى رضا الله سبحانه أكثر ممّا رسمه صاحب الشريعة، فلأجل ذلك يترك قول الشارع و يعمل طبق فكرته، و يذيع ذلك بين الناس باسم الشرع، و لهذا أيضاً شواهد في التاريخ نقتطف منها ما يلي:

١- روى جابر بن عبد الله: أنّ رسول الله كان في سفر فرأى رجلاً عليه زحام قد ظلّ عليه فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، قال صلى الله عليه و آله: «ليس من البرّ الصيام في السفر» [\(٢\)](#)»

٢- روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله خرج من المدينة إلى مكّة في شهر رمضان و معه الناس و فيهم المشاه، فلما انتهى إلى كراع الغميم دعا بقدر من ماء فيما بين الظهر و العصر فشرّب و أفطر ثمّ أفطر الناس معه و ثمّ أناس عليصومهم فسّماهم رسول الله العصاه و إنّما يؤخذ بآخر أمر رسول الله [\(٣\)](#)»

فإنّ الإنسان المترمّت يتخيّل أنّه لو سافر صائماً يكون عمله أكثر قبولاً عند الله تبارك و تعالي، و لكنّه غافل عن مناطات التشريع و ملاكاتها العامه، التي توجب الإفطار في السفر، ليكون الدين رفقاً بالإنسان، يجذب الناس إليه، قال سبحانه:

«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [\(٤\)](#)».

٣- روى مالك في الموطأ: أنّ رسول الله رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: «ما

١- الاعتصام ١: ٣٢٥.

٢- أحمد بن حنبل، المسند ٣: ٣١٩ و ٣٩٩، و لاحظ الفقيه ٢: ٩٢ / ٢.

٣- الكافي ٤: ١٢٧ / ٥ باب كراهية الصوم في السفر.

٤- الحجّ: ٧٨.

بال هذا؟» قال: نذر ألا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلس و يصوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مره فليتكلم و ليستظل و ليجلس و ليتمصيامه» (١).

٤- روى البخارى عن قيس بن أبى حازم: دخل أبو بكر على امرأه فرآها لا تتكلم فقال: «ما لها لا تتكلم؟» فقيل: حجّت مصمته، قال لها: «تكلمى فإنّ هذا لا يحلّ، هذا من عمل الجاهليه» فتكلّمت (٢).

٥- إنّ متعه الحجّ ممّا نصّ عليها الكتاب العزيز فقال: «فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» (٣) و المقصود من متعه الحجّ هو حجّ التمتع، و هو أن ينشئ المتمتع بها إحرامه فى أشهر الحجّ من الميقات، فيأتى مكّه و يطوف بالبيت ثم يسعى بين الصفا و المروه، ثم يقصّر و يحلّ من إحرامه، فيقيم بعد ذلك محلاً حتى ينشئ فى تلك السنه نفسها إحراماً آخر للحجّ من مكّه و يخرج إلى عرفات، ثم يفيض إلى المشعر الحرام ثم يأتى بأفعال الحجّ على ما هو مبين فى محله. هذا هو التمتع بالعمره إلى الحجّ و هو فرض من بعد عن مكّه بثمانيه و أربعين ميلاً من كلّ جانب، و إنّما أضيف الحجّ بهذه الكيفيه إلى التمتع (حج التمتع) أو قيل عنه: بالتمتع بالحجّ، لما فيه من المتعه أى اللذه بإباحه محظورات الإحرام فى المدّه المتخلله بين الإحرامين.

و لكن كان بينصحابه النبى من يستكره ذلك، فقد روى الدارمى قال: سمعت عام حجّ معاويه يسأل سعد بن مالك: كيف تقول بالتمتع بالعمره إلى الحجّ؟ قال:

حسنه جميله، فقال: قد كان عمر ينهى عنها فأنت خير من عمر؟! قال: عمر خير منى و قد فعل ذلك النبى هو خير من عمر (٤).

١- الموطأ ٢: ٤٧٥ / ٦ كتاب الأيمان و النذور.

٢- البخارى، الصحيح ٥: ٤١-٤٢ باب أيام الجاهليه.

٣- البقره: ١٩٦.

٤- الدارمى، السنن ٢: ٣٦ كتاب المناسك.

و روى الترمذى قال: حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، أنّه سمع سعد بن أبي وقاص و الضحاك ابن قيس عام حجّ معاوية بن أبي سفيان و هما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحجّ، فقال الضحاك بن قيس: لا يصنع ذلك إلّا من جهل أمر الله تعالى. فقال سعد: بنس ما قلت يا بن أخي! فقال الضحاك: فإنّ عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك. فقال سعد: قد صنعها رسول الله صلى الله عليه و آله و صنعناها معه. هذا حديث صحيح «(١)».

و روى ابن إسحاق عن الزهري عن سالم قال: إنّي لجالس مع ابن عمر فى المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحجّ، فقال ابن عمر: حسن جميل. قال: فإنّ أباك كان ينهى عنها. فقال: ويلك! فإن كان أبى نهى عنها و قد فعله رسول الله صلى الله عليه و آله و أمر به، أ فبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه و آله؟! قم عنى «(٢)».

و لأجل ذلك كان هذا الصحابى يحرم بإحرام واحد للعمرة و الحجّ، مع أنّ النبىّ أمر بالإحرام بإحرامين: الإحرام للعمرة ثمّ يتحلّل و يتمتع بمحظورات الإحرام ثمّ يحرم للحجّ، و ما هذا إلّا لزعم أنّ ترك التمتع بين العملين أكثر قربه إليه تعالى، و قد برّر فتواه بعد الاعتراف بأنّ عمره التمتع سنّه رسول الله بقوله: و لكننى أخشى أن يعرسوا بهنّ تحت الأراك ثمّ يروحوا بهنّ حجّاجاً «(٣)».

هذه بعض النماذج التى تعرّض لها التاريخ فى شتى المناسبات، و الجامع لذلك هو المبالغة فى التبعّد لله - حسب زعمه - و هى ناشئة عن قلّه استيعاب المبتدع لما يجب أن يعرفه، فإنّ الله سبحانه أعرف بمصالح العباد و مفاسدهم، و بأسباب السعادة

١- الترمذى، السنن ٣: ١٨٥، كتاب الحجّ، ط دار الفكر - بيروت.

٢- الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٨٨.

٣- أحمد بن حنبل، المسند ١: ٤٩.

و الشقاء، و لا يشدّ عن علمه شىء. و كم فى التاريخ الإسلامى من شواهد واضحة على هذا السبب [\(١\)](#).

٢- أتباع الهوى

إنّ استعراض تاريخ المتبئين الذين ادّعوا النبوه عن كذب و دجل، يثبت بأنّ الأهواء و حبّ الظهور و الصداره كان له دور كبير فى نشوء هذه الفكره و ظهورها علىصعيد الحياه، و المبتدع و إن لم يكن متبئاً، إلّا أنّ عمله شعبه من شعب التتبؤ، و فى الروايات إشارات و تصريحات إلى ذلك. فقد خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «أيها الناس إنّما بدء و قوع الفتن أهواء تُتبع، و أحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولّى فيها رجال رجالاً...» [\(٢\)](#).

إنّ لحبّ الظهور دوراً كبيراً فى الحياه الإنسانيه، فلو كانت هذه الغريزه جامحه لأدّت بالإنسان إلى ادّعاء مقامات و مناصب تختصّ بالأنبياء، و لعلّ بعض المذاهب الظاهره بين المسلمين فى القرون الأولى كانت ناشئه عن تلك الغريزه.

روى ابن أبى الحديد فى شرح النهج أنّ عليّاً مرّ بقتلى الخوارج فقال: «بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم»، فقيل: و من غرّهم؟ فقال: «الشيطان المضلّ، و النفس الأماره بالسوء، غرّهم بالأمانى و فسحت لهم فى المعاصى و وعدتهم الاظهار فاقتمت بهم النار» [\(٣\)](#).

١- لاحظ السيره النبويه لابن هشام ٢: ٣١٦-٣١٧، صلح الحديبيه.

٢- الكافى ١: ١/٤٥ باب البدع.

٣- شرح نهج البلاغه ١٩: ٢٣٥.

٣- حب الاستطلاع إلى ما هو دونه

إِنَّ حَبَّ الاستطلاع من نعم الله سبحانه؛ إذ في ظلّه يقف الإنسان على مجاهيله و يكتشف معلومات تهّمه في حياته، و لو لا ذلك الحَبّ لكان الإنسان اليوم في أوليات حياته في العلم و المعرفة، قال سبحانه: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١) و مع اشتراك الكلّ في تلك النعمة المعنوية إلّا أنّ الطاقات الكامنه لدى الإنسان تختلف من واحد إلى آخر، فليس لكلّ إنسان قابليه التطلع إلى كلّ شىء و استعراض جميع المجاهيل، و لهذا ربّما أدّى ذلك العمل إلى الزلّه في الفكر و المعتقد، و لذلك ترى عليناً عليه السلام ينهى عن الغور في القدر فيقول: «طريق مظلم فلا تسلكوه، و بحر عميق فلا تلجوه، و سرّ الله فلا تتكلفوه» (٢)

. و لكن الإمام نفسه تكلم في مواضع أخر عن القضاء و القدر حينما كان يجد إنساناً قادراً على درك المفاهيم الغامضه.

إِنَّ القرون الثلاثه الأول، كانت قرون ظهور المذاهب الكلاميه و الفقهيّه، و كانت الأمصار و حواضرها الكبرى ميداناً لمطارات الفرق المختلفه، و قد ظهرت في تلك القرون أكثر المذاهب و الفرق، مع أنّ الحقّ في طرف واحد، فلو أنّهم توحدوا في العقائد؛ لما أدّى بهم الأمر إلى شقّ العصى و إيجاد الفرقه، و بالتالي ذهاب الوحده الإسلاميه في مهبّ الريح ضحيه البحوث الكلاميه و الفقهيّه و غير ذلك.

كان للخوض في الآيات المتشابهات دور كبير في ظهور البدع في الصفات

١- النحل: ٧٨.

٢- نهج البلاغه: الحكمة ٢٨٧.

الخبريه، و فى تفسير اليد و الرجل و الوجه لله سبحانه الوارده فى الكتاب و السنّه، فقد كان البسطاء يخوضون فى تفسيرها من دون إرجاعها إلى المحكمات التى هى أم الكتاب و ما هذا إلا لقصور أفهامهم و قلّه بضاعتهم العلميه، فكان واجبه السكوت و سؤال الراسخين فى العلم، دون الخوض فيها.

إنّ للشيخ الرئيس أبى على ابن سينا نصيحه لطلاب الفلسفه و الحكمه، يحثّهم على عدم إذاعه ذلك العلم بين اناس ليس لهم قابليه التفكير الواسع، فيقول فى آخر كتاب الإشارات:

«أيها الأيخ إنى قد مخضت لك فى هذه الإشارات عن زبده الحق، و ألقمتك قفى «(١)» الحكم فى لطائف الكلم. فضيئه عن الجاهلين و المبتدلين و من لم يرزق الفطنه الوقاده و الدرجه و العاده و كانصغاه «(٢)» مع الغاغه، أو كان من ملحده هؤلاء الفلاسفه و من همجهم، فإن وجدت من تثق بنقاء سريره و استقامه سيرته و بتوقفه عمّا يتسرّع إليه الوسواس، و ينظر إلى الحقّ بعين الرضا و الصدق فآته ما يسألك منه مدرجاً مجزاً مفرقاً تستفرس ممّا تسلفه لما تستقبله. و عاهده بالله و بأيمان لا مخارج لها ليجرى فيما يأتيه مجراك متأسياً بك فإن أذعت هذا العلم أو أضعته فالله بينى و بينك و كفى بالله و كيلاً «(٣)».

٤- التعصّب الممقوت

و هناك سبب آخر لا يقل تأثيره عمّا سبق من الأسباب و هو تقليد الآباء و الأجداد، وصيانه كيانهم و سننهم، فإن أتباع الأهواء القبليه و القوميه و ما شاكل فإنّها من أعظم سدود المعرفه و موانعها، و هى التى منعت الأمم عبر التاريخ من

١- القفى: الشىء الذى يؤثر به للصنف.

٢- صغاه: ميله.

٣- كتاب الإشارات ٣: ٤١٩.

الخشوع للأنبياء و الرسل رغم البراهين الواضحه كما يقول سبحانه: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (١).

و من هذا المنطلق، اقترح تميم بن جراشه على النبي - عند ما جاء على رأس وفد من الطائف يخبره بإسلام قومه - أن يكتب لهم كتاباً، بأن يفى لهم بأمور، يقول:

قدمتُ على النبي صلى الله عليه و آله في وفد ثقيف فأسلمنا و سألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط فقال: اكتبوا ما بدا لكم ثم ايتوني به، فسألناه في كتابه أن يحل لنا الربا و الزنا، فأبى عليّ رضي الله عنه: أن يكتب لنا، فسألنا خالد بن سعيد بن العاص، فقال له علي: تدري ما تكتب؟ قال: أكتب ما قالوا، و رسول الله صلى الله عليه و آله أولى بأمره، فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال للقارئ: اقرأ، فلما انتهى إلى الربا قال: «ضع يدي عليها في الكتاب»، فوضع يده فقال: «يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» (٢) الآية، ثم محاها، و أُلقيت علينا السكينه فما راجعناه، فلما بلغ الزنا وضع يده عليها (و قال: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً» (٣) الآية، ثم محاها و أمر بكتابتنا أن ينسخ لنا (٤)).

و رواه ابن هشام بصوره أخرى قال: و قد كان ممياً سألوا رسول الله صلى الله عليه و آله أن يدع لهم الطاغية؛ و هي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله صلى الله عليه و آله ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة، و يأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، و إنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلّموا بتركها من سفهائهم و نسائهم و ذراريهم، و يكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى

١- الزخرف: ٢٣.

٢- البقره: ٢٧٨.

٣- الإسراء: ٣٢.

٤- أسد الغابه ١: ٢١٦ ماده تميم و ٣: ٤٠٦.

يدخلهم الإسلام، فأبى رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله أن يبعث أبا سفيان بن حرب و المغيره بن شعبه فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، و أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم. فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، و أما الصلاة، فإنّه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا محمد، فسئوئيكها، و إن كانت دناءه «(١)».

انظر إلى التعصّب المميت للعقل يسأل رسول الله - الذي بعث لكسر الأصنام و تحطيم كلّ معبود سوى الله - أن يدع لهم الطاغية و هي اللات لا يهدمها ثلاث سنين....

و كان هذا الاقتراح نابغاً عن العصبية لطرق الآباء و سلوكهم، و كان المقترح في حضره النبي صلى الله عليه وآله.

هذه هي الأسباب العامّة، و هناك أسباب خاصّة لظهور البدع في المجتمع الإسلامي لا تخفى على القارئ الكريم منها.

٥- التسليم لغير المعصوم

إنّ من أسباب نشوء البدع التسليم لغير المعصوم، فلا شكّ أنّه يخطأ و ربّما يكذب، فالتسليم لقوله سبب للفريه على الله سبحانه و التدخّل في دينه عقيدة و شريعته.

فإذا كان النبي الأكرم خاتم النبيين و كتابه خاتم الكتب و شريعته خاتمه الشرائع؛ فلا حكم إلّا ما حكم به، و لا سنّه إلّا ما سنّه، و الخروج عن هذا الإطار تمهيد لطريق المبتدعين. و في ضوء ذلك لا معنى معقول لتقسيم السنّه إلى سنّه النبي

و سنّه الصحابه، و تلقّى الأخيره حجّه شرعيه و إن لم تُسند إلى المصدرين الرئيسيين. و هذه كتب الحديث و الفقه تطفح بسنّه الصحابه؛ فهناك سنن تُنسب إلى الخليفه الأوّل و الثاني و الثالث، فما معنى هذه السنن إذا لم تستند إلى الكتاب و السنّه؟! و لو أُسندت فلا معنى لإضافتها إليهم. كما أنّ الإفتاء بمضمون تلك السنن بدعه فى الشريعه.

و هناك كلام للدكتور عزّت على عطيه، جعل فيه الاقتداء بأئمه أهل البيت تسليماً لغير المعصوم ثمّ قال: نتساءل عن الصله بين هذا الإمام و بين الله جلّ جلاله، هل هى وحى، أم إلهام أم حلول؟ إن كانت وحياً فقد نفوه، و إن كانت حلولاً فهو الكفر بعينه، و إن كانت إلهاماً فما الذى يفرق بينه و بين وساوس الشيطان و خطرات النفوس [\(١\)](#).

إنّ الدكتور عطيه لم يدرس عقائد الإماميه حقّها و إنّما اكتفى بكتابتصغير كتب فى بيان العقائد لا فى البرهنه عليها، و لو أنّه رجع إلى علمائهم و مؤلفاتهم لوقف على أدلّه عصمه الأئمه، فإنّ أحد تلك الأدلّه هو حديث الثقلين الذى أطبق المحدّثون على نقله، و هو أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «إنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتى أهل بيتى لن تضلّوا ما إن تمسّ بكم بهما». فإن كانت العتره عدلاً للكتاب و قريناً له فتوصف بوصفه، فالكتاب معصوم عن الخطأ «لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه» [\(٢\)](#) فتكون العتره مثله.

و أديا مصدر علومهم؛ فغالب علومهم مأخوذ من الكتاب و السنّه إذ أخذ على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله، و أخذ الحسن عليه السلام عن أبيه، و هكذا كل إمام يأخذ عن أبيه، علم يتناقل ضمن هذه السلسله الطاهره المعروفه، و لم يأخذ أحد منهم عليهم السلام عن

١- البدعه: ٢٤٥.

٢- فصلت: ٤٢.

صحابى و لا تابعى أبداً، بل أخذ الجميع عنهم، و منهم انتقلت العلوم إلى الآخرين كما تلقاها رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله من لدن حكيم خبير.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لو كنّا نحدّث الناس برأينا و هوأنا لهلكنا، و لكن نحدّثهم بأحاديث نكتزها عن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله كما يكتز هؤلاء ذهبهم و فضّتهم».

و هناك مصدر آخر لعلومهم و هو أنّهم محدّثون كما أنّ مريم كانت محدّثة، و كما كان عمر بن الخطاب محدّثاً حسب ما رواه البخارى، روى أبو هريره قال: قال النبى: «لقد كان فيمن قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن كان من أمتى أحد فعمر» (١)

. لكن الدكتور خلط بين التحديث و الوحي.

و أمّا أنّهم بما ذا يميّزون الإلهام من وساوس الشيطان، فليس بأمر عسير؛ فإنّ الوسواس تدخل القلب بتردد و الإلهام يرد النفس بصورة علم قاطع و لأجل ذلك تلقّت مريم و أمّ موسى ما ألهمتا به، كلاماً إلهياً، لا وسوسه شيطانية.

١- البخارى، الصحيح ٢: ١٩٤ باب مناقب عمر بن الخطاب.

المبحث السادس تقسيمات البدعه**١- تقسيم البدعه إلى حسنه و سيئه****اشاره**

إذا كانت البدعه بمعنى التدخّل في أمر الشرع بزياده أو نقيصه في مجالى العقيدته و الشريعة، من غير فرق بين العبادات و المعاملات و الإيقاعات و السياسات، فليس لها إلّا قسم واحد لا يُثنّى و لا يتكثّر و لكن ربّما تقسم البدعه إلى تقسيمات نذكر منها ما يلي:

أصل نشوء هذا التقسيم:

لقد جاء هذا التقسيم في كلمات الإمام الشافعى، و ابن حزم و الغزالى و الدهلوى و ابن الأثير [\(١\)](#) و غيرهم، و الأصل في ذلك قول الخليفه عمر بن الخطاب، و قد ظهر على لسانه في السنه الرابعه عشره من الهجره، عند ما جمع الناس للصلاه بإمامه أبي بن كعب في شهر رمضان و وصف الجماعه بقوله: «نعم البدعه هذه» و الأصل في ذلك ما رواه البخارى و غيره.

قال عبد الرحمن بن عبد القارى: خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليله رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلّى الرجل لنفسه، و يصلّى الرجال فيصلّى بصلاته الرهط فقال عمر: إننى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبى بن كعب، ثم خرجت معه ليله أخرى و الناس يصلّون بصلاه قارئهم، قال عمر: «نعم البدعه هذه و التى ينامون عنها أفضل من التى يقومون» يريد آخر الليل، و كان الناس يقومون أوّله [\(١\)](#).

إنّ إقامهصلاه التراويح جماعه لا تخلو منصورتين:

الأولى: إذا كان لها أصل فى الكتاب و السنّه، فعندئذ يكون عمل الخليفه إحياء لسنّه متروكه سواء أراد إقامتها جماعه أو جمعهم على قارئ واحد، فلا يصحّ قوله:

«نعم البدعه هذه» إذ ليس عمله تدخّلاً فى الشريعه.

الثانيه: إذا لم يكن هناك أصل فى المصدرين الرئيسيين، لا- لإقامتها جماعه أو لجمعهم على قارئ واحد، و إنّما كره الخليفه تفرّق الناس، و لأجل ذلك أمرهم بإقامتها جماعه، أو بقارئ واحد، و عندئذ تكون هذه بدعه قبيحه محرّمه.

توضيح ذلك أنّ البدعه التى تحدّث عنها الكتاب و السنّه هى التدخّل فى أمر الدين بزياده أو نقيصه، و التصرّف فى التشريع الإسلامى، و هى بهذا المعنى لا يمكن أن تكون إلّا أمراً محرّماً و مذموماً و لا يصحّ تقسيمه إلى حسنه و قبيحه، و هذا شىء واضح لا يحتاج إلى استدلال.

نعم، البدعه بالمعنى اللغوى التى تعمّ الدين و غيره تنقسم إلى قسمين، فكلّ شىء محدث مفيد فى حياه المجتمعات من العادات و الرسوم، إذا أدّى به من دون الاسناد إلى الدين و لم يكن محرّماً بالذات شرعاً، كان بدعه حسنه، أى أمراً جديداً مفيداً للمجتمع، كما إذا احتفل الشعب بيوم استقلاله فى كلّ عام، أو اجتمع

١- البخارى، الصحيح ٣: ٥٨ كتاب الصوم، باب فضل من قام رمضان.

للبراء من أعدائه أو أقام الأفراح لمولد بطل من أبطاله، و بالجمله ما هو حلال بالذات لا مانع من أن تتفق عليه الأمة، و تتخذه عادة متبعه فى المناسبات، و يكون بدعه لغويه.

و أمّا ما كان محرّماً بالذات فهو محرّم ليس من باب البدعه. فلو اتّخذ أمراً مرسوماً و رائجاً، مثل دخول النساء سافرات متبرّجات فى مجالس الرجال فى الاستقبالات و الضيافات، فهذا أمر حرام بالذات أولاً، و ليس بمحرّم من باب البدعه الشرعيه، بمعنى التدخّل فى أمر الدين و التسنين فيه و التشريع على خلاف ما شرّعه الشارع، و إنّما هو عمل محرّم اتّخذ رائجاً لا باسم الدين و لا باسم الشرعيه، و أقصى ما يعتذر بأنّه مقتضى الحضاره العصريه، مع الاعتراف بكونه مخالفاً للشرع، و لو قيل إنّ بدعه قبيحه أو مذمومه، فإنّما هو بحسب معناها اللغوى.

و بذلك يظهر أنّ أكثر من أظن الكلام فى تقسيم البدعه إلى حسنه و سيئه فقط خلط البدعه فى مصطلح الشرع بالبدعه اللغويه، فأسهبوا فى الكلام و أتوا بأمثله كثيره زاعمين أنّها من البدع الشرعيه مع أنّ أمرها يدور بين أمرين:

إمّا أنّها عمل دينى يؤتى بها باسم الدين و الشرعيه، و لكن يوجد لها أصل فيهما، فتخرج بذلك عن عنوان البدعه، كتدوين الكتاب و السنّه إذا خيف عليهما التلف من الصدور، و بناء المدارس و الرُّبُط [\(١\)](#) و غيرهما. و قد مثلوا بالتدوين للبدعه الواجبه، و ببناء المدارس و الرُّبُط بالبدعه المستحبّه، مع أنّهما ليسا ببدعه لوجود أصل صالح لهما فى الشرعيه.

أو أنّها عمل عادى لا يؤتى بها باسم الدين بل يؤتى بها لأجل تطوير الحياه و طلب الرفاه، فتكون خارجاً عن موضوع البدعه فى الشرع، كنخل الدقيق، فقد

١- جمع رباط؛ و هو ما يبنى للفقراء، مولد المصباح المنير: ص ٢١٥ ط دار الهجره

ورد أنّ أوّل شيء أحدثه الناس بعد رسول الله، اتّخاذ المناخل و لين العيش من المباحات.

و إنّما يصح إطلاق البدعه عليها بالمعنى اللغوي، بمعنى الشيء الجديد، سواء كان عملاً دينياً أو عادياً. وقد وافقنا على نفي ذلك التقسيم لفييف من المحقّقين:

منهم: أبو إسحاق الشاطبي في كلام مسهب نذكر منه ما يلي:

إنّ متعلّل البدعه يقتضى ذلك بنفسه لأنّه من باب مضاده الشارع و أطراح الشرع، و كلّ ما كان بهذه المثابه فمحال أن يتقسم إلى حسن و قبيح، و أن يكون منه ما يمدح و منه ما يذم؛ إذ لا يصح في معقول و لا منقول استحسان مشاقه الشارع.

و أيضاً فلو فرض أنّه جاء في النقل استحسان بعض البدع أو استثناء بعضها عن الذمّ لم يتصوّر؛ لأنّ البدعه طريقه تضاهي المشروعه من غير أن تكون كذلك.

و كون الشارع يستحسنها دليل على مشروعيتها؛ إذ لو قال الشارع «المحدثه الفلانيه حسنه» لصارت مشروعيه.

و لئما ثبت ذمّها، ثبت ذمّصاحبها، لأنّها ليست بمذمومه من حيث تصوّرها فقط، بل من حيث اتّصف بها المتّصف، فهو إذن المذموم على الحقيقه، و الذمّ خاصه التأييم، فالمبتدع مذموم آثم، و ذلك على الإطلاق و العموم» (١).

و منهم: العلّامة المجلسي قال: «إحداث أمر لم يرد فيه نصّ بدعه، سواء كان أصله مبتدعاً أو خصوصياته مبتدعه فربما يقال: إنّ البدعه منقسمه بانقسام الأحكام الخمسه أمر باطل؛ إذ لا تطلق البدعه إلّا على ما كان محرّماً، كما قال رسول الله: «كلّ بدعه ضلاله، و كلّ ضلاله سبيلها إلى النار» (٢).

و منهم: الشهيد في قواعد قال: محدثات الأمور بعد النبيصلى الله عليه و آله تنقسم أقساماً:

١- الموافقات ١: ١٤٢.

٢- البحار ٧٤: ٢٠٣.

لا يطلق اسم البدعه عندنا إلّا على ما هو محرّم منها [\(١\)](#).

سؤال و جواب:

و هناك سؤال يطرح نفسه، و هو أنه إذا كانت البدعه قسماً واحداً و أمراً محرّماً مقابل السنّه، لا تقبل التقسيم إلى غيره فما معنى قولهم صلى الله عليه و آله: «من سنّ في الإسلام سنّه حسنه فعمل بها بعده، كتب له أجر من عمل بها و لا ينقص من أجورهم من شىء، و من سنّ سنه سيئه فعمل بها بعده كتب له مثل وزر من عمل بها و لا ينقص من أوزارهم شىء» [\(٢\)](#).

و الجواب: أنّ الشقّ الأوّل راجع إلى المباحات العامّه المفيده للمجتمع، كإنشاء المدارس و المكتبات و سائر الأعمال الخيريّه، فلو أنّ رجلاً قام - برفض الأُمّيّه - بإنشاء مدرسه أو مكتبه و صار عمله أسوه للغير، فقام الآخرون بإنشاء مدارس فى سائر الأماكن، فهو سنّه حسنه.

و أمّا الشقّ الثانى: فهو راجع إلى الأمور المحرّمه بالذات، فلو قام أحد بضيافه أشرك فيها النساء السافرات المتبرّجات، ثمّ صار عمله قدوه للآخرين، فعلى هذا المسنن وزر عمله و وزر من عمل بسنّته.

و على ضوء ذلك فالحديث لا يمت بصله الى البدعه المصطلحه، و لم يكن ببال أحد من الشخصين التدخّل فى أمر الشرع بالزيادة و النقيصه، بل كلّ قام بعمل خاصّ حسب دواعيه و حوافزه النفسيه، فالإنسان العاطفى يندفع إلى القسم الأوّل الذى ربّما يكون مباحاً أو مسنوناً، و من حسن الحظّ، يكون عمله قدوه، و الإنسان الإجرامى يندفع إلى القسم الثانى، فيعصى الله سبحانه لا باسم البدعه بل

١- القواعد و الفوائد ٢: ١٤٤-١٤٥ القاعده ٢٠٥. و نعلّق على كلامه أنّ القسم إنّما يكون بدعه إذا أتى باسم الدين، و إلّا يكون محرّماً و معصيه لا بدعه.

٢- مسلم، الصحيح ٨: ٦١ كتاب العلم.

بارتكاب عمل محرّم، و من سوء الحظّ يكون عمله قدوه.

فكلا العملين لاصله لهما بالبدعه الشرعيه أصلاً، و لو أُطلقت فإنّما تطلق عليهما بالمعنى اللغوي، أى إبداع أمر لم يكن، سواء أ كان مباحاً أم حراماً، و من المعلوم أنّه ليس كلّ محرّم بدعه و إن كانت كلّ بدعه محرّمه.

٢- تقسيم البدعه إلى عادية و شرعية

إشارة

قد عرفت أنّ للبدعه تقسيمات باعتبارات مختلفه، و عرفت مديصحّه تقسيمها إلى حسنه و سيئه، و منها أنّها تنقسم إلى عادية و شرعية، و هذا العنوان أوضح ممّا ذكره الشاطبي حيث قال:

تقسيمها إلى العادية و التعبدية «(١)»، و ذلك لأنّ الأمور التعبدية قسم من الأحكام الشرعية التي يعتبر فيصحها امتثالها قصد القربة، و الإتيان بها لأجل التقرب و كسب الرضا و امتثال الأمر، و هي منحصّره بالطهارات الثلاث: الوضوء و التيمّم و الغسل بأقسامه، و الصلاة و الزكاه و الصوم و الحجّ و النذر و ما ضاهاها، و لكن الأمور الشرعية هي التي للشارع فيها دور، أوسع من التعبديات. و لذلك قسّم الفقهاء الأحكام الشرعية إلى أربعة:

١- العبادات، و يدخل فيها ما ذكرناه من الأصناف.

٢- العقود، و تدخل فيها عامه المعاملات ممّا تحتاج إلى إيجاب و قبول، كالبيع و الرهن و الوديعه و الصلح و الشركه و المضاربه و المساقاه و المزارعه إلى غير ذلك ممّا هو مذكور في محلّه.

٣- الإيقاعات و هي ما تقوم بجانب واحد، كالطلاق بأقسامه و الإيلاء

و الظهار، و تدخل فيها المواريث إلحاقاً حكماً.

٤- السياسات، و يدخل فيها القضاء و الحدود و الدييات و ما شابهها.

فلو كان هناك شىء خارج عن الأبواب الأربعة موضوعاً، فهو بوجه ما ملحق بواحد منها، فهذه كلها أمور شرعية و للشارع فيها دور، إمّا تأسيساً و اختراعاً كالعبادات و الحدود و الدييات، أو إمضاً و اعترافاً لما فى يد العقلاء، لكن مع تحديدها بشروط المذكوره فى الفقه. فالتداخل فى هذه الأبواب الأربعة بزياده أو نقيصه كالنكاح بلا صداق، أو البيع بلا ثمن، و الإجاره بلا أجره، و الطلاق فى أيام الحيض أو تجويز الربا و بيع الكلب و الخنزير، أو تحوير الأحكام الشرعية فى باب السياسات، كلها بدعه فى أمور شرعية.

كلّ هذا يُلزِمنا أن نعتبر بالشرعية مكان التعبدية إلّا أن يراد منها ما يرادف مطلق الأحكام و الأمور الشرعية فإذا لا مشاحه فى الاصطلاح.

و أمّا العاديه: فهى إمّا تدور مدار تقاليد و أعراف الناس، سواء أ كانت لها جذور تاريخيه أم كانت أمراً محدثاً. و إمّا تطوير لمظاهر الحياه العامه، الصناعيه أو الثقافيه أو الزراعيه أو غير ذلك. و كل ذلك أمور عاديه تركها الشارع إلى الناس، و جعل الأصل فيها الإباحه، لكنّه حدّدها بأطر عامه، و لم يتدخل فى جزئياتها، و ما لم تخالف الضوابط العامه فالناس فيها أحرار يفعلون ما يشاءون، و يعملون ما يريدون.

فعلى ذلك هل يقع البحث فيصدق البدعه فى الأمور العاديه مقابل الأمور الشرعية التى تعرّفت على معناها الواسع، أو لا يقع؟ و بما أنّك وقفت على حدود البدعه، و أنّها عباره عن الزيادة أو النقيصه فى الشريعة و التدخل فى الأمور الدينيه، فلا تصدق فى مورد الأمور العاديه بأى نحو كانت، إذ ليست هى أموراً تمت إلى الشرع، فأمرها يدور بين الجائز و الحرام لا بين البدعه و السنّه. و ليس كلّ

حرام بدعه، و إليك التوضيح:

إنَّ لكلِّ قوم آداباً خاصه في لقاءاتهم السنويّه، و أمورههم العمرانيه، و في كيفية استغلال الطبيعه، فمثلاً ربّما تقتضى مصلحتهم تخصيص يوم واحد لتكريم زعيمهم، أو يوم واحد للبراءه من عدوّهم، أو توجب المصالح تطوير خدماتهم العمرانيه و ما ضاهاها، أو استخدام أجهزه حديثه لاستغلال الطبيعه، فقد ترك الشارع هذه الأمور إلى الناس، و لم يتدخل فيها إلّا بوضع الأطر العامه لها، و هي أن لا يكون العمل مخالفاً للقواعد و الضوابط العامه، و لو لا هذه المرونه لما كان الإسلام ديناً عالمياً سائداً، و لتوقّفت حركته منذ أقدم العصور، و نأتى بمثال لمزيد من التوضيح:

قد حدثت في العصور الأخيره عدّه تقاليد في ميدان الألعاب الرياضيه؛ ككره القدم، و السلّه، و الطائرّه، و المصارعه، و الملاكمه، و غير ذلك فيما أنّها امور عاديّه محدثه فلا تعدّ بدعه في الدين. و لو صحّ إطلاق البدعه فإنّما هو باعتبار المعنى اللغوي، أي الشئ الجديد في ميادين الحياه، لا في الأمور الشرعيه، غايه الأمر يجب أن تحدد شرعيّتها بالضوابط الكليه، بأن لا يكون هناك اختلاط بين الرجال و النساء من اللاعبين، و أن لا يكون هناك ضرر و إضرار كما هو المحتمل في الملاكمه.

و الحاصل: أنّ الأصل في الأمور العاديّه هو البراءه حتى يدلّ دليل على خلافه. و قد صرّح بذلك لفيف من العلماء منهم ابن تيميه، يقول: إنّ أعمال الخلق تنقسم إلى قسمين:

١- عبادات [\(١\)](#): يتخذونها ديناً ينتفعون بها في الآخره أو في الدنيا و الآخره، و الأصل أن لا يشرّع منها إلّا ما شرّع الله.

١- يريد من العبادات: الأمور الشرعيه من دون أن تختص بما يعتبر في امثالها قصد القربه.

٢- عادات: ينتفعون بها في معاشهم، والأصل فيها أن لا يُحظر فيها إلّا ما حظر الله» (١).

ثمّ إنّه لو أتى في العادات بما حظره الله لا تعدّد بدعه بل يكون محرّماً، لأنّ المفروض أنّه يأتي به ويحدثه باسم التقاليد لا باسم الدين، وربما يعترف بكونه على خلاف الدين، كما إشراك النساء السافرات في الضيافة مع الرجال. حتى وإنصار الأمر العادي المحرم رائجاً بينهم.

نعم شدّ قول الدكتور عزت على في المقام حيث يقول: «فيما حظره الله منها إذا كان من الأمور المحدثه كان بدعه» (٢).

لكن يلاحظ عليه، بما ذكرناه في تحديد البدعه بتضافر الكتاب والسنة على كونه التدخل في أمر الشريعة بالزيادة أو النقصه و تنسيبه إلى الشارع، وهذا لا يصدق على كلّ محدث في الأمور العاديه، وإن كان محرّماً، نعم هو بدعه بالمعنى اللغوي، حتى لو صار عمله الإجرامى سنّه سيئه يكون عليه وزر كل من عمله بها، لكن لا بما أنّه أبتدع في الدين، وتدخل في الشريعة، وقد مرّ نص في تفسير قولله صلى الله عليه وآله: «من سنّ سنّه حسنه...» ما يفيدك في المقام.

قال الشيخ شلتوت: «التكاليف الشرعيه تنقسم إلى عقائد و عبادات و محرّمات» (٣)، ثمّ قال: أمّا ما لم يتعبدنا (٤) الله بشىء منه، و إنّما فوّض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقاً لمصلحتنا، و محققاً لخيرنا بحسب العصور و البيئات، فإنّ التصرف فيه بالتنظيم أو التغيير، لا يكون من الابتداع الذى يؤثّر على تدبّر

١- اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٩.

٢- البدعه: ٢٦٥.

٣- لا يخفى ما من المسامحه فى هذا الحصر، لأنّ التكاليف الشرعيه أوسع من الثلاثه كالأحوال الشخصيه.

٤- يريد من التعبّد، ما للشارع فيه دور، فيعم جميع أبواب الفقه و الأقسام الأربعة.

الإنسان و علاقته برّبّه، بل أنّ الابتداع فيه من مقتضيات التطوّر الزمني الذي لا يسمح بالوقوف عند حدّ الموروث من وسائل الحياه عن الآباء و الأجداد «(١)».

الإسلام بين التزمّت و التحلّل من القيود الشرعيه

إنّ بين المسلمين من يريد حصر الأمور السائغه بما هو موجود في عصر الرسول الأكرم، لذا يعدّ نخل الدقيق بدعه، بحجه أنّه لم يكن في عصره صلى الله عليه و آله أى منخل «(٢)». و بين من يريد التحلّل من كلّ قيد ديني في مجال العمل، فلا يلتزم في حياته بشيء مما جاء به الإسلام.

فالإسلام لا هذا و لا ذاك، فهو يرفض التزمّت إذا كان العمل غير خارج عن الأطر العامه الوارده في الكتاب و السنّه، كما يرفض التحلّل من كلّ قيد. فأفه الدين ليست منحصره بالثاني بل آفه الأول ليست بأقل منه.

فإنّ حصر الجائز من الأمور العاديه بما كان رائجاً في عصر النبيّ أو عصر الصحابه كبت للعقول، و تقييد للحركه الحضاريه عن التقدّم نحو الكمال. و إظهار الإسلام بأنّه غير قابل للتطبيق في جميع الأعصار المتقدّمه فضلاً عن عصر الدرّه.

علماً أنّ من الأسباب التي أوجبت خلود الدين الإسلامي، و أعطته الصلاحيه للبقاء مع اختلاف الظروف و تعاقب الأجيال كونه ديناً جامعاً بين الدعوه إلى الماده و الدعوه إلى الروح، و ديناً وسطاً بين الماديه البحتة و الروحيه المحضه، فقد آلف بتعاليمه القيمه بينهما، مؤلفه تفي بحقّ كلّ منهما، بحيث يتيح للإنسان أن يأخذ قسطه من كلّ منهما بقدر ما تقتضيه المصلحه.

و ذلك أنّ المسيحيه غالت في التوجه إلى الناحيه الروحيه، حتى كادت أن

١- الفتاوى: ١٦٣.

٢- الاعتصام ٢: ٧٣.

تجعل كلّ مظهر من مظاهر الحياه الماديه خطيئه كبرى، فدعت إلى الرهبانيه، و ترك ملاذ الحياه، و الانعزال عن المجتمع، و العيش فى الأديره و قلل الجبال، و تحمّل الظلم و الرفق مع المعتدين؛ كما غالت اليهوديّه فى الانكباب على الماده حتى نسيت كلّ قيمه روحيه و جعلت الحصول على المادّه بأى وسيله كانت، المقصد الأسنى، و دعت إلى القوميه الغاشمه و الطائفه المقيته.

و هذه المبادئ سواء أصحّت عن الكليم و المسيح عليهما السلام أم لم تصحّ (و لن تصحّ إلّا أن يكون لإنقاذ الشعب الإسرائيلى من ملاذ الحياه يوم ذاك و إنجائهم عن التوغّل فى الماديات، و سحبهم إلى المعنويات بشده و عنف.

و إن شئت قلت: كانت تعاليمه إصلاحاً مؤقتاً لإسراف اليهود و غلوهم فى عباده المال حتى أفسدوا أخلاقهم، و آثروا دنياهم على دينهم) هذه المبادئ لا تتماشى مع الحضارات الإنسانيه التقدميه و لا تسعدها فى معترك الحياه، و لا تتلاءم مع حكم العقل و لا الفطره السليمه.

لكن الإسلام جاء لينظر إلى واقع الإنسان، بما هو كائن، لا غنى له عن الماده، و لا عن الحياه الروحيه، فأولاهما عنايته، و دعا إلى الماده و الالتذاذ بها بشكل لا يضر بالحياه الروحيه، كما دعا إلى حياه روحيه لا تصطدم مع الفطره و طبيعتها.

هذه هى حقيقه الإسلام و مرونته و سبب تماشيه مع الحضارات المختلفه حتى حضاره اليوم الصناعيه، فلو حصرنا الجائر من العاديات بما فى عصر النبىّ تكون النتيجة حياد الإسلام عن الساحه، و بطلانه، مع أنّه خاتم الشرائع، و كتابه خاتم الكتب، و نبىه خاتم النبیین.

و الآن هلّمّ معى ندرس آراء المتمرّتين فى الأمور العاديه ثمّ نبكى على الإسلام و أهله:

١- يقول الشاطبى: إنّ من السلف من يرشد كلامه إلى أنّ العاديات كالعبادات، فكما أنّنا مأمورون فى العبادات بأن لا نحدث فيها فكذلك العاديات،

و هو ظاهر كلام محمد بن أسلم، حيث كره في سُنَّته العقيقه مخالفه من قبله في أمر العاديين، و هو استعمال المناخل، مع العلم بأنَّه معقول المعنى نظراً- و الله أعلم- إلى أنَّ الأمر باتِّباع الأوَّلين على العموم غلب عليه جهه التعيُّد، و يظهر أيضاً من كلام من قال: أول ما أحدث الناس بعد رسول الله المناخل [\(١\)](#).

٢- يحكى عن الربيع بن أبى راشد؛ أنه قال: لو لا أنى أخاف من كان قبلى لكانت الجبانه مسكنى إلى أن أموت؛ إذ السكنى أمر عادى بلا إشكال، ثم يقول:

و على هذا الترتيب يكون قسم العاديات داخلاً فى قسم العباديات، فدخول الابتداء فيه ظاهر و الأكثرون على خلاف هذا [\(٢\)](#).

٣- روى الغزالي: أن رجلاً قال لأبى بكر بن عياش: «كيف أصبحت؟» فما أجابه، قال: دعونا عن هذه البدعه [\(٣\)](#).

٤- روى الشاطبى عن أبى مصعب صاحب مالك أنه قال: «قدم علينا ابن مهدى- يعنى المدينه- فصلّى و وضع رداءه بين يدى الصف، فلما سلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم و رمقوا مالكاً- و كان قد صلّى خلف الإمام- فلما سلّم قال: من هاهنا من الحرس؟ فجاهه نفسان، فقال: خذ صاحب هذا الثوب فاحبساه.

فحبس، فقيل له: إنه ابن مهدى، فوجه إليه و قال: أما خفت الله و اتقىته أن وضعت ثوبك بين يديك فى الصف و شغلت المصلين بالنظر إليه، و أحدثت فى مسجدنا شيئاً ما كُنّا نعرفه، و قد قال النبي صلى الله عليه و آله: «من أحدث فى مسجدنا حدثاً فعليه لعنة الله و الملائكه و الناس أجمعين»؟ فبكى ابن مهدى، و آلى على نفسه أن لا يفعل ذلك أبداً فى مسجد النبي صلى الله عليه و آله و لا فى غيره» [\(٤\)](#).

١- و ٢ الاعتصام ٢: ٧٩.

٢- و ٢ الاعتصام ٢: ٧٩.

٣- إحياء العلوم ٢: ٢٥١ كتاب العزله.

٤- الاعتصام ٢: ٦٨.

٥- حكى ابن وضاح قال: ثَوَّب المؤذّن بالمدينه فى زمان مالِك. فأرسل إليه مالِك فجاءه، فقال له مالِك: ما هذا الذى تفعل؟ فقال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا. فقال له مالِك: لا تفعل، لا تحدث فى بلدنا شيئاً لم يكن فيه، قد كان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا، فلا تحدث فى بلدنا ما لم يكن فيه، فكفّ المؤذّن عن ذلك وأقام زماناً، ثم إنّه تنحج فى المناره عند طلوع الفجر، فأرسل إليه مالِك، فقال له: ما الذى تفعل؟ قال:

أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر، فقال له: أ لم أنهك أن لا تحدث عندنا ما لم يكن؟

فقال: إنّما نهيتنى عن التثويب. فقال له: لا تفعل. فكفّ زماناً. ثم جعل يضرب الأبواب، فأرسل إليه مالِك.

فقال: ما هذا الذى تفعل؟ فقال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر، فقال له مالِك: لا تفعل، لا تحدث فى بلدنا ما لم يكن فيه [\(١\)](#).

و مراده من التثويب هو ما يقوله المؤذّن بين الأذان والإقامه «قد قامت الصلاة» أو «حى على الصلاة» أو «حى على الفلاح» أو قوله «الصلاه يرحمكم الله».

و العجب أنّ الشاطبى مع إمامته فى الفقه ربّما يتأثر أحياناً بهذه الكلمات فيقول: فتأمل كيف منع مالِك من إحداث أمر يُخف شأنه عند الناظر فيه ببادى الرأى، و جعله أمراً محدثاً، و قد قال فى التثويب أنّه ضلال و أنّه بين؛ لأنّ كلّ محدثه بدعه، و كلّ بدعه ضلاله، و لم يسامح المؤذّن فى التنحج و لا فى ضرب الأبواب؛ لأنّ ذلك جدير بأنّ يتخذ سنّه، كما منع من وضع رداء عبد الرحمن بن مهدي خوفاً من أن يكون حدثاً أحدثه.

٦- يقول الشاطبي: وقد أحدث في المغرب المسمى بالمهدى تثويباً عند طلوع الفجر وهو قولهم «أصبح والله الحمد» إشعاراً بأن الفجر قد طلع، لإلزام الطاعة، و حضور الجماعة، و للغد و لكل ما يؤمرون به فيخصه هؤلاء المتأخرون تثويباً بالصلاه كالأذان، و نقل أيضاً إلى أهل المغرب فصار ذلك كله سنّه في المساجد إلى الآن. فإنّا لله و إنا إليه راجعون [\(١\)](#)».

هذه نماذج ممّا ذكره الشاطبي و غيره فتخيلوها بدعه في الدين، و أين هذه من البدعه في الدين؟ افتري هل يقوم أحد بهذه الأعمال الماضيه باسم الدين، أو يقوم باسم الأمور العاديه لتسهيل الأمور؟ و لو كان الجاهل يتلقاها أمراً دينياً فوباله على جهله لا على الفاعل. و قد اتفقنا مع الشاطبي في تحديد البدعه، و قد جعلها هو خاصه بالأمور الشرعيه، و مع ذلك نسي هنا ما ذكره في مقام التحديد.

نحن نفترض أنّ هذه الأعمال تتخذ سنّه حسب مرور الأيام، و لكنّها تكون سنّه عاديه، لا دينيه، و لا يمنع عنها إذا كانت مصلحه و لم ينطبق عليها عنوان محرّم.

و لو تخيله الجاهل سنناً دينيه، فعلى العالم إرشاده، لا إعمال الضغط على المجتمع حتى يتنفر عن الإسلام و أهله و يوادعهما.

و السبب الوحيد لهذه الزلّات و الاشتباهات التي تشوّش سمعه الإسلام، و تعرّفه ديناً مترمّناً لا يقبل المرونه إنما هو جعل سيره السلف وجوداً و عدماً معياراً للحقّ و الباطل مكان الكتاب و السنّه في ذلك، فأين هذه الغلظه من المرونه الملموسه من الكتاب و السنّه، يقول سبحانه:

«وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَهُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» [\(٢\)](#)».

١- الاعتصام ٢: ٧٠.

٢- الحج: ٧٨.

«ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» (١).

«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» (٢).

«رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» (٣).

فهذه الآيات تصرّح بأنّ الله تعالى رفع عن أمّه محمد الإصر، و لم يفرض عليهم حكماً حرجاً صعباً كما كان في الأمم الماضية.

وقد ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مما أعطى الله أمّتي وفضّلهم على سائر الأمم، أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلّا لنبيّ، و ذلك أنّ الله تبارك و تعالى كان إذا بعث نبياً قال له: اجتهد في دينك و لا حرج عليك، و إنّ الله تبارك و تعالى أعطى ذلك لأمتي حيث يقول: «ما جعل عليكم في الدين من حرجٍ» (٤).

و ظاهر هذا الحديث أنّ رفع الحرج الذي منّ الله به على هذه الأمّة المرحومه كان في الأمم الماضية خاصاً بالأنبياء، و أنّ الله أعطى هذه الأمّة ما لم يعط إلّا الأنبياء الماضين صلوات الله عليهم أجمعين.

و سئل عليّ عليه السلام: أ يتوضّأ من فضل وضوء جماعه المسلمين (أحبّ إليك) أو يتوضّأ من ركوّ أبيض مخمر؟ فقال: «لا، بل من فضل وضوء جماعه المسلمين؛ فإنّ أحبّ دينكم إلى الله الحنيفيه السمهه» (٥).

و اشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ» (٦).

إنّ الإسلام دين عالمي لا إقليمي، و دين خاتم ليس بعده دين. و قد انتشر

١- المائدة: ٦.

٢- البقره: ١٨٥.

٣- البقره: ٢٨٦.

٤- البرهان ٣: ١٠٥.

٥- الوسائل ١: باب ٨ من أبواب الماء المضاف و المستعمل، ح ٣.

٦- الكافي ١: ١٦٤.

الدين فى المجتمعات البشرية بصوره سريعه و كانت لذلك أسباب و علل؛ منها:

يسر التكليف و سهوله الشريعه؛ فلو كان الإسلام خاضعاً لهذا النوع من التزمّت و لما يتغنّاه ابن الحاج «(١)» من سمادير الأهازيج فى كتابه المدخل، لقرئ السلام على الإسلام من أول يومه، فهذا الرجل أخذ يحدث ألواناً من شتى الأباطيل و يفتريها و يسميها بدعه مع أنّها لا تمتّ لها بصله، بل تدور بين كونها إمّا أموراً عاديه خارجه عن موضوع البدعه بتاتاً، و إمّا أموراً شرعيه لها دليلها العام و إن لم يكن لها دليل خاص، و سيوافيك توضيح القسم الأخير فى الفصل القادم.

يقول ابن الحاج:

١- المراوح فى المساجد من البدع و قد منعها علماءنا رحمه الله عليهم؛ إذ أنّ اتّخاذها فى المساجد بدعه «(٢)».

٢- إنّ فرش البسط و السجادات قبل مجىء أصحابها من البدع المحدثه و ينبغى لإمام المسجد أن ينهى الناس عمّا أحدثوه من إرسال البسط و السجادات و غيرها قبل أن يأتى أصحابها «(٣)».

٣- إلى أن جاء ابن الحاج يحدّد ثمن اللباس الذى يجوز لبسه و يقول: أثمان أثوابهم القمص من الخمس إلى العشر و ما بينهما من الأثمان، و كان جمهور العلماء و خيار التابعين قيمه ثيابهم ما بين العشرين و الثلاثين، و كان بعض العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب ما يجاوز قيمته أربعين درهماً و بعضهم إلى المائه و يعدّه إسرافاً فيما جاوزها، و على ذلك فهو من البدع الحادثه بعدهم «(٤)».

١- المدخل: أبو عبد الله العبدريّ المالكي المتوفى سنة ٧٣٧ و مع ذلك له كلمه قيمه فى زياره القبور، لاحظ ١: ٢٥٤.

٢- و ٣ المدخل ٢: ٢١٢، ٢٢٤.

٣- و ٣ المدخل ٢: ٢١٢، ٢٢٤.

٤- المدخل ٢: ٢٣٨.

٤- لا بدّ من ترك فرش السجاد على المنبر لأنها ليست موضعاً للصلاة (١).

هذه نماذج من أفكار الرجل حول البدعه، افترى أنّ الإسلام الذي يعرفه هذا الرجل المتمزّت ممّا يصلح نشره في العالم، و يصلح لدعوه المثقّفين و المفكرين إليه، و هل هذا هو الإسلام الذي يصفه النبيّ صلى الله عليه و آله بالحنيفيه السمحه السهله؟!

الأصل في العادات الإباحه

كان على هؤلاء الذين يتحدّثون باسم الإسلام أن يدرسوا الكتاب و السنّه و يقفوا على أنّ الأصل في العادات الإباحه ما لم يدلّ دليل على خلافها، فإنّ كلّ ما ذكره من الأمور عاديه حتّى سكب ماء الورد على قبر الميت احتراماً له، من هذه الأمور التي يتصوّرها ابن الحاج من البدعه و الأصل فيها الإباحه لا الحظر، فإنّ الحكم بالحظر بدعه، صدر من القائل (٢).

يقول سبحانه: «و ما كنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (٣) و يقول: «و ما كان ربُّك مُهْلِكًا لِقَوْمٍ حَتَّى يُبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِهِمْ رَسُولًا» (٤) و معنى الآيتين أنّه ليس من شأن الله أن يعذب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث رسولاً، و ليست لبعث الرسول خصوصيه و موضوعيه. و لو أنيط جواز العذاب ببعثهم فإنّما هو لأجل كونهم وسائط للبيان و الإبلاغ، و الملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان و إبلاغ، فتكون النتيجة أنّه لا يحكم على حرمه شيء قبل بيان حكمه و وصوله إلى يد المكلف.

و هذه الأمور التي أضفى ابن الحاج عليها اسم البدعه، كلّها أمور عاديه ما ورد

١- المدخل ٢: ٢٦٤

٢- انظر الاعتصام ٢: ٧٩-٨٢.

٣- الإسراء: ١٥.

٤- القصص: ٥٩.

النهى عنها، مثلاً:

إذا شككنا أنّ لعبه كره القدم أو الاستماع إلى الإذاعة هل هما جائزان أو لا؟

فالأصل بعد التتبع و عدم العثور على الدليل المحرّم، هو الحليّه.

فبذلك علم أنّ جميع العادات من قول أو فعل فهو محكوم بالإباحه ما لم نجد نصّاً على تحريمه فى الكتاب و السنّه، سواء أ كان حادثاً أم غير حادث، سواء أصارت سنّه أم لا، ما لم ينطبق عليه عنوان خاص أو أحد العناوين الكليه المحرّمه ك «الإسراف» و «الإعانه على الإثم» و «تقويه شوكة الكفّار» و «الإضرار بالمسلمين» و «الإضرار بالنفس و النفيس»، تعدّ أمراً مباحاً.

و على أساس ذلك فإنّ جميع المصنوعات الحديثه التى هى من نتائج التقدّم الحضارى التكنولوجى، مثل الهاتف و التلغراف و التلفزيون و السيّاره و الطائره و ما شابهها، و استخداماتها المتعارفه؛ محكوم به بالحليّه و الإباحه لعدم وجود نصّ خاص على تحريمها فى الكتاب و السنّه، و لعدم انطباق أحد العناوين العامه المحرّمه عليها.

و قد كان معظم المشايخ المتزمّتين يحرمون كلّ ذلك فى بدء حركتهم و دعوتهم أيام «عبد العزيز» و لكنّهم عند ما أزيحوا عن منصّه الحكم، و حلّ الآخرون محلّهم أباحوه و صاروا يتحدّثون فى الإذاعة و التلفزيون، و يستخدمون كلّ معطيات الحضاره الحديثه، و يحلّلون كلّ أشياءها و استخداماتها.

فإذا كان قول الرجل «كيف أصبحت» و إدخال المراوح إلى المساجد، و فرش البسط فى المساجد و على المنابر و لبس ما زادت قيمته على ما حدّده، و سكب ماء الورد على القبر من البدع، فعلى الإسلام السلام.

ثمّ إنّ بعض ما عدّه ابن الحاج من الأمور الدينيه من البدع يتصوّر أنّه لم يكن بين السلف؛ مردود بوجود دليل عليه فى الشرع و هذا ما سندرسه فى المبحث القادم.

٣- تقسيم البدعه إلى حقيقته وإضافته

إشارة

هذا التقسيم ذكره الشاطبي في كتابه، وعرف البدعه الحقيقيه: بأنها ما لم يدلّ عليها دليل شرعى لا من كتاب ولا سنّه ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا فى الجملة ولا فى التفصيل. وإن ادّعى مبتدعها و من تابعه أنّها داخله فيما استنبط من الأدلّه؛ لأنّ ما استند إليه شبه واهيه لا قيمه لها.

أمّا البدعه الإضافيه فقد عرّفها بأنّها ما لها شائبتان:

إحدهما: لها من الأدلّه متعلّق فلا تكون من تلك الجبهه بدعه.

و الأخرى: ليس لها متعلّق إلّا مثل ما للبدعه الحقيقيه، أى أنّها بالنسبه لإحدى الجهتين سنّه لاستنادها إلى دليل، و بالنسبه للجبهه الأخرى بدعه لأنّها مستنده إلى شبهه، لا إلى دليل، أو لأنّها غير مستنده إلى شىء.

و سمّيت إضافيه لأنّها لم تتخلص لأحد الطرفين: (المخالفه الصريحه) أو (الموافقه الصريحه) «(١)».

أقول: قد تقدّم البحث عن البدعه الحقيقيه فلا حاجة إلى إيضاها من جديد؛ فإنّ تحريم الحلال أو تحليل الحرام استناداً إلى شبه واهيه أو بلا شبهه بدعه حقيقه، و قد مرّت الأمثله فيما سبق، و المهم إيضاح المقصود من البدعه الإضافيه التى لها شائبتان، التى من جهه تشبه السنّه و من جهه تشبه البدعه، و تتضح بالأمثله التاليه التى ذكرها الشاطبي نفسه:

١- تخصيص يوم أو أيام، غير ما نهى الشارع عنصومه أو ندب إليصومه، بالصوم و المداومه عليه.

٢- تخصيص الأيام الفاضله بأنواع من العبادات لم تشرع لها خصوصاً، كتخصيص اليوم الفلانى بكذا و كذا من الركعات، أو بصدقه كذا و كذا، أو الليله الفلانيه بكذا و كذا من الركعات، أو قراءه القرآن أو الذكر؛ فإنّ ذلك التخصيص و العمل به إذا لم يكن بحكم الوفاق، أو بقصد يقصد مثله أهل العقل و الفراغ و النشاط، كان تشريعاً زائداً.

٣- و من ذلك تحزى ختم القرآن فى بعض ليالى رمضان أو قراءه القرآن أو الدعاء بهيئه الاجتماع فى عشيّه يوم عرفه فى المسجد تشبهاً بأهل عرفه و نحو ذلك.

٤- و من ذلك الأذان و الإقامه فيصلاه العيدين.

و السبب فى كون هذه الأمور بدعاً وجوه ذكرها الشاطبى:

أولاً: أنّ فيها تخصيصاً بغير مخصص من الشرع، و قد أصبحت بهذا التخصيص غير ما كانت عليه بدونه، فكما أنّ الصلاه المفروضه لا تصحّ قبل الوقت مع كونها هى هى؛ لوقوعها فى غير وقتها المخصص لها، فكذلك ما تقدم من الأمثله بما انضم إليها من الأوصاف غير الوارده تصير غير مشروع.

ثانياً: أنّ مثل هذه الأمور عمل اشتبه أمره، أ هو بدعه فينهى عنه أم غير بدعه فيعمل به؟ و مثل هذا جاء الأمر بالتوقى فيه، و الاحتراز منه، كما يجب التوقف عن تناول اللحم المشتبه فيه.

ثالثاً: مخالفه السنّه، حيث ترك مثل هذا العمل مع ظهور ما يقتضى فعله فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله و أصحابه، و على فرض أنّه وقع فى بعض الأحيان فالأمر الأشهر و الأكثر عدم فعله، كما فى سجود الشكر، حيث لم يداوم الرسول صلى الله عليه و آله و أصحابه عليه و إن ورد.

رابعاً: أنّ العمل بمثل هذه الأمور قد يؤدى إلى اعتقاد ما ليس بسنّه سنّه،

و كذلك فالمداومه على فعل لم يداوم عليه الرسول صلى الله عليه وآله قد تؤدى إلى اعتقاد النافله سنّه، و هذا فساد عظيم؛ لأنّ اعتقاد ما ليس بسنّه سنّه، و العمل به على حدّ العمل بالسنّه نحو من تبديل الشريعة، و على ذلك كان قطع عمر للشجره التى يتبرّك بها الصحابه، و نهيه الصحابى عن الإحرام من بلده، و نحو ذلك، و نهيه عن إتيان المساجد التى صلى فيها رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله. و لذلك كان مالك بن أنس و غيره من علماء المدينه يكرهون إتيان تلك المساجد و تلك الآثار للنبي صلى الله عليه وآله ما عدا قباء وحده، و أيضاً كان مالك يكره المجىء إلى بيت المقدس خيفه أن يتخذ ذلك سنّه، و كان يكره مجىء قبور الشهداء، و يكره مجىء قباء خوفاً من ذلك [\(١\)](#).

يلاحظ على هذا التقسيم: أنّه لا طائل فيه، و يعلم ذلك بيان أمرين:

١ - شمول الدليل لجميع الحالات و الكيفيات

إنّ مورد النقاش فى ما إذا كان لدليل العمل العبادى إطلاق يعمّ جميع الصور و الكيفيات، بأن كانت جميع الحالات و الصور المتصوره له أمراً مسوّغاً يشمل الدليل بإطلاقه أو عمومه وسعه دلالاته، مثلاً إذا دلّ الدليل على استحباب قراءه القرآن مطلقاً من غير تقييد بحاله خاصه فيعمّ جميع الحالات سواء أ كانت بهيئه الانفراد أم بهيئه الاجتماع.

أو دلّ على استحباب قراءه الدعاء مطلقاً من يقين خاصّ فعمّ جميع الكيفيات.

و بعبارة أخرى: دلّ الدليل بإطلاقه بتسويغ جميع الأقسام من غير تخصيص بتلاوه القرآن بصوره الانفراد أو بهيئه الاجتماع و مثله دليل الدعاء.

و مثل ذلك إقامة الصلاة فى المساجد؛ فالدليل يشمل جميع المساجد سواء

أصلى فيها النبي صلى الله عليه وآله أو لم يصل، و سواء أقيمت الصلاة فيها يوماً أو أياماً أو طول السنه أو لا، و هكذا سائر الأمثله، فلو نفترض عدم وجود إطلاق للدليل فهو خارج عن حريم البحث.

٢- التداوم على هيئه أو فرد لا يرجع إلى تخصيص التشريع

إن اختيار كفيه خاصه، كالدعاء بهيئه الاجتماع أو تخصيص يوم فى الأسبوع للصوم، لا يعنى تخصيص التشريع بالفرد المختار و إن السائغ هو لا غير، بل العامل يعتقد أن جميع الصور و الكيفيات، سائغه، و فى الوقت نفسه يختار كفيه أو فرداً خاصاً لأجل أنه أوفق بنشاطه و بالعوامل المحيطه به.

و بعباره أخرى: لا يلتزم بكيفيه خاصه إلما لأجل أن يتلاءم مع نشاطه و يساعده على تحقيق غرضه، مع الاعتراف بأن جميع الكيفيات من حيث الفضيله سواء.

إذا تعرّف على الأمرين تقف على أن الأمثله التى قدّمها الشاطبى مثلاً للبدعه الإضافيه هى إمّا بدعه حقيقه أو سنّه حقيقه، فلو افترضنا عدم إطلاق الدليل للكفيه التى اختارها العامل أو كان له إطلاق، و لكنّه يخصص التشريع بمختاره، و ينفى غيره فيكون عمله هذا مصداقاً للبدعه الحقيقه.

و أمّا إذا لم يكن هناك قصور فى سعه الدليل، أو لم يكن فى نيته أى تخصيص و تدخّل فى أمر الشريعه، و إنّما كان الاختيار لملاكات اتفاقيه، فلا يعدّ العمل بدعه؛ إذ لم يكن تدخلاً فى أمر الشارع. و بذلك يظهر حكم الأمثله، كتخصيص يوم أو أيام- غير ما نهى عنصيامه- بالصوم، أو كتخصيص يوم بنوع من العباده، كقضاء الصلوات الواجبه التى فاتت منه، أو ختم القرآن بهيئه الاجتماع مطلقاً، أو فى يوم عرفه؛ فإنّ سعه رقعته الدليل كافيه فى كونها سنّه إذا لم يكن من قصده نفي

سائر الكيفيات بل كان التخصيص تابعاً لعوامل داخله في حياه الإنسان.

و أما الأسباب التي اتخذها ذريعه للحكم بالبدعه فأليك دراستها:

أما السبب الأول: أعنى قوله: «إنَّ فيها تخصيصاً بغير مخصص من الشرع» فغير مضر؛ إذ التخصيص إنما يكون بدعه إذا نسبه إلى الشرع، دون ما كان نتيجة ظروف فرضت عليه اختيار هذا الفرد مع الاعتراف بأنه مثل سائر الأفراد.

و أما السبب الثانى: أعنى قوله: «إنَّ مثل هذه الأمور عمل اشتبه أمره...» فهو مثل الأول؛ فإنه مشتبه لمن لم يدرس البدعه حقها دون من درسها.

و أما السبب الثالث: أعنى قوله: «مخالفة السنه حيث ترك مثل هذا العمل...» فذلك لأنَّ تركهم لا يكون حججه على كون العمل بدعه بعد افتراض سعه رقعته الدليل، و تركهم فرداً خاصاً لا يدل على عدم مشروعيته؛ إذ لم يكونوا يعانون من الإتيان بسائر الأفراد فلأجله تركوا ذاك الفرد، بخلاف الإنسان الذى فرضت الظروف عليه مداومه هذا الفرد أو كان نشاطه محفوظاً فيه دون سائر الأفراد.

و لو صحَّ ما ذكره يجب ترك المسنونات أحياناً، لئلا يتخيل الجاهل أنها فريضه، فعلى من يرى القبض فى الصلاه سنه، تركه فى حين بعد حين، دفعاً لعاديه الجهل.

و على من يقيمصلاه التراويح جماعه تركها و الإتيان بها فرادى؛ لئلا يعتقد الجاهل أن التشريع مختص بالجماعه. إلى غير ذلك من المضاعفات التى لا يلتزم بها الشاطبى و غيره.

فجهل الجاهل، لا- يكون سبباً لترك المسنون؛ لأنه لو قصر فى التعليم فما ذنب من يريد الإتيان به و إنما علينا دفع عاديته. و بذلك يظهر حسن إتيان المساجد التوصلى النبى فيها؛ و ذلك لعموم الدليل الشامل لتمام المساجد التوصلى فيها أم لم يصل، و إنما يختار ذلك لأجل التبرك الذى تضافر النص بجوازه، و ليس تخصيصها

بالعبادة، بمعنى ورود النصّ بها بالخصوص، و أنّما يختارها لغرض آخر و هو التبرّك.

و أمّا كراهه مالك المجيء إلى بيت المقدس، فهو على خلاف السنّه؛ حيث رخص النبي السفر إليه، كما سيوافيك عند البحث عن شدّ الرحال إلى زياره قبر النبي.

و منه تظهر حال كراهه زياره قبور الشهداء، أو المجيء إلى مسجد قباء؛ فإنّه إعراض عن السنّه التي رسمها النبي، حيث أمر بزياره القبور، و كان يجيء إلى مسجد قباء كلّ أسبوع مرّه و يصلّي فيه.

و ما أجمل قول الإمام الصادق: «إنّ هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق» [\(١\)](#).

قال التفتازاني: «و من الجهله من يجعل كلّ أمر لم يكن في زمن الصحابه بدعه مذمومه، و إن لم يقم دليل على قبحه تمسكاً بقوله عليه السلام: «إياكم و محدثات الأمور» و لا يعلمون أنّ المراد بذلك هو أن يجعل في الدين ما ليس منه. عصمنا الله من اتّباع الهوى، و ثبتنا على اقتفاء الهدى بالنبي و آله» [\(٢\)](#).

و أمّا السبب الرابع: أعنى قوله: «انتهاء هذا العمل إلى اعتقاد ما ليس بسنّه سنّه» فهو أيضاً مثله؛ فإنّه يجب على العالم إرشاد الجاهل لا ترك العمل الذي دلّ الشرع على جوازه بالإطلاق و العموم.

١- الكافي ٢: ٨٦ / ١.

٢- شرح المقاصد ٥: ٢٣٢.

لا بدعه فيما فيه الدليل نصاً أو إطلاقاً

المبحث السابع لا بدعه فيما فيه الدليل نصاً أو إطلاقاً

عرفت أن حقيقه البدعه هي الافتراء على الله و الفريه عليه، بإدخال شىء في دينه أو نقصه منه، و نسبته إلى الله و رسوله. فإذا كان هذا هو الملاك فكل مورد يدل عليه الدليل يكون خارجاً عن البدعه موضوعاً.

و الدليل على قسمين:

الأول: أن يكون هناك نص في القرآن يشخص المورد و حدوده و تفاصيله و جزئياته، كالاحتفال بعيدى الفطر و الأضحى، و الاجتماع في عرفه و منى، فعندئذ لا يكون هذا الاحتفال و الاجتماع بدعه، بل سنّه قد أمر بها الشارع بالخصوص، فيكون إتيان العمل امتثالاً، لا ابتداءً.

الثانى: أن يكون هناك دليل عام في المصدرين الرئيسيين يشمل بعمومه المصدق الحادث، و إن كان الحادث يتحد مع الموجود في عهد رساله حقيقه و ماهيه، و يختلف معه شكلاً، و لكن الدليل العام يعمّ المصدقين و يشمل الموردين و يكون حجّه فيهما. و إليك بعض الأمثله:

١- قال سبحانه: «وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تُرَحْمُونَ» (١) و الآيه تأمر باستماع القرآن عند قراءته و الإنصات له، و المصداق الموجود لها في ظرف الرساله هو استماع القرآن مباشرة من فم القارئ الذى يقرأ القرآن فى المسجد أو فى البيت، و لكن الحضاره الصناعيه أحدثت مصداقاً آخر لم يكن موجوداً فى ظرف الرساله، كقراءه القرآن من خلال المذياع و الإذاعه المرئيه، فالآيه حَجَّه فى كلا الموردين، و ليس لنا ترك الاستماع و الإنصات فى القسم الثانى، بحجّه أنّه لم يكن فى ظرف الرساله؛ و ذلك لأنّ العربى الصميم عند ما يتدبّر فى مفهوم الآيه لا يرى فرقاً بين القراءتين، فلو قلنا حينئذٍ بوجوب الاستماع أو ندبه فليس هذا قولاً بغير دليل، أو بدعه فى الدين.

٢- قال النبى الأكرم: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» (٢)

و من الواضح أنّ العلوم حتى ما يمت إلى الشرع، كانت فى ظرف صدور الحديث محدوده، و لكن المحدوديه لا تمنع عن شمول الحديث للعلوم التى ابتكرها المسلمون لفهم الكتاب و السنّه، كعلم اللغه و الصرف و النحو و البلاغه، بل و الفقه المدوّن عبر العصور؛ و ذلك لأنّ الحديث بصدد تأسيس قاعده كليّه، فليس لمسلم أن يصف هذه العلوم بالبدعه بحجّه أنّها لم تكن فى عصر الرساله؛ لأنّ شأن الشارع الصادق إلقاء الأصول و بيان القواعد و الضوابط لا بيان المصايق، و بالأخص ما لم يكن فى عصره.

٣- لا شك أنّ من واجب المسلمين حفظ القرآن و السنّه النبويه من الضياع، لأنّ الإسلام ليس ديناً إقليمياً بل ديناً عالمياً و ليس ديناً مؤقتاً بل خاتماً، فطبيعه ذلك الدين تقتضى لزوم حفظ نصوصه و سنّته حتى ترجع إليها الأجيال اللاحقه.

١- الأعراف: ٢٠٤.

٢- مجمع الزوائد ١: ١٩.

و عند ما التحق النبي بالرفيق الأعلى و رأى المسلمون أنّ من واجبهم حفظ القرآن من الضياع خصوصاً بعد ما لحقت بالمسلمين في الحروب خساره كبيره باستشهاد مجموعه كبيره من القراء، فصار الحكم الكلى (لزوم حفظ القرآن) مبدأ للإجراء عمليات مختلفه عبر الزمان، و كلّها أمور دينيه مستمدّه من الحكم الكلى، أى لزوم حفظ القرآن و السنّه؛ فعمدوا إلى كتابه القرآن و تنقيطه و إعراب كلمه و جملة، و عدّ آياته و تمييزها بالنقاط الحمراء، و أخيراً طباعته و نشره، و تشجيع حفظه و قرائه و تكريمهم فى احتفالات خاصّه، إلى غير ذلك من الأمور التى تعتبر كلّها دعماً لحفظ القرآن و تثبيته، و إن لم يفعل بعضها رسول الله و لا أصحابه و لا التابعون؛ إذ يكفيننا وجود أصل له فى الأدلّه.

٤- إن من واجب المسلمين الاستعداد الكامل أمام هجمات الكفار، و أخذ الحيطة و الحذر فى كلّ ما يحتمل خطره عليهم، يقول سبحانه: «وَاعْتَدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ» (١) فى الآيه نوعان من الدليل: خاصان فى مورد رباط الخيل، فلو جهزت الحكومه الإسلاميه جندها بالخيل فقد امتثلت الأمر الإلهى، كما إذا تسلّحت بالغوصات و الأساطيل البحريه و الطائرات المقاتله إلى غير ذلك من وسائل الدفاع؛ فقد جسّدت الآيه و طبقتها على مصاديقها التى لم تكن موجوده فى عصر النبي، و إنّما حدثت بعده.

فهذه الموارد كلّها أمور شرعيه غير عاديه، بشهاده أنّ الإنسان يقوم بها بتّيه امثال ما ورد فى الشرع، و ليس للمتزمّت أن يرفضها بحجّه أنّه ليس هنا دليل خاص عليها، و ذلك لأنّ اللازم فى نفي البدعه لزوم الدليل عاماً أو خاصاً، لا وجود دليل خاص؛ فالدليل العام بعمومه حججه فى جميع الأجيال على جميع الناس فى كلّ

الموارد التي تجسّد الضابطه الكليه.

٥- قال رسول الله: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (١)

و غير خفي على القارئ النابه أنّ كفيهه التعليم في عصر الرساله تختلف كثيراً عن عصرنا، فكلا العملين يعدّان تعليماً و تجسيداً لكلام الرسول يقصد به رضا الله سبحانه و تقربه إليه، و ليس للمتزمّت رفض الأساليب الحادّته لتعلّم الكتاب و السنّه.

و الحقّ أنّ هذا الموقف موضع زلّه لأكثر من يصف عمل المسلمين في بعض الموارد بالبدعه، بحجه عدم وجود دليل خاص عليه، فقد ضلّوا و لم يميّزوا بين الدليل الخاص و الدليل العام. و خصّوا الدليل بالأوّل، مع أنّ الكتاب و السنّه مليّتان بالضوابط و القوانين العامه و إليك بعض الأمثله:

أ- قال سبحانه: «لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» (٢) فالآيه تنفي أي سبيل للكافر على المؤمن، و من المعلوم أنّ السبيل تختلف حسب تطور الحضارات، و كثره المواصلات، و تشعب العلاقات بين الناس. ففي عصر الرساله كان السبيل السائد هو تسلّط الفرد الكافر على المسلم، ككون العبد المسلم رقاً للكافر، أو تملك المصحف منه و ما قاربهما، و أمّا في عصرنا هذا؛ فحدّث عن السبيل و لا حرج، فأين هو من تدخّل الكفار في مصير المسلمين حكومه و شعباً حتّى صار رؤساء الحكومات الإسلاميه أسرى بيد الاستكبار العالمى.

ب- يقول سبحانه: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ العُدْوَانِ» (٣) فإنّ التعاون الموجود في العصور السابقه كان محدوداً في إطار ضيق،

١- البخارى، الصحيح ٢: ١٥٨؛ لاحظ سنن الترمذى رقم ٣٠٧١ و غيرهما.

٢- النساء: ١٤١

٣- المائده: ٢.

و أكثر ما كان يتحقق منه هو اشتراك جمع من مدينه واحده أو من قبيله معينه على أن يتعاونوا فيما بينهم، و أين هذا من التعاون السائد فى عصرنا هذا كتعاون دول المنطقه على إجراء مشروع مفيد للمنطقه، أو تعاونهم على ضرب حكومه إسلاميه فتيه خوفاً على كراسيهم و مناصبهم.

و لو أن المتمزمتين درسوا هذا البحث دراسه عميقه لرَبما خمدت ثورتهم ضدّ المسلمين الذين يعملون الخير امثالاً لحكم الدين.

لقد كان فى التاريخ الإسلامى اناس يفهمون- بصفاء أذهانهم و خلوص قرائحهم- أن ما ورد فى الكتاب و السنّه من وصفه سبحانه بصفات الجمال و الكمال أسوه لما لم يرد، فللمسلم أن يدعو ربّه بأوصاف جميله و إن لم ترد حرفياً فى الكتاب و السنّه.

روى الطبرانى: «أنّ النبى عليه الصلاه و السلام مرّ على أعرابى و هو يدعّو فيصلاته و يقول: «يا من لا تراه العيون، و لا تخالطه الظنون، و لا- يصفه الواصفون، و لا- تغتبره الحوادث، و لا- يخشى الدوائر، يعلم مناقيل الجبال، و مكاييل البحار، و عدد قطر الأمطار، و عدد ورق الأشجار، و عدد ما أظلم عليه الليل، و أشرق عليه النهار، لا توارى سماء منه سماء، و لا أرض أرضاً، و لا بحرٌ ما فى قعره، و لا جبل ما فى وعره، اجعل خير عمرى آخره، و خير عملى خواتمه، و خير أيامى يوم ألقاك».

فوكّل رسول الله بالأعرابى رجلاً، و قال: إذاصلى فأتنى به، و كان قد أهيدى بعض الذهب إلى رسول الله، فلما جاء الأعرابى، وهب له الذهب، و قال له: تدرى لم وهبت لك؟

قال الأعرابى: للرحم التى بينى و بينك.

قال الرسول الكريم: إِنَّ لِلرَّحْمِ حَقًّا، وَ لَكِنْ وَهَبْتُ لَكَ الذَّهَبَ لِحَسَنِ ثَنَائِكَ عَلَيَّ اللَّهُ» (١).

و أين هذا الكلام ممّا روى عن الشاذلى أنّه قال: «من دعا بغير ما دعا به رسول الله فهو مبتدع» (٢).

١- تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع و العقل: ص ١٠٢.

٢- روح البيان ٩: ٣٨٥.

الخطوط العامه لتحصين الدين من الابتداع

المبحث الثامن الخطوط العامه لتحصين الدين من الابتداع

اشاره

كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يتنبأ دبيب البدعه فى دينه بعد رحيله، و يعلم أنّ سماسره الأهواء سيبيئون بذور البدع فى المجتمع الإسلامى. و لما كان الدين أعزّ شىء عند الرسول صلى الله عليه و آله، و قد ضحى بالنفس و النفيس لأجله، و تحمّل عبثاً عظيماً فى طريق دعوته، لذا اتّخذ عدّه إجراءات لتحصينه من البدعه، نذكر منها ما يلى:

الأول: التحذير من البدع و المبتدعين

إنّ الخط الدفاعى الأوّل الذى وضعه رسول الله لحصانه دينه تمثل فى ذمّ البدع و المبتدعين، و تحذير المجتمع الإسلامى منهما، من خلال خطبه و أحاديثه البليغه، و قد تعرّفت على قسم منها فى التقديم و بعده، و إليك بعضها:

قال رسول الله: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [\(١\)](#)

و قال: «إياكم و البدع؛ فإنّ كلّ بدعه ضلاله، و كلّ ضلاله تسير إلى النار» [\(٢\)](#)

١- لاحظ كنز العمال ج ١ الحديث ١١٠١.

٢- لاحظ كنز العمال ج ١ الحديث ١١١٣.

وقال: «أصحاب البدع كلاب النار» [\(١\)](#)

وقال: «أهل البدع شرّ الخلق و الخليقه» [\(٢\)](#)

وقال: «يجىء قوم يميّتون السنّه و يوغلون فى الدين، فعلى أولئك لعنه الله و لعنه اللاعنين و الملائكه و الناس أجمعين» [\(٣\)](#)

وقال: «من وقّر صاحب بدعه فقد أعان على هدم الإسلام» [\(٤\)](#)

وقال: «إذا رأيت مصاحب بدعه فاكفهروا فى وجهه» [\(٥\)](#)

إلى غير ذلك من الأحاديث البليغه التى تحذّر المجتمع الإسلامى من البدعه و المبتدعين الذين سيظهرون بعد رحيله، و بذلك أعطى بصيره لمن خلفه لكى لا يغتروا بكلام المبتدعين و يفتتنوا به.

الثانى: الإِشارة إلى وجود الكذّابه على لسانه

وقف النبى الأكرم على أنّ هناك أناساً فى حياته أو بعد رحيله يكذبون أو سيكذبون على لسانه، فيبدلون دينه، فقال فى حديث يرشد المسلمين إلى وجود الكذّابين ليأخذوا حذرهم:

«من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [\(٦\)](#)

أو «من يقل علىّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» [\(٧\)](#)

إنّ التاريخ يشهد بأنّ الأُمّه الإسلاميه - فى عصر الخلفاء - يوم اتّسعت رقعه البلاد الإسلاميه و استوعبت شعوباً كثيره، شهدت

١- لاحظ كثر العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.

٢- لاحظ كثر العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.

٣- لاحظ كثر العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.

٤- لاحظ كثر العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.

٥- لاحظ كثر العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.

٦- البخارى، الصحيح ١: ٢٧؛ السنن لابن ماجه ١: ١٣؛ صحيح مسلم بشرح النووى: ٦٦١؛ الترمذى رقم ٢٧٩٦ إلى غير ذلك من

المصادر.

٧- البخارى، الصحيح ١: ٢٧؛ السنن لابن ماجه ١: ١٣؛ صحيح مسلم بشرح النووى: ٦٦١؛ الترمذى رقم ٢٧٩٦ إلى غير ذلك من

المصادر.

أخبار اليهود و علماء النصرارى فى الإسلام، مثل: كعب الأخبار، و تميم الدارى، و وهب بن متبه، و عبد الله بن سلام؛ الذين تسللوا إلیصفوف المسلمين، و راحوا يدسّون الأحاديث الإسرائيلىه، و الخرافات و الأساطير النصرانيه فى أحاديث المسلمين و كتبهم و أذهانهم.

و قد ظلّت هذه الأحاديث المختلقه، تُخَيّم على أفكار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن، و تؤثر فى حياتهم العمليّه، و توجهها الوجهه المخالفه لروح الإسلام الحنيف، فى غفله من المسلمين و غفوتهم، و لم ينتبه إلى هذا الأمر الخطير إلا من عصمه الله، كعلّى عليه السلام، الذى راح يحذّر المسلمين عن الأخذ بمثل هذه الأحاديث المختلقه فقال:

«فلو علم الناس أنه منافق كاذب، لم يقبلوا منه و لم يصدّقوا، و لكنهم قالوا:

صاحب رسول الله رآه و سمع منه و لقف عنه» [\(١\)](#)

نماذج و أرقام عن الأحاديث الموضوعه:

و حسبك لمعرفة ما أصاب المسلمين و ما تعرّضت له الأحاديث، و لمعرفة الذين لعبوا هذا الدور الخبيث فى غفله من الأمة ما كُتب فى هذا الصدد مثل كتاب:

ميزان الاعتدال للذهبي.

و تهذيب التهذيب للعسقلاني.

و لسان الميزان للعسقلاني.

و نظائرها من الكتب التيصّفت فى هذا المجال.

و لعلّ فيما قاله البخاريصاحب «الصحيح» المعروف، إشاره إلى طرف من هذه الحقيقه المرّه، حيث قال ابن حجر فى مقدّمه فتح البارى:

إنّ أبا عليّ الغساني روى عنه قال: خرّجت الصحيح من ٦٠٠ ألف حديث [\(٢\)](#).

١- نهج البلاغه: الخطبه ٢١٠.

٢- الهدى السارى مقدّمه فتح البارى: ص ٤.

و روى عنه الإسماعيلي أنه قال:

أحفظ مائه ألف حديث صحيح و أحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح «(١)».

و يعرب عن كثره الموضوعات اختيار أئمه الحديث أخبار تأليفهم (الصحاح و المسانيد) من أحاديث كثيره هائله، و الصفح عن غيرها، و قد أتى أبو داود فى سننه بأربعة آلاف و ثمانمائه حديثاً و قال: انتخبته من خمسمائه ألف حديث «(٢)».

و يحتوى صحيح البخارى من الخالص بلا تكرار على ألفى حديث و سبعمائه و واحد و ستين حديثاً اختاره من زهاء ستمائه ألف حديث «(٣)».

و في صحيح مسلم أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات، صنّفه من ثلاثمائه ألف «(٤)».

و ذكر أحمد فى مسنده ثلاثين ألف حديث، و قد انتخبه من أكثر من سبعمائه و خمسين ألف حديث، و كان يحفظ ألف ألف حديث «(٥)».

و قد قام الباحث الكبير المجاهد العلّامة الأمينى فى موسوعته (الغدير) - الجزء الخامس - باستخراج أسماء الكذّابين و الوضّاعين للحديث على حسب الحروف الهجائية فبلغ عددهم ٧٠٠، و ما قام به رحمه الله، و إن كان عملاً كبيراً يشكر عليه، غير أنه لو قامت بهذا الأمر لجنه من الباحثين لعثروا على أضعاف ما ذكره ذلك البّحاثه الكبير.

و كان تحذير النبى الأكرم من الدّجالين الكذّابين و شيوع الكذب على لسانه سبباً لقيام العلماء بوضع علم الرجال و بيان مقاييس يُميّز به الصحيح عن السقيم.

١- الهدى السارى مقدمه فتح البارى: ص ٥.

٢- طبقات الحفّاظ للذهبي ٢: ١٥٤؛ تاريخ بغداد ٩: ٥٧.

٣- إرشاد السارى ١: ٢٠٨؛ صفوه الصفوه ٤: ١٤٣.

٤- طبقات الحفّاظ ٢: ١٥١، ١٥٧؛ شرح صحيح مسلم للنووى ١: ٣٢.

٥- طبقات الحفّاظ ٩: ١٧.

وقال: وقد تتبأ الرسول بما سيصيب سنته الشريفه و يصيب المسلمين فيما بعد على أيدى الكذابين و وضاعى الحديث و أعداء الإسلام، و فى الوقت نفسه أخبر عمن يقف فى وجه هذا الخطر العظيم إذ قال: «يحمل هذا الدين فى كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين و تحوير الغالين و انتحال الجاهلين كما ينفى الكير خبث الحديد» (١)

روى السيوطى أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف، أراد أن يحذف الواو التى فى سورة براءه فى قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (٢).

قال أبى بن كعب: لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفى على عاتقى (٣).

فإنّ الخليفه كان يريد أن يقرأ قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ» بدون واو العطف، لتكون هذه الجملة وصفاً للأخبار و اليهود. و هذا مضافاً إلى كونه خلاف التنزيل و تغييراً فيما نزل به الوحي كما تلاه الرسول و قرأه على مسامع القوم، فإنّ حذف الواو كان يعنى أن آيه حرمه الكنز سوف لا تشمل المسلمين بل ستبقيصفه للأخبار و الرهبان. و كان يقصد من هذه إضفاء طابع الشرعيه على اكتناز الأموال الطائله.

و هذا يكشف عن مدى حفظ الأُمَّه لنصّ الكتاب بهذه الصورة الدقيقه الأمينه، بيد أنّ حفظ الأُمَّه كان محدوداً لا يتجاوز هذا الحد؛ إذ كان غير شامل لجوانب أخرى من الشريعة و أصولها و مصادرها و ينابيعها.

١- الكشى، الرجال: ص ٥.

٢- التوبه: ٣٤.

٣- الدر المنثور ٣: ٢٣٢.

الثالث: محاوله كتابه الصحيحه

هذا هو الخط الدفاعى الثالث الذى حاول الرسول وضعه لمكافحه ديبب البدعه، و هنا نقتبس ما ذكره الإمام الشاطبى حرفياً، يقول:

لقد كان عليه الصلاه و السلام حريصاً على ألفتنا و هدايتنا، حتى ثبت من حديث ابن عباس رضى الله عنه .. أنه قال: لَمَّا حضر «(١)» النبي صلى الله عليه و آله قال: و فى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب- رضى الله عنهم- فقال: «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» فقال عمر: إن النبي صلى الله عليه و آله غلبه الوجع، و عندكم القرآن فحسبنا كتاب الله!! و اختلف أهل البيت و اختلفوا فمنهم من يقول: قَرَّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ، و فيهم من يقول كما قال عمر، فلَمَّا كَثُرَ اللَّغَطُ وَ الْاِخْتِلَافُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله قَالَ:

«قوموا عني» فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله و بين أن يكتب لهم ذلك الكتاب اختلفهم و لغطهم «(٢)».

الرابع: التعريف بالتقلين

إن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله نبه الأئمة و بين لها المرجع و الملاذ بعد رحيله بقوله: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله و عترتى أهل بيتى» «(٣)».

و قال صلى الله عليه و آله: «إنى تركت ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتى أهل بيتى؛ و لن يفترقا حتى يردا على»

١- أى حضرته الوفاه.

٢- الاعتصام ٢: ١٧١-١٧٢ و لاحظ صحيح البخارى.

٣- كنز العمال ١: ٤٤، أخرجه الترمذى و النسائى عن جابر.

الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (١)

وقال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم خليفين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي؛ وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (٢)

وقال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (٣)

وقال صلى الله عليه وآله: «إني أوشك أن ادعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل، وعترتي؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروني بـم تخلفوني فيهما» (٤)

وقال صلى الله عليه وآله في منصرفه من حجة الوداع ونزوله غدیر خم: «كأنني قد دُعيت فأجبت، إني تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (٥).

وللكاتب الإسلامي منشى المنار كلام ذكره في تعليقه على كتاب الاعتصام للشاطبي قال: رواه ابن أبي شيبة والخطيب في المتفق والمفترق عنه وهو «تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به، كتاب الله وعترتي أهل بيتي». ورواه الترمذي والنسائي عنه بلفظ «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا».

كتاب الله وعترتي أهل بيتي» والحديث مروى بلفظ العتره بدل السنه عن كثير من الصحابه، منهم: زيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وأبو سعيد الخدرى، وروى عن

١- كنز العمال ١: ٤٤، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

٢- مسند أحمد ٥: ٢٨٢-٢٨٩.

٣- مستدرک الحاکم ٣: ١٤٨.

٤- مسند أحمد ٣: ١٧ و ٢٦، أخرجه من حديث أبي سعيد الخدرى.

٥- مستدرک الحاکم ٣: ١٠٩، أخرجه عن حديث زيد بن أرقم.

أبى هريره بلفظ «السَّنه» بدل العتره، و فى كلا- السياقين بلفظ «لن يفترقا حتى يردا على الحوض» و الجمع بينهما فى المعنى أن عترته أهل بيته يحافظون على سنته، أى لا يخلو الزمان عن قدوه منهم يقيمون سنته لا يُثنيهم عنها التقليد و لا الابتداع و لا الفتن [\(١\)](#)».

الخامس: التعريف بسفينه النجاه

إشاره

إنَّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله شبه أهل بيته بسفينه نوح فقال: «ألا- إنَّ مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينه نوح من قومه؛ من ركبها نجا، و من تخلف عنها غرق» [\(٢\)](#)»

و فى حديث آخر يقول صلى الله عليه و آله: «إنَّما مثل أهل بيتى فيكم كمثل سفينه نوح؛ من ركبها نجا، و من تخلف عنها غرق. و إنَّما مثل أهل بيتى فيكم مثل باب حطه فى بنى إسرائيل؛ من دخله غفر له» [\(٣\)](#)»

و فى حديث ثالث: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، و أهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف، فاذا خالفتها قبيله من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» [\(٤\)](#)»

و من المعلوم أن المراد ليس جميع أهل بيته على سبيل الاستغراق؛ لأنَّ هذه المنزله ليست إلما لحجج الله، و هم ثله منتخبه مصطفىاه من أهل بيته، و قد فهمه ابن حجر فقال: يحتمل أن المراد بأهل البيت الذين هم أمان، علماءهم؛ لأنَّهم الذين يهتدى بهم كالنجوم، و الذين إذا فُقدوا جاء أهل الأرض من آيات ما يوعدون.

١- الاعتصام ٢: ١٥٦، قسم التعليقه.

٢- رواه الحاكم فى مستدركه بسنده عن أبى ذر ٣: ١٥١.

٣- الأربعون حديثاً للنبهانى: ص ٢١٦ نقله عن الطبرانى فى الأوسط.

٤- رواه الحاكم فى مستدركه بسنده عن ابن عباس ٣: ١٤٩.

و قال فى مقام آخر: إنّه قيل لرسول الله: ما بقاء الناس بعدهم؟ قال: «بقاء الحمار إذا كسر صلبه» (١).

و المراد من تشبيههم عليهم السلام بسفينه نوح أنّ من لجأ إليهم فى الدين فأخذ فروعوه و أصوله عنهم نجا من عذاب الله، و من تخلف عنهم كان كمن أوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله فما أفاده شيئاً فغرق و هلك.

و الوجه فى تشبيههم بباب حطه هو أنّ الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله و البخوع لحكمه، و بهذا كان سبباً للمغفرة، و قد جعل انقياد هذه الأمة لأهل بيت نبيها و أتباعهم أيضاً مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله و البخوع لحكمه، و بهذا كان سبباً للمغفرة.

و قد أوضح ابن حجر حقيقه التشبيه فى الحديث الشريف فقال: «و وجه تشبيههم بالسفينه أنّ من أحبهم و عظّمهم شكراً لنعمة مشرفهم و أخذاً بهدى علمائهم نجا من ظلمه المخالفات، و من تخلف عن ذلك غرق فى بحر كفر النعم، و هلك فى مفاوز الطغيان- إلى أن قال:- و بباب حطه- يعنى و وجه تشبيههم بباب حطه- أنّ الله جعل دخول ذلك الباب الذى هو باب أريحاء أو بيت المقدس مع التواضع و الاستغفار سبباً للمغفرة، و جعل لهذه الأمة مودّه أهل البيت سبباً لها» (٢).

دور أئمة أهل البيت فى مكافحه البدع:

إنّ لأئمة أهل البيت دوراً بارزاً فى مكافحه البدع، و الردّ على الأفكار الدخيله على الشريعة عن طريق أهل الكتاب، الذين تظاهروا بالإسلام، و تزوّوا بزوّى

١- الصواعق لابن حجر، الباب الحادى عشر: ٩١، ١٤٢.

٢- لاحظ المصدر نفسه: ١٥٣.

المسلمين، نظراء: كعب الأحبار، و تميم الدارى، و وهب بن منبه، و من كان على شاكلتهم.

إنّ كتب الحديث، من غير فرق بين الصحاح و غيرها، مشحونه بأخبار التجسيم و التشبيه و الجبر و نفى الاستطاعه المكتسبه و نسبه الكذب و العصيان إلى الأنبياء و الرسل، و قد تأثر بها المحدّثون السُدّج و حسبوا أنّها حقائق راهنه فنقلوها إلى الأجيال اللاحقه، و قد حيكت العقائد على منوال هذه الأحاديث، و لم يتجرّأ أحد من المفكرين الإسلاميين القدامى و الجدد على نقدها إلّا من شدّد.

و فى مقابل هذه البدع نرى أنّ أئمه أهل البيت يكافحون التجسيم و التشبيه و الجبر و غيرها بخطبهم و رسائلهم و مناظراتهم أمام حشد عظيم. و فى وسع القارئ الكريم مراجعه نهج البلاغه للإمام علىّ عليه السلام و كتاب التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ)، و كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسى (ت ٥٥٥هـ)، إلى غير ذلك من الكتب المؤلّفه فى هذا المضمار، و ما أحلى المناظرات التى أجراها الإمام علىّ بن موسى الرضا عليه السلام فى عاصمه الخلافه الإسلاميه (مرو) يوم ذاك مع الماديين و الملحدين و أحبار اليهود و قساوسه النصارى، بل و مع المترقّتين المغترّين بتلك الأحاديث.

لقد كان لفكره الإرجاء التى تدعو إلى التسامح الدينى فى العمل، واجهه بديعه عند السُدّج من المسلمين و لا سيّما الشباب منهم، فقام الإمام الصادق بردها و التنديد بها، و قد أصدر بياناً فيها حيث قال: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئه» [\(١\)](#)

هذا هو الإمام الثامن علىّ بن موسى الرضا يكافح فكره رؤيه الله تبارك و تعالى بالعين.

و يرد الفكره المستورده من اليهود و التي اغترّ بها بعض المحدثين، و إليك ما جرى بينه و بين أحدهم باسم أبي قرّه.

قال أبو قرّه: إنا روينا أنّ الله عز و جل قسم الرؤيه و الكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام و لمحمد صلى الله عليه و آله الرؤيه.

فقال الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله عزّ و جل الى الثقلين الجنّ و الإنس «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» (١) و «لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» (٢) و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (٣) أ ليس محمداً صلى الله عليه و آله؟

قال: بلى.

قال الإمام: «فكيف يجي ء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله و أنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله و يقول: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» و «لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ». ثم يقول أنا رأيت به بعيني و أحطت به علماً و هو عليصوره البشر. أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقه أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشي ء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر» (٤)

هذا نموذج من نماذج كثيره أوردناه حتى يكون أسوه لنماذج أخرى.

و إن أردت أن تقف على مدى مكافحه الأئمة الاثنى عشر للبدع المحدثه فعليك مقارنة كتابين قد ألفا في عصر واحد بيد محدّثين في موضوع واحد، و هما:

١- التوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١هـ).

٢- التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ).

١- الأنعام: ١٠٣.

٢- طه: ١١٠.

٣- الشورى: ١١.

٤- التوحيد: ١١١.

قارن بينهما، تجد الأول مشحوناً بأخبار التجسيم والتشبيه والجبر، وما زال المتسمون بالسلفيه ينشرونه عاماً بعد عام، كأن ضالتهم فيه.

و أما الثاني ففيه الدعوه إلى التوحيد و تنزيه الحق و معرفته بين التشبيه و التعطيل و تبين الآيات التي اغترّ بعضهم بظواهرها من دون التدبّر بالقرائن الحافّة بها.

و بذلك تبين أنّ النبي الأكرم قد جعل من الأئمة واجهه دفاعيه لصدّ البدع و أفكار المبتدعين و لا تتبين تلك الحقيقه إلا بعد معرفتهم و مراجعه كلماتهم.

السادس: دعم الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر

إذا كانت البدعه من أعظم الكبائر و المنكرات، فعلى السلطه التنفيذيه للحكومات الإسلاميه، دعم الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر، للقيام بمواجهه المبتدعين و ردعهم عن أعمالهم؛ فإنّ البدعه أول يومها بذره في الأذهان، ثم يستفحل عودها عبر الزمن حتى تصير شجره خبيثه، و لذلك دعا الذكر الحكيم إلى القيام بهذا الأمر و قال: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١) و في آيه أخرى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (٢).

و الأئمة عباره عن جماعه تجمعهم رباطه العقيديه و وحده الفكر، غير أنّ الواجب على الجميع غير الواجب على جماعه خاصه، فيجب على كلّ مسلم ردع المنكر بقلبه و لسانه، و أما القيام بأكثر من ذلك فهو على القوى المطاع العالم

١- آل عمران: ١٠٤.

٢- آل عمران: ١١٠.

بالمعروف، و بذلك يجمع بين الآيتين، حيث إنّ الثانية ترى الأمر بالمعروف فريضة على الجميع، و الأولى تراها فريضة على أمّة خاصه، فالمراتب النازله فريضة على الكلّ، و المراتب العاليه وظيفه الأقوياء من أبناء الأمّة.

و يكفي في أهميه تلك الفريضة قوله سبحانه: «الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (١).

و هذا الإمام أمير المؤمنين يعلّل قيامه و نضاله، بردع البدع و يقول: «اللّهم إنك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا، منافسه في سلطان، و لا التماس شىء من فضول الحطام، و لكن لنردّ المعالم من دينك، و نُظهر الإصلاح في بلادك» (٢).

و ردّ المعالم من دينه كناية عن رفض البدع التي كانت قد ظهرت على الساحة الإسلاميه.

و قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر سبيل الأنبياء، و منهاج الصلحاء، فريضة عظيمه، بها تقام الفرائض، و تأمن المذاهب، و تحلّ المكاسب، و تردّ المظالم، و تعمر الأرض، و ينتصف من الأعداء، و يستقيم الأمر» (٣).

و قد كان في العصور الماضيه نشاط للآمرين بالمعروف في خصوص متابعه المساجد و المؤذنين و الوعّاظ و القراء، حتى لا يخرجوا عن حدود الشريعة.

يقول ابن إخوانه القرشي: «و من وظائف المحتسب مراقبه المساجد و المؤذنين

١- الحج: ٤١.

٢- نهج البلاغه: الخطبه ١٢٧.

٣- الوسائل ١١: ٣٩٥.

و الوعّاظ و القراء، و عدم السماح لتصدّي هذه المشاغل إلّا لمن اشتهر بين الناس بالدين و الخير و الفضيله و يكون عالماً بالأُمور و العلوم الشرعيه» إلى آخر ما ذكره «(١)».

فهذه هي الخطوط الدفاعيه التي وضعها الإسلام أمام المبتدعين، و هناك أمور أُخرى للقضاء على البدعه و الحدّ من نشاط المبتدعين، نؤخّر بيانها إلى مجال آخر.

خاتمه المطاف كيفيه التوصل إلى مكافحه البدع و القضاء عليها

بقى هنا أمر هام و هو؛ كيف تتوصل إلى مكافحه البدع و نقضى عليها؟ و هو سؤال مهم يبين موقفنا في هذا العصر أمام تيارات البدع قديماً و حديثاً. و في الحقيقة أنّ ما نذكره في الجواب، هو واجب العلماء المفكرين الذين يتحرّقون لمعرفة الحق بين منرجات الأهواء النفسيه و الانتماءات العصبية.

إنّ القضاء على البدع و لو نسبياً يتم بالقيام بأمر هي:

الأول: دراسه العقائد الإسلاميه في ضوء الكتاب و السنّه الصحيحه، و الفطره الإنسانيه، و العقل السليم، و نفي الاكتفاء برساله «الطحاويه» للإمام الطحاوي، و «الإبانه» للإمام الشيخ الأشعري؛ فإنّهما - رضوان الله عليهما - قد أديا رسالتهما في عصرهما بأحسن وجه، و لم يكن في وسعهما إلّا ما ألفا و نشرا، و إن تأثرا بالروايات غير الصحيحه؛ إذ في ثنايا دينك الكتاب التلميح إلى التشبيه و التعطيل، و تعريف الإنسان بلا اختيار و إرادته، كالريشه في مهبّ الريح، إلى غير ذلك ممّا تردّه الفطره السليمه، كجواز تعذيب الطفل يوم القيامه بالنار. و من المؤسف جداً الاكتفاء بدراسه العقائد من خلال هذين الكتابين و ما شاكلهما في مقابل التشكيكات البرّاقه

التي تثيرها كل يوم الوسائل الإعلاميه على الإطلاق في معسكر الغرب و الشرق، و هل يمكنصد هذا التيار بهذه الكتب؟ كلا، و من قال نعم؛ فإتما يقوله بلسانه و ينكره بقلبه.

كل ذلك يسوقنا إلى أن نعطي للعقائد و المعارف قسماً أوفر في دراساتنا، حتى تتميز البدع عن غيرها، نعم ان من يتلقى كل ما ذكره أحمد بن حنبل في كتاب السنه و الإمامين السابقين في رسالتهما لا غبار عليه، و إن كان ضد الكتاب و السنه المتواتره و العقل الفطرى الصريح فلا- يحسن وظيفه أصلاً، و كلامنا مع المفكرين الواعين العالمين بما يجرى في البلاد على الإسلام و الشباب، و ما يثار من إشكالات حول الأصول حتى التوحيد نفسه.

الثانى: تمحيص السنه و دراستها من جديد دراسه عميقه سنداً و مضموناً مقارنة مع الكتاب و السنن القطعيه عن الرسول، فان أكثر البدع لها جذور فى السنه المدونه، و هو صلى الله عليه و آله عنها برى ء، و إنما اختلقها الوضاعون الكذابون على لسانه. غير أن مسلمه أهل الكتاب و بما أنهم لم يروا النبى الأكرم قد نسبوا إلى أنبيائهم و كتبهم، و نسبها بعض السلف إلى نفس النبى الأكرم، و ها نحن نضع أمامك حديثين رواهما الشيخان فى مورد الأنبياء حتى نتخذهما مقياساً لما لم نذكره.

إنه سبحانه يعرّف فضله على النبى الأكرم بقوله: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» (١) و المراد من فضله سبحانه فى ذيل الآيه هو علم النبى الذى أفاضه الله عليه و وصفه بكونه عظيماً، مضافاً إلى ما فيصدر الآيه من إنزال الكتاب و الحكمه عليه. و مع ذلك نرى أن الرسول فى الصحيحين يعرّف بصوره أنه لا علم له بأبسط الأمور و أوضح السنن الطبيعيه فى عالم النباتات، حيث رأى قوماً يلقحون النخيل فنهاهم عن ذلك

قائلاً بأنه لا يظن أنه يغني شيئاً، فتركه الناس وواجهوا الخساره و عدم الإثمار، فأتوا إلى النبي الأكرم، فقال ما قال، و إليك نصّ الروايه:

١- روى مسلم، عن موسى بن طلحه، عن أبيه، قال: مررت و رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يقوم على رءوس النخل فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح، فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «ما أظنّ يغني ذلك شيئاً» فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله بذلك، فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنّي إنّما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظنّ، و لكن إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنّي لن أكذب على الله عزّ و جلّ» (١)

و روى عن رافع بن خديج، قال: قدم نبيّ الله المدينة و هم يؤبّرون (٢) النخل، يقولون: يلقحون النخل، فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كُنّا نصنعه، قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه فنقضت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: «إنّما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به، و إذا أمرتكم بشىء من رأيي فأنّما أنا بشر» (٣)

و العجب أنّ مؤلّف الصحيح مسلم النيسابورى ذكر الحديث فى باب أسماء ب «و جوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره صلى الله عليه و آله من معاش الدنيا على سبيل الرأى» نحن نعلّق على الحديث بشىء بسيط و نترك التفصيل إلى القارئ.

أولّما: نفترض أنّ النبي الأكرم ليس نبياً، و لا- أفضل الخليقه، و لا- من أنزل إليه الكتاب و الحكمه، و لا من وصف الله سبحانه علمه بكونه عظيماً، و لكن كان عربياً صميماً ولد فى أرض الحجاز، و عاش بين ظهرانى قومه و غيرهم فى الحضر

١- مسلم، الصحيح ١٥: ١٢٦ الباب ٣٨، كتاب الفضائل.

٢- أبر يابر كبندر بيندر: أدخل شيئاً من طلع الذكر فى طلع الأنثى فتعلق بإذن الله.

٣- المصدر السابق: ص ١٢٧.

و البادية، وقد تكثرت سفراته إلى الشام، و كل إنسان كان هذا شأنه يعرف أنّ النخيل لا يثمر إلّا بالتلقيح، فما معنى سؤاله ما يصنع هؤلاء؟! فيجيبونه بقولهم:

إنّهم «يلقحونه» أ فيمكن أن يكون هذا الشئ ع البسيط خفياً على النبيّ؟!!

ثانياً: كيف يمكن للنبي النهى عن التلقيح و هو سنّه من سنن الله في عالم الحياه، و قال سبحانه: «فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا» (١) و مع ذلك فكيف يقول: «ما أظنّ يغنى ذلك شيئاً؟!»!

ثالثاً: إنّ الاعتذار الوارد في الروايه يُسى ع الظنّ بكلّ ما يقوله النبيّ الأ-كرم، فإن كان المخبر بهذه الدرجه من العلم؛ فكيف يمكن الاعتماد بما يُخبر عن الله سبحانه؟! كل ذلك يسى ع الظنّ بكلّ ما يذكره بلسانه و يخرج من شفتيه، و الأسوأ من ذلك ما نُسب إليه من الاعتذار بقوله: «و إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فأنّى لن أكذب على الله عزّ و جلّ»، لأنّ فيه تلميحاً إلى أنّه- و العياذ بالله- يكذب في مواضع أُخر.

فلو اعتمدنا على هذه الروايه و نظائرها في بناء العقيدّه، فستكون النتيجة أنّ النبي ربّما يكون جاهلاً بأبسط السنن الجاربه في الحياه، فهل يصحّ التفوّه بذلك؟

٢- لو كان الحديث الأوّل يحطّ من منزله النبيّ الأكرم، فالحديث الثاني يحطّ من مكانه الكليم موسى عليه السلام. فقد أخرج الشيخان فيصحيحهما بالاسناد إلى أبي هريره، قال: لَمَّا جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب دعوه ربّك، فلطم موسى عين ملك الموت فقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنّك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، فقأ عيني، قال: فردّ الله إليه عينه، و قال:

ارجع إلى عبدى فقال: الحياه تريد، فإن كنت تريد الحياه، فضع يدك على متن

ثور، فما توارت بيدك من شعره فأنتك تعيش بها سنه [\(١\)](#).

و أخرج ابن جرير الطبرى فى تاريخه، وقال: «إِنَّ ملك الموت يأتى الناس عيوناً حتى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه- إلى أن قال:- فجاء بعد ذلك إلى الناس خفيه» [\(٢\)](#).

و الحديث غنى عن التعليق و لا يوافق الكتاب و لا سنّه الأنبياء و لا العقل السليم من جهات هى:

١- أنه سبحانه يقول: «إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ» [\(٣\)](#) فظاهر قوله: «أجب ربك» أنه كان ممن كتب عليه الموت و جاء أجله و مع ذلك تأخر.

٢- من درس حياه الأنبياء بشكل عام يقف على أنهم عليهم السلام ما كانوا يكرهون الموت كراهه الجاهلين، و هل كانت الدنيا عند الكليم أعز من الآخرة، و هل كانت تخفى عليه نعمها و درجاتها؟!

٣- ما ذنب ملك الموت؟ إن هو إلا رسول من الله مجتد له، يعمل بإمرته، فهل كان يستحق مثل هذا الضرب؟!

٤- كيف تُرك القصاص عن موسى مع أنه سبحانه يقول: «وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ» [\(٤\)](#).

١- مسلم، الصحيح، ج ٧، كتاب الفضائل فى باب فضائل موسى؛ البخارى، الصحيح ٤: ١٥٧، كتاب بدء الخلق، باب وفاه موسى.

٢- الطبرى، التاريخ ١: ٣٠٥، باب وفاه موسى.

٣- يونس: ٤٩.

٤- المائدة: ٤٥.

٥- و هل كان ملك الموت أضعف من موسى حتى غلب عليه و فقأ عينه و لم يتمكن من الدفاع، و لم يزهق روحه مع كونه مأموراً به من ربه؟ أنا لا- أدرى، و أظن أن القارئ في غنى عن هذه التعليقات، فإنّ مضمون الحديث يصرّح بأعليصوته أنه مكذوب.

فتمحيص السنّة فريضه على المفكرين لكي يقضوا بذلك على البدع التي ما انفكت تتلاعب بالدين، و لا يقوم بذلك إلا من امتحن الله قلبه بالتقوى و لا تأخذه في الله لومه لائم، و إن رماه المتطرفون بأنواع التهم و الأباطيل، و لا غرو فإنّ المصلحين في جميع الأجيال كانوا أغراضاً لنبال الجهّال.

دراسه لأربع مسائل فقهيه تدور بين البدعه والسنة

مقدمه الحقيقه بنت البحث

إن الفقه الإسلامى عطاءً كبير ورثه الخلف عن السلف عبر جهود جباره؛ بذلها علماء الأمة و فقهاؤها المتقدمون و المتأخرون. و قد رام هؤلاء العلماء و الفقهاء الوصول إلى التشريع الحقيقى الذى جاء به النبي صلى الله عليه و آله فى الكتاب و السنة، فمنهم من أصاب و منهم من أخطأ.

و هذا الجهد العظيم و إن خلف تراشاً فقهياً و فكراً عظيماً تعتز به الأمة، إلا أنه انتهى إلى الخلاف فى جملة من المسائل بعد الاتفاق فى أكثرها.

و حيث لم يكن حتمياً أن تبقى المسائل الخلافية خلافيه إلى الأبد؛ فمن الممكن أن يصل الفقهاء - لو بذلوا جهودهم فى دراسه الخلافيات بعيداً عن تقليد أى مذهب من المذاهب - إلى وحده النظر، و اتفاق الرأى فيها.

و قد أثبتت تجربته هذه الثمرة الحلوة، و لأجل ذلك عمدنا إلى طرح مسائل

أربع اختلفت فيها مواقف الفقهاء و أنظار العلماء على بساط البحث المجدّد، و رائدنا فى هذه الدراسة: الكتاب و السنّه.
و ها أنا ذا أقدم حصيله جهودى هذه إلى فقهاء الأُمّة الذين يهتمهم مصير الأُمّة، و تشتاق نفوسهم إلى وحدتها و عزّتها.

المسألة الأولى: القبض بين البدعه و السنّه

المسألة الأولى: القبض بين البدعه و السنّه

إشاره

«(١)»

إن قبض اليد اليسرى باليمنى ممّا اشتهر ندبه بين فقهاء أهل السنّه.

فقال الحنفيه: إنّ التكتّف مسنون و ليس بواجب، و الأفضل للرجل أن يضع باطن كفّه اليمنى على ظاهر كفّه اليسرى تحت سُرّته، و للمرأه أن تضع يديها على صدرها.

و قالت الشافعيه: يُسنّ للرجل و المرأه، و الأفضل وضع باطن يميناه على ظهر يسراه تحت الصدر و فوق السرّه ممّا يلي الجانب الأيسر.

و قالت الحنابله: إنّه سنّه، و الأفضل أن يضع باطن يميناه على ظاهر يسراه، و يجعلها تحت السرّه.

و شدّت عنهم المالكيه فقالوا: يُندب إسدال اليدين فى الصلاه الفرض، و قالت به جماعه أيضاً قبلهم، منهم: عبد الله بن الزبير، و سعيد بن المسيب، و سعيد بن جبير، و عطاء، و ابن جريج، و النخعى، و الحسن البصرى، و ابن سيرين، و جماعه من الفقهاء.

و المنقول عن الإمام الأوزاعى التخيير بين القبض و السدل «(٢)».

و أمّا الشيعة الإماميه، فالمشهور أنّه حرام و مبطل، و شدّ منهم من قال بأنّه مكروه، كالحلبى فى الكافى «(٣)».

و مع أنّ غير المالكيه من المذاهب الأربعة قد تصوّبوا و تصعدوا فى المسأله،

١- هو التكتّف، و القبض اصطلاح أهل السنه و أمّا الشيعة فيطلقون عليه: التكفير بمعنى التستير، الفقه على المذاهب الخمسه: ص ١١٠.

٢- الفقه على المذاهب الخمسه: ١١٠؛ و لاحظ رساله مختصره فى السدل للدكتور عبد الحميد: ص ٥.

٣- جواهر الكلام ١١: ١٥-١٦.

لكن ليس لهم دليل مقنع على جوازه فى الصلاه، فضلاً عن كونه مندوباً، بل يمكن أن يقال: إن الدليل على خلافهم، و الروايات البانيه عن الفريقين التى تبينصلاه الرسول خاليه عن القبض، و لا يمكن للنبي الأكرم أن يترك المندوب طيله حياته أو أكثرها، و إليك نموذجين من هذه الروايات: أحدهما من طريق أهل السنّه، و الآخر من طريق الشيعة الإماميه، و كلاهما يُبينان كيفيهصلاه النبي، و ليست فيهما أيه إشاره على القبض فضلاً عن كيفيته.

كيفيهصلاه النبي صلى الله عليه و آله فى روايات الفريقين

أ- حديث أبى حميد الساعدى:

روى حديث أبى حميد الساعدى غير واحد من المحدثين، و نحن نذكره بنصّ البيهقى، قال: أخبرناه أبو على عبد الله الحافظ:

فقال أبو حميد الساعدى: أنا أعلمكم بصلاه رسول الله صلى الله عليه و آله، قالوا: لم، ما كنت أكثرنا له تبعاً، و لا أقدمنا لهصحبته؟! قال: بلى، قالوا: فأعرض علينا، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا قام إلى الصلاه رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه، ثم يكبر حتى يقرّ كلّ عضو منه فى موضعه معتدلاً، ثم يقرأ، ثم يكبر و يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه، ثم يركع و يضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل و لا ينصب رأسه و لا يقنع، ثم يرفع رأسه، فيقول: سمع الله لمن حمده، ثم يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه، حتى يعود كلّ عظم منه إلى موضعه معتدلاً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يهوى إلى الأرض فيجافى يديه عن جنبيه، ثم يرفع رأسه، فيثنى رجله اليسرى، فيقعد عليها، و يفتح أصابع رجله إذا سجد، ثم يعود، ثم يرفع فيقول: الله أكبر، ثم يثنى برجله، فيقعد عليها معتدلاً حتى يرجع أو يقرّ كلّ عظم موضعه معتدلاً، ثم يصنع

فى الركعه الأخرى مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبر و رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما فعل أو كبر عند افتتاحصلاته، ثم يصنع مثل ذلك فى بقيهصلاته، حتى إذا كان فى السجده التى فيها التسليم أحر رجله اليسرى و قعد متوركاً على شقه الأيسر، فقالوا جميعاً: صدق هكذا كان يصلى رسول الله صلى الله عليه و آله «(١)».

و الذى يوضحه الاحتجاج الأمور التاليه:

١- تصديق أكبر الصحابه «(٢)» و بهذا العدد لأبى حميد يدل على قوه الحديث، و ترجيحه على غيره من الأدله.

٢- إنه وصف الفرائض و السنن و المندوبات و لم يذكر القبض، و لم ينكروا عليه، أو يذكروا خلافه، و كانوا حريصين على ذلك، لأنهم لم يسلّموا له أول الأمر أنه أعلمهم بصلاه رسول الله صلى الله عليه و آله، بل قالوا جميعاً: صدقت هكذا كان رسول الله صلى الله عليه و آله يصلى، و من البعيد جداً نسيانهم و هم عشره، و فى مجال المذاكره.

٣- الأصل فى وضع اليدين هو الإرسال؛ لأنه الطبعى فدلّ الحديث عليه.

٤- لا يقال أنّ هذا الحديث عامّ و قد خصّصته أحاديث القبض؛ لأنه وصف و عدّد جميع الفرائض و السنن و المندوبات و كامل هيئه الصلاه، و هو فى معرض التعليم و البيان، و الحذف فيه خيانه، و هذا بعيد عنه و عنهم.

٥- روى بعض من حضر من الصحابه أحاديث القبض، فلم يعترض، فدلّ على أنّ القبض منسوخ، أو على أقلّ أحواله بأنّه جائز للاعتماد لمن طوّل فيصلاته، و ليس من سنن الصلاه، و لا من مندوباتها، كما هو مذهب الليث بن سعد، و الأوزاعى، و مالك «(٣)».

١- البيهقى، السنن ٢: ٧٢-٧٣، ١٠١، ١٠٢؛ أبو داود، السنن: ١/ ١٩٤ باب افتتاح الصلاه، الحديث ٧٣٠-٧٣٦؛ الترمذى، السنن ٢: ٩٨ باب صفه الصلاه.

٢- منهم أبو هريره، و سهل الساعدى، و أبو أسيد الساعدى، و أبو قتاده الحارث بن ربعى، و محمد بن مسلمه.

٣- الدكتور عبد الحميد، رساله مختصره فى السدل: ص ١١.

هذا هو الحديث العذى قام بيان كيفية صلاه النبىؐ، و قد روى عن طريق أهل السنّه، و قد عرفت وجه الدلاله، و إليك ما رواه الشيعة الإماميه.

ب- حديث حماد بن عيسى:

روى حماد بن عيسى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون سنه أو سبعون سنه فما يقيم صلاه واحده بحدودها تامّه!!»، قال حماد: فأصابنى فى نفسى الذلّ، فقلت: جعلت فداك فعلمنى الصلاه، فقام أبو عبد الله مستقبل القبله منتصباً فأرسل يديه جميعاً على فخذه، قد ضمّ أصابعه و قُرب بين قدميه حتّى كان بينهما ثلاثه أصابع مفرجات، و استقبال بأصابع رجله جميعاً لم يُحرفهما عن القبله بخشوع و استكانه، فقال: الله أكبر، ثم قرأ الحمد بترتيل، و قل هو الله أحد، ثمّ صبر هنيهة بقدر ما تنفس و هو قائم، ثمّ قال: الله أكبر، و هو قائم، ثمّ ركع و ملأ كفيه من ركبته مفرجات، و ردّ ركبته إلى خلفه حتّى استوى ظهره، حتّى لو صبّ عليه قطره ماء أو دهن لم تزل لاستواء ظهره و تردّد ركبته إلى خلفه، و نصب عنقه، و غمض عينيه ثمّ سبح ثلاثاً بترتيل و قال: سبحان ربّى العظيم و بحمده، ثمّ استوى قائماً، فلما استمكن من القيام قال: سمع الله لمن حمده، ثمّ كبر و هو قائم، و رفع يديه حيال وجهه، و سجد، و وضع يديه إلى الأرض قبل ركبته فقال: سبحان ربّى الأعلى و بحمده ثلاث مرّات، و لم يضع شيئاً من بدنه على شىء منه، و سجد على ثمانيه أعظم: الجبهه، و الكفين، و عيني الركبتين، و أنامل إبهامى الرجلين، و الأنف، فهذه السبعه فرض، و وضع الأنف على الأرض سنّه، و هو الإرغام، ثمّ رفع رأسه من السجود، فلما استوى جالساً قال: الله أكبر، ثمّ قعد على جانبه الأيسر، و وضع ظاهر قدمه اليمنى على باطن قدمه اليسرى، و قال:

استغفر الله ربّى و أتوب إليه، ثمّ كبر و هو جالس و سجد الثانية و قال كما قال فى

الأولى، و لم يستعن بشىء من بدنه على شىء منه فى ركوع و لا سجود، و كان مجنحاً، و لم يضع ذراعيه على الأرض، فصلّى ركعتين على هذا.

ثم قال: «يا حمّاد هكذا صلّ، و لا تلتفت، و لا تعبث بيدك و أصابعك، و لا تنزق عن يمينك و لا عن يسارك و لا بين يديك»
«(١)».

ترى أنّ الروایتين بصدّد بيان كيفية الصلاة المفروضة على الناس، و ليست فيهما أيّة إشارة إلى القبض بأقسامه المختلفه، فلو كان سنّه لما تركه الإمام فى بيانه، و هو بعمله يجسّد لنا صلاة الرسول صلى الله عليه و آله؛ لأنّه أخذها عن أبيه الإمام الباقر، و هو عن أبيه عن آبائه، عن أمير المؤمنين، عن الرسول الأعظم -صلوات الله عليهم أجمعين- فيكون القبض بدعه؛ لأنّه إدخال شىء فى الشريعة و هو ليس منها.

ثم إنّ للقائل بالقبض أدلّه نأتى على دراستها:

أدلّه القبض عند أهل السنّه

إشاره

إنّ مجموع ما يمكن الاستدلال به على أنّ القبض سنّه فى الصلاة لا يعدو عن مرويات ثلاث:

١- حديث سهل بن سعد. رواه البخارى.

٢- حديث وائل بن حجر. رواه مسلم و نقله البيهقى بأسانيد ثلاثه.

٣- حديث عبد الله بن مسعود. رواه البيهقى فى سننه.

و إليك دراسه كلّ حديث:

١- الوسائل الجزء ٤، الباب ١ من أبواب أفعال الصلاة، الحديث ١، و لاحظ الباب ١٧، الحديث ١ و ٢.

أ- حديث سهل بن سعد

روى البخارى عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، قال: «كان الناس يُؤمرون أن يضع الرجلُ اليدَ اليمنى على ذراعه اليسرى فى الصلاة» قال أبو حازم: لا أعلمه إلَّا يُنمى ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله [\(١\)](#).

قال إسماعيل [\(٢\)](#): يُنمى ذلك و لم يقل يُنمى.

و الروايه متكفله لبيان كيفية القبض إلَّا أنَّ الكلام فى دلالتها بعد تسليم سندها. لكنها لا تدلّ عليه بوجهين:

أولاً: لو كان النبي الأكرم هو الأمر بالقبض إلَّا أنَّ الكلام فى دلالتها بعد تسليم سندها. لكنها لا تدلّ عليه بوجهين: كان النبي يأمر؟ أ و ليس هذا دليلاً على أنَّ الحكم نجم بعد ارتحال النبي الأكرم؛ حيث إنَّ الخلفاء و أمراءهم كانوا يأمرون الناس بالقبض بتخييل أنه أقرب للخشوع؟ و لأجله عقد البخارى بعده باباً باسم «باب الخشوع». قال ابن حجر: الحكمه فى هذه الهيئه أنهصفه السائل الدليل، و هو أمتع عن العبث، و أقرب إلى الخشوع، كان البخارى قد لاحظ ذلك و عقبه بباب الخشوع.

و ثانياً: إنَّ فى ذيل السند ما يؤيد أنه كان من عمل الأمرين، لا الرسول الأكرم نفسه حيث قال: قال إسماعيل: «لا أعلمه إلَّا يُنمى ذلك إلى النبي» بناءً على قراءه الفعل بصيغه المجهول.

و معناه أنه لا يعلم كونه أمراً مسنوناً فى الصلاة، غير أنه يُعزى و ينسب إلى النبي، فيكون ما يرويه سهل بن سعد مرفوعاً.

١- فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٢: ٢٢٤، باب وضع اليمنى على اليسرى. و رواه البيهقى فى السنن الكبرى ٢: ٢٨، باب وضع اليد اليمنى على اليسرى فى الصلاة.

٢- المراد: إسماعيل بن أبى أويس شيخ البخارى كما جزم به الحميدى. لاحظ فتح البارى ٥: ٣٢٥.

قال ابن حجر: و من اصطلاح أهل الحديث إذا قال الراوى يُنميه، فمراده:

يرفع ذلك إلى النبيّ «(١)».

هذا كلّه إذا قرأناه بصيغته المجهول، و أمّا إذا قرأناه بصيغته المعلوم، فمعناه أنّ سهلاً ينسب ذلك إلى النبيّ، فعلى فرض صحّته القراءة و خروجه بذلك من الإرسال و الرفع، يكون قوله: «لا أعلمه إلّا...» معرباً عن ضعف النسبه، و أنّه سمعه عن رجل آخر و لم يسمّ.

ب- حديث وائل بن حجر:

و قد روى هذا الحديث بصور:

١- روى مسلم، عن وائل بن حجر: أنّه رأى النبيّ رفع يديه حين دخل في الصلاه كبر، ثمّ التحف بثوبه، ثمّ وضع يده اليمنى على اليسرى، فلما أراد أن يركع أخرج يديه من الثوب، ثمّ رفعهما، ثمّ كبر فركع... «(٢)».

و الاحتجاج بالحديث احتجاج بفعل النبيّ و هو متوقف على تمام دلالاته على ذلك؛ لأنّ ظاهر الحديث أنّ النبيّ جمع أطراف ثوبه فغطّى صدره به، و وضع يده اليمنى على اليسرى، أمّا هل فعل ذلك لكونه أمراً مسنوناً في الصلاه، أو فعله لئلاّ يسترخى الثوب بل يلصق بالبدن ليقى به نفسه من البرد؟ و الفعل أمر مجهول العنوان، لا يكون حجّه إلّا إذا علم أنّه فعل به لكونه مسنوناً. ثمّ إنّ النبيّ الأكرم صلّى مع المهاجرين و الأنصار أزيد من عشر سنوات، فلو كان ذلك ثابتاً من النبيّ

١- فتح البارى ٥: ٣٢٥. هامش رقم ١.

٢- مسلم، الصحيح ١: ٣٨٢، الباب ٥ من كتاب الصلاه، باب وضع يده اليمنى على اليسرى، و فى سند الحديث «همام» و لو كان المقصود، هو همام بن يحيى فقد قال ابن عمار فيه: كان يحيى القطان لا يعأب «همام» و قال عمر بن شيبه: حدّثنا عفان قال: كان يحيى بن سعيد يعترض على همام فى كثير من حديثه. و قال أبو حاتم: ثقّه فى حفظه. لاحظ هدى السارى ١: ٤٤٩.

لكثر النقل و ذاع، و لما انحصر نقله بوائل بن حجر، مع ما فى نقله من الاحتمالين.

نعم روى بصوره أُخرى ليس فيه قوله: «ثم التحف بثوبه» و إليك صورته:

٢- روى البيهقى بسنده عن موسى بن عمير: حدّثنى علقمه بن وائل، عن أبيه: أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله كان إذا قام فى الصلاة قبض على شماله بيمينه، و رأيت علقمه يفعلُه ﴿١﴾.

و بما أنّه إذا دار الأمر بين الزيادة و النقيصه فالثانيه هى المتعينه، فيلاحظ على الروايه بما لوحظ على الأولى، و هو أنّ وجه الفعل غير معلوم فيها. فلو كان النبيّ مقيماً على هذا العمل، لاشتهر بين الناس، مع أنّ قوله: «و رأيتُ علقمه يفعلُه» يعرب عن أنّ الراوى تعرّف على السنّه من طريقه.

٣- رواه البيهقى أيضاً بسند آخر عن وائل بن حجر ﴿٢﴾ و يظهر الإشكال فيه بنفس ما ذكرناه فى السابق.

ج- حديث عبد الله بن مسعود:

روى البيهقى مسنداً عن ابن مسعود رضى الله عنه أنّه كان يصلى فوضع يده اليسرى على اليمنى، فرآه النبيّ صلى الله عليه و آله فوضع يده اليمنى على اليسرى ﴿٣﴾.

يلاحظ عليه- مضافاً إلى أنّه من البعيد أن لا يعرف مثل عبد الله بن مسعود ذلك الصحابى الجليل ما هو المسنون فى الصلاة مع أنّه من السابقين فى الإسلام: أنّ

١- سنن البيهقى ٢: ٢٨، و فى سند الحديث عبد الله بن جعفر، فلو كان هو ابن نجیح قال ابن معين: ليس بشىء، و قال النسائى:

متروك، و كان وكيع إذا أتى على حديثه جزّ عليه، متفق على ضعفه. لاحظ دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر ١: ٨٧.

٢- المصدر نفسه و فى سنده عبد الله بن رجاء. قال عمرو بن على الفلاس: كان كثير الخلط و التصحيف، ليس بحجّه. لاحظ هدى السارى ١: ٤٣٧.

٣- سنن البيهقى ٢: ٢٨، باب وضع اليد اليمنى على اليسرى.

فى السند هشيم بن بشير؛ و هو مشهور بالتدليس «(١)».

و لأجل ذلك نرى أنّ أئمة أهل البيت كانوا يتحرّزون عنه، و يرونه أنّه من صنع المجوس أمام الملك.

روى محمد بن مسلم عن الصادق أو الباقر عليهما السلام قال: قلت له: الرجل يضع يده فى الصلاة- و حكى- اليمنى على اليسرى؟ فقال: «ذلك التكفير، لا يفعل».

و روى زراره عن أبى جعفر عليه السلام أنّه قال: «و عليك بالإقبال عليصلاتك، و لا تكفّر؛ فإنّما يصنع ذلك المجوس».

و روى الصدوق باسناده عن على عليه السلام أنّه قال: و عليك بالإقبال عليصلاتك، و لا تكفّر فإنّما يصنع ذلك المجوس.

و روى الصدوق باسناده عن على عليه السلام أنّه قال: «لا يجمع المسلم يديه فيصلاته و هو قائم بين يدي الله عزّ و جلّ يتشبهه بأهل الكفر- يعنى المجوس-» «(٢)».

و فى الختام نلفت نظر القارئ إلى كلمه صدرت من الدكتور على السالوس:

فهو بعد ما نقل آراء فقهاء الفريقين، و صف القائلين بالتحريم و الإبطال بقوله:

«و اولئك الذين ذهبوا إلى التحريم و الإبطال، أو التحريم فقط، يمثّلون التعصّب المذهبى و حبّ الخلاف، تفريقاً بين المسلمين» «(٣)».

ما ذنب الشيعة إذا هداهم الاجتهاد و الفحص فى الكتاب و السنّه إلى أنّ القبض أمر حدث بعد النبى الأ-كرم، و كان الناس يؤمرون بذلك أيام الخلفاء، فمن زعم أنّه جزء من الصلاة فرضاً أو استحباباً، فقد أحدث فى الدين ما ليس منه، أ فهل جزاء من اجتهد أن يرمى بالتعصّب المذهبى و حبّ الخلاف؟!

١- هدى السارى ١: ٤٤٩.

٢- الوسائل ٤: الباب ١٥ من أبواب قواطع الصلاة، الحديث ١ و ٢ و ٧.

٣- فقه الشيعة الإماميه و مواضع الخلاف بينه و بين المذاهب الأربعة: ١٨٣.

و لو صحّ ذلك، فهل يمكن توصيف الإمام مالك به؟ لأنّه كان يكره القبض مطلقاً، أو في الفرض، أ فهل يصحّ رمى إمام دار
الهجرة بأنّه كان يحبّ الخلاف؟

أجل، لما ذا يا ترى لا يكون عدم الإرسال ممثلاً للتعصب المذهبي و حبّ الخلاف بين المسلمين؟!

المسأله الثانيه: صلاه الضحى**اشاره**

صلاه الضحى من النوافل الرواتب المشهوره فى كتب الفقه والحديث لأهل السنّه وإن كانت مجهوله و متروكه عند الكثير من عامّتهم.

و يمكننا فى هذه العجاله أن نلقى نظره خاطفه على ما يتعلّق بصلاه الضحى من قبيل: حكمها و أقوال الفقهاء حولها، و وقتها، و عدد ركعاتها، و أدلّتهم على مشروعيتها، و نظر فقهاء الشيعه حولها.

ما هو حكمها؟

صلاه الضحى على المشهور عندهم سنّه، كما عليه الحنابله و الحنفيه و الشافعيه.

و فى مقابل المشهور هناك أقوال أخرى، و هى:

١- أنّها مندوبه «(١)»- كما عليه المالكيه- فيستحبّ مداومه عليها.

٢- لا تستحبّ أصلاً.

٣- يستحبّ فعلها تاره و تركها أخرى، فلا يستحبّ مداومه عليها.

٤- تستحبّصلاتها و المحافظه عليها فى البيوت.

٥- لا تشرع إلّا بسبب مثل الشكر و غيره.

٦- أنّها بدعه «(٢)».

١- يفرق بين المسنون و المندوب، بأنّ الأوّل هو ما واطب عليه النبي صلى الله عليه و آله و الخلفاء الراشدون، و الثانى هو ما أمر به النبي صلى الله عليه و آله و لم يواظب عليه. الفقه على المذاهب الخمسه، للشيخ محمد جواد مغنيه: ٧٨.

٢- راجع: الشرح الكبير على المغنى، لشمس الدين ابن قدامى المقدسى ١: ٧٧٥؛ الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيرى ١: ٣٣٢؛ فقه السنه، للسيد سابق ١: ١٨٥، زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ١: ١١٦-١١٩، نيل الأوطار للشوكانى ٣: ٦٢.

متى وقتها؟

و وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح، إلى زوالها، و الأفضل أن يبدأها بعد ربع النهار. و عبر عن وقتها بهذه العبارة أيضاً: و أفضل وقتها إذا علت الشمس و اشتدَّ حرّها، و يمتدّ وقتها إلى زوال الشمس، و أوّله حين تبيض الشمس «(١)».

كم عدد ركعاتها؟

أقلّها ركعتان و أكثرها ثمان، و قيل اثنتا عشرة ركعه، و قال الحنفيه: أكثرها ستّ عشره، و ذهب بعض الشافعيه و الطبري إلى أنّه لا حدّ لأكثرها.

و قالوا بأنّه يكره أن يصلّى في نفل النهار زياده على أربع ركعات بتسليمه واحده «(٢)».

أدلتها؟**اشاره**

لا- دليل لهم على مشروعيتها إلّا مجموعه أحاديث وردت في مجاميعهم الحديثيه. و لكن بعد التمحيص و التنقيب يتجلى عدم نهوضها للحجّيه على ذلك؛ لأنّها إمّا مجمله تقصر دلالتها عن الإثبات، و إمّا مرويه عن طرق لا يصحّ الاحتجاج بها، مضافاً إلى معارضتها بأحاديث نافية للمشروعيه، راجحه عليها سنداً و دلاله.

١- راجع: الشرح الكبير على المغنى، لشمس الدين ابن قدامى المقدسى ١: ٧٧٥، الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري ١: ٣٣٢، فقه السنه، للسيد سابق ١: ١٨٥، زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ١: ١١٦-١١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٣: ٦٢.

٢- راجع: الشرح الكبير على المغنى، لشمس الدين ابن قدامى المقدسى ١: ٧٧٥، الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري ١: ٣٣٢، فقه السنه، للسيد سابق ١: ١٨٥، زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ١: ١١٦-١١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٣: ٦٢.

و إليك نماذج من تلك الطوائف الثلاث، و عليها يمكن قياس سائر الأحاديث التي لم نذكرها هنا رعايه للاختصار.

الطائفة الأولى:

الأحاديث المجمله، منها:

١- ما روى عن نعيم بن همام، قال: سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول:

«قال الله عزّ و جلّ يا ابن آدم لا تعجزني من أربع ركعات في أول نهارك أكفك آخره» (١).

رواه أبو داود و أحمد و الترمذى.

و لفظه: «ابن آدم اركع من أول النهار أربع ركعات أكفك آخره».

و ليس فى هذا تصريح بصلاه الضحى، و لا- ظهور لاحتمال أنّ المقصود من الأربع هو فريضة الفجر و نافلتها، كما اختاره مثل ابن تيميه و ابن قيم (٢)، و احتمله البعض الآخر مثل الشوكانى و العراقى (٣).

٢- ما روى عن أبى هريره قال: أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهنّ حتّى أموت: صوم ثلاثه أيام من كلّ شهر، و صلاه الضحى و نوم على وتر (٤).

احتمل فى هذا الحديث اختصاص الوصيه بأبى هريره و أمثاله الذين لا يستيقظون لنافله الليل أو ينشغلون عنها، بأن يصلّوها فى الضحى قضاءً، و يؤيده قوله: «و نوم على وتر».

قال ابن قيم: «و أما أحاديث الترغيب فيها و الوصيه بها فالصحيح منها،

١- التاج الجامع للأصول ١: ٣٢١.

٢- زاد المعاد ١: ١٢٠.

٣- نيل الأوطار ٣: ٦٤.

٤- صحيح البخارى ٢: ٧٣.

كحديث أبي هريره و أبي ذر لا يدلّ على أنّها سنّه راتبه لكلّ أحد، و إنّما أوصى أبا هريره بذلك؛ لأنّه قد روى أنّ أبا هريره كان يختار درس الحديث بالليل على الصلاه، فأمره بالضحيّ بدلاً من قيام الليل، و لهذا أمره لا ينام حتّى يوتر و لم يأمر بذلك أبا بكر و عمر و سائر الصحابه» (١).

٣- روى عن عبيد الله بن عتيبه أنّه قال: دخلت على عمر بن الخطاب بالهاجره، فوجدته يُسبّحُ، فقامت وراءه، فقربني حتّى جعلني حذاءه عن يمينه، فلمّا جاء «يرفأ» (٢) تأخّرتُ فصَفَفْنَا وراءه (٣).

و لكن عمل الخليفه مجهول العنوان، فمن أين يعلم بأنّه كان يصليّ الضحيّ؟

خاصّه مع شهادته ولده كما سيأتى بأنّه ما كان يصليّها. ثمّ إنّ الهاجره لغه ليست بمعنى الضحيّ، بل بمعنى «نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر» (٤) على المشهور، فسبحه الهاجره تنطبق على نافله الظهر، و بناءً على ما حكى عن ابن السكيت بأنّ:

الهاجره إنّما تكون بالقيظ، و قبل الظهر بقليل و بعدها بقليل (٥) فالروايه مجمله؛ إذ كما يحتمل فيها صلاه الضحيّ يحتمل نافله الظهر، و لا مرجّح للأوّل على الثاني.

٤- ما روى عن أبي هريره قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله يصليّ الضحيّ قطّ إلّا مرّه (٦).

فصدر الحديث ينفصله الضحيّ و ذيله مجمل؛ لاحتمال أنّ النبي صلى الله عليه و آله كان قد صلّى صلاه بسبب آخر، كالحاجه أو غيرها، و خفى على أبي هريره، فتصوّر أنّه صلّى الضحيّ؛ إذ ليس فيه أنّ النبي صلى الله عليه و آله أعرب عن نيّه عمله.

١- زاد المعاد ١: ١١٩.

٢- «يرفأ» اسم خادم عمر.

٣- الموطأ للإمام مالك ١: ١٤٣ باب جامع سبحة الضحيّ، ط. دار الجيل و دار الآفاق.

٤- و ٥ لسان العرب، ماده «هجر».

٥- ٥

٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٤٤٦.

٥- ما روى عن أنس أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر صلى سبحة الضحى ثمانى ركعات، فلما انصرف قال:

«إنيصليتصلاه رغبه و رهبه، سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين و منعى واحده: سألته ألا يبتلى أمتى بالسنين ففعل، و سألته ألا يظهر عليهم عدوهم ففعل، و سألته ألا يلبسهم شيعاً فأبى على» (١).

يرد على الاستدلال به، أولاً: مثل ما مضى على سابقه، و ثانياً: ان ذيله يتناقض مع الواقع التاريخى للأمة الإسلاميه. فكم من بلد إسلامى ابتلى بالقحط و السنين، و ما أكثر البلدان الإسلاميه التى وقعت تحت سيطره أعدائها فى الزمن الغابر و الحاضر.

و هذا ممّا يطمئنا باختلافه و وضعه.

الطائفه الثانيه:

الأحاديث الموضوعه:

قال ابن قيم الجوزيه (٦٩١- ٧٥١ هـ) فى تقييم أحاديثصلاه الضحى:

«و عامه أحاديث الباب فى أسانيدها مقال، و بعضها موضوع لا يحل الاحتجاج به» (٢).

ثم ذكر عدّه أحاديث قدصرّح أعلام الرجاليين بكون نقلتها و ضاعين كذبه، منها:

١- ما روى عن أنس مرفوعاً: «من داوم عليصلاه الضحى و لم يقطعها إلا عن علّه كنت أنا و هو فى زورق من نور فى بحر من نور».

١- فقه السنه ١: ١٨٥؛ كنز العمال ١١: ١٧٤.

٢- زاد المعاد ١: ١١٩.

وضعه زكريا بن دريد الكندي عن حميد.

٢- حديث يعلى بن أشدق، عن عبد الله بن جراد، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«منصلي منكم صلاه الضحى فليصلها متعبداً، فإن الرجل ليصليها السنه من الدهر ثم ينساها و يدعها، فتحنّ إليه كما تحنّ الناقه على ولدها إذا فقدته».

و يا عجباً للحاكم كيف يحتجّ بهذا و أمثاله؟! فإنه يروى هذا الحديث في كتاب أفرده للضحى، و هذه نسخه موضوعه على رسول اللّه صلى الله عليه وآله، يعنى نسخه يعلى بن الأشدق.

و قال ابن عدى: روى يعلى بن الأشدق، عن عمّه عبد الله بن جراد، عن النبي صلى الله عليه وآله أحاديث كثيره منكره، و هو و عمّه غير معروفين. و بلغنى عن أبى مسهر قال: قلت ليعلى بن الأشدق: ما سمع عمك من حديث رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال: جامع سفیان و موطأ مالك و شيئاً من الفوائد، و قال أبو حاتم بن حبان: لقي يعلى عبد الله بن جراد، فلما كبر اجتمع عليه من لا دين له فوضعوا له شهباً بمائتى حديث، فجعل يحدث بها و هو لا يدري. و هو الذى قال له بعض أصحابنا: أى شىء سمعته عن عبد الله بن جراد؟ فقال: هذه النسخه، و جامع أبى سفیان، لا تحلّ الروايه عنه بحال.

٣- حديث عمر بنصبيح، عن مقاتل بن حبان، عن عائشه: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلقى أصحابنا: أى شىء سمعته عن عبد الله بن جراد؟ فقال: هذه النسخه، و جامع أبى سفیان، لا تحلّ الروايه عنه بحال.»

و هو حديث طويل ذكره الحاكم فيصلاه الضحى، و هو حديث موضوع، و المتهم به عمر بنصبيح.

قال البخارى: حدّثنى يحيى بن على بن جبير، قال: سمعت عمر بنصبيح يقول: أنا وضعت خطبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. و قال ابن عدى: منكر الحديث. و قال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات، لا يحلّ حديثه إلا على وجه التعجب منه. و قال

الدارقطني: متروك، و قال الأزدي: كذاب.

٤- حديث عبد العزيز بن أبان، عن الثوري، عن حجاج بن فرافصة، عن مكحول، عن أبي هريره مرفوعاً:

«من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه، و إن كانت بعدد الجراد و أكثر من زبد البحر».

ذكره الحاكم أيضاً، و عبد العزيز هذا، قال ابن نمير: هو كذاب. و قال يحيى:

ليس بشيء كذاب، خبيث يضع الحديث. و قال البخاري و النسائي و الدارقطني:

متروك الحديث.

٥- حديث النهاس بن فهم، عن شداد، عن أبي هريره يرفعه:

«من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه و إن كانت أكثر من زبد البحر».

و النهاس، قال يحيى: ليس بشيء ضعيف، كان يروى عن عطاء، عن ابن عباس أشياء منكره.

و قال النسائي: ضعيف. و قال ابن عدى: لا يساوى شيئاً. و قال ابن حبان:

كان يروى المناكير عن المشاهير، و يخالف الثقات، لا يجوز الاحتجاج به. و قال الدارقطني: مضطرب الحديث تركه يحيى

القطان ^(١).

الطائفة الثالثة:

الأحاديث النافية لمشروعيهصلاه الضحى التي هي معارضه للأحاديث المثبتة، و باعتبار قوه دلالتها و اسنادها رجحها جماعه من علماء العامه على غيرها، كما صرح بذلك ابن قيم.

١- راجع حول الأحاديث الموضوعه و عما جاء حول روايتها، زاد المعاد ١: ١١٩-١٢٠.

قال: «و طائفه ثانيه ذهبت إلى أحاديث الترك، و رجحتها من جههصَّه اسنادها و عمل الصحابه بموجبها» (١).

منها:

١- ما رواه البخارى بسنده عن مورق قال: «قلت لابن عمر: أ تصلّى الضحى؟ قال: لا. قلت: فعمراً؟ قال: لا. قلت: فأبو بكر؟ قال: لا. قلت:

فالنبي صلى الله عليه و آله؟ قال: لا أخاله» (٢).

٢- و ما رواه أيضاً بسنده عن عائشه، قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله سبَّح سبَّحه الضحى، و إننى لأُسبِّحها» (٣).

و قد استدلل بعضهم بهذه الروايه لنفى الضحى لصحَّه اسنادها. «قال أبو الحسن علي بن بطال: فأخذ قوم من السلف بحديث عائشه و لم يروا صلاة الضحى، و قال قوم: إنها بدعه» (٤).

و أما قول عائشه «بأنى أُسبِّحها»، فهو اجتهاد فى مقابل النص، و لا قيمه له فى سوق الاعتبار الشرعى.

٣- و ما رواه أيضاً بسنده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه قال: ما حدَّثنا أحد أنه رأى النبي صلى الله عليه و آله يصلّى الضحى غير أم هانئ، فإنها قالت: «إن النبي صلى الله عليه و سلم دخل بيتها يوم فتح مكه فاغتسل وصلّى ثمانى ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع و السجود» (٥).

أقول: إن روايه أم هانئ ليست ظاهره فيصله الضحى، و يحتمل قوياً أن

١- زاد المعاد ١: ١١٧.

٢- صحيح البخارى ٢: ٧٣.

٣- المصدر نفسه؛ مسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٠٩.

٤- زاد المعاد ١: ١١٧.

٥- صحيح البخارى ٢: ٧٣.

النبي صلى الله عليه وآله صلى تلك الركعات شكراً لله على ما منّ عليه بفتح مكّه. و لذلك ذهبت جماعه من علماء العامه «بأنها لا تشرع إلّا بسبب الخ» (١).

٤- ما رواه أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكره، قال: «رأى أبو بكره ناساً يصلّون الضحى فقال: إنهم ليصلّون صلّاه ماصلاًها رسول الله صلى الله عليه وسلم، و لا عامّه أصحابه- رضى الله عنهم» (٢).

٥- ما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن حفص بن عاصم قال: مرضت مرضاً فجاء ابن عمر يعودنى قال: و سألته عن السبحه فى السفر؟ فقال: «صحت رسول الله صلى الله عليه وآله فى السفر فما رأيتّه يسبح، و لو كنت مسبحاً لأتممت، و قد قال الله: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (٣).

٦- و ما رواه البخارى بسنده عن مجاهد، قال: دخلت أنا و عروه بن الزبير المسجد فإذا عبد الله بن عمر جالس إلى حجره عائشه و إذا أناس يصلّون فى المسجد صلّاه الضحى. قال: فسألناه عن صلّاتهم، فقال: بدعه» (٤).

٧- و روى عن الشعبي قال: «سمعت ابن عمر يقول: ما ابتدع المسلمون أفضل من صلّاه الضحى» (٥).

ففى هاتين الروايتين صرح ابن عمر بكون صلّاه الضحى بدعه، و إن رآها فضيله بناء على مسلك والده فى جواز الابتداء الحسن.

٨- روى عن ابن عباس أنه قال صلى الله عليه وآله: «أمرت بالضحى و لم تؤمروا بها» (٦).

١- نيل الأوطار ٣: ٥٣.

٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥: ٤٥.

٣- صحيح مسلم ٥: ١٩٩ كتاب المسافرين، و الآيه من سوره الأحزاب: ٢١.

٤- صحيح البخارى ٣: ٣ باب العمرة.

٥- زاد المعاد ١: ١١٨.

٦- نيل الأوطار ٣: ٦١.

بناءً على صحة الحديث فالظاهر أنّ المراد من الأمر هنا هو أصل التشريع لا الوجوب، لأنّه لم يثبت وجوب شيء من النوافل على النبي صلى الله عليه وآله خاصّه عدا نافله الليل. و عليه فلم تشرع نافله له وضحى للمسلمين لأنّه نفى الأمر بها عليهم.

*** إلى هنا تبين أنّه لم يوجد حديث صحيح فيه دلالة واضحة على مشروعيتها الضحى. و أما ما ادّعت صحته فهو إمّا معارض بالراجع عليه سنداً و دلالة، أو فيه إجمال لا يمكن أن يستدلّ به على المقصود.

موقف الإمامية من صلاة الضحى

إنّ صلاة الضحى عند فقهاء الإمامية، بدعه لا يجوز فعلها. و قد اتفقوا و أجمعوا على هذا الرأى، كما صرح بذلك السيد الشريف المرتضى فى رسائله «(١)»، و شيخ الطائفة فى الخلاف «(٢)»، و العلّامة الحلى فى المنتهى «(٣)»، و العلّامة المجلسى فى البحار «(٤)»، و المحدّث البحرانى فى الحدائق الناضرة «(٥)».

و يدلّ على هذا الرأى قبل الإجماع، أوّلاً: عدم الدليل الشرعى المعتبر على مشروعيتها الضحى، و هذا يكفى للقول بعدمها؛ إذ لا يطالب النافى بدليل، بل الدليل على المدعى.

١- رسائل الشريف المرتضى ١: ٢٢١.

٢- الخلاف، نقلًا عن موسوعه الينايع الفقهيّه ٢٨: ٢٢٠.

٣- البحار ٨٠: ١٥٨.

٤- المصدر نفسه: ١٥٥.

٥- الحدائق الناضرة ٦: ٧٧.

و ثانياً: الأخبار المستفيضة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السلام النافيه لمشروعيهصلاه الضحى، و المصرح في بعضها أنّ العمل بها بدعه و معصيه، منها:

١- ما رواه الشيخ الطوسي، عن الحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زراره و ابن مسلم و الفضيل، قالوا: سألتاهما عليهما السلام عن الصلاه في رمضان نافله بالليل جماعه، فقالا:

إنّ النبي صلى الله عليه و آله كان إذا صلّى العشاء الآخره انصرف إلى منزله، ثم يخرج من آخر الليل إلى المسجد فيقوم فيصلى. فخرج في أول ليله من شهر رمضان ليصلى، كما كان يصلى، فاصطفّ الناس خلفه فهرب منهم إلى بيته و تركهم، ففعلوا ذلك ثلاث ليال، فقام في اليوم الرابع على منبره فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنّ الصلاه بالليل في شهر رمضان النافله في جماعه بدعه، و صلاه الضحى بدعه فلا تجتمعوا ليلاً في شهر رمضان، و لا تصلوا صلاه الضحى؛ فإنّ ذلك معصيه، ألا و إنّ كلّ بدعه ضلاله، و كلّ ضلاله سبيلها إلى النار» ثم نزل و هو يقول: «و قليل في سنّه خير من كثير في بدعه» [\(١\)](#).

٢- ما حكى عن دعائم الإسلام عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال لرجل من الأنصار سأله عنصلاه الضحى، فقال: «إنّ أول من ابتدعها قومك الأنصار، سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه و آله: «صلاه في مسجدي تعدل ألفصلاه» فكانوا يأتون من ضياعهم ضحى فيدخلون المسجد فيصلّون، فبلغ رسول الله صلى الله عليه و آله فنهاهم عنه» [\(٢\)](#).

١- التهذيب ٣: ٦٩-٧٠، و مثله في الاستبصار ١: ٤٦٧-٤٦٨، و الفقيه ٢: ١٣٢، و الوسائل ٥: ١٩٢.

٢- البحار ٨٠: ١٥٩؛ مستدرک الوسائل ٣: ٧٠. لاحظ من لا يحضره الفقيه ١: ٥٦٦ و في الأخير زياده على ما في المتن.

المسأله الثالثه: إقامه صلاه التراويح جماعه

المسأله الثالثه: إقامه صلاه التراويح جماعه

اشاره

اتفقت كلمه الفقهاء على أنّ نوافل شهر رمضان (صلاه التراويح) سُنَّه مؤكده، و أول من سنّها رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله و قال:

«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه» (١).

إنّ استجلاء الحقّ في جواز إقامتها جماعه، أو كونها بدعه يتطلّب تقديم أمرين:

١- هل تُسنُّ الجماعه في مطلق النوافل أو لا؟

المشهور عند أهل السنّه جواز إقامه النوافل جماعه، و الأفضل في بعضها إقامتها منفرداً، و إليك تفصيل مذاهبهم:

قالت المالكيه: الجماعه فيصلاه التراويح مستحبّه، أمّا باقى النوافل فإنّصلاحتها جماعه تارّه يكون مكروهاً، و تاره يكون جائزاً، فيكون مكروهاً إذا صلّيت بالمسجد أو صلّيت بجماعه كثيرين، أو كانت بمكان يكثر تردّد الناس عليه، و تكون جائزه إذا كانت بجماعه قليله، و وقعت في المنزل و نحوه من الأمكنه التي لا يتردّد عليها الناس.

و قالت الحنفيه: تكون الجماعه سنّه كفايه فيصلاه التراويح و الجنازه، و تكون مكروهه فيصلاه النوافل مطلقاً، و الوتر في غير رمضان، و إنّما تكره الجماعه في ذلك إذا زاد المقتدون عن ثلاثه، أمّا الجماعه في وتر رمضان ففيها قولان

١- البخارى، الصحيح باب فضل من قام رمضان برقم ٢٠٠٨؛ مسلم، الصحيح ج ٢ باب الترغيب في قيام رمضان، و هو التراويح: ص ١٧٦ ط دار الجيل و دار الآفاق.

مُصَحَّحان، أحدهما: أنها مستحبّه فيه، ثانيهما: أنها غير مستحبّه، ولكنها جائزه؛ وهذا القول أرجح.

وقالت الشافعيه: أمّا الجماعه فيصلاه العيدين و الاستسقاء و الكسوف و التراويح و وتر رمضان فهى مندوبه.

وقالت الحنابله: أمّا النوافل فمنها ما تُسنّ فيه الجماعه، و ذلك كصلاه الاستسقاء و التراويح و العيدين، و منها ما تباح فيه الجماعه، كصلاه التهجد و رواتب الصلاه المفروضه «(١)».

و قال المقدسى فى الشرح الكبير: و يجوز التطوّع فى جماعه و فرادى؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه و آله فعل الأمرين كليهما، و كان أكثر تطوّعه منفرداً، و مع ذلك اتفقوا على أنّ التطوّع فى البيت أفضل، لقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «عليكم بالصلاه فى بيوتكم؛ فإنّ خير صلاه المرء فى بيته إلّا المكتوبه».

و قال عليه السلام: «إذا قضى أحدكم الصلاه فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته؛ فإنّ الله جاعل فى بيته من صلاته خيراً» رواهما مسلم.

و عن زيد بن ثابت أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله قال:

«صلاه المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدي هذا إلّا المكتوبه» رواه أبو داود، و لأنّ الصلاه فى البيت أقرب إلى الإخلاص و أبعد من الرياء و هو من عمل السرّ، و السرّ أفضل من العلانيه «(٢)».

قالت الإماميه: تشرع الجماعه فى الصلوات الواجبه، و لا تشرع فى المستحبّه،

١- الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الصلاه، حكم الامامه فى صلاه الجمعه و الجنائز و النوافل: ص ٤٠٧، و فى ص ٣٤٠: هى سنه عين مؤكده عند ثلاثه من الأئمه، و خالفت المالكيه.

٢- المغنى و الشرح ١: ٧٧١، دار الكتاب العربى ط أفسست ١٤٠٣/١٩٨٣.

إلّا في الاستسقاء والعيدين مع فقد الشروط «(١)»، وقالت المذاهب الأربعة: تشرع مطلقاً في الواجبه والمستحبّه «(٢)».

٢- التراويح لغهً واصطلاحاً:

إشاره

التراويح: جمع ترويح؛ وهى فى الأصل اسم للجلسه مطلقاً، ثم سُميت بها الجلسه بعد أربع ركعات فى ليالى رمضان؛ لاستراحه الناس بها، ثم سُمى كلُّ أربع ركعات ترويح، وهى أيضاً اسم لعشرين ركعه فى الليالى نفسها.

قال ابن منظور: و الترويح فى شهر رمضان: سميت بذلك لاستراحه القوم بعد كلِّ أربع ركعات. و فى الحديث: صلاه التراويح؛ لأنهم كانوا يستريحون بين كلِّ تسليمين. و التراويح جمع ترويح؛ وهى المرّه الواحده من الراحه، تفعيله منها، مثل تسليمه من السلام «(٣)».

عدد ركعاتها عند الفريقين

اختلف الفقهاء فى عدد صلاه نوافل شهر رمضان، أما الشيعة فقد ذهبت إلى أنّ نوافل ليالى شهر رمضان ألف ركعه فى تمام الشهر.

قال الامام الصادق عليه السلام: «مما كان رسول اللّهُ صلى الله عليه وآله يصنع فى شهر رمضان، كان يتنفل فى كلِّ ليله و يزيد عيصلاته التى كان يصلّيها قبل ذلك منذ أوّل ليله إلى تمام عشرين ليله؛ فى كلِّ ليله عشرين ركعه؛ ثمانى ركعات منها بعد المغرب، و اثنتى عشره بعد العشاء الآخره، و يصلّى فى العشر الأواخر فى كلِّ

١- إذ عند اجتماع الشروط تكون واجبه.

٢- الفقه على المذاهب الخمسه ١: ١٣٣.

٣- لسان العرب، ج ٢ ماده «روح».

ليه ثلاثين ركعه؛ اثنتى عشره منها بعد المغرب، و ثمانى عشره بعد العشاء الآخره، و يدعو و يجتهد اجتهاداً شديداً، و كان يصلّى فى ليله إحدى و عشرين مائه ركعه، و يصلّى فى ليله ثلاث و عشرين: مائه ركعه و يجتهد فيهما» (١).

و أما غيرهم فقد قال الخرقى فى مختصره: و قيام شهر رمضان عشرون ركعه، يعينصلاه التراويح (٢).

و قال ابن قدامه فى شرحه: و المختار عند أبى عبد الله «الإمام أحمد» عشرون ركعه، و بهذا قال الثورى، و أبو حنيفه و الشافعى، و قال مالك: ست و ثلاثون، و زعم أنه الأمر القديم، و تعلق بفعل أهل المدينه (٣).

و الظاهر أنه ليس فى عددها عند أهل السنّه دليل معتمد عليه، يحكى عن قول الرسول أو فعله أو تقريره، و القول بالعشرين يعتمد على فعل عمر، كما أنّ القول بالسّت و الثلاثين يعتمد على فعل عمر بن عبد العزيز.

و قد فضّل القول فى ذلك عبد الرحمن الجزيرى فى «الفقه على المذاهب الأربعة» و قال:

روى الشيخان أنه صلى الله عليه و آله خرج من جوف الليل ليالى من رمضان، و هى ثلاث متفرقه: ليله الثالث، و الخامس، و السابع و العشرين، و صلى فى المسجد، و صلى الناس بصلاته فيها، و كان يصلّى بهم ثمانى ركعات، و يكملون باقيها فى بيوتهم، فكان يسمع لهم أزيز، كأزيز النحل... و قال: و من هذا يتبين أنّ النبى صلى الله عليه و آله سنّ لهم التراويح و الجماعه، و لكن لم يصلّ بهم عشرين ركعه، كما جرى عليه العمل من عهد الصحابه و من بعدهم إلى الآن، و لم يخرج إليهم بعد ذلك، خشيه أن تُفرض عليهم، كما صرح به فى بعض الروايات، و يُتبيّن أنّ عددها ليس قاصراً على الثمانى ركعات

١- التهذيب ٣: ٦٢ / ٢١٣.

٢- المغنى ٢: ١٣٧ - ١٣٨.

٣- المغنى ٢: ١٣٧ - ١٣٨.

التَّيْصَلَّاهَا بِهِمْ؛ بَدَلِيلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْمَلُونَهَا فِي بَيْوتِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ فِعْلَ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عِدْدَهَا عَشْرُونَ، حَيْثُ إِنَّهُ جَمَعَ النَّاسَ آخِرًا عَلَى هَذَا الْعِدْدِ فِي الْمَسْجِدِ، وَوَافَقَهُ الصَّحَابَةُ عَلَى ذَلِكَ. نَعَمْ زَيْدٌ فِيهَا فِي عَهْدِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَعَلَتْ سِتًّا وَثَلَاثِينَ رُكْعَةً. وَلَكِنْ كَانَ الْقَصْدُ مِنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ مَسَاوَاهُ أَهْلِ مَكَّةَ فِي الْفَضْلِ؛ لِأَنََّّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ كُلِّ أَرْبَعِ رُكْعَاتٍ مَرَّةً، فَرَأَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَصَلِّيَ بِدَلِّ كُلِّ طَوَافٍ، أَرْبَعِ رُكْعَاتٍ «(١)».

هَذَا وَقَدْ بَسَطَ شَرَّاحُ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرُهُمُ الْقَوْلَ فِي عِدْدِ رُكْعَاتِهَا إِلَى حَدِّ قَلِّ نَظِيرِهِ فِي أَبْوَابِ الْعِبَادَاتِ، فَمَنْ قَائِلٌ أَنَّ عِدْدَ رُكْعَاتِهَا ١٣ رُكْعَةً، إِلَى آخِرِ أَنَّهَا ٢٠ رُكْعَةً، إِلَى ثَلَاثِ أَنَّهَا ٢٤ رُكْعَةً، إِلَى رَابِعِ أَنَّهَا ٢٨ رُكْعَةً، إِلَى خَامِسِ أَنَّهَا ٣٦ رُكْعَةً، إِلَى سَادِسِ أَنَّهَا ٣٨ رُكْعَةً، إِلَى سَابِعِ أَنَّهَا ٣٩ رُكْعَةً، إِلَى ثَامِنِ أَنَّهَا ٤١ رُكْعَةً، إِلَى تَاسِعِ أَنَّهَا ٤٧ رُكْعَةً، وَهَلُمَّ جَرًّا «(٢)».

وَالْأَعْرَبُ مِنْ هَذَا تَدَخُّلُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي أَمْرِ الشَّرِيعَةِ! فَادْخُلْ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا لِيَتَسَاوَى - فِي رَأْيِهِ - أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ مَكَّةَ، فِي الْفَضْلِ وَالثَّوَابِ؛ فَإِنَّ فَسْحَ الْمَجَالِ لِهَذَا النُّوعِ مِنَ التَّدَخُّلِ يَجْعَلُ الشَّرِيعَةَ أَلْعُوبَةَ بِيَدِ الْحُكَّامِ، يَحْكُمُونَ فِيهَا بِأَرَائِهِمْ.

١- الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٢٥١، كتاب الصلاة، مبحث صلاة التراويح. ولا يخفى أنه لو كان المقياس في الزيادة، هو عدد الطواف بعد كل أربع ركعات فعندئذ يصل عددها إلى أربعين ركعة في كل ليلة، لأنهم إذا كانوا يطوفون بعد كل أربع ركعات مرّة واحدة، يكون عددها خمس مرّات، فإذا كان مقابل كل مرّة منه أربع ركعات، يبلغ عددها عشرين ركعة ٥ * ٤ / ٢٠ فتضاف إلى العشرين ركعة الأصليّة فيصير المجموع ٤٠ ركعة. نعم ذلك يصحّ على ما نقله ابن قدامة المقدسي من أنّ الطواف كان بين كل ترويحه. لاحظ ١: ٧٤٩

٢- فتح الباري ٤: ٢٠٤؛ إرشاد الساري ٣: ٤٢٦؛ عمده القاري ١١: ١٢٦، وقد تكلفوا في الجمع بين هذه الأقوال المتشكّكة، فلاحظ.

حكم إقامتها جماعه

إنَّ الشيعة الإماميه - تبعاً للإمام عليّ و أهل بيته عليهم السلام - يقيمون نوافل شهر رمضان بلا جماعه، و يرون إقامتها جماعه بدعه حقيقه حدثت بعد رسول الله، بمقياس «(١)» ما أنزل الله به من سلطان.

قال الشيخ الطوسي: نوافل شهر رمضان تصلّى انفراداً و الجماعه فيها بدعه، و قال الشافعي: صلاه المنفرد أحبّ إليّ منه، و شنع ابن داود على الشافعي في هذه المسأله، فقال: خالف فيها السنّه و الإجماع.

و اختلف أصحاب الشافعي في ذلك على قولين؛ فقال أبو العباس و أبو إسحاق و عامّه أصحابه: صلاه التراويح في الجماعه أفضل بكلّ حال، و تأؤلوا قول الشافعي فقالوا: إنّما قال: النافله ضربان، نافله سنّ لها الجماعه، و هي العيدان، و الخسوف، و الاستسقاء و نافله لم تُسنّ لها الجماعه، مثل ركعتي الفجر و الوتر، و ما سنّ له الجماعه أو كد مما لم تُسنّ له الجماعه، ثمّ قال: فأما قيام شهر رمضان فصلاه المنفرد أحبّ إليّ منها يعني ركعات الفجر و الوتر، التي تفعل على الانفراد أو كد من قيام شهر رمضان.

و القول الثاني: منهم من قال بظاهر كلامه، فقال: صلاه التراويح على الانفراد أفضل منها في الجماعه، بشرطين، أحدهما: أن لا تختلّ الجماعه بتأخره عن المسجد، و الثاني: أن يطيل القيام و القراءه فيصلّى منفرداً، أو يقرأ أكثر ممّا يقرأ إمامه.

و قد نصّ في القديم على أنّه إنصلّى في بيته في شهر رمضان فهو أحبّ إليّ، و إن

١- فتح الباري ٤: ٢٠٤، ذكره لجمع الناس على إمام واحد.

صَلَّاهَا فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ حَسَنٌ، وَ اخْتَارَ أَصْحَابُهُ مَذْهَبَ أَبِي الْعَبَّاسِ وَ أَبِي إِسْحَاقَ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِيَّةِ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ بَدْعٌ.

وَ أَيْضًا رَوَى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ «(١)» أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ قَالَ:

«صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ أَفْضَلُ مِنْصَلَاتِهِ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ» «(٢)».

وَ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى آرَاءِ الْفُقَهَاءِ فإِليكِ دِرَاسَةُ الْأَدْلَةِ:

أَمَّا أُمَّهُ أَهْلُ الْبَيْتِ فَقَدْ اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى أَنَّ الْجَمَاعَةَ فِي النُّوَافِلِ مَطْلَقًا بَدْعٌ، مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَ غَيْرِهَا، وَ هُنَاكَ صِنْفَانِ مِنَ الرُّوَايَاتِ:

أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تَشْرِيعِ الْجَمَاعَةِ فِي مَطْلَقِ النُّوَافِلِ.

ثَانِيَهُمَا: مَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تَشْرِيعِهَا فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ.

أَمَّا الصَّنْفُ الْأَوَّلُ فَنَذَكُرُ مِنْهُ رُوَايَتَيْنِ.

١- قَالَ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَ لَا يُصَلِّي التَّطَوُّعُ فِي جَمَاعَةٍ، وَ كُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ، وَ كُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» «(٣)».

٢- قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِتَابِهِ إِلَى الْمَأْمُونِ: «وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُصَلِّيَ تَطَوُّعًا فِي جَمَاعَةٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بَدْعٌ» «(٤)».

وَ أَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي، فَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْهُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: «لَمَّا قَدِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكُوفَةَ أَمَرَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ أَنْ يَنَادِيَ فِي النَّاسِ: لِاصْلَاهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْمَسَاجِدِ جَمَاعَةً، فَنَادَى فِي النَّاسِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ مَقَالَهُ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحُوا: وَاعْمَرَاهُ! وَاعْمَرَاهُ!»

١- أَبُو دَاوُدَ، السَّنَنِ ٢: ٦٩.

٢- الْخَلِيفَ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، الْمَسْأَلَةُ ٢٦٨.

٣- الْخِصَالُ ٢: ١٥٢.

٤- عِيُونَ أَخْبَارِ الرِّضَا: ص ٢٦٦.

فلَمَّا رجع الحسن إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له: ما هذا الصوت؟ قال: يا أمير المؤمنين الناس يصيحون: وا عَمْرَاهُ وا عَمْرَاهُ، فقال أمير المؤمنين: قل لهم:

صَلُّوا» (١).

و ربما يتعجب القارئ من قول الإمام «قل لهم: صلُّوا» حيث تركهم يستمرون في الإتيان بهذا الأمر المبتدع، و لكن إذا رجع إلى سائر كلماته يتجلى له سرّ تركهم على ما كانوا عليه.

قال الشيخ الطوسي: إن أمير المؤمنين لما أنكر، أنكر الاجتماع، و لم يُنكر نفس الصلاة، فلَمَّا رأى أنّ الأمر يفسد عليه و يفتن الناس، أجاز أمرهم بالصلاة على عادتهم (٢).

و يدلّ عليه:

ما رواه سليم بن قيس، قال: خطب أمير المؤمنين فحمد الله و أثنى عليه ثمّ صلّى على النبيّ ثمّ قال:

«ألا- إنّ أخوف ما أخاف عليكم خلّتان: أتباع الهوى، و طول الأمل- ثمّ ذكر أحداثاً ظهرت بعد رسول الله- و قال: و لو حملتُ الناسَ على تركها... لتفرّق عني جندي حتّى أبقى وحدى أو قليل من شيعتي... و الله لقد أمرتُ الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلّا في فريضه و أعلمتهم أنّ اجتماعهم في النوافل بدعه، فتنادى بعض أهل عسكري ممّن يقاتل معي: يا أهل الإسلام عُثِرَتْ سنّه عمر ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوّعاً، و قد خفت أن يثوروا في ناحيه جانب عسكري...» (٣).

١- التهذيب ٣: ح ٢٢٧.

٢- المصدر نفسه.

٣- الكافي ٨: ٥٨.

تسّم الامام منصبه الخلافة بطوع و رغبه من جماهير المسلمين، و واجه أحداثاً ظهرت بعد رسول الله، و أراد إرجاع المجتمع الإسلامى إلى عهد رسول الله فى مجالات مختلفه، و لكن حالت العوائق دون نيته، فترك بعض الأمور بحالها، حتى يشتغل بالأهمّ فالأهمّ، فلأجله أمر ابنه الحسن أن يتركهم بحالهم حتى لا يختل نظام البلاد، و لا يثور الجيش ضده.

روى أبو القاسم بن قولويه (ت ٣٦٩هـ) عن الإمامين الباقر و الصادق قالا:

«كان أمر أمير المؤمنين بالكوفه إذا أتاه الناس فقالوا له: اجعل لنا إماماً يؤمنا فى رمضان، فقال لهم: لا، و نهاهم أن يجتمعوا فيه، فلما أحسوا، جعلوا يقولون أبكوا رمضان و ارمضاناه، فأتى الحارث الأعور فى أناس فقال: يا أمير المؤمنين ضجّ الناس و كرهوا قولك، قال: فقال عند ذلك: دعوهم و ما يريدون، يُصلّ بهم من شاءوا» (١).

هذه الروايات تدلنا على موقف أئمه أهل البيت فى إقامه نوافل شهر رمضان جماعه.

صلاه التراويح فى حديث الرسول صلى الله عليه و آله

تختلف روايات أئمه أهل البيت عن بعض ما رواه أصحاب السنن، فرواياتهم عليهم السلام صريحه فى أنّ النبى الأكرم كان ينهى عن إقامه نوافل رمضان جماعه، و أنّه صلى الله عليه و آله لما خرج بعض الليالى إلى المسجد ليقيمها منفرداً، اتتمّ به الناس فنهاهم عنه، و لمّا أحسّ إصرارهم على الائتمام به ترك الصلاه فى المسجد و اكتفى بإقامتها فى البيت، و إليك بعض ما روى فى ذلك:

سأل زرارته و محمد بن مسلم و الفضيل الباقر و الصادق عليهما السلام عن الصلاه في شهر رمضان نافله بالليل جماعه فقالوا:

«إن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلى منزله، ثم يخرج من آخر الليل إلى المسجد فيقوم فيصلي، فخرج في أول ليله من شهر رمضان ليصلي، كما كان يصلي، فاصطف الناس خلفه، فهرب منهم إلى بيته و تركهم، ففعلوا ذلك ثلاث ليل، فقام في اليوم الرابع على منبره فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الصلاه بالليل في شهر رمضان من النافله في جماعه بدعه، و صلاه الضحى بدعه، ألا فلا تجتمعوا ليلاً في شهر رمضان لصلاه الليل، و لا تصلوا صلاه الضحى، فإن تلك معصيه، ألا و إن كل بدعه ضلاله، و كل ضلاله سبيلها إلى النار ثم نزل و هو يقول: قليل في سنه خير من كثير في بدعه» (١).

روى عبيد بن زرارته عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله يزيد فيصلاته في رمضان، إذا صلى العتمهصلى بعدها، فيقوم الناس خلفه فيدخل و يدعهم، ثم يخرج أيضاً فيجيئون و يقومون خلفه فيدعهم و يدخل مراراً» (٢).

و لعله صلى الله عليه وآله قام بهذا العمل مرتين، تاره في آخر الليل - كما في الروايه الأولى، و أخرى بعد صلاه العتمه - كما في الروايه الثانيه.

لكن المروى عن طريق أهل السنه يخالف ذلك، و إليك نصّ الشيخين البخارى و مسلم:

روى الأوّل و قال: حدّثني يحيى بن بكير: حدّثنا الليث، عن عقيل، عن ابن

١- الفقيه، كتاب الصوم ٢: ٨٧.

٢- الكافي ٤: ١٥٤.

شهاب: أخبرني عروه أنّ عائشه - رضی اللہ عنہا - أخبرته أنّ رسول اللہ صلی اللہ علیہ و سلم خرج ليله من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلى فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليله الثالثه، فخرج رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ فصلى بصلاته، فلما كانت الليله الرابعه عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاه الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال:

«أما بعد فإنه لم يخف على مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» فتوفى رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ و الأمر على ذلك [\(١\)](#).

و روى أيضاً في باب التهجد: «أن رسول اللہ صلی اللہ علیہ ذات ليله في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثمّ صلى من القابله فكثر الناس ثمّ اجتمعوا من الليله الثالثه أو الرابعه فلم يخرج إليهم رسول اللہ، فلما أصبح قال:

«قد رأيت الذي صنعتم و لم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم و ذلك في رمضان» [\(٢\)](#).

روى مسلم قال: حدّثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب، عن عروه، عن عائشه أنّ رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ صلي في المسجد ذات ليله فصلى بصلاته ناس، ثمّ صلى من القابله فكثر الناس، ثمّ اجتمعوا من الليله الثالثه أو الرابعه [\(٣\)](#) فلم يخرج إليهم رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم فلم

١- أي على ترك الجماعه في صلاه التراويح. لاحظ البخاري، الصحيح، باب فضل من قام رمضان: ٢٠١٢/٦١.

٢- البخاري، الصحيح ٢: ٦٣ باب التهجد بالليل، و بين الروايتين اختلاف فيما خرج صلى الله عليه و آلہ فيها من الليالي، فعلى الأولى خرج ثلاث ليل، و على الثانيه خرج ليلتين.

٣- مسلم، الصحيح ٦: ٤١ و غيره، و الظاهر وحده الروايه الثانيه للبخاري مع هذه الروايه لاتحاد الراوي و المروي عنه و المضمون.

يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم. قال: وذلك في رمضان.

وحدثني حرمله بن يحيى: أخبرنا عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروه بن الزبير أن عائشه أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من جوف الليل فصلى في المسجد، فصلّى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك فاجتمع أكثر منهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية فصلوا بصلاته، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلق رجال منهم يقولون: الصلاة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم تشهد فقال:

«أما بعد؛ فإنه لم يخف عليّ شأنكم الليلة، ولكنني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل؛ فتعجزوا عنها» (١).

والاختلاف بين ما رواه أصحابنا عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وما رواه الشيخان واضح؛ فعلى الأول، نهى النبي صلى الله عليه وآله عن إقامتها جماعه، وأسمائها بدعه، وعلى الثاني؛ ترك النبي صلى الله عليه وآله الإقامه جماعه خشيه أن تفرض عليهم، مع كونها موافقه للدين والشريعة، إذا فأى القولين أحق أن يتبع، يعلم ذلك بالبحث التالي:

إن في حديث الشيخين مشاكل جديره بالوقوف عليها:

الأولى: ما معنى قوله: «خشيت أن تفرض عليكم، فتعجزوا عنها»؟

فهل مفاده: أن ملاك التشريع هو إقبال الناس و إدبارهم؛ فإن كان هناك اهتمام ظاهر من قبل الناس، يفرض عليهم و إلا فلا يفرض، مع أن الملاك في الفرض هو وجود مصالح واقعيه في المتعلق، سواء أ كان هناك اهتمام ظاهر أم لا. فإن تشريعه

سبحانه ليس تابِعاً لرغبة الناس أو إعراضهم، وإِنَّمَا يتبع لملاكات هو أعلم بها سواء أ كان هناك إقبال أم إِدبار.

الثانية: لو افترضنا أَنَّ الصحابه أظهرت اهتمامها بصلاه التراويح بإقامتها جماعه أ فيكون ذلك ملاكاً للفرض؛ فَإِنَّ مسجد النبي صلى الله عليه وآله يومذاك كان مكاناً محدوداً لا يسع إلَّا سِتَّة آلاف نفر أو أقلَّ، فقد جاء في الفقه على المذاهب الخمسه:

«كان مسجد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ٣٥ متراً في ٣٠ متراً ثمَّ زاده الرسول و جعله ٥٧ متراً في ٥٠ متراً» (١).

أفيمكن جعل اهتمامهم كاشفاً عن اهتمام جميع الناس بها في جميع العصور إلى يوم القيامة؟

الثالثة: وجود الاختلاف في عدد الليالي التي أقام النبي فيهما نوافل رمضان جماعه. فعلى ما نقله البخارى في كتاب الصوم أَنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله صلى التراويح مع الناس أربع ليال، و على ما نقله في باب التحريض على قيام الليل، أَنهصلاًها ليلتين، و وافقه مسلم على النقل الثاني، و يظهر ممَّا ذكره غيرهما - كما مرَّ فيصدر المقال - أَنهصلى الله عليه وآله أقامها في ليال متفرّقه (ليله الثالث، و الخامس، و السابع و العشرين). و هذا يعرب عن عدم الاهتمام بنقل فعل الرسول على ما عليه، فمن أين تطمئن على سائر ما جاء فيه من أَنَّ النبي استحسن عملهم.

الرابعة: أَنَّ الثابت من فعل النبي أَنهصلاًها ليلتين، أو أربعاً في آخر الليل، و هى لا تزيد على ثمانى ركعات. فلو كان النبي أسوه فعلينا الاقتداء به فيما ثبت، لا فيما لم يثبت، بل ثبت عدمه بماصرّح القسطلانى و وصف ما زاد عليه بالبدعه و ذلك:

١- أَنَّ النبي لم يسنّ لهم الاجتماع لها.

١- الفقه على المذاهب الخمسه: ٢٨٥٠.

٢- ولا كانت فى زمن الصديق.

٣- ولا أوّل الليل.

٤- ولا كلّ ليله.

٥- ولا هذا العدد «(١)».

ثمّ التجأ فى إثبات مشروعيتها إلى اجتهاد الخليفه، و سيوافيك الكلام فيه.

وقال العينى: إنّ رسول الله لم يسنّها لهم، و لا- كانت فى زمن أبى بكر، ثمّ اعتمد فى شرعيته إلى اجتهاد عمر و استنباطه من إقرار الشارع الناس يصلون خلفه ليلتين «(٢)». و سيوافيك الكلام فيه.

الخامسه: أنه إذا أخذنا بروايه أحد الثقلين، (أهل بيت النبى) تُصبح إقامة النوافل جماعه بدعه على الإطلاق، و إن أخذنا بروايه الشيخين، فالمقدار الثابت ما جاء فى كلام القسطلانى، و الزائد عنه يصحّ بدعه إضافيه، حسب مصطلح الإمام الشاطبى، و المقصود منها ما يكون العمل بذاته مشروعاً، و الكيفيه التى يقام بها، غير مشروعه.

و لم يبق ما يحتجّ به على المشروعيه إلّا جمع الخليفه الناس على إمام واحد و هو ما سنشرحه فى البحث التالى:

جمع الناس على إمام واحد فى عصر عمر

روى البخارى: توفى رسول الله صلى الله عليه و آله و الناس على ذلك (يعنى ترك إقامة التراويح بالجماعه) ثمّ كان الأمر على ذلك فى خلافة أبى بكر، و صدرأ من

١- إرشاد السارى ٣: ٤٢٦.

٢- عمدته القارى ١١: ١٢٦.

خلافه عمر [\(١\)](#)».

و روى أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد القارى أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليله فى رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلّى الرجل لنفسه، و يصلّى الرجل فيصلّى بصلاته الرهط [\(٢\)](#)».

فقال عمر: إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبى بن كعب، ثم خرجت معه ليله أخرى و الناس يصلّون بصلاه قارئهم، قال عمر: نعم البدعه هذه. و التى ينامون عنها أفضل من التى يقومون- يريد آخر الليل - و كان الناس يقومون أوله.

و لكن الظاهر من شرح الصحيح أنّ الإتيان جماعه لم تكن مشروعته، و إنّما قام التشريع لعمله. و إليك بيانه فى ضمن أمرين:

١- قوله: «فتوفى رسول الله صلى الله عليه و آله و الناس على ذلك، ثم كان الأمر على ذلك فى خلافه أبى بكر» فقد فسّره الشراح بقولهم: أى على ترك الجماعه فى التراويح، و لم يكن رسول الله صلى الله عليه و آله جمع الناس على القيام [\(٣\)](#)».

و قال بدر الدين العيني: و الناس على ذلك (أى على ترك الجماعه) ثم قال: فإن قلت: روى ابن وهب عن أبى هريره: خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم و إذا الناس فى رمضان يصلّون فى ناحيه المسجد، فقال: «ما هذا؟» فقيل: ناس يصلّى بهم أبى بن كعب، فقال: «أصابوا و نعم ما صنعوا»، ذكره ابن عبد البر. ثم أجاب بقوله: قلت: فيه مسلم بن خالد و هو ضعيف، و المحفوظ أنّ عمر رضى الله عنه هو الذى جمع الناس على أبى ابن كعب رضى الله عنه [\(٤\)](#)».

١- البخارى، الصحيح، باب فضل من قام رمضان: الحديث ٢٠١٠.

٢- الرهط: بين الثلاثه إلى العشره.

٣- فتح البارى، ٤: ٢٠٣.

٤- عمده القارى فى شرح صحيح البخارى ٦: ١٢٥، و جاء نفس السؤال و الجواب فى فتح البارى.

وقال القسطلانى: «و الأمر على ذلك (أى على ترك الجماعة فى التراويح) ثم كان الأمر على ذلك فى خلافه أبى بكر، إلى آخر ما ذكره» (١).

٢- قوله: نعم البدعه؛ إنّ الظاهر من قوله: «نعم البدعه هذه» أنّها من سُنن نفس الخليفة و لاصله لها بالشرع، و قد صرح بذلك لفيف من العلماء.

قال القسطلانى: سمّاها (عمر) بدعه لأنّه صلى الله عليه و آله لم يسنّ لهم الاجتماع لها، و لا كانت فى زمن الصديق، و لا أول الليل، و لا كلّ ليله و لا هذا العدد- إلى أن قال:- و قيام رمضان ليس بدعه؛ لأنّه صلى الله عليه و آله قال: «اقتدوا باللّعين من بعدى أبى بكر و عمر» و إذا أجمع الصحابه مع عمر على ذلك زال عنه اسم البدعه.

وقال العينى: «و إنّما دعاها بدعه؛ لأنّ رسول اللّهللى الله عليه و آله لم يسنّها لهم، و لا كانت فى زمن أبى بكر رضى الله عنه و لا رغب رسول اللّهللى الله عليه و آله فيها» (٢).

و هناك من نقل أنّ عمر أوّل من سنّ الجماعة، و نذكر منهم ما يلى:

١- قال ابن سعد فى ترجمه عمر: «هو أوّل من سنّ قيام شهر رمضان- بالتراويح- و جمع الناس على ذلك، و كتب به إلى البلدان و ذلك فى شهر رمضان سنه أربع عشره» (٣).

٢- و قال ابن عبد البرّ فى ترجمه عمر: «و هو الذى نورّ شهر الصوم بصلاه الاشفاع فيه» (٤).

٣- قال الوليد بن الشّحنه عند ذكر وفاه عمر فى حوادث سنه ٢٣ هـ: «و هو أوّل من نهى عن بيع أمّهات الأولاد... و أوّل من جمع الناس على إمام يصلى

١- إرشاد السارى ٣: ٤٢٥.

٢- عمدته القارى ٦: ١٢٦. و قد سقط لفظه لا من قوله «رغب» كما أنّ كلمه بقوله- بعد هذه الجملة- فى النسخه مصحف «قوله»، فلاحظ.

٣- الطبقات الكبرى ٣: ٢٨١.

٤- الاستيعاب ٣: ١١٤٥.

بهم التراويح» (١).

فإذا كان المفروض أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله لم يسنّ الجماعه فيها، و إنّما سنّها عمر، فهل هذا يكفى فى كونها مشروعاً؟ مع أنّه ليس لإنسان حتّى الرسول حقّ التسنين و التشريع، و إنّما هو صلى الله عليه وآله مبلغ عن الله سبحانه.

إنّ الوحي يحمل التشريع إلى النبى الأكرم و هو صلى الله عليه وآله الموحى إليه، و بموته انقطع الوحي، و سدّ باب التشريع و التسنين، فليس للأئمّه إلّا الاجتهاد فى ضوء الكتاب و السنّه، لا التشريع و لا التسنين، و من رأى أنّ لغير الله سبحانه حقّ التسنين فمعنى ذلك عدم انقطاع الوحي.

قال ابن الأثير فى نهايته: و من هذا النوع قول عمر رضى الله عنه: «نعم البدعه هذه (التراويح) لما كانت من أفعال الخير و داخله فى حيز المدح سمّاها بدعه و مدحها، إلّا أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يسنّها لهم، و إنّما صلّاها لىالى ثم تركها، و لم يحافظ عليها، و لا جمع الناس لها، و لا كانت فى زمن أبى بكر، و إنّما عمر رضى الله عنه جمع الناس عليها، و ندبهم إليها، فبهذا سمّاها بدعه، و هى فى الحقيقه سنّه، لقوله صلى الله عليه وآله: «عليكم بسنّتى و سنّه الخلفاء الراشدين من بعدى»، و قوله: «اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر و عمر» (٢).

التشريع مختصّ بالله سبحانه

إنّ هؤلاء الأكابر مع اعترافهم بأنّ النبى لم يسنّ الاجتماع، برّروا إقامتها جماعه بعمل الخليفه، و معنى ذلك أنّ له حقّ التسنين و التشريع، و هذا يضادّ إجماع الأئمّه؛ إذ لا حقّ لإنسان أن يتدخّل فى أمر الشريعة بعد إكمالها لقوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

١- روضه المناظر عنه النص و الاجتهاد: ٢١٤ ط. مؤسسه البعثه طهران.

٢- النهايه ١: ٧٩.

لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١) و كلامه يخالف الكتاب و السنّه؛ فإنّ التشريع حقّ الله سبحانه لم يفوضه لأحد، و النبيّ الأكرم مبلغ عنه.

أضف إلى ذلك لو أنّ الخليفة قد تلقى ضوءاً أخضر في مجال التشريع و التسنين، فلم لا يكون لسائر الصحابه ذلك، مع كون بعضهم أقرأ منه، كأبي بن كعب، و أفرض؛ كزيد بن ثابت، و أعلم و أقضى منه؛ كعليّ بن أبي طالب عليه السلام؟! فلو كان للجميع ذلك لانتشر الفساد و عمّت الفوضى أمر الدين، و كان ألعوبه بأيدي غير المعصومين.

و أما التمسك بالحديثين، فلوصحّ سندهما؛ فإنهما لا يهدفان إلى أنّ لهما حقّ التشريع، بل يفيدان لزوم الاقتداء بهما؛ لأنهما يعتمدان على سنّه النبيّ الأكرم، لا أنّ لهما حقّ التسنين.

نعم يظهر ممّا رواه السيوطي عن عمر بن عبد العزيز أنّه كان يعتقد أنّ للخلفاء حقّ التسنين، قال: قال حاجب بن خليفة: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب و هو خليفة، فقال في خطبته: ألا إنّ ما سنّ رسول الله و صاحبه فهو دين نأخذ به، و ننتهي إليه، و ما سنّ سواهما فإنّا نرجئه» (٢).

و على كلّ تقدير نحن لسنا بمؤمنين بأنّه سبحانه فوّض أمر دينه في التشريع و التقنين إلى غير الوحي، و في ذلك يقول الشوكاني: و الحقّ أنّ قول الصحابي ليس بحجّه؛ فإنّ الله سبحانه لم يبعث إلى هذه الأُمّه إلّا نبيّنا محمداً صلى الله عليه و آله و ليس لنا إلّا رسول واحد و كتاب واحد، و جميع الأُمّه مأموره باتّباع كتابه و سنّه نبيّه، و لا فرق بين الصحابه و من بعدهم في ذلك، فكلّهم مكلفون بالتكاليف الشرعيه و باتّباع

١- المائدة: ٣.

٢- أبو زهره، تاريخ المذاهب الإسلاميه، كما في بحوث أهل السنّه: ص ٢٣٥.

الكتاب و السنّه؛ فمن قال إنّها تقوم الحجّه في دين الله عزّ وجلّ بغير كتاب الله و سنّه رسوله و ما يرجع إليهما فقد قال في دين الله بما لا يثبت» (١).

نعم نقل القسطلاني عن ابن التين و غيره: أنّ عمر استنبط ذلك من تقرير النبي صلى الله عليه و آله منصليّ معه في تلك الليالي و إن كان كره لهم خشيه أن يفرض عليهم. فلمّا غاب النبي حصل الأمن من ذلك، و رجح عند عمر ذلك لما في الاختلاف من افتراق الكلمه، و لأنّ الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين» (٢).

يلاحظ عليه أولًا: أنّ ما ذكره في آخر كلامه ليبرّر جمع الناس على إمام واحد، مكان الأئمه المتعدّده، دون ما إذا كان موضع النقاش إقامتها جماعه، واحدًا كان الإمام أو كثيرًا.

و ثانيًا: أنّ معنى كلامه أنّ هناك أحكاماً لم تسنّ ما دام النبي حيّاً لمانع خاص، كخشيه الفرض، و لكن في وسع آحاد الأئمه تشريعها بعد موته صلى الله عليه و آله و مفاده فتح باب التشريع بملاكات خاصّه في وجه الأئمه إلى يوم القيامة، و هذه رزيّه ليست بعدها رزيه، و تلاعب بالدين و استئصاله.

*** ثمّ إنّ لسيدنا شرف الدين العاملي هناك كلاماً نافعاً نوره بنصّه، قال:

«كان هؤلاء عفا الله عنهم و عنا، رأوه رضى الله عنه قد استدرّك (بترأويحه) على الله و رسوله حكمه كانا عنها غافلين. بل هم بالغفله- عن حكمه الله في شرائعه و نظمه- أخرى، و حسبنا في عدم تشريع الجماعه في سنن شهر رمضان و غيرها، انفراد مؤدّيها- جوف الليل في بيته- برّبّه عزّ و علا- يشكو إليه بثّه و حزنه و يناجيه بمهمّاته مهمّه مهمّه حتّى يأتى على آخرها ملحاً عليه، متوسّلاً بسعه رحمته إليه،

١- إرشاد العقول: ص ٢١٤.

٢- فتح الباري ٤: ٢٠٤.

راجياً لاجئاً، راهباً راغباً، منياً تائباً، معترفاً لائذاً عائداً، لا يجد ملجأ من الله تعالى إلا إليه، ولا منجى منه إلا به.

لهذا ترك الله السنن حرّه من قيد الجماعه، ليتزودوا فيها من الانفراد بالله ما أقبلت قلوبهم عليه، و نشطت أعضاؤهم له، يستقلّ منهم من يستقلّ، و يستكثر من يستكثر، فإنّها خير موضوع، كما جاء فى الأثر عن سيد البشر. أما ربطها بالجماعه فيحدّ من هذا النفع، و يقلل من جدواه.

أضف إلى هذا أنّ إعفاء النافله من الجماعه يمسك على البيوت حظّها من البركه و الشرف بالصلاه فيها، و يمسك عليها حظّها من تربيته الناشئه على حبّها و النشاط بها، ذلك لمكان القدوه فى عمل الآباء و الأمّهات و الأجداد و الجدّات، و تأثيره فى شدّ الأبناء إليها شدّاً يرسّخها فى عقولهم و قلوبهم، و قد سأل عبد الله بن مسعود رسول الله صلى الله عليه و آله: أيما أفضل الصلاه فى بيتي، أو الصلاه فى المسجد؟ فقال صلى الله عليه و آله:

«ألا ترى إلى بيتي ما أقربه من المسجد، فلئن أصلى فى بيتي أحبّ إلىّ من أن أصلى فى المسجد إلا أن تكون صلاه مكتوبه» رواه أحمد و ابن ماجه و ابن خزيمة فيصحيحه، كما فى باب الترغيب فيصلاه النافله من كتاب الترغيب و التهيب للإمام زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى.

و عن زيد بن ثابت أنّ النبي صلى الله عليه و آله قال:

«صلّوا أيها الناس فى بيوتكم؛ فإنّ أفضل صلاه المرء فى بيته إلا الصلاه المكتوبه». رواه النسائى و ابن خزيمة فيصحيحه.

و عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم».

و عنصلى الله عليه و آله قال: «مثل البيت الذى يذكر الله فيه و البيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحىّ و الميت». و أخرجه البخارى و مسلم.

و عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً منصلاته، وإن الله جاعل في بيته منصلاته خيراً»، رواه مسلم وغيره و رواه ابن خزيمة في صحيحه بالإسناد إلى أبي سعيد، و السنن في هذا المعنى لا يسعها هذا الإملاء.

لكن الخليفة رضى الله عنه رجل تنظيم و حزم، و قد راقه منصلاه الجماعه ما يتجلى فيها من الشعائر بأجلى المظاهر إلى ما لا يحصى من فوائدها الاجتماعيه التي أشبع القول علماءنا الأعلام ممن عالجوا هذه الأمور بوعى المسلم الحكيم، و أنت تعلم أن الشرع الإسلامى لم يهمل هذه الناحيه، بل اختص الواجبات من الصلوات بها، و ترك النوافل للنواحي الأخر من مصالح البشر: «و ما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنه إذا قضى الله و رسوله أمراً أن يكون لهم الخيره من أمرهم» (١) «(٢)».

خاتمه المطاف

إن عمل الخليفه، لم يكن إلما من قبيل تقديم المصلحه على النص، و ليس المورد أمراً وحيداً في حياته، بل له نظائر في عهده منها:

١- تنفيذ الطلاق الثلاث، بعد ما كان في عهد الرسول و بعده طلاقاً واحداً.

٢- النهى عن متعه الحج.

و قد مرّ البحث في المسأله الثانيه في كتابنا «أضواء على تاريخ الشيعة الإماميه و عقائدهم». و نبحت الآن عن المسأله الأولى:

١- الأحزاب: ٣٦.

٢- النص و الاجتهاد: ١٥١-١٥٢.

المسأله الرابعه: الطلاق ثلاثاً دفعه أو دفعات فى مجلس واحد

المسأله الرابعه: الطلاق ثلاثاً دفعه أو دفعات فى مجلس واحد

اشاره

من المسائل التى أدت إلى تعقيد الحياه الزوجيه، و مزقت و قطعتصلات الأرحام فى كثير من البلاد، هى مسأله تصحيح الطلاق ثلاثاً دفعه واحده، بأن يقول: أنت طالق ثلاثاً، أو يكرره ثلاث دفعات و يقول فى مجلس واحد: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق. فتحسب ثلاث تطليقات حقيقه، و تحرم المطلقه على زوجها حتى تنكح زوجاً غيره.

إن الطلاق عند أكثر أهل السنه غير مشروط بشروط تحول دون إيقاعه، ككون المرأه غير حائض، أو وقوع الطلاق فى غير طهر المواقع، أو لزوم حضور العدلين. فلربما يتغلب الغيظ على الزوج و يأخذه الغضب فيطلقها ثلاثاً فى مجلس واحد، ثم يندم على عمله ندامه شديده تضيق عليه الأرض بما رحبت، فيطلب المخلص من ذلك و لا يجد عند أئمه المذاهب الأربعة و الدعاه إليها مخلصاً، فيقعد ملوماً محسوراً، و لا يزيده السؤال و الفحص إلّا نفوراً عن الفقه و الفتوى.

نحن نعلم علماً قاطعاً بأن الإسلام دين سهل و سمرح، و ليس فيه حرج، و هذا يدفع الدعاه المخلصين إلى إعاده دراسه المسأله من جديد دراسه حره بعيده عن الأبحاث الجامده، التى أفرزها غلق باب الاجتهاد فى الأحكام الشرعيه، و أن يبحثوا المسأله فى ضوء الكتاب و السنه الصحيحه، بعد التجرد عن خلفيه الفتاوى السابقه.

أما أهم تلك الأقوال فهى:

قال ابن رشد: «جمهور فقهاء الأمصار على أنّ الطلاق بلفظ الثلاث حكمه حكم الطلقة الثالثة، وقال أهل الظاهر وجماعه: حكمه حكم الواحد، ولا تأثير للفظ في ذلك» (١).

قال الشيخ الطوسي: «إذا طلقها ثلاثاً بلفظ واحد، كان مبدعاً و وقعت واحده عند تكامل الشروط عند أكثر أصحابنا، وفيهم من قال: لا يقع شيء أصلاً، و به قال عليّ عليه السلام و أهل الظاهر، و حكى الطحاوي عن محمد بن إسحاق أنه تقع واحده كما قلناه، و روى أنّ ابن عباس و طاووساً كانا يذهبان إلى ما يقوله الإماميه.

و قال الشافعي: فإن طلقها ثنتين أو ثلاثاً في طهر لم يجامعها فيه، دفعه أو متفرقه، كان ذلك مباحاً غير محذور و وقع. و به قال في الصحابه عبد الرحمن بن عوف، و روه عن الحسن بن عليّ عليهما السلام، و في التابعين ابن سيرين، و في الفقهاء أحمد و إسحاق و أبو ثور.

و قال قوم: إذا طلقها في طهر واحد ثنتين أو ثلاثاً دفعه واحده، أو متفرقه، فعل محرماً و عصي و أثم. ذهب إليه في الصحابه عليّ عليه السلام و عمر، و ابن عمر، و ابن مسعود، و ابن عباس. و في الفقهاء أبو حنيفة و أصحابه و مالك، قالوا: إلّا أنّ ذلك واقع (٢).

قال أبو القاسم الخرقى في مختصره: و إذا قال لمدخول بها: أنت طالق، أنت طالق، لزمه تطليقتان إلّا أن يكون أراد بالثانيه إفهامها أن قد وقعت بها الأولى؛ فتلزمه واحده. و إن كانت غير مدخول بها بانت بالأولى، و لم يلزمها ما بعدها؛ لأنه

١- بدايه المجتهد ٢: ٦٢ ط بيروت.

٢- الخلاف: ٢ كتاب الطلاق، المسأله ٣. و على ما ذكره، نُقل عن الإمام عليّ رأيان متناقضان: عدم الوقوع و الوقوع مع الإثم.

و قال ابن قدامه فى شرحه على مختصر الخرقى: «إذا قال لامرأته المدخول بها:

أنت طالق مرّتين و نوى بالثانية إيقاع طلقه ثانية، وقعت لها طلقتان بلا خلاف، و إن نوى بها إفهامها أنّ الأولى قد وقعت بها أو التأكيد لم تُطلق إلّا مرّة واحدة، و إن لم تكن له نيّة وقع طلقتان، و به قال أبو حنيفة و مالك؛ و هو الصحيح من قولى الشافعى. و قال فى الآخر: تطلق واحده».

و قال الخرقى أيضاً فى مختصره: «و يقع بالمدخول بها ثلاثاً إذا أوقعها، مثل قوله: أنت طالق فطالق فطالق، أو أنت طالق ثم طالق ثم طالق، أو أنت طالق ثم طالق و طالق أو فطالق».

و قال ابن قدامه فى شرحه: «إذا أوقع ثلاث طلاقات بلفظ يقتضى وقوعهنّ معاً، فوقعن كلّهنّ، كما لو قال: أنت طالق ثلاثاً» (١).

و قال عبد الرحمن الجزيرى: «يملك الرجل الحرّ ثلاث طلاقات، فإذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعه واحده، بأن قال لها: أنت طالق ثلاثاً، لزمه ما نطق به من العدد فى المذاهب الأربعة؛ و هو رأى الجمهور، و خالفهم فى ذلك بعض المجتهدين: كطاووس و عكرمه و ابن إسحاق و على رأسهم ابن عباس - رضى الله عنهم -» (٢).

إلى غير ذلك من نظائر تلك الكلمات التى تعرب عن اتّفاق جمهور الفقهاء بعد عصر التابعين على نفوذ ذلك الطلاق، و رائدهم فى ذلك تنفيذ عمر بن الخطاب، الطلاق الثلاث بمرأى و مسمع من الصحابه. و لكن لو دلّ الكتاب و السنّه على خلافه فالأخذ بهما متعين.

١- المغنى ٧: ٤١٦.

٢- الفقه على المذاهب الأربعة ٤: ٣٤١.

دراسة الآيات الواردة في المقام

قال سبحانه:

«وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتَلََمَّكَ حُدُودَ اللَّهِ يَبْنِيهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...» (١).

جننا بمجموع الآيات الأربع - مع أن موضع الاستدلال هو الآيه الثانيه - للاستشهاد بها في ثنايا البحث. وقبل الخوض في الاستدلال نشير إلى نكات في الآيات:

١- قوله سبحانه: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» كلمه جامعہ لا يودى حَقَّها إلا بمقال مسهب؛ و هي تفيد أن الحقوق بينهما متبادلہ، فما من عمل تعمله المرأه للرجل إلا و على الرجل عمل يقابله، فهما - في حقل المعاشره - متماثلان

فى الحقوق و الأعمال، فلا- تسعد الحياه إلما بالا-حترام المتبادل بين الزوجين، و قيام كلّ بوظيفته تجاه الآخر، فعلى المرأه القيام بتدبير المنزل و إنجاز ما به من أعمال، و على الرجل السعى و الكسب خارجه.

هذا هو الأصل الأصيل فى حياه الزوجين العذى تؤيده الفطره، و قد قسّم النبىّ الأمور بين ابنته فاطمه و زوجها على عليه السلام فجعل شئون البيت فى عهده ابنته، و عمل الخارج على زوجها-صلوات الله عليهما-.

٢- «المَرّه» بمعنى الدفعه للدلاله على الواحد فى الفعل، و «الإمساك» خلاف الإطلاق، و «التسريح» مأخوذ من السرح و هو الإطلاق يقال: سرح الماشيه فى المرعى: إذا أطلقها لترعى. و المراد من الإمساك هو إرجاعها إلى عصمه الزوجيه.

كما أنّ المقصود من «التسريح» عدم التعرّض لها، لتنفضى عدّتها فى كلّ طلاق، أو الطلاق الثالث الذى هو أيضاً نوع من التسريح؛ على اختلاف فى معنى الجملة. و إن كان الأقوى هو الثانى، و سيوافيك توضيحه و دفع ما أثاره الجصّاص من الإشكاليين حول هذا التفسير بإذن الله سبحانه.

٣- قيد الإمساك بالمعروف، و التسريح بإحسان، مشعراً بأنّه يكفى فى الإمساك قصد عدم الإضرار بالرجوع، و أمّا الإضرار فكما إذا طلقها حتّى تبلغ أجلها فيرجع إليها ثم يطلق كذلك، يريد بها الإضرار و الإيذاء، و على ذلك يجب أن يكون الإمساك مقروناً بالمعروف، و عندئذ لو طلب بعد الرجوع ما آتاها من قبل لا يعدّ أمراً منكراً غير معروف؛ إذ ليس إضراراً.

و هذا بخلاف التسريح؛ فلا- يكفى ذلك بل يلزم أن يكون مقروناً بالإحسان إليها؛ فلا يطلب منها ما آتاها من الأموال. و لأجل ذلك يقول تعالى: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً» أى لا يحلّ للمطلق استرداد ما آتاها من المهر، إلّا إذا كان الطلاق خلعاً فعندئذ لا جناح عليها فى ما افتدت به نفسها من زوجها.

و قوله سبحانه: «فِيمَا أَفْتَدَتْ بِهِ» دليل على وجود النفره من الزوجه، فتخاف أن لا تقيم حدود الله، فتفتدى بالمهر و غيره لتخلص نفسها.

٤- لم يكن فى الجاهليه للطلاق و لا للمراجعة فى العده، حد و لا عد، فكان الأزواج يتلاعبون بزوجاتهم؛ يضاروهن بالطلاق و الرجوع ما شاءوا، فجاء الإسلام بنظام دقيق و حدد الطلاق بمرتين، فإذا تجاوز عنه و بلغ الثالث تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره.

روى الترمذى: كان الناس و الرجل يُطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، و هى امرأته إذا ارتجعها و هى فى العده، و إن طلقها مائه مره أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته: و الله لا أطلقك فتبينى منى، و لا آويك أبداً قالت: و كيف ذلك؟ قال:

أطلقك فكلما هممت عدتتك أن تنقضى راجعتك، فذهبت المراه فأخبرت النبى فسكت حتى نزل القرآن: «الطلاق مرتان...»
«(١)».

٥- اختلفوا فى تفسير قوله سبحانه: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسانٍ» إلى قولين:

أ- إن الطلاق يكون مرتين، و فى كل مره إمّا إمساك بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسان، و الرجل مخير بعد إيقاع الطلقه الأولى بين أن يرجع فيما اختار من الفراق فيمسك زوجته و يعاشرها بإحسان، و بين أن يدع زوجته فى عدتها من غير رجعه حتى تبلغ أجلها و تنقضى عدتها.

و هذا القول هو الذى نقله الطبرى عن السدى و الضحاك فذهبا إلى أن معنى الكلام: الطلاق مرتان فإمساك فى كل واحد منهما لهن بمعروفٍ أو تسريحٍ لهن بإحسان، و قال: هذا مذهب ممّا يحتمله ظاهر التنزيل لو لا الخبر الذى رواه

إسماعيل بن سميع عن أبي رزين «(١)».

يلاحظ عليه: أن هذا التفسير ينافيه تخلل الفاء بين قوله: «مَرَّتَانِ» وقوله «فَامْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ» فهو يفيد أن القيام بأحد الأمرين بعد تحقق المَرَّتَيْنِ، لا في أثناهما. و عليه لا بد أن يكون كل من الإمساك و التسريح أمراً متحققاً بعد المَرَّتَيْنِ، و مشيراً إلى أمر وراء التطلّقتين.

نعم يستفاد لزوم القيام بأحد الأمرين بعد كل تطليقه، من آية أخرى أعنى قوله سبحانه: «وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِيَتَّعْتُدُوا» «(٢)».

و لأجل الحذر عن تكرار المعنى الواحد في المقام يفسر قوله: «فَامْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» «(٣)» بوجه آخر سيوافيك.

ب- ينبغي على الزوج بعد ما طلق زوجته مَرَّتَيْنِ، أن يفكر في أمر زوجته أكثر ممّا مضى، فليس له بعد التطلّقتين إلّا أحد أمرين: إمّا الإمساك بمعروف و إدامه العيش معها، أو التسريح بإحسان بالتطليق الثالث الذي لا رجوع بعده أبداً، إلّا في ظرف خاص، فيكون قوله تعالى: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» إشاره إلى التطليق الثالث الذي لا رجوع فيه و يكون التسريح متحققاً به.

وقفه مع الجصاص في تفسير الآية:

و هنا سؤالان أثارهما الجصاص في تفسيره:

١- كيف يفسر قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» بالتطليق الثالث، مع أن المراد من

١- الطبري، التفسير ٢: ٢٧٨ و سيوافيك خبر أبي رزين.

٢- البقره: ٢٣١. و أيضاً في سوره الطلاق: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» الطلاق: ٢.

٣- البقره: ٢٢٩.

قوله فى الآيه المتأخره: «أَوْ سَيَّرْهُنَّ بِإِحْسَانٍ» هو ترك الرجعه، و هكذا المراد من قوله: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» (١) هو تركها حتى ينتهى أجلها، و معلوم أنه لم يرد من قوله: «أَوْ سَيَّرْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» أو قوله: «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ»: طَلَّقُوهُنَّ واحده أخرى (٢).

يلاحظ عليه: أن السؤال و الإشكال ناشئ من خلط المفهوم بالمصداق؛ فاللفظ فى كلا الموردین مستعمل فى التسريح و الطلاق، غير أنه يتحقق فى مورد الطلاق، و فى آخر بترك الرجعه، و هذا لا يعد تفكيكاً فى معنى لفظ واحد فى موردین، و مصداقه فى الآيه (٢٢٩) هو الطلاق، و فى الآيه (٢٣١) هو ترك الرجعه، و الاختلاف فى المصداق لا يوجب اختلافاً فى المفهوم.

٢- أن التطبيقه الثالثه المذكوره فى نسق الخطاب بعده فى قوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» و عندئذ يجب حمل قوله تعالى: «أَوْ تَسِيرِيحٍ بِإِحْسَانٍ» المتقدم عليه على فائده مجدده و هى وقوع البينونه بالاثنين (٣) بعد انقضاء العده.

و أيضاً لو كان التسريح بإحسان هو الثالثه لوجب أن يكون قوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» عقيب ذلك هى الرابعه؛ لأن الفاء للتعقيب قد اقتضى طلاقاً مستقلاً بعد ما تقدم ذكره (٤).

و الإجابة عنه واضحه؛ لأنه لا مانع من الإجمال أولاً ثم التفصيل ثانياً، فقوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» بيان تفصيلى للتسريح بعد البيان الإجمالى، و التفصيل مشتمل

١- الطلاق: ٢.

٢- الجصاص، التفسير ٢: ٣٨٩.

٣- الأولى أن يقول: بكل طلاق.

٤- الجصاص، التفسير ١: ٣٨٩.

على ما لم يشتمل عليه الإجمال من تحريمها عليه حتى تنكح زوجاً غيره. فلو طلقها الزوج الثانى عن اختياره فلا جناح عليهما أن يتراجعا بالعقد الجديد إن ظننا أن يُقيما حدود الله، فأين هذه التفاصيل من قوله: «أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ».

و بذلك يعلم أنه لا يلزم أن يكون قوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» طلاقاً رابعاً.

وقد روى الطبرى عن أبى رزين أنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل فقال: يا رسول الله أ رأيت قوله: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» فأين الثالثه؟ قال رسول الله: «إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» هي الثالثه» (١).

نعم الخبر مرسل و ليس أبو رزين الأسد يصححاً بل تابعى.

وقد تضافرت الروايات عن أئمة أهل البيت أن المراد من قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» هي التطلقه الثالثه (٢).

إلى هنا تم تفسير الآيه و ظهر أن المعنى الثانى لتخلل لفظ «الفاء» أظهر بل هو المتعين بالنظر إلى روايات أئمة أهل البيت.

بقى الكلام فى دلالة الآيه على بطلان الطلاق ثلاثاً بمعنى عدم وقوعه بقيد الثلاث، و أما وقوع واحده منها فهو أمر آخر، فنقول:

الاستدلال على بطلان الطلاق ثلاثاً

إشارة

إذا عرفت مفاد الآيه، فاعلم أن الكتاب و السنه يدلان على بطلان الطلاق ثلاثاً، و أنه يجب أن يكون الطلاق واحده بعد الأخرى، يتخلل بينهما رجوع أو نكاح، فلو طلق ثلاثاً مره واحده. أو كثر الصيغه فلا تقع الثلاث. و أما احتسابها

١- الطبرى، التفسير ٢: ٢٧٨.

٢- البرهان ١: ٢٢١. و قد نقل روايات ست فى ذيل الآيه.

طلاقاً واحداً، فهو وإن كان حقاً، لكنّه خارج عن موضوع بحثنا، وإليك الاستدلال بالكتاب أولاً، والسّه ثانياً.

أولاً: الاستدلال بالكتاب:

١- قوله سبحانه: «فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ».

تقدّم أنّ في تفسير هذه الفقرة من الآيه قولين مختلفين، و المفسّرون بين من يجعلها ناظره إلى الفقرة المتقدّمه أعنى قوله: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ...» و من يجعلونها ناظره إلى التطليق الثالث الّذى جاء فى الآيه التاليه، و قد عرفت ما هو الحق، فتلك الفقرة تدلّ على بطلان الطلاق ثلاثاً على كلا التقديرين.

أمّا على التقدير الأوّل، فواضح؛ لأنّ معناها أنّ كلّ مرّه من المرّتين يجب أن يتبعها أحد أمرين: إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.

قال ابن كثير: أى إذا طلّقتها واحده أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدّتها باقيه، بين أن تردّها إليك ناوياً الإصلاح و الإحسان و بين أن تتركها حتّى تنقضى عدّتها، فتبين منك، و تطلق سراحها محسناً إليها لا تظلمها من حقّها شيئاً و لا تضارّ بها (١). و أين هذا من الطلاق ثلاثاً بلا- تخلّل بواحد من الأمرين - الإمساك أو تركها حتّى ينقضى أجلها- سواء طلّقها بلفظ: أنتِ طالق ثلاثاً، أو: أنتِ طالق، أنتِ طالق، أنتِ طالق.

و أمّا على التقدير الثانى؛ فإنّ تلك الفقرة و إن كانت ناظره لحال الطلاق الثالث، و ساكته عن حال الطلاقين الأوّلين، لكن قلنا إنّ بعض الآيات، تدلّ على أنّ مضمونه من خصيصه مطلق الطلاق، من غير فرق بين الأوّلين و الثالث فالمطلق يجب أن يتبع طلاقه بأحد أمرين:

١- ابن كثير، التفسير ١: ٥٣.

١- الإمساك بمعروف.

٢- التسريح بإحسان.

فعدم دلالة الآية الأولى على خصيصه الطلاقين الأولين، لا ينافي استفادتها من الآيتين الماضيتين «(١)». ولعلهما تصلحان قرينه لإلقاء الخصوصية من ظاهر الفقرة «فإمساك بمعروفٍ أو تسريح بإحسانٍ» وإرجاع مضمونها إلى مطلق الطلاق، ولأجل ذلك قلنا بدلالة الفقرة على لزوم إتباع الطلاق بأحد الأمرين على كلا التقديرين. وعلى أى حال فسواء كان عنصر الدلالة نفس الفقرة أو غيرها- كما ذكرنا- فالمحصّل من المجموع هو كون إتباع الطلاق بأحد أمرين من لوازم طبيعه الطلاق الذى يصلح للرجوع.

و يظهر ذلك بوضوح إذا وقفنا على أن قوله: «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» من القيود الغالبية، وإلّا فالواجب منذ أن يطلق زوجته، هو القيام بأحد الأمرين، لكن تخصيصه بزمان خاص، وهو بلوغ آجالهنّ، هو لأجل أن المطلق الطاغى عليه غضبه و غيظه، لا تنطفى سوره غضبه فوراً حتّى تمضى عليه مدّه من الزمن تصلح لأن يتفكّر فى أمر زوجته و يخاطب بأحد الأمرين، وإلّا فطبيعه الحكم الشرعى «فإمساك بمعروفٍ أو تسريح بإحسانٍ» تقتضى أن يكون حكماً سائداً على جميع الأزمنه من لدن أن يتفوّه بصيغه الطلاق إلى آخر لحظه تنتهى معها العده.

و على ضوء ما ذكرنا تدلّ الفقرة على بطلان طلاق الثلاث و أنه يخالف الكيفيه المشروعه فى الطلاق، غير أنّ دلالتها على القول الأوّل بنفسها، و على القول الثانى بمعونه الآيات الأخر.

٢- قوله سبحانه: «الطّلاق مرّتان»

١- الآية ٢٣١ من سوره البقره و الآية ٢ من سوره الطلاق.

إِنَّ قوله سبحانه: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ» ظاهر في لزوم وقوعه مرّة بعد أُخرى لا دفعه واحده وإلّا يصير مرّة دفعه، ولأجل ذلك عبّر سبحانه بلفظ «المرّة» ليدلّ على كيفية الفعل و أنّه الواحد منه، كما أنّ الدفعه والكرّه والنزله، مثل المرّة، وزناً ومعنى واعتباراً.

و على ما ذكرنا فلو قال المطلّق: أنت طالق ثلاثاً، لم يطلق زوجته مرّة بعد أُخرى، و لم يطلق مرّتين، بل هو طلاق واحد، و أمّا قوله «ثلاثاً» فلا يصير سبباً لتكرّره، و تشهد بذلك فروع فقهيّه لم يقل أحد من الفقهاء فيها بالتكرار بضمّ عدد فوق الواحد.

مثلاً اعتبر في اللعان شهادات أربع؛ فلا تجزى عنها شهاده واحده مشفوعه بقوله «أربعاً». و فصول الأذان المأخوذه فيها التثنيه؛ لا يتأتى التكرار فيها بقراءه واحده و إردافها بقوله: «مرّتين». و لو حلف في القسمه و قال: «اقسم بالله خمسين يمينا أنّ هذا قاتله» كان هذا يمينا واحداً. و لو قال المقرّ بالزنا: «أنا أقرّ أربع مرّات أنّي زني» كان إقراراً واحداً، و يحتاج إلى ثلاثه إقرارات أُخرى، إلى غير ذلك من الموارد التي لا يكفى فيها العدد عن التكرار.

قال الجصّيّ اص: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ»، و ذلك يقتضى التفريق لا- محاله؛ لأنّه لو طلق اثنتين معاً لما جاز أن يقال: طلقها مرّتين، و كذلك لو دفع رجل إلى آخر درهمين لم يجر أن يقال: أعطاه مرّتين، حتّى يفرّق الدفع، فحينئذٍ يطلق عليه، و إذا كان هذا هكذا، فلو كان الحكم المقصود باللفظ هو ما تعلّق بالتطليقتين من بقاء الرجعه لأدّى ذلك إلى إسقاط فائده ذكر المرّتين؛ إذ كان هذا الحكم ثابتاً في المره الواحده إذا طلق اثنتين، فثبت بذلك أنّ ذكر المرّتين إنّما هو أمر بإيقاعه مرّتين، و نهى عن الجمع بينهما في مرّة واحده [\(١\)](#).

هذا كله إذا عبّر عن التطليق ثلاثاً بصيغته واحده، أمّا إذا كثر الصيغ - كما عرفت - فربّما يفتّر به البسطاء و يزعمون أنّ تكرار الصيغ ينطبق على الآيه، لكنّه مردود من جهه أخرى و هي:

أنّ الصيغ الثانيه و الثالثه تقعان باطلتين لعدم الموضوع للطلاق؛ فإنّ الطلاق إنّما هو لقطع علقه الزوجيه؛ فلا زوجيه بعد الصيغ الأولى حتّى تقطع، و لا رابطه قانونيه حتّى تصرم.

و بعبارة واضحه: إنّ الطلاق هو أن يقطع الزوج علقه الزوجيه بينه و بين امرأته و يطلق سراحها من قيدها، و هو لا يتحقّق بدون وجود تلك العلقه الاعتباريه الاجتماعيه، و من المعلوم أنّ المطلقه لا تطلق، و المسرّحه لا تسرح.

و ربّما يقال: إنّ المطلقه ما زالت في حباله الرجل و حكمها حكم الزوجه، فعندئذ يكون للصيغ الثانيه و الثالثه تأثير بحكم هذه الضابطه، و لكن الإجابة عنه واضحه؛ و ذلك لأنّ الصيغ الثانيه لغوٌ جداً؛ لأنّ الزوجه بعدها أيضاً بحكم الزوجه، و إنّما تخرج عنه إذا صار الطلاق بائناً، و هو يتحقّق بالطلاق ثلاثاً.

و الحاصل: أنّه لا يحصل بهذا النحو من التطليقات الثلاث، العدد الخاص الذي هو موضوع للآيه التاليه، أعنى قوله سبحانه: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» و كيف لا يكون ذلك، و قد قال صلى الله عليه و آله: «لا طلاق إلّا بعد نكاح»، و قال: «لا طلاق قبل نكاح» (١).

فتعدّد الطلاق رهن تخلّل عقده الزواج بين الطلاقين، و لو بالرجوع، و إذا لم تتخلّل يكون التكلم أشبه بالتكلم بكلام لغو.

قال السماك: إنّما النكاح عقده تعقد، و الطلاق يحلّها، و كيف تُحلّ عقده قبل أن

تعقد؟! «(١)» ٣- قوله سبحانه: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ»

إنَّ قوله سبحانه: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ»، وارد في الطلاق الذي يجوز فيه الرجوع «(٢)». و من جانب آخر دلَّ قوله سبحانه: «إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ» «(٣)». على أنَّ الواجب في حقِّ هؤلاء هو الاعتداد و إحصاء العِدَّة، من غير فرق بين أن نقول: إنَّ «اللام» في «عدتهن» للظرفية بمعنى «في عدتهن» أو بمعنى الغاية، و المراد لغاية أن يعتدَّن؛ إذ على كلِّ تقدير يدلُّ على أنَّ من خصائص الطلاق الذي يجوز فيه الرجوع، هو الاعتداد و إحصاء العِدَّة، و هو لا يتحقَّق إلَّا بفصل الأوَّل عن الثاني، و إلَّا يكون الطلاق الأوَّل بلا عِدَّة و إحصاء و لو طلق اثنتين مرَّة. و لو طلق ثلاثاً يكون الأوَّل و الثاني كذلك.

و قد استدلَّ بعض أئمَّه أهل البيت بهذه الآية على بطلان الطلاق ثلاثاً:

رويصفوان الجميال عن أبي عبد الله عليه السلام: أنَّ رجلاً قال له: إنِّي طَلَّقت امرأتى ثلاثاً في مجلس؟ قال: «ليس بشيء»، ثم قال: «أما تقرأ كتاب الله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ - إلى قوله سبحانه - لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» ثم قال: كلُّ ما خالف كتاب الله و السنَّة فهو يردُّ إلى كتاب الله و السنَّة» «(٤)».

أضف إلى ذلك: أنه لو صحَّ التطلاق ثلاثاً فلا يبقى لقوله سبحانه: «لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» فائده، لأنه يكون بائناً و يبلغ الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، و لا تحلَّ العقده إلَّا بنكاح رجل آخر و طلاقه مع أنَّ الظاهر أنَّ المقصود حلُّ

١- السنن الكبرى ٧: ٣٢١.

٢- فخرج الطلاق البائن كطلاق غير المدخوله، و طلاق اليائسه من المحيض الطاعنه في السن و غيرهما.

٣- الطلاق: ١.

٤- قرب الاسناد: ص ٣٠؛ و رواه الحرَّ العاملي في وسائل الشيعة ج ١٥، الباب ٢٩، الحديث ٢٥، من أبواب مقدمات الطلاق.

المشكلة عن طريق الرجوع، أو العقد في العده.

ثانياً: الاستدلال بالسنة:

تعرفت على قضاء الكتاب في المسألة، و أما حكم السنة، فهي تعرب عن أنّ الرسول كان يعدّ مثل هذا الطلاق لعباً بالكتاب.

١- أخرج النسائي عن محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: «أئلب بكتاب الله و أنا بين أظهركم»؟ حتى قام رجل و قال: يا رسول الله ألا أقتله؟ «(١)».

إنّ محمود بن لبيد صحابي صغير و له سماع، روى أحمد بإسناد صحيح عنه قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه و سلم فصلّى بنا المغرب في مسجدنا فلما سلّم منها... «(٢)».

و لو سلمنا عدم سماعه كما يدّعيه ابن حجر في فتح الباري «(٣)» فهو صحابي و مراسيل الصحابه حجّه بلا كلام عند الفقهاء، أخذاً بعدالتهم أجمعين.

٢- روى ابن إسحاق عن عكرمه، عن ابن عباس قال: طلق ركانه زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً، فسأله رسول الله: «كيف طلقتهما؟» قال: طلقتهما ثلاثاً في مجلس واحد. قال: إنّما تلك طلقه واحده فارتجعها «(٤)».

و السائل هو ركانه بن عبد يزيد، روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن

١- النسائي، السنن ٦: ١٤٢؛ الدر المنثور ١: ٢٨٣.

٢- أحمد بن حنبل، المسند ٥: ٤٢٧.

٣- فتح الباري ٩: ٣١٥، و مع ذلك قال: رجاله ثقات، و قال في كتابه الآخر بلوغ المرام: ص ٢٢٤: رواه موثّقون، و نقل الشوكاني في نيل الأوطار ٧: ١١ عن ابن كثير أنّه قال: إسناده جيد، انظر «نظام الطلاق في الإسلام» للقاضي أحمد محمد شاكر: ص ٣٧.

٤- بدايه المجتهد ٢: ٦١. و رواه آخرون كابن قيم في إغاثة اللهفان: ١٥٦، و السيوطي في الدرّ المنثور ١: ٢٧٩ و غيرهم.

عبّاس قال: طلق ركانه بن عبد يزيد أخو بني مطلب امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً قال: فسأله رسول الله: «كيف طلقتهما؟» قال: طلقتهما ثلاثاً. قال، فقال: «في مجلس واحد؟» قال: نعم. قال: «فإنما تلك واحد فرجعها إن شئت». قال: فأرجعها. فكان ابن عباس يرى إنَّما الطلاق عند كل طهر [\(١\)](#).

الاجتهاد مقابل النص

إشارة

التحق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى، وقد حدث بين المسلمين اتجاهان مختلفان، وصراعان فكريان؛ فعلى و من تبعه من أئمة أهل البيت، كانوا يحاولون التعرف على الحكم الشرعي من خلال النص الشرعي آية أو روايه، و لا- يعملون برأيهم أصلاً، و في مقابلهم لفيف من الصحابه يستخدمون رأيهم للتعرف على الحكم الشرعي من خلال التعرف على المصلحه و وضع الحكم وفق متطلباتها.

إن استخدام الرأي فيما لا- نص فيه، و وضع الحكم وفق المصلحه أمر قابل للبحث و النقاش، إنَّما الكلام في استخدامه فيما فيه نص، فالطائفة الثانيه كانت تستخدم رأيها تجاه النص، لا في خصوص ما لا نص فيه من كتاب أو سنه بل حتى فيما كان فيه نص و دلاله.

يقول أحمد أمين المصري: ظهر لى أنّ عمر بن الخطاب كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذى ذكرناه، و ذلك أنّ ما ذكرناه هو استعمال الرأي حيث لا- نص من كتاب و لا- سنه، و لكننا نرى الخليفه سار أبعد من ذلك، فكان يجتهد في تعرف المصلحه التى لأجلها نزلت الآيه أو ورد الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحه فى

١- أحمد بن حنبل، المسند ١: ٢٦٥.

أحكامه، وهو أقرب شيء إلى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته «(١)».

إنّ الاسترشاد بروح القانون العدي أشار إليه أحمد أمين أمر، ونبذ النصّ والعمل بالرأى أمر آخر، ولكن الطائفة الثانية كانوا ينبذون النصّ ويعملون بالرأى، وما روى عن الخليفة في هذه المسألة، من هذا القبيل. وإن كنت في ريب من ذلك فنحن نتلو عليك ما وقفنا عليه:

١- روى مسلم عن ابن عباس، قال: كان الطلاق على عهد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وأبي بكر وسنتين من خلافه عمر: طلاق الثلاث واحده، فقال عمر بن الخطاب:

إنّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيته عليهم، فأمضاه عليهم «(٢)».

٢- وروى عن ابن طاوس عن أبيه: أنّ أبا الصهباء قال لابن عباس: أتعلم أنّما كانت الثلاث تجعل واحده على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وثلاثاً من إماره عمر؟

فقال: نعم «(٣)».

٣- وروى أيضاً: أنّ أبا الصهباء قال لابن عباس: هات من هناتك، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله وآله وأبي بكر واحده؟ قال: قد كان ذلك فلمّا كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازهم عليهم «(٤)».

٤- روى البيهقي، قال: كان أبو الصهباء كثير السؤال لابن عباس، قال: أما علمت أنّ الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها، جعلها واحده على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر رضي الله عنه وصدرًا من إماره عمر رضي الله عنه فلمّا رأى الناس قد

١- فجر الإسلام: ٢٣٨، نشر دار الكتاب.

٢- مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأُمورك المستغربه.

٣- مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأُمورك المستغربه.

٤- مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأُمورك المستغربه.

تتابعوا فيها، قال: أجزوهنّ عليهم [\(١\)](#).

٥- أخرج الطحاوى من طريق ابن عباس أنّه قال: لمّا كان زمن عمر رضى الله عنه قال:

يا أيّها الناس قد كان لكم فى الطلاق أناه، وإنّه من تعجّل أناه الله فى الطلاق ألزماه إياه [\(٢\)](#).

٦- عن طاوس قال: قال عمر بن الخطاب: قد كان لكم فى الطلاق أناه فاستعجلتم أناتكم، وقد أجزنا عليكم ما استعجلتم من ذلك [\(٣\)](#).

٧- عن الحسن: أنّ عمر بن الخطاب كتب إلى أبى موسى الأشعري: لقد هممت أن أجعل إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً فى مجلس أن أجعلها واحده، ولكنّ أقواماً جعلوا على أنفسهم، فألزم كلّ نفس ما ألزم نفسه. من قال لامرأته: أنتِ علىّ حرام، فهى حرام، و من قال لامرأته: أنتِ بائه، فهى بائه، و من قال: أنتِ طالق ثلاثاً، فهى ثلاث [\(٤\)](#).

هذه النصوص تدلّ على أنّ عمل الخليفة لم يكن من الاجتهاد فيما لا نصّ فيه، و لا أخذاً بروح القانون الذى يعبر عنه بتنقيح المناط و إسراء الحكم الشرعى إلى المواضع التى تشارك المنصوص فى المسأله، كما إذا قال: الخمر حرام، فيسرى حكمه إلى كلّ مسكرٍ أخذاً بروح القانون، و هو أنّ علّه التحريم هى الإسكار الموجوده فى المنصوص و غير المنصوص، و إنّما كان عمله من نوع ثالث و هو الاجتهاد تجاه النصّ و نبذ الدليل الشرعى، و السير وراء رأيه و فكره و تشخيصه، و قد ذكروا هنا تبريرات لحكم الخليفة إذ إنّّه لمّا كان الحكم الصادر عن الخليفة يخالف نصّ القرآن أو ظاهره، حاول بعض المحقّقين تبرير عمل الخليفة ببعض

١- البيهقى، السنن ٧: ٣٣٩؛ الدر المنثور ١: ٢٧٩. و التابع: الإكثار من الشر.

٢- عمده القارى ٩: ٥٣٧، و قال: إسناده صحيح.

٣- كنز العمال ٩: ٦٧٦/٢٧٩٤٣ و ٢٧٩٤٤.

٤- كنز العمال ٩: ٦٧٦/٢٧٩٤٣ و ٢٧٩٤٤.

الوجه حتّى يُبرّر حكمه و يصحّحه و يخرجّه عن مجال الاجتهاد مقابل النصّ، بل يكون صادراً عن دليل شرعى، و من تلك الوجوه:

١- نسخ الكتاب بالإجماع الكاشف عن النص:

إنّ الطلاق الوارد فى الكتاب منسوخ، فإن قلت: ما وجه هذا النسخ و عمر رضى الله عنه لا ينسخ، و كيف يكون النسخ بعد النبيّ صلى الله عليه و آله؟ قلت: لمّا خاطب عمر الصحابه بذلك فلم يقع إنكار، صار إجماعاً، و النسخ بالإجماع جوزه بعض مشايخنا، بطريق أنّ الإجماع موجب علم اليقين كالنص، فيجوز أن يثبت النسخ به، و الإجماع فى كونه حجّه أقوى من الخبر المشهور.

فإن قلت: هذا إجماع على النسخ من تلقاء أنفسهم فلا يجوز ذلك فى حقهم.

قلت: يحتمل أن يكون ظهر لهم نص أوجب النسخ و لم ينقل إلينا «(١)».

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ المسأله يوم أفتى بها الخليفه، كانت ذات قولين بين نفس الصحابه، فكيف انعقد الإجماع على قول واحد، و قد عرفت الأقوال فيصدر المسأله. و لأجل ذلك نرى البعض الآخر ينفى انعقاد الإجماع البتّه و يقول: «و قد أجمع الصحابه إلى السنه الثانيه من خلافه عمر على أنّ الثلاث بلفظ واحدٍ واحده، و لم ينقض هذا الإجماع بخلافه، بل لا يزال فى الأمه من يفتى به قرناً بعد قرن إلى يومنا هذا» «(٢)».

و ثانياً: إنّ هذا البيان يخالف ما برّر به الخليفه عمله حيث قال: إنّ الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناه، فلو أمضىناه عليهم. فأمضاه عليهم، و لو كان هناك نصّ عند الخليفه؛ لكان التبرير به هو المتعين.

١- عمده القارى ٩: ٥٣٧.

٢- تيسير الوصول ٣: ١٦٢.

و في الختام نقول: أين ما ذكره صاحب العمده مِمَّا ذكره الشيخ صالح بن محمد العمري (المتوفى ١٢٩٨ هـ) حيث قال: إنَّ المعروف عند الصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، و عند سائر العلماء المسلمين: أنَّ حكم الحاكم المجتهد إذا خالف نصَّ كتاب الله تعالى أو سنَّه رسول الله صلى الله عليه و آله و جب نقضه و منع نفوذه، و لا يعارض نصَّ الكتاب و السنَّه بالاحتمالات العقلية و الخيالات النفسية، و العصية الشيطانية بأن يقال: لعلَّ هذا المجتهد قد اطَّلع على هذا النصِّ و تركه لعلَّه ظهرت له، أو أنه اطَّلع على دليل آخر، و نحو هذا ممَّا لهج به فرق الفقهاء المتعصِّبين، و أطبق عليه جهله المقلِّدين «(١)».

٢- تعزيزهم على ما تعدَّوا به حدود الله:

لم يكن الهدف من تنفيذ الطلاق ثلاثاً في مجلس، إلَّا عقابهم من جنس عملهم، و تعزيزهم على ما تعدَّوا حدود الله، فاستشار أُولى الرأى، و أُولى الأمر و قال: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم؟ فلما وافقوه على ما اعتزم أمضاه عليهم و قال: أيُّها الناس قد كانت لكم في الطلاق أناة، و أنه من تعجَّل أناة الله ألزمنه إياه «(٢)».

لم أجد نصًّا فيما فحصت في مشاوره عمر أُولى الرأى و الأمر، غير ما كتبه إلى أبى موسى الأشعري بقوله: «لقد هممت أن أجعل إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً في مجلس أن أجعلها واحده...» «(٣)» و هو يخبر عن عزمه و همَّه و لا- يستشير، و لو كانت هنا استشاره كان عليه أن يستشير الصحابه من المهاجرين و الأنصار

١- إيقاظ همم أُولى الأبصار: ص ٩.

٢- أحمد بن حنبل، المسند ١: ٣١٤/ ح ٢٨٧٧، و قد مرَّ تخريج الحديث أيضاً. لاحظ نظام الطلاق في الإسلام لأحمد محمد شاكر: ٧٩.

٣- كتر العمال ٩: ٦٧٦/ ٢٧٩٤٣.

القاطنين في المدينة و على رأسهم علي بن أبي طالب، و قد كان يستشيرهم في مواقف خطيره و يقتفي رأيه.

و لا يكون استعجال الناس، مبرراً لمخالفه الكتاب و السنّه بل كان عليه ردع الناس عن عملهم السيئ بقوّه و منعه، و كيف نصّح مؤاخذتهم بما أسماه رسول الله لعباً بكتاب الله «(١)».

يقول ابن قيم: إنّ هذا القول قد دلّ عليه الكتاب و السنّه و القياس و الإجماع القديم، و لم يأت بعده إجماع يبطله، و لكن رأى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنّ الناس قد استهانوا بأمر الطلاق و كثر منهم إيقاعه جملة واحده، فرأى من المصلحه عقوبتهم بامضائه عليهم ليعلموا أنّ أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه المرأة، و حرمت عليه، حتّى تنكح زوجاً غيره نكاح رغبه؛ يراد للدوام، لا نكاح تحليل، فإذا علموا ذلك كفّوا عن الطلاق المحرّم، فرأى عمر أنّ هذا مصلحه لهم في زمانه، و رأى أنّ ما كانوا عليه في عهد النبيّ و عهد الصديق، و صدرًا من خلافته كان الأليق بهم؛ لأنّهم لم يتابعوا فيه و كانوا يتقون الله في الطلاق، و قد جعل الله لكلّ من اتّقاه مخرجاً، فلمّا تركوا تقوى الله و تلاعبوا بكتاب الله و طلقوا على غير ما شرّعه الله ألزمهم بما التزموه عقوبه لهم فإنّ الله شرّع الطلاق مرّه بعد مرّه، و لم يشرّعه كلّ مرّه واحده «(٢)».

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من التبرير لعمل الخليفه غير صحيح؛ إذ لو كانت المصالح المؤقتة مبرّره لتغيّر الحكم، فما معنى «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة و حرامه حرام إلى يوم القيامة» و لو صحّ ما ذكره لتسرّب التغيّر إلى أركان الشريعة، فيصبح الإسلام ألعوبه بيد الساسه؛ فيأتى سائس فيحرّم الصوم على

١- الدر المنثور ١: ٢٨٣.

٢- اعلام الموقعين ٣: ٣٦.

العمّال لتقويه القوّه العامله فى المعامل.

وفى الختام فقد تتبّه بعض علماء أهل السنّه فى هذه العصور لما فى تنفيذ هذا النوع من الطلاق، ولأجل ذلك تغيّر قانون محاكم مصر الشرعيّه، وخالفت مذهب الحنفيه بعد استقلالها و تحرّرها عن سلطنه الدوله العثمانيه.

وللأسف فإنّ كثيراً من مفتى أهل السنّه على تنفيذ هذا النوع من الطلاق، ولأجل ذلك يقول مؤلّف المنار بعد البحث الضافى حول المسأله: «ليس المراد مجادله المقلّدين أو إرجاع القضاء و المفتين عن مذاهبهم؛ فإنّ أكثرهم يطّلع على هذه النصوص فى كتب الحديث و غيرها و لا يبالي بها؛ لأنّ العمل عندهم على أقوال كتبهم دون كتاب اللّٰه و سنّه رسوله» (١).

اللّٰهمّ إنّنا نسألك التوفيق لإحياء السنن، و إمامه البدع، و العمل بكتابك و سنّه نبيك سيد رُسلك، و أفضل خليقتك.

و نسألك الابتعاد عن أهل الزّيغ و البدع، و مكافحه الرأى المخترع، و التمسك بحبلك المتين، و نبذ ما أُلصق بدينك القويم.

وصلّى اللّٰه على رسول اللّٰه و على عترته الطاهرين و صحبه المنتجبين و السائرين على دربهم إلى يوم الدين.

الفصل الثالث: الزياره فى الكتاب والسنة

اشاره

تمهيد: الإسلام دين الفطره

اشاره

عند ما نقول إن الإسلام دين الفطره فهذا لا يعنى أن كل حكم جزئى منه يوافقها، بل يعنى أن الأصول الكليه فى مجالى العقائد و الشريعه، تنسجم مع الفطره و توحى إليها بشكل واضح، و لذلك كانت تعاليم الأنبياء، و فى مقدّماتهم الشريعه الإسلاميه، تثير مكنون الفطره، لذا فهم قبل أن يكونوا معلّمين كانوا مذكّرين بما أودع الله سبحانه فى فطره الإنسان من ميول نحو العبوديه لله سبحانه، و الانشداد إلى ما وراء الطبيعه، و الجنوح إلى العدل و مكارم الأخلاق، و النفور عن الظلم و مساوىء العادات. فكأنّ الفطره أوّل مدرسه يتعلّم فيها الإنسان أصول المعارف و مكارم الأخلاق و آدابها، من دون معلّم، و هذا لطف و امتنان منه سبحانه لعباده و يعدّ الحجز الأساس لسائر الهدايات الإلهيه الواصله إليهم عن طريق أنبيائه و رسله.

و إلى ذلك يشير قوله سبحانه: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١) فإنّ المراد من الدين فى الآيه مجموع العقيده و الشريعه، كما فسّره به

مشاهير المفسرين، و كلمه «فَطَرَتَ اللَّهُ» الَّتِي نَصَبْتَ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ تَفْسِيرَ لِلدِّينِ، فَالِدِّينِ - بِتَمَامِ مَعْنَى الْكَلِمَةِ - يُوَافِقُ فِطْرَهُ الْإِنْسَانَ، بِالْمَعْنَى الَّتِي عَرَفْتَ، أَيْ أَنَّ أُصُولَهُ وَ كَلِّيَاتِهِ تَتَسَجَّمُ مَعَ الْفِطْرَةِ وَ لَيْسَتْ الْآيَةُ وَحِيدَةً فِي بَابِهَا، بَلْ لَهَا نِظَائِرٌ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ تُوَكِّدُ مَضْمُونَهَا، وَ تَثْبِتُ بوضوح كون معرفه المحاسن و المساوي و الفجور و التقوى و الميل إلى الفضائل، و الانزجار عن الرذائل أمراً فطرياً إلى حدّ يقول سبحانه: «وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا* فَالْتَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا» (١) و في آية أخرى: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ* وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» (٢).

فالإنسان الطبيعي الذي لم يتأثر بالمناهج البشرية، يدرك المحاسن و المساوي، و الفجور و التقوى و الخير و الشر، كرامه من الله سبحانه إليه.

و من روائع الكلم ما روى عن الإمام علي عليه السلام حول تحديد دعوه الأنبياء و أنّ دورهم في مجال التربيه تذكيرهم بمقتضيات الفطره، يقول عليه السلام:

«فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَ وَاثَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَسْتَأْذِنَهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ، وَ يَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالْبَلِيغِ، وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دِفَائِنَ الْعُقُولِ» (٣).

فالشرائع السماويه كأنها تستنطق الفطره، و تُذَكِّرُ بِالنِّعْمَةِ الْمَنْسِيَةِ بِفِعْلِ الْأَهْوَاءِ وَ الدَّعَايَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَ قَدْ أُمِرَ حَمَلَتَهَا بِإِثَارِهِ مَا دَفِنَ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ جَوَاهِرِ الْمَعْقُولَاتِ فِي مَجَالِي الْعَقِيدَةِ وَ الشَّرِيْعَةِ.

و على ذلك فالشريعة - وفق الفطره - مصباح ينير الدرب لكلّ ساع في طلب الحقّ. و كلّ فكره أو ميل، توحى إليهما الفطره فهو آية كونه حقاً، و كلّ فكره أو

١- الشمس: ٧-٨.

٢- البلد: ٨-١٠.

٣- نهج البلاغه: الخطبه ١.

جنوح، يناقض الفطره و ترفضهما فهو آيه كونه باطلًا. ولأجل ذلك تخلينا عن الرهبانيه و التعزب و وأد البنات؛ لأنها تخالف مقتضى الفطره.

إنّ البحث في كون الشريعة الإلهيه شريعته فطريه، يتطلّب مجالًا واسعًا لما يترتب على البحث من نتائج مشرقه تعين على حلّ مشاكل أثارها خصوم الإسلام في مجال خاتميته الشريعة الإسلاميه، حيث إنهم يرفضون كون الدين دينًا خاتمًا، بزعمهم أنّ الحياه الإنسانيه حياه متغيّره و متحوّله فكيف يمكن تدبير المجتمع المتغيّر، بقوانين ثابتة جامده؟

ولكنهم لعدم معرفتهم بحقيقته الشريعة الإسلاميه، غفلوا عن أمر هامّ، و هو أنّ المتغيّر في الحياه الإنسانيه هو القشر، لا اللبّ، و إلّا فالإنسان بما له من غرائز و ميول علويه و سفليه لم و لن يتغيّر، و بهذه الميزه و الخصوصيه هو محكوم بالقوانين الثابته.

فالإنسان القديم كان يُحبُّ العدلَ و ينفر من الظلم و يميل إلى الزواج و الحياه الاجتماعيه و هكذا الإنسان في العصر الحاضر، إذن فالقانون في حقهما سواء و إن تغيّرت أجواء الحياه و قشورها و لباسها و ظواهرها.

الصله بين الأحياء و الأموات

إنّ زياره الإنسان لقبر حبيبه و من كانت له بهصله روحيه أو مادّيه، هي ممّا تشتاق إليه النفوس السليمه؛ فكلّ من يعيش تحت السماء باسم الإنسان السويّ اذا فارق أحبّته و أقرباءه، لا يقطع علاقته بمن شغف قلبه حبًّا، بل هو على حبّه باق، و يريد أن يُجسّد محبّته و شوقه بصور مختلفه، فهو تارةً يأوى إلى آثار حبيبه و رسوم داره و أطلاله، فيحتفظ بألبسته و أثاثه و قلمه و خطوطه، و لا

يكتفى بذلك بل يحاول أن يزور قبره و تربته حيناً بعد حين. كل ذلك بباعث ذاتي منصميم خلقتة، فلا يصحّ لدين أشه الفطره أن يخالفه أو يمنعه من وصل أحبائه و تعاهدتهم.

لكن للإسلام أن يحددها و يذكر آدابها و يمنع عن بعض الأمور غير الدخيله فيصميمها، لكن ليس في وسعه- بما أنه منادٍ لدين الفطره- أن يقوم بقطع العلائق مع الأحبه بتاتاً.

و على ضوء ذلك ترى أن السنه حثت على زياره القبور و ذكرت آثارها البناءه، و لو منعت في فتره خاصه- لوصح المنع- فإنما هو لمانع عن تطبيق الحكم و تنفيذه كما سيظهر لك.

هذا هو أصل الزياره، و قضاء الفطره على وفقه. مضافاً إلى ذلك فلها آثار تربويه و هي ما يلي:

الآثار التربويه لزياره القبور

الآثار التربويه لزياره القبور

إن زياره القبور تنطوي على آثار تربويه و أخلاقيه، و ذلك لأن مشاهده المقابر التي تضم في طياتها مجموعه كبيره من الذين عاشوا في هذه الحياه الدنيا، و كانوا بمكان عال من القدره و السلطه، ثم انتقلوا إلى الآخره، تؤدى إلى الحد من روح الطمع، و الحرص على الدنيا، و ربّما تُغيّر سلوك الإنسان لما يرى أن المنزل الأخير لحياته إنما هو بيت ضيق و مظلم باق فيه إلى ما شاء الله، فعند ذلك ربما يترك المظالم و المنكرات و يتوجه إلى القيم و الأخلاق.

و إلى هذا الجانب من الأثر التربوي يشير النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و يقول:

«كنت نهيتكم عن زياره القبور، ألا فزوروها؛ فإنها ترقُّ القلوب، و تدمعُ

العين و تذكر الآخرة، و لا تقولوا هجرًا» (١).

و فى لفظ آخر: «كنتُ نهيتكم عن زياره القبور؛ فزوروا القبور؛ فإنها تزهد فى الدنيا» (٢). و فى لفظ ثالث: «و تذكر الآخرة» (٣).

و عن أبى هريره أن النبى صلى الله عليه و آله زار قبر أمه و لم يستغفر لها، قال: «أمرتُ بالزياره و نهيت عن الاستغفار، فزوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت» (٤).

و عنصلى الله عليه و آله أنه قال: «زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة» (٥).

و يظهر من بعض الروايات أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله نهى يوماً عن زياره القبور ثم رخصها، و كان النهى و الترخيص من الله سبحانه.

و لعل النهى كان بملاك أن أكثر الأموات يومذاك كانوا من المشركين، فهى النبى صلى الله عليه و آله عن زيارتهم، و لما كثر المؤمنون بينهم رخص بإذن الله.

و لعل هناك ملاكاً آخر للنهى و هو أن زياره القبور تُذكر بالموتى و القتلى، و تورث الجبن عن الجهاد، و إذ قوى الإسلام رخص فى الزياره (٦).

و عن أم سلمه عنصلى الله عليه و آله: «نهيتكم عن زياره القبور، فزوروها؛ فإن لكم فيها عبره» (٧).

١- كتر العمال: ج ١٥، ح ٤٢٥٥٥ و ٤٢٩٩٨.

٢- كتر العمال ١٥: ح ٤٢٥٥٢.

٣- ابن ماجه، السنن ١: ٥٠١ / ١٥٧١.

٤- مسلم، الصحيح ٢: ٦٧١ / ١٠٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١: ٤٤٤؛ ابن ماجه، السنن ١: ٦٧٦؛ أبو داود، السنن ٢: ٧٢؛ البيهقى،

السنن ٤: ٧٦؛ النسائى، السنن ٤: ٩٠؛ الحاكم، المستدرک ١: ٣٧٦.

٥- ابن ماجه، السنن ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩.

٦- منهج الرشاد: ص ١٤٤.

الآثار الاجتماعيه لزياره أكابر الدين

الآثار الاجتماعيه لزياره أكابر الدين

قد تعرّفت على الآثار التربويه لزياره قبور المسلمين، و هنا آثار تختصّ بزياره أكابر المسلمين و رؤسائهم، و فى طليعتهم زياره النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و هى: أنّ فى زيارتهم نوعاً من الشكر و التقدير على تضحياتهم، و إعلماً للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحقّ و الهدى و الدفاع عن المبدأ و العقيدته.

و لأجل هذا الأثر الممتاز لزياره صلحاء الأئمه، نجد أنّ الأمم الحيّه تتسابق على زياره مدفن رؤسائهم و شخصياتهم، الذين ضحوا بأنفسهم و أموالهم فى سبيل إحياء الشعب و استقلاله من أيدي المستعمرين و الظالمين، و يقيمون الذكريات المئويه لإحياء معالمهم، و يعدّونه تعظيماً و تكريماً لأهدافهم.

و هذا هو العالم بغربه و شرقه، فيه قبور و أضرحة لشخصياته و عظمائه و صلحائه من غير فرق بين دينيّ و دنيويّ؛ لأنّ الإنسان يرى زيارتهم تكريماً لهم، و تأديه لحقوقهم، و وفاءً لعهدهم، فكلّ ما يقوم به فهو بوحى الفطره و دعوتها إلى ذلك.

إنّ القبور التى تحظى باهتمام و احترام المؤمنين بالله فى العالم- و خاصّه المسلمين- هى فى الغالب قبور حملة الرسالات الإصلاحيين الذين أدوا مهمّتهم على الوجه المطلوب.

و هؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١- الأنبياء و القاده الديتتون الذين حملوا على عاتقهم رساله السماء و ضحّوا- من أجلها- بالنفس و المال و الأحباب، و تحمّلوا أنواع المتاعب و المصاعب من أجل هدايه الناس.

٢- العلماء و المفكرون الذين كانوا كالشمع تحرق نفسها لتضيء للآخرين، و قد عاش هؤلاء حياه الزهد و الحرمان، و قدموا للعالم، البحوث القيمه و التحقيقات الرائعه فى مجالات العلم و الفكر و الطبيعه و مفاهيم السماء و علوم الكون و المخلوقات و غير ذلك.

٣- المجاهدون الشائرون الذين ضاقوا ذرعاً بما يعيشه المجتمع من الظلم و سحق الحقوق و التمييز العنصرى أو القومى، فثاروا ضد الظلم و الطغيان و طالبوا بحفظ كرامه الإنسان و أداء حقوقه، و أقاموا صرح العدالة بدمائهم الغاليه.

إنّ أيه ثوره أو تغيير اجتماعى لا يُقدّر له النجاح إلّا بدفع الثمن، و إنّ ثمن الثوره التى تستهدف تدمير قصور الظالمين، و خنق أنفاسهم هو الدماء الزكيه التى يُضحّى بها المقاتلون الأبطال لإعاده الحقّ و الحرّيه إلى الوطن الإسلامى.

و لذا فإنّ الناس يزورون قبور هؤلاء و يذرفون عندها الدموع، و يتذكرون بطولاتهم و تضحياتهم، و يُسعدون أرواحهم بتلاوه آيات من القرآن الحكيم هديه إليهم، و ينشدون قصائد فى مدحهم و ثنائهم و تقدير مواقفهم المشرفه.

إنّ زياره مراقده هذه الشخصيات هى نوع من الشكر و التقدير على تضحياتهم، و إعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحقّ و الهدى و الفضيله و الدفاع عن المبدأ و العقيدته.

إنّ جزاءهم هو خلود الذكر الحسن و الثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على وفاتهم، و تعريف الناس بتلك الشخصيات الراقية و بمعتقداتهم التى ضحّوا من أجلها، و احترام مراقدهم و تجنّب كلّ ما يمسّ بكرامتها؛ لأنّ احترام قبورهم احترام لرسالاتهم و عقائدهم، كما أنّ نوع من الإهانه و التحقير تجاه مراقدهم هو فى الحقيقه إهانه لرسالاتهم و تحقير لشخصيتهم.

ثمّ إنّ لبعض أهل المعرفه تحليلاً علمياً رائعاً فى زياره النبى الأكرم نذكره

بنصّه قال:

اعلم أنّ النفوس القويه القدسيه، لا سيّما نفوس الأنبياء والأئمه عليهم السلام، إذا نفضوا أبدانهم الشريفه و تجرّدوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرّد، و كانوا في غايه الإحاطه و الاستيلاء على هذا العالم يكون العالم عندهم ظاهراً منكشفاً، فكلّ من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيّما و مقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسه العليه، و محالّ حضور أشباحهم البرزخيّه النوريه؛ فإنّهم هناك يشهدون «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (١)، و بما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم و الاطلاع بزائري قبورهم، و حاضري مراقدهم و ما يصدر عنهم من السؤال و التوسّل و الاستشفاع و التضرّع، فتهبّ عليهم نسائم أطفاهم، و تفيض عليهم من رشحات أنوارهم، و يشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، و إنجاح مقاصدهم، و غفران ذنوبهم و كشف كربهم.

فهذا هو السرّ في تأكّد استحباب زياره النبيّ و الأئمه عليهم السلام مع ما فيه منصله لهم، و برّهم و إجابتهم، و إدخال السرور عليهم، و تجرّد عهد ولايتهم، و إحياء أمرهم، و إعلاء كلمتهم، و تبكيّت أعدائهم. و كلّ واحد من هذه الأمور ممّا لا يخفى عظيم أجره و جزيل ثوابه.

و كيف لا- تكون زيارتهم أقرب القربات، و أشرف الطاعات، و أنّ في زياره المؤمن- من جهه كونه مؤمناً فحسب- عظيم الأجر و جزيل الثواب، و قد ورد به الحثّ و التوكيد و الترغيب الشديد من الشريعه الطاهره، و لذلك كثر تردّد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزياره، و تعارف ذلك بينهم، حتّىصارت لهم سنّه طبيعيه.

و أيضاً قد ثبت و تقرّر جلاله قدر المؤمن عند الله، و ثوابصلته و برّه و إدخال السرور عليه، و إذا كان الحال في المؤمن من حيث إنّهُ مؤمن، فما ظنّك بمن

عصمه الله من الخطأ، و طهره من الرجس، و بعثه الله إلى الخلائق أجمعين، و جعله حجّيه على العالمين، و ارتضاه إماماً للمؤمنين، و قدوه للمسلمين، و لأجله خلق السماوات و الأرضين، و جعله صراطه و سبيله، و عينه و دليله، و بابه الذي يُؤتى منه، و نورَه الذي يستضاء به، و أمينَه على بلاده، و حبله المتّصل بينه و بين عباده، من رسل و أنبياء و أئمه و أولياء [\(١\)](#)».

و في الختام نقول: ليس الهدف من هذا التقديم تصويب بعض ما يقع عند الزياره من محرّمات الأفعال؛ فإنّها أمور جانيبه لا تمت لأصل الزياره بصله، و الّذى ندّعيه- و عليه يشهد عمل العقلاء في العالم دينهم و غيره- أنّ للإنسان علاقه بمن كان يعشقه و يحبه، فلا يقطع علاقه به بموته بل يحتفظ بها بشكل خاص بعد الفراق أيضاً، و هذا شيء يلمسه الإنسان منصميم ذاته، و ليس لشريعته سماويه بما أنّها تجاوب الفطره تمنعه من ذلك، بل لها أن تعدله و تحدّده و تغزل عنه ما ليس منه.

و ها نحن نعالج الموضوع بالبحث في الأمور التاليه:

١- زياره القبور في الكتاب و السنّه النبويه.

٢- أعلام الأئمّه و زياره النبي الأكرم.

٣- زياره النبي صلى الله عليه و آله في الكتاب.

٤- زياره النبي صلى الله عليه و آله في السنّه.

٥- شدّ الرحال إلى زياره قبر النبي الأعظم.

٦- شبهات و تشكيكات حول زياره النبي الأكرم.

٧- خاتمه: تذكّره و إنذار.

المبحث الأول زيارة القبور في الكتاب والسنة

إشارة

قد عرفت أنّ زيارة الإنسان لمن له بهصله روحه أو مادّيه، ممّا تشتاق إليه النفوس السليمة، بل هي من وحى الفطرة، ولأجل ذلك نرى أنّ الكتاب والسنة يدعمان أصل الزيارة بوجه خاص.

زيارة القبور في القرآن الكريم

أمّا الكتاب فقوله سبحانه: «وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» (١).

إنّ الآية تسعى لهدم شخصيه المنافق، و رفع العصا في وجوه حزبه و نظرائه.

و النهى عن هذين الأمرين بالنسبة إلى المنافق، معناه و مفهومه مطلوبيه هذين الأمرين (الصلاه و القيام على القبر) بالنسبة لغيره أى للمؤمن.

و الآن يجب أن ننظر في قوله تعالى: «وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ» ما معناه؟

هل المعنى هو القيام وقت الدفن فقط، حيث لا يجوز ذلك للمنافق، و يستحب للمؤمن، أو المعنى أعم من وقت الدفن وغيره؟
إنَّ بعض المفسِّرين و إنَّ حَصَّوا القيامَ نفيًا و إثباتًا بوقت الدفن، لكن البعض الآخر فسَّروه في كلام المجالين بالأعم من وقت الدفن وغيره.

قال السيوطى فى تفسيره: و لا تَقَم على قبره لدفن أو زياره [\(١\)](#).

و قال الآلوسى البغدادى: و يفهم من كلام بعضهم أنَّ «على» بمعنى «عند» و المراد: لا تقف عند قبره للدفن أو للزياره [\(٢\)](#).

و قال الشيخ إسماعيل حقى البروسوى: «و لا تَقَم على قَبْرِهِ» أى و لا تقف عند قبره للدفن أو للزياره و الدعاء [\(٣\)](#).

إلى غير ذلك من المفسِّرين، و قد سبقهم البيضاوى فى تفسيره [\(٤\)](#).

و الحقَّ مع من أخذ بإطلاق الآيه و إليك توضيحه:

إنَّ الآيه؛ تتألف من جملتين:

الأولى: قوله تعالى: «و لا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ».

إنَّ لفظه «أحد» بحكم ورودها فى سياق النفى تفيد العموم و الاستغراق لجميع الأفراد، و لفظه «أبداً» تفيد الاستغراق الزمنى، فيكون معناها: لا تصلِّ على أحد من المنافقين فى أى وقت كان.

فمع الانتباه إلى هذين اللَّفظين نعرف- بوضوح- أنَّ المراد من النهى عن الصلاة على الميت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميت عند الدفن فقط؛ لأنَّها ليست قابله للتكرار فى أزمنة متعدده، و لو أُريد ذلك لم تكن هناك حاجه إلى لفظه

١- تفسير الجلالين: سوره التوبه فى تفسيره الآيه.

٢- روح المعانى ١٠: ١٥٥.

٣- روح البيان ٣: ٣٧٨.

٤- أنوار التنزيل ١: ٤١٦، طبعه دار الكتب العلميه، بيروت.

«أبداً»، بل المراد من الصلاة في الآيه مطلق الدعاء و الترحم سواء أ كان عند الدفن أم غيره.

فإن قال قائل: إن لفظه «أبداً» تأكيد للاستغراق الأفرادى لا الزمانى.

فالجواب بوجهين:

١- أن لفظه «أحد» أفادت الاستغراق و الشمول لجميع المنافقين بوضوح؛ فلا حاجة للتأكيد.

٢- أن لفظه «أبداً» تستعمل في اللغه العربيه للاستغراق الزمانى، كما فى قوله تعالى: «وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» (١).

فالتتيجه أن المقصود هو النهى عن الترحم على المنافق و عن الاستغفار له، سواء أ كان بالصلاه عليه عند الدفن أم بغيرها.

الثانيه: «وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

إن مفهوم هذه الجملة - مع الانتباه إلى أنها معطوفه على الجملة السابقه - هو:

«لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا» لأن كل ما ثبت للمعطوف عليه من القيد - أعنى «أبداً» - يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحاله لا يمكن القول بأن المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط؛ لأن المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبه للصلاه، و لفظه «أبداً» المقدره فى هذه الجملة الثانيه تفيد إمكانيه تكرار هذا العمل، فهذا يدل على أن القيام على القبر لا يختص بوقت الدفن.

و إن قال قائل: إن لفظه «أبداً» المقدره فى الجملة الثانيه معناها الاستغراق الأفرادى.

قلنا: قد سبق الجواب عليه، و أن لفظه «أحد» للاستغراق الأفرادى، لا لفظه

«أبدأ» فهي للاستغراق الزماني.

فيكون معنى الآية الكريمة: أن الله تعالى ينهى نبيه صلى الله عليه وآله عن مطلق الاستغفار والترحم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده. و مفهوم ذلك هو أن هذين الأمرين يجوزان للمؤمن.

و بهذا يثبت جواز زياره قبر المؤمن و جواز قراءه القرآن على روحه، حتى بعد مئات السنين.

هذا بالنسبة إلى المرحلة الأولى و هي أصل الزيارة من وجهه نظر القرآن، و أما بالنسبة إليها من ناحيه الأحاديث فإليك بيانها:

زياره القبور فى السنه النبويه

إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جسد بعمله مشروعيه زياره القبور- مضافاً إلى أنه أمر بها كما مر- و علم كيفيتها، و كيف يتكلم الإنسان مع الموتى، فقد ورد فى غير واحد من المصادر، أنه صلى الله عليه وآله زار البقيع، و إليك النصوص:

١- روى مسلم عن عائشه أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين و أتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون و إنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» (١).

٢- و عن عائشه فى حديث طويل أن النبي صلى الله عليه وآله قال لها: «أتانى جبرئيل فقال:

إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم» قالت: قلت: كيف أقول لهم يا

١- مسلم، الصحيح ٣: ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبور و الدعاء لأهلها من كتاب الجنائز.

رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» (١).

٣- وروى ابن بريده عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: - في روايه أبي بكر- «السلام على أهل الديار» و في روايه زهير: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافيه» (٢).

٤- عن ابن بريده، عن أبيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» (٣).

٥- ورويت في كنز العمال الروايات التاليه: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. ووددتُ أننا قد أرينا إخواننا قالوا: أ ولسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. إلخ» (٤).

٦- «السلام عليكم يا أهل القبور من المؤمنين والمسلمين، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» (٥).

٧- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا وإياكم متواعدون غداً ومتواكلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» (٦).

٨- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم لنا فرط، وإنا بكم لاحقون،

١- مسلم، الصحيح ٣: ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز؛ النسائي، السنن ٤: ٩١.

٢- مسلم، الصحيح ٣: ٦٥، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.

٣- مسلم، الصحيح ٧: ٤٦، الترمذي، السنن ٣: ٣٧٠ ح ١٠٥٤؛ النسائي، السنن ٤: ٨٩.

٤- مسلم، الصحيح، كتاب الطهاره، باب استحباب إطاله الغره والتحصيل في الوضوء/ ح ٢٤٩.

٥- كنز العمال ١٥: ٢٤٧-٢٤٨ / ح ٤٢٥٦١.

٦- كنز العمال ١٥: ٢٤٧-٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٢.

اللهم لا تحرمنا أجرهم و لا تفتننا بعدهم» (١).

٩- «إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً» (٢).

١٠- «نهيتكم عن ثلاث و أنا آمركم بهنّ؛ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنّ في زيارتها تذكركم» (٣). إلى غير ذلك من الآثار النبويه الحاثه على زيارة القبور، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كنز العمال.

١- كنز العمال ١٥: ٢٤٧-٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٣.

٢- كنز العمال ١٥: ٢٤٧-٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٤.

٣- كنز العمال ١٥: ٢٤٧-٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٥.

أعلام الأُمَّه و زياره قبر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله

المبحث الثاني أعلام الأُمَّه و زياره قبر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله

أشاره

إذا كانت زياره قبور المسلمين من السنن التي دعا إليها النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و عمل بها بمرأى و مسمع من نسائه و صحابته، فزياره قبر سيد ولد آدم و من أُنيطت إليه سعادته البشر أولى بها، لذا جرت سيره المسلمين على زياره قبره، وصرح بها فقهاء الأُمَّه، و تضافرت السنّه على استحبابها.

و لنقدّم بعض الكلمات من أكابر الأُمَّه التي تعرب عن موقف المسلمين طيله القرون تجاه المسأله، فقد قيض سبحانه في كلّ عصر رجالاً يجاهرون بالحقّ، و ينفون غبار الباطل عن وجهه نذكر منهم شخصيتين كبيرتين من السنّه و الشيعة:

١- الإمام تقى الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة (٧٥٦هـ) عليه سحائب الرحمة و الرضوان. فقد خصّ في كتابه «شفاء السقام في زياره خير الأنام» باباً لنقل نصوص العلماء على استحباب زياره قبر سيدنا رسول الله، و قد بيّن أنّ الاستحباب أمر مجمع عليه بين المسلمين [\(١\)](#).

١- شفاء السقام: ٦٥- ٧٩ و نحن نغترف من هذا العين المعين، و نذكر كلمات المحققين من أهل السنه حول زياره النبي صلى الله عليه و آله.

٢- العلامه الكبير الأمينى فى الغدير ٥: ١٠٩-١٢٥، فقد استدرك عليه بما لم يقف عليه الإمام السبكى، و نقل كلمات أعلام المذاهب الأربعة بما يتجاوز الأربعين كلمه. شكر الله مساعيهما.

و قد راجعنا أكثر المصادر التى نقلنا عنها حسب ما حضرنا منها. و اكتفينا بالنقل عنهما فى غيره، و أضفنا بعض ما فات عنهما. و لعلّ المعثور عليه من الكلمات أقلّ ممّا لم يُعثر عليه.

كلمات أعلام المذاهب حول الزياره

١- قال أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحلیمی الجرجانى الشافعى (ت ٤٠٣ هـ) بعد الحث على تعظيم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: فأما اليوم فمن تعظيمه زيارته [\(١\)](#).

٢- قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملى الشافعى (ت ٤٢٥ هـ): و يستحب للحاج إذا فرغ من مكّه أن يزور قبر النبى صلى الله عليه و آله [\(٢\)](#).

٣- قال القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبرى (ت ٤٥٠ هـ): و يستحب أن يزور النبى صلى الله عليه و آله بعد أن يحجّ و يعتمر [\(٣\)](#).

٤- قال أفضى القضاة أبو الحسن الماوردى (ت ٤٥٠ هـ): فإذا عاد (ولّى الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزياره قبر رسول الله صلى الله عليه و آله ليجمع لهم بين حج بيت الله عزّ و جلّ و زياره قبر رسول الله؛ رعايه لحرمة و قياماً بحقوق طاعته، و ذلك و إن لم يكن من فروض الحج فهو من مندوبات الشرع المستحبّه و عبادات

١- المنهاج فى شعب الإيمان، كما فى شفاء السقام: ص ٦٥.

٢- التجريد، كما فى شفاء السقام: ص ٦٥.

٣- نقله عنه السبكى فى شفاء السقام: ص ٦٥.

الجميع المستحسنه «(١)».

و قال أيضاً فى كتابه الحاوى: أمّا زياره قبر النبى صلى الله عليه وآله فمأمور بها و مندوب إليها «(٢)».

٥- حكى عبد الحق بن محمد الصقلى (ت ٤٦٦ هـ) عن الشيخ أبى عمران المالكى أنّ زياره قبر النبى واجبه، قال عبد الحق: يعنى من السنن الواجبه «(٣)».

٦- قال ابو إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازى الفقيه الشافعى (ت ٤٧٦ هـ):

و يستحب زياره قبر رسول الله صلى الله عليه وآله «(٤)».

٧- و ممن بسط الكلام فى زياره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله الإمام الغزالى فى كتاب الحجّ من إحياء العلوم قال: الجملة العاشره فى زياره المدينة و آدابها قال صلى الله عليه وآله: «من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى». و قال صلى الله عليه وآله: «من وجد سعه و لم يفد إلىّ فقد جفانى» إلى أن قال: فمن قصد زياره المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وآله فى طريقه كثيراً، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة و أشجارها قال: اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لى وقايه من النار، و أماناً من العذاب و سوء الحساب، ثم ذكر آداب الزيارة و صيغتها، كما ذكر زياره الشيخين و زياره البقيع بمن فيها، كزياره قبر عثمان و قبر الحسن بن على، ثم قال: و يصلّى فى مسجد فاطمه رضى الله عنها، و يزور قبر إبراهيم ابن رسول الله و قبر صفته عمّه رسول الله صلى الله عليه وآله و آله فذلك كلّه بالبقيع، و يستحبّ له أن يأتى مسجد قباء فى كلّ سبت و يصلّى فيه لما روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من خرج من بيته حتّى يأتى مسجد قباء و يصلّى فيه كان له عدل عمره» «(٥)».

١- الأحكام السلطانيه: ص ١٠٩، دار الفكر، بيروت.

٢- الحاوى، كما فى شفاء السقام: ص ٦٥.

٣- تهذيب الطالب، كما فى شفاء السقام: ص ٦٨.

٤- المهذب فى فقه الإمام الشافعى ١: ٢٣٣، دار الفكر، بيروت.

٥- إحياء علوم الدين ١: ٣٠٥ و ٣٠٦.

٨- قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوداني الفقيه البغدادي الحنبلي (ت ٥١٠هـ): و إذا فرغ من الحجّ استحبّ له زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وآله و قبر صاحبيه «(١)».

٩- قال القاضي عياض المالكي (ت ٥٤٤هـ): و زيارة قبره صلى الله عليه وآله سنّه مجمع عليها و فضيله مرغّب فيها، ثم ذكر عدّه من أحاديث الباب فقال: قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: و ممّا لم يزل من شأن من حجّ المزور «(٢)» بالمدينه و القصد إلى الصلاه في مسجد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله و التبرّك برؤيه روضته «(٣)» و منبره و قبره و مجلسه و ملامس يديه و مواطن قدميه و العمود الذي استند إليه و منزل جبرئيل بالوحي فيه عليه «(٤)».

١٠- قال ابن هبيرة (ت ٥٦٠هـ): اتفق مالك و الشافعي و أبو حنيفة و أحمد بن حنبل - رحمهم الله تعالى - على أنّ زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله مستحبّه «(٥)».

١١- عقد الحافظ ابن الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧هـ) في كتابه باباً في زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وآله و ذكر حديث ابن عمر و حديث أنس اللّٰذين سنذكرهما «(٦)».

١٢- قال أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله المالكي (ت ٦١٢هـ): إذا كمل لك حجّك و عمرتك على الوجه المشروع لم يبق بعد ذلك إلّا إتيان مسجد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله للسلام على النبيّ صلى الله عليه وآله و الدعاء عنده، و السلام على صاحبيه، و الوصول إلى البقيع و زيارة ما فيه من قبور الصحابه و التابعين، و الصلاه في مسجد الرسول، فلا ينبغي للقادر على ذلك تركه «(٧)».

١- الهدايه، كما في شفاء السقام: ٦٦.

٢- قيل بكسر الميم و سكون الزاء و فتح الواو: مصدر ميمي بمعنى الزيارة شرح الشفا للخفاجي ٣: ٥١٥.

٣- ففي الحديث الشريف: « ما بين قبري و منبري روضه من رياض الجنه » صحيح البخارى ٢: ١٣٧ و ج ٩: ١٨٨، مسلم ٢: ٢٠١١.

٤- الشفاء ٢: ١٩٤-١٩٧، ط دار الفيحاء، عمان.

٥- المدخل ١: ٢٥٦.

٦- مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، كما في شفاء السقام: ٦٧.

٧- المناسك، كما في الغدير ٥: ١١٠.

- ١٣- قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن إدريس السامريّ الحنبليّ (ت ٦١٦هـ): و إذا قدم مدينه الرسول صلى الله عليه و آله استحبّ له أن يغتسل لدخولها. ثم ذكر أدب الزيارة و كيفية السلام و الدعاء و الوداع «(١)».
- ١٤- قال الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامه المقدسى الحنبليّ (ت ٦٢٠هـ): يستحب زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه و آله، ثم ذكر حديثي ابن عمر و أبي هريره من طريق الدارقطني و أحمد «(٢)».
- ١٥- قال محيي الدين النووي الشافعيّ (ت ٦٧٧هـ): و يُسنُّ شرب ماء زمزم و زيارة قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله بعد فراغ الحجّ «(٣)».
- ١٦- قال نجم الدين بن حمدان الحنبليّ (ت ٦٩٥هـ): و يسنُّ لمن فرغ عن نسكه زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه و آله و قبر صاحبيه رضى الله عنهما، و له ذلك بعد فراغ حجّه و إن شاء قبل فراغه «(٤)».
- ١٧- قال القاضي الحسين: إذا فرغ من الحجّ فالسنّه أن يقف بالملتزم و يدعو، ثم يشرب من ماء زمزم، ثم يأتي المدينة و يزور قبر النبيّ صلى الله عليه و آله «(٥)».
- ١٨- قال القاضي أبو العباس أحمد السروجي الحنفيّ (ت ٧١٠هـ): إذا انصرف الحاجّ و المعتمرون من مكّه فليتوجهوا إلى طيبه مدينه رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله و زيارة قبره؛ فإنّها من أنجح المساعي «(٦)».
- ١٩- قال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني

١- المستوعب، كما في شفاء السقام: ٦٧.

٢- المغنى ٣: ٧٨٨.

٣- المنهاج، المطبوع بهامش شرحه المغنى ١: ٤٩٤ كما في الغدير ٥: ١١١.

٤- الرعايه الكبرى في الفروع الحنبليه، كما في شفاء السقام: ص ٦٧.

٥- نقله السبكي في شفاء السقام: ص ٦٦.

٦- الغايه، كما في شفاء السقام: ص ٦٦.

المالكي (ت ٧٣٨ هـ) بعد أن ذكر لزوم و كيفية زياره الأنبياء و الرسل-صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين- و التوسل بهم إلى الله تعالى و طلب الحوائج منهم قال: و أمّا في زياره سيد الأولين و الآخرين صلوات الله عليه و سلامه فكلّ ما ذكر يزيد عليه أضعافه، أعنى في الانكسار و الذلّ و المسكنه؛ لأنّه الشافع المشفعّ العذّي لا تُردّ شفاعته، و لا يُخيّب من قصده، و لا من نزل بساحته، و لا من استعان أو استغاث به، إذ إنّ عليه الصلاه و السلام قطب دائره الكمال و عروس المملكه- إلى أن قال:-

فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه، فلا يردّ و لا يخيب لما شهدت به المعايينه و الآثار، و يحتاج إلى الأدب الكليّ في زيارته عليه الصلاه و السلام، و قد قال علماؤنا رحمه الله عليهم: إنّ الزائر يشعر بنفسه بأنّه واقف بين يديه عليه الصلاه و السلام كما هو في حياته [\(١\)](#).

٢٠- و قال شمس الدين ابن قدامه الأندلسي: فإذا فرغ من الحجّ استحبّ زياره قبر النبيّ صلى الله عليه و آله و قبر صاحبيه- رضى الله عنهما- و استدلّ على ذلك بروايته ابن عمر، و أبى هريره [\(٢\)](#).

٢١- قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي: إنّ ابن تيميه ذكر في مناسكه «باب زياره قبر النبيّ صلى الله عليه و آله: إذا أشرف على مدينه النبيّ صلى الله عليه و آله قبل الحجّ أو بعده، فليقل ما تقدّم، فإذا دخل استحب له أن يغتسل، نصّ عليه الإمام أحمد، فإذا دخل المسجد بدأ برجله اليمنى و قال: بسم الله و الصلاه على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، و افتح لي أبواب رحمتك، ثمّ يأتى الروضه بين القبر و المنبر فيصلّى بها و يدعو بما شاء، ثمّ يأتى قبر النبيّ فيستقبل جدار القبر و لا يمسه و لا يقبله، و يجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه؛ ليكون قائماً و جاه

١- المدخل ١: ٢٥٧.

٢- الشرح الكبير على المقنع ٣: ٤٩٤.

النبي، و يقف متباعدًا كما يقف لو ظهر في حياته بخشوع و سكون منتكس الرأس، غاض الطرف، متحصراً بقلبه جلاله موقفه ثم يقول:

السلام عليك يا رسول الله و رحمه الله و بركاته، السلام عليك يا نبي الله و خيرته من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين، و خاتم النبيين، و قائد الغر المحجلين، أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أنك رسول الله، أشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، و نصحت لأمتك، و دعوت إلى سبيل ربك بالحكمه و الموعظه الحسنه، و عبدت الله حتى أتاك اليقين، فجزاك الله أفضل ما جزى نبياً و رسولاً عن أمته اللهم آتة الوسيله و الفضيله، و ابعثه مقاماً محموداً...» (١).

٢٢- ألف الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي (ت ٧٥٦ هـ) كتاباً حافلاً في زياره النبي الأعظم صلى الله عليه و آله و أسماء «شفاء السقام في زياره خير الأنام» ردّاً على ابن تيميه، و ممّا قال فيه: لا حاجه إلى تتبع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم و إجماع سائر العلماء عليه. و الحنفية قالوا: إنّ زياره قبر النبي صلى الله عليه و آله من أفضل المندوبات و المستحبات، بل تقرب من درجه الواجبات، و مّمنصرح بذلك منهم أبو منصور محمد بن مكرم الكرماني في مناسكه، و عبد الله بن محمود بن بلدحي في شرح «المختار» و في فتاوى أبي الليث السمرقندي في باب أداء الحجّ (٢).

ثمّ قال: و كيف يتخيّل في أحد من السلف نهيمهم عن زياره المصطفى صلى الله عليه و آله و هم مجمعون على زياره سائر الموتى، فالنبي صلى الله عليه و آله و سائر الأنبياء الذين ورد فيهم أنهم أحياء كيف يقال فيهم هذه المقاله (٣) و حكى عن القاضي عياض و أبي زكريا

-
- ١- الصارم المنكي في الردّ على السبكي: ص ١٦-١٧، الطبعة الأولى ١٩٩٢ مؤسسه الريان- بيروت. و لو صحّ ما نقله يحمل على تبدل الاجتهاد و المعروف أنه نهى عن السفر للزياره لا عن أصلها. و سيوافيك بعض شبهاته.
 - ٢- شفاء السقام: ص ٦٦، طبع دار الجيل.
 - ٣- المصدر نفسه: ص ٧٩.

النووى إجماع العلماء و المسلمين على استحباب الزيارة (١)».

و قال أيضاً: و إذا استحبَّ زيارة قبر غيره صلى الله عليه و آله فقبره أولى لما له من الحق و وجوب التعظيم (٢)». ثم إنه استدلل في الباب السادس على أن السفر إلى الزيارة قربته بالكتاب و السنّه و الإجماع- إلى أن قال:-

الرابع: الإجماع إطباق السلف و الخلف؛ فإنّ الناس لم يزالوا في كلّ عام إذا قضاوا الحج يتوجهون إلى زيارة تهصلى الله عليه و آله، فمنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه و شاهده من قبلنا و حكاه العلماء عن الأعصار القديمه... و من ادعى أن هذا الجمع العظيم مجمعون على الخطأ فهو المخطئ (٣)».

٢٣- قال زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر القريشى العثمانى المصرى المراغى (ت ٨١٦هـ): و ينبغي لكلّ مسلم اعتقاد كون زيارة تهصلى الله عليه و آله قربته عظيمه، للأحاديث الواردة في ذلك، و لقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ» الآية، لأنّ تعظيمه لا ينقطع بموته (٤)».

٢٤- قال السيد نور الدين السمهودى (ت ٩١١هـ) بعد ذكر أحاديث الباب:

و أما الإجماع، فأجمع العلماء على استحباب زيارة القبور للرجال كما حكاه النووى بل قال بعض الظاهريه بوجوبها، و قد اختلفوا في النساء، و قد امتاز القبر الشريف بالأدله الخاصه به. قال السبكي: و لهذا أقول: إنه لا فرق في زيارته بين الرجال و النساء. و قال الجمال الريمى في «التفقيه»: يستثنى من محل الخلاف قبر النبي صلى الله عليه و آله و صاحبيه ثم قال: و قد ذكر ذلك بعض المتأخرين و هو الدمهورى الكبير،

١- شفاء السقام: ص ٨٣، طبع دار الجيل.

٢- المصدر نفسه: ص ٨٤.

٣- المصدر نفسه: ص ١٠٠.

٤- المواهب اللدنيه للقسلانى ٤: ٥٧٠-٥٧٤ المكتب الإسلامى، بيروت. و الآية من سوره النساء: ٦٤.

و أضاف إليه قبور الأولياء و الصالحين و الشهداء «(١)».

٢٥- قال الحافظ أبو العباس القسطلاني المصري (ت ٩٣٣ هـ): اعلم أن زياره قبره الشريف من أعظم القربات و أرجى الطاعات و السبيل إلى أعلى الدرجات، و من اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربه الإسلام، و خالف الله و رسوله و جماعه العلماء الأعلام، و قد أطلق بعض المالكيه و هو أبو عمران الفاسي كما ذكره في «المدخل» عن «تهذيب الطالب» لعبد الحق: أنها واجبه، قال: و لعله أراد وجوب السنن المؤكده، و قال القاضي عياض: إنها من سنن المسلمين مجمع عليها و فضيله مرغّب فيها...

ثم قال: و قد صح أن عمر بن عبد العزيز كان يبرد البريد للسلام على النبي صلى الله عليه و آله فالسفر إليه قبره لعموم الأدله، و من نذر زياره وجبت عليه كما جزم به ابن كج من أصحابنا، إلى أن قال: و للشيخ تقي الدين بن تيميه هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شد الرحال للزياره النبويه، و أنه ليس من القرب بل بضد ذلك، و ردّ عليه الشيخ تقي الدين السبكي في «شفاء السقام» فشفيصدور المؤمنين «(٢)».

٢٦- ذكر شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي (ت ٩٢٥ هـ) في باب ما يستحب لمن حج و قال: ثم يزور قبر النبي صلى الله عليه و آله و يسلم عليه و عيصاحبيه بالمدينه المشرفه «(٣)».

٢٧- قال ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي (ت ٩٧٣ هـ) بعد ما استدلل على مشروعيه زياره قبر النبي بعده أدله منها: الإجماع؛ فإن قلت: كيف تحكى الإجماع على مشروعيه الزياره و السفر إليها و طلبها و ابن تيميه من متأخري الحنابله منكر

١- وفاء الوفا، المجلد الثاني ٤: ١٣٦٢، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢- المواهب اللدنيه ٤: ٥٧٠ المكتب الإسلامى، بيروت.

٣- أسنى المطالب فى شرح روض الطالب ١: ٥٠١.

لمشروعيه ذلك كله كما رآه السبكي في خطه؟ و قد أطل ابن تيميه الاستدلال لذلك بما تمجّه الأسماع، و تنفر عنه الطباع، بل زعم حرمه السفر لها إجماعاً و أنّه لا- تقصّر فيه الصلاة، و أنّ جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعه، و تبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه.

قلت: من هو ابن تيميه؟! حتّى ينظر إليه أو يقول فى شىء من مورد الدين عليه؟! و هل هو إلّا كما قال جماعه من الأئمه- الذين تعقّبوا كلماته الفاسده و حججه الكاسده حتّى أظهروا عوار سقطاته، و قبائح أوهامه، و غلطاته كالعزّ بن جماعه:- عبد أضلّه الله تعالى و أغواه، و ألبسه رداء الخزى و أرداه، و بواه من قوّه الافتراء و الكذب ما أعقبه الهوان، و أوجب له الحرمان، و لقد تصدّى شيخ الإسلام و عالم الأنام المجمع على جلالته و اجتهاده وصلاحه و إمامته، التقى السبكي- قدس الله روحه و نور ضريحه- للردّ عليه فى تصنيف مستقل أفاد فيه و أجاد، و أصاب و أوضح بياهر حججه طريق الصواب ثمّ قال:

هذا ما وقع من ابن تيميه ممّا ذكر و إن كان عثره لا تقال أبداً، و مصيبه يستمر شؤمها سرمداً، و ليس بعجب؛ فإنّه سوّلت له نفسه و هواه و شيطانه أنّه ضرب مع المجتهدين بسهمصائب، و ما درى المحروم أنّه أتى بأقبح المعاييب؛ إذ خالف إجماعهم فى مسائل كثيره، و تدارك على أئمتهم لا- سيما الخلفاء الراشدين باعتراضات سخيّفه، شهيره حتّى تجاوز إلى الجناب الأقدس، المنزّه سبحانه عن كلّ نقص، و المستحق لكلّ كمال أنفس، فنسب إليه الكبائر و العظائم، و خرق سياج عظمته بما أظهره للعامة، على المنابر من دعوى الجهه و التجسيم، و تضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدّمين و المتأخّرين، حتّى قام عليه علماء عصره و ألزموا السلطان بقتله أو حبسه و قهره، فحبسه إلى أن مات، و خمدت تلك البدع، و زالت تلك الضلالات، ثمّ انتصر له أتباع لم يرفع الله لهم رأساً، و لم يظهر لهم جاهاً، و لا بأساً، بل ضربت

عليهم الذلّة والمسكنه و باءوا بغضب من الله بما عصوا و كانوا يعتدون [\(١\)](#)».

و نقل حسن العدوى الحمزاوى عنه أيضاً ما هذه عبارته:

اعلم- وفقنى الله و إياك لطاعته و فهم خصوصيات نبيّه صلى الله عليه و آله، و المسارعه إلى مرضاته:- أن زيارته صلى الله عليه و آله مشروع مطلوبه بالكتاب و السنّه و إجماع الأئمّه و بالقياس- إلى أن قال:- و أما الإجماع فقد حكاه الإمام السبكي قال: و لا عبره بما تفرّد به ابن تيميه و تبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه [\(٢\)](#)».

٢٨- قال الشيخ محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ): أما زيارته صلى الله عليه و آله فمن أعظم القربات للرجال و النساء، و ألحقّ الدمنهورى به قبور بقيه الأنبياء و الصالحين و الشهداء و هو ظاهر [\(٣\)](#)».

و قال فى موضع آخر بعد بيان مندوبيه زياره قبره الشريف صلى الله عليه و آله و ذكر جملة من أدلتها: ليس المراد اختصاص أدب الزيارة بالحجّ؛ فإنّها مندوبه مطلقاً بعد حجّ أو عمره أو قبلهما أو لا مع نسك، بل المراد تأكّد الزيارة فيها [\(٤\)](#)».

٢٩- قال الشيخ عبد الرحمن شيخ زاده (ت ٩٨٧ هـ): من أحسن المندوبات، بل يقرب من درجه الواجبات زياره قبر نبينا و سيدنا محمد صلى الله عليه و آله و قد حرّض عليه السلام على زيارته و بالغ فى النذب إليها [\(٥\)](#)».

٣٠- قال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوى (ت ١٠٣١ هـ): و زياره قبره صلى الله عليه و آله الشريف من كمالات الحجّ، بل زيارته عند الصوفيه فرض، و عندهم

١- الجواهر المنظم فى زياره القبر المكرّم: ص ٢٢، طبع سنه ١٢٧٩ بمصر.

٢- كتر المطالب: ص ١٧٩ و ١٨١، الطبعه الحجريه.

٣- مغنى المحتاج ١: ٣٦، ط دار الفكر.

٤- المصدر نفسه ١: ٥١٢.

٥- مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر ١: ٣١٢، ط دار إحياء التراث العربى.

الهجره إلى قبره كهى إليه حياً» (١).

و قال فى موضع آخر: إن أثر الزياره إما الموت على الإسلام مطلقاً لكل زائر، و إما شفاعه تخصّ الزائر أخصّ من العامه، و قوله: شفاعتى فى الإضافه إليه تشرىف لها، إذ الملائكه و خواص البشر يشفعون؛ فللزائر نسبه خاصه فيشفع هو فيه بنفسه، و الشفاعه تعظّم بعظم الزائر» (٢).

٣١- قال الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالى: زياره النبى صلى الله عليه و آله من أفضل القربات و أحسن المستحبات تقرب من درجه ما لزم من الواجبات، فإنّه صلى الله عليه و آله حرّض عليها و بالغ فى الندب إليها. قال صلى الله عليه و آله: «من وجد سعه فلم يزرنى فقد جفانى» و قال صلى الله عليه و آله: «من زار قبرى و جبت له شفاعتى». و قال صلى الله عليه و آله: «من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى» إلى أن قال: و ممّا هو مقرر عند المحققين أنه صلى الله عليه و آله حتى يُرزق ممّتع بجميع الملاذ و العبادات، غير أنه حجب عن أبصار القاصرين عن شرف المقامات» (٣).

٣٢- و قال قاضى القضاة شهاب الدين الخفاجى الحنفى المصرى (ت ١٠٦٩ هـ):

و اعلم أنّ هذا الحديث (شدّ الرّحال إلى المساجد) هو الذى دعا ابن تيميه و من معه كابن قيم إلى مقالته الشنيعه التى كفّروه بها، و صنّف فيها السبكى مصنفاً مستقلاً، و هى منعه من زياره قبر النبى صلى الله عليه و آله و هو كما قيل:

لمهبط الوحي حقاً ترحل النجْبُ و عند ذاك المرَجى ينتهى الطلبُ

فتوهم أنّه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغى ذكرها؛ فإنّها لا تصدر عن

١- شرح الجامع الصغير ٦: ١٦٠.

٢- شرح الجامع الصغير ٦: ٩٣.

٣- مراقى الفلاح فى شرح متن نور الإيضاح: ٢٩٢-٢٩٣، ط مكتبه و مطبعه محمد على صبيح و أولاده، مصر.

عاقلاً فضلاً عن فاضلٍ سامحه الله تعالى! «(١)» ٣٣- قال الشيخ محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي المفتي بدمشق (ت ١٠٨٨ هـ): وزياره قبره صلى الله عليه وآله مندوبه بل قيل واجبه لمن له سعه «(٢)».

٣٤- قال أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي المصري (ت ١١٣٢ هـ): قد كانت زيارته مشهوره في زمن كبار الصحابه معروفه بينهم، لمأصالح عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس جاءه كعب الأخبار فأسلم ففرح به و قال: هل لك أن تسير معي إلى المدينة و تزور قبره صلى الله عليه وآله و تتمتع بزيارته؟

قال: نعم «(٣)».

٣٥- قال أبو الحسن السندي محمد بن عبد الهادي الحنفي (ت ١١٣٨ هـ): قال الدميري: فائده زياره النبي صلى الله عليه وآله من أفضل الطاعات و أعظم القربات لقوله صلى الله عليه وآله:

«من زار قبري وجبت له شفاعتي إلخ» «(٤)».

٣٦- قال محمد بن عبد الوهاب: تسنّ زياره النبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّه لا يشدّ الرحال إلّا لزياره المسجد و الصلاه فيه «(٥)».

٣٧- قال الشيخ محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ): قد اختلفت فيها (في زياره النبي صلى الله عليه وآله، أمّا أقوال أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أنّها مندوبه، و ذهب بعض المالكيه و بعض الظاهريه إلى أنّها واجبه، و قالت الحنفيه: إنّها قريبه من الواجبات، و ذهب ابن تيميه الحنبلي حفيد المصنّف المعروف بشيخ الإسلام إلى أنّها

١- شرح الشفاء ٣: ٥٦٦، طبع المطبعه العثمانيه، سنه ١٣١٥.

٢- الدر المختار في شرح تنوير الأبصار، آخر كتاب الحج: ١٩٠، مطبعه الفتح الكريم، سنه ١٣٠٢ هـ.

٣- شرح المواهب ٨: ٢٩٩، الطبعه الأولى بالمطبعه الأزهرية المصريه، سنه ١٣٠٢ هـ.

٤- شرح سنن ابن ماجه ٢: ٢٦٨، كما في الغدير ٥: ١٢٠.

٥- الهديه السنيه، الرساله الثانيه.

غير مشروعه. ثم فصل الكلام في الأقوال، إلى أن قال وفي آخر كلامه: احتج أيضاً من قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار و اختلاف المذاهب، الوصول إلى المدينة المشرفة لقصد زيارته، و يعدون ذلك من أفضل الأعمال، و لم ينقل أن أحداً أنكر ذلك عليهم فكان إجماعاً [\(١\)](#).

٣٨- قال الشيخ محمد أمين بن عابدين (ت ١٢٥٣ هـ): زياره النبي صلى الله عليه و آله مندوبه بإجماع المسلمين إلى أن قال: و هل تستحب زياره قبره صلى الله عليه و آله للنساء؟

الصحيح نعم بلا كراهه، بشرطها على ما صرح به بعض العلماء، و أما على الأصح من مذهبنا و هو قول الكرخي و غيره من أن الرخصه في زياره القبور ثابتة للرجال و النساء جميعاً فلا إشكال، و أما على غيره فذلك نقول بالاستحباب لإطلاق الأصحاب [\(٢\)](#).

٣٩- قال الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيروني (ت ١٢٧٦ هـ):

زياره النبي صلى الله عليه و آله مطلوبه؛ لأنه واسطه الخلق، و زيارته بعد وفاته كالهجره إليه في حياته، و من أنكرها؛ فإن كان ذلك إنكاراً لها من أصلها فخطؤه عظيم، و إن كان لما يعرض من الجهله مما لا ينبغي فليبين ذلك [\(٣\)](#).

٤٠- قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي (ت ١٢٧٧ هـ): و تسنّ زياره قبره صلى الله عليه و آله و لو لغير حاج و معتمر كالعدي قبله، و يسنّ لمن قصد المدينة الشريفه لزيارته صلى الله عليه و آله أن يكثّر من الصلاة و السلام عليه في طريقه، و يزيد في ذلك إذا رأى حرم المدينة و أشجارها، و يسأل الله أن ينفعه بهذه الزياره و يتقبلها منه. ثم ذكر

١- نيل الأوطار ٤: ٣٢٤.

٢- رد المحتار على الدر المختار ٥: ٢٧٨.

٣- التعليق على «حسن الأثر»: ٢٤٦ كما في الغدير ٥: ١٢١.

جملة كثيرة من آداب الزيارة و ألفاظها «(١)».

٤١- قال الشيخ حسن العدوى الحمزاوى الشافعى (ت ١٣٠٣ هـ)، بعد نقل جملة من الأحاديث الواردة فى أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله يسمع سلام زائريه و يردّ عليهم:

إذا علمت ذلك علمت أنّ رده صلى الله عليه و آله سلام الزائر عليه بنفسه الكريمه صلى الله عليه و آله أمر واقع لا شكّ فيه، و إنّما الخلاف فى رده على المسلم عليه من غير الزائرين. فهذه فضيله عظيمه ينالها الزائرون لقبره صلى الله عليه و آله فيجمع الله لهم بين سماع رسول الله صلى الله عليه و آله لأصواتهم من غير واسطه و بين رده عليهم سلامهم بنفسه، فأتى لمن سمع بهذين بل بأحدهما أن يتأخّر عن زيارته صلى الله عليه و آله أو يتوانى عن المبادره إلى المثول فى حضرة صلى الله عليه و آله؟ تالله ما يتأخّر عن ذلك مع قدره عليه إلّا من حقّ عليه البعد من الخيرات، و الطرد عن مواسم أعظم القربات، أعادنا الله تعالى من ذلك بمنّه و كرمه آمين.

و علم من تلك الأحاديث أيضاً أنّه صلى الله عليه و آله حيّ على الدوام؛ إذ من المحال العادى أن يخلو الوجود كلّ من واحد يسلم عليه فى ليل أو نهار، فنحن نؤمن و نصدق بأنّه صلى الله عليه و آله حيّ يرزق، و أنّ جسده الشريف لا تأكله الأرض، و كذا سائر الأنبياء عليهم الصلاه و السلام، و الإجماع على هذا «(٢)».

٤٢- قال السيد محمد بن عبد الله الجردانى الدمياطى الشافعى (ت ١٣٥٧ هـ):

زياره قبره صلى الله عليه و آله من أعظم الطاعات و أفضل القربات حتى أنّ بعضهم جرى على أنّها واجبه فينبغى أن يحرض عليها، و ليحذر كلّ الحذر من التخلف عنها مع قدره و خصوصاً بعد حجّه الإسلام؛ لأنّ حقّه صلى الله عليه و آله على أمته عظيم، و لو أنّ أحدهم يجىء على رأسه أو بصره من أبعده موضع من الأرض لزيارته صلى الله عليه و آله لم يقم بالحقّ الذى عليه لنبيّه جزاه الله عن المسلمين أتمّ الجزاء.

١- حاشيه على شرح ابن الغزى على متن الشيخ أبى شجاع فى الفقه الشافعى ١: ٣٤٧ كما فى الغدير ٥: ١٢٢.

٢- كنز المطالب: ١٩٥، الطبعة الحجرية.

و يسنّ لمن قصد المدينة الشريفة (إلخ) ثمّ فصل القول في آداب الزيارة و ذكر التسليم على الشيخين و زياره السيده فاطمه و أهل البقيع و المزارات المشهوره؛ و هي نحو ثلاثين موضعاً كما قال و ما أحسن ما قيل:

هنيئاً لمن زار خير الورى و حطّ عن النفس أوزارها

فإنّ السعاده مضمونه لمن حلّ طيبه أو زارها «(١)»

٤٣- قال الشيخ عبد الباسط بن الشيخ على الفاخورى مفتى بيروت:

الفصل الثانى عشر: فى زياره النبى صلى الله عليه و آله: و هى متأكده مطلوبه و مستحبّه محبوبه، و تسنّ زيارته فى المدينة كزيارته حياً و هو فى حجرته حتى يردّ على من سلّم عليه السلام، و هى من أنجح المساعى و أهمّ القربات و أفضل الأعمال و أزكى العبادات، و قد قال صلى الله عليه و آله: «من زار قبرى و جبت له شفاعتى». و معنى «وجبت» ثبت بالوعد الصادق الذى لا بدّ من وقوعه و حصوله، و تحصل الزيارة فى أى وقت و كونها بعد تمام الحجّ أحبّ، يجب على من أراد الزيارة التوبه من كل شىء يخالف طريقه و سنته صلى الله عليه و آله إلى أن قال: و يستحبّ التبرّك بالاسطوانات التى لها فضل، و شرف؛ و هى ثمان: أسطوانه محلّصاته صلى الله عليه و آله، و أسطوانه عائشه (رض) و تسمى أسطوانه القرعه، و أسطوانه التوبه محلّ اعتكافه صلى الله عليه و آله، و أسطوانه السرير، و أسطوانه علىّ رضى الله عنه و أسطوانه الوفود، و أسطوانه جبرئيل عليه السلام، و أسطوانه التهجد «(٢)».

٤٤- قال الشيخ عبد المعطى السقا فى زياره النبى صلى الله عليه و آله:

إذا أراد الحاجّ أو المعتمر الانصراف من مكّه- أدام الله تشریفها و تعظیمها- طلب منه أن يتوجّه إلى المدينة المنوره للفوز بزيارته عليه الصلاه و السلام؛ فإنّها

١- مصباح الظلام ٢: ١٤٥، كما فى الغدير ٥: ١٢٣

٢- الكفايه لذوى العنايه: ص ١٢٥، كما فى الغدير ٥: ١٢٣.

من أعظم القربات و أفضل الطاعات و أنجح المساعي المشكوره، و لا يختص طلب الزيارة بالحاج غير أنها في حق آكد، و الأولى تقديم الزيارة على الحج إذا اتسع الوقت فإنه ربما يعوقه عنه عائق... «(١)».

٤٥- قال الشيخ محمد زاهد الكوثري:

و الأحاديث في زيارته صلى الله عليه و آله في الغايه من الكثره، و قد جمع طرقها الحافظ صلاح الدين العلائي في جزء، و على العمل بموجبها استمرت الأمه إلى أن شدّ ابن تيميه عن جماعه المسلمين في ذلك، قال على القارى في شرح «الشفاء»: و قد أفرط ابن تيميه من الحنابله؛ حيث حرّم السفر لزيارته النبي صلى الله عليه و آله كما أفرط غيره حيث قال:

كون الزيارة قربه معلوم من الدين بالضروره، و جاحده محكوم عليه بالكفر، و لعلّ الثاني أقرب إلى الصواب؛ لأنّ تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفرة؛ لأنّه فوق تحريم المباح المتفق عليه «(٢)».

٤٦- قال فقهاء المذاهب الأربعة المصريون في (الفقه على المذاهب الأربعة):

زياره قبر النبي صلى الله عليه و آله أفضل المندوبات، و قد ورد فيها أحاديث. ثم ذكروا أحاديث سنّه، و جمله من أدب السرائر و زياره النبي صلى الله عليه و آله و أخرى للشيخين «(٣)».

٤٧- قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز إجابته عن الأسئلة حول زياره المسجد النبوي: الزيارة للمسجد النبوي سنّه و ليست واجبه- إلى أن قال:- و إذا زار المسجد النبوي شرع له أن يصلّي في الروضه ركعتين، ثم يسلم على النبي صلى الله عليه و آله و عليصاحبيه أبي بكر و عمر (رضي الله عنهما)، كما يشرع له زياره البقيع و الشهداء بالسلام على المدفونين هناك من الصحابه و غيرهم، و الدعاء لهم

١- الإرشادات السنيه: ص ٢٦٠، كما في الغدير ٥: ١٢٣.

٢- تكمله السيف الصقيل: ص ١٥٦، ط دمشق.

٣- الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٥٩٠.

و الترحم عليهم، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يزورهم و كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين و المسلمين، و إنما إن شاء الله بكم لاحقون، نسال الله لنا و لكم العافيه. و فى روايه عنصلى الله عليه وآله أنه كان يقول إذا زار البقيع: «يرحم الله المستقدمين منّا و المستأخرين، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» و يشرع أيضاً لمن زار المسجد النبوى أن يزور مسجد قباء و يصلّى فيه ركعتين؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يزوره كلّ سبت، و يصلّى فيه ركعتين إلى آخر ما قال «(١)».

«و تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «(٢)»

١- جريده الجزيرة المؤرخه: يوم الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٤١١، العدد ٦٨٢٦.

٢- الأنعام: ١٥.

المبحث الثالث زيارة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الكتاب والسنة

زياره النبي الأكرم في القرآن الكريم

أمر القرآن الكريم المسلمين بالحضور عند رسول الله صلى الله عليه وآله ليستغفر لهم الله؛ لأن دعاءه يستجاب فيهم، قال عز وجل: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (١).

قال الإمام السبكي: «دلت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وآله والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة؛ فهي رتبة له لا تنقطع بموته تعظيماً له» (٢).

ثم إنه بسط الكلام في دلالة الآية على شمولية المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وآله بعد موته، فمن أراد فليرجع إليه، غير أننا نستدل بالآية بوجه آخر ونقول:

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا إلى القول بأنها خاصه

١- النساء: ٦٤.

٢- شفاء السقام: ص ٨١.

بِحياه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ومدّه وجوده بين الناس، و لكننا نستخلص منها حكماً عاماً شاملاً لا يختص بالحياه الدنيويه و ذلك من خلال ما يلي:

أولاً: أنّ القرآن الكريم يصرّح بحياه الأنبياء والأولياء- و جماعات أخرى- في البرزخ، و يعتبرهم مبصرين و سامعين في ذلك العالم.

ثانياً: أنّ الأحاديث الشريفه تصرّح بأنّ الملائكه تبليغ خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله سلام من يسلم عليه، فقد جاء في الصحاح: «ما من أحد يسلم عليّ إلّا ردّ الله عليّ روحى حتّى أردّ عليه السلام» (١).

و قال صلى الله عليه وآله: «صلّوا عليّ؛ فإنّصلاتكم تبلغنى حيثما كنتم» (٢).

ثالثاً: إنّ المسلمين - منذ ذلك اليوم- فهموا من هذه الآيه معنى مطلقاً لا ينتهى بموت رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله حتّى أنّ بعض الأعراب- بوحي من أذهانهم الخالصه من كلّ شائبه- كانوا يقصدون قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله و يزورونه و يتلون هذه الآيه عند قبره المطهر و يطلبون منه الاستغفار لهم.

و قد ذكر تقى الدين السبكي في كتاب «شفاء السقام» و السمهودى في كتاب «وفاء الوفا» نماذج من زياره المسلمين لقبر رسول اللّٰه، و تلاوه هذه الآيه عند قبره الشريف، و فيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روى سفيان بن عنبر عن العتبى- و كلاهما من مشايخ الشافعى و أساتذته- أنّه قال: كنت جالساً عند قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فجاء أعرابى فقال:

«السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (٣) و قد

١- سنن أبى داود ١: ٤٧٠ و ٤٧١، كتاب الحج، باب زياره القبور.

٢- التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٢: ١٨٩.

٣- النساء: ٦٤.

جتتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي». ثم بكى و أنشأ يقول:

يا خَيْرَ من دُفنت بالقاع أعظمُهُ فطاب من طيبهنّ القاع و الأكُم

نفسى الفداء لغير أنت ساكنهُ فيه العَفافُ و فيه الجودُ و الكرمُ

ثم استغفر و انصرف «(١)».

و يروى أبو سعيد السمعانى عن الإمام علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنّ أعرابياً جاء بعد ثلاثه أيام من دفن رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله فرمى بنفسه على القبر الشريف و حثا من ترابه على رأسه و قال: يا رسول الله قلتَ فسمعنا قولك، و وعيت عن الله ما وعينا عنك، و كان فيما أنزله عليك: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ...» و قد ظلمت نفسى و جتتك تستغفر لى إلى ربّي «(٢)».

إنّ كل هذا يدلّ على أنّ المنزله الرفيعه الّتى منحها الله تعالى لحبيبه المصطفى صلى الله عليه و آله كما صرّحت بها هذه الآيه ليست خاصّه بحياته، بل تؤكّد على أنّها ثابتة له بعد وفاته أيضاً.

و بصوره عامّه... يعتبر المسلمون كلّ الآيات النازله فى تعظيم رسول الله و احترامه، عامّه لحياته و بعد مماته، و ليس هناك من يُخصّصها بحياته صلى الله عليه و آله.

و قد جاء فى التاريخ: لما استشهد الإمام الحسن بن علىّ عليهما السلام و جىء بجثمانه الطاهر إلى مسجد رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله و آله ظنّ بنو أميه أنّ بنى هاشم يريدون دفن الإمام بجوار قبر جدّه المصطفى، فأثاروا الفتنة و الضجّه للحيلولة دون ذلك، فتلا الإمام الحسين عليه السلام قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» «(٣)».

١- وفاء الوفا ٤: ١٣٦١؛ الدرر السنيه: ص ٧٥ ط. دار جوامع الكلم.

٢- ابن حجر، الجوهر المنظم، و ذكره السمهودى فى وفاء الوفا ٢: ٦١٢، و زينى دحلان فى الدرر السنيه: ٢١.

٣- الحجرات: ٢.

و لم يردّ عليه أحد- حتّى من الأمويين- بأنّ هذه الآية خاصّه بحياه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله.

و اليوم نصب المسلمون هذه الآية على الجدار المقابل لقبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله، و هم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك.

و من هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من الآية معنىً واسعاً عاماً، و هو أنّ للمسلمين اليوم أن يقفوا أمام قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله و يسألوه أن يستغفر الله لهم. و ليس لزياره رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله معنى سوى ما تضمّنته هذه الآية و أمثالها؛ فإنّها تدلّ على موضوعين هما:

١- إنّ للإنسان أن يقف عند قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بعد وفاته و يسأله أن يستغفر الله له.

٢- إنّ هذه الآية تشهد على جواز زياره قبر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله لأنّ حقيقه الزياره لا تعنى سوى «حضور الزائر عند المزمور» فإذا كان الوقوف عند قبر النبيّ و سؤاله أن يستغفر الله له جائزاً فقد تحقّق أمران:

أ- سألناه أن يستغفر الله لنا.

ب- حضرنا عنده و تحدّثنا إليه، و الزياره ليست إلّا هذا.

زياره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في السنه النبويه

تضافرت السنه على استحباب زياره قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث رواها أئمه المذاهب الأربعة وأصحاب السنن و المسانيد في كتبهم. ولما ظهرت بدعه التشكيك في زياره النبي الأكرم قام الإمام تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ) بجمع ما رواه الحفاظ في هذا المجال، فبلغت خمسه عشر حديثاً، وقد صحح كثيراً من أسانيدھا بما كان له من اطلاع واسع في مجال رجال الحديث «(١)».

و ممن قام بنفس العمل الحفاظ نور الدين علي بن أحمد السهمودي (ت ٩١١هـ) في كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» حيث أحصى سبعة عشر حديثاً غير ما ورد في ذلك المجال، و لم يشتمل على لفظ «الزياره» «(٢)».

وقد قام بنفس ما قام به الإمام السبكي من تصحيح للاسناد و ذكر لمصادر الروايات على وجه بديع.

من جهه أخرى قام الكاتب الإسلامي الشيخ محمد الفقي، من علماء الأزهر الشريف، بجمع ما ورد في زياره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من غير تحقيق للاسناد بل مجرد النقل فبلغ اثنين و عشرين حديثاً «(٣)».

وبذل المجاهد الكبير الشيخ الأمينى جهداً كبيراً في العثور على مظان الروايات في كتب الحديث و التفسير و التاريخ، و ربما نقل بعض الأحاديث، كالحديث الأول، عن واحد و أربعين مصدراً.

و الأحاديث التي سنسرها عليصفحات هذه الرساله بلغت من الكثره ما

١- شفاء السقام في زياره خير الأنام، الباب الأول: ص ٥- ٣٩ و في طبعه أخرى: ص ٦٥- ١١٥.

٢- وفاء الوفا ٤: ١٣٣٦- ١٣٤٨، الباب الثاني.

٣- التوسل و الزياره في الشريعه الإسلاميه: ٤٨- ٥٠.

يغنيانا عن التحقيق في أسانيدھا و رواتها؛ حيث سجّلھا الحفّاظ في كتبهم وصحاحهم، و هي بمجموعھا كافيه للحكم باستحبابھا، و لأجل ذلك سنكتفي بذكر متون الأحاديث مجرّده عن الأسناد و ما دار حول رواتها من كلام للرجالين، تاركين كلّ ذلك إلى كتاب شفاء السقام للإمام السبكي، و سنذكر بعض المصادر لكلّ حديث دون الاستيعاب لجمعھا.

الحديث الأوّل: روى الدارقطني في سننه بسنده إلى ابن عمر قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «من زار قبري و جبت له شفاعتي» (١).

و رواه البيهقي أيضاً في سننه (٢)، و أبو الحسن الماوردي: في الأحكام السلطانية (٣).

إلى غير ذلك من الحفّاظ الذين نقلوه في كتبهم (٤).

الحديث الثاني: روى الطبراني في المعجم الكبير (٥)، و الغزالي في إحياء العلوم (٦)، عن عبد الله بن عمر مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه و آله: «من جاءني زائراً لا تحمله حابه إلّا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

الحديث الثالث: أخرج الدارقطني عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي، فكأنما زارني في حياتي» (٧).

١- الدارقطني، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٤، ط دار المحاسن، القاهرة.

٢- البيهقي، السنن ٥: ٢٤٥.

٣- الأحكام السلطانية: ص ١٠٥.

٤- أخرجه العلّامة الأميني عن واحد و أربعين مصدراً حديثاً و فقهياً، انظر: الغدير ٥: ٩٣-٩٦.

٥- المعجم الكبير.

٦- إحياء العلوم ١: ٣٠٦، و فيه «لا يهّمه إلّا زيارتي» مكان قوله: «لا تحمله»؛ و قد نقله الإمام السبكي، في شفاء السقام: ص ١٦؛ و السمهودي، في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠؛ و نقله العلّامة الأميني عن ستة عشر مصدراً حديثاً و فقهياً في الغدير ٥: ٩٧ و ٩٨.

٧- الدارقطني، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٢.

و أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه «(١)» و رواه الإمام السبكي في شفاء السقام «(٢)» و السمهودي في وفاء الوفا «(٣)».

الحديث الرابع: أخرج الدار قطنى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارنى بعد موتى، فكأنما زارنى فى حياتى، و من مات بأحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة» «(٤)».

الحديث الخامس: أخرج البيهقى فى سننه قال:

روى ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار قبرى (أو من زارنى) كنت له شفيحاً (أو شهيداً)» «(٥)».

الحديث السادس: أخرج الحافظ ابن عدى (ت ٣٦٥ هـ) فى كتابه الكامل عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حج البيت و لم يزرنى فقد جفانى» «(٦)».

الحديث السابع: روى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من زارنى بالمدينه محتسباً كنت له شفيحاً و شهيداً» «(٧)».

١- البيهقى، السنن ٥: ٢٤٤.

٢- شفاء السقام: ص ٢١.

٣- وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠، و رواه العلامة الأمينى عن خمسة و عشرين مصدراً فى الغدير ٥: ٩٨-١٠٠.

٤- الدار قطنى، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٣- و رواه الإمام السبكي فى شفاء السقام: ص ٢٣٣، و السمهودى، فى وفاء الوفا ٤: ١٣٤٤، و نقله العلامة الأمينى فى الغدير ٥: ١٠١، عن ثلاثة عشر مصدراً حديثاً.

٥- البيهقى، السنن الكبرى ٥: ٢٤٥، و رواه الإمام السبكي، فى شفاء السقام: ص ٢٩، و السمهودى فى وفاء الوفا ٤: ١٣٤٢. و قال: أخرجه الدار قطنى فى السنن.

٦- شفاء السقام: ص ٢٧؛ و نقله السمهودى فى وفاء الوفا ٤: ١٣٤٢ و قد ذكر اسناد ابن عدى إلى ابن عمر؛ و نقله العلامة الأمينى عن مصادر تسعه فى الغدير ٥: ١٠٠.

٧- رواه الإمام السبكي فى شفاء السقام بسنده إلى أنس بن مالك: ص ٣٥، كما رواه السمهودى فى وفاء الوفا عن ابن أبى الدنيا بسنده إلى أنس ٤: ١٣٤٥، و رواه العلامة الأمينى عن واحد و عشرين مصدراً، الغدير ٥: ١٠٢ و ١٠٣.

الحديث الثامن: روى أنس بن مالك أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً، و من زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، و ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرنى، فليس له عذر» (١).

الحديث التاسع: روى علقمه، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حجَّ حجَّه الإسلام و زار قبري و غزا غزوه و صلى علىَّ فى بيت المقدس لم يسأله الله عزَّ و جلَّ فيما افترض عليه» (٢).

الحديث العاشر: أخرج الفردوس فى مسنده عن ابن عباس أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حجَّ إلى مكَّه ثم قصدنى فى مسجدي كُتبت له حجَّتان مبرورتان» (٣).

و اكتفينا بهذا العدد من الروايات و من أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى المصادر.

تجريد المتون عن الأسانيد

و بما أنَّ الشيخ محمداً الفقى قد جمع متون الروايات بشكل موجز نذكر ما جمعه و إن مضى ذكر قسم منها، و يستحبُّ زياره قبر النبي صلى الله عليه وآله لما روى الدار قطنى باسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حجَّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني فى حياتي» و فى روايه: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه

١- شفاء السقام: ص ٣٧؛ و أخرجه السمهودى عن كتاب ابن النجار فى أخبار المدينة بسنده عن أنس ٤: ١٣٤٥؛ و نقله العلامة الأمينى عن مصادر سته فى الغدير ٥: ١٠٤.

٢- شفاء السقام: ٣٠٣، عن كتاب الفوائد لأبى الفتح الأزدى؛ و أخرجه السمهودى، فى وفاء الوفا ٤: ١٣٤٤؛ و العلامة الأمينى فى غديره ٥: ١٠٢ عن مصادر خمس.

٣- وفاء الوفا ٤: ١٣٤٧؛ و رواه الشوكانى فى نيل الأوطار ٤: ٣٢٦.

باللفظ الأوّل سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر.

و قال أحمد في روايه عبد الله بن يزيد بن قسيط عن أبي هريره: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال:

«ما من أحد يسلم عليّ عند قبري إلّا ردّ الله عليّ روحى حتّى أرددّ عليه السلام» رواه أبو داود بدون زياده «عند قبري».

فإقراره للزياره و تقريره لها اعتراف بالغ الأهميه باستحبابها و روعه الترغيب فيها، و انتصار للحقّ و وقوف بجانبه، و لا يمكن أن يوصف ذلك الإمام بالتحيز، و لا- ينبغي أن يرمى بضعف التقدير، إذ إنّ إقراره ذلك يتفق تماماً مع هدى الدين و الرسائل السماويه و الأحاديث النبويه المتعدده الطرق المختلفه الأسانيد، و التي ندعها وحدها تتكلم عن مدى تقدير الزياره و عظم اهتمام الشارع بها، و ما تتجلى عنه من مزايا واسعها الآفاق كبيره النوال:

١- عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه ابن خزيمة في صحيحه.

٢- و عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني في قبري حلّت له شفاعتي يوم القيامة» رواه ابن أبي الدنيا.

٣- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار قبري حلّت له شفاعتي يوم القيامة» رواه الدار قطنى.

٤- و عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني في مماتى كان كمن زارني في حياتى» رواه العقيلي.

٥- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني بالمدينه بعد موتى كنت له شفيعاً يوم القيامة» رواه أبو داود الطيالسى.

٦- و عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني بعد موتى فكأنما زارني و أنا حيّ» رواه الحافظ سعيد بن محمد.

- ٧- و عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً أو شفيحاً» رواه العقيلي.
- ٨- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من جاءني زائراً لا تعلم له حاجه إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيحاً» رواه الدارقطني.
- ٩- و عن بكر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أتى المدينة زائراً إليّ وجبت له شفاعتي يوم القيامة» رواه يحيى بن حسين.
- ١٠- و عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني كنت له شهيداً و شفيحاً يوم القيامة» رواه ابن مردويه.
- ١١- و عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً و شفيحاً يوم القيامة» رواه أبو عوانه.
- ١٢- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي» رواه ابن عدي.
- ١٣- و عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه ابن النجار.
- ١٤- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من جاءني زائراً لا تعمده حاجه إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيحاً أو شهيداً يوم القيامة» رواه الطبراني.
- ١٥- و عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حجّ إلى مكّه ثمّ قصدني في مسجدى كُتبت له حجّتان مبرورتان» رواه الديلمي في مسند الفردوس.
- ١٦- و عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من جاءني زائراً لا يهّمه إلا زيارتي كان حقاً علي الله أن أكون له شفيحاً يوم القيامة» رواه الطبراني وصححه ابن السكن.

١٧- و عن أنس قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «ما من أحد من أمّتي له سعه ثم لم يزرنى فليس له عذر» رواه ابن النجار.

١٨- و عن ابن عمر قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «من وجد سعه و لم يفد إلى فقد جفاني» رواه ابن حبان.

١٩- و عن أنس قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «لا عذر لمن كان له سعه من أمّتي أن لا يزورني» رواه ابن عساكر.

٢٠- و عن ابن عمر: «من حجّ و زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي» رواه سعيد بن منصور.

٢١- و عن أنس قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «من حجّ و لم يزر قبري فقد جفاني» رواه ابن عساكر.

٢٢- و عن ابن عمر: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «من حج البيت و لم يزرنى فقد جفاني» رواه ابن عدى بسند حسن (١).

زياره النبي الأكرم في حديث العتره

تضافر الحديث عن العتره الطاهره حول زياره قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله نقتبس منه ما يلي:

١- روى الحميري (ت ٢٩٩ هـ) عن هارون، عن ابنصده عن الصادق عن أبيه الباقر عليهما السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «من زارني حيّاً و ميّتاً، كنت له شفيحاً يوم القيامة» (٢).

١- التوسل و الزياره في الشريعه الإسلاميه: ص ٤٨ و ٤٩.

٢- قرب الاسناد: ٣١، البحار ٩٧: ١٣٩.

٢- روى الصدوق (٣٠٦-٣٨١ هـ) بسنده عن الإمام عليّ (صلوات الله عليه):

«أتموا برسول الله حجكم إذا خرجتم إلى بيت الله؛ فإن تركه جفاء و بذلك أمرتم، و أتموا بالقبور التي ألزمكم الله زيارتها و حقها» (١)».

٣- روى الصدوق بسنده عن الامام الرضا عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه و آله قال: «من زارني في حياتي و بعد موتي فقد زار الله تعالى...» (٢)».

٤- روى الصدوق عن إبراهيم بن أبي حجر الأسلمي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من أتى مكة حاجاً و لم يزرنى إلى المدينة جفوته يوم القيامة، و من جاءني زائراً و جبت له شفاعتي، و من وجبت له شفاعتي و جبت له الجنة» (٣)».

٥- روى ابن قولويه (ت ٣٦٩ هـ) عن أبي حجر الأسلمي قال: قال رسول الله (و ذكر مثل ما سبق و زاد في آخره) «و من مات في أحد الحرمين - مكة أو المدينة - لم يعرض إلى الحساب و مات مهاجراً إلى الله و حشر يوم القيامة مع أصحاب بدر» (٤)».

٦- روى الصدوق بسنده عن المعلى بن شهاب عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

قال الحسن بن عليّ عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه و آله: يا أبتاه ما جزاء من زارك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: يا بني: من زارني حياً أو ميتاً أو زار أباك أو أخاك أو زارك كان حقاً عليّ أن أزوره يوم القيامة فأخلصه من ذنوبه» (٥)».

٧- روى ابن قولويه بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

١- الخصال ٢: ٤٠٦؛ البحار ٩٧: ١٣٩.

٢- عيون أخبار الرضا ١: ١١٥؛ البحار ٩٧: ١٤٠.

٣- علل الشرائع: ٤٦٠؛ البحار ٩٧: ١٤٠.

٤- كامل الزيارات: ص ٤٦٠؛ البحار ٩٧: ١٤٠.

٥- علل الشرائع: ص ٤٦٠؛ البحار ٩٧: ١٤٠.

«من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة» (١).

٨- روى ابن قولويه عن ابن أبي نجران قال: قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام الجواد عليه السلام): جعلت فداك، ما لمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً؟ قال: «له الجنة» (٢).

٩- روى ابن قولويه باسناده عن عبد الله بن الحسن، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي و كنت له شهيداً أو شافعاً يوم القيامة» (٣).

١٠- روى ابن قولويه بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من زار قبري بعد موتي كان كمن هاجر إلي في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام فإنه يبلغني» (٤).

نكتفي بهذا القدر من الروايات، وبهذا يتضح اتفاق الفريقين على استحباب زيارة قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد بلغ الاتفاق إلى حد نرى وحده المضمون بل التعبير في رواياتهم، وهناك روايات أخرى عن العتره الطاهره لم نذكرها روماً للاختصار.

و من تجرد عن الرأي المسبق أو التشكيك الذي أثاره بعض الناس، ونظر إلى كلمات أعلام المذاهب و روايات الفريقين يحصل له القطع و اليقين على أن استحباب زيارة تهصلي الله عليه وآله من الأمور الواضحه في الشريعة الإسلاميه الغراء، و أن التشكيك فيها تشكيك في الأمور المسلّمه و المتفق عليها.

١- كامل الزيارات: ص ١٢؛ البحار ٩٧: ١٤٢.

٢- المصدر نفسه؛ البحار ٩٧: ١٤٣.

٣- المصدر نفسه؛ البحار ٩٧: ١٤٣.

٤- المصدر نفسه؛ البحار ٩٧: ١٤٤.

شد الرحال إلى زياره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

المبحث الرابع شد الرحال إلى زياره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

إشاره

إذا كانت زياره النبي الأكرم أمراً مطلوباً وعملاً مستحباً كما دلت عليه الروايات المتضافره و السيره القطعيه، يكون شد الرحال الذي هو بمنزله المقدمه أمراً مستحباً، بناءً على الملازمه بين استحباب الشىء و استحباب مقدمته، كما عليه أكثر الأصوليين، و هذا له نظائر فى الشريعه الإسلاميه تحكى أن وسيله القربه، قربه قال سبحانه: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (١) فهذا الإنسان مأجور بخروجه هذا و إن كان مقدمه لأمر مطلوب آخر.

يقول سبحانه فى حق المجاهدين: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٢).

١- النساء: ١٠٠.

٢- التوبه: ١٢٠-١٢١.

و هذه الأمور التي كتب الله لهم بها أجراً، وسيله للجهاد، و مقدمه للقتال، و هذا يكشف عن التلازم بين الاستحبابين، أو الثوابين.

نعم، ذهب بعض الأصوليين إلى عدم الملازمه، و لكنهم متفقون على لزوم كون المقدمه مباحه لا محرّمه؛ لاستلزامه التناقض في التشريع؛ حيث لا يعقل البعث إلى أمر، مع المنع عمّا يوصل المكلف إليه، و على كلّ تقدير لا يصحّ تحريم السفر مع افتراض كون الزياره أمراً راجحاً، و فعلاً مستحبّاً، فلا محيص عن القول باستحبابه، أو إباحته. و لا تجتمع حرمة المقدمه مع استحباب ذيهها.

نعم، هنا فرق بين زياره قبر النبي، و زياره قبور المسلمين؛ فإنّ الأوّل مستحبّ بالخصوص، بخلاف الآخرين؛ فإنّها مسنونه على وجه العموم؛ فلو زار إنسان قبر أبيه أو أخيه، فإنّما يزورهما بما أنّ زيارتهما داخله تحت عموم قولهم صلى الله عليه و آله: «فزوروا القبور؛ فإنّ زيارتها تذكركم الآخرة»، و هذا بخلاف زياره الرسول، فإنّها - مضافاً إلى أنّها داخله تحت العموم - مستحبّه في نفسها.

و قد جرت سيره المسلمين من عصر الصحابه إلى يومنا هذا على شدّ الرحال إلى زياره النبي الأكرم و عدّوا زيارتها قربه، و السفر إليها مثلها، و لم ينكر أحد قريته الزياره و لا جواز السفر إلّا ابن تيميه في أوائل القرن الثامن لشبهه طرأت له، و ستعرض لها في فصل مستقل.

و لأجل إيقاف القارئ على اتصال السيره إلى عصر الصحابه نذكر بعض ما يدلّ عليه:

١- روى ابن عساكر بإسناده عن أبي الدرداء قال: لما فرغ عمر بن الخطاب رضی الله عنه عن فتح بيت المقدس فصار إلى الجابيه سأله بلال أن يقرّه بالشام ففعل ذلك - إلى أن قال -: ثمّ إنّ بلالاً رأى في منامه رسول الله و هو يقول: ما هذه الجفوه يا بلال أما آن لك أن تزورني يا بلال، فانتبه حزينا و جللاً خائفاً، فركب راحلته

و قصد المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله فجعل يبكي عنده و يمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن و الحسين (رضى الله عنهما) فجعل يضُمهما و يقبلهما فقالا له: نشتهى أذاتك العذى كنت تؤذّن به لرسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد ففعل، فعلا سطح المسجد فوقف موقفه العذى كان يقف فيه فلما أن قال: الله أكبر، الله أكبر، ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ازدادت رجتها، فلما أن قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله، خرجت العواتق من خدورهنّ و قالوا: بعث رسول الله. فما رثى يوم أكثر باكياً و لا باكيه بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم [\(١\)](#).

٢- استفاض أنّ عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقريّ النبيّ السلام ثم يرجع. قال ابن الجوزى: و كان عمر بن عبد العزيز يرد البريد من الشام يقول: سلّم لى على رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم [\(٢\)](#).
و ربّما كان يجتمع مع قصد الزيارة قصد أمر آخر. فكان يُشدّ لغايتين.

٣- روى يزيد بن أبي سعيد، مولى المهري قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز فلما ودّعته قال: إليك حاجه إذا أتيت المدينة سترى قبر النبيّ فافقرئه منى السلام [\(٣\)](#).

٤- روى أبو الليث السمرقندى الحنفى فى الفتاوى فى باب الحجّ: قال أبو القاسم: لما أردت الخروج إلى مكّه قال القاسم بن غسان: إنّ لى إليك حاجه، إذا أتيت قبر النبيّ فافقرئه منى السلام، فلما وضعت رحلى فى مسجد المدينة ذكرت.

قال الفقيه: فيه دليل إن لم يقدر على الخروج يأمر غيره ليسلم عنه؛ فإنّه ينال

١- مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٥؛ تهذيب الكمال ٤: ٢٨٩.

٢- مشير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ٢: ٢٩٧، تحقيق مرزوق على إبراهيم ط. دار الراية- الرياض ١٤١٥ هـ.

٣- شفاء السقام: ص ٥٦.

فضيله السلام «(١)».

٥- روى الواقدي فى فتوح الشام: كان أبو عبيده منازلًا بيت المقدس، فأرسل كتاباً إلى عمر مع ميسره بن مسروق رضى الله عنه يستدعيه الحضور، فلما قدم ميسره مدينه رسول الله دخلها ليلاً و دخل المسجد و سلم على قبر رسول الله و على قبر أبى بكر رضى الله عنه... ثم إنَّ عمر لَمَّا صالح أهل بيت المقدس و قدم عليه كعب الأخبار و أسلم و فرح عمر بإسلامه قال عمر رضى الله عنه له: هل لك أن تسير معى إلى المدينه و تزور قبر النبى و تتمتع بزيارته، فقال لعمر: يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك، و لَمَّا قدم عمر المدينه، أول ما بدأ بالمسجد و سلم على رسول الله «(٢)».

٦- قال ابن بطه العكبرى الحنبلى (ت ٣٨٧ هـ) فى كتاب الإبانه عن شريعه الفرقه الناجيه: إنَّ كل عالم من علماء المسلمين و فقيه من فقهاءهم أَلَّف كتاباً فى المناسك ففصَّله فصولاً و جعله أبواباً، يذكر فى كلِّ باب فقهه، و لكلِّ فصل عمله و ما يحتاج إليه الحاج إلى عمله و العمل به قولاً و فعلاً من الإحرام و الطواف و السعى و الوقوف، و النحر، و الحلق، و الرمى، و جميع ما لا يسع الحاج جهله، و لا غنى بهم عن عمله، حتَّى زياره قبر النبى فيصف ذلك فيقول: تأتى القبر فتستقبله و تجعل القبلة وراء ظهرك و تقول: السلام عليك أيها النبى و رحمه الله و بركاته، حتى تصف السلام و الدعاء ثم يقول: و تتقدّم على يمينك و تقول: السلام عليك يا أبا بكر و عمر- إلى أن قال:- و لقد أدركنا الناس و رأيناهم و بلغنا عمّن لم نره أنَّ الرجل إذا أراد الحجّ فسلم عليه أهله و صحابته قالوا: و تقرأ على النبى و أبى بكر و عمر منّا السلام، فلا ينكر ذلك أحد و لا يخالفه «(٣)».

١- شفاء السقام: ص ٥٦.

٢- فتوح الشام ١: ٢٤٤، ط. دار الجيل، بيروت.

٣- الإبانه عن شريعه الفرق الناجيه، كما فى شفاء السقام: ص ٦٠.

إطباق السلف و الخلف على جواز السفر إليه

جرت سيره المسلمين على زياره الرسول- عند الوفود إلى الحج- بالمرور بالمدينه أو رجوعاً من مكه إليها، و هذا أمر ملموس و ظاهر مشهود من الوافدين من كل فج عميق، و على ذلك جرت السيره فى جميع القرون؛ فلا يمكن لأحد إنكارها، بل هى كاشفه عن استحبابها عند الشرع، و هذا هو الإمام السبكى يذكر سيره المسلمين فى أيام الحج و يقول: إنَّ الناس لم يزالوا فى كلِّ عام إذا قضوا الحجَّ يتوجَّهون إلى زيارته صلى الله عليه و آله و منهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه و شاهده من قبلنا، و حكاه العلماء عن الأعصار القديمه، و ذلك أمر لا- يرتاب فيه، و كلُّهم يقصدون ذلك و يرجون إليه، و إن لم يكن فى طريقهم، و يقطعون فيه مسافه بعيده، و ينفقون فيه الأموال، و يبذلون فيه المهج، معتقدين أن ذلك قربه و طاعه. و إطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض و مغاربها على ممّر السنين و فيهم العلماء و الصلحاء، و غيرهم يستحيل أن يكون خطأ، و كلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عزّ و جلّ، و من تأخر عنه من المسلمين فإنّما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير، مع تأسّفه و ودّه لو تيسر له، و من ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ.

و من نازع فى ذلك و قال فإنّهم يقصدون من سفرهم زياره المسجد، لا- زياره الرسول الأ-كرم، فلم ينصف و كابر فى أمر بديهى؛ فإنّ الناس من حين يرجون إلى طريق المدينه، لا يخطر ببالهم غير الزياره من القربات إلّا قليلاً منهم، و غرضهم الأعظم هو الزياره، و لو لم يكن ربّما لم يسافروا، و لهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسير إتيانه و ليس الصلاه فيه بأقل ثواباً من الصلاه فى مسجد النبىّ (١)».

حديث عدم شد الرحال إلّا إلى ثلاثة

لقد تجلّى جواز السفر إلى زياره النبي الأكرم و لم يبق فى المقام سوى ما رواه أبو هريره عن رسول الله من عدم شد الرحال إلّا إلى ثلاثة، و هو المستمسك الوحيد اليوم لمن يحرم السفر، و إليك توضيحه:

إنّ الروايه نقلت بصور مختلفه، و المناسب لما يرومه المستدلّ الصوره التاليه:

«لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، و المسجد الحرام، و المسجد الأقصى».

فتحليل الحديث يتوقّف على تعيين المستثنى منه و هو لا يخلو من صورتين:

١- لا تُشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلّا إلى ثلاثة مساجد...

٢- لا تُشدّ الرحال إلى مكان من الأمكنه إلّا إلى ثلاثة مساجد...

فلو كانت الأولى كما هو الظاهر، كان معنى الحديث النهى عن شدّ الرحال إلى أىّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، و لا يعنى عدم جواز شدّ الرحال إلى أىّ مكان من الأمكنه إذا لم يكن المقصود مسجداً، فالحديث يكون غير متعرض لشدّ الرحال لزياره الأنبياء و الأئمّه الطاهرين و الصالحين؛ لأنّ موضوع الحديث إثباتاً و نفيّاً هو المساجد، و أمّا غير ذلك فليس داخلًا فيه، فالاستدلال به على تحريم شدّ الرحال إلى غير المساجد، باطل.

و أمّا الصوره الثانيه: فلا يمكن الأخذ بها؛ إذ يلزمها كون جميع السفرات محرّمه سواء كان السفر لأجل زياره المسجد أو غيره من الأمكنه، و هذا لا يلتزم به أحد من الفقهاء.

ثمّ إنّ النهى عن شدّ الرحال إلى أىّ مسجد غير المساجد الثلاثة ليس نهياً تحريمياً، و إنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى فى سفر كهذا، و ذلك لأنّ المساجد

الأخرى لا تختلف من حيث الفضيله، فالمساجد الجامعه كلها متساويه فى الفضيله، فمن العبث ترك الصلاة فى جامع هذا البلد و السفر إلى جامع بلد آخر مع أنّهما متماثلان.

و فى هذا الصدد يقول الغزالي: «القسم الثانى، و هو أن يسافر لأجل العباده إِمَّا لِحَجِّ أو جهاد... و يدخل فى جملة زياره قبور الأنبياء عليهم السلام و زياره قبور الصحابه و التابعين و سائر العلماء و الأولياء، و كلّ من يُتبرَّك بمشاهدته فى حياته يُتبرك بزيارته بعد وفاته، و يجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، و لا يمنع من هذا قولهم صلى الله عليه و آله: «لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثه مساجد: مسجدى هذا، و المسجد الحرام، و المسجد الأقصى»، لأنّ ذلك فى المساجد؛ فإنّها متماثله (فى الفضيله) بعد هذه المساجد، و إلّا فلا فرق بين زياره قبور الأنبياء و الأولياء و العلماء فى أصل الفضل، و إن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله [\(١\)](#)».

يقول الدكتور عبد الملك السعدى: إنّ النهى عن شدّ الرحال إلى المساجد الأخرى لأجل أنّ فيه إتعاب النفس دون جدوى أو زياده ثواب؛ لأنّها فى الثواب سواء، بخلاف الثلاثه؛ لأنّ العباده فى المسجد الحرام بمائه ألف، و فى المسجد النبوى بألف، و فى المسجد الأقصى بخمسائه فزياده الثواب تُحبّب السفر إليها، و هى غير موجوده فى بقيه المساجد [\(٢\)](#)».

و الدليل على أنّ السفر لغير هذه المساجد ليس أمراً محرّماً، ما رواه أصحاب الصحاح و السنن: «كان رسول الله يأتى مسجد قبا راكباً و ماشياً فيصلّى فيه ركعتين» [\(٣\)](#)».

١- إحياء علوم الدين ٢: ٢٤٧، كتاب آداب السفر، ط دار المعرفه- بيروت.

٢- البدعه: ٦٠.

٣- مسلم، الصحيح ٤: ١٢٧؛ البخارى، الصحيح ٢: ٧٦؛ النسائى، السنن ٢: ١٣٧، المطبوع مع شرح السيوطى.

و لعلَّ استمرار النبيّ على هذا العمل كان مقترناً لمصلحه تدفعه إلى السفر إلى قبا و الصلاة فيه مع كون الصلاة فيه أقلّ ثواباً من الثواب في مسجده.

دراسه كلمه ابن تيميه في النهي عن شدّ الرحال

إنّ لابن تيميه في المقام كلمه فيها مغالطه واضحه؛ إذ مع أنّه قدّر المستثنى منه لفظ المساجد، إلّا أنّه استدلّ على منع شدّ الرحال لزياره قبور الأنبياء و الصالحين بمدلوله أى القياس الأولوى، فقال في الفتاوى:

«فإذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثه ليس بمشروع باتّفاق الأئمه الأربعة، بل قد نهى عنه الرسول صلى الله عليه و آله فكيف بالسفر إلى بيوت المخلوقين الذين تتخذ قبورهم مساجد و أوثاناً و أعياداً، و يشرك بها، و تدعى من دون الله، حتّى أنّ كثيراً من معظّميها يفضّل الحجّ إليها على الحجّ إلى بيت الله» (١).

و لوصحّ ذلك النقل عن ابن تيميه ففى كلامه أو هام شتى إليك بيانها:

١- قال: «إذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثه ليس بمشروع».

يلاحظ عليه: من أين وقف على أنّ السفر إلى غير المساجد الثلاثه محرّم؟! و قد عرفت أنّ النهى ليس تحريماً مولوياً، و إنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى، و لأجل ذلك لو ترتبت على السفر مصلحه لجاز كما عرفت فى سفر النبيّ إلى مسجد قبا مراراً.

٢- نسب عدم المشروعيه إلى الأئمه الأربعة، إلّا أنّنا لم نجد نصّاً منهم على التحريم، و وجود الحديث فى الصحاح لا يدلّ على أنّهم فسّروا الحديث بنفس ما فسّر به ابن تيميه.

١- الفتاوى كما فى كتاب البدعه للدكتور عبد الملك السعدى: ص ٦١.

و لا يخفى على الأئمة ظهور الحديث فى الدلالة على عدم الجدوى، لا كون العمل محرماً.

٣- أن عدم جواز السفر إلى غير المساجد الثلاثة لا يكون دليلاً على عدم جوازه إلى «ثبوتِ أذنِ الله أن تُزفَعَ وَ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» (١) إذ لا ملازمه بينهما؛ لأنه لا تترتب على السفر فى غير مورد الثلاثة أية فائدة سوى تحمّل عناء السفر، و قد عرفت أن فضيله أى جامع فى بلد، نفسها فى البلد الآخر، و ليس اكتساب الثواب متوقفاً على السفر، و هذا بخلاف المقام؛ فإنّ درك فضيله قبر النبى يتوقف على السفر، و لا يدرك بدونه.

٤- يقول: «إنّ المسلمين يتخذون قبور الأنبياء أو ثاناً و أعياداً و يشرك بها» «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» (٢) أ فمن يشهد كلّ يوم بأنّ محمداً عبده و رسوله، و يكرمه و يعظمه؛ لأنه سفير التوحيد و مبلغه - أ فهل - يمكن أن يتخذ قبره وثناً؟!

٥- يقول: «تدعى من دون الله» إنّ عباده الغير حرام لا مطلق دعوته، فعامة المسلمين حتى ابن تيميه يقولون فيصلاتهم: «السلام عليك أيها النبى و رحمه الله و بركاته». و المراد من قوله سبحانه: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحِداً» (٣) لا تعبدوا مع الله أحداً، قال سبحانه: «ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِبُونَ عَنْ عِبَادَتى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (٤) فسمى سبحانه دعوته: عباده. فإذا الدعوه على قسمين: دعوه عباديه؛ إذا كان معتقداً بألوهيه المدعو بنحو من الأنحاء، و دعوه

١- النور: ٣٦.

٢- الكهف: ٥.

٣- الجن: ١٨.

٤- غافر: ٦٠.

غير عباديه؛ إذا دعاه على أنه عبد من عباده الصالحين، يستجاب دعاؤه عند الله، و الدعوه بهذا النوع تؤكد التوحيد.

٦- نَقَلَ: «إِنَّ بعض المسلمين يفضّل السفر إلى تلك الأماكن على الحجّ إلى بيت الله» و هي فريه بلا- مريه؛ فليس على وجه البسيطه مسلم واع يعتقد بهذا و يعمل به.

٧- لو كان السفر إلى القبور أمراً محرّماً فلما ذاء شدّ النبيّ الرحال لزياره قبر أمّه بالأبواء و هي منطقه بين مكّه و المدينه، أفسار النبيّ - و العياذ بالله- مشركاً أو أنّ الروايه التي أطبق المحدثون على نقلها مكذوبه، و الله لا هذا و لا ذاك و إنما...

٨- إنّ ما ذكره من أسباب المنع تتحقّق للمجاور للقبر بدون شدّ الرحال، فاللازم منع ارتكاب المحرّمات عند قبره لا منع السفر إليه.

٩- احتمال أنّ المراد من زياره القبور (زوروا القبور) هو زياره جميع القبور بدون تخصيص لزياره قبر مشخّص، احتمال ساقط و ذلك لأنّ «ال» الجنسيه إذا دخلت على الجمع أبطلت جمعيتها و صار المراد بالمدخول أيّ فرد يتحقّق به جنس القبر، و يستوى في ذلك المفرد و الجمع.

١٠- كيف يقال ذلك مع أنّ السیده عائشه (رض) كانت تزور قبر أخيها عبد الرحمن بخصوصه «(١)» حتّى أنّ النبيّ يخصّ بعض القبور بالزياره، و قد وضع حجرات على قبر أخيه من الرضاعه عثمان بن مظعون و قال: «لتعرف بها قبر أخي» و لا ترتّب على التعرّف فائده سوى زيارته.

شبهات حول زياره الرسول الأكرم

المبحث الخامس شبهات حول زياره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

إشاره

استفاضت السنّه النبويه - كما مرّ - على استحباب زياره الرسول، و دلّت السيره القطعيه طوال القرون، المنتهيه إلى عصر الصحابه و التابعين، على أنّها من السنن المطلوبه، و أنّ شدّ الرحال إليها كشدّ الرحال إلى سائر الأمور المسنونه، و أكّد أعلام المذاهب على كونها أمراً قُرْبِيّاً، لذا فالتشكيك في جواز زياره الرسول أشبه بالتشكيك في أمر بيهي، و لا- غرو في التشكيك فيها، فقد شكك عدّه من فلاسفه الاغريق في أبده الأمور و أوضحها، حتّى شكّوا في كلّ شىء، بما في ذلك ذواتهم و أنفسهم، و تفكيرهم و تعقلهم، حتّى في حراره النار و بروده الماء، و لو لا قيام الحكماء الإلهيين كسقراط، و بعده أفلاطون و أرسطو، في وجوه هؤلاء المنسلخين عن الإنسانيه لعمّ الداء العياء وجه البسيطه.

و ما نذكره في المقام من الشبهه و التشكيكات لم يذكرها ابن تيميه في كتبه، و إنّما نقلها الإمام السبكي عن خطّه، و يجتريها أتباعه من دون وعى، و إليك بيانها و تحليلها.

الشبهه الأولى: فى تقسيم الزياره إلى شرعيه و بدعيه

إنّ زياره القبور على قسمين: زياره شرعيه، و زياره بدعيه؛ فالزياره الشرعيه يقصد بها السلام على الميّت و الدعاء له إن كان مؤمناً، و تذكّر الموت سواء أ كان الميت مؤمناً أم كافراً. و الزياره لقبر المؤمن نبياً كان أو غير نبى من جنس الصلاه على جنازته، يدعى له، كما يدعى إذاصُلّي على جنازته.

و أقميا الزياره البدعيه فمن جنس زياره النصارى مقصودها الإشراك بالميت، مثل طلب الحوائج منه أو به أو التمسّيح بقبره أو تقبيله أو السجود له و نحو ذلك.

فهذا كلّ لم يأمر الله به و رسوله و لا استحبّه أحد من المسلمين، و لا كان أحد من السلف يفعله، لا عند قبر النبى و لا غيره، و لا يسألون ميتاً و لا غائباً سواء كان نبياً أو غير نبى بل كان فضلاًؤهم لا يسألون غير الله شيئاً [\(١\)](#).

يلاحظ عليه: بأمرين:

١- حصر الزياره فى قسمين مع أنّها ذات أقسام كما سنذكر.

٢- إدخال الامور الجانيه، كالاستغاثه و السؤال به أو منه فى ماهيه الزياره مع أنّها ليست منها، فصار هذا و ذاك ذريعه لتبلور الشبهه لديه و لدى أتباعه. و ها نحن نذكر معنى الزياره و أقسامها؛ ليتبين أنّ القسم الأخير الذى يقصد فيها الإشراك لا يمت لزياره المسلمين قبور أكابر الدين بصله، و لعلّ الغايه من ذكره دعم الشبهه فى أذهان البسطاء.

فالزياره فى اللغه هى العدول عن جانب و الميل إلى جانب آخر، قال ابن فارس: «الزور» أصل واحد يدلّ على الميل و العدول، و من هذا الباب الزائر؛ لأنّه

١- شفاء السقام: ص ١٢٤-١٢٥، نقلًا عن خط ابن تيميه.

إذا زارك فقد عدل عن غيرك [\(١\)](#).

و يظهر من غيره أنه «بمعنى القصد» و هو لا- يخالف ما سبق؛ لأنَّ الميل إلى جانب لا ينفك عن القصد، قال الطريحي: زاره يزوره زياره: قصده فهو زائر، و في الحديث من زار أخاه في جانب المصر، أى قصد، و في الدعاء: اللهم اجعلنى من زوارك أى من القاصدين لك، الملتجئين إليك، و الزياره قصد المزور إكراماً له و تعظيماً و استثناساً به [\(٢\)](#).

و الظاهر كما يظهر من ذيل كلامه أن معناها ليس مجرد القصد بل القصد المنتهى إلى حضور الزائر لدى المزور لإحدى الغايات المذكوره فى كلامه، من التكريم و التعظيم و الاستثناس به.

هذا هو معنى الزياره، و ليس فيها شىء من الأمور التى ذكرها ابن تيميه، بل هى الحضور عن قصد لدى المزور لإحدى الغايات، و هى تختلف حسب اختلاف المزور شأنًا، و مقامًا، و مهنة.

نعم فى إمكان الزائر أن يزور الرسول لإحدى الغايات التاليه:

١- أن يزور الرسول صلى الله عليه و آله لمجرد تذكر الموت و الآخره، و هذا ثابت فى زياره جميع القبور من غير فرق بين الرسول و غيره، بل المؤمن و الكافر، و دلالة القبور على ذلك متساويه، كما أن المساجد- غير المساجد الثلاثه- متساويه لا يتعين شىء منها بالتعيين بالنسبه إلى هذا الغرض، و لا معنى لشد الرحال إلى المدينه لزياره الرسول لتلك الغايه المتحققه فى زياره كل قبر فى بلد الزائر النائي.

٢- أن يزور الرسول صلى الله عليه و آله للدعاء له، كما زار الرسول أهل البقيع، و هذا مستحب فى حق كل ميت من المسلمين، و يتحقق فى زيارته صلى الله عليه و آله إذا صلى عليه،

١- مقاييس اللغه ٣: ٣٦.

٢- مجمع البحرين ٢: ٣٠٤.

و طلب الدرجه الرفيعه له، كما ورد في الحديث: كان على عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ اعلِ على بناء البانين بناءه، و أكرم لديك نُزُلَه، و شَرِّفْ عندك منزلَه، و آتِه الوسيلَه، و أعطِه السناء و الفضيلَه، و احشُرنا في زمَرتَه» (١).

٣- أن يزور هصلى الله عليه و آله للتبرك به، لأنَّه ليس في الخلف أعظم بركه منه و هو حتى يرزق، و الصله بيننا و بينه غير منقطعه، و قد استفاضت الروايات على أنه يسمع كلامنا، و يرد سلامنا، بشهاده أنَّ عامَّه المسلمين يسلِّمون عليه في تشهدهم، و يخاطبونه بقولهم: السلام عليك أيها النبي و رحمه الله و بركاته.

٤- أن يزور هصلى الله عليه و آله لأداء حقِّه؛ فإنَّ من كان له حقُّ على الشخص فينبغي له برّه في حياته، و بعد موته و الزياره من جملة البرّ؛ لما فيها من الإكرام و ليس إنسان أوجب حقًّا على الأمّه من النبيّ. هذه هي الغايات المتصوّره في زياره النبيّ الأكرم.

و أمّا الزياره البدعيه التي تحدّث عنها ابن تيميه و أسماها بدعيه تاره و إشراكاً لله تعالى أخرى، فهو ممّا ابتدعتها ابن تيميه، و ليس بين المسلمين من يسوّى بين الله و رسوله، كما هو شعار المشركين، كما قال سبحانه حاكياً عنهم: «إِذْ نَسَوْنَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» (٢)، و المسلمون بعامّه طوائفهم براء من الشرك و سماته و قد عرف سبحانه أهل الشرك بسمه خاصّه مذكوره في آيتين، قال سبحانه: «ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» (٣).

و قال تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (٤) فلا تجد مسلماً عند ما يزور النبيّ تحت قبتّه الخضراء و في مسجده يكون على تلك الحاله أى إذا

١- نهج البلاغه، الخطبه ١٠٦.

٢- الشعراء: ٩٨.

٣- غافر: ١٢.

٤- الصافات: ٣٥.

دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرًا بِهِ، وَإِنْ يُشْرِكُ بِهِ يُؤْمِنُ بِهِ، أَوْ إِذَا سَمِعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ.

و لا أدرى كيف تجزأ الرجل و حكم بشرک قاطبه المسلمين بمجرد أنهم يطلبون منه الدعاء بعد رحيله، و کم منصحابي جليل، تكلم معه و طلب منه الدعاء بعد وفاته.

١- هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسبح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشه (رض) فتميم النبي صلى الله عليه و آله و هو مسجى ببرد حبره، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مئتها (١).

فلو لم تكن هنا كصله بين الحياتين فما معنى قوله: «أبى أنت يا نبي الله» فإن لم يسمع، فما ذا قصد ذلك الصحابي من قوله: «لا يجمع الله عليك موتتين».

٢- روى أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٠٨-٥٨١ هـ) في الروض الأنف: «دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشه و رسول الله مسجى في ناحيه البيت، عليه برد حبره، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه و آله ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت و أمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً» (٢).

٣- روى الحلبي على بن برهان الدين (٩٧٥-١٠٤٤ هـ) في سيرته و قال:

«جاء أبو بكر من السبح وعينهاه تهملان فقبل النبي صلى الله عليه و آله فقال: بأبي أنت و أمي طبت حياً و ميتاً» (٣).

٤- روى مفتي مكة المشرفه زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكره، و قال:

قال أبو بكر: طبت حياً و ميتاً، و انقطع بموتك ما لم ينقطع للأنبيا قبلك، فعظمت

١- البخارى، الصحيح ٢: ١٧، كتاب الجنائز.

٢- الروض الأنف ٤: ٢٦٠.

٣- السيره الحلبيه ٣: ٧٤، ط دار المعرفه، بيروت.

عن الصفه و جُلِّتْ عن البكاء، و لو أنّ موتك كان اختياراً، لُجِدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك و لنكن على بالك» (١).

٥- قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عند ما ولى غسل رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «بأبي أنت و أمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوه و الأنباء و أخبار السماء- إلى أن قال:- بأبي أنت و أمي اذكرنا عند ربك و اجعلنا من بالك» (٢).

إلى هنا تمّت الإجابة عن الشبهه الأولى، و أمّا ما ذكره فى ضمنها من أنّه ممّا لم يأمر به الله و لا رسوله فستوافيك الإجابة عنه فى تحليل الشبهه الثانيه.

الشبهه الثانيه: إنّ زياره النبى بدعه

«إنّ زياره النبى ليس مشروعاً و أنّه من البدع التى لم يستحبّها أحد من العلماء لا من الصحابه و لا من التابعين و من بعدهم».

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره فيها هو نفس ما ذكره فى ذيل الشبهه الأولى غير أنّه أضاف فى المقام كون الزياره بدعه.

نقول: إنّ البدعه عباره عن إدخال ما ليس من الدين فيه، و التصرّف فى التشريع بإيجاد السعه أو الضيق فيه، و هذا إنّما يتصور فيما إذا لم يكن فى المورد دليل، و قد عرفت تضافر السنّه النبويه، و السيره القطعيه المسلّمه بين المسلمين على زيارته، و مع هذا كيف يصحّ لمسلم واع تسميه تلك بدعه!؟

ثمّ إنّ السلفى يطلق على من يقفو أثر السلف، و قد عرفت أنّ السلف منذ

١- سيره زينى دحلان، بهامش السيره الحلبيه ٣: ٣٩١، ط مصر.

٢- نهج البلاغه: الخطبه ٢٣٥.

رحيل الرسول، دأبوا على زياره قبره و التبرّك به، حتّى أنّ الخليفتين أوصيا بدفنهما عند النبيّ، لما فيه من التبرّك بتربته، فأين وصف زيارته بالبدعه من عملصحابتهصلى الله عليه و آله؟ كما أنّه تضافر عن ابن عمر أنّه كان يأتي قبر النبيّ فيسلم عليه، و عن عمر بن عبد العزيز أنّه كان يبرد البريد لزياره الرسول نيابه عنه، و أنّ بلائاً شدّ الرحال إلى المدينه لزياره الرسول.

و إضافه ذلك فإنّ الحوار الدائر بين الإمام مالك و أبي جعفر المنصور، يكشف الغطاء، و يجلّي الحقيقه:

روى القاضى عياض فى الشفاء بإسناده عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد، فإنّ الله تعالى أدب قوماً، فقال: «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ» (١)، و مدح قوماً فقال: «إنّ الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله» (٢)، و ذمّ قوماً فقال: «إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات» (٣). و إنّ حرمة ميتاً كحرمة حياً، فاستكان لها أبو جعفر، و قال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة و أدعو، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه و آله؟ فقال: و لِمَ تصرف وجهك عنه و هو وسيلتك و وسيله أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله و استشفع به فيشفعه الله تعالى، قال الله تعالى: «و لو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله» (٤).

فانظر هذا الكلام من مالك رحمه الله و ما اشتمل عليه من الزياره و التوسّل

١- الحجرات: ٢.

٢- الحجرات: ٣.

٣- الحجرات: ٤.

٤- النساء: ٦٤.

بالنبي صلى الله عليه وآله و حسن الأدب معه «(١)».

و أمّا التبرّك بالقبر، أو القَسَم على الله بأحد من خلقه و الاستغاثة بالميت، فالكل خارج عن ماهية الزيارة، و إنّما هي أمور جانيبه؛ لا تكون سبباً لتسميه الزيارة بدعه، على أنّ الجميع جائز بدلاله الكتاب و السنّه، و ليست تربه النبي الأكرم بأقلّ من قميص يوسف؛ حيث تبرّك به يعقوب فعاد بصره، قال سبحانه:

«اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أُتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ... فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» «(٢)».

و ليس ضريح النبي و مدفنه بأقلّ كرامه من تابوت بنى إسرائيل و ما ترك آل موسى و آل هارون من قميص و عصي و غيرهما، و كان بنو إسرائيل يتبرّكون به فى الحروب قال تعالى: «وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَائِكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «(٣)» قال الرازى: إذا حضر (بنو إسرائيل) القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوّهم، و كانت الملائكة تحمله فوق العسكر و هم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت نصيحه استيقنوا بالنصر، فلما عصوا و فسدوا سلط الله عليهم العمالقه فغلبوهم على التابوت و سلّبوه، فلما سألوا نبيهم البينه على ملك طالوت قال ذلك النبي: إنّ آيه ملكه أنّكم تجدون التابوت فى داره «(٤)».

إنّ الاستغاثة بالنبي و الولي أحياء و أمواتاً ترجع إلى طلب الدعاء منهم؛ فلو لم

١- شفاء السقام: ٧٠.

٢- يوسف: ٩٣-٩٦.

٣- البقره: ٢٤٨.

٤- مفاتيح الغيب ٦: ١٧٧.

تكن للميت مقدره على الإجابة يكون العمل لغواً لا شركاً، و ليست الحياه و الموت حدّاً للتوحيد و الشرك حتى يكون خطاب الحى عين التوحيد، و خطاب الميت نفس الشرك.

على أنا قد ذكرنا استفاضه الأثر على أن الصحابه كانوا يستغيثون بنبيهم؛ نبي الرحمة و قد ذكر موارد فلاحظ «(١)».

الشبهه الثالثه: إن الزياره تؤدى إلى الشرك

هذه آخر ما فى كنانه الرجل من سهام مرشوقه و قد استدلل عليه بما لا يمت إلى مدعاه بصله، قال: إن من أصول الشرك اتخاذ القبور مساجد كما قال بعض السلف فى قوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» (٢) قالوا: كان هؤلاء قومًا صالحين فلمّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثمّصّوروا علىصورهم تماثيل، ثمّ طال عليهم الأمد فعبدوها.

يلاحظ عليه:

أنّ محور البحث هو الزياره على ما جرت عليه سيره السلف و الخلف، و لم تؤدّ طوال القرون الأربعة إلى الشرك، و لم تكن عكوفاً على القبور، و لا بتصوير تماثيلهم و عبادتهم مكان عباده الله، فأيصّله لهذا الكلام بمدعاه من تحريم الزياره.

إنّ زياره قبر نبيّ التوحيد و رسوله، دعم للمبدأ الذى جاء به، و تأكيد لصحّه رسالته التى كانت فى طريق تحطيم الوثنيه و عباده الأنداد و الأمثال المزعومه، فكيف تقع مثلها ذريعه إلى الشرك يا ترى!؟

١- راجع بحث التوسّل ص ٥٦٩ من هذا الكتاب.

٢- نوح: ٢٣.

يقول ابن زهره:

«فإنَّ التَّقْدِيسَ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالرَّسْلِ إِنَّمَا هُوَ لِفِكْرَتِهِمُ الَّتِي حَمَلُوهَا، فَالتَّقْدِيسُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَقْدِيسٌ لِلْمَعَانِي الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا، وَحُتَّ عَلَيْهَا فَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ مِنْ مُؤْمِنٍ عَرَفَ حَقِيقَةَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ يَكُونَ مَضْمَرًا لِأَيِّ مَعْنَى مِنَ مَعَانِي الْوَثْنِيَّةِ وَهُوَ يَسْتَعْبِرُ الْعَبْرَ، وَيَسْتَبْصِرُ بِبَصِيرَتِهِ عِنْدَ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ وَالرُّوْضَةِ الْمَنِيْفَةِ، فَإِذَا كَانَ خَوْفُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ مِنْ أَنْ يُؤَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْوَثْنِيَّةِ بِمَضَى الْأَعْصَارِ وَالذَّهْوَرِ فَإِنَّهُ خَوْفٌ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَزُورُونَ قَبْرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى أَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ ثُمَّ اسْتَمَرَّوْا عَلَى هَذِهِ السِّيَرَةِ فِي الْعَصُورِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَنْظُرْ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ نَظْرَهُ عِبَادَهُ أَوْ وَثْنِيَّةً، وَ لَوْ تَفَرَّطَ أَحَدٌ فَهُوَ مِنَ الْعَوَامِ وَ لَا يَمْنَعُ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتِ الْعَطْرَةَ، بَلْ يَجِبُ إِرْشَادُهُمْ لَا مَنَعَهُمْ مِنَ الزِّيَارَةِ وَ تَكْفِيرِهِمْ» (١).

قال الشيخ محمد زاهد الكوثري من علماء الأزهر الشريف:

«إِنَّ سَعَى ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي مَنَعَ النَّاسَ مِنْ زِيَارَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ كَامِنَهُ فِيهِ نَحْوُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَ كَيْفَ يَتَصَوَّرُ الْإِشْرَاقَ بِسَبَبِ الزِّيَارَةِ، وَ التَّوَسُّلَ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ فِي حَقِّهِ أَنَّهُ عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، وَ يَنْطَقُونَ بِذَلِكَ فِيصَلَاتِهِمْ نَحْوَ عَشْرِينَ مَرَّةً فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، إِدَامَةً لَذِكْرِي ذَلِكَ وَ لَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْعِلْمِ يَنْهَوْنَ الْعَوَامَ مِنَ الْبَدْعِ فِي كُلِّ شَأْنِهِمْ، وَ يَرْشُدُونَهُمْ إِلَى السُّنَّةِ فِي الزِّيَارَةِ وَ غَيْرِهَا إِذَا حَدَثَ مِنْهُمْ بَدْعٌ فِي شَيْءٍ، وَ لَمْ يَعْدُوهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ مُشْرِكِينَ بِسَبَبِ الزِّيَارَةِ أَوْ التَّوَسُّلِ، وَ أَوَّلُ مَنْ رَمَاهُمْ بِالْإِشْرَاقِ بِتِلْكَ الْوَسِيلَةِ هُوَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ وَ جَرَى خَلْفَهُ مَنْ أَرَادَ اسْتِبَاحَةَ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَ دِمَائِهِمْ لِحَاجَتِهِ فِي النَّفْسِ» (٢).

و أمَّا مَا رَوَاهُ إِمَامُ الْحَنَابِلَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ

١- كلام ابن زهره في كتابه حول حياه ابن تيميه.

٢- تكمله السيف الصقيل: ١٥٦.

لا- تجعل قبرى وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [\(١\)](#). فإن الحديث- إذا افتراضنا صحه الاحتجاج به- لاصله له بالزياره، و إنما يهيب بالذنين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، يصلون إليها- إذا اتخذوها قبله- أولها، إذا عبدوها، و يدل على ما ذكرنا ما روى أيضاً من أنه صلى الله عليه و آله قال: «اللهم لا تجعل قبرى يصلى إليه فإنه اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [\(٢\)](#).

«و كفى بزبك هادياً و نصيراً» [\(٣\)](#)

١- الإمام أحمد، المسند ٢: ٢٤٦.

٢- كنز العمال ٢/ ح ٣٨٠٢.

٣- الفرقان: ٢١.

خاتمه تذكره و إنذار

اشاره

إنّ لزياره العظماء و القديسين؛ أصحاب الرسالات آثاراً ايجابية تعود تاره إلى الزائر، و أخرى إلى المزور.

أمّا الأولى: فلأنّ الزياره صله بين الكامل و من يروم الكمال، فالدوام على مواصلته محاوله للتخلّق بأخلاقه، و أتباع منهجه و تجديد العهد معه، و لذلك لا تجد إنساناً وقف أمام قبر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و زاره إلّا و يتأثر بشخصه و شخصيته، و إن كان التأثير قليلاً مؤقتاً، فزيارتهم تقترن غالباً بذرف الدموع، و العطف و الحنان على المزور؛ و هي لا تنفك عن تحوّل نفسى و أخلاقى و حبّ و ودّ لهم، و بالتالى شعوره بقربه منهم، و مشاطرته لأهدافهم، إلى غير ذلك من الآثار الإيجابية التى تعود على الزائر و التى أشرنا إليها فى تمهيدنا الذى تصدّرت هذه الرساله به، و لا نعود إلى تلك الآثار التى تعود إلى الزائر.

أمّا الثانيه: أعنى الآثار الإيجابية التى تعود إلى المزور فهذا هو المقصود فى بياننا، و هو أنّ زياره العظماء هي تخليد لذكراهم، و تجسيد لرسالاتهم فى الأذهان، و بالتالى تكون سبباً لبقائهم أحياء فى كلّ عصر و قرن، لا يتسرّب إلى وجودهم و رسالاتهم و بطولاتهم أدنى ريب و شكّ، فبذلك يتجلّى المزور فى كلّ زمان حياً فى القلوب و فى المجتمع، كما لو كان موجوداً بشخصه فى زمن الزائر، فكأنّ الزيارة استمرار لبقائهم فى القلوب تُجلى الصدا عنها، و تتجليّ صحه وجودهم للخلف كما تجلّت للسلف، و تكون بمنزله الدليل على وجودهم و رسالاتهم و بطولاتهم.

فلو حذفنا زياره من قاموس حياتنا، و تركنا مزارهم، و أقفلنا أبواب بيوتهم، و لم نهتمّ بآثارهم طوال قرون، فقد جعلنا آثارهم فى مهبّ الفناء و التدمير،

و بالتالي التشكيك في أصل وجودهم وبعثهم، و بالتالي تصبح تلك الشخصيات بعد قرون أساطير تاريخيه للخلق، فيتلقون النبي و الإمام بل الأنبياء كلهم قصصاً تاريخيه نسجتها يد الخيال، كما هو الحال في كثير من القصص التاريخيه التي أصبحت تُروى على ألسن الأطفال و في المنتديات.

إنّ الإنسان الغربي يتمتع في حياته بكل ما هو غربيّ إلّا الدين و المذهب؛ فإنّ مذهبه شرقيّ؛ لأنّ المسيح وليد الشرق و مبعوثه سبحانه إلى أرض فلسطين و غيرها، و بما أنّ الغربي لا يجد أثراً ملموساً للمسيح في حياته فمثلاً ليس له قبر حتى يُزار و لا لأُمَّه قبر حتى يُنسب إليها، و لا لكتابه صور هصحيه يؤمن به، و لا لتلاميذه و حواريه آثار ملموسه، فلذلك صارت الديانه المسيحيه أسطوره تاريخيه في نظر الغرب و شبابه المثقفين بعد ألفي عام، و إن كان الشيوخ و العجايز يؤمنون به إيماناً تقليدياً لا علمياً، فالجدد منهم مسيحيون في هويّاتهم الشخصيه لا في هوياتهم العقليه و الفكريه، و ممّا أثر في ذلك هو فقدان كل أثر ملموس عن سيدنا المسيح في حياتنا البشريه، و لو لا أنّ القرآن الكريم جاء بذكره و رسالته و مواقفه لكان الشكّ متسرّباً إلى أذهاننا و أفكارنا.

و هذا بخلاف ما لو كان له أثر ملموس يُزار بين آن و آخر، و تشدُّ الرحال إليه عندئذٍ لكانت الديانه المسيحيه حيّه نابضه بلا شكّ و ريب.

و من الأسباب و الوسائل التي أضفت على الإسلام حيويه، و على نبيّه بقاءً في القلوب، و على مواقفه و بطولاته خلوداً في الأذهان و الضمائر، هو وفود المسلمين في كلّ شهرٍ و سنه إلى موطنه (مكّه) و مهجره (المدينه) و زياره قبره و آثاره و قبور أولاده و أصحابه، و مشاهده مولده و مبعثه و ما يمتُّ إليه بصله طوال حياته؛ حيث أضفت هذه الوفاده المستمره على وجوده و رسالته نوراً و ضياءً، و واقعيه تُذهب كلّ ريب و شكّ و تقرّ في النفوس عظمته و بطولاته.

و إذا كانت الذكرى ناقوساً يدقُّ في وادي النسيان يذكرك الحبيب و يرنُّ في أسماعك جماله و كماله، فزيارته و المثول أمام آثاره و عظمته تُؤثّر في خلوده و بقاءه في النفوس، و تزيل غبار النسيان عنه. لذا نرى أنّ الفقهاء أفتوا بأنّه يجب على الحاكم الإسلامي تجهيز المسلمين من بيت المال و إرسالهم إلى الحجّ إذا خلت الكعبة عن الزوّار لئلا تُنسى، و حتّى تبقى خالده في قلوب المسلمين و مهوى أفئدتهم، فكذلك قبور الأنبياء و المرسلين و في مقدّمتهم سيّدنا سيد الرسل نبينا الأكرم صلوات الله عليه و على آله و من تبعه بإحسان؛ و ذلك لأنّ هجر قبورهم و عدم الاهتمام بها تمهيداً لنسيانهم و رسالاتهم و بالتالي القضاء على الإسلام.

*** أخی القارئ الكريم؛ لقد عالجتُ مسألة الزيارة معالجه علميّه في ضوء القرآن و الحديث الصحيح و قضاء الفطره الإنسانيه، فلم يبق في رجحان الزيارة و استحبابها شرعاً شكّ و لا ريب، و قد تعرفت على آثارها الإيجابيه للزائر و المزور، و قد أرحنا بعض الأشواك الناميه في هذا الطريق، فعلى المشرفين على القبور و الأضرحة و نخصّ بالذكر قبر سيد البشر - عليه صلوات الله و سلامه - استقبال الوافدين عليها بوجوه مشرقه مرّحين بضيوف النبي مهيبين الأ-جواء الوديه المناسبه للزياره، و حشد كلّ الإمكانيات الماديه و المعنويه لإقامتهم في مدينه الرسول صلى الله عليه و آله إقامه مقرونه بالارتياح.

و لا- تفوتنا الاشاره هنا إلى واجب الخطباء و العلماء في إرشاد المسلمين و توجيههم إلى الآداب الصحيحه للزياره، و تذكيرهم بما ينفعم في الدنيا و الآ-خره، حتّى يتلقّى الزائر أنّ الحضور في مزاره الشريف و سيله للتذكّره به؛ و هي لا- تنفك عن العمل بشريعته و دينه و سنّته و التخلّق بأخلاقه.

الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وآله

الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وآله

لقد طال النزاع في الأوان الأخير عن طريق وسائل الإعلام وغيرها حول الاحتفال بمولد النبي الأكرم، وقد رفع بعضهم شعار البدعة فيه، بينما يرى الآكثرون أنه من السنّه. وإليك دراسته الموضوع في ضوء الأدلّه.

حبّ النبي أصل في الكتاب و السنّه

المعلوم أنّ العنصر المقوم للبدعه هو عدم الدليل على جواز العمل، فلو كان هناك دليل خاص على جواز العمل، أو دليل عام يشمل المصاديق المحدثه فليس ذلك ببدعه، وقد ذكرنا لك أمثله كثيره، و في ضوء ما ذكر نركّز في هذا الفصل على وجود دليل عام على الاحتفال بيوم ميلاده، و إن لم يكن هناك دليل خاص، و أمّا الدليل فكما يلي:

الحبّ و البغض خلتان تتواردان على قلب الإنسان، تشتدان و تضعفان، و لنشوءهما و اشتدادهما أو ضعفهما عوامل و أسباب. و لا شك أنّ حبّ الإنسان لذاته من أبرز مصاديق الحبّ، و هو أمر بديهي لا يحتاج إلى بيان، و جبلي لا يخلو منه إنسان.

و من هذا المنطلق حبّ الإنسان لما يرتبط به أيضاً؛ فهو كما يحبّ نفسه يحبّ كذلك كلّ ما يمت إليه بصله، سواء كان اتّصاله به جسمانياً كالأولاد و العشيره، أو معنوياً كالعقائد و الأفكار و الآراء و النظريات التي يتبنّاها، و ربّما يكون حبّه للعقيده أشدّ من حبّه لأبيه و أمّه، فيذبّ عن حياض العقيدته بنفسه و نفيسه، و تكون العقيدته أعلى عنده من كلّ شيء حتّى نفسه التي بين جنبيه.

فإذا كان للعقيدة هذه المنزلة العظيمة يكون لمؤسسها ومغذيها والدعاه إليها منزلة لا تقل عنها؛ إذ لو لا هم لما قام للعقيدة عمود، ولا اخضر لها عود، ولأجل ذلك كان الأنبياء والأولياء، بل جميع الدعاه إلى الأمور المعنوية والروحية محترمين لدى جميع الأجيال، من غير فرق بين نبي و آخر، ومصلح و آخر، فالإنسان يجد منصميم ذاته خضوعاً تجاههم، وإقبالاً عليهم.

ولهذا لم يكن عجباً أن تحترم، بل تعشق النفوس الطيبة، طبقه الأنبياء والرسل، منذ أن شرع الله الشرائع وبعث الرسل، فترى أصحابها يقدمونهم على أنفسهم بقدر ما أوتوا من المعرفة والكمال.

حَبَّ النَّبِيِّ فِي الْكِتَابِ:

ولوجود هذه الأرضية في النفس الإنسانية والفطره البشريه، تضافرت الآيات والأحاديث على لزوم حب النبي وكل ما يرتبط به، وليست الآيات إلماً إرشاداً إلى ما توحى إليه فطرته، قال سبحانه: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (١).

وقال سبحانه: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (٢).

ويقول سبحانه: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣).

١- التوبة: ٢٤.

٢- المائدة: ٥٦.

٣- الأعراف: ١٥٧.

فآلآيه الكريمه تأمر بأمر أربعه:

١- الإيما١ به.

٢- تعزيره.

٣- نصرته.

٤- أتباع كتآبه، و هو النور اللى أنزل معه.

و ليس المراد- هنا- من تعزيره؛ نصرته؛ لأنَّه قد ذكره بقوله: «و نَصِيْرُوْهُ» و إنما المراد توقيره، و تكريمه، و تعظيمه بما أنَّه نبي الرحمة و العظمة، و لا يختص تعزيره و توقيره بحال حياته، بل يعمها و غيرها، تماماً كما أنَّ الإيما١ به و التبعيه لكتآبه لا يختصان بحال حياته الشريفه.

هذه هي العوامل الباعثه إلى حب النبي صلى الله عليه و آله و هذه هي الآيات المرشده إلى ذلك.

و لأجل دعم المطلب نذكر بعض ما ورد من الروايات في الحث على حبه و مودته.

حب النبي صلى الله عليه و آله في السنه

قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

١- «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده و ولده و الناس أجمعين».

٢- «و الذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده و ولده».

٣- «ثلاث من كن فيه ذاق طعم الإيما١: من كان لا شىء أحب إليه من الله و رسوله، و من كان لئن يحرق بالنار أحب إليه من أن يرتد عن دينه، و من كان

يحبُّ لله و يبغض لله».

٤- «و الله لا يكون أحدكم مؤمناً حتّى أكون أحبّ إليه من ولده و والده».

٥- «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه».

٦- «من أحبّ الله و رسولَه صادقاً غير كاذب، و لقي المؤمنين فأحبهم، و كان أمر الجاهليه عنده كمنزله نار ألقى فيها، فقد طعم طعم الإيمان، أو قال: فقد بلغ ذروه الإيمان».

إنّ الذى يرى سعادته فيما جاء به رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله من شريعته و دين، هو الذى يذوق طعم الإيمان، و تذوق طعم الإيمان لا يتحقّق إلّا عند ما يستنّ الإنسان بسنّه رسول الله، و يعمل بشريعته فيحصل على سعادته.

٧- عن أبى رزين قال: قلت يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «أن تعبد الله و لا تشرك به شيئاً، و يكون الله و رسوله أحبّ إليك ممّا سواهما، و تكون أن تحرق بالنار أحبّ إليك من أن تشرك بالله شيئاً، و تحبّ غير ذى نسب لا تحبّه إلّا لله، فإذا فعلت ذلك فقد دخل حبّ الإيمان فى قلبك، كما دخل قلب الظمآن حبّ الماء فى اليوم القانظ».

٨- «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوه الإيمان: أن يكون الله و رسوله أحبّ إليه ممّا سواهما».

٩- عن أنس أنّ رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه و آله عن الساعه فقال: متى الساعه؟ قال:

«و ما أعددت لها؟» قال: لا- شىء، إلّا أتى أحبّ الله و رسوله، فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبيّ صلى الله عليه و آله: «أنت مع من أحببت».

١٠- أبو ذر قال: يا رسول الله، الرجل يحبّ القوم و لا يستطيع أن يعمل بعملهم؟ قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت». قال: فإنّى أحبّ الله و رسوله. قال:

«فإنك مع من أحببت»، قال: فأعاد (ها) أبو ذر، فأعادها رسول الله صلى الله عليه وآله.

١١- «من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة».

١٢- «والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لئن يراني أحب إليه من أهله و ماله معهم».

١٣- «إن أحدكم سيوشك أن يحب ينظر إلى نظره بما له من أهل و عيال».

١٤- «من أشد أمتي لي حُباً أناس يكونون بعدى؛ يودّ أحدهم لو رآني بأهله و ماله».

١٥- «أشد أمتي لي حُباً قوم يكونون بعدى يودّ أحدهم أنه فقد أهله و ماله و أنه رآني».

١٦- «إن أناساً من أمتي يأتون بعدى يودّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله و ماله».

١٧- «من دعا بهؤلاء الدعوات في دبر كل صلاة مكتوبه حلت له الشفاعة مني يوم القيامة: اللهم أعط محمدًا الوسيلة، و اجعل في المصطفين محبته، و في العالمين درجته، و في المقربين ذكر داره».

١٨- «من قال في دبر كل صلاة مكتوبه: اللهم أعط محمداً الدرجة و الوسيلة، اللهم اجعل في المصطفين محبته و في العالمين درجته، و في المقربين ذكره» من قال تلك في دبر كل صلاة فقد استوجب على الشفاعة، و وجبت له الشفاعة».

و قد روى عن أبي بكر قال: الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله أمحق للخطايا من الماء للنار، و السلام على النبي صلى الله عليه و آله أفضل من عتق الرقاب، و حب رسول الله صلى الله عليه و آله أفضل من عتق الأنفس أو قال: من ضرب السيف في سبيل الله عز و جل (١)».

١- راجع للوقوف على هذه الأحاديث و نظائرها جامع الأصول ج ١ نقلًا عن صحيح البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي، و كثر العمال ج ٢ و ٦ و ١٢.

اختلاف الأمة في درجات حبهم للنبي صلى الله عليه وآله

و ليست الأمة المؤمنه في ذلك شرعاً سواء، بل هم فيه متفاوتون على اختلاف درجات عرفانهم به كاختلافهم في حب الله تعالى.

قال القرطبي: «كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون؛ فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات، محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله و ولده و ماله و والده، و يبذل نفسه في الأمور الخطيره، و يجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا ترد فيه» (١).

مظاهر الحب في الحياه

إن لهذا الحب مظاهر؛ إذ ليس الحب شيئاً يستقر فيصقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان و تصرفاته، بل إن من خصائص الحب أن يظهر أثره على جسم الإنسان و ملامحه، و على قوله و فعله، بصورة مشهوده و ملموسه.

فحب الله و رسوله الكريم لا ينفك عن اتباع دينه، و الاستئان بسنته، و الإتيان بأوامره و الانتهاء عن نواهيه، و لا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله أشد الحب، و مع ذلك يخالفه فيما يبغضه و لا يرضيه، فمن ادعى حباً في نفسه و خالفه في

عمله، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

و لنعم ما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام فى هذا الصدد موجهاً كلامه إلى مدعى الحب الإلهى كاذباً:

تعصى الإله و أنت تُظهر حُبّه هذا لعمري فى الفعال بديع

لو كان حُبك صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعٌ [\(١\)](#)

للحبِّ مظاهر وراء الاتباع

نعم لا- يقتصر أثر الحبِّ على هذا، بل له آثار أُخرى فى حياه المحبِّ؛ فهو يزور محبوبه و يكرمه و يعظّمه و يقضى حاجته، و يذبّ عنه، و يدفع عنه كلّ كارثه و يهتئى له ما يريحه، و يسره إذا كان حياً.

و إذا كان المحبوب ميتاً أو مفقوداً حزن عليه أشدّ الحزن، و أجرى له الدموع كما فعل النبىّ يعقوب عليه السلام عند ما افتقد ولده الحبيب يوسف عليه السلام فبكاه حتى ابيضت عيناه من الحزن، و بقى كظيماً حتى إذا هبّ عليه نسيم من جانب ولده الحبيب المفقود، هسّ له و بشّ، و هفا إليه شوقاً و حبّاً.

بل يتعدى أثر الحبِّ عند فقد الحبيب و موته هذا الحدّ؛ فنجد المحبَّ يحفظ آثار محبوبه، و كلّ ما يتصل به، من لباسه و أشياءه، كقلمه و دفتره و عصاه و نظّارته، كما و يحترم أبناءه و أولاده، و يحترم جنازته و مثواه، و يحتفل كلّ عام بميلاده و ذكرى موته، و يكرمه و يعظّمه حبّاً به و مودّه له.

إلى هنا ثبت أنّ حبّ النبىّ و تكريمه أصل من أصول الإسلام لا- يصحّ لأحد إنكاره، و من المعلوم أنّ المطلوب ليس الحبّ الكامن فى القلب من دون أن

١- سفينه البحار، ماده «حب»

يرى أثره على الحياه الواقعيه، و على هذا يجوز للمسلم القيام بكل ما يعدّ مظهرًا لحبّ النبيّ، شريطه أن يكون عملاً حلالاً بالذات، و لا يكون منكراً فى الشريعه، نظير:

١- تنظيم السنّه النبويه؛ و إعراب أحاديثها، و طبعها، و نشرها بالصور المختلفه، و الأساليب الحديثه، و فعل مثل هذا بالنسبه إلى أقوال أهل البيت و أحاديثهم.

٢- نشر المقالات و الكلمات؛ و تأليف الكتب المختصره و المطوّله حول حياه النبيّ و عترته، و نظم القصائد بشتى اللغات و الألسن فى حقّهم، كما كان يفعله المسلمون الأوائل.

فالأدب العربى بعد ظهور الإسلام يكشف عن أنّ نظم القصائد فى مدح رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله كان ممّا يعبر به أصحابها عن حبّهم لرسول اللّٰه صلى الله عليه و آله. فهذا هو كعب بن زهير ينظم قصيده مطوّله فى مدح رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله منطلقاً من إعجابه و حبه له صلى الله عليه و آله، فيقول فى جملة ما يقول:

بانت سعاد قلبي اليوم متبولٌ متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

تُبئتُ أنّ رسولَ اللهِ أوعدنى و العفو عند رسولِ اللهِ مأمولٌ

و يقول:

مهلاً هداك الذى أعطاك نافله - القرآن فيها مواعظ و تفصيلٌ

إنّ الرسولَ لنورٌ يستضاء به مهتدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولٌ ^(١)

و قد ألقى هذه القصيده في حضره رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وأصحابه، و لم ينكر عليه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله.

و هذا هو حسان بن ثابت الأنصارى يرثى النبي صلى الله عليه وآله، و يذكر فيه مدائحه، و يقول:

بطيبه رسم للرسول و معهد منير و قد تعفو الرسوم و تحمد

إلى أن قال:

يدل على الرحمن من يقتدى به و ينقذ من هول الخزايا و يرشد

إمام لهم يهديهم الحق جاهداً معلماً صدق إن يطيعوه يسعدوا (١)

و هذا هو عبد الله بن رواحه ينظم أبياتاً في هذا السياق فيقول فيها:

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل خير في رسوله

يا رب إني مؤمن بقيله أعر فحق الله في قبوله (٢)

هذه نماذج مما نظمه الشعراء المعاصرون لعهد الرسالة في النبي الأكرم و نكتفي بها لدلالاتها على ما ذكرنا.

و لو قام باحث بجمع ما قيل من الأشعار و القصائد حول النبي الأكرم لاحتاج في تأليفه إلى عشرات المجلدات؛ فإن مدح النبي كان الشغل الشاغل للمخلصين و المؤمنين منذ أن لبى الرسول دعوه ربّه، و لا أظن أن أحداً عاش في هذه البسيطة، و نال من المدح بمقدار ما ناله الرسول صلى الله عليه وآله من المدح بمختلف الأساليب و النظم.

و هناك شعراء مخلصون أفرغوا فضائل النبي و مناقبه في قصائد رائعة و خالده، مستلهمين ما جاء في الذكر الحكيم و السنّه المطهره في هذا المجال، فشكر الله

١- السيره النبويه: ٢/ ٦٦٦

٢- السيره النبويه ٢: ٣٧١

مساعدتهم الحميده و جهودهم المخلصه.

٣- تقبيل كل ما يمت إلى النبي بصله؛ كباب داره، و ضريحه و أستار قبره، انطلاقاً من مبدأ الحب الذي عرفت أدلته. و هذا أمر طبيعي و فطري؛ فبما أن الإنسان المؤمن لا يتمكن بعد رحله النبي صلى الله عليه و آله من تقبيل الرسول صلى الله عليه و آله «(١)» فيقبّل ما يتصل به بنوع من الاتصال، و هو كما أسلفنا أمر طبيعي في حياه البشر؛ حيث يلتمون ما يرتبط بحبيبتهم و يقصدون بذلك نفسه. فهذا هو مجنون بنى عامر كان يقبل جدار بيت ليلي و يصرح بأنه لا يقبل الجدار، بل يقصد تقبيل صاحب الجدار، يقول:

أمر على الديار ديار ليلي أقبّل ذا الجدار و ذا الجدارا

فما حبّ الديار شغف قلبى و لكن حبّ من سكن الديارا «(٢)»

٤- إقامه الاحتفالات فى مواليدهم؛ و إلقاء الخطب و القصائد فى مدحهم، و ذكر جهودهم و درجاتهم فى الكتاب و السنّه، شريطه أن لا تقترن تلك الاحتفالات بالمنهيات و المحرّمات.

و من دعا إلى الاحتفال بمولد النبي فى أى قرن من القرون، فقد انطلق من هذا المبدأ، أى حبّ النبي الذى أمر به القرآن و السنّه بهذا العمل.

هذا هو الديار بكرى مؤلّف تاريخ الخميس يقول فى هذا الصدد: «لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، و يعملون الولائم، و يتصدّقون فى لياليه بأنواع

١- دخل أبو بكر حجره النبي صلى الله عليه و آله بعد رحيله و هو مسجّى ببرد حبره فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه يقبله ثم بكى فقال: بأبى أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أمّا الموته التى كتبت عليك فقد مّتها. لاحظ صحيح البخارى ١٧: ٢ كتاب الجنائز

٢- أغانى الأغانى ١: ١٤٦ ط. سوريا

الصدقات، و يظهرون السرور، و يزيدون في المبرّات، و يعتنون بقراءة مولده الشريف، و يظهر عليهم من كراماته كلّ فضل عظيم» (١).

و قال أبو شامه المقدسى في كتابه: «و من أحسن ما ابتدع!! في زماننا ما يفعل في اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه و آله من الصدقات و المعروف بإظهار الزينه و السرور؛ فإنّ في ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء شعاراً لمحبتّه» (٢).

أنا لا- أوافق الشيخ المقدسى في تسميته للاحتفال بالبدعه إلّا أن يريد البدعه بالمعنى اللغوى، كما أنّ الاحتجاج على حسن الاحتفال بالأعمال الجانيه من صدقات و معروف و إظهار الزينه...، فإنّ هذه الأمور الجانيه لا- تسوغ الاحتفال، و لا تضيف عليه صبغه شرعيه ما لم يكن هناك دليل في الكتاب و السنّه، و قد عرفت وجوده.

و قال القسطلانى: «و لا- زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام، و يعملون الولائم، و يتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، و يظهرون السرور، و يزيدون في المبرّات، و يعتنون بقراءة مولده الكريم، و يظهر عليهم من برّكاته كلّ فضل عظيم..

فرحم الله امرأ اتّخذ ليالى شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علّه على من في قلبه مرض و أعيى داء» (٣).

إذا عرفت ما ذكرناه فلا نظنّ أن يشكّ أحد في جواز الاحتفال بمولد النّبى الأكرم، احتفالاً دينياً فيه رضا الله و رسوله، و لا تصحّ تسميته بدعه؛ إذ البدعه هي التي ليس لها أصل في الكتاب و السنّه، و ليس المراد من الأصل؛ الدليل الخاص، بل يكفى الدليل العام في ذلك.

١- تاريخ الخميس ١: ٣٢٣.

٢- السيره الحليّه ١: ٨٣-٨٤.

٣- المواهب اللدنيه ١: ١٤٨.

و يرشدك إلى أنّ هذه الاحتفالات تجسيد لتكريم النبي، وجدانك الحرّ؛ فإنّه يقضى بلا مريه على أنّها إعلاء لمقام النبي و إشاده بكرامته و عظمته، يتلقاها كلّ من شاهدها عن كذب، على أنّ المحتفلين يعزّرون نبيهم و يكرمونه و يرفعون مقامه اقتداء بقوله سبحانه: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (١).

السنة النبويّة و كرامه يوم مولده

١- أخرج مسلم في صحيحه عن أبي قتاده أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله سئل عنصوم يوم الاثنين فقال: «ذاك يوم ولد فيه، و فيه أنزل عليّ» (٢).

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي - عند الكلام في استحبابصيام الأيام التي تتجدّد فيها نعم الله على عباده- ما هذا لفظه: «إنّ من أعظم نعم الله على هذه الأُمَّة إظهار محمد صلى الله عليه و آله و بعثه و إرساله إليهم، كما قال الله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» (٣) فصيام يوم تجددت فيه هذه النعمة من الله سبحانه على عباده المؤمنين حسن جميل، و هو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر» (٤).

٢- روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه و آله المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى و بنى إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيماً له، فقال النبي صلى الله عليه و آله: «فنحن أحقّ و أولى بموسى منكم» فصامه رسول الله صلى الله عليه و آله

١- الانشراح: ٤.

٢- مسلم ٢: ٨١٩.

٣- آل عمران: ١٦٤.

٤- لطائف المعارف: ٩٨.

و أمر بصومه «(١)».

وقد استدلل ابن حجر العسقلاني بهذا الحديث على مشروعيته الاحتفال بالمولد النبوي على ما نقله الحافظ السيوطي، فقال: «فيستفاد فعل الشكر لله على ما من به في يوم معين من إسداء نعمه، أو دفع نقمه، و يعاد ذلك، في نظير ذلك اليوم من كل سنة. و الشكر لله يحصل بأنواع العباده، كالسجود و الصيام و الصدقه و التلاوه، و أى نعمه أعظم من النعمه ببروز هذا النبى نبي الرحمه فى ذلك اليوم» «(٢)».

٣- و للسيوطى أيضاً كلام آخر نأتى بنصه، يقول: «وقد ظهر لى تخريجه على أصل آخر، و هو ما أخرجه البيهقى عن أنس أن النبي صلى الله عليه و آله عَقَّ عن نفسه بعد النبوه مع أنه قد ورد أن جدّه عبد المطلب عَقَّ عنه فى سابع ولادته، و العقيقه لا تعاد مرّه ثانيه، فيحمل ذلك على أن الذى فعله النبي صلى الله عليه و آله إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمه للعالمين و تشريع لأُمَّته كما كان يصلى على نفسه، لذلك فيستحبّ لنا أيضاً إظهار الشكر بمولده بالاجتماع، و إطعام الطعام، و نحو ذلك من وجوه القربات و إظهار المسرات» «(٣)».

٤- أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آيه فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً؟ فقال:

أى آيه؟ قال: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً» «(٤)».

فقال عمر: إئتى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، و المكان الذى نزلت فيه،

١- شرح صحيح مسلم مج ٤، ص ٧-٨، برقم ١١٣٠؛ و أخرجه البخارى ٧: ٢١٥.

٢- الحاوى للفتاوى ١: ١٩٦.

٣- المصدر نفسه.

٤- المائدة: ٣.

و رسول الله صلى الله عليه و آله قائم بعرفه يوم الجمعة «(١)».

و أخرج الترمذى عن ابن عباس نحوه و قال: فيه نزلت فى يوم عيد من يوم جمعه و يوم عرفه، و قال الترمذى: و هو صحيح «(٢)».

«و فى هذا الأثر موافقه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على اتخاذ اليوم الذى حدثت فيه نعمه عيذاً؛ لأنّ الزمان ظرف للحدث العظيم، فعند عود اليوم الذى وقعت فيه الحادثه كان موسماً لشكر تلك النعمه، و فرصه لإظهار الفرح و السرور» «(٣)».

نرى أنّ المسيح عند ما دعا ربّه أن ينزل مائده عليه و على حواريه قال: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلِيَانَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» «(٤)». فقد اتخذ يوم نزول النعمه الماديه التى تشبع البطون عيذاً، و الرسول الأكرم نعمه عظيمه منّ بها الله على المسلمين بميلاده، فلم لا تتخذ يوم فرح و سرور؟

الاستدلال بالإجماع

ذكروا أنّ أوّل من أقام المولد هو الملك المظفر صاحب إربيل، و قد توفى عام ٦٣٠ هـ، و ربما يقال أوّل من أحدثه بالقاهره الخلفاء الفاطميون، أوّلهم المعز لدين الله، توجه من المغرب إلى مصر فى شوال ٣٦١ هـ، و قيل فى ذلك غيره، و على أىّ تقدير فقد احتفل المسلمون حقباً و أعواماً من دون أن يعترض عليهم أحد،

١- البخارى ٨: ٢٧٠؛ كما أخرجه الترمذى فى ٥: ٢٥٠. و فى الروايات المتضافره أنّها نزلت فى الثامن عشر من ذى الحجه فى حجّه الوداع.

٢- البخارى ٨: ٢٧٠؛ كما أخرجه الترمذى فى ٥: ٢٥٠. و فى الروايات المتضافره أنّها نزلت فى الثامن عشر من ذى الحجه فى حجّه الوداع.

٣- بلوغ المأمول: ٢٩.

٤- المائده: ١١٤.

و على أى حال فقد تحقّق الإجماع على جوازه و تسويغه و استحبابه قبل أن يولد باذر هذه الشكوك، فلما ذا لم يكن هذا الإجماع حجّه؟ مع أنّ اتّفاق الأمّة بنفسه أحد الأدلّة، و كانت السيره على تبجيل مولد النّبىّ إلى أن جاء ابن تيميه، و عبد العزيز ابن عبد السلام «(١)»، و الشاطبى فناقشوا فيه و وصفوه بالبدعه، مع أنّ الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرنين أو قرون، أو ليس انعقاد الإجماع فى عصر من العصور حجّه بنفسه؟

أوهام و تشكيكات

إشارة

إنّ للقائلين بالمنع تشكيكات و شبهاً كلّها سراب، نذكرها بنصوصها:

أ- الاحتفال نوع من العباده

قال محمد حامد الفقى: «و المواليده و الذكريات التى ملأت البلاد باسم الأولياء هى نوع من العباده لهم و تعظيمهم» «(٢)».

يلاحظ عليه: أنّ العنصر المقوم لصدق العباده على العمل هو الاعتقاد بألوهيه المعظم له أو ربوبيّته، أو كونه مالكاً لمصير المعظم المحتفل، و أنّ بيده عاجله و آجله، و منافعه و مضارّه، و لا أقل بيده مفاتيح المغفره و الشفاعة.

و أمّا إذا خلا التعظيم عن هذه العناصر، و احتفل بذكرى رجل ضحى بنفسه و نفيسه فى طريق هدايه المحتفلين، فلا يعدّ ذلك عباده له، و إن أُقيمت له عشرات الاحتفالات، و أُلقيت فيها القصائد و الخطب.

١- هو عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الدمشقى ٥٧٧- ٦٦٠ هـ فقيه شافعى، له من الكتب «التفسير الكبير» و «مسائل الطريقه» و

غيرها أعلام الزركلى ٤: ٢١ ط دار العلم للملايين، بيروت.

٢- محمد حامد الفقى فى تعليقه على فتح المجيد: ص ١٥٤.

و من المعلوم أنّ المحتفلين المسلمين يعتقدون أنّ النبيّ الأكرم عبد من عباد الله الصالحين، و في الوقت نفسه هو أفضل الخليقه، و نعمه من الله إليهم، فلأجل تكريمه يقيمون الاحتفال أداءً لشكر النعمه.

ب- لم يحتفل السلف بمولد النبي

قال ابن تيميه: إنّ هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضى له، و عدم المانع منه، و لو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف- رضى الله عنهم- أحقّ به منّا، فانّهم كانوا أشدّ محبّه لرسول الله صلى الله عليه و آله و تعظيماً له منّا، و هم على الخير أحرص [\(١\)](#).

يلاحظ عليه: بما تعرّفت عليه في المبحث الرابع من أنّ المقياس في السنّه و البدعه هو الكتاب و السنّه و إجماع المسلمين أو السيره العمليه المتّصله بعصر النبيّ، و أمّا غير ذلك فليس له وزن و لا قيمه ما لم يعتمد على هذه الأصول الأربعة، و لم يكن السلف أنبياء و لا رسلاً، و ليس الخلف بأقلّ منهم، بل الجميع أمام الكتاب و أمام السنّه سواسيه، فلو كان هناك دليل من الكتاب و السنّه على جواز الاحتفال؛ فترك السلف لا- يكون مانعاً، على أنّ ترك السلف لم يكن مقارناً بتحريم الاحتفال أو كراهيته فغايه ما هناك أنّهم لم يفعلوا، و قد أمر الله بما في هذه الآيه:

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» [\(٢\)](#) و لم يقل في حقّ النبي «و ما تركه فانتهاوا عنه» فكيف الحال في حقّ السلف؟!

ج- إنّها مضاهاه للنصارى في ميلاد المسيح

يقول ابن تيميه: و كذلك ما يحدثه بعض الناس إمّا مضاهاه للنصارى في ميلاد المسيح عليه السلام، و إمّا محبّه للنبي و تعظيماً له و الله قد يشبههم على هذه المحبّه و الاجتهاد لا

١- اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٩٣-٢٩٤.

٢- الحشر: ٧.

على البدع «(١)».

يلاحظ عليه: أن ابن تيمية ليس على يقين بأن المسلمين يقيمون الاحتفال مضاهاةً للنصارى، أضيف إلى ذلك أن الأساس الذى يجب أن يبنى عليه عمل المسلم هو انطباق العمل على الكتاب و السنّه، فلا تكون المضاهاه مانعه عن أتباع الكتاب و السنّه، و إن افترضنا أن أوّل من احتفل، احتفل مضاهاةً إلا أن المحتفلين فى هذه القرون براء من هذه التهمه.

د- تخصيص المولد بيوم للاحتفال به بدعه!!

إنّ عموم الدليل يقتضى أن تكون جميع الأيام بالنسبه للاحتفال سواسيه، فتخصيص يوم واحد فى جميع البلاد بالاحتفال بدعه، و إن لم يكن أصل العمل بدعه «(٢)».

هذا هو الدليل الهام للقائلين بالمنع، و لكن الجواب عنه واضح، و ذلك لأنّ جميع الأيام بالنسبه إلى الاحتفال و إن كانت سواسيه إلا أنّ تخصيص يوم واحد للاحتفال به، لأجل خصوصيات فى ذلك اليوم، و ليست فى غيره إلا ما شدّ، و هو أنّ ذلك اليوم تشرف بولادته، فهو من أفضل الأيام، كما أنّ البقعه التى ضمت جسده الشريف هى من أفضل البقاع، و من ثمّ خصّ النبى الأكرم يوم الاثنين بفضيله الصوم، و بين أنّ سبب التخصيص هو أنه صلى الله عليه و آله ولد فيه، فصار كلّ ذلك سبباً لاختيار هذا اليوم دون سائر الأيام، نعم فى وسعهم الاحتفال فى غير هذا اليوم أيضاً، بل كلّ يوم أرادوا تكريم النبى و الاحتفال به.

ثمّ إنّ الذى نلفت نظر القائل بالمنع إليه، هو أنّه لم يقترن و لن يقترن ادعاء و ررود

١- اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٩٣.

٢- البدعه: ١٧.

الأمر الشخصي على هذا التخصيص، و إنما الكل يتفق على جواز الاحتفال في جميع الأيام، غير أن تخصيص ذلك اليوم هو لأجل خصوصيه كامنه فيه.

نعم من احتفل في مولد النبي و ادعى ورود الشرع به، أو حثه على هذا التخصيص فهو مبتدع، و لا أظن على أديم الأرض رجلاً يدعى ذلك.

و بعبارة موجزه؛ فإن كون الاحتفال بدعه رهن أمرين؛ و كلاهما منتفیان:

١- عدم الدليل العام على الاحتفال.

٢- ادعاء ورود الشرع بذلك اليوم الخاص و حثه عليه.

فعندئذ فلا معنى لادعاء البدعه.

هـ- الاحتفالات تشمل على أمور محرّمة

إن هذه الاحتفالات مشتمله على أمور محرّمة في الغالب، كاختلاط النساء بالرجال، و قراءه المدائح مع الموسيقى و الغناء «(١)».

يلاحظ عليه: أن هذا النوع من الاستدلال ينم عن قصور باع المستدل، و هذا يدل على أنه قد أعوزه الدليل، فأخذ يتمسك بالطحلب شأن الغريق المتمسك به.

فإن البحث في نفس مشروعيه العمل بحد ذاتها، و أما الأمور الجانيبه العارضه عليه فلا تكون مانعاً من الحكم بالجواز، و ما ذكره لا يختص بالاحتفال، بل كل عمل يجب أن يكون بعيداً عن المحرّمات، فعلى المحتفلين أن يلتزموا بذلك، و يجعلوا مجالسهم مهبطاً للنور.

و في الختام نركز على أمر؛ و هو أن الاستدلال على الجواز أو المنع بالأُمور الجانيبه خروج عن الاستدلال الفقهي، فإن الحكم بالجواز و المنع ذاتاً يتوقف على كون الشيء بما هو هو جائزاً أو ممنوعاً، و أما الاستدلال على أحدهما بالأُمور

الطارئه فليس استدلالاً صحيحاً.

و هناك نكته أخرى؛ و هي أنّ الاستدلال على الجواز بما جرت عليه سيره العقلاء من إقامة الاحتفالات على عظمائهم قياس مع الفارق، لأنّ الاحتفالات الرائجة بين العقلاء من الأمور العاديه، و الأصل فيها هو الحليه، و أمّا الاحتفال بمولد النبي فإنّما هو احتفال ديني، و عمل شرعي، فلا يقاس بتلك الاحتفالات، بل لا بدّ من طلب دليل شرعي على جوازه، و بذلك تقدر على القضاء بين أدلّه الطرفين.

نعم لا- يمكن أن ننكر أنّ ما يقيمه العقلاء من احتفال يؤثّر في نفوسنا و يحفزنا للإقبال على الاحتفال بمولد النبي، و في هذا الصدد يقول العلامة الأميني:

«لعلّ تجديد الذكرى بالمواليد و الوفيات، و الجرى على مراسم النهضات الدينيه، أو الشعبيه العامه، و الحوادث العالميه الاجتماعيه، و ما يقع من الطوارق المهمّه في الطوائف و الأحياء، بعد سنينها، و اتخاذ رأس كلّ سنه بتلك المناسبات أعياداً و أفراحاً، أو ماتمّ و أحزاناً، و إقامة الحفل السارّ، أو التابين، من الشعائر المطّرده، و العادات الجاربه منذ القدم، و دعمتها الطبيعه البشريه، و أسستها الفكره الصالحه لدى الأمم الغابره، عند كلّ أمّه و نحلّه، قبل الجاهليه و بعدها، و هلم جرّاً حتّى اليوم.

هذه مراسم اليهود، و النصرى، و العرب، فى أمسها و يومها، و فى الإسلام و قبله، سجّلها التاريخ فيصفحاته.

و كأنّ هذه السّئنه نزعه إنسانيه، تنبعث من عوامل الحبّ و العاطفه، و تسقى من منابع الحياه، و تتفرع على أصول التبجيل و التجليل، و التقدير و الإعجاب، لرجال الدين و الدنيا، و أفذاذ الملاء، و عظماء الأمّه إحياءً لذكراهم، و تخليداً لأسمائهم، و فيها فوائد تاريخيه اجتماعيه، و دروس أخلاقيه ضافيه راقيه، لمستقبل الأجيال،

و عظام و عبر، و دستور عملی ناجح للناشئه الجديده، و تجارب و اختبارات تولد حنكه الشعب، و لا تختص بجيل دون جيل، و لا بفئه دون فئه.

و أنّما الأيام تقتبس نوراً و ازدهاراً، و تتوشم بالكرامه و العظمه، و تكتسب سعداً و نحساً، و تتخذصيغه مما وقع فيها من الحوادث الهامه و قوارع الدهر و نوازله...» (١).

١- سيرتنا و سنتنا: ٣٨ - ٣٩ ط الثانيه.

الفصل الرابع صيانہ الآثار الإسلامیہ

اشارہ

تمهيد الآثار الإسلاميّة و نتائجها الإيجابيّة

الأُمم الحيّة المهتمّة بتاريخها تسعى إيصيانه كلّ أثر تاريخيّ لهصله بماضيها؛ ليكون آيةً على أصالتها و عراقتها في العلوم و الفنون، و أنّها ليست نبتة بلا جذور أو فرعاً بلا أصول.

و الأُمّة اليقظه تحتفظ بآثارها و تراثها الثقافيّ و الصناعيّ و المعمارّي، و ما له علاقة بماضيها ممّا ورثته عن أسلافها، صيانهً لكيانها و برهنهً على عزّها الغابر.

و قد دعت تلك الغايه الساميه الشعوب الحيّة لإيجاد دائره خاصّه في كلّ قطر لحفظ التراث و الآثار: من ورقه مخطوطه، أو أثر منقوش على الحجر، أو إناء، أو منار، أو أبنيه، أو قلاع و حصون، أو مقابر و مشاهد لإبطالهم و شخصياتهم الذين كان لهم دور في بناء الأُمّة و إداره البلد و تربيّه الجيل، إلى حدّ يُنفقون في سبيلها أموالاً طائله، و يستخدمون عمالاً و خبراء يبذلون سعيهم في حفظها و ترميمها و صيانتها عن الحوادث.

إنّ التراث بإطلاقه آيه رُقّي الأُمّة و مقياس شعورها و دليل تقدّمها في معترك الحياه. و لذلك نرى أنّ الشخصيه البارزه إذا زارت بلداً و حلّت فيه ضيفاً، يجعل في

برنامجها زياره المناطق الأثرية و المشاهد و المقابر العامره الّتى ضمّت جثمانَ الشخصيّات الّتى تنبضُ بالحياه الحاضره بتضحياتهم و مجاهدتهم من غير فرق بين دوله إلهيه أو علمائيه.

هذا هو موجز الكلام فى مطلق الآثار، و هلّمّ معى ندرس أهميهصيانه الآثار الإسلاميه الّتى تركها المسلمون من عصر الرسول إلى عصرنا هذا فى مناطق مختلفه.

لا شكّ أنّ كلّ أثر يمت للإسلام و المسلمین بوجه من الوجوه بصله، له تأثيره الخاصّ فى التدليل على أنّ للشريعه الإسلاميه وصاحبها حقيقه، و ليست هى ممّا نسجتُها يدُ الخيال أو صنعتها الأوهام.

و بعباره واضحه: أنّ الآثار المتبقّيه من المسلمین إلى يومنا هذا تدلُّ على أنّ للدعوه الإسلاميه و داعيها واقعيه لا تُنكر، و أنّه بُعث فى زمن خاصّ بشريعه عالميه، و بكتاب معجز تحدّى به الأمم، و آمن به لفيف من الناس.

ثمّ إنّه هاجر من موطنه إلى يثرب، و نشر شريعته فى الجزيره العربيه، ثمّ اتّسعت بفضل سعى أبطالها و معتنقيها إلى سائر المناطق، و قد قدّم فى سبيلها تضحيات، و تربّى فى أحضانها علماء و فقهاء و غير ذلك. فهذه آثارهم و مشاهدهم و قبورهم تشهد بذلك.

فصيانه هذه الآثار على وجه الإطلاق تُضفى على الشريعه فى نظر غير معتنقيها واقعيه و حقيقه، و تزيل عن وجهها أى ريب أو شكّ فيصحّ البعثه و الدعوه، و جهاد الأممه و نضال المؤمنین.

فإذا كانت هذه نتيجهُصيانتها؛ فإنّ نتيجة تدميرها و تخريبها أو عدم الاعتناء بها مسلماً عكس ذلك.

و ممّا يؤسف له أنّنا نرى الأممه الإسلاميه ابتليت فى هذا الأوان بأناس

جعلوا تدمير الآثار وهدمها جزءاً من الدين، و الاحتفاظ بها ابتعاداً عنه؛ فهذه عقليتهم و هذا مبلغ إدراكهم الذى لا يقل عن عقليه و إدراك الصبيان، الذين لا يعرفون قيمه التراث الواصل إليهم عن الآباء، فيلعبون به بين الخرق و الهدم و غير ذلك.

لا شك أن لهدم الآثار و المعالم التاريخيه الإسلاميه و خاصه فى مهد الإسلام؛ مكه، و مهجر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، المدينه المنوره، نتائج و آثاراً سيئه على الأجيال اللآحقه التى سوف لا تجد أثراً لوقائعها و حوادثها و أبطالها و مفكرها، و ربّما يؤول بها الأمر إلى الاعتقاد بأن الإسلام قضيه مفتعله، و فكره مبتدعه ليس لها أى أساس واقعى تماماً.

فالمطلوب من المسلمين أن يُكوّنوا لجنة من العلماء من ذوى الاختصاص؛ للمحافظه على الآثار الإسلاميه و خاصه آثار النبى صلى الله عليه و آله، و آثار أهل بيته، و العناية بها و صيانتها من الاندثار، أو من عمليات الإزاله و المحو، لما فى هذه العناية و الصيانه من تكريم لأمجاد الإسلام و حفظ لذكريات الإسلام فى القلوب و العقول، و إثبات لأصاله هذا الدين، إلى جانب ما فى أيدى المسلمين من تراث ثقافى و فكرى عظيم، و ليس فى هذا العمل أى محذور شرعى، بل هو أمر محبّد، اتفقت عليه كلمه المسلمين الأوائل كما سيوافيك، فالسلف الصالح و قفوا- بعد فتح الشام- على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ.. فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم و على رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أن يُهدم، و هكذا الحال فى سائر القبور المشيده بالأبنيه فى أطراف العالم. و إن كنت فى ريبٍ من هذا فاقراً تواريخهم، و على سبيل المثال إليك نصّ ما جاء فى دائره المعارف الإسلاميه:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعه من قبيله «لخم» النصرانيه

يقومون على حرم إبراهيم ب «حَبْرُون» (١) و لعلهم استغلوا ذلك ففرضوا أتاوه على حجاج هذا الحرم... و ربّما يكون لقب تميم الدارى نسبة إلى الدار أى الحرم، و ربّما كان دخول هؤلاء اللخميّين فى الإسلام؛ لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذى قدّسه المسلمون تقديس اليهود و النصارى من قبلهم (٢).

و جاء أيضاً فى ماده «الخليل»: يقول المقدسى- و هو أوّل من أسهب فى وصف الخليل:- إنّ قبر ابراهيم كانت تعلوه قُبّه بُنيت فى العهد الإسلامى. و يقول مجير الدين: إنّها سُئِدت فى عهد الأمويين، و كان قبر إسحاق مغطّى بعضه، و قبر يعقوب قبالة، و كان المقدسى أوّل من أشار إلى تلك الهبات الثمينه الّتى قدّمها الأمراء الوُرِعون من أقاصى البلاد إلى هذا الضريح، إضافةً إلى الاستقبال الكريم الّذى كان يلقاه الحجاج من جانب التميميين (٣).

و لو قام باحث بوصف الأبنيه الشاهقه الّتى كانت مشيّده على قبور الأنبياء و الصالحين قبل ظهور الإسلام و ما بناه المسلمون فى عصر الصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان لجاى بكتاب فخم ضخّم، و هو يكشف عن أنّ السيره الرائجه فى تلك الأعصار قبل الإسلام و بعده من عصر الرسول و الصحابه و التابعين لهم إلى يومنا هذا كانت هى العنايه بحفظ آثار رجال الدين، الكاشفه عن مشروعيه البناء على القبور، و إنّهُ لم ينس أى شخص فى رفض ذلك بنت شفهِ و لم يعترض عليها أحد، بل تلقّاها الجميع بالقبول و الرضا، إظهاراً للمحبّه و الوُدّ لأصحاب الرسالات و النبوات و أصحاب العلم و الفضل، و من خالف تلك السنّه و عدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين، قال

١- كلمه عبريه تعنى: مدينه الخليل.

٢- دائره المعارف الإسلاميه ٥: ٤٨٤ ماده تميم الدارى.

٣- دائره المعارف الإسلاميه ٨: ٤٣١.

سبحانه: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا»
 (١)».

و اليوم و بعد مضيّ عشرين قرناً على ميلاد السيد المسيح عليه السلام تحوّل المسيح و أمّه العذراء و كتابه الإنجيل و كذلك الحواريون، تحوّلوا- في عالم الغرب- إلى أسطوره تاريخيه، و صار بعض المستشرقين يشكّكون- مبدئياً- في وجود رجل اسمه المسيح و أمّه مريم و كتابه الإنجيل، و يعتبرونه أسطوره خياليه تشبه أسطوره «مجنون ليلي».

لما ذا؟

لأنّه لا يوجد أى أثر حقيقى و ملموس للمسيح، فمثلاً لا يُدرى- بالضبط- أين وُلِد؟ و أين داره التى كان يسكنها؟ و أين دفنوه بعد وفاته- على زعم النصارى أنّه قتل-؟

أمّا كتابه السماوى فقد امتدّت إليه يد التحريف و التغيير و التزوير، و هذه الأناجيل الأربعة لا تمتّ إليه بصله و ليست له، بل هي ل «متّى» و «يوحنا» و «مرقس» و «لوقا»، و لهذا ترى في خاتمتها قصّه قتله المزعوم و دفنه، و من الواضح- كالشمس في رائعه النهار- أنّها كتبت بعد غيابه.

و على هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين و المحقّقين أنّ هذه الأناجيل الأربعة إنّما هي من الكتب الأدبيّه التى يعود تاريخها إلى القرن الثانى من الميلاد، فلو كانت الآثار الخاصّه بعيسى محفوظه، لكان ذلك دليلاً على حقيقه وجوده و أصله حياته و زعامته، و ما كان هناك مجال لإثاره الشكوك و التساؤلات من قِبَل المستشرقين ذوى الخيالات الواهيه.

أمّيا المسلمون، فهم يواجهون العالم مرفوعى الرأس، و يقولون: يا أيها الناس لقد بُعثَ رجلٌ من أرض الحجاز، قبل ألف و أربعمائه سنة لقياده المجتمع البشرى، و قد حقّق نجاحاً باهراً فى مهمّته، و هذه آثار حياته، محفوظه تماماً فى مكّه و المدينه؛ فهذه الدار التّى وُلد فيها، و هذا غار حراء حيث هبط إليه الوحى و التنزيل فيها، و هذا هو مسجده الّذى كان يُقيم الصلاه فيه، و هذا هو البيت الّذى دُفن فيه، و هذه بيوت أولاده و زوجاته و أقربائه، و هذه قبور ذريّته و أوصيائه عليهم السلام.

و الآن، إذا قَضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده صلى الله عليه و آله و دلائل أصالته و حقيقته، و مهّداً السبيل لأعداء الإسلام ليقولوا ما يريدون.

إنّ هدم آثار النبوه و آثار أهل بيت العصمه و الطهاره ليس فقط إساءه إليهم عليهم السلام و هتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصله نبوه خاتم الأنبياء و معالم دينه القويم. إنّ رساله الإسلام رساله خالده أبدية، و سوف يبقى الإسلام ديناً للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة، و لا بدّ للأجيال القادمه - على طول الزمن - أن تعترف بأصالتها و تؤمن بقداستها. و لأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ - أبداً - على آثار صاحب الرساله المحمّديه صلى الله عليه و آله لكى نكون قد خَطَوْنَا خطوه فى سبيل استمراريه هذا الدين و بقاءه على مدى العصور القادمه، حتّى لا يشكك أحد فى وجود نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله كما شككوا فى وجود النبيّ عيسى عليه السلام.

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبيّ محمد صلى الله عليه و آله و سيرته و سلوكه، حتّى أنّهم سجّلوا دقائق أموره و خصائص حياته و مميّزات شخصيته، و كلّ ما يرتبط به كخاتمه، و حذائه، و سواكه، و سيفه، و درعه، و رمحه، و جواده، و إبله، و غلامه، و حتّى الآبار الّتى شرب منها الماء، و الأراضى الّتى أوقفها لوجه الله سبحانه، و الطعام المفضّل لديه، بل و كيفية مشيته و أكله و شربه، و ما يرتبط بلحيته المقدّسه و خضابه لها، و غير ذلك، و لا زالت آثار البعض منها باقيه إلى

يومنا هذا «(١)».

هذه كلمه موجزه عن هذا الموضوع و موقف العقلاء عامه و المسلمين خاصه منه، فهلمّ معي ندرس المسأله في ضوء الكتاب و السنّه حتّى تتجلى الحقيقه بأعلى مظاهرها، و نثبت أنصيانه قبور الأنبياء و الأولياء و الشهداء و تعميرها و تشييدها بقباب، هي ممّا دعا إليها الكتاب و السنّه النبويه و سيره المسلمين إلى أوائل القرن الثامن، عصر إثاره الشكوك حول هذا الموضوع و غيره، عصر ابن تيميه (٦٦١-٧٢٨هـ) الّذى أثار تلك الفكره لتفريق كلمه الأئمّه، و تلقى ذلك بالقبول وارث منهجه محمد بن عبد الوهاب النجدى (١١١٥-١٢٠٦هـ)، إلى أن أحيا منهج شيخه بعد الاندراس بفضل سيف آل سعود، و حمايتهم له لغايه فى نفوسهم لا تُنكر.

و سندرس الموضوع من خلال مباحث و لنقدّم ما تدلّ عليه من الآيات.

١- راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٣٦٠-٥٠٣ حول هذا الموضوع.

صيانته الآثار من منظار القرآن الكريم

المبحث الأول: صيانته الآثار من منظار القرآن الكريم

الآية الأولى: الإذن برفع بيوتٍ خاصه

إشاره

إذا كان لصيانته الآثار الإسلاميه ذلك التأثير الكبير المذى أتضح للقارئ فيما مرّ من التمهيد، فعلينا استنطاق كتاب الله حول هذا الموضوع حتى نقف على حكم الله فيه.

و سنشير هنا إلى الآيات ذات الصله الواضحه بالموضوع، و التي لا تتجاوز أربع آيات:

قال سبحانه: «فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (١).

و للمفسرين حول هذه الآية بحوث، منها: تعيين متعلق الظرف، أعنى قوله:

«فِي بُيُوتٍ»، فهل هو متعلق بما قبله، أى قوله سبحانه فى الآية المتقدمه عليها

«كَمْشِكَاهِ» أى المشكاه فى بيوت، أو هو متعلق بفعل مقدر يدل عليه لفظ «يُسَبِّحُ» فى الآية، و لا مانع من التكرار، أو متعلق بشىء آخر مثل قوله: سَبَّحُوا فى بيوت؟

و المهم بيان أمرين:

الأول: ما هو المراد من هذه البيوت التى أذن الله أن ترفع؟

الثانى: ما هو المراد من الرفع فيها؟

أمّا الأول، فالمفسرون فيه على أقوال:

١- المراد المساجد الأربعة.

٢- مطلق المساجد.

٣- بيوت النبى.

٤- المساجد و بيوت النبى.

و استفدنا هذه الأقوال من المصادر [\(١\)](#)، و المهم تعيين المراد منها وفق الموازين الصحيحة فى تفسير الآية.

١- أن القولين: الأول و الثانى مبيان عليصحه إطلاق البيت على المسجد، و لو صح ذلك لغه- و لن يصح كما سيوافيك- إلا أنه إطلاق شاذ، و لا يصح تفسير القرآن بالاستعمال الشاذ، و ذلك لأن البيت فى القرآن غير المسجد، فالمسجد الحرام غير بيت الله الحرام الذى جعله الله قياماً للناس [\(٢\)](#).

٢- أن البيت لا ينفك عن السقف لقوله تعالى: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ

١- الطبرى، التفسير، ١٨: ١١١-١١٢؛ الدر المنثور ٦: ٢٠٣؛ الكشاف ٢: ٣٩٠؛ الرازى، التفسير ٢٤: ٣؛ الجامع لأحكام القرآن ١٢:

٢٦٦؛ ابن كثير، التفسير ٣: ٢٩٢؛ روح البيان ٢: ١٥٨؛ محاسن التأويل ٧: ٢١٣؛ فتح البيان ٦: ٣٧٢؛ البحر المحيط ٦: ٤٥٨.

٢- المائدة: ٩٧.

تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ» (١)، وقال سبحانه: «وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» (٢)، وقال سبحانه: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» (٣).

فهذه الآيات تدلّ على أنّ البيت لا ينفك عن السقف، بخلاف المساجد فإنّها ربما تكون مكشوفة بلا سقف، وهذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً بلا سقف، ومعها كيف يمكن تفسير البيوت بالمساجد؟

٣- أنّ سورة النور التي وردت فيها هذه الآية تعنى بشأن البيوت عامه، ويقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» (٤) فقد تكرر في هذه الآيات ذكر البيوت ظاهراً و مستتراً سبع مرّات.

ثمّ إنّه سبحانه يسترسل في ذكر البيوت في الآية (٦١) ويقول: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ مَلَائِكَةِ مَفَاتِحِهِ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا

١- الأحزاب: ٣٣.

٢- الزخرف: ٣٣.

٣- النمل: ٥٢.

٤- النور: ٢٧ - ٢٩.

جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّهٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»
 «(١)» فقد ذكر فيها البيوت عشر مرّات.

فالآية قيد البحث وقعت بين هاتين الطائفتين من الآيات، أ فيصحُّ لنا أن نفسّر قوله «فِي بُيُوتٍ» بالمساجد مع هذه الآيات الكثيره
 التي تضمّنت استعمال البيت قبال المسجد؟

٤- إن من يُفسّر البيوت بالمساجد يعتمد على روايه موقوفه لابن عباس و مجاهد، لكنّها لا- تقاوم ما ورد مسنداً عن النبي
 الأكرم صلى الله عليه و آله:

روى الحافظ السيوطى قال: أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك و بريده:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: «فِي بُيُوتٍ أذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ قَالَ:

أَيُّ بُيُوتٍ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بُيُوتِ الْأَنْبِيَاءِ»، فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ هَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا- مَشِيراً إِلَى بَيْتِ عَلَى وَ
 فَاطِمَةَ- فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ: «نَعَمْ وَ مِنْ أَفْضَلِهَا» «(٢)».

و لأجل رجحان الحديث المسند على الموقوف، قال الألوسى فى تفسيره بعد نقل الحديث: و هذا إنصح لا ينبغى العدول عنه
 «(٣)».

و لأجل بعض ما ذكرنا قال أبو حيان: الظاهر أنّ البيوت مطلق يصدق على المساجد و البيوت التي تقع الصلاة فيها و هى بيوت
 الأنبياء «(٤)».

و قد روى عن الإمام أبى جعفر محمد بن على بن الحسين عليه السلام: أنّ المقصود

١- النور: ٦١.

٢- الدرّ المنثور ٦: ٢٠٣.

٣- روح المعانى ١٨: ١٧٤.

٤- البحر المحيط ٦: ٤٥٨.

بيوت الأنبياء و بيوت على عليهم السلام «(١)».

٥- إن القرآن الكريم يعتنى ببيوت النبي و أهلها، يقول سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» «(٢)» و يعتنى بأهلها و يقول: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً» «(٣)».

٦- و إذا راجعنا اللغة، نرى أن أصحاب المعاجم يفسرونه على وجه لا- ينطبق على المسجد، يقول الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، لأنه يقال: بات:

أقام بالليل، كما يقال: ظلّ بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، و جمعه أبيات و بيوت، لكن البيوت للمسكن أخصّ، و الأبيات بالشعر «(٤)».

و قال ابن منظور في اللسان: البيت معروف، و بيت الرجل داره، و بيته قصره، و منه قول جبرئيل عليه السلام: «بشّر خديجةً ببيت من قصب» أراد: بشرها بقصر من لؤلؤه مجوفه أو بقصر من زمرد «(٥)».

فهذه القرائن لو تدبّر فيها المفسّر لأذعن أن المراد من «بُيُوت» غير المساجد، سواء أريد منه المسجد الحرام و مسجد النبي و المسجد الأقصى و مسجد قبا، أو أريد مطلق المساجد.

٧- أضف إلى ذلك أن تفسير البيوت بالمساجد مروى عن كعب الأحبار، ذلك الحبر اليهودى المذى أدخل الإسرائيليات في السنن و الأحاديث، روى ابن كثير قال: قال كعب الأحبار: مكتوب في التوراه: «أن بيوتى فى الأرض

١- البرهان فى تفسير القرآن ٣: ١٣٧.

٢- الأحزاب: ٥٣.

٣- الأحزاب: ٣٣.

٤- المفردات: ٦٤ ماده بيت.

٥- اللسان ٢: ١٤ ماده بيت.

المساجد» (١)، و لوصح أن ابن عباس أخذه عن كعب الأحبار كما يدّعيه علماء الرجال في ترجمه كعب الأحبار فلعله أخذ منه، و مرويات كعب إسرائيليات لا يصح الاحتجاج بها.

غير أن ما تضافر عن النبي الأكرم خلاف ذلك، حيث قال: «جُعِلَت لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهْرًا» (٢)، فإذا كان جميع الأرض مسجداً لله تبارك و تعالی فيكون جميعها معبداً و مسجداً.

٨- و ربّما يتصور أن ذيل الآية الذي جاء فيه قوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ» قرينه على أن المراد من البيوت هي المساجد، و لكنّه غفَلَ عن أن شأن بيوت الأنبياء و الأولياء و الصالحين، شأن المساجد، فهم فيها بين قائم و راع و ساجد و ذاكر.

و قد اعتنى النبي الأكرم بشأن البيوت؛ فقد عقد مسلم باباً فيصحيحه لاستحباب إقامهصلاه النافله في البيت و روى فيه الروايات التاليه:

أ- عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و آله: «اجعلوا منصلاتكم في بيوتكم و لا تتخذوها قبوراً».

ب- عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و آله: «صلّوا في بيوتكم و لا تتخذوها قبوراً».

ج- عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً منصلاته فإن الله جاعل في بيته منصلاته خيراً».

د- عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه و آله: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه و البيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي و الميت».

١- ابن كثير، التفسير ٣: ٢٩٢.

٢- البخارى، الصحيح ١: ٩١ كتاب التيمم/ ح ٢؛ البيهقي، السنن: ٤٣٣ باب أينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد.

هـ- وعن زيد بن ثابت في حديث: «فعلیکم بالصلاه فی بیوتکم؛ فإنَّ خیر صلاه المرء فی بیته إلاَّ الصلاه المکتوبه» (١).

و- روى أحمد أن عبد الله بن سعد سأل رسول الله و قال: أيما أفضل: الصلاه فی بیتی أو الصلاه فی المسجد؟ فقال: «فقد ترى ما أقرب بیتی من المسجد، و لئن أصلّی فی بیتی أحبّ إلیّ من أن أصلّی فی المسجد إلاَّ أن تكون صلاه مکتوبه» (٢).

فهذه القرائن المؤكده ترفع الستار عن وجه المعنى؛ فإنَّ المراد من الآيه هو بيوت الأنبياء و بيوت النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و بيت عليّ عليه السلام و ما ضاهاها، فهذه البيوت لها شأنها الخاص؛ لأنها تخصُّ رجالاً يُسبِّحونه سبحانه ليلاً و نهاراً، عُذُواً و آصلاً، تعيش فيها رجال لا- تلهيهم تجارته و لا- بيع عن ذكر الله و إقام الصلاه، و إيتاء الزكاه و قلوبهم مليئه بالخوف من يوم تتقلب فيه القلوب و الأبصار.

ما هو المراد من الرفع؟

قد تعرّف على المقصود من البيوت، فهلمّ معي ندرس معنى الرفع، و من حسن الحظّ أنّ المفسّرين لم يختلفوا فيه اختلافاً موجباً لغموض المعنى؛ فقد ذكروا فيه المعنيين التاليين:

الأول: أنّ المراد من الرفع هو البناء، بشهادته قوله سبحانه: «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا» (٣)، و قوله سبحانه: «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ...» (٤).

١- مسلم، الصحيح ٢: ١٨٧-١٨٨ باب استتجار صلاه النافله في البيت.

٢- أحمد، المسند ٤: ٣٤٢.

٣- النزاعات ٢٧-٢٨.

٤- البقره: ١٢٧.

الثانى: أنّ المراد هو تعظيمها و الرفع من قدرها، قال الزمخشري: رَفَعَهَا: إمّا بناؤها؛ لقوله تعالى: «رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا» و «وَ إِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ...» أمر الله أن تُبنى، و إمّا تعظيمها و الرفع من قدرها «(١)».

و قال القرطبي: ترفع: تُبنى و تُغلى «(٢)».

و قال إسماعيل حقى البروسوى: أن ترفع: بالبناء، و التعظيم و رفع القدر «(٣)».

و قال حسنصديق خان: المراد من الرفع، بناؤها «أم السماء بناها رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا» و رفع ابراهيم القواعد من البيت، و ترفع أى تعظم و تطهر من الأنجاس عن اللغو و لها مجموع الأمرين «(٤)»، إلى غير ذلك من الكلمات المتشابهة، و لا حاجة إلى ذكرها، إنّما المهم بيان دلالة الآية و تحقيقها.

قد عرفت أنّ المراد من البيوت هو بيوت الأنبياء و العتره و الصالحين منصحابه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فالآيه تأذن أن تُبنى هذه البيوت بناءً حسيّاً و ترفع من قدرها رفعاً معنوياً، فهنا نستنتج من الآية أمرين:

١- أنّ المراد من رفع البيوت ليس إنشاؤها؛ لأنّ المفروض أنّها بيوت مبيته، بل المراد هو صيانتها عن الاندثار، و ذلك كرامه منه سبحانه لأصحاب هذه البيوت، فقد ترك المسلمون الأوائل بيوتاً للرسول الأكرم و العتره الطاهره و للصالحين منصحابته، و حرصتها الدول الإسلاميه طيله أربعه عشر قرناً، فعلى المسلمین قاطبه و الدول الإسلاميه عامّه بذل السعى فيصيانته عملاً بالآيه المباركه، و الحيلولة دون تهديمها بحجّه توسعه المسجد النبوى أو المسجد الحرام.

و لكن من سوء الحظّ، أو من تسامح الدول فى ذلك المجال أن هُدمت هذه

١- الكشاف ٢: ٣٩٠ بتصرف يسير بإضافه كلمه «أما».

٢- جوامع الأحكام ١٢: ٢٦٦.

٣- روح البيان ٦: ١٥٨.

٤- فتح البيان ٦: ٣٧٢.

البيوت و دمرت بمعاول الوهابيين، و من هذه البيوت بيت الحسين و الصادقين عليهم السلام فى محلّه بنى هاشم، فلا ترى لها أثراً، كما لا ترى من بيت أبى أيوب الأنصارى مُضَيَّفَ النَّبِيِّ الأكرم أثراً، و مثلها مولد النَّبِيِّ فى مكّه المكرّمه و غيرها.

فعلى المسلمين مسئوليّه إعاده هذه الأبنيه فى أماكنها عملاً بالآيه و رفع قدرها مهما أمكن، و لئنصارت الإعاده أمنيّه لا تُدرَك، ما دام السيف على هامه المسلمين فى أرض الوحي و التوحيد، لكنصيانته ما بقى منها فى مختلف الأقطار أمرٌ ممكن.

٢- أنّ قسماً من البيوت فى المدينه المنوره مقابر و مشاهد لهؤلاء، فقد دُفن النَّبِيُّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى بيته.

كما أنّ بيت العسكريين يعنى الإمام علياً الهادى و الحسن العسكري فى سامراء بمنزله مقابرهما و مشاهدهما، فليس لأحد قلعها بمعاول الجور باسم التوحيد، و أىّ توحيد أعلى و أجل ممّا دعا إليه الذكر الحكيم العذى يأمر بصيانته بيوت هؤلاء مطلقاً، سواء كانت مقابرهم أم لا.

بالله عليك أيها القارئ الكريم هل زرت بقية الغرقد مرآقد الأئمه و الصحابه و زوجات النَّبِيِّ و الشخصيات الإسلاميه الكبيره، و هل شاهدت قيام الحكومه بواجبها من رفع قدره و تنظيف أرضه، أم شاهدت نقيض ذلك؟! و قد كانت بعض هذه القبور بيوت الصحابه، و لعمري أنّ القلب ليحترق إذا رأى أنّ الوهابيين يتعاملون مع قبور أفلاذ كبد النَّبِيِّ و خيار أصحابه معاملة العدو مع العدو، و نعم من قال:

لعمري أنّ فاجعه البقيع يشيب لهولها فود الرضيع

لقد خرجنا من دراسه هذه الآيه بنتيجه خاصه، و هى أنصيانته بيوت الأنبياء و الأولياء أمر ندب الله سبحانه المسلمين إليه، سواء كان فيها قبر أم لا، و أنّ رفعها بالبناء، و صيانتها عن الانطماس، و تنظيفها عن الرجس و اللغو عمل بالشريعه المقدسه؛ حيث نزل به الوحي و سار عليه المسلمون فى جميع القرون.

الآيه الثانيه: اتخاذا المساجد على قبور المضطهدين فى سبيل التوحيد

اشاره

يذكر سبحانه قصه أصحاب الكهف، و أنهم اعتزلوا قومهم للحفاظ على عقيدتهم و دينهم، حتى وافاهم الأجل و هم فى الكهف، و قد أعر الله عليهم قوماً بعد ثلاثه قرون و أطلعهم عليهم، يقول سبحانه: «وَ كَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَبُيِّنُوا أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» (١).

و معنى الآيه أنا أعرنا على أصحاب الكهف أهل تلك المدينه ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق، فإن بعث هؤلاء بعد لبثهم فى كهفهم ثلاثمائه سنه و ازدادوا تسعاً دليل على إمكان الحياه الثانويه، ليعلموا أن الساعه لا ريب فيها.

ثم إن القوم الذين أعرهم الله على أجسادهم اتفقوا على تكريمهم، و لكن اختلفوا فى طريقه التكريم، كما يقول سبحانه: «إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ»، فظاهر المنازعه هو ما جاء بعد هذه الجملة بضميمه لفظه الفاء، فقال جماعه:

«ابنوا عليهم بُنياناً كبيراً، و يدل على الوصف تنكير «بُنياناً»، و قد صرح الجوهري و ابن منظور بأن البنيان بمعنى الحائط» (٢)، و لذلك فسره القاسمى بقوله: أى باب كهفهم بنياناً عظيماً كالحانقاهات (٣) و المشاهد

١- الكهف: ٢١.

٢- الصحاح ٦: ٢٢٨ ماده بناء؛ لسان العرب ١: ٥١٠ تلك ماده.

٣- الخانقات كلمه فارسىه مفردها: خانقاه و تعنى محل اجتماع الصوفيين و الدراويش. لغت نامه ٢٠: ١٦٩ بالفارسىه.

و المزارات المبيته على الأنبياء و أتباعهم «(١)»، تستر أجسادهم و تعظم أبدانهم، ربهم أعلم بهم.

و لكن قال آخرون و هم الذين غلبوا على أمر القائلين بالقول الأوّل و صار البلد تحت سلطتهم «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» و معبدًا و موضعًا للعباده و السجود يتعبّد الناس فيه ببركاتهم.

هذا هو الظاهر المستفاد من الآيه.

قال الرازي: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ» قيل: المراد به الملك المسلم و أولياء أصحاب الكهف، و قيل: رؤساء البلد، «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» نعبد الله، و ستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد «(٢)».

و قال أبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٥٤هـ): روى أنّ التي دعت إلى البنيان كانت، كافره؛ أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون و بنوا عليهم مسجداً «(٣)».

و قال أبو السعود (ت ٩٥١هـ): «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ» و هم الملك و المسلمون «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» «(٤)».

و قال الزمخشري في الكشاف: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ» من المسلمين و ملكهم و كانوا أولى بهم و بالبناء عليهم: ليتخذ على باب الكهف مسجداً يصلّي فيه المسلمون و يتبرّكون بمكانهم «(٥)».

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآيه، و كأنّ الاتفاق موجود على أنّ القول بإيجاد البنيان على باب الكهف كان لغير المسلمين، و القول ببناء المسجد

١- محاسن التأويل ٧: ٢١.

٢- مفاتيح الغيب ٢١: ١٠٥.

٣- البحر المحيط ٦: ١٠٩ ط. دار الكتب العلميه.

٤- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، التفسير ٥: ٢١٥.

٥- الكشاف ٢: ٢٤٥.

على بابه قول المسلمين، و الذي يدل على ذلك امران:

الأول: أن اتخذ المسجد دليل على أن القائل كان موحداً مسلماً غير مشرك؛ فأُيصله للمشرك ببناء مسجد على باب الكهف، و إذا كان المشركون يهتمون بعماره المسجد الحرام فلاجل أنه أنيط بالبيت كيانهم و عظمتهم في الأوساط العربيه، بحيث كان التخلّي عنها مساوقاً لسقوطهم عن أعين العرب في الجزيره كتكريمهم البيت الحرام.

أبعداً اتفاق أكابر المفسرين هل يصح لباحث أن يشك في أن القائلين ببناء المسجد على قبورهم كانوا هم المسلمين الموحدين؟!!

الثاني: ما رواه الطبري في تفسير قوله: «فَابْعَثُوا أَحِدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ» (١) قال: إن المبعوث دخل المدينة فجعل يمشى بين سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فزعاً و رأى أنه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة و يقول في نفسه: أما عشيّه أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلّا قتل، أما الغداه فأسمعهم و كل إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف!! ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف (٢).

و هذا يعرب عن أن الأكثرية الساحقه كانت موحده مؤمنه متدينه بشريعه المسيح، رغم كونهم على ضده قبل ثلاثائه سنه.

و قال في تفسير قوله تعالى: «فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتاً» (٣) فقال الذين أعتراهم على أصحاب الكهف: «ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتاً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» يقول: ربّ الفتية أعلم بشأنهم، و قوله: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ» يقول جلّ ثناؤه:

١- الكهف: ١٩.

٢- الطبري، التفسير ١٥: ٢١٩ في تفسير سوره الكهف، الآيه ١٩ ط. مصطفى الحلبي، مصر.

٣- الكهف: ٢١.

قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».

وقد نُقل عن عبد الله بن عبيد بن عمير: فقال المشركون: نبى عليهم بنياناً؛ فإنهم أبناء آبائنا و نعبد الله فيها، وقال المسلمون: نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبى عليهم مسجداً نصلى و نعبد الله فيه «(١)».

الرأى المسبق يضرب عرض الجدار

إنّ الشيخ الألبانى ريب الوهايتيه و مروّجها، لَمّا رأى دلاله الآيه على أنّ المسلمين حاولوا أن يبنوا مسجداً على قبورهم، و كان ذلك على طرف الخلاف من عقيدته، حاول تحريف الكلم و قال: إنّ المراد من الغالين هم أهل السلطه، و لا دليل على حجّيه فعلهم! و لكنّه عزب عن رأيه أنّ البيئه قد انقلبت عن الشرك إلى التوحيد و من الكفر إلى الإسلام حسبما نقله الطبرى، و ليس القائل ببناء المسجد على بابهم الملك، و إنّما القائل هم الذين توافدوا على باب الكهف عند ما أعرّهم سبحانه على أحوالهم، و طبع الحال يقتضى توافد الأ-كثريه الساحقه القاطنين فى المدينه على باب الكهف لا-خصوص الملك، و لا-وزراؤه، بل الموحدون بأجمعهم، و هو فى هذه النسبه عيال على ابن كثير حيث قال: و الظاهر أنّهم أصحاب النفوذ «(٢)».

نحن نفترض أنّهم أصحاب النفوذ، إلّا أنّهم نظروا إلى الموضوع من خلال منظار دينهم و مقتضى مذهبهم لا مقتضى سلطتهم.

تقرير القرآن على صحّه كلا الاقتراحين

إنّ الذكر الحكيم يذكر كلا الاقتراحين من دون أىّ نقدٍ ورد، و ليس صحيحاً

١- الطبرى، التفسير ١٥: ٢٢٥ و فى ط أخرى: ص ١٤٩؛ و لاحظ تفسير القرطبي و الكشاف للزمخشري و غرائب القرآن للنيسابورى فى ذيل هذه الآيه.

٢- ابن كثير، التفسير ٥: ٣٧٥.

قطعاً أن يذكر الله سبحانه عن هؤلاء الموجودين على باب الكهف أمراً باطلاً من دون أيّة إشاره إلى بطلانه؛ إذ لو كان كذلك كأن يكون أمراً محرّماً أو مقدّمه للشرك و الانحراف عن التوحيد، لكان عليه أن لا يمرّ عليها بلا إشاره إلى ضلالهم و انحرافهم، خصوصاً أنّ سياق الآيه بصدد المدح، و أنّ أهل البلد اتفقوا على تكريم هؤلاء الذين هجروا أوطانهم لأجل صيانته عقيدتهم، غايه الأمر اختلفوا في كفيته، فمن قائل ببناء البنيان إلى آخر قائل ببناء المسجد.

إنّ القرآن كتاب نزل لهدايه الإنسان و تربيّه الأجيال، و الهدف من عرض حياه الأمم و وقائعهم هو الاعتبار، فلا ينقل شيئاً إلّا فيه عبره، فلو كان الاقتراحان يمسّان كرامه التوحيد، لمّ سكت عنه!؟

و هذا ظاهر فيمن تدبّر في القرآن الكريم، و سيوافيك بقيه الكلام عند بيان النتيجة.

و لكن تعال معي لنقف على بعض ما قاله جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ) الذي كان يصوّر نفسه مصلحاً إسلامياً يسعى إلى توحيد كلمه المسلمين و لمّ شعثهم، و من شروط من يتبنّى لنفسه ذلك المقام الرفيع أن ينظر إلى المسائل من منظار وسيع، و يستقبل الخلاف بين المسلمين بسعه صدر، و لكنّه - عفا الله عنه - يريد توحيد الكلمه في ظلّ الأصول التي ورثها عن ابن تيميه، فزاد في الطين بلّه، و يشهد لذلك ما علّقه على عبارته ابن كثير.

قال ابن كثير بعد تفسير الآيه: هل هم كانوا محمودين أم لا؟ فيه نظر؛ لأنّ النبيّ قال: «لعن الله اليهود و النصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم و صالحهم مساجد» يحذّر ما فعلوا.

و قال جمال الدين: و عجيب من تردّده في كونهم غير محمودين، مع إيراد

الحديث الصحيح بعده المسجّل بلعن فاعل ذلك، و السبب في ذلك أنّ البناء على قبر النبيّ مدعاه للإقبال عليه و التضرّع إليه، ففيه فتح لباب الشرك، و توّسل إليه بأقرب وسيله... «(١)».

يلاحظ عليه: أنّ القرآن هو الحجّه الكبرى للمسلمين، و فيه تبيان لكلّ شىء، و هو المهيمن على الكتب، فإذا دلّ القرآن على جوازه فما قيمه الخبر الواحد المذى روى في هذا المجال إذا كان مضاداً للوحى، و مخالفاً لصريح الكتاب، و إن كانت السنّه المحمديّه الواقعيه لا- تختلف عنه قيد شعره، إنّما الكلام في الروايه التي رواها زيد عن عمرو حتّى ينتهي إلى النبيّ، فإنّ مثله خاضع للنقاش، و مرفوض إذا خالف الكتاب، لكن ما ذكره يعرب عن أنّ الأساس عنده هو الحديث لا الذكر الحكيم.

و كان عليه بعد تسليم دلالة القرآن أن يبحث في سند الحديث و دلالته، و أنّ الحديث على فرض الصحّه ناظر إلى ما كان القبر مسجوداً له، أو مسجوداً عليه أو قبله، و من المعلوم أنّ المسلمين لا يسجدون إلّا لله، و لا يسجدون إلّا على ماصح السجود عليه، و لا يستقبلون إلّا القبلة، و سيّضح نصّ محقّقى الحديث، على أنّ المراد هو ذلك، فانتظر.

و أعجب منه ما في ذيل كلامه: من أنّه رأى التوسّل بالنبيّ شركاً، مع أنّ النصوص الصحيحه في الصحاح تدلّ على جوازه، فقد توّسل الصحابي الضرير بالنبيّ الأكرم حسب تعليمه و قال: اللهمّ إنّي أسألك و أتوجه إليك بنبيك نبيّ الرحمه، يا محمد إنّي أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي لتقضى «(٢)».

١- محاسن التأويل ٧: ٣٠-٣١.

٢- الترمذى، الصحيح ٥: كتاب الدعوات، الباب ١١٩ / ح ٢٥٧٨؛ ابن ماجه، السنن ١: ٤٤١ / ح ١٣٨٥؛ الإمام أحمد، المسند ٤: ١٣٨، إلى غير ذلك من المصادر.

و قد اتَّفَقوا على صحَّه الحديث، حتَّى أن ابن تيميه - مُثِيرَ هذه الشكوك - اعترف بصحَّته و قال: و قد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبيّ أنّه علّم رجلاً يدعو فيقول: ...، و قد أوردنا نصوص القوم فى بحث «التوسّل» (١).

و من زعم أنّ هذه التوسّلات أساس الشرك، فلينظر إلى المسلمين طيله أربعة عشر قرناً؛ فإنّهم ما برحوا يتوسّلون بالنبيّ صلى الله عليه و آله، و ما عدلوا عن سبيل التوحيد قيد شعره.

إنّ إنشاء البناء على قبر نبيّ التوحيد تأكيدٌ على مبدأ التوحيد و رسالته العالميه التى يشكّل أصلها الأوّل قوله سبحانه: «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (٢).

و قد خرجنا عن هذه الدرسة بالنتيجتين التاليتين:

١- جواز البناء على قبور الأولياء و الصالحين و دعاه التوحيد فضلاً عن النبيّ، و ما ذلك إلّا أنّ القرآن ذكر ذلك من دون أن يغمض فيه، و ليس القرآن كتاباً قصصياً و لا مسرحياً للتمثيل، بل هو كتاب هدايه و نور، فإن نقل شيئاً و لم يغمض عليه فهو دليل على أنّه محمود عنده.

نرى أنّه سبحانه يحكى كيفيه غرق فرعون و يقول: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٣).

و لما كانت تلك الفكرة باطله عنده سبحانه، أراد إيقاف المؤمنين على أنّ الإيمان فى هذا الظرف غير مفيد، فلأجل ذلك عبّ عليه بقوله: «الآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (٤).

١- راجع ص ٦١١ من هذا الكتاب.

٢- النحل: ٣٦.

٣- يونس: ٩٠.

٤- يونس: ٩١.

فالإنسان العارف بالكتاب يقف على أنه لم يترك عليصعيد العقائد أموراً إلّا و ذكر أوضحها و بيّنها بطرق مختلفه، و من تلك الطرق القصص الوارده فى الكتاب العزيز؛ فكلّ ما وقع فى الأمم السالفه و صار القرآن بصدد ذكره فهو على أقسام ثلاثه: كونه بيّن الصّحه، أو بيّن البطلان، أو المرّدّد بين الأمرين.

فقد يترك البيان فى الأوّلين لعدم الحاجه، و أمّا الثالث فلا يتركه إلّا إذا كان مقبولاً لديه.

٢- جواز بناء المسجد على قبور الصالحين فضلاً عن الأنبياء و جواز الصلاه فيها و التبرّك بتربته، فلو كانت الصلاه فى المقابر مكروهه فالأدله المرغبه إلى الصلاه فى جوار الصالحين و الأنبياء تخصّص تلك العمومات؛ و ذلك لأنّ للصلاه فى مشاهدهم مصلحه تغلب على المضاضه الموجوده فى الصلاه فى المقابر المطلقه.

الآيه الثالثه: صيانه الآثار و تعظيم الشعائر

اشاره

قال سبحانه: «ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (١).

و الاستدلال بالآيه يتوقف على ثبوتصغرى و كبرى:

فالصغرى عباره عن كون الأنبياء و أوصيائهم و من يرتبط بهم أحياء و أمواتاً من شعائر الله، و الكبرى عباره عن كون البناء و صيانه الآثار و المقابر تعظيماً لشعائر الله.

و لا- أظن أن الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنما المهم بيان الصغرى، و أن الأنبياء و الأوصياء و ما يرتبط بهم من شعائر الله، و بيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر الله من الآيات:

١- «إِنَّ الصِّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» (٢).

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً» (٣).

٣- «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» (٤).

و فى آيه أخرى جعل مكان شعائر الله حرمت الله و قال:

«ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...» (٥).

١- الحَجِّ: ٣٢.

٢- البقره: ١٥٨.

٣- المائده: ٢.

٤- الحَجِّ: ٣٦.

٥- الحَجِّ: ٣٠.

ما هو المقصود من شعائر الله؟

هنا احتمالات:

١- تعظيم آيات وجوده سبحانه.

٢- معالم عبادته و أعلام طاعته.

٣- معالم دينه و شريعته، و كل ما يمت إليهما بصله.

أما الأول، فلم يقل به أحد؛ إذ كل ما فى الكون آيات وجوده، و لا يصح تعظيم كل موجود بحجّه أنه دليل على الصانع.

و أما الثانى؛ فهو داخل فى الآيه قطعاً، و قد عدّ الصّفا و المروّة و البُدن من شعائر الله، فهى من معالم عبادته و أعلام طاعته، إنّما الكلام فى اختصاص الآيه بمعالم العبادة و أعلام الطاعة، و لا دليل عليه، بل المتبادر هو الثالث، أى معالم دينه سبحانه، سواء كانت أعلاماً لعبادته و طاعته أم لا؛ فالأنبياء و الأوصياء و الشهداء و الصحف و القرآن الكريم و الأحاديث النبويّة كلّها من شعائر دين الله و أعلام شريعته، فمن عظّمها فقد عظّم شعائر الدين.

قال القرطبي: فشعائر الله، أعلام دينه، لا سيما ما يتعلّق بالمناسك [\(١\)](#).

و لقد أحسن حيث عمّم أولّماً، ثمّ ذكر مورد الآيه ثانياً، و ممّا يعرب عن ذلك أنّ إيجاب التعظيم تعلق ب «حرّات الله» فى آيه أُخرى.

قال سبحانه: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» [\(٢\)](#)، و الحرّات ما لا يحلّ انتهاكه، فأحكامه سبحانه حرّات الله؛ إذ لا يحلّ انتهاكها، و أعلام طاعته و عبادته حرّات الله؛ إذ يحرم هتكها، و أنبيأؤه و أوصياؤهم و شهداء دينه و كتبه و صحفه من حرّات الله، يحرم هتكهم، فلو عظّمهم المؤمن أحياناً

١- القرطبي، التفسير ١٢: ٥٦ طبع دار إحياء التراث.

٢- الحجّ: ٣٠.

و أمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ»، «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ».

الآية الرابعة: صيانه الآثار و موّده ذوى القربى

إنّ القرآن الكريم يأمرنا- بكلّ صراحة- بحبّ النبيّ صلى الله عليه و آله و أقربائه، و موّدتهم و محبّتهم فيقول:

«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (١) و «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (٢).

و من الواضح لدى كلّ من يخاطبه الله بهذه الآية أنّ البناء على مرآقد النبيّ صلى الله عليه و آله و أهل بيته عليهم السلام، هو نوع من إظهار الحبّ و الموّده لهم، و بذلك يخرج عن كونه بدعه، لوجود أصل له في الكتاب و السنّه، و لو بصورة كليّه.

و هذه العاده متّبعه عند كافه الشعوب و الأمم في العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من الموّده لصاحب ذلك القبر، و لذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسيه و العلميه في كنائس و مقابر مشهوره و يزرعون أنواع الزهور و الأشجار حولها.

١- المائده: ٥٦.

٢- الشورى: ٢٣.

المبحث الثاني: صيانه الآثار من منظار القواعد الفقهيّه**الأصل في الأشياء الإباحه والحليه**

إنّ الأصل في الأشياء هو الإباحه ما لم يرد فيها نهى في الشريعه، وهذه هي القاعده المحكمه التي اعتمد عليها الفقهاء عبر القرون إلّا المترمّتين غير الواعين.

حتّى أنّ الذكر الحكيم يصرّح بأنّ وظيفه النبيّ الأكرم هو بيان المحرّمات دون المحلّلات، وأنّ الأصل هو حليه كلّ عمل و فعل، إلّا أن يجد النبيّ حرّمته في شريعته، وأنّ وظيفه الأمّه هو استفراغ الوسع في استنباط الحكم من أدلّته، فإذا لم تجد دليلاً على الحرمة تحكّم عليه بالجواز.

و نكتفي في هذا المقام بالإشاره إلى مجموعه من الآيات، وإن كان في السنّه الغرّاء أيضاً كفايه:

١- قال سبحانه: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ

رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» (١).

فإن هذه الآيه تكشف عن أنّ العدى يحتاج إلى البيان إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولأجل ذلك لا وجه للتوقف في العمل، بعد ما لم يكن مبيّناً في جدول المحرّمات.

و بعبارة أخرى: أنّ المسلم إذا لم يجد شيئاً في جدول المحرّمات لم يكن له تبرير لتوقفه و عدم الحكم عليه بالإباحه و الجواز و الحليه.

٢- قال سبحانه: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (٢).

إنّها تكشف عن أنّ ما يلزم بيانه إنّما هو المحرّمات لا المباحات، و لذلك يستدلّ مبلغ الوحي - و نعى به النبيّ الكريم صلى الله عليه و آله - بأنه لا يجد فيما أوحى إليه محرّماً على طاعم يطعمه سوى الأمور المذكوره، فإذا لم يكن هناك منها شىء فهو محكوم بالحليه و الإباحه.

٣- قال سبحانه: «مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» (٣).

٤- قال سبحانه أيضاً: «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ» (٤).

إنّ دلالة هاتين الآيتين على المقام واضحه، فإنّ جملة «و ما كان» تاره تستعمل في نفي الشأن و الصلاحيه، و أخرى في نفي كون الشىء أمراً ممكناً.

١- الأنعام: ١١٩.

٢- الأنعام: ١٤٥.

٣- الإسراء: ١٥.

٤- القصص: ٥٩.

أما الأول، فمثل قوله: «ما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم» (١) و غيرها كسوره آل عمران «(٢)»، أى ليس من شأن الله سبحانه و هو العادل الرءوف أن يضيع إيمانكم.

و أمّا الثانى، فمثل قوله: «ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً» (٣)، أى لا- يمكن لنفس أن تموت بدون إذنه سبحانه.

فيكون معنى الآيتين بناءً على الاستعمال الأول: هو ليس من شأن الله تعالى أن يعذب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولاً.

و على الاستعمال الثانى: هو ليس من الممكن أن يعذب الله الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولاً.

و على كل تقدير، فدلاله الآيتين على الإباحه واضحه؛ إذ ليست لبعث الرسل خصوصيه و موضوعيه، و لو أنيط جواز العذاب ببعثهم فإنما هو لأجل كونهم وسائط للبيان و الإبلاغ، و الملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان و إبلاغ، و أن التعذيب بلا بيان و إبلاغ ليس من شأنه سبحانه، أو أنه ليس أمراً ممكناً حسب حكمته.

٥- قال سبحانه: «و ما أهلكنا من قومه إلا و لها كتاب معلوم» (٤).

فإن هذه الآيه مشعره بأن الهلاك كان بعد الإنذار و التخويف، و أن اشتراط الإنذار كناية عن البيان و إتمام الحجّه.

٦- قوله سبحانه: «و لو أننا أهلكناهم بعذابٍ من قبلة لقالوا ربنا لو لا أرسلت

١- البقره: ١٤٣.

٢- الآيات ٧٩ و ١٦١.

٣- آل عمران: ١٤٥.

٤- الشعراء: ٢٠٨.

إِنَّا رَسُولًا فَتَّبِعْ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَ وَ نَحْزَى» (١).

فإن هذه الآية تدل على أن التعذيب قبل بعث الرسول مردود بحجة المعذبين و هي قولهم: «لولا أرسلت إنا رسولا فتتبع آياتك»، فلا يصح التعذيب إلا بعد إتمام الحجة عليهم ببعث الرسل.

و هذا يعنى أن الأشياء مباحه جائزه الارتكاب خاليه عن العقوبه أصلاً، إلا إذا ردع عنها الشارع بشكل من الأشكال التي منها إرسال الأنبياء.

٧- قوله سبحانه: «يا أهيل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فتره من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير و نذير و الله على كل شئ قدير» (٢).

فإن ظاهر قوله: «ما جاءنا من بشير ولا نذير» أنه حجة تامه صحيحه، و يحتج به على كل من عذب قبل البيان، و لأجل ذلك قام سبحانه بإرسال الرسل حتى لا يحتج عليه، بل تكون الحجة لله سبحانه.

و هذا يدل على أنه لا يحكم على حرمه شئ ء، و لا يجوز التعذيب على ارتكابه قبل بيان حكمه؛ و ذلك لأن بعث البشير و النذير كناية عن بيان الأحكام.

١- طه: ١٣٤.

٢- المائدة: ١٩.

المشاهد و المقابر من خلال سيره المسلمين فى خير القرون

المبحث الثالث: المشاهد و المقابر من خلال سيره المسلمين فى خير القرون

اشاره

قد تعرّفت على قضاء الكتاب فى تكريم الأنبياء و الأولياء، و أنّ البناء على قبورهم أو بناء المساجد حول مراقدهم أمر محيّذ؛ ندبت إليه الشريعة الإلهية، و لم تر أى أثر فيها للتحريم، و على ذلك درج السلف الصالح عبر القرون، و لم يزل الإلهيون من أهل الكتاب و المسلمين على مدى العصور يهتمون بمقابر الأنبياء و الأولياء بالبناء و التعمير ثمّ التطهير و التنظيف لها، حتّى أنّ كثيراً من المتمكّنين يُخصّصون شيئاً من أموالهم لهذه الغايه.

فهذه القباب الشاهقه و المنائر الرفيعه و الساحات الوسيعة حول مراقد الأنبياء و الأولياء و حول مراقد صحابتهم فى مختلف الديار شرقها و غربها، لهى دليل قاطع على أنّ هذه السيره سيره مشروع، و إلّا كان على الصحابه الكرام و التابعين لهم يا حسان رفضها و ردّها بالبيان و البنان و السلطه و القوّه، و إلّا فالسكوت عليها إلى عصر إثاره هذه الشكوك، عصر ابن تيميه، أدلّ دليل على كونها سيره مشروع.

و عند ما قام ابن تيميه بوجه هذه السيره أثار نائره المسلمين ضدّه شرقاً و غرباً، و قد بينوا ضلاله تلك الفكره و انحرافها عن الشرع.

وقد وقف السلف الصالح - بعد فتح الشام - على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ، فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم - وعلى رأسهم عمر بن الخطاب - بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب هدمه.

وهكذا الحال في سائر القبور المشيَّده عليها الأبنية في أطراف العالم، وإن كنت في ريب فاقراً تواريخهم.

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقه التي كانت مشيَّده على قبور الأنبياء و الصالحين قبل ظهور الإسلام، و ما بناه المسلمون في عصر الصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا في مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أنّ السنّه الرائجه في تلك الأعصار قبل الإسلام و بعده، من عصر الرسول و الصحابه و التابعين لهم إلى يومنا هذا، هي مشروعته البناء على القبور و العناية بحفظ آثار علماء الدين، و لم ينس أي ابن أنثى حول ذلك بنت شفّه، و ما اعترض عليها، بل تلقّوها إظهاراً للمحبّه و الودّ لأصحاب الرسالات و النبوات و أصحاب العلم و الفضل، و من خالف تلك السنّه و عدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه:

«وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» (١).

وقد وارى المسلمون جسد النبيّ الأكرم في بيته المسقّف، و لم يزل المسلمون منذ واروا جثمانه، على العناية بحجرته الشريفه بشتى الأساليب.

وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً، حيث جاء تفصيل كلّ ذلك مع ذكر وصف الأبنية التي توالى عليها عبر القرون في الكتب المتعلّقه بتاريخ

المدينه، لا سيّما وفاء الوفا للإمام السمهودي المتوفى عام ٩١١ هـ «(١)»، و البناء الأخير الذى شيد عام ١٢٧٠ هـ قائم لم يمسه سوء، و سوف يبقى بفضل الله تبارك و تعالى محفوظاً عن الاجتراء.

و أمّا المشاهد و القباب المبيته فى المدينه منذ العصور الأولى فحدّث عنها و لا- حرج، لا سيّما فى بقيق الغرقد، و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ و أخبار المدينه.

و قد ذكر كثير من المؤرّخين و السيّاح شيئاً كثيراً من أبنيه شاهقه على قبور الأنبياء و الصالحين فى خير القرون.

و بدورنا نذكر شيئاً يسيراً ممّا جاء فى كتبهم، و نكتفى بذكر كلمات ثلاثه من المؤرّخين المعروفين بالتثبت و الضبط، ثم نذكر ما ذكره الرّحاله المعروف ابن جبير فى رحلته على وجه التفصيل:

١- كلمه المسعودى فى حقّ قبور أئمه أهل البيت عليهم السلام

هذا هو المسعودى الذى توفى عام (٣٤٥ هـ)، و قد أدرك خير القرون، و ولد فى أواخره- إذا كان خير القرون هو القرون الثلاثه الأولى- يقول:

و على قبورهم فى هذا الموضع من البقيع رخامه مكتوب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأمم و محيي الرمم، هذا قبر فاطمه بنت رسول الله عليهما السلام سيده نساء العالمين، و قبر الحسن بن عليّ بن أبي طالب، و عليّ بن الحسين بن أبي طالب، و محمّد بن عليّ، و جعفر بن محمد «(٢)».

١- وفاء الوفا ٢: ٤٥٨ الفصل التاسع.

٢- مروج الذهب و معادن الجواهر ٢: ٢٨٨.

٢- كلمة ابن الجوزى:

يقول ابن الجوزى: وهذا هو محمد بن أبى بكر التلمسانى يصف المدينة الطيبه و بقيق الغرقد فى القرن الرابع بقوله: و قبر الحسن بن على عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترفع إليه قليلاً، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن على، دفن إلى جنب أمه فاطمه رضى الله عنها و عنه «(١)».

٣- كلمة الحافظ محمد بن محمود بن النجار:

يقول: و القبران (أى قبر العباس بن عبد المطلب، و قبر الحسن بن على و معه السجاد و الباقر و الصادق عليهم السلام) فى قبه كبيره عاليه قديمه البناء فى أول البقيع، و عليها بابان يفتح أحدهما فى كل يوم للزياره رضى الله عنهم «(٢)».

٤- الرخاله ابن جبير و الأبنيه على المشاهد:**إشاره**

هذا هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى الشاطبى، أحد علماء الأندلس الأكاير فى الفقه و الحديث، يحكى لنا فى رحلته عن الأبنيه الرفيعه و القباب العاليه فى المشاهد و المزارات المعروفه يومذاك للأنبياء و الصالحين و النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و أهل بيته و صحابته و التابعين لهم بإحسان.

فقد قام برحلات ثلاث، أهمها استغرقت أكثر من ثلاث سنوات، حيث

١- مجله العربى: العدد السادس سنه ١٣٩٣ هـ.

٢- أخبار مدينه الرسول: ١٥٣ تحقيق صالح محمد جمال- ط. مكه المكرمه سنه ١٤٠١ هـ.

بدأها يوم الاثنين فى التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨هـ، و ختمها فى يوم الخميس الثانى و العشرين من شهر محرم سنة ٥٨١هـ، و قد وصف فى هذه الرحله ما مرّ به من مدن و ما شاهد من عجائب البلدان.

كما و عنى عنايه خاصه بوصف النواحي الدينيه و المساجد و المشاهد و قبور الأنبياء و الأولياء و أهل البيت و الصحابه و التابعين، و صفاً دقيقاً، يعرب عن أنّ هذه القباب و الأبنيه الرفيعه شُيّدت من قبل قرون تتّصل إلى عصر الصحابه و التابعين.

و لم يكن يومذاك أىّ معترض على بنائها فوق قبور هؤلاء، و لم يدر بِخَلَدِ أحد أنّ هذه القباب و الأبنيه ستبعدنا عن التوحيد، بل كانوا يتبرّكون بهذا العمل و يبدون ما فى مشاعرهم من وُدّ و حبّ لأصحابها.

و كان التبرّك و التقبيل سنّه رائجه بين المسلمين، و هم لم يكونوا يقبلون باباً و يتبرّكون بجدار، بل يتبرّكون بمن حوتهم، على حدّ قول مجنون بنى عامر:

أمّراً على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار و ذا الجدارا

و ما حبّ الديار شغفن قلبى و لكن حبّ من سكن الديارا

و فيما يلى نشير بشكل مقتضب إلى مجمل كلامه:

مشهد رأس الحسين بالقاهره:

يقول ابن جبير فى ذكر مصر و القاهره و بعض آثارها العجيبه: فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار و المشاهد المباركه التى ببركتها يمسكها الله عزّ و جلّ، فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهره حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، و هو فى تابوت فضّه مدفون تحت الأرض قد بُنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه و لا يحيط الإدراك به....

إلى أن يقول: و من أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل، شديد السواد و البصيص، يصف الأشخاص كلها، كأنه المرآة الهنديه الحديثه الصقل.

و شاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، و إحداهم به، و انكبأبهم عليه، و تمسحهم بالكسوه التى عليه، و طوافهم حوله، مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه و تعالى ببركه التربه المقدسه، و متضرعين ما يذيب الأكباد و يصدع الجماد، و الأمر فيه أعظم، و مرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركه ذلك المشهد الكريم «(١)».

مشاهد الأنبياء و أهل البيت فى مصر:

يقول ابن جبير عن الجبانه المعروفه بالقرافه: هى أيضاً إحدى عجائب الدنيا، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم، و أهل البيت رضوان الله عليهم، و الصحابه و التابعين و العلماء و الزهاد و الأولياء... فمنها قبر ابن النيصالح، و قبر روييل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين، و قبر آسيه امرأه فرعون رضى الله عنها، و مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين؛ مشاهد أربعة عشر من الرجال، و خمس من النساء «(٢)».

إلى أن يقول: مشهد على بن الحسين بن على ..، و مشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم، و القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور، رضى الله عنهم، و مشهدان لابنيه الحسن و الحسين رضى الله عنهما، و مشهد ابنه عبد الله بن القاسم ..، و مشهد ابنه يحيى بن القاسم، و مشهد على بن عبد الله بن القاسم، رضى الله عنهم، و مشهد أخيه عيسى بن

١- رحله ابن جبير: ص ١٨-١٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

٢- المصدر السابق.

يُخْتَلِ لِمَنْ يَطُوفُ عَلَيْهَا أَنَّهُ بِلَدِّ مُسْتَقِلِّ بِنَاتِهِ، بِإِزَائِهَا الْحَمَامُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مِرَافِقِهَا، وَ الْبِنَاءِ فِيهَا حَتَّى السَّاعَةِ، وَ النَّفَقَةِ عَلَيْهَا لَا تُحْصَى، تَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الزَّاهِدُ الْعَالِمُ الْمَعْرُوفُ بِنَجْمِ الدِّينِ الْجُبُوشَانِي.

وَ سُلْطَانُ هَذِهِ الْجِهَاتِ صَلَاحُ الدِّينِ، يَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَ يَقُولُ: زِدْ احْتِفَالًا وَ تَأْنِقًا وَ عَلَيْنَا الْقِيَامُ بِمَثُونِهِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَسَبْحَانَ الَّذِي جَعَلَ صَلَاحَ دِينِهِ كَاسْمِهِ «(١)».

ثُمَّ يَذْكَرُ مَشَاهِدَ أُخْرَى وَ يَقُولُ:

مَشْهَدُ الْمُزَيَّنِيصَاحِبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ أَشْهَبِصَاحِبِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِصَاحِبِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَشْهَدُ أَصْبَغِصَاحِبِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَشْهَدُ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ وَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَشْهَدُ الْفَقِيهِ الْوَاعِظِ الزَّاهِدِ أَبِي الْحَسَنِ الدِّينُورِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ بُنَانِ الْعَابِدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْعَابِدِ الزَّاهِدِ الْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ الْإِبْرِيْقِ، وَ قِصَّتُهُ عَجِيبَةٌ فِي الْكِرَامَةِ، مَشْهَدُ أَبِي مُسْلِمِ الْخَوْلَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْعَيْنَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مَشْهَدُ الرَّوْذِبَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الرَّشِيدِ الْمَعْرُوفِ بِالسَّبْتِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مُقْبِلِ الْحَبَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ ذِي النُّونِ ابْنِ إِبْرَاهِيمِ الْمَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ الْقَاضِي الْأَنْبَارِيِّ، قَبْرِ النَّاطِقِ الَّذِي سَمِعَ عِنْدَ وَضْعِهِ فِي لِحْدِهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مَبَارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزَلِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَشْهَدُ الْعُرُوسِ وَ لَهَا أَثَرٌ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي حَالِ جَلُوتِهَا عَلَى زَوْجِهَا لَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ مِنْهَا، مَشْهَدُ الصَّامِتِ الَّذِي يُحْكِي عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، مَشْهَدُ الْعَصَافِيرِيِّ، مَشْهَدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْخَوَارِزْمِيِّ، مَشْهَدُ الْفَقِيهِ الْوَاعِظِ الْأَفْضَلِ الْجَوْهَرِيِّ وَ مَشَاهِدُ أَصْحَابِهِ بِإِزَائِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، مَشْهَدُ شُقْرَانَ

شيخ ذى التون المصرى، مشاهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى، مشاهد المقرئ ورش، مشاهد الطبرى، مشاهد شيبان الراعى.

و المشاهد الكريمه بها أكثر من أن تُصَبَّط بالتقييد أو تتحصَّل بالإحصاء، و إنَّما ذكرنا منها ما أمكَّنَّا مشاهدتُه.

و بقبله القرافه المذكوره بسيط متَّسع يُعرف بموضع قبور الشهداء، و هم الذين استشهدوا مع ساريه رضى الله عن جميعهم، و البسيط المذكور مُسنَّم كَلَّه للعيان على مثال أسنمه القبور دون بناء «(١)».

القباب الرفيعه لأهل البيت فى مكَّه المكرَّمه:

و عن مشاهد مكَّه المكرَّمه يقول ابن جبير: فمن مشاهدها التى عاينَّاها قبه الوحى؛ و هى فى دار خديجه أُمُّ المؤمنين رضى الله عنها، و بها كان ابتناء النبيصلى الله عليه و آله بها، و قبهصغيره أيضاً فى الدار المذكوره فيها كان مولد فاطمه الزهراء رضى الله عنها، و فيها أيضاً ولدت سيدى شباب أهل الجنَّه؛ الحسن و الحسين رضى الله عنهما، و هذه المواضع المقدَّسه المذكوره مغلقه مصونه قد بنيت بناءً يليق بمثلها.

و من مشاهدها الكريمه أيضاً مولد النبيصلى الله عليه و آله، و التربه الطاهره التى هى أول تربه مسَّت جسمه الطاهر بُنى عليها مسجد لم يُر أحفل بناءً منه، أكثره ذهب منزَّل به، و الموضع المقدَّس الذى سقط فيهصلى الله عليه و آله ساعه الولاده السعيده المباركه التى جعلها الله رحمَةً للأُمَّه أجمعين محفوف بالفضه.

ثمَّ يعد بعض المشاهد فيقول: دار الخيزران؛ و هى الدار التى كان النبيصلى الله عليه و آله يعبد الله فيها سراً مع الطائفه الكريمه المباركه للإسلام من أصحابه رضى الله عنهم ... دار أبى بكر الصديق... قبه بين الصفا و المروه تنسب

١- رحله ابن جبير: ص ٢١-٢٢، ط. بيروت ١٩٨٦.

لعمر ابن الخطاب... «(١)» يقول ابن جبیر: دخلنا مولد النبي صلى الله عليه وآله، وهو مسجد حفيل البنيان و كان داراً لعبد الله بن عبد المطلب... إلى أن يقول: و على مقبره منه أيضاً مسجد عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، و فيه تربى رسول الله صلى الله عليه وآله، و كان داراً لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله و كافله «(٢)».

المشاهد المكرمه ببقيع الغرقد:

و في ذكر المشاهد المكرمه ببقيع الغرقد يقول ابن جبیر: فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزه رضى الله عنه، و هو بقبلى الجبل المذكور، و الجبل جوفى المدينة، و هو على مقدار ثلاثه أميال، و على قبره رضى الله عنه مسجد مبنى، و القبر برحبه جوفى المسجد، و الشهداء رضى الله عنهم بإزائه... و حول الشهداء تره حمراء هى التربه التى تنسب إلى حمزه و يتبرك الناس بها.

و بقیع الغرقد شرقى المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقیع، و أول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفیه عمه النبي صلى الله عليه وآله و آله أم الزبير بن العوام رضى الله عنه، و أمام هذه التربه قبر مالك بن أنس الإمام المدنى رضى الله عنه و عليه قبته صغيره مختصره البناء، و أمامه قبر السلاله الطاهره إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله و عليه قبه بيضاء، و على اليمين منها تره ابن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط، و هو المعروف بأبى شحمة، و هو العذى جده أبوه الحد، فمرض و مات، رضى الله عنهما، و بإزائها قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، و عبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه، و بإزائهم روضه فيها أزواج النبي صلى الله عليه وآله، و بإزائها روضه صغيره فيها

١- رحله ابن جبیر: ص ٨١-٨٢، ط. بيروت ١٩٨٦.

٢- لا يخفى على ذى بصيره أن ولاده أمير المؤمنين علي عليه السلام إنما كانت فى جوف الكعبه المشرفه، و هو من الشهره و الشيوخ بحيث لا يحتاج إلى ذكر مصادره.

ثلاثه من أولاد النبي صلى الله عليه وآله، و يليها روضه العباس بن عبد المطلب و الحسن بن علي رضي الله عنهما، و هي قبه مرتفعه في الهواء على مقربه من باب البقيع المذكور و عن يمين الخارج منه، و رأس الحسن إلى رجلى العباس رضي الله عنهما، و قبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مُغشَّيان بألواح ملصقه أبدع إصاق، مرصَّعه بصفائح الصُّفْر، و مكوكبه بمساميره على أبدعصفه و أجمل منظر، و على هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله، و يلي هذه القبه العباسيه بيت يُنسب لفاطمه بنت الرسول صلى الله عليه وآله، و يعرف ببيت الحزن، يقال: إنّه اللّدى أوت إليه و التزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله، و في آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي التورين رضي الله عنه، و عليه قبه صغيره مختصره، و على مقربه منه مشهد فاطمه ابنه أسد أمّ علي رضي الله عنها و عن بنيتها.

و مشاهد هذا البقيع أكثر من أن تُحصى؛ لأنّه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابه المهاجرين و الأنصار، رضي الله عنهم أجمعين، و على قبر فاطمه المذكوره مكتوب: ما ضمّ قبر أحد كفاطمه بنت أسد رضي الله عنها و عن بنيتها «(١)».

مشاهد الكوفه:

و يقول ابن جبير عن مسجد الكوفه:

و بهذا الجامع المكرّم آثار كريمه: فمنها بيت يازاء المحراب عن يمين المستقبل القبله، يقال: إنّه كان مصلى إبراهيم الخليل، و عليه ستر أسود صوناً له، و منه خرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبه، فالتاس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاه فيه، و على مقربه منه ممّا يلي الجانب الأيمن من القبله، محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع عنصحن البلاط كأنّه مسجد صغير، و هو محراب أمير

المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، و فى ذلك الموضع ضربه الشقىّ اللعين عبد الرحمن ابن ملجم بالسيف، فالناس يصلّون فيه باكين داعين، و فى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلىّ، المتّصل بآخر البلاط الغربىّ، شبيه مسجد صغير محلّق عليه أيضاً بأعواد الساج، هو موضع مفار التّور الذى كان آيةً لنوح عليه السلام، و فى ظهره، خارج المسجد، بيته الذى كان فيه، و فى ظهره بيت آخر يقال إنّ كان متعبّد إدريس عليه السلام، و يتّصل بهما فضاء متّصل بالجدار القبلى من المسجد، يقال إنّ منشا السفينه، و مع آخر هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، و البيت الذى غسل فيه، و يتّصل به بيت يُقال إنّ كان بيت ابنه نوح عليه السلام.

و هذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، و الله أعلم بصحّه ذلك كلّه.

و فى الجهة الشرقيه من الجامع بيت صغير يُصعد إليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه، و فى غربى المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، و حيث بركت ناقته و هو محمول عليها مسجى ميتاً على ما يُذكر، و يقال: إنّ قبره فيه «(١)».

قبور العلماء و الأولياء المشيّد به بغداد:

يقول ابن جبير:

و بإحدى هذه المحلّات قبر معروف الكرخى، و هو رجل من الصالحين مشهور الذكر فى الأولياء، و فى الطريق إلى باب البصره مشهد حفيل البنيان داخله قبر متّسع السنّام، عليه مكتوب: هذا قبر عون و معين، من أولاد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، و فى الجانب الغربى أيضاً قبر موسى بن جعفر، رضى الله عنهما.

١- رحله ابن جبير: ١٦٨-١٦٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

إلى مشاهد كثيره ممن لم تحضرنا تسميته من الأولياء و الصالحين و السلف الكريم، رضى الله عن جميعهم.

و بأعلى الشرقيه خارج البلد محلّه كبيره بإزاء محلّه الرّصافه، و بالرّصافه كان باب الطّاق المشهور على الشّطّ، و فى تلك المحلّه مشهد حفيل البنيان؛ له قبه بيضاء ساميه فى الهواء؛ فيه قبر الإمام أبى حنيفه رضى الله عنه، و به تعرف المحلّه، و بالقرب من تلك المحلّه قبر الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، و فى تلك الجهه أيضاً قبر أبى بكر الشّلبى رحمه الله، و قبر الحسين بن منصور الحلاج، و ببغداد من قبور الصالحين كثير، رضى الله عنهم [\(١\)](#).

المشاهد المكرّمه و الآثار المعظمه فى الشام:

يقول ابن جبير:

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكريا عليه السلام، و هو مدفون بالجامع المكرّم فى البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من المقصوره الصحابيه [\(٢\)](#)، رضى الله عنهم، و عليه تابوت خشب معترض من الأستوانه، و فوقه قنديل كأنه من بلور مجوّف، كأنه القدح الكبير، لا يُدرى أمن زجاج عراقى أمصورى هو أم من غير ذلك.

و مولد إبراهيم صلى الله عليه و سلّم و على نبينا الكريم، و هو بصفح جبل قاسيون عند قريه تُعرف بِبِرْزَه؛ و هى من أجمل القرى، و هذا الجبل مشهور بالبركه فى القديم لأنّه مصعد الأنبياء، صلوات الله عليهم، و مطلعهم، و هو فى الجهه الشماليه من البلد و على مقدار فرسخ، و هذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق، و قد بُنى عليه مسجد كبير مرتفع مُقسّم على مساجد كثيره كالغرف المطلّه، و عليه صومعه عاليه، و من ذلك الغار رأى عليه السلام الكوكب ثمّ القمر ثمّ الشمس، حسبما

١- رحله ابن جبير: ١٦٨ - ١٦٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

٢- هى أول مقصوره وضعت فى الإسلام وضعها معاويه بن أبى سفيان.

ذكره الله تعالى في كتابه عزّ وجلّ «(١)»، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه، وهذا كلّ ذكره الحافظ محدّث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في تاريخه في أخبار دمشق، وهو ينوف على مائه مجلّد.

و ذكر أيضاً أنّ بين باب الفراديس، وهو أحد أبواب البلد، وفي الجبهه الشماليه من الجامع المبارك، على مقربه منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل: سبعون ألف شهيد، وأنّ الأنبياء المدفونين به سبعمائه نبي، والله أعلم.

و خارج هذا البلد الجيانه العتيقه، و هي مدفن الأنبياء و الصالحين، و بركتها شهيره، و في طرفها ممّا يلي البساتين و هيده من الأرض متّصله بالجبانه، ذكر أنّها مدفن سبعين نبياً، و عصمها الله و نزّها من أن يُدفن فيها أحد، و القبور محيطه بها، و هي لا تخلو من الماء حتّى عادت قراره له، كلّ ذلك تنزيه من الله تعالى لها.

و بجبل قاسيون أيضاً لجبهه الغرب، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغاره تعرف بمغاره الدم؛ لأنّ فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم عليه السلام، يتّصل من نحو نصف الجبل إلى المغاره، و قد أبقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجاره تُحك فتستحيل، و هي كالطريق في الجبل، و تنقطع عند المغاره، و ليس يوجد في النصف الأعلى من المغاره آثار تشبهها، فكان يقال: إنّها لون حجاره الجبل، و إنّما هي من الموضع العذّي جرّ منه القاتل لأخيه حيث قتله حتّى انتهى إلى المغاره؛ و هي من آيات الله تعالى، و آياته لا تُحصى.

و قرأنا في تاريخ ابن المعلى الأسدي أنّ تلك المغاره صلّى فيها إبراهيم و موسى و عيسى و لوط و أيوب، عليهم و على نبينا الكريم أفضل الصلاه و السلام.

و عليها مسجد قد أتقن بناؤه، و يُصعد إليه على أدراج، و هو كالغرفه المستديره، و حولها أعواد مشرجه مطيفه بها، و به بيوت و مرافق للسكنى، و هو

يفتح كل يوم خميس، و السُّرُج من الشمع و الفتائل تَقَد في المغاره، و هي مَتَّسعه.

و في أعلى الجبل كهف منسوب لآدم عليه السلام، و عليه بناء، و هو موضع مبارك، و تحته في حضيض الجبل مغاره تعرف بمغاره الجُوع، ذكر أن سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً، و كان عندهم رغيف، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر بهصاحبه و يدور عليه من يد إلى يد، حتّى لحقتهم المتيه، صلوات الله عليهم. و على هذه المغاره أيضاً مسجد مبنى، و أبصرنا فيه السُّرُج تَقَد نهاراً.

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينه من بساتين و أرض بيضاء و رباع، حتّى إنّ البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه.

و كل مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسه أو خانقه يُعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين لها، و هذه أيضاً من المفاخر المخلده.

و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسه و تُنفق فيها الأموال الواسعه و تعين لها من مالها الأوقاف.

و من الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقه المباركه مُسارعه مشكوره عند الله عزّ و جلّ.

و بآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد، الربوه المباركه المذكوره في كتاب الله تعالى، مأوى المسيح و أمّه، صلوات الله عليهما، و هي من أبدع مناظر الدنيا حسناً و جمالاً و إشراقاً، و إتقان بناء و احتفال تشييد و شرف وضع، هي كالقصر المشيد، و يُصعد إليها على أدراج، و المأوى المبارك منها مغاره صغيره في وسطها، و هي كالبيت الصغير، و يازائها بيت يقال: إنّه مصلى الخضر عليه السلام، فيبادر الناس للصلاه بهذين الموضعين المباركين، و لا سيّما المأوى المبارك، و له باب حديد صغير ينغلق دونه، و المسجد يطيف بها، و لها شوارع دائره، و فيها سقايه لم ير أحسن منها، قد سبق إليها الماء من علوّ، و ماؤها

ينصبّ على شاذروان «(١)» فى الجدار متّصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم يُرَ أحسن من منظره، و خلف ذلك مطاهر يجرى الماء فى كلّ بيت منها و يستدير بالجانب المتّصل بجدار الشاذروان.

و هذه الربوه المباركه رأس بساتين البلد و مَقْسِم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كلّ نهر طريقه، و أكبر هذه الأنهار نهر يُعرف بثوار، و هو يشقّ تحت الربوه، و قد نُقِر له فى الحجر الصلد أسفلها حتّى انفتح له متسرّب واسع كالغار، و ربّما انغمس الجسور من شيباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوه فى النهر و اندفع تحت الماء حتّى يشقّ متسرّبه تحت الربوه و يخرج أسفلها، و هى مخاطره كبيره.

و يُشرف من هذه الربوه على جميع البساتين الغربيه من البلد، و لا إشراف كإشرافها حسناً و جمالاً و اتّساع مسرح للأبصار، و تحتها تلك الأنهار السبعة تتسرّب و تسيح فى طرق شتى، فتحار الأبصار فى حسن اجتماعها و افتراقها و اندفاع انصبابها، و شرف موضوع هذه الربوه و مجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف و اصف فى غلو مدحه، و شأنها فى موضوعات الدّنيا الشريفه خطير كبير «(٢)».

و من أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلّى بن أبى طالب رضى الله عنه، قد بُنى عليه مسجد حفيّل رائق البناء، و يازائه بستان كلّه نارنج، و الماء يطرد فيه من سقايه معيّنه، و المسجد كلّه ستور معلّقه فى جوانبه صغار و كبار.

و من المشاهد المكرّمه مشهد سعد بن عباده رئيس الخزرج، صاحب رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله، و هو بقرية تعرف بالمنيحه شرقى البلد و على مقدار أربعة أميال منه،

١- الشاذروان: حائط صغير بجوار الجدار الأصلي لتقويته.

٢- المصدر السابق: ص ٢٢١-٢٢٤.

و على قبره مسجد صغير حسن البناء، و القبر فى وسطه، و عند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عباده رأس الخزرج، صاحب رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله.

و من مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم: مشهد أم كلثوم ابنه على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، و يقال لها زينب الصغرى، و أم كلثوم كنيه أوقعها عليها النبي صلى الله عليه و سلم، لشبهها بابنته أم كلثوم، رضى الله عنها، و الله أعلم بذلك، و مشهدها الكريم بقريه قبلى البلد تعرف ب «راويه» على مقدار فرسخ، و عليه مسجد كبير، و خارجه مساكن، و له أوقاف، و أهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم، مشينا إليه و بتنا به و تبركنا برؤيته، نفعنا الله بذلك.

و بالجّيانه التى بغربى البلد، من قبور أهل البيت كثير، رضى الله عنهم، منها قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن و الحسين، رضى الله عنهما، و مسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسكينة بنت الحسين، رضى الله عنهما، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت.

و من المشاهد أيضاً قبر بجامع الثّيرب، فى بيت بالجّيه الشرقيه منه، يقال إنه لأمّ مريم، رضى الله عنها.

و بقريه داريا قبر أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه، و عليه قبه هى علامه القبر، و بها أيضاً قبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه.

و بين هذه القريه و بين البلد مقدار أربعة أميال، و هى لجّيه الغرب منه.

و من المشاهد الكريمه التى لم نعاينها و وصفت لنا قبرا شيث و نوح عليهما السلام، و هما بالبّقع، و هى على يومين من البلد، و حدّثنا من ذرّع قبر شيث فألقى فيه أربعين باعاً، و فى قبر نوح ثلاثين، و بإزاء قبر نوح قبر ابنه له، و على هذه القبور بناء، و لها أوقاف كثيره، و لها قيم يلتزمها.

و من المشاهد المباركه أيضاً، بالجّبانه الغربيه و بمقبره من باب الجاييه، قبر

أويس القرني رضى الله عنه، و قبور خلفاء بنى أميه، يقال: إنَّها بإزاء باب الصغير بمقبره من الجبانه المذكوره، و عليها اليوم بناء يُسكن فيه.

و المشاهد المباركه فى هذه البلده أكثر من أن تنضب بالتقييد، و إنَّما رُسِم من ذلك ما هو مشهور و معلوم.

و من المشاهد الشهيره أيضاً مسجد الأقدام، و هو على مقدار ميلين من البلد ممَّا يلى القبله على قارعه الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز و الساحل و ديار مصر، و فى هذا المسجد بيتصغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه و آله فى النوم فيقول: هاهنا قبر أخى موسى صلى الله عليه و آله، و الكتيب الأحمر على الطريق بمقبره من هذا الموضع، و هو بين غاليه و غويليه كما ورد فى الأثر، و هما موضعان.

و شأن هذا المسجد فى البركه عظيم، و يقال: إنَّ النور ما خلا-قط من هذا الموضع العذى يذكر أنَّ القبر فيه حيث الحجر المكتوب، و له أوقاف كثيره.

فأمَّا الأقدام ففى حجاره فى الطريق إليه مُعَلَّم عليها، تجد أثر القدم فى كلِّ حجر، و عدد الأقدام تسع، و يقال: إنَّها أثر قدم موسى عليه السلام، و الله أعلم بحقيقه ذلك، لا إله سواه [\(١\)](#).

هذا و قد أخذنا من رحله ابن جبير المواضع اللآزمه، و إلَّا فالذى يسبر الكتاب يقف على أمور لم نذكرها، و الكل يدل على أنَّ البناء على القبور وصيانتها عن الانطماس و زيارتها فى فترات مختلفه كان أمراً رائجاً فى خير القرون الذى جعل مقياساً بين الحق و الباطل.

٥- ابن الحجاج و القبه البيضاء على قبر الإمام علي عليه السلام

إشاره

إنّ الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بابن الحجاج البغدادي أحد الشعراء المفلقين في القرنين الثالث و الرابع (المتوفى ٣٩١ هـ) أنشأ قصيدته الفائيه في مدح الإمام أمير المؤمنين، و أنشدها في الحضرة العلويّه عند ما زارها يقول في مستهلّها:

ياصاحبَ القبه البيضاء على النجفِ من زارَ قبرَكَ و استشفى لديكَ شُفي

زوروا أبا الحسن الهادي لعلّكم تحظون بالأجرِ و الاقبالِ و الزُلفِ [\(١\)](#)

و القصيده تعرب عن وجود البناء و القبه البيضاء على القبر، و الزلف و التفاف الزائرين حوله في عصره، و مع ذلك يدعى بعض الوهابيين؛ أنّ البناء على القبور لم يكن في خير القرون و أنّه من البدع المستحدثه.

و لأجل شيوع البناء على القبور في جميع الأقطار الإسلاميّه نجد أنّ الأمير محمد بن إسماعيل اليماني (ت ١١٨٦ هـ) الذي توهّب مع كونه زيدياً يفترض على نفسه و يقول في كتابه: و هذا أمر عمّ البلاد و طبق الأرض شرقاً و غرباً بحيث لا بلده من بلاد الإسلام إلّا فيها قبور و مشاهد، و لا يسع عقل عاقل أنّ هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعه و يسكت علماء الإسلام [\(٢\)](#).

-
- ١- اقرأ ترجمته في يتيمه الدهر ٣: ٣٥؛ معجم الأدباء ٤: ٤؛ المنتظم ٧: ٢١٦؛ تاريخ بغداد ٨: ١٤؛ وفيات الأعيان ١: ١٦٨؛ الكامل لابن الأثير ٩: ٦٣ إلى غير ذلك من مصادر الترجمة؛ و في روضات الجنّات ٣: ١٤٨-١٥٥ له ترجمه ضافيه
- ٢- تطهير الاعتقاد: ص ١٧، ثمّ إنّّه حاول أن يُجيب عن هذا الاستنكار بما الإعراض عن ذكره أحسن.

فلو كانت هذه سيره المسلمين من خير القرون إلى عصرنا فلما ذال - تكون حجّه؟ فلو كان التهديم أمراً واجباً فلما ذا ترك الخلفاء تلك الفريضة؟! و هل يصحّ لنا اتّهامهم بالتسامح في أمر الدين مع أنّ الصحابه و التابعين مرّوا على تلك الآثار و لم ينبسوا فيها بنت شفّه؟ و إذا لم يكن ذلك الإجماع حجّه، فأى إجماع يكون حجّه شرعيّه؟

فهذه النصوص من المؤرّخين تدلّ بوضوح على جريان السيره على بناء القباب و الأبنيه على قبور الأولياء من دون أن يخطر ببال أحد أنّه مقدّمه للشرك و مفضّ إليه، فإذا لم يكن مثل هذا الإجماع حجّه فأى إجماع حجّه؟

و العجب من ابن بليهد قاضى الحكومه السعوديه أيام تدمير آثار رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله عام (١٣٤٤ هـ). فبعد ما نفّذ ما أمر به من قبل المشايخ، نشر بياناً في جريده أمّ القرى في عددها الصادر في شهر جمادى الآخره من شهور سنه (١٣٤٥ هـ). و ممّا جاء فيه قوله: إنّ القباب على مرافد العلماء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجرى.

فهل هذا صحيح أو افتراء أمّام كلّ هذه النصوص من المسعودى و غيره؟

و ليس البحث فى خصوص العلماء، بل مطلق قبور المسلمين، نبياً كان أو وليّاً، صحابياً كان أو تابعياً، فقيهاً كان أو محدّثاً.

السيد محسن الأمين و الردّ على ابن تيميه

و نعم ما قال السيد المحقّق محسن الأمين فى قصيدته المسّماه بالعقود الدرّيّه فى ردّ شبهات الوهابيه:

أو ليس أمّه أحمد إجماعها فيه الصواب و حجّه لم تردد

و على ضلالٍ كلِّها لم تجتمع فيما رويتم في الحديث المسند
 مضت القرون وذى القباب مَشِيدَةٌ و الناس بين مؤسسٍ و مجددٍ
 فى كلِّ عصر فيه أهل الحلّ و - العقد الذين بغيرهم لم يُعقد
 لم يُنكروا أبداً على من شادها شيدت و لا من منكر و مفندٍ
 من قبل أن تلد ابنها تيميةً أو يخلق الوهاب بعض الأعبد
 أ فأى إجماع لكم أقوى على أمثاله من مورد لم يورد
 فبسيره للمسلمين تابعت فى كلِّ عصر نستدلّ و نقتدى
 أقوى من الإجماع سيرتهم و من قد حاد عنها فهو غير مسدد
 هيهات ليس نبياً ابن بليهد فى الناس لم يُخطئ و لم يتعمد
 كلّا و لا العلماء قد حصرت به هى فى بقاع الأرض ذات تعددٍ
 كلّا و لا من وافقوه لخوفهم أو جهلهم من خائف و مقلدٍ
 و الجُلّ من علماء طيبه ساكت للخوف مكفوف اللسان مع اليد [\(١\)](#)»

كيف يدعى الإجماع على التحريم مع أنّ فقهاء المذاهب الأربعة فى العصر الحاضر اتفقوا على الكلمة التالية: يكره أن يبنى القبر
 بيت أو قبه أو مسجد [\(٢\)](#)»، أين الكراهه من الحرمة، و أين هى من الشرك؟

و هذا النووى شارح صحيح مسلم يقول فى شرح حديث أبى الهياج الهمذى سيوافيك نصّه: أمّا البناء فإن كان فى ملك البانى
 فمكروه و إن كان فى مقبره مسبله فحرام، نصّ عليه الشافعى و الأصحاب [\(٣\)](#)».

إنّ التحريم فى الصورة الثانية لكونه مزاحماً للانتفاع، و على خلاف أهداف

١- كشف الارتباب: ص ٤١١

٢- الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٣١.

٣- صحيح مسلم بشرح النووى ج ٧، ص ٤٢ شرح الحديث رقم ٩٦٩ كتاب الجنائز ط مصر.

الواقف و أغراضه، و أين هو من البناء على أرض مشتراه أو مهداه أو موات؛ فلا تترتب عليها تلك الحرمه.

دُفن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى بيته الرفيع و لم يخطر ببال أحد من الصحابه الحضور أن البناء على القبر حرام و أنه صلى الله عليه و آله نهى عنه نهياً مؤكداً، و لَمَّا كان البيت متعلقاً بالسيدة عائشه جعلوا فى وسطه ساتراً، و لَمَّا توفى الشيخان أو صيا بدفنهما فى حجره النبي صلى الله عليه و آله تبركاً بذاته و مكانه، و لم تُسمع عن أى ابن أنثى نعيه أنه حرام و لا مكروه، و على ذلك استمرت سيره المسلمين فى حق العلماء و الأولياء، يدفنونهم فى البيوت المعده لذلك، أو يرفعون لمراقدهم قواعد و سقفاً بعد الدفن، تكريماً لهم و تقديراً لتضحياتهم، و لم يخطر ببال أحد أنه على خلاف الدين و الشرع.

و هذا عمل المسلمين و سيرتهم القطعيه فى جميع الأقطار و الأمصار، على مرأى و مسمع الجميع و إن اختلفت نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصر، من الشيعة و السنه، و أى بلاد من بلاد الإسلام من مصر و العراق أو الحجاز أو سوريه، و تونس و مراکش و إيران، و هلم جرأً، ليس فيها قبور مشيده، و ضرائح منجده، و هؤلاء أئمه المذاهب: الشافعى فى مصر، و أبو حنيفه فى بغداد، و مالك بالمدينه، و تلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقه القباب، شامخه المباني، غير أن الوهابيين لَمَّا استولوا على المدينه هدموا قبر مالك.

و هذه القبور قد شُيدت و بنيت فى الأزمنه التى كانت حافله بالعلماء و أرباب الفتاوى، و زعماء المذاهب، فما أنكر منهم مُنكر، و ليس هذا رائجاً بين المسلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعدّ تعمير قبور الشخصيات من غرائز البشر و مقتضيات الحضاره و شاره الرقى، فكلّ هذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، و لو لم تكن سيره المسلمه بين المسلمين و العقلاء

عامّه غير مفيده في المقام، فلا يصحّ الاستناد إلى أيّ سيره قاطعه بين المسلمين أو الناس.

و ليس يصحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليلٍ

ثمّ إنّ الوهابيين تمسّكوا بروايات، إمّا عديمه الدلاله، أو ضعيفه السند، و سنذكر في المبحث الآتي بشكل عام مجمل ما تمسّكوا به ليتبين مدى وعيهم.

ذرائع الوهابيه فى هدم الآثار

المبحث الرابع: ذرائع الوهابيه فى هدم الآثار

اشاره

استدلت الوهابيه بروايات نذكرها واحده بعد الأخرى:

الأولى: روايه أبى الهياج الأسدى

اشاره

روى مسلم فيصحيحه قال: حدّثنا يحيى بن يحيى و أبو بكر بن أبى شيبه و زهير بن الحرب، قال يحيى: أخبرنا، و قال الآخرون: حدّثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن أبى وائل، عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى على ابن أبى طالب: أ لا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله.. أن لا تدع تمثالاً إلّا طمسته و لا قبراً مشرفاً إلّا سويته [\(١\)](#).

زعم المستدل أنّ معناه: و لا قبراً عالياً إلّا سويته بالأرض.

أقول: الاستدلال بالحديث فرعصحه سنده، و تماميه دلالتة، و لكنّه موهون من كلا الجانبين.

١- مسلم، الصحيح ٣: ٦١ كتاب الجنائز؛ الترمذى، السنن ٢: ٢٥٦ باب ما جاء فى تسويه القبور؛ النسائى، السنن ٤: ٨٨ باب تسويه القبر.

سند الروايه و أقوال العلماء فيه:

أما السند، فيكفي أنّ علماء الرجال تحدّثوا في رجال الحديث و نقلوا تصريح الأئمه بضعفهم، و هم عبارة عن:

١- وكيع.

٢- سفيان الثوري.

٣- حبيب بن أبي ثابت.

٤- أبو وائل الأسدي.

و إليك أقوال العلماء في حقهم:

١- وكيع:

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي الكوفي، روى عن عدّه، منهم: سفيان الثوري، و روى عنه جماعه منهم: يحيى بن يحيى و هو كما ورد في حقّه المدح، ورد في حقّه الجرح كثيراً، و هذا ابن حجر يعرّفه في تهذيب التهذيب بالنحو التالي: عن الإمام ابن حنبل: كان وكيع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدي كثيراً، و قال في موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيحاً من وكيع و وكيع أكثر خطأً منه.

و قال ابن عمار: قلت له: عدّوا عليك بالبصره أربعة أحاديث خلطت فيها؟

فقال: حدّثتهم بعبادان بنحو من ألف و خمسمائه، و أربعة ليس بكثير في ألف و خمسمائه.

و قال عليّ بن المديني: كان وكيع يلحن و لو حدّث بألفاظه لكان عجباً.

و قال محمد بن نصر المروزي: كان يُحدّث بآخره من حفظه فيغيّر ألفاظ الحديث كأنّه يحدّث بالمعنى و لم يكن من أهل اللسان [\(١\)](#).

١- تهذيب التهذيب ١١: ١٢٣، ١٣١.

و قال الذهبى فى ميزان الاعتدال بعد ما مدحه: قال ابن المدينى: كان وكيع يلحن و لو حدّث بألفاظه كان عجباً «(١)».

٢- سفيان الثورى:

و هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى، فقد مدحوه، و لكن الذهبى يقول: إنّه كان يدلس عن الضعفاء، و لكن كان له نقد و ذوق، و لا عبره بقول من قال يدلس و يكتب عن الكذابين «(٢)».

و قال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدّث سفيان بحديث فجّته و هو يدلس، فلمّا رآنى استحيا و قال: نرويه عنك؟ «(٣)».

و قال فى ترجمه يحيى بن سعيد بن فروخ: قال أبو بكر و سمعت يحيى يقول:

جهد الثورى أن يدلس علىّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه «(٤)».

و التدليس هو أن يروى عن رجل لم يلقه و بينهما واسطه فلا يذكر الواسطه.

و قال أيضاً فى ترجمه سفيان: قال ابن المدينى عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص و لا حيان بن إياس، و لم يسمع من سعيد بن أبى البرده، و قال البغوى: لم يسمع من يزيد الرقاشى، و قال أحمد: لم يسمع من سلمه بن كهيل حديث المسائيه «(٥)» يضع ماله حيث يشاء، و لم يسمع من خالد بن سلمه بتاتاً و لا من ابن عون إلّا حديثاً واحداً «(٦)».

١- ميزان الاعتدال ٤: ٣٣٦.

٢- ميزان الاعتدال ٢: ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

٣- تهذيب التهذيب ٤: ١٥ فى ترجمه سفيان.

٤- تهذيب التهذيب ١١: ٢١٨.

٥- العبد المعتقد.

٦- تهذيب التهذيب ٤: ١١٥.

و هذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مُدَلِّسًا، ربّما يروى عن اناس يوهم أنّه لقيهم و لم يلقَهُم و لم يسمع منهم.

٣- حبيب بن أبي ثابت:

هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، وَثَقَهُ بعض، و لكن قال ابن حبان في الثقات: كان مدلسًا، و قال العقيلي: غمزه ابن عون، و قال القطان: له غير حديث عن عطاء، لا يُتابع عليه و ليست محفوضه.

و قال ابن خزيمة فيصحيحه: كان مدلسًا [\(١\)](#).

و قال ابن حجر أيضًا في موضع آخر: كان كثير الإرسال و التدليس، مات سنة ١١٩ هـ.

و نقل عن كتاب الموضوعات لابن الجوزي من نسخه بخط المنذرى أنّه نقل فيه حديثاً عن أبي بن كعب في قول جبرئيل: لو جلست معك مثلما جلس نوح في قومه ما بلغت فضائل عمر، و قال: لم يُعَلِّه ابن الجوزي إلّا بعبد الله بن عمّار الأسلمي شيخ حبيب بن ثابت [\(٢\)](#).

٤- أبو وائل الأسدي:

هو شقيق بن سلمه الكوفي، كان منحرفاً عن عليّ بن أبي طالب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيهما أحبُّ إليك عليّ أو عثمان؟ قال: كان عليّ أحبَّ إليّ ثمّ صار عثمان [\(٣\)](#).

و يكفى في قدحه أنّه كان من ولاة عبید الله بن زياد، قال ابن أبي الحديد: قال

١- تهذيب التهذيب ٢: ١٧٩.

٢- تهذيب التهذيب ١: ١٤٨.

٣- تهذيب التهذيب ٤: ٣٦٢.

أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة.

هذا كله حول سند الرواية و هؤلاء رواتها، و لو ورد فيهم مدح فقد ورد فيهم الذم، و عند التعارض يقدم الجارح على المدح فيسقط الحديث عن الاستدلال.

و يكفي أيضاً في ضعف الحديث أنه ليس لراويه- أعني أبا الهياج- في الصحاح حديث غير هذا، فكيف يستدلّ بحديث يشتمل على المدلسين و المضعفين؟ و كيف يُعدّل بهذا الحديث عن السيره المستمره بين المسلمين؟!

و الآن إليك بيان عدم دلالة الحديث على الموضوع بتاتاً:

ضعف دلالة الحديث

إنّ توضيح ضعف دلالة الحديث يتوقّف على بيان معنى اللفظين الواردين فيه:

١- قبراً مشرفاً.

٢- إلّا سوّيته.

أمّا الأوّل: فقاصحاب القاموس: و الشرف- محرّكه- العلو، و من البعير سنامه، و على ذلك يحتمل المراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص كسنام البعير الذي يعبر عنه بالمسنّم، و لا يتعيّن أحد المعنيين إلّا بالقرينه.

أمّا الثاني: فهو تارة يُستخدم في بيان مساواه شىء بشىء في الطول أو العرض، فيقال: هذا القماش يساوى بهذا الآخر في الطول. و أخرى في التسويه، أى كون الشىء مسطحاً لا انحناء و لا تعرّج فيه.

و الفرق بين المعنيين واضح؛ فإنّ التسويه في الأوّل وصف للشىء بمقايسته مع شىء آخر، و في الثاني وصف لنفس الشىء و لا علاقة له بشىء آخر.

فلو استعمل في المعنى الأوّل لتعدّى إلى مفعولين: أحدهما بلا واسطه، و الآخر بمعونه حرف الجرّ، قال تعالى حاكياً عن لسان المشركين و أنّهم يخاطبون آلهم

بقولهم: «إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (١)، أى نعدّ الآلهة الكاذبه مساويه لربّ العالمين فى العباده أو فى الاعتقاد بالتدبير.

وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» (٢)، أى يودّون أن يكونوا تراباً أو ميتاً مدفوناً تحت الأرض، و يكونون كذلك و الأرض متساويه.

ترى أن تلك الماده تعدّت إلى مفعولين و أدخل حرف الجرّ على المفعول الثانى.

و أما إذا استعمل فى المعنى الثانى أى فيما يكون وصفاً للشىء بلا علاقه له بشىء آخر فيكتفى بمفعول واحد، قال سبحانه: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» (٣)، و قال سبحانه:

«بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ» (٤)، و قال سبحانه: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٥)، ففى جميع هذه الموارد يراد من التسويه كونها وصفاً للشىء بما هو هو، و هو فيها كناية عن كمال الخلقه و أنها بعيده عن النقص و الاعوجاج.

هذا هو مفهوم اللفظ لغّه، و هلم معى ندرس الحديث و أنه ينطبق على أى من المعنيين.

نلاحظ أنه تعدّى إلى مفهوم واحد، و لم يقترن بالباء، فهو آيه أن المراد هو المعنى الثانى، و هو تسطيح القبر فى مقابل تسنيمه، و بسطه فى مقابل اعوجاجه لا مساواته مع الأرض، و إلا كان عليه عليه السلام أن يقول: سَوَّيْتَهُ بِالْأَرْضِ، و لم يكتف

١- الشعراء: ٩٨.

٢- النساء: ٤٢.

٣- الأعلى: ٢.

٤- القيامة: ٤.

٥- الحجر: ٢٩.

بقوله سؤيته.

أضف إلى ذلك أنّ ما ذكرناه هو العدى فهمه شراح الحديث و هو دليل على أنّ التسطّيح سنّه و التسنيم بدعه و أمر على عليه السلام أن تكافح هذه البدعه و يسّطّح كلّ قبر مسنّم، و إليك ذكر نصوصهم:

قال القرطبي في تفسير الحديث: قال علماؤنا: ظاهر حديث أبي الهياج منع تسنيم القبور و رفعها و أن تكون واطئه «(١)».

أقول: إنّ دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهر، و أمّا دلالتها على عدم ارتفاعها كما هو ظاهر قوله: «و منع رفعها» فغير ظاهر، بل مردود باتّفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر «(٢)».

٢- قال ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخارى ما هذا نصّه:

مُسَنَّمًا بضمّ الميم و تشديد النون المفتوحه أى: مرتفعاً، زاد أبو نعيم فى مستخرجه: و قبر أبى بكر و عمر كذلك، و استدلّ به على أنّ المستحب تسنيم القبور، و هو قول أبى حنيفه و مالك و أحمد و المزنى و كثير من الشافعيه.

و قال أكثر الشافعيه و نصّ عليه الشافعي: التسطّيح أفضل من التسنيم؛ لأنّه صلى الله عليه و آله سّطّح قبر إبراهيم، و فعله حجّه لا فعل غيره، و قول سفيان الثّمّار: رأى قبر النبىّ مسنّمًا فى زمان معاويه، لا حجّه فيه، كما قال البيهقى؛ لاحتمال أنّ قبره صلى الله عليه و آله و قبر يصاحبيه لم تكن فى الأزمنه الماضيه مسنّمه- إلى أن قال:- و لا- يخالف ذلك قول على عليه السلام: أمرنى رسول الله أن لا- أدع قبراً مشرفاً إلّا سؤيته، لأنّه لم يرد تسويته بالأرض، و إنّما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، و نقله فى المجموع عن الأصحاب «(٣)».

١- القرطبي، التفسير ٢: ٣٨٠ تفسير سوره الكهف.

٢- الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٢.

٣- إرشاد السارى ٢: ٤٦٨.

٣- وقال النووى فى شرح صحيح مسلم: إنَّ السنَّة أنَّ القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، و لا يُسنَّم بل يُرفع نحو شبر، و هذا مذهب الشافعى و من وافقه، و نقل القاضى عياض عن أكثر العلماء أنَّ الأفضل عندهم تسنيمها، و هو مذهب مالك «(١)».

و يؤيد ذلك أنصاحب الصحيح (مسلماً) عنون الباب ب «باب تسويه القبور» ثم روى بسنده إلى تمامه، قال: كُنَّا مع فضاله بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضاله بن عبيد بقبره فسوى، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يأمر بتسويتها، ثم أورد بعده فى نفس الباب حديث أبى الهياج المتقدم «(٢)».

و فى الختام نذكر أموراً:

١- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتفقت عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، و كلهم متفقون على أنه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر «(٣)».

و لو أخذنا بالتفسير الذى يرومه الوهابى من حديث أبى الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لاطناً مساوياً معه.

٢- لو افترضنا صحه حديث أبى الهياج سنداً و دلالة، فغايه ما يدل عليه هو تخريب القبر و مساواته بالأرض، و لا يدل على هدم البناء الواقع عليه، فتخريب القباب المشيده التى هى مظاهر الود لأصحابها استناداً إلى هذا الحديث عجيب جداً.

٣- إنَّ الصحابه دفنوا النبى الأكرم فى بيته من أول يوم، و قد وصى الخليفتان

١- صحيح مسلم بشرح النووى ٧: ٣٦ ط الثالثة، دار إحياء التراث العربى.

٢- المصدر السابق.

٣- الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٢.

بأن يُدفنوا تحت البناء جنب النبي الأكرم تبرّكاً بالقبر وصاحبه، فلو كان البناء على القبور أمراً محرّماً و من مظاهر الشرك؛ فلما ذارت الصحابه جثمانه الطاهر صلى الله عليه و آله تحت البناء؟ و لما ذا أوصى الخليفان بالدفن تحته؟

و لما واجهت الوهابيه عمل الصحابه فى موارد النبي قامت بالتفريق و قالت:

إنّ الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، و قد دفنوا النبي تحت البناء و لم يبنوا على قبره شيئاً [\(١\)](#).

و نترك هذا الجواب بلا- تعليق؛ إذ هو فى غايه السقوط، إذ أى فرق بين الأمرين؟ فإنّ البناء على القبر مَدْعَاهُ للإقبال إليه و التضرّع إليه، ففيه فتح لباب الشرك و توَسَّلَ إليه بأقرب وسيله... [\(٢\)](#).

فإذا كان البناء على وجه الإطلاق ذريعه للشرك و توجَّهًا إلى المخلوق، فلما ذا نرخص فى بعض صوره و نحرم بعضها الآخر؟ و ما هذا إلّا لأنّ الوهابيه و إن كانوا ينسبون أنفسهم إلى السلفيه، إلّا أنّ السلفيه بعيدون عنهم بُعد المشركين.

إلى هنا تمّت دراسته حديث أبى الهياج، و لندرس حديث جابر الذى هو المستمسك الآخر لمدمرى آثار الرساله.

الثانيه: حديث جابر

إنّ الوهابيين يستدلّون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، و قد ورد بنصوص مختلفه، و نحن نذكر نصاً واحداً منها:

روى مسلم فيصحيحه: حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبه، حدّثنا حفص بن

١- عقيل بن الهادى، رياض الجنّه، ط الكويت.

٢- محاسن التأويل ٧: ٣٠.

غياث، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه [\(١\)](#).

و حديث جابر هذا لا يحتج به، لكونه غير صحيح سنداً و ضعيفاً دلالةً.

أما الأول: فلأن جميع أسانيد مشتمله على رجلين هما في غاية الضعف:

١- ابن جريج: وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

٢- أبو الزبير: وهو محمد بن مسلم الأسدي.

أما الأول: فإليك كلمات أئمة الرجال في حقه:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له: إنه يقول: أخبرني؟ قال: لا شيء.. كله ضعيف، و قال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج: قال فلان و قال فلان جاء بمنكير.

و قال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل.

و قال الدارقطني: يُجتنب تدليس ابن جريج؛ فإنه قبيح التدليس، لا يدلُّس إلَّا فيما سمعه من مجروح.

و قال ابن حبان: كان ابن جريج يدلُّس في الحديث [\(٢\)](#).

و أما الثاني: فإليك أقوال علماء الرجال فيه:

فعن إمام الحنابلة عن أيوب أنه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية.

و عن شعبه: لم يكن في الدنيا أحبَّ إليَّ من رجلٍ يقدمُ فأسأله عن أبي الزبير،

١- لاحظ للوقوف على متونها المختلفة و أسانيدها: صحيح مسلم، كتاب الجنائز ٣: ٦٢؛ و سنن الترمذي ٢: ٢٠٨ ط المكتبة السلفية؛ صحيح ابن ماجه ١: ٤٧٣ كتاب الجنائز؛ صحيح النسائي ٤: ٨٧-٨٨؛ سنن أبي داود ٣: ٢١٦ باب البناء على القبر؛ مسند أحمد ٣: ٢٩٥ و ٣٣٢، و رواه أيضاً مرسلًا عن جابر: ص ٣٩٩.

٢- تهذيب التهذيب ٦: ٢-٤ و ٥-٦ ط دار المعارف العثمانية.

فقدت مَكَّهُ فسمعت منه، فينا أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسأله فردّ عليه، فافتري عليه، فقلت: يا أبا الزبير تفتري على رجل مسلم؟ قال: إنّه أغضبني، قلت: و من يغضبك تفتري عليه؟ لا رويت عنك شيئاً.

و عن ورقاء قال: قلت لشعبه: ما لك تركت حديث أبي الزبير؟ قال: رأيتَه يزن و يسترجع في الميزان.

و قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أبي الزبير، فقال: يُكتب و لا يحتجّ به، قال: و سألت أبا زرعه عن أبي الزبير، فقال: يروى عنه الناس، قلت: يُحتجّ بحديثه؟ قال: إنّما يحتجّ بحديث الثقات (١).

بالله عليك، أيصح الاستدلال بهذا الحديث؟ أ فهل يصحّ هدم آثار النبوه و الرساله و الصحابه بهذه الروايه؟

على أنّ بعض الأسانيد مشتمل على عبد الرحمن بن أسود المتهم بالكذب و الوضع.

هذا كلّه ما يتعلّق بالسند.

و أمّا الثاني: أي المتن، ففيه ملاحظتان:

الأولى: أنّ الحديث روى بصورٍ ستّ، مع أنّ النبيّ نطق بصوره واحده، و لو رجعت إلى متونه المبعثره في المصادر التي أوعزنا إليها ترى فيها الاضطراب العجيب، و إليك صورها:

١- نهى رسول الله عن تجصيص القبر و الاعتماد عليه.

٢- نهى رسول الله صلى الله عليه و آله عن الكتابه على القبر.

٣- نهى رسول الله صلى الله عليه و آله عن تجصيص القبر، و الكتابه و البناء عليه، و المشى عليه.

١- تهذيب التهذيب، ترجمه أبي الزبير ٩: ٤٤٢ ط حيدرآباد- دكن عام ١٣٢٦؛ و لاحظ الطبقات الكبرى ٥: ٤٨١.

٤- نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجلوس على القبر، و تجسيصه، و البناء و الكتابة عليه.

٥- نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجلوس على القبر و تجسيصه و البناء عليه.

٦- نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجلوس على القبر و تجسيصه و البناء عليه، و الزياره و الكتابة عليه «(١)».

مضافاً إلى اختلافات أخرى في أداء مقصود واحد، فيعتبر عنه تارة بالاعتماد، و أخرى بالوطء، و ثالثة بالقعود.

و من المعلوم أنّ الاعتماد غير الوطء، و هما غير القعود، فمع هذا الاضطراب و الاختلاف في المضمون لا يمكن لأى فقيه أن يعتمد عليه؟!!

الثانية: أنّ الحديث على فرض صحته لا يثبت سوى ورود النهى من النبى، و لكن النهى منه تحريمى و منه تنزيهى. و بعبارة أخرى: نهى تحريم، و نهى كراهه.

و قد استعمل النهى في كلمات الرسول في القسم الثانى كثيراً، و لأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهه، فترى الترمذى يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان كراهيه تجسيص القبور، و السندى شارح صحيح ابن ماجه ينقل عن الحاكم النيسابورى أنّه لم يعمل بهذا النهى (بالمضمون التحريمى) أحد من المسلمين، بدليل أنّ سيره المسلمين قائمه على الكتابة على القبور.

و أمّا الكراهه فربما تكون مرتفعه بالنسبه إلى المصالح العظيمه المترتبه عليه، كما إذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلاميه، و إظهار المودّه لصاحب القبر الذى فرض الله مودّته على الناس «(٢)»، أو يكون لاستئصال الزائر و تمكّنه من تلاوه القرآن و إهداء ثوابه إلى صاحب القبر، إلى غير ذلك من الأمور التى يتمكّن

١- لاحظ في الوقوف على المتون المختلفه للحديث المصادر التى أوعزنا إليها.

٢- قال سبحانه: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» الشورى: ٢٣.

الإنسان منها تحت الظل لا تحت الشمس ولا في برد الليل، فالنهي التنزيهي أشبه بالمقتضيات التي ترتفع بأقوى منها.

الثالث: أحاديث ثلاثة في الميزان

إشارة

فقد ورد في ذلك المجال أحاديث آخر نذكرها بسندها ومنتها:

روى ابن ماجه فيصحيحه ما يلي:

١- حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا محمد بن عبد الله الرقاشى، حدّثنا وهب، حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمره، عن أبي سعيد: أنّ النبيّ نهى أن يُبنى على القبر [\(١\)](#).

و يذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

٢- حدّثنا حسن، حدّثنا ابن لهيعة، حدّثنا يزيد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمه، عن أم سلمه قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُبنى على القبر أو يُجصص.

٣- عليّ بن اسحاق، حدّثنا عبد الله بن لهيعة، حدّثني بريد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمه: أنّ النبيّ نهى أن يجصص قبر أو يبني عليه أو يجلس عليه [\(٢\)](#).

فسند الحديث الأول يشمل على (وهب)، وهو مردّد بين سبعة عشر رجلاً، وفيهم الوضّاعون والكذّابون [\(٣\)](#).

و الحديث الثانى و الثالث لا يُحتجّ بهما، لاشتمالهما على «عبد الله بن لهيعة» الذى

١- صحيح ابن ماجه ١: ٤٧٤.

٢- مسند أحمد ٦: ٢٩٩.

٣- ميزان الاعتدال ٣: ٣٥٠ - ٣٥٥.

يقول فيه ابن معين: ضعيف لا يحتج به، و نقل الحميدى عن يحيى بن سعيد: أنه كان لا يراه شيئاً ^(١).

هذه حال الأحاديث التي صارت ذريعه بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمرّ سنه إلّا و يدمّر أثر من الآثار الإسلاميّة بحجّه توسيع الحرم الشريف، حتّى المكتبات و بيوتات بنى هاشم و مدارسهم، و بيت مضيّف النبي أبي أيّوب الأنصاري، و فى الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود فى خيبر و غيره، حتّى بيت كعب بن الأشرف ذلك اليهودى الذى أهدر دمه رسول الله، و قتل بأمره غيلة باسم الحفاظ على الآثار التاريخيه.

ثمّ إنّ القاضى ابن بليهد قد أعوزته الحجّه فتمسّك بكون البقيع مسبله موقوفه، و أنّ البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها.

سبحان الله ما أتقنها من برهنه؟ من أين علم أنّ البقيع كانت أرضاً حيّه وقفها صاحبها على دفن الأموات؟!

و من أراد أن يقف على حال البقيع، و أنّه لم يكن فيها يوم أعدت للتدفين أى أثر من الحياه، فليرجع إلى كتاب «وفاء الوفا».

آخر ما فى كنانه المستدلّ

ذكر البخارى فيصحيحه فى باب كراهه اتّخاذ المساجد على القبور الخبر التالى:

لَمَّا مات الحسن بن الحسن بن على ضربت امرأته القبة على قبره سنه، ثمّ

١- ميزان الاعتدال ٢: ٤٧٦؛ و تهذيب التهذيب ١: ٤٤٤.

رفعت، فسمعوا صالحاً يقول:

ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يسوا فانقلبوا «(١)».

إن هذا الخبر لو صحّ فهو على نقيض المطلوب أدلّ، فهو يدلّ على جواز نصب المظللّ على القبر، و لو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأه الحسن بن الحسن عليهما السلام؛ لأنه كان بمراى و مسمع من التابعين و فقهاء المدينة، و لعلّها نصبت تلك القبّه لأجل تلاوه القرآن في جوار زوجها و إهداء ثوابها إلى روحه.

و أمّا قول الصالح فهو قول غير صالح، كما أنّ الجواب أيضاً مثله، لأنه بصدد الشماتة؛ بامرأه افتقدت زوجها و هى مستحقّه للتعزيزه و التسليه لا- الشماتة، لأنها ليست من أخلاق المسلمين، و لم تكن المرأة تأمل عوده زوجها إلى الحياه حتّى يقال: إنّها يئست، بل كان نصبها للمظللّ للغايات الدينيه و الأخلاقيه، و الشامت و المجيب كانا من أعداء أهل البيت، و العجب أنّ البخارى ينقله و لا يعلّق عليه شيئاً!

ترى هؤلاء الأغبياء يدّمرون آثار الرساله و هم يتمسّكون في ذلك بركام من الأوهام، و يسخرون من الذين أظهروا حبّاً لأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّهم تطهيراً، و فرض مودّتهم و ولاءهم و قال: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» «(٢)».

إلى هنا تبين أنّه ليس للقوم دليل، بل و لا شبهه على حرمة البناء على القبور، و إنّهم لم يدرسوا أصحابهم و مسانيدهم حسبما درسها السلف الصالح.

١- صحيح البخارى ٢: ١١١ كتاب الجنائز؛ السنن للنسائي ٢: ١٧١ كتاب الجنائز.

٢- الشورى: ٢٣.

الفصل الخامس الحياه البرزخيّه

اشاره

ابن تيميه و أثر منهجه فى العقيدة و الشريعة

تمهيد: ابن تيميه و أثر منهجه فى العقيدة و الشريعة

فى العصر الذى تحالفت فيه الوثنية و الصليبية على تدمير الإسلام و تحطيم كيانه فى أراضيه، و الذى ينبغى فيه للعالم المسئول فى مثل هذا الظرف الحرج، أن يتصدى لهذه المواقف الخطيره، و يعمد إلى تجميع القوى و تكريسها؛ ليكون المسلمون نصفاً واحداً و يداً واحده و قوه حاميه للإسلام أمام الزحف الوثنى القادم من المشرق، المتمثل آنذاك فى الهجمه المغوليه الشرسه المدمّره، و الزحف الصليبي القادم من الغرب، المتمثل فى الحملات النصرانيه الحاقده، على مقدسات المسلمين فى فلسطين.

فى مثل هذا العصر نرى من يطرح نفسه عالماً ديتياً عارفاً بالكتاب و السنّه، يطرح على الساحة قضايا و مسائل من شأنها تعكير الصفو، و بلبله الأذهان، و شقّ الصفوف، و بالتالى تضعيف القوه الإسلاميه التى قوامها الوحده.

أفيمكن و الحال هذه وصف مثل هذا الشخص بأنه عالم عارف أو شيخ إسلام أحيا السنّه و أمات البدعه؟!

لقد كانت النصارى بالمرصاد للمسلمين و كان من أماتيهم الاستيلاء على القدس الشريف، و انتزاعه من أيدي المسلمين بحجه كونه مولد المسيح، و قبله

النصارى، و لهذا شتوا الغاره تلو الغاره، و الحمله تلو الحمله على بلاد المسلمين من أواخر القرن الخامس (سنة ٤٩٠ هـ) إلى أواسط القرن السابع، و كان للحروب الصليبيه هذه مراحل ثمان و كان انتصر المسيحيون فى بعضها و هزمت قواتهم فى البعض الآخر.

و قد تحمّل المسلمون جزاء هذه الحملات الكبرى خسائر كبرى، لا يستطيع البنان و اللسان عدّها و إحصاءها، و لا تصويرها، و بيانها.

و فيما كان الجرح نازفاً من جهه الغرب، تعرّضت البلاد الإسلاميه من ناحيه الشرق فى عام ٦١٦ هـ لحمله شعواء و ثنيه الجذور لاقتلاع الإسلام من أساسه و القضاء على أصوله و فروعه، و إباده حضارته و مدنيته و امتدّت إلى أن سقطت الخلافة العباسيه بأيدى أولئك الوثنيين عام ٦٥٦ هـ، و كانت الخسائر فى النفوس و الأرواح كبيره قاربت المليون، بل أكثر.

و بقى التدمير و الحرب سائدين فى البلاد إلى أواخر هذا القرن، بل امتدّا إلى أواخر القرن الثامن.

ثم وقعت فى الشمال الغربى من البلاد الإسلاميه أعنى الأندلس كارثه أخرى، هى إباده المسلمين و تصفيتهم بقتلهم أو بترحيلهم عن بلادهم و أوطانهم بأعداد كبيره و هائله.

فإذا نظرنا إلى الجدول التاريخى نرى أنّ هذه القرون الأربعه تعدّ من شرّ القرون على العالم الإسلامى حيث فيها:

١- ابتدأت الحروب الصليبيه من عام ٤٩٠ هـ و استمرت إلى عام ٦٩٠ هـ «(١)».

٢- ابتدأت الحروب التتريه (المغوليه) من عام ٦١٦ هـ و انتهت عام ٨٠٧ هـ «(٢)».

١- و ٢ الدوله العباسيه: ٢ / ٣٧٤ - ٣٩٨.

٢- و ٢ الدوله العباسيه: ٢ / ٣٧٤ - ٣٩٨.

٣- أُبِيدَ المسلمون في أوطانهم بإسبانيا و الأندلس، أو رحلوا من عام ٦٠٩ هـ إلى عام ٨٩٨ هـ.

ففي هذه الظروف المأساوية المتّسمه بالقتل و التنكيل و التشريد، و الهدم، و المقرونه بإحراق المكتبات و تدمير الثقافه الإسلاميه، نرى أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمیه يطرح مسائل باسم التوحيد و الشرك و يُقسّم المسلمین إلى قسمین: موحد و مشرک.

فالأوّل هو من يتّبع خطواته و أفكاره، و الثاني هم المخالفون؛ و هم الأكثرية الساحقه من المسلمین.

فهل طرحت هذه المسائل المفترقه لصفوف المسلمین بدوافع إيمانيه، و بحجّه الدفاع عن حوزة الدين و الإيمان. أو أنه كان وراء الأكمه ما وراءها، و أنه كانت هناك وراء الكواليس أمور أخرى لا يعلمها إلاّ الله، أو أنّ طارح هذه الأفكار كان إنساناً ساذجاً و مغفلاً غير واقف على مصالح الإسلام و المسلمین و لا عارف بما يصلحهم في ذلك الظرف العصيب و ما يفسدهم. و بكلمه قصيره: ما كان يعرف الداء و لا الدواء.

و نحن لا نقضى بشيء عليه فالتاريخ خير قاضٍ، و العلم عند الله تبارك و تعالی.

و على أيّ نحو فسّر موقف الشخص المذكور، فقد أنتج هذا الموقف ثلاث نتائج سيئه، لم تزل آثارها الخطيره باقيه إلى الآن:

١- الحطّ من شأن الأنبياء و الأولياء و الصالحين و الشهداء و الصديقيين، و إنزالهم عن مقاماتهم المعنويه العاليه التي أعطاهم الله إياها بجهادهم، و إخلاصهم، و وفائهم للعقيده و دفاعهم عن الشريعه.

٢- تعريض الآثار الإسلاميه للمحو و الإباده و الطمس و الهدم، على حدّ لا يبقى من آثار النبيّ و المسلمین الأوائل شيء يدلّ على وجودهم، و على تفانيهم

و توضيحاتهم، لو أُتيح لأتباع هذه الفكرة، و أنصار هذا الرجل أن ينفذوا كلَّ ما ربههم، و مرامهم.

و بالتالى لو وُفقوا لذلك، لتحوّل الإسلام فى رؤيه الأجيال المستقبله إليصوره أسطوريه لا واقع لها و لا أساس، إلّا بين الكتب و الأوراق، أو فى عالم الأذهان و الأفكار.

٣- تفرغ الدين من محتواه الداخلى، الغنى، حيث قاموا بتفسير القرآن بحرفيته، فأثبتوا لله سبحانه الجسمانيه و الجهه، و المكان، و سائر ما تتمتع به المخلوقات من الأوصاف و الحالات، و ما لها من الأعضاء و الجوارح. و هذا واضح لمن طالع رسائل الرجل المذكور، و كتاباته.

هذه أبرز النتائج التى ترتبت على هذا المنهج الفكرى الذى قدّمه ابن تيميه، و لكنّه لم يوفق لتأصيل و تعميم ما كان ينويه و يهدف إليه و يسعى إلى نشره و حمل الناس عليه، و ذلك لأنّه:

أولاً: واجه مخالفة العلماء الكبار من جميع المذاهب فى البلاد المنعمه بالعلم و الإيمان، و الحبّ للرسول و آله فى مصر و الشام و غيرها، و لأجل ذلك بقيت فكرته بذره فى ثنايا الكتب تنتظر أرضيه مناسبه لنموها، و تجددّها.

ثانياً: واجه ما كان المسلمون مفظورين عليه من حبّ للإسلام، و الرساله المحمديّه الشريفه، و تعلق فطرى سليم بالرسول الكريم صلى الله عليه و آله و آثاره، و ما كان مركزاً فى أذهانهم منذ قرون من مشروعيه لمظاهر التكريم و التبجيل للأنبياء و الأولياء و الصالحين.

و كانت الظروف على هذه الحال، و لم تكن مناسبه لنموّ و توسع هذه البذره إلى أن انتقلت إلى أراض قاحله من العلم و المعرفه من بقاع نجد، فسقيت البذره على يد محمّد بن عبد الوهاب النجدى (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) فأخذت البذره تنمو بين قوم أميين لا يعرفون المعارف الصحيحه، بل تغلب عليهم البداهه و الجاهليه، و قد

استغل محمّد بن عبد الوهاب هذا النمط من الناس لتعميق هذه الفكرة، و دعمها وإشاعتها، و من سوء الحظ أنّ أمير المنطقه محمّد بن سعود (حاكم الدرعيه)، من أمارات نجد، أيّده في فكرته و اتّفقا على المناصب و الدعم المتقابل، و بذلك عادت الفكرة إلى الساحة باسم الوهابيه، و أخذت تنمو شيئاً فشيئاً بين أعراب نجد و ما حولها، و قد وقعت مناوشات و حروب داميه بين هذه الفرقه و الخلفه الإسلاميه العثمانيه مرّات، بفضل القوات المصريه التابعه للخلفه آنذاك.

و في خلال الحرب العالميه الأولى انهارت الخلفه الإسلاميه و تبدّلت إلى ملكيات، و أمارات يحميها الاستعمار البريطاني و الفرنسي، فاستولى أمير الوهابيه عبد العزيز بن سعود على مكه و المدينه عام ١٣٤٤ هـ، و بذلك سيطروا على أقوى مركز من مراكز التبليغ و الدعوه، و صار لهم نشاط نسبيّ في تبليغ الفكرة و نشرها، و كبح الألسن و إجماعها و السيطرة على المخالفين و المعارضين.

و مع ذلك لم يكن النجاح حليفهم إلى أن اكتشفت في المنطقه الشرقيه (الظهران) أكبر معادن البترول، فصار أمير الوهابيه يملك أكبر ثروه في العالم سخّرها لصالح قبيلته، و نشر الفكرة التي نشأ عليها هو و آباؤه، و لو لا هذه الظروف الاتفاقيه لا تحسّ منهم من أحد، و لا تسمع لهم ركزاً.

إنّ التاريخ يعيد نفسه، ففي الوقت الذي تشنّ القوى الكافره من الصهاينه و الصليبيين، الغاره تلو الغاره على الأطفال و الشباب لمسح هويتهم الإسلاميه بشتى الوسائل، حتّى أنّ الإنجيل قد ترجم في عقر دار المسلمين بمختلف اللغات الدارجة في البلاد الإسلاميه.

ففي هذا الوقت العصيب الذي تدمع عين الإسلام دماً، نرى الوهابيين مستمرين على تهديم الآثار الإسلاميه الباقية، بمعاولهم الهدامه تحت غطاء توسيع المسجدين، و موزعين ملايين الكتب و الأشرطة، كلّها مكرّسه للهجمه الشرسه

على المسلمين قاطبه و الشيعة الإماميه خاصه، و لا تتبنى من العلم الصحيح الناجع لداء المسلمين اليوم، شيئاً، سوى أنّ البناء على القبور و تقبيل الضريح و التوسّل بالأولياء و طلب الشفاعة منهم شرك و بدعه.

فيا لله و للمسلمين من هذا التفريق و التبديد، و الإسراف و التبذير!! أما آن لهؤلاء المغفلين أن ينتبهوا من غفلتهم، و يسعوا في سبيل وحده المسلمين، مكان تفريقهم و إذلالهم، إذا كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين؟

و على كلّ تقدير، فنحن أمام هذه الكارثة التي هزّت وحده المسلمين و جعلتهم فريسه للمستعمرين و وسيله للتقاتل و التخاصم و التنازع و التناوش، مكان بذل الجهد و تكريس التعاون لأهم الأمور و هو حفظ استقلالهم و التخلّص من مخالب المستعمرين و تنشيط اقتصادهم و تجديد سيادتهم على العالم.

و هنا نحن نغضّ الطرف عن جميع ما ذكرنا و ندعو علماء الوهابيه في الحجاز و الرياض أن يقيموا مؤتمراً إسلامياً يحضره علماء من كافة المذاهب الإسلاميه، لدراسه مسائل عديده- ممّا يميز بها الوهابيون عن غيرهم- في جوّ هادئ تسيطر عليه الروح الموضوعيه و العلميه، و البعيده عن السيطره السياسيه حتى يتبين الحقّ عن الباطل، و تتم الحجه على الجاحد، و لعلّ في هذا المؤتمر نجاح الإسلام و المسلمين و توحيد الكلمه، كما أنّ لهم كلمه التوحيد.

و بما أنّ الحياه البرزخيّه بعد الانتقال من الدنيا، هي الأساس لنقد دعاياتهم و عقائدهم خصّصنا هذا البحث لتحقيقها و البرهنه عليها بالكتاب و السنّه و العقل الصريح، في ضمن مباحث.

المبحث الأول حقيقه الإنسان؛ روحه و نفسه**اشاره**

لم يزل الإنسان عبر القرون يبحث عن الحياه و حدّها و منشئها و مُنتهاها بحثاً حثيثاً، كى يقف على معالمها و آثارها و كيفيه حدوثها بين الموجودات الحيه. و قد أذى هذا البحث و الولع الشديدان إلى نشوء قسم مختص يعرف ب «عالم الأحياء»، و قد كرس لفيف من العلماء جُلّ أعمارهم فى سبيل ذلك و خرجوا بنتائج باهره معروفه.

و الغايه القصوى من دراسه الظاهره الحياتيه، هى الوقوف على واقع الإنسان، و هل هو عباره عن هيكل مادى متكوّن من عروق و أعصاب و عظام و غيرها من المكوّنات الماديه فحسب، أم أنّ هناك وراء هذا المظهر المادى جوهرأ آخرَ يكوّن حقيقه الإنسان و يُشيد واقعه و الإنسان به يكوّن إنساناً؟

و بعباره أُخرى: أنّ الباحث يحاول أن يقف على ذاته و واقعه، و أنّه هل هو موجود آلىّ مركب من أدوات ماديه مختلفه تتفاعل أجزاءه بعضها ببعض، أو أنّ وراء هذا الموجود الآلىّ حقيقه قدسيه هى واقع الإنسان و هى المدبّره لما تراه و تظنّه إنساناً؟

فالعلماء فى هذا المجال على رأين:

الأول: الإنسان موجود آلى مركب من عرق و عصب و لحم و عظم، و ما الشعور إلاً نتيجة تفاعل هذه الأجزاء بعضها ببعض، و ليس وراء هذا التركيب المادى أى وجود آخر باسم الروح و النفس، و أنّ الإنسان يفنى بموته، و به تنتهى شخصيته و «ليس وراء عبّادان قريه» و قد انطلت هذه النظرية فى القرنين الثامن عشر و التاسع عشر على كثير من الباحثين فى الغرب، و بذلك قاموا بنفى العوالم الغيبية وراء المادة، و حسبوا أنّ الوجود يساوى المادة و هى أيضاً تساويه، و بذلك شيّدوا المذهب المادى فى ذينك القرنين.

الثانى: أنّ واقع الإنسان الذى به يعدّ إنساناً، هو نفسه و روحه، و ليس جسمه إلا أداه بيد روحه و جهازاً يعمل به فى هذا العالم المادى، و هذا لا يعنى أنّه مركب من جسم و روح، بل أنّ الواقع فوق ذلك، فالإنسان هو الروح، و الجسم كسوه عليه، و نعمّ ما قيل:

يا خادّم الجسم كم تسعى لخدمته أ تطلب الربح فيما فيه خسرانُ

أقبل على النفس و استكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

و من حسن الحظ أنّه فى الوقت الذى كان المادى يرفع عقيرته و ينادى بأنّه ليس وراء المادة شىء أثبتت البحوث العلميه بطلان هذه النظرية، فقام الروحيون بنشر رسائل عديده و كتب كثيره تشتمل على تجاربهم و أدلّتهم فى هذا المضمار، و بذلك دمّروا ما بُنى من تفكيرات ماديّه بمعاولهم العلميه.

و بما أنّ بحثنا فى هذه الفصل يعتمد على الكتاب و السنّه فنترك أدلّتهم للقارئ

الكريم للبحث عنها في مظانها، و لكن قبل أن ندرس قضاء الكتاب و السنه في المقام نأتى ببعض الأدله العقلية التي تتجاوب و شعور قرائنا فإنها دلائل واضحه- على أن وراء الجسم واقعاً آخر باسم الروح- يخضع أمامها كل إنسان واع و إن لم يقرأ كتاباً فلسفياً، و لم يقرع باب العلوم العقلية، لأن ما يمرّ عليه كلّها أمور وجدانيه يحسّ بها كلّ إنسان إذا تجرّد عن رأى مسبق.

الشخصية الإنسانية المعبر عنها بال «أنا»:

لم يزل كل واحد منا ينسب جميع أفعاله إلى موجود نعبر عنه بال «أنا» و يقول:

«أنا فعلت» «أنا أكلت» و «أنا ضربت» و ربما ينسبها إلى الضمائر المتصلة القائمة مكان «أنا» فيقول: «قرأت»، «كتبت»، «أردت» و «أجبت»، فإذا ن يقع السؤال حول تعيين الموضوع الذى تنسب إليه هذه الأفعال، فما هو إذن؟ هل هو هذا الجسم المادى، أو شىء آخر وراء ذلك؟ فلو كان الموضوع هو الجسم المادى منه، لا يكون دليلاً على وجود جوهر آخر مجرد عن المادة و آثارها، و لو كان الموضوع أمراً غيره، يثبت به موضوع وراء المادة، مقترن بجسمه و حياته المادية.

ثم إننا ننسب أعضاءنا إلى شىء آخر وراء الجسم المادى هذا و نقول: «رأسى» و «قلبى» و «بطنى» و «قدمى» فهذه أعضاء رئيسيه للجسم المادى «الإنسان»، و مع ذلك فإننا ننسبها إلى شىء آخر وراء هذا الجسم المادى.

و ربما نتجاوز إلى أكثر من هذا فننسب نفس الجسم بأكمله إلى شىء آخر، فنقول: «بدنى»، فإذا ن ما هذا المضاف إليه فى جميع هذه الانتسابات، من انتساب الأفعال و الأعضاء و البدن بأكمله؟

و بما أن كل قضية تتركب من موضوع و محمول، فبداهه العقل تحكم بأن لهذه المحمولات موضوعاً و إن لم يكن مرثياً إلا أننا ندركه من خلال هذه المحمولات.

و بعبارة واضحة: أن الأفعال البشرية رغم صدورها من أعضاء مختلفه كالإبصار بالعين، و الرفع باليد، و المشى بالرجل، و السمع بالأذن، فالإنسان ينسبها جميعاً إلى مصدر واحد، فيقول:

«أنا شاهدت»، «أنا مشيت» و «أنا سمعت» كما ينسب كل عضو من جسمه

إلى مصدر كذلك، فإذا تطلب هذه المحمولات موضوعاً واحداً لنفسها، حتى لا تكون القضية مجرد انتسابات بلا موضوع، و عندئذ يكون هذا المصدر الواحد هو الشخصيه الواقعيه للإنسان التي نعبر عنها بروحه و نفسه.

فالتتيجه: أنّ الشخصيه الإنسانيه تكمن وراء جسمه و صورته الظاهريه.

ثبات الشخصيه الإنسانيه في دوامه التغييرات الجسديه:

إنّ كل واحد منا يحس بأنه باقٍ في دوامه التغييرات و التحوّلات التي تطرأ على جسمه، فمع أنّه تمرّ عليه أحوال كثيره و تبدّلات جوهريه عبر مراحل الطفوله، و الصبى، و الشباب، و الشيخوخه، إلا أنّه يجد أنّ شيئاً واحداً ينسب إليه جميع هذه الصفات و الحالات و هو باقٍ خلال هذه التغييرات، غير متغير. فيقول: أنا الذي كنت طفلاً، ثمّ يافعاً، ثمّ شاباً، ثمّ كهلاً، ثمّ شيخاً، فيدرك أنّ هناك حقيقه باقيه ثابتة رغم تغيير كلّ هذه الأحوال و الأوضاع و تصرّم الأزمنه و انقضاء الأوقات، فقد تغير كل شىء خلال سبعين سنه و لكن هناك أمر باقٍ لم يتغير و لم يتبدل، و هو الذي يحمل تلك الصفات و الأحوال، فالمتغير غير الثابت، و التغيير آيه الماديه، و الثبات آيه التجرد عن أحكام الماده.

بل نرى أنه ينسب إلى نفسه الفعل الذي قام به قبل خمسين سنه و يقول: «أنا الذي كتبت هذا الخط يوم كنت طفلاً» و هذا يعرب عن إدراكه بوجوده أنّه هو الذي كتب ذلك الخط سابقاً، فلو لم يكن هناك شىء ثابت إلى زمان نطقه بهذا الكلام لزم كذب القضية و عدم صحتها، و ذلك لأنّه لو كان الإنسان خلاصه الأجزاء الماديه الظاهره فالمفروض أنّها زالت و حدثت بعدها شخصيات جسمانيه متعدده، فأين الإنسان أيام صباه، منه أيام شيخوخته، و قد تحوّلت و تبدّلت عظامه و عروقه و أعصابه في دوامه التغييرات و تحلّل منه كلّ شىء و تخلّفت عنه

أشياء آخر؛ مثلها شكلاً و غيرها حقيقه.

فعملية التغيير فى جسمه مستمره؛ و لا- زالت الخلايا تتلف و تُستعاض بأخر، و لكن الإنسان يرى نفسه ثابتاً فى مهبة تلك التحولات، فكأن هناك أمراً ثابتاً طيله سبعين عاماً يحمل تلك التحولات، فهو يشعر فى جميع مراحل حياته أنه هو الإنسان السابق الذى وجد منذ عشرات السنين.

نفترض أن إنسانا جنى و له من العمر عشرون عاماً، و لم يقع فى قبضه السلطات إلى أن ألفت القبض عليه و له من العمر ستون عاماً، فعند ذلك يقف فى قفص الاتهام ليحاكم على جرمه، فإذا به محكوم بالإعدام على ما جنت يده بقتله أناساً أبرياء، فلا القاضى و لا الحاضرون فى جلسه المحكمه يرون الحكم الصادر بحقه جائراً، بل يراه الجميع أنه وفق العدالة.

و لو كان الإنسان عباره عن جسم مادى، فقد تغيرت خلاياه مرات عديدة طيله تلك الأعوام، لكن الحاضرين و القاضى و كل سامع، يرى أنه نفس ذلك الإنسان الجانى، فما هذا إلا لأن هناك حقيقه ثابتة فى دوامه المتغيرات، لم يطرأ عليها أى تغيير، بل بقيت محفوظه مع كل هذه التبدلات، و إذا كان التغيير منصفات الماده، و الثبات و الدوام منصفات الموجود غير المادى، نستكشف من ذلك أن واقع الإنسان غير مادى و ثابت فى جميع الحالات، و هذا ما نعبر عنه بالروح المجردة، أو النفس المجردة.

و لا- يخفى أن هذا البرهان غير البرهان السابق، فمنطلق الأول هو وجود الموضوع لجميع المحمولات، و منطلق البرهان الثانى هو ثبات الموضوع فى دوامه التحولات و التغيرات الطارئة على البدن.

و فى النهايه نقول: قد لخص الرازى هذا البرهان فى تفسيره و قال: إن أجزاء هذا الهيكل أبداً فى النمو و الذبول، و الزيادة و النقصان، و الاستكمال و الذوبان، و لا

شكَّ أنَّ الإنسان من حيث هو هو أمر باق من أوّل عمره، و الباقي غير ما هو غير باق، و المشار إليه عند كل أحد بقوله «أنا» و جب أن يكون مغايراً لهذا الهيكل (١)».

علم الإنسان بنفسه مع غفلته عن بدنه:

ترى الإنسان يغفل في ظروف خاصه عن كل شىء حتى عن بدنه و أعضائه، لكنّه لا يغفل عن نفسه، و هذا برهان تجريبي يمكن لكلّ منّا القيام به، و بذلك يصح القول بأنّ للإنسان وراء جسمه المادّي حقيقه أخرى، حيث إنّّه يغفل عن الأولى و لا يغفل عن الثانيه، و بتعبير علمي: المغفول، غير المغفول عنه، و إليك توضيح ذلك:

إنّ إدراك هذه الحقيقه (يغفل عن كل شىء حتى جسمه و لا يغفل عن نفسه) يتوقف على ظروف خاصه بالشكل التالي:

- ١- أن يكون في جوّ لا يشغله فيه شاغل و لا يلفت نظره لافت.
- ٢- أن يتصور أنّه وجد في تلك اللحظه بالذات و أنّه كان قبل ذلك عدماً، و ما هذا إلّا ليقطعصلته بماضيه و خواتره قطعاً كاملاً.
- ٣- أن يكون صحيح العقل سليم الإدراك، في تلك اللحظه.
- ٤- أن لا يكون مريضاً لا يلفت المرض انتباهه إليه.
- ٥- أن يستلقى على قفاه و يفرّج بين أعضائه و أصابع يديه و رجليه حتى لا تتلامس فتجلب انتباهه إليها.
- ٦- أن يكون في هواء طلق معتدل لا- حار و لا- بارد و يكون كأنّه معلّق في الفضاء حتى لا يشغله وضع المناخ، أو يلفته المكان الذي يستند إليه.

ففي هذه الحاله التي يقطع الإنسان كلصلاته بالعالم الخارجى عن نفسه تماماً

و يتجاهل حتى أعضائه الداخليه و الخارجيه و يجعل نفسه فى فراغ من كل شىء و عندئذ يستشعر بذاته، أى سيدرك شيئاً غير جسمه و أعضائه و أفكاره و بيئته التى أحاطت به، و تلك هى «الذات الإنسانيه» أى الروح أو النفس الإنسانيه التى لا يمكن أن تفسر بشىء من الأعضاء و الحواس و القوى.

و هذه البينونه أظهر دليل على أنّ للإنسان وراء جسمه و أعضائه المغفول عنها فى بعض الظروف، حقيقه واقعيه غير مغفول عنها أبداً، و أنّ الإنسان ليس هو جسمه و أعضاؤه و خلاياه.

و قد لخص الرازى هذا البرهان و قال: إنى أكون عالمياً بأنى «أنا» حال، أكون غافلاً عن جميع أجزائى و أبعاضى، و المعلوم، غير ما هو غير معلوم فالذى أُشير إليه بقولى مغاير لهذه الأعضاء و الأبعاض «١».

إلى هنا اكتفينا بالبراهين الواضحه التى يسهل التمعّن فيها لكل إنسان واع و إن لم يدخل مدرسه كلاميه أو فلسفيه، و بذلك استغنينا عن البراهين المعقده التى أقامها الفلاسفه على وجود الروح فى كتبهم، و بما أنّ رسالتنا فى هذه البحوث مقتصره على الاعتماد على الكتاب و السنّه، لذلك ندرس واقع الإنسان و حقيقته على ضوء دينك المصدرين و نكتفى فى هذا الحقل بآيات ثلاث.

القرآن و حقيقه الشخصيه الإنسانيه:

إشاره

إذا استعرضنا آيات القرآن الكريم نقف على أنها تدلّ تارة بوضوح و أخرى بالإشاره على أنّ واقع الإنسان و شخصيته غير جسمه المادى، و نحتج فى المقام بآيات:

الآيه الأولى:

قال سبحانه: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (١).

الآيه تردّ على ادعاء المشركين القائلين بأنّ الموت بطلان الشخصيه و انعدامها، و أنّها منوطه بجسده المادى، بأنّ شخصيته قائمه بشىء آخر لا يضلّ و لا يبطل، بل يؤخذ عن طريق ملك الموت إلى أن يحشره الله يوم القيامة.

و إليك بيان الشبهه و الإجابته، فى ضمن تفسير آيتين:

قال سبحانه:

١- «وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» (٢).

٢- «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

تدلّ هاتان الآيتان على «خلود الروح» بعد انحلال الجسد و تفكّكه و ذلك بالبيان الآتى:

كان المشركون يستبعدون إمكانيه عوده الإنسان بعد تفكّك جسمه المادى و تبدّده فى التراب.

و لهذا اعترضوا على فكره الحشر و النشر يوم القيامة، و قد عبر القرآن الكريم عن اعتراضهم بقوله:

«قَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ».

يعنى أنّ الموت يوجب فناء البدن، و تبعض أجزائه، و ضياعها فى ذرات التراب، فكيف يمكن جمع هذه الأجزاء الضّاله المتبعثره، و إعادته تكوين الإنسان

١- السجده: ١١.

٢- السجده: ١٠.

مره أخرى من جديد؟

فردّ القرآن الكريم هذا الاستبعاد و الاعتراض بجملتين هما:

١- «بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» (١).

٢- «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ» (٢).

فلا شك أنّ الجملة الأولى ليست هي الجواب على اعتراضهم حول إمكانية إعادته المعدوم من أجزاء الجسد، بل هي توييخ لهم على إنكارهم لقاء الله و كفرهم بذلك، و إنّما ترى الجواب الواقعي على ذلك في الجملة الثانية، و حاصله هو: أنّ ما يضلّ من الآدمي بسبب الموت إنّما هو الجسد و هذا ليس حقيقة شخصيته، فجوهر شخصيته باقٍ، و إنّ الذي يأخذه ملك الموت و ينتزعه من الجسد ليس إلّا الجانب الأصيل الذي به تناط شخصيته و هو محفوظ عندنا.

إذن فالضال في التراب من الإنسان - بسبب الموت - هو القشر و البدن، و أمّا حقيقته و هي الروح الإنسانية التي بها قوام شخصيته، فلا يطالها الفناء و لا ينالها الدثور.

التوفّي في الآيه ليس بمعنى الإماتة، بل بمعنى الأخذ و القبض و الاستيفاء، نظير قوله سبحانه: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» (٣) و قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» (٤) و من قولهم «وافاه الأجل» و بعبارة أخرى: لو ضلّ بالموت كلّ شيء من وجودكم لكان لاستبعادكم إمكان إعادته الإنسان وجه مقبول.

١- السجده: ١٠.

٢- السجده: ١١.

٣- الزمر: ٤٢.

٤- الأنعام: ٦٠.

و أما إذا بقي ما به واقعتكم و حقيقتكم و هى النفس الإنسانيه و الروح التى بها قوام الجسد، فلا يكون لهذا الاستبعاد مبرر؛ إذ تكون الإعادة حينئذ أمراً سهلاً و ممكناً لوجود ما به قوام الإنسان.

قال العلامة الطباطبائي فى تفسير هذه الآيه:

«إنَّه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبيته على الاستبعاد، بأنَّ حقيقه الموت ليس بظلاماً لكم، و ضلالاً منكم فى الأرض، بل ملكُ الموت الموكَّل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أى ينزع أرواحكم من أبدانكم، بمعنى قطع علاقتها من الأبدان، و أرواحكم تمام حقيقتكم، فأنتم أى ما يعنى بلفظه «كُم»:

محفوظون لا- يَضَلُّ منكم شىء فى الأرض، و إنما تَضَلُّ الأبدان، و تتغير من حال إلى حال، و قد كانت فى معرض التغير من أول كينونتها، ثم إنَّكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها.

و بهذا تندفع حجتهم على نفى المعاد بضلالهم سواء أقررت على نحو الاستبعاد أم قررت على أن تلاشى البدن يُبطل شخصيه الإنسان فينعدم، و لا معنى لإعادة المعدوم، فإنَّ حقيقه الإنسان هى نفسه التى يحكى عنها يقول «أنا» و هى غير البدن، و البدن تابع لها فى شخصيته، و هى تلاشى بالموت و لا تنعدم، بل محفوزه فى قدره الله حتى يؤذن فى رجوعها إلى ربها للحساب و الجزاء فيبعث على الشريطه التى ذكر الله سبحانه» (١).

الآيه الثانيه:

قال سبحانه: «يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارجعى إلى ربك راضيه مرضيه* فادخلى فى عبادى* و ادخلى جنتى» (٢).

١- تفسير الميزان ١٦: ٢٥٢.

٢- الفجر: ٢٧ - ٣٠.

فآلآيه لم تخاطب جسد الإنسان و أعضائه كما ترى، بل واقعه و حقيقته التى يعبر عنها الذكر الحكيم بالنفس، و اختار من بين النفوس الكثيره النفس المطمئنه و هى التى تسكن إلى ربها، و ترضى بما رضى به لها، فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر، أو نفع أو ضرر.

و يرى الدنيا دار مجاز و ما يستقبله فيها من غنى أو فقر، أو أى نفع و ضرراً ابتلاءً و امتحاناً إلهياً؛ فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان و إكثار الفساد، و العلوّ و الاستكبار، و لا يوقعه الفقر و فقدان فى الكفر و ترك الشكر.

ثم يخاطبها بخطاب آخر و يقول: «ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً»، و ظرف الخطابين من حين نزول الموت إلى دخول جنه الخلد، ثم يخاطبها بخطاب ثالث و رابع و يقول: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي» و هما تفريعان على الخطاب الثانى الماضى أعنى: «ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ...» و قوله: «فِي عِبَادِي» يدل على أنها حائزه مقام العبوديه و فى قوله: «جَنَّتِي» تعيين لمستقرها و فى إضافه الجنه إلى ضمير التكلم، تعريف خاص، و لا يوجد فى كلامه تعالى إضافه الجنه إلى نفسه تعالى و تقدس إلاً فى هذه الآيه (١).

و المخاطب فى هذه الخطابات الأربعة، ليس جسده البارد الذي صار بالموت بمنزله الجماد، و لا عظامه الرميحه الدفينه فى طبقات الثرى، بل نفسه و روحه الباقيه غير الدائره.

و لو خُصَّ ظرف الخطاب بيوم البعث من لدن إحيائها إلى استقرارها فى الجنه، لما ضرر بالاستدلال و إن كان على الوجه الأول أظهر.

و الحاصل: فسواء قلنا بأن ظرف الخطاب هو زمان الموت أو زمان البعث،

فالمخاطب هو نفس الإنسان لا بدنه ولا أعضاؤه فتدلّ على أنّها واقعته و الباقي كسوه عليها.

الآيه الثالثه:

قال سبحانه: «فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ* وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ» (١)

وجه الدلاله: أنّ الحلقوم جزء من جسمه فهناك أمر آخر يبلغ الحلقوم عند الموت و ليس إلّا النفس التي تنتقل من دار إلى دار. و لو كانت حقيقه الإنسان هو جسده المادى، فلا معنى للبلوغ و لا للنزوع و الخروج.

و بذلك يُعلم أنّ بعض ما سنستدل به فى الفصل الآتى، يدل ضمناً على ما نحن الآن بصدد بيانه، و لأجل ذلك نقتصر فى المقام على الآيات الثلاث، و نحيل الاستدلال بغيرها إلى ما سيوافيك فى المبحث القادم.

ما هى حقيقه النفس الإنسانيه؟

إنّ كثيراً من القوى الطبيعیه معروفه بآثارها لا- بحقائقها، فالكهرباء نعرفها بآثارها، كما أنّ الذره أيضاً كذلك، فالعالم بالحقائق هو الله سبحانه، و ليس حظّ الإنسان فى ذلك الباب إلّا الوقوف على الآثار، فإذا كانت هى حال القوى الكامنه فى الطبيعیه، فالروح أولى بأن تكون كذلك، غير أنّ كثيراً من المتكلّمين و بعض المحدثين خاضوا فى هذا الباب و لم يأتوا بشىء واضح، و أقصى ما عندهم: أنّها جسم مخالف بالماهيه لهذا الجسم المحسوس، و هو جسم نورانى، علوى، خفيف، حى، متحرك ينفذ فى جوهر الأعضاء و يسرى فيها سريان الماء فى الورد، و الدهن فى الزيتون، و النار فى الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحه لقبول الآثار الفائضه

عليها من هذا الجسم اللطيف، بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء و أفادها هذه الآثار من الحس و الحركة الإرادية. و إذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، و خرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن، و انفصل إلى عالم الأرواح.

قال ابن قيم الجوزية: و هذا القول هو الصواب فى المسأله، و هو الذى لا- يصح غيره، و كل الأقوال سواه باطله، و عليه دلّ الكتاب و السنّه و إجماع الصحابه و أدلّه العقل و الفطره «(١)».

أقول: ما قاله و نقله ابن قيم، أحسن ما نقل عنهم فى المقام، و لكن واقع الروح و منزلته أرفع بكثير مما جاء فى هذا الكلام، و تشبيهه بسريان الماء فى الورد و الدهن فى الزيتون و النار فى الفحم يعرب عن سطحه الدراسه فى المعارف الغيبية، و عدم التفريق بين مراتب الروح؛ فإنّ مرتبه منها يشبه بما ذكر، و أمّا المرتبه العليا أعنى المخاطب بقوله سبحانه: «يأتيها النفسُ المطمئنه* ارجعى إلى ربك راضيه* مرضيه* فادخلى فى عبادى* و ادخلى جنّتى» «(٢)»

فهى أرفع كرامه من أن يكون شأنها شأن الأمور الماديه اللطيفه، و التفصيل موكول إلى محله.

١- الروح: ص ١٧٨.

٢- الفجر: ٢٧- ٣٠.

استمرار الحياه بعد الانتقال من الدنيا

المبحث الثاني استمرار الحياه بعد الانتقال من الدنيا أو بقاء الروح بعد الموت

اشاره

قد تعرّفت في الفصل السابق على أنّ واقع الإنسان روحه و نفسه، و أنّ الجسم المادّي منه ليس إلّما كسوه عليه، و النفس هي اللبّ، و البدن قشره، و قد قرّبناه إلى ذهن القارئ تقريباً سهلاً مستندين في ذلك على ما ورد في الكتاب العزيز مضافاً إلى ما مرّ من قضاء العقل الصريح في هذا المضمّار.

و نركّز في فصلنا هذا على خلود الروح بعد الموت، و أنّها باقيه ياذهنه سبحانه إلى أن يرث الله سبحانه الأرض و من عليها و ما فيها، و نقتصر في المقام - بدل الاستدلال بالبراهين العقلية - على صريح الآيات و نصوص الذكر الحكيم حتى لا يبقى لمريب ريب و لا لمشكك شكّ.

الآيه الأولى

اشاره

قال سبحانه: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١)

توضيح الاستدلال يتوقف على التمعّن في أمرين:

١- المراد بالأنفس هي الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموعهما؛ لأنّ المقبوض عند الموت ليس هو المجموع، بل المقبوض هو الروح، والآية تدلّ على أنّ الأنفس تغاير الأبدان حيث تفارقها و تستقلّ عنها و تبقى بحيالها.

٢- أنّ لفظه «يتوفّى» و «يمسك» و «يرسل» تدلّ على أنّ هناك جوهرًا غير البدن المادّي في الكيان الإنساني، يتعلّق به كل من «التوفّى» و «الإمساك» و «الإرسال» و ليس المراد من التوفّى في الآية إلّا أخذ الأنفس و قبضها، و معناها أنّه سبحانه يقبض الأنفس إليه، وقت موتها و منامها، بيد أنّ من قضى عليه بالموت يمسكها إلى يوم القيامة و لا تعود إلى الدنيا، و من لم يقض عليه به يرسلها إلى الدنيا إلى أجل مسمّى، فأيّ دلاله أوضح من قوله أنّه سبحانه يمسك الأنفس، فهل يمكن إمساك المعدوم أو أنّه يتعلّق بالأمر الموجود؟ و ليس ذلك إلّا بالأنفس.

الآية الثانية

قوله سبحانه: «و لا تقولوا لمن يُقتل في سبيلِ الله أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ و لكنّ لا تَشْعُرُونَ» (٢)

و قد جاء في أسباب نزولها، أنّ المشركين كانوا يقولون: إنّ أصحاب محمّد صلى الله عليه و آله يقتلون أنفسهم في الحروب بغير سبب ثم يموتون فيذهبون، فأعلمهم الله أنّه ليس

١- الزمر: ٤٢.

٢- البقره: ١٥٤.

الأمر على ما قالوه، بل هم أحياء على الحقيقه إلى يوم القيامة [\(١\)](#)».

و أدب التفسير الصحيح يبعثنا على أن نفسر الحياه بمعناها الحقيقى أى ما يفهمه عموم الناس من لفظه «حَيٌّ» خصوصاً بقريته الآيه الثالثه؛ حيث أثبتت للشهداء الرزق و الفرح و الاستبشار كما سيجى ء، فتفسير الآيه بأنهم سيحيون يوم القيامة تفسير باطل؛ لأن الإحياء فى ذلك اليوم عامٌ لجميع الناس و لا يختصّ بالشهداء، كما أنّ تفسير الحياه فى الآيه بمعنى الهدايه و الطاعه قياساً لها بقوله سبحانه: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ» [\(٢\)](#)»

حيث جعل الضلال موتاً و الهدايه حياه قياس باطل؛ لوجود القرينه على تفسير الحياه بالهدايه و الموت بالضلال فيها دون هذه الآيه.

و سيوافيك تفنيد هذين الرايين عن الرازى فى تفسير الآيه الثالثه.

و معنى الآيه «و لا تقولوا لمن يُقتل فى سبيلِ اللهِ أمواتٌ» أى لا تعتقدوا فيهم الفناء و البطلان، فليسوا بأموات بمعنى البطلان، بل أحياء و لكن حواسكم لا تنال ذلك و لا تشعر به.

و على ذلك فالآيتان تثبتان للشهداء حياه برزخيه غير الحياه الدنيويه و غير الأخرويه، بل حياه متوسطه بين العالمين.

الآيه الثالثه

قال سبحانه:

١- «و لا تحسبنّ الذين قُتلوا فى سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند

١- الواحدى، أسباب النزول: ص ٢٧. ط. دار الكتب العلميه - بيروت.

٢- الأنعام: ١٢٢.

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

٢- «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

٣- «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

و الآيات هذه صريحة - كل الصراحة - فى بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، و بعد انحلال الأجسام و تفككها كما يتضح ذلك من التمعن فى المقاطع الأربعة الآتية:

١- «أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

٢- «يُرْزَقُونَ».

٣- «فَرِحِينَ...».

٤- «يَسْتَبْشِرُونَ...».

فالمقطع الثانى يشير إلى التمتع بالنعم الإلهية، و الثالث و الرابع يشيران إلى النعم الروحية و المعنوية، و فى الآية دلالة واضحة على بقاء الشهداء بعد الموت إلى يوم القيامة.

و قد نزلت الآية إما فى شهداء بدر؛ و كانوا أربعة عشر رجلاً؛ ثمانية من الأنصار، و ستة من المهاجرين، و إما فى شهداء أحد؛ و كانوا سبعين رجلاً؛ أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، و مصعب بن عمير، و عثمان بن شماس، و عبد الله بن جحش، و البقية من الأنصار، و على قول نزلت فى حق كلتا الطائفتين.

قال الرازى فى تفسير الآية: إنهم فى الوقت أحياء كأنَّ الله أحياهم، لإيصال الثواب إليهم، و هذا قول أكثر المفسرين، و هذا دليل على أن المطيعين يصل ثوابهم إليهم و هم فى القبور.

ثم أشار إلى التفسيرين الآخرين اللذين أوعزنا إليهما:

أحدهما: للأصم؛ حيث فسّر الحياه بالحياه الدينيه، و أنّهم على هدى من ربّهم و نور.

و ثانيهما: لبعض المعتزله، و أنّ المراد من كونهم أحياء أنّهم سيّحيون.

ثمّ قال: إنّ أكثر العلماء على ترجيح القول الأوّل، ثمّ فنّد الرأيين بوجه نذكر بعضها:

١- لو كان المراد ما قيل فى القول الثانى و الثالث لم يكن لقوله: «و لكن لا تشعرون» معنى؛ لأنّ الخطاب للمؤمنين و قد كانوا يعلمون أنّهم سيّحيون يوم القيامه، و أنّهم على هدى و نور.

٢- أنّ قوله: «و يستبشرون بالَّذين لم يلحقوا بهم» دليل على حصول الحياه فى البرزخ قبل البعث، أى: و يستبشرون بأناس لم يلحقوا بهم و هم فى الدنيا، فإذا كان هذا ظرف الاستبشار فيكون هو ظرف الحياه و يكون قبل البعث.

٣- لو كان المراد أحد المعنيين لا يبقى لتخصيص الشهداء بهذا فائده؛ فإنّ غيرهم و كثيراً من غير الشهداء على نور و هدى من ربّهم.

و ما أجاب به أبو مسلم أنّه سبحانه إنّما خصّهم بالذكر؛ لأنّ درجاتهم فى الجنّه أرفع و منزلتهم أرفع ضعيف؛ لأنّ منزله النيّين و الصّدّيقين أعظم من الشهداء مع أنّه سبحانه ما خصّهم بالذكر [\(١\)](#).

بقى الكلام فى أمرين:

أ- فى إعراب الظرف أى «عند» فى قوله «عِنْدَ رَبِّهِمْ» و فيه وجوه:

١- أن يكون حالاً فى محل النصب من الضمير فى «أحياء».

٢- أن يكون خبراً ثانياً و التقدير: هم أحياء عندهم.

٣- أن يكون ظرفاً للفعل المتأخر أى يرزقون.

و الأول أقرب.

و على أى تقدير فليس «عند» هنا للقرب المكاني؛ لاستحالتها؛ إذ ليس له سبحانه مكان، و لا بمعنى فى علمه و حكمه، لعدم مناسبتة، بل يعنى القرب و الشرف أى ذو زلفى و رتبه ساميه «(١)».

ب- معنى قوله: «و يستبشرون» و أصل الاستبشار و إن كان بمعنى طلب البشاره، و لكن الظاهر أنّ اللفظه مجردة عن معنى الطلب، و المراد: و يسرّون و يفرحون، استعمالاً للفظ فى لازم معناه هى معطوفه على قوله سبحانه: «فرحين» أى: يسرّون و يفرحون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم فى سبيل الله تعالى بأن يلحقوا بهم من خلفهم، لما تبين لهم حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء، و هو أنّهم عند قتلهم فى سبيل الله تعالى يفوزون كما فازوا و يحوزون من النعم ما حازوا بدلاله قوله: «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

و يمكن أن يكون المراد: يسرّون بقدوم إخوانهم الباقين بالشهاده أو بالموت الطبيعى و الله العالم.

الآيه الرابعه

قوله سبحانه: «و جاء من أفصأ المدينه رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجراً و هم مهتدون و ما لى لا أعبد الذى فطرنى و إليه ترجعون أ أتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضرراً لا تغن عني شفاعتهم شيئاً و لا يُنقذون إنى إذا لفى ضلالٍ مبين إنى آمنْتُ بِرَبِّكُمْ

فَاسْمِعُونِ قَيْلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ» (١).

اتَّفَقَ المفسرون على أنَّ الآيات نزلت في رُسل عيسى، و قد نزلوا بأنطاكية داعين أهلها إلى التوحيد و ترك عباده غيره سبحانه، فعارضهم من كان فيها بوجوه مذكوره في القرآن.

فبينما كان القوم و الرسل يتحاجون إذ جاء رجل من أقصى المدينة يدعوهم إلى الله سبحانه و قال لهم:

اتَّبِعُوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر و لا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى، و هم مهتدون إلى طريق الحق، سالكون سبيله، ثم أضاف قائلاً:

و ما لي لا أعبدُ الذي فطرنى و أنشأني و أنعم عليّ و هداني و إليه تُرجعون عند البعث، فيجزيكم بكفركم، أ تأمرونني أن أتخذ آلهة من دون الله مع أنهم لا يُعنون شيئاً و لا يردون ضرراً عني، و لا تنفعني شفاعتهم شيئاً و لا ينقذونني من الهلاك و الضرر، و عند ما مهّد الجوّ بإبطال حجّه المشركين و بيان أحقيته منطوقه، فعندئذ خاطب الناس أو الرسل بقوله «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ» فسواء أ كان الخطاب للمشركين أو للرسول فإذا بالكفار قد هاجموه فرجموه حتى قتل.

و لكنّه سبحانه جزاه بالأمر بدخول الجنة بقوله: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» فلما دخل الجنة خاطب قومه الذين قتلوه بقوله «يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ».

ثمّ إنّه سبحانه لم يمهل القاتلين طويلاً و لم يرسل جنداً من السماء لإهلاكهم، بل

أهلكهم بالصيحة يقول سبحانه: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ»

أى: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر و هيصيحته واحده حتى هلكوا بأجمعهم فإذا هم خامدون ساكتون.

و دلالة الآيه على بقاء النفس و إدراكها و شعورها و إرسالها الخطابات إلى من فى الحياه الدنيا واضحه جداً، حيث كان دخول الجنة «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» و التمنى «يَا لَيْتَ قَوْمِي» كان قبل قيام الساعة، و المراد من الجنة هى الجنة البرزخيه دون الأخروييه.

إلى هنا تم بيان بعض الآيات الداله على بقاء أرواح الشهداء الذين بذلوا مهجهم فى سبيل الله، و هناك مجموعه من الآيات تدل على بقاء أرواح الكفار بعد انتقالهم عن هذه الدنيا، لكن مقترناً بألوان العذاب و الطائفه الأولى منعمه بألوان النعم، و إليك الطائفه الثانيه:

الآيه الخامسه

قال سبحانه: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (١).

و الأيهصريره فى أنه سبحانهصرف عن مؤمن آل فرعون سوء مكرهم فنجأ مع موسى، لكن أحاط بآل فرعون سوء العذاب، و أما كيفيه عذابهم فتدل الآيه على:

أولاً: أن هناك عرضاً لهم على النار و إدخالاً لهم فيها، و الثانى أشد من الأول.

ثانياً: أنّ العرض على النار قبل قيام الساعة، كما أنّ الإدخال حين قيامها.

و ثالثاً: أنّ التعذيب بعد الموت و قبل قيام الساعة (البرزخ) و التعذيب عند قيام الساعة، بشىء واحد و هو نار الآخرة، لكن العذاب قبل قيامها بالعرض على النار، و بعد قيامها بالدخول فيها، و ينتج أنّ البرزخيين يعدّون من بعيد «(١)» و أهل الآخرة بالدخول.

و رابعاً: أنّ آل فرعون و إن ماتوا بالغرق فى البحر، لكن موتهم لم يكن بمعنى بطلانهم و فنائهم رأساً، بل بمعنى خروج أرواحهم من أبدانهم و انتقالهم إلى عالم آخر حائل بين العالمين، فُقضى عليهم بسوء العذاب إلى يوم القيامة بالعرض على النار، و الدخول فيها بعد قيامها، و لو لم يكن إحياء، فلا معنى لتعذيب الجماد الفاقد للشعور بالعرض على النار.

و خامساً: أنّ شخصيه آل فرعون بأرواحهم لا بأبدانهم، بشهاده بطلان أجسادهم و تشتت أجزائها، لكنهم معادون بعد الموت بالعرض على النار، و بالدخول فيها بعد قيام الساعة.

الآيه السادسة

«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحْيَاهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» «(٢)».

و قبل أن ننوّه بدلاله الآيه على بقاء الحياه بعد الموت نفس لفظين من الآيه:

أحدهما: «البرزخ»، و هو الحاجز بين الشيتين، قال سبحانه: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

١- يستفاد من الآيه ٢٥ من سوره نوح- على القول بأنّها راجعه إلى البرزخ- أنّ الدخول لا يختص بيوم القيامة، بل يعمه و الحقبه البرزخيه، و لعلّ هناك فرقاً بين النارين أعادنا الله منهما.

٢- المؤمنون: ٩٩- ١٠٠.

يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ» (١) ذكر سبحانه عظيم قدرته، حيث خلق البحرين، العذب و المالح يلتقيان ثم لا يختلط أحدهما بالآخر لوجود حاجز بينهما.

و الثاني: لفظه «وراء» و هو فى الآيه بمعنى أمام، و معنى قوله: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ» أى: من أمامهم و قدأمهم.

قال سبحانه: «وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا» (٢).

و الاستدلال بهذه الآيه من وجهين:

١- إنَّ الإنسان المذنب يرى حين الموت ما أُعدَّ له فى مستقبل أمره من عذاب أليم، و لأجل ذلك يطلب من ملائكة الله أن يرجعوه إلى عالم الدنيا، حتى يتدارك ما فاته و يتلافى ما فُزط، و إلى هذا يشير قوله سبحانه: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ».

٢- إنَّ قوله تعالى: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» تصريح لا غموض فيه بوجود حياه متوسطه بين الموت و البعث، و إنما سميت برزخاً لكونها حائلاً بين الدنيا و الآخرة، و لا تتحقق الحيلولة إلّا بأن يكون للإنسان واقعيه فى هذا الحدّ الفاصل؛ إذ لو كان الإنسان بين هاتين الفترتين معدوماً لماصحَّ أن يقال بين الحالتين برزخ، و هو حائل و فاصل بين الإنسان فى الدنيا و الإنسان فى الآخرة.

الآيه السابعه

«وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَيُوتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسِكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ

١- الرحمن: ١٩ - ٢٠.

٢- الكهف: ٧٩.

وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» (١).

و الاستدلال بالآيه على بقاء الروح بعد فناء الجسد من طريقين:

أ- قوله «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» صريح فى أَنَّ الملائكه تنتزع الروح من البدن و يعنى هذا أَنَّ المتروك هو البدن، و أمَّا الروح فتؤخذ و تخرج من الجسد إخراجاً.

ب- إنَّ ظاهر قوله: «الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» هو الإشاره إلى يوم الموت، و ساعته، و لو كان الموت فناءً كاملاً للإنسان لما كان لهذه العبارة معنى، إذ بعد فناء الإنسان فناءً كاملاً شاملاً لا يمكن أن يحسّ بشىء من العذاب.

و من هنا يتبين أَنَّ الفانى إنّما هو الجسد، و أمَّا الروح فتبقى و ترى العذاب الهون و تذوقه و تحسّ به.

قال العلماءه الطباطبائى فى تفسير هذه الآيه: إنَّ كلامه تعالى ظاهر فى أَنَّ النفس ليست من جنس البدن، و لا من سنخ الأمور الماديه الجسمانيه، و إنّما لها سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن و يتعلّق به نوعاً من الاتحاد و التعلّق غير مادى.

فالمراد بقوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» قطع علقه أنفسهم من أبدانهم و هو الموت (٢).

الآيه الثامنه

«وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

١- الأنعام: ٩٣.

٢- تفسير الميزان ٧: ٢٨٥.

بِظُلَامٍ لِّلْعَبِيدِ» (١).

تدل الآيه على أن الكافرين يعدّون حين الموت بوجهين:

الأول: بضرب الملائكه وجوههم و أذبارهم، وقد أشير إليه في آيه أخرى أيضاً، قال سبحانه: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ» (٢).

الثاني: بعذاب الحريق، الذى يدل عليه قوله سبحانه: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ»، فالآيه تدل على أن هناك عذابين منفصلين موضوعاً و محمولاً، فالعذاب الأول موضوعه الجسد، و الثانى موضوعه روح الإنسان المنتقل إلى الحياه غير الدنيويه.

الآيه التاسعه

قال سبحانه: «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» (٣) و الآيه نازله فى شأن قوم نوح الذين غرقوا لخطيئاتهم أولاً، «فَأُدْخِلُوا نَارًا» ثانياً.

و من المفسرين من فسر الجمله الثانيه بنار الآخره و يقول: جى ء بصيغه الماضى لكون تحقّقه قطعياً (٤). و لكنّه بعيد؛ لأنّ ظاهر الآيه كون الدخول فى النار متّصلاً بغرقهم لا منفصلاً، بشهاده تخلّل لفظه «فاء» و إلّا كان اللازم التعبير ب «ثم».

١- الأنفال: ٥٠- ٥١.

٢- محمد: ٢٧.

٣- نوح: ٢٥.

٤- مجمع البيان ٥: ٣٦٤.

الآيه العاشره

اشاره

قوله سبحانه: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَنَّاتُنَّ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِمُذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» (١) الآية تدلّ بوضوح على أنه مرّت على الإنسان المحشور يوم القيامة، إمامتان و إحياءان.

فالإماتة الأولى: هي الإماتة الناقله للإنسان من الدنيا.

و الإحياء الأول: هو الإحياء بعد الانتقال منها.

و الإماتة الثانيه: قبيل القيامة عند نفخ الصور الأول.

و الإحياء الثاني: عند نفخ الصور الثاني.

قال سبحانه: «و نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» (٢).

و على ما ذكرنا فكل من الإحياءين لاصله له بالدنيا، بل يتحققان بعد الانتقال من الدنيا، أحدهما فى البرزخ بعد الإماتة فى الدنيا، و الآخر يوم البعث بعد الإماتة بنفخ الصور الأول.

و عندئذ تتضح دلالة الآية على الحياه البرزخيه بوضوح.

نعم لم يتعرض القائلون بالحياه الدنيويه و لم يقولوا «و أحييتنا ثلاثاً» و إن كانت إحياء لكونها واقعه بعد الموت الذى هو حال عدم ولوج الروح، و لعلّ الوجه هو أنّ الغرض تعلّق بذكر الإحياء الذى يعدّ سبباً للإيقان بالمعاد و مورثاً للإيمان و هو الإحياء فى البرزخ ثمّ يوم القيامة، و أمّا الحياه الدنيويه، فإنّها و إن كانت إحياء بلا

١- غافر: ١١.

٢- الزمر: ٦٨.

شكّ لكنّها لا توجب بنفسها يقيناً بالمعاد، فقد كانوا مرتابين في المعاد و هم أحياء في الدنيا «(١)».

تفسير خاطئ للآيه:

إنّ بعض المفسرين فسّروا الآيه بالنحو التالي:

الإماتة الأولى: حال النطفه قبل ولوج الروح.

الإحياء الأول: حال الإنسان بعد ولوجها فيها.

الإماتة الثانيه: إماتته في الدنيا.

و الإحياء الثاني: إحيائه يوم القيامة للحساب.

و عندئذ تنطبق الآيه على قوله سبحانه «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» «(٢)».

و لكنّه تفسير خاطئ و قياس باطل.

أمّا كونه خاطئاً، فلأنّ الحاله الأولى للإنسان أى حالته قبل ولوج الروح فى جسده لا تصدق عليها الإماتة، لأنّه فرع سبق الحياه، و المفروض عدمه.

و أمّا كونه قياساً باطلاً، فلأنّ الآيتين مختلفتان موضوعاً، إذ المأخوذ و الوارد فى الآيه الثانيه هو لفظه «الموت» و يصحّ تفسيره بحال النطفه قبل ولوج الروح، بخلاف الوارد فى الآيه الأولى، إذ الوارد فيها «الإماتة» فلا يصحّ تفسيره بتلك الحاله التى لم يسبقها الإحياء.

و لأجل ذلك يصحّ تفسير الآيه الثانيه بالنحو التالي:

١- كنتم أمواتاً: الحاله الموجوده فى النطفه قبل ولوج الروح.

٢- فأحياكم: بولوج الروح فيها ثمّ الانتقال من البطن إلى فسيح الدنيا.

١- تفسير الميزان ١٧: ٣١٣.

٢- البقره: ٢٨، أنظر تفسير الكشاف ٣: ٣٦٣ ط دار المعرفه- بيروت.

٣- ثم يُمَيِّتُكُمْ: بالانتقال من الدنيا إلي الصوب الآخرة.

٤- ثم يُحْيِيكُمْ: يوم البعث للحساب و الجزاء.

و بما أن موقف الآيتين مختلف هدفاً و غايه، اختلف السياقان، فصارت احدهما تلمح بالحياه المتوسطه بين الدنيا و الآخره (البرزخ) دون الأخرى، و لا ملزم لتطبيق إحداهما على الأخرى بعد اختلافهما فى الموضوع و الغايه.

تلك عشر كامله تورث اليقين، باستمرار الحياه بعد الانتقال من الدنيا، و لا ينكر دلالتها إلا الجاحد، و ليس ما يدل من الآيات على بقائها بعد الموت منحصرأ فى هذه الآيات العشر، بل هناك مجموعه من الآيات تصلح للاستدلال على المقصود، مثل: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيْطًا لِتُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (١)، و قوله سبحانه: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» (٢) لكننا نقتصر عليها رومأ للاختصار.

و أمّا الاستدلال بالسنة الشريفه على أن الموت ليس بمعنى فناء الإنسان برأسه، و إنما هو الانتقال من دار إلى دار، فسيوافيك قسم من الروايات فى المبحث التالى المتكفل لبيان وجود الصله بين أهل الدنيا و النازلين فى البرزخ، بحيث يسمعون كلامهم و يجيبون دعاءهم و إن كنا نحن غير سامعين و لا فاهمين.

و لا عجب فى أن يكون هناك رنين أو صراخ و كنا بمعزل عن السمع و الفهم، قال سبحانه: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» (٣).

١- البقره: ١٤٢.

٢- النساء: ٤١، فلو قلنا: بأن موت النبى صلى الله عليه و آله عباره عن فنائه المطلق، فما معنى كونه شهيداً على أمته فى تمام الأجيال؟.

٣- الإسراء: ٤٤.

وجود الصلّه بين الحياه الدنيويه و الحياه البرزخيّه

المبحث الثالث وجود الصلّه بين الحياه الدنيويه و الحياه البرزخيّه

اشاره

لا أظنّ أنّ مسلماً ملماً بالقرآن و السنّه ينكر الحياه البرزخيّه، و أنّ للإنسان بعد موته و قبل بعثه حياه متوسطه بين الدنيا و الآخره، و هو فيها بين مرتاح و منعم، و متعب معذب.

و لكن الجدير بالدراسه، فى ضوء الكتاب و السنّه، هو تبيين الصلّه بين الحياتين، و أنّ البرزخيين غير منقطعين عمّا يجرى فى الحياه الدنيويه، و إنهم يسمعون إذا دُعوا، و يجيبون إذا سُئلوا، ياذنّ منه سبحانه، و البرزخ و إن كان بمعنى المانع و الحائل، لكنّه حائل عن الرجوع إلى الدنيا الذى نفاه سبحانه بصريح كلامه عند ما طلب لقيف من الظالمين الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات منهم من العباده و الطاعه قائلين: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ» (١)، فأُجيبوا بالحرمان بقوله: «كلّا» و ليس بمانع عن السماع و الاستماع و لا عن السؤال و الجواب، كل ذلك ياذنّ منه سبحانه.

و تدلّ على وجود الصلة بين الحياتين بهذا المعنى، مجموعه من الآيات و قسم وافر من الروايات تأتي في المقام بصريحهما، حتى يُزال الشك عن المرتاب.

القرآن الكريم و الصلة بين الحياتين

١- النبي صالح يكلم قومه بعد هلاكهم:

أخبر الله تعالى في القرآن الكريم عن النبي صالح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله، و ترك التعرّض لمعجزته (الناقه) و عدم مسّها بسوءٍ، و لكنّهم عقروا الناقه و عتوا عن أمر ربّهم:

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَ نَصَيْحَتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (١).

ترى أنّ الله تعالى يخبر على وجه القطع و البتّ بأنّ الرجفه أهلكت أمّه صالح عليه السلام فأصبحوا في دارهم جاثمين، و بعد ذلك يخبر أنّ النبي صالحاً تولى عنهم ثمّ خاطبهم قائلاً: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَ نَصَيْحَتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

و الخطاب بصدر من صالح لقومه بعد هلاكهم و موتهم بشهادته جملة «فتولّى» المصدره بالفاء المشعره بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

ثمّ إنّ ظاهر قوله: «وَ لَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ»، يفيد أنّهم بلغت بهم العنجهيه أن كانوا لا يحبّون الناصحين حتى بعد هلاكهم.

٢- النبي شعيب يخاطب قومه الهالكين:

لم تكن قصه النبي صالح هي القصه الوحيدة من نوعها في القرآن الكريم، فقد

تبعه في ذلك شعيب؛ إذ خاطب قومه بعد أن عمهم الهلاك قال سبحانه:

«فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا بِحُورٍ فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ» (١).

و هكذا يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم، فيكون صدور هذا الخطاب بعد هلاكهم بالرجفه.

فلو كان الاتصال غير ممكن، و غير حاصل، و لم يكن الهالكون بسبب الرجفه سامعين لخطابصالح و شعيب فما معنى خطابهما لهم؟

أ يصح أن يفسر ذلك الخطاب بأنه خطاب تحسّر و إظهار تأسّف؟

كلما، إن هذا النوع من التفسير على خلاف الظاهر، و هو غير صحيح حسب الأصول التفسيرية، و إلا لتلاعب الظالمون بظواهر الآيات و أصبح القرآن الكريم لعبه بيد المغرضين، يفسرونه حسب أهوائهم و أمزجتهم.

على أن مخاطبه الأرواح المقدسه ليست أمراً ممتنعاً في العقل حتى تكون قرينه عليه.

٣- النبي يأمر بالتكلم مع الأنبياء:

جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى لنبيه:

«وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ» (٢).

ترى أن الله سبحانه يأمر النبي الأكرم بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله، و من

١- الأعراف: ٩١-٩٣.

٢- الزخرف: ٤٥.

التأويل الباطل إرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب استظهاراً من قوله سبحانه:

«فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ» (١).

وقوله سبحانه: «فَسْئَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا» (٢).

وجه البطلان هو: أنَّ الخطاب في الآية الأولى وإن كان متوجهاً إلى النبي لكن المقصود هو الأمة بقريته قوله: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» و «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا».

ومثلها الآية الثانية، فالخطاب وإن كان للنبي وأمره سبحانه بأن يسأل بني إسرائيل عن الآيات النازلة إلى موسى، ولكنه من قبيل «إياك أعنى واسمعي يا جاره» والنبي أجل وأعظم من أن يشك عليه شيء ويسأل علماء بني إسرائيل عما أشكل عليه.

فهاتان الآيتان راجعتان إلى سؤال الأمة علماء بني إسرائيل وقراء كتبهم، وهذا بخلاف قوله: «وَسَيَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا فَإِنَّهُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ حَقِيقَةٌ».

وأما ما هو الوجه في سؤال الأنبياء في مجال التوحيد أي قوله: «أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»، فقد ذكره المفسرون، وأنهم صلى الله عليه وآله تكلم مع الأنبياء السالفين ليله المعراج.

٤- السلام على الأنبياء:

إنَّ القرآن الكريم يسلم على الأنبياء في مواضع متعدده و يقول:

١- يونس: ٩٤-٩٥.

٢- الإسراء: ١٠١.

١- «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ».

٢- «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ».

٣- «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ».

٤- «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ».

٥- «وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» (١).

و لا شك أنّ ما ورد فيها ليس سلاماً سطحياً أجوف، بل هو سلام حقيقى و تحيته جديده يوجهها القرآن إلى أنبياء الله و رسله.

و هل يصحّ التسليم الجدى على الجماد الذى لا يعرف و لا يدرك و لا يشعر؟! و ليس لنا تفسير المفاهيم القرآنيه النابعه عن الحقيقه تفسيراً قشرياً، بأن نقول:

إنّ كافه التحيات فى القرآن و التى نتلوها فى آناء الليل و أطراف النهار ليست إلّا مجاملات جوفاء و فى مستوى تحيات الماديين لرفقائهم و زملائهم الذين أدركهم الموت.

إنّ المادى لما يساوى الوجود بالماده و لا يرى أنّ وراءها حقيقه، فعند ما يسلم فى محاضراته و شعاراته على زملائه الميتين يعود و يفسره بالتكريم الأجوف.

و أمّا نحن المسلمين، فبما أنّ الوجود عندنا أعمّ من الماده و آثارها، فليس علينا تفسير الآيات تفسيراً مادياً خارجاً عن الإطار المحدّد فى الكتاب و السنّه لتفسير الذكر الحكيم، و هذا ما يبعثنا على تفسير تلك التسليمات بنحو حقيقى، و هو يلازم حياه المسلم عليهم و وجود الصله بيننا و بينهم، سلام الله عليهم أجمعين.

هذا هو ما يرشدنا إليه الوحي فى مجال إمكان ارتباط الأحياء بالأرواح.

إشاره

ما تلوناه عليك كان مجموعته من الآيات الناصعه الدالّه على وجود الصله بين الحياتين، و أنّ قسماً من الأنبياء تكلموا مع البرزخيين.

و أمّا السنّه الشريفه، فهناك روايات وافره دالّه على ما نتوخاه تأتي بقسم منها:

١- النبي الأكرم صلى الله عليه و آله يكلم أهل القليب:

لقد انتهت معركة بدر بانتصار عظيم للمسلمين و هزيمة نكراء للمشركين؛ فقد غادر المشركون ساحه القتال هارينصوب مكه مخلفين وراءهم سبعين قتيلًا منصناديدهم و ساداتهم، و وقف النبي يخاطب القتلى واحداً واحداً و يقول:

«يا أهل القليب، يا عتبه بن ربيعه، و يا شيبه بن ربيعه، و يا أميه بن خلف، و يا أبا جهل (و هكذا عدّد من كان منهم فى القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟

فإنّى قد وجدتم ما وعدنى ربّى حقاً».

فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أ تنادى قوماً موتى؟

فقال صلى الله عليه و آله: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، و لكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى».

و كتب ابن هشام يقول: إن رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله أضاف بعد هذه مقاله و قال:

«يا أهل القليب، بئس عشيره النبيّ كنتم لنببيكم، كذّبتمونى و صدّقنى الناس، و أخرجتمونى و آوانى الناس، و قاتلتمونى و نصرنى الناس».

ثمّ قال: «هل وجدتم ما وعدكم ربّى حقاً» (١)

١- السيره النبويه ١: ٦٤٩؛ السيره الحلبيه ٢: ١٧٩ و ١٨٠ و غيرهما.

روى البخارى عن نافع أن ابن عمر- رضى الله عنهما- أخبره قال: أطلع النبي صلى الله عليه وآله على أهل القليب فقال: «وجدتم ما وعد ربكم حقاً»، فقيل له: تدعو أمواتاً، فقال: «ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون».

ثم روى عن هشام بن عروه عن أبيه عن عائشه- رضى الله عنها- قالت: إنما قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حقاً»، وقد قال الله تعالى: «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى» (١)

و لا- يذهب عليك أن السیده عائشه سلّمت الحياه البرزخيه لهم، و لذلك قالت: إنّ النبى قال: «إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حقاً» و لكنّها نفت أن يقول النبى «ما أنتم بأسمع منهم و لكن لا يجيبون» من دون أن تسنده إلى قائل حاضر فى الواقعه، و إنّما استنبطت قولها من الآيه الكريمه، و من المعلوم أنّ ابن عمر يدعى السماع عن النبى، أو عمّن سمعه منه صلى الله عليه وآله و لا يعارضه استنباطها، و إنّما يكون نظرها حجه على نفسها لا على من عاين و شهد تكلم النبى معهم.

أضف إلى ذلك أنه لاصله للآيه بما تدّعيه، كما سيوافيك.

و لأجل التأكيد على صحه القصه نأتى أيضاً بنصصحيح البخارى فى باب معركة بدر (غير كتاب الجنائز) و نردفه بذكر مصادر أخرى، و ما ظنّك بأمر يرويه الإمام البخارى و لفيق من المحدثين قال: وقف النبي صلى الله عليه وآله على قليب «بدر» و خاطب المشركين الذين قُتلوا و ألقى جثثهم فى القليب: «لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله، و طردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً»، فقال له رجل: يا رسول الله ما خطابك لهم؟! و

فقال صلى الله عليه وآله: «و الله ما أنتم بأسمع منهم، و ما بينهم و بين أن تأخذهم الملائكه

بمقامع من حديد إلا أن أعرض بوجهي عنهم».

و قد أنشد حسان قصيده بائيه رائعه حول وقعه بدر الكبرى يشير في بعض أبياتها إلى هذه الحقيقه أعنى قصه القلب إذ يقول:

يناديهم رسول الله لَمَّا قذفناهم كباكب في القلبِ

ألم تجدوا كلامي كان حقاً و أمر الله يأخذ بالقلوبِ

فما نطقوا و لو نطقوا لقالوا صدقت و كنت ذا رأى مصيبِ

على أنه لا توجد عبارته أشد صراحه مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في المقام حيث قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، و هل ثمه بيان أكثر إيضاحاً و أشد تقريراً لهذه الحقيقه من مخاطبه النبي صلى الله عليه وآله لواحد واحد من أهل القلب، و مناداتهم بأسمائهم، و تكليمهم كما لو كانوا على قيد الحياه؟!!

فلا يحق لأى مسلم مؤمن بالرساله و الرسول أن يسارع إلى إنكار هذه القضيئه التاريخيه الإسلاميه المسلّمه و يبادر قبل التحقيق و يقول: إن هذه القضيئه غير صحيحه لأنها لا تنطبق على عقليه المادى المحدوده.

و قد نقلنا هنا نصّ هذا الحوار، لكى يرى المسلمون الناطقون باللغه العربيه كيف أنّ حديث النبي صلى الله عليه وآله يصرّح بهذه الحقيقه بحيث لا توجد فوقه عبارته فى الصراحه و الدلاله على هذه الحقيقه.

و من أراد الوقوف على مصادر هذه القصة فعليه أن يراجع ما ذكرناه فى الهامش أدناه [\(١\)](#).

١- صحيح البخارى ج ٥ معرکه بدر ص ٧٦، ٧٧، ٨٦، ٨٧؛ صحيح مسلم ج ٨ كتاب الجنه باب معتمد الميت: ١٦٣؛ سنن النسائى ج ٤ باب ارواح المؤمنين ص ٨٩-٩٠؛ مسند الإمام أحمد ٢: ١٢١؛ المغازى للواقدى غزوه بدر و غيرها.

٢- الإمام علي عليه السلام يكلم رؤساء الناكثين:

إنَّ الإمام علياً عليه السلام بعد أن وضعت الحرب في معركة الجمل أوزارها مرَّ على كعب بن سور و كان قاضى البصره فقال لمن حوله: «أجلسوا كعب بن سور» فاجلسوه بين شخصين يمسانه- و هو صريح- فقال عليه السلام: «يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: «أضجعوه».

ثم سار قليلاً حتى مرَّ بطلحه بن عبيد اللّه صريعاً فقال: «أجلسوا طلحه» فأجلسوه، فقال عليه السلام: «يا طلحه قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: «أضجعوا طلحه».

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟! فقال عليه السلام:

«يا رجل، و الله لقد سمعا كلامى، كما سمع أهل القليب كلام رسول الله» (١).

٣- السلام على النبى صلى الله عليه وآله فى ختام الصلاة:

إنَّ جميع المسلمين فى العالم- بالرغم من الخلافات المذهبيه بينهم فى فروع الدين- يسلّمون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الصلاة عند ختامها فيقولون:

«السلام عليك أيها النبى و رحمه الله و بركاته»

و قد أفتى الشافعى و آخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، و أفتى الآخرون باستجابته، لكن الجميع متفقون على أنّ النبى صلى الله عليه وآله علمهم السلام و أنّ سنّه النبى ثابتة فى حياته و بعد وفاته (٢).

١- الجمل للمفيد؛ حقّ اليقين ٢: ٧٣.

٢- راجع كتاب تذكره الفقهاء ٣: ٢٣٣ المسأله ٢٩٤، و كتاب الخلاف للشيخ الطوسى ١: ٤٧، لمعرفة أقوال المذاهب و الفقهاء فى هذا المجال.

و السؤال الآن: اذا كانتصلتنا و علاقتنا بالنبى صلى الله عليه و آله قد انقطعت بوفاته، فما معنى مخاطبته و السلام عليه يومياً؟!

٤- الميت يسمع قرع النعال:

الميت يسمع كلام من يتكلم قرب قبورهم لا- بجسمه، بل بروحه التى كانت لها ارتباط و إشعاع على الجسم، و لا يعنى أنها داخله فى قبره كما كانت فى حياته ملازمه لجسمه و معلقه به، بل المراد أن لها ارتباطاً و إشعاعاً على الجسم الذى فارقه، و يدل على ذلك:

ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أنه حدّثهم عن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ العبد إذا وضع فى قبره و تولّى عنه أصحابه حتى أنّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمّد صلى الله عليه و آله؟ فيقول:

أشهد أنّه عبد الله و رسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً فى الجنة فيراهما جميعاً، و أمّا الكافر و المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس، فيقال: لا دريت و لا تليت، ثمّ يُضرب بمطارق من حديد ضربه بين أذنيه، فيصيح صيحه يسمعها من يليه إلّا الثقلين» (١)

وجه الاستدلال به أنّه قال: «أنّه ليسمع قرع نعالهم» فالميت إذاً يسمع قرع النعال، فالكلام من باب أولى.

٥- قول الميت عند حمل الجنازه:

روى البخارى فيصحيحه عن أبى سعيد الخدرىّ (رض): أنّ رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال: «إذ وضعت الجنازه و احتملها الرجال على أعناقهم؛ فإن كانتصالحه

١- البخارى، الصحيح ٢: ٩٠ باب الميت يسمع خفق النعال، و لاحظ فى تفسير الحديث فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٣: ١٦٠، و شرح الكرمانى ٧: ١١٧.

قالت قَدَمُونِي، و إِنَّ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَ لَوْ سَمِعَهُ لَصَعَقَ» (١)

٦- النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ يَسْلَمُ عَلَى الْأَمْوَاتِ:

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ يَخْرُجُ آخِرَ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ فَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَ آتَاكُمْ مَا تَوَعَّدُونَ، غَدًا مُؤْجِلُونَ وَ إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرَقَدِ» (٢)

فَلَوْ كَانَ الْأَمْوَاتُ لَا- يَسْمَعُونَ كَالْجَمَادِ يَكُونُ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ عِبْتًا، وَ أَيْنَ مَنْزِلُهُ نَبِيِّ الْحِكْمَةِ مِنَ الْعِبْتِ وَ قَدْ تَضَافَرُ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَمَارِسُ زِيَارَةَ الْبَقِيعِ؟!

وَ بِذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْتِ فِي الْمَقَامِ هُوَ وَقْفُ سَرِيَانِ الدَّمِ فِي الْأُورْدَةِ، وَ الشَّرَائِينَ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَ هُوَ الْمَمْدُ بِجَوَارِحِهِ وَ حَوَاسِهِ بِالْحَرَكَةِ وَ الشُّعُورِ وَ الْإِحْسَاسِ، وَ الْمَحْرُوكِ الرَّئِيسِ لَهَا هُوَ الْقَلْبُ وَ الرَّئِثَانُ بِوَاسِطَةِ التَّنْفُّسِ.

وَ أَمَّا مَا يَرْجَعُ إِلَى وَاقِعِ الْإِنْسَانِ وَ شَخْصِيَّتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ وَ هُوَ الْجَوْهَرُ؛ الْمَدْرُوكِ الْمَفْكَرِ فَهُوَ بَاقٍ عَالِمٌ شَاعِرٌ.

٧- تَعْذِيبُ الْمَيِّتِ فِي الْقَبْرِ:

إِشَارَةٌ

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِهِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ وَ هُوَ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وَ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ

١- الْبُخَارِيُّ، الصَّحِيحُ ٢: ٨٦ رَوَاهُ فِي مَا بَيْنَ: حَمَلِ الرِّجَالِ الْجَنَازَةَ دُونَ النِّسَاءِ ص ٨٥ وَ بَابِ قَوْلِ الْمَيِّتِ وَ هُوَ عَلَى الْجَنَازَةِ «قَدَمُونِي»، لَاحِظْ شَرْحَ الْحَدِيثِ فِي فَتْحِ الْبَارِي ٣: ١٤٤ وَ شَرْحَ الْكِرْمَانِيِّ ٧: ١٠٤.

٢- مُسْلِمٌ: الصَّحِيحُ ٧: ٤١.

عذاب القبر و من عذاب النار و من فتنه المحيا و الممات و من فتنه الشيخ الدجال» (١)

و فيصحيح مسلم و جميع السنن عن أبي هريره أن النبي قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، و من عذاب القبر، و من فتنه المحيا و الممات و من فتنه الدجال».

و فيصحيح مسلم أيضاً و غيره عن ابن عباس أن النبي كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السوره من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، و أعوذ بك من عذاب القبر، و أعوذ بك من فتنه المحيا و الممات، و أعوذ بك من فتنه الدجال» (٢)

كلام لابن عبد البر في المقام:

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام». فهذا نص في أنه يعرفه بعينه و يرد عليه السلام.

و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و آله من وجوه متعدده أنه أمر بقتلى بدر فألقوا في قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم و ناداهم بأسمائهم «يا فلان بن فلان، و يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جئفوا فقال: «و الذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم و لكنهم لا يستطيعون جواباً».

١- البخارى، الصحيح ٢: ٩٩، و لاحظ في شرح الأحاديث فتح البارى لابن حجر ٣: ١٨٨.

٢- الروح: ص ٥٢ و قد بسط الكلام في إثبات الموضوع و أحاط بأطرافه و من أراد التوسع فليرجع إلى كتابه.

و ثبت عنه صلى الله عليه و آله أنّ الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه.

و قد شرّع النبي صلى الله عليه و آله لأُمَّته إذا سلّموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» و هذا خطاب لمن يسمع و يعقل - و لو لا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزله خطاب المعدوم و الجماد.

و السلف مجمعون على هذا و قد تواترت الآثار عنهم بأنّ الميت يعرف زياره الحيّ له و يستبشر به.

قال أبو بكر عبد الله بن محمّد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور باب معرفه الموتى بزياره الأحياء:

(حدثنا) محمّد بن عون: حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد ابن أسلم، عن عائشه رضی الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «ما من رجل يزور قبر أخيه و يجلس عنده إلّا استأنس به و ردّ عليه حتى يقوم».

(حدثنا) محمّد بن قدامه الجوهري: حدثنا معن بن عيسى القزاز: أخبرنا هشام بن سعد: حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريره رضی الله عنه قال: إذا مرّ الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه، ردّ عليه السلام و عرفه، و إذا مرّ بقبر لا يعرفه فسلم ردّ عليه السلام. إلى غير ذلك من الروايات المتضافره في الصحاح و المسانيد.

المبحث الرابع الحياه البرزخيه فى كلمات العلماء**اشاره**

كلّ من يعبأ بعلمه و تعييده أمام النصوص من علماء الإسلام صرّحوا باستمرار الحياه بعد الانتقال من الدنيا، نذكر من كلماتهم ما يلى:

١- الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ):

قال: و الأعرور الدّجال خارج لا شكّ فى ذلك و لا ارتياب، و هو أكذب الكذّابين، و عذاب القبر حقّ، و يُسأل العبد عن دينه و عن ربّه و يرى مقعده من النار و الجنه، و منكر و نكير حقّ، و هما فتانا القبور، نسأل الله تعالى الثبات «(١)».

٢- أبو جعفر الطحاوى (ت ٣٢١هـ):

قال: (نؤمن) بعذاب القبر لمن كان له أهلاً، و سؤال منكر و نكير فى قبره عن ربّه و دينه و نبيّه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله و عن الصحابه رضوان الله عليهم، و القبر روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النيران «(٢)».

١- السنّه: ص ٥٠.

٢- شرح الرساله الطحاويه لابن أبى العز، قسم المتن: ص ٣٩٦.

٣- الإمام الأشعري (٢٦٠-٣٢٤ هـ):

ل: و تؤمن بعذاب القبر، و بالحوض، و أنّ الميزان حقّ و الصراط حقّ، و البعث بعد الموت حقّ، و أنّ الله عزّ و جلّ يُوقِفُ العبادَ في الموقف يحاسب المؤمنين [\(١\)](#).

٤- البغدادي:

قال: أنكرت الجهميّة و الضراريه سؤال القبر، و زعم بعض القدرية أنّ سؤال الملكين في القبر إنّما يكون بين النفختين في الصور و حينئذ يكون عذاب قوم في القبر.

و قالت السالمية بالبصره: إنّ الكفار لا يُحاسبون في الآخرة.

و زعم قوم يقال لهم الوزنيه: أنّ لا حساب و لا ميزان.

و أفرت الكزامية بكل ذلك كما أفرت به أصحابنا، غير أنّهم زعموا أنّ منكرًا و نكيرًا هما الملكان اللذان و كلا بكلّ إنسان في حياته، و على هذا القول يكون منكر و نكير كل إنسانٍ غير منكر و نكير صاحبه.

و قال أصحابنا: إنّهما ملكان غير الحافظين على كل إنسان [\(٢\)](#).

٥- أبو اليسر محمد البزدوى (٤٢١-٤٩٣ هـ) (و هو من الماتريديه):

قال: سؤال منكر و نكير في القبر حقّ عند «أهل السنّه و الجماعة»، و هما ملكان يسألان من مات بعد ما حيي: مَنْ رَبُّكَ و ما دينُكَ و من نبيّك، فيقدر المؤمن على الجواب و لا يقدر الكافر.

و فيه أحاديث كثيره عن النبيصلى الله عليه و آله في هذا الباب أنّ الملكين يجيئان في القبر إلى

١- الإبانة، الأصل: ص ٢٦.

٢- أصول الدين: ٢٤٥.

الميت و يحيى الله تعالى الميت فيسألان عما ذكرنا «(١)».

٦- الفخر الرازي:

قال: إنَّ قوله: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» «(٢)»

دليل على حصول الحياه فى البرزخ قبل البعث، مضافاً إلى قولهم صلى الله عليه وآله: «القبر روضه من رياض الجنه، أو حفره من حُفْرِ النيران» والأخبار فى ثواب القبر و عذابه كالمتواتره، و كان عليه السلام يقول فى آخر صلاته: «و أعوذ بك من عذاب القبر» إلى أن قال: الإنسان هو الروح؛ فإنه لا يعرض له التفرق و التمزق، فلا جرم يصل إليه الألم و اللذه (بعد الموت).

ثم إنه سبحانه و تعالى يردّ الروح إلى البدن يوم القيامة الكبرى حتى تنضم الأحوال الجسمانيه إلى الأحوال الروحانيه «(٣)».

٧- ابن أبي العزّ الدمشقي:

قال: إنَّ الدور ثلاث: دار الدنيا، و دار البرزخ، و دار القرار.

و قد جعل الله لكلّ دارٍ أحكاماً تخصّيهَا، و ركب هذا الإنسان من بدن و نفس، و جعل أحكام الدنيا على الأبدان و الأرواح تبع لها، و جعل أحكام البرزخ على الأرواح و الأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد و قيام الناس من قبورهم، صار الحكم و النعيم و العذاب على الأرواح و الأجساد جميعاً.

فإذا تأملت هذا المعنى حقّ التأمل، ظهر لك أنّ كون «القبر روضه من رياض الجنّه أو حفره من حفر النار» مطابق للعقل، و أنّه حقّ لا مريه فيه، و بذلك يتميز

١- أصول الدين: ١٦٥/ المسأله ٤٩.

٢- آل عمران: ١٧٠.

٣- التفسير الكبير ٤: ١٤٦ و ١٤٩.

المؤمنون بالغيب من غيرهم.

و يجب أن يعلم أنّ النار التي في القبر و النعيم ليس من جنس نار الدنيا و لا- نعيمها، و إن كان الله تعالى يحمي عليه التراب و الحجارة التي فوقه و تحته حتى يكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا، و لو مسّها أهل الدنيا لم يحسّوا بها.

و الأ-عجب من هذا أنّ الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه؛ و هذا في حفرة من النار، و هذا في روضه من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حرّ ناره، و لا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، و قدره الله أوسع من ذلك و أعجب [\(١\)](#).

و قال الرازي في تفسير قوله: «و يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ» و القوم الذين لم يلحقوا بهم لا بد و أن يكونوا في الدنيا، فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لا بد و أن يكون قبل قيام القيامة، و الاستبشار لا بد و أن يكون مع الحياه، فدلّ هذا على كونهم أحياء قبل يوم القيامة [\(٢\)](#).

٨- ابن تيميه:

قال: الأحاديث الصحيحه المتواتره تدلّ على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، و سؤال البدن بلا- روح قول قاله طائفه من الناس، و أنكره الجمهور، قابلهم آخرون بأنّ السؤال للروح بلا- بدن، و هذا ما قاله ابن مره و ابن حزم، و كلاهما غلط، و الأحاديث الصحيحه تردّه، و لو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص [\(٣\)](#).

١- شرح الرساله الطحاويه: ٣٩٦-٣٩٧.

٢- مفاتيح الغيب ٤: ١٤٦ و ٩: ٩٠.

٣- الروح: ٥٠ معبراً عن ابن تيميه ب« شيخ الإسلام».

٩- التفاتراني:

قال: و يدلّ على الحياه بعد الموت قوله تعالى: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» (١) و قوله: «أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا» (٢) و قوله: «رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (٣).

و ليست الثانيه إلّا فى القبر، و قوله: «يُزَوِّجُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ» (٤).

و قولهلصلى الله عليه و آله: «القبر روضه من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران».

و الأحاديث فى هذا الباب متواتره المعنى.

و قال فى موضع آخر:

اتفق الإسلاميون على حقيه سؤال منكر و نكير فى القبر، و عذاب الكفار و بعض العصاه فيه، و نسب خلافه إلى بعض المعتزله.

قال بعض المتأخرين منهم: حكى إنكار ذلك عن ضرار بن عمرو، و إنما نسب إلى المعتزله، و هم براء منه لمخالطه ضرار إياهم، و تبعه قوم من السفهاء المعاندين للحق.

لنا الآيات، كقوله تعالى فى آل فرعون: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» (٥)، أى قبل القيامه، و ذلك فى القبر، بدليل قوله تعالى: «و يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (٦)، و كقوله تعالى فى قوم نوح: «أُغْرِقُوا

١- غافر: ٤٦.

٢- نوح: ٢٥.

٣- غافر: ١١.

٤- آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.

٥- غافر: ٤٦.

٦- غافر: ٤٦.

فَأَدْخِلُوا نَارًا» (١)، و الفاء للتعقيب، و كقوله تعالى: «رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (٢)، و إحدى الحياتين ليست إلّا فى القبر، و لا- يكون إلّا نموذج ثواب أو عقاب بالاتفاق، و كقوله تعالى: «وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ» (٣).

و الأحاديث المتواتره المعنى كقولها صلى الله عليه و آله: «القبر روضه من رياض الجنة أو حفره من حفر النيران» و كما روى أنه مرّ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا ليعَذبان..» (٤)

، و كالحديث المعروف فى الملكين اللّذين يدخلان القبر و معهما مرزبتان، فيسألان الميت عن ربه و عن دينه و عن نبيه.. إلى غير ذلك من الأخبار و الآثار المسطورة فى الكتب المشهوره، و قد تواتر عن النبي صلى الله عليه و آله استعاذته من عذاب القبر، و استفاض ذلك فى الأدعيه المأثوره (٥).

١٠- الشريف الجرجاني:

قال: إحياء الموتى فى قبورهم، مسأله منكر و نكير، و عذاب القبر للكافر و الفاسق كلّها حقّ عندنا، اتفق عليه سلف الأئمه قبل ظهور الخلاف، و اتفق عليه (الأكثر بعده) أى بعد ظهور الخلاف، (و أنكره) مطلقاً «ضرار بن عمرو و بشر المريسي و أكثر المتأخرين من المعتزله»، و أنكر الجبائى و ابنه و البلخى تسميه الملكين منكراً و نكيراً و قالوا: إنّما المنكر ما يصدر من الكافر عند تلجلجه إذا

١- نوح: ٢٥.

٢- غافر: ١١.

٣- آل عمران: ١٦٩.

٤- أخرجه الإمام البخارى فى كتاب الوضوء: ص ٥٥-٥٦ و كتاب الجنائز: ص ٨٩.

٥- شرح المقاصد ٥: ١١٢، ١١٤.

سئل، و النكير إنما هو تفریح الملكين له.

لنا فى إثبات ما هو حقّ عندنا وجهان: الأول قوله تعالى: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»، عطف فى هذه الآية عذاب القيامة على العذاب الذى هو عرض النار صباحاً و مساءً، فعلم أنه غيره، و لا شبهه فى كونه قبل الإنشار من القبور، كما يدلّ عليه نظم الآية بصريحه، و ما هو كذلك ليس غير عذاب القبر اتفاقاً، لأنّ الآية وردت فى حقّ الموتى، فهو هو «(١)».

١١- الآلوسى:

قال: إنّ حياه الشهداء حقيقه بالروح و الجسد، و لكننا لا ندرکها فى هذه النشأه «(٢)».

هذه كلمات أعلام السنّه، و إليك كلام بعض مشايخ الشيعة الإماميه:

١٢- الشيخ المفيد قدس سره:

قال فى شرح عقائد الصدوق: فأما كيفية عذاب الكافر فى قبره و تنعم المؤمن فيه، فإنّ الخبر أيضاً قد ورد بأنّ الله تعالى يجعل روح المؤمن فى قالب مثل قلبه فى الدنيا فى جنه من جناته، ينعمه فيها إلى يوم الساعة، فإذا نفخ فى الصور أنشأ جسده الذى فى التراب و تمزق، ثم أعاده إليه و حشره إلى الموقف و أمر به إلى جنه الخلد و لا يزال منعماً بإبقاء الله.

غير أنّ جسده الذى يعاد فيه لا يكون على تركيبه فى الدنيا، بل يعدل طباعه، و يحسن صورته و لا يهرم مع تعديل الطباع و لا يمسه نصب فى الجنه و لا لغوب.

١- شرح المواقف ٨: ٣١٧ و قد مزج كلامه مع عباره المواقف للإيجى، فما ذكره نظريه الماتن و الشارح.

٢- روح المعانى ٢: ٢٠.

و الكافر يجعل في قلب كقالبه في محلّ عذاب يعاقب، و نار يعذب بها حتى الساعه ثم ينشئ جسده الذى فارقه فى القبر فيعاد إليه فيعذب به فى الآخره عذاب الأبد و يركب أيضاً جسده تركيباً لا يفنى معه «(١)».

هذه اثنتا عشره كلمه من أعلام السنّه و الشيعه تعرب عن اتفاق الأُمّه على استمرار الحياه بعد الانتقال عن الدنيا، أو تجديد الحياه بعده، و أنّ الموت ليس بمعنى بطلان الإنسان إلى يوم القيامة، بل هناك مرحله بين المرحلتين، لها شئون و أحكام.

و يؤيد ما ذكره، و ما جرى عليه عمل الناس قديماً و إلى الآن من تلقين الميت فى قبره، و لو لا أنه يسمع ذلك و ينتفع به لم يكن فيه فائده و كان عبثاً، و قد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه و احتجّ عليه بالعمل.

و قال ابن القيم - تلميذ ابن تيميه - بعد نقل ما ذكرنا عن الإمام أحمد: إنّ اتّصال العمل به فى سائر الأمصار و الأعصار من غير إنكار؛ كاف فى العمل به.

إلى أن قال: فلولا أنّ المخاطب يسمع، لكان ذلك بمنزله الخطاب للتراب و الخشب و الحجر و المعدوم، و هذا و إن استحسنه واحد، لكن العلماء قاطبه على استقباحه و استهجانها، و قد روى أبو داود فى سننه بإسناد لا بأس به: أنّ النبي صلى الله عليه و آله حضر جنازه رجل فلما دفن قال: «سلوا لأخيكم الثبت فإنه الآن يسأل»، فأخبر أنه يسأل حينئذ، و إذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين «(٢)».

و قال: إن إلّا رواح على قسمين: أرواح معدّبه، و أرواح منعمه، فالمعدّبه فى شغل ما هى فيه من العذاب، عن التزاور و التلاقى، و الأرواح المنعمه المرسله غير المحبوسه تتلاقى و تتزاور، فتكون كل روح مع رفيقها الذى هو على مثل عملها،

١- أوائل المقالات: ص ٤٩ ط تبريز؛ و شرح عقائد الصدوق: ص ٤٤ ط تبريز.

٢- الروح: ١٣ ط. بيروت.

و روح نبينا فى الرفيق الأعلى، قال الله تعالى: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى دار الجزاء، والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاثة [\(١\)](#).

إجابه عن سؤال

إنّ هنا سؤالاً أثاره كثير من المفسرين و كلّ تخلّص منه بوجه: و هو أنّا نشاهد أجساد الموتى ميتة فى القبور، فكيف يصحّ ما ذهبتم إليه من التنعيم و التعذيب، و السؤال و الإجابة؟

هناك من تخلّص منه زاعماً أنّ الحياه البرزخيه حياه ماديه بحتة، قائمه بذرات الجسد المادى المبعثره فى الأرض، منهم الرازى قال:

أمّا عندنا فالبنية ليست شرطاً فى الحياه، و لا امتناع فى أن يعيد الله الحياه إلى كل واحد من تلك الذرات و الأجزاء الصغيره من غير حاجه إلى التركيب و التأليف [\(٢\)](#).

يلاحظ عليه: أنّ الاعتراف بأنّ الحياه البرزخيه من أقسام الغيب الذى يجب الإيمان به و إن لم نعرف حقيقتها، أولى من هذا الجواب الغامض الذى لا يفيد القارئ شيئاً سوى أنّ التعبد ورد بذلك.

لكن الظاهر من أكثر أهل السنّه المعتمدين فى العقائد على الأخبار و الآثار، أنّ هنا جسداً عليصوره الطير تتعلّق به الروح، و قد استدلّ له بما أخرجه عبد الرزاق، عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: قال رسول الله: «إنّ أرواح الشهداء فى

١- الروح: ١٧ ط. بيروت. و الآيه من سوره النساء: ٦٩.

٢- التفسير الكبير ٤: ١٤٥-١٤٦.

صور طير خضر معلقه في قناديل الجنه حتى يرجعها الله تعالى إلى يوم القيامة».

و في بعض الروايات: «أنّ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلّق من ثمر الجنه أو شجر الجنه».

أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود: مرفوعاً: «أنّ أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنه حيث شاءت ثمّ تأوى إلى قناديل تحت العرش» (١)

و يبدو أنّ الروايات إسرائيليات، وقد رُدّ مضمون هذه الروايات في روايات أئمه أهل البيت، فعالجوا مشكله الحياه البرزخيه بشكل قريب إلى الأذهان، و هو خلق جسد آخر عليصور أبدانهم في الدنيا بحيث لو رأى الرائي أحدهم لقال «رأيت فلاناً».

روى الشيخ أبو جعفر الطوسي في تهذيب الأحكام مسنداً إلى علي بن مهزيار، عن القاسم بن محمّد، عن الحسين بن أحمد، عن يونس بن ظبيان قال:

كنت عند أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام جالساً فقال: «ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟» قلت: يقولون: في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش، فقال أبو عبد الله: «سبحان الله، المؤمن أكرم على الله أن يجعل روحه في حوصله طائر أخضر، يا يونس المؤمن إذا قبضه الله تعاليصير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون و يشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا».

روى ابن أبي عمير، عن حماد، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أرواح المؤمنين؟ فقال: «في الجنه عليصور أبدانهم لو رأيت لقلت: فلان» (٢)

١- روح المعاني ٢: ٢١.

٢- مجمع البيان ١: ٢٣٦ ط صيدا لاحظ الكافي ٣: ٢٤٥ و بما أنّ الشيخ الطبرسي نقل الروايه عن الكافي، ذكرنا موضع الروايه منه.

البرزخيون ينتفعون بأعمال المؤمنين

المبحث الخامس البرزخيون ينتفعون بأعمال المؤمنين

إشارة

إذا كانت حقيقة الإنسان هو روحه و نفسه الباقية غير الدائره، و كانت الصلة بين الدارين (دار الدنيا و دار البرزخ) موجوده، و كانت متعلقه بأجسام تناسبها و هم بين منعم و معذب، يقع الكلام فى انتفاع أهل البرزخ بأعمال المؤمنين الموجودين فى دار الدنيا إذا قاموا بالاستغفار لهم بأعمال نيابه عنهم، و عدمه.

و قبل الدخول فيصلب الموضوع لنا كلاماً نقدّمه: هو أنّ الإيمان إنّما ينتفع به الإنسان إذا انضم إليه العمل الصالح، و لا ينفع إيمان إذا خلا عنه، و لأجل ذلك يذكر سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان فى أكثر آيات الكتاب العزيز.

و قد أخطأت «المرجئه» لما زعموا أنّ الإيمان المجرد و سيله نجاه و مفتاح فلاح، فقدّموا الإيمان و أخرّوا العمل.

و قد فند أهل البيت عليهم السلام هذه الفكره الباطله حيث حدّروا الآباء و دعوهم إلى حفظ أبنائهم منهم: «بادروا أولادكم بالأدب قبل أن يسبقكم إليهم المرجئه» (١)

فالاتتماد على الإيمان مجرداً عن العمل فعل النوكى و الحمقى، و هو لا يفيد

و لا ينفع أبداً.

و لقد كانت لهذه الفكرة الباطلھصيغہ أخرى عند اليهود، فهم كانوا يعتمدون على مسأله الانتساب إلى الآباء و بيت النبوه، فزعموا أن الثواب لهم و العقاب على غيرهم حيث قالوا: «نَحْنُ أبنَاءُ اللَّهِ و أَحِبَّاءُهُ» (١)

أو قالوا: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» (٢)

، و فى ظل هذه الفكرة اقترفوا المنكرات و استحلوا سفك دماء غيرهم من الأقوام و الأمم و الاستيلاء على أموالهم.

و الحق الذى عليه الكتاب و السنه هو: أن المنجى هو الإيمان المقترن بالعمل الصالح، كما أن التسويف فى إتيان الفرائض باطل جداً، و هو أن يؤخر الإنسان الواجب و يقول سوف أحجّ مثلاً، و يقول ذلك كل سنه و يؤخر الفريضة.

و هذا هو الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام يؤكّد فى خطبته على العمل إذ يقول:

«و إنَّ اليومَ عملٌ و لا حساب، و غدًا حسابٌ و لا عمل» (٣)

و يقول: «ألا و إنَّ اليومَ المِضمَمَ و غدًا السِّباق، و السَّبَقُ الجَنَّة، و الغايَةُ النار، أ فلا تائب من خطيئته قبل منيته، أ لا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه» (٤)

و هذا هو ما اتفقت عليه الأئمة الإسلاميه و تضافرت عليه الأحاديث و الأخبار.

انتفاع الإنسان بعمله و بعمل غيره

لكنه سبحانه بفضلہ و جوده الواسعين وسّع على الإنسان دائره الانتفاع بالأعمال بحيث شمل الانتفاع بعد الموت، بالأعمال التى تتحقّق بعد الموت، و هى

١- المائدة: ١٨.

٢- آل عمران: ٢٤.

٣- نهج البلاغه، الخطبه ٤٢.

٤- نهج البلاغه، الخطبه ٢٨.

على نوعين:

الأول: ما إذا قام الإنسان بعمل مباشره فى زمانه و مات و لكن بقى العمل يستفيد منه الناس كصدقه جاريه أجراها، أو إذا ترك علماً ينتفع به، و يقرب منه ما إذا ربى ولدًا صالحاً يدعو له، فهو ينتفع بصدقاته و علومه؛ لأنها أعمال مباشره باقيه بعد موته و ليست كسائر أعماله الفانيه بفنائها الزائله بموته، فالجسر الذى بناه، و النهر الذى أجراه، و المدرسه التى شيدها، و الطريق الذى عبده، إنما تحقّق بسعيه، فهو ينتفع به.

و قد وردت فى هذا المجال روايات كثيره، قام بنقل بعضها ابن القيم فى المسأله السادسه فى كتاب له باسم «الروح» قال:

و ذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شىء البتة لا بدعاء و لا غيره، ثم قال: فالدليل على انتفاعه بما تسبّب إليه فى حياته ما رواه مسلم فيصحيحه من حديث أبى هريره رضى الله عنه: أنّ رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاث: صدقه جاريه، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدلّ على أنّها منه، فإنّه هو الذى تسبّب إليها.

و فى سنن ابن ماجه فى حديث أبى هريره رضى الله عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إنّما يلحق المؤمن من عمله و حسناته بعد موته: علمٌ علّمه و نشره، أو ولدٌ صالحٌ تركه، أو مصحفٌ ورثه، أو مسجدٌ بناه، أو بيتٌ لابن السبيل بناه، أو نهجٌ أكرهه، أو صدقةٌ أخرجها من ماله فيصحتّه و حياته يلحقه من بعد موته».

و فيصحيح مسلم أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله:

«من سنّ فى الإسلام سنّه حسنه فله أجرها و أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، و من سنّ فى الإسلام سنّه سيئه كان عليه وزرها و وزر

من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

و هذا المعنى روى عن النبي صلى الله عليه و آله من عده وجوه صحاح و حسان.

و فى المسند عن حذيفه قال: سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله فأمسك القوم، ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي صلى الله عليه و آله: «من سنَّ خيراً فاستنَّ به كان له أجره و من أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً، و من سنَّ شراً فاستنَّ به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً».

و قد دلَّ على هذا قول النبي صلى الله عليه و آله: «لا- تُقتل نفس ظلماً إلَّا كان على ابن آدم الأوَّل كفل من دمها؛ لأنه أوَّل من سنَّ القتل» فإذا كان هذا فى العذاب و العقاب ففى الفضل و الثواب أولى و أحرى [\(١\)](#).

و يؤيده ما ورد فى شأن صلاة الجماعة حيث تُفضَّل بسبع و عشرين درجة أو خمس و عشرين درجة على صلاة بغير جماعة [\(٢\)](#).

فكيف ينتفع المصلِّون بعضهم ببعض؟ و كلما زاد المصلِّون ازدادوا انتفاعاً.

الثانى: فيما إذا لم يكن للميت فى العمل سعى و لا تسبب، فهل يصل ثواب عمل الغير إليه؟

الظاهر من الكتاب و السنَّة هو أنه سبحانه بعميم فضله و واسع جوده يوصل ثواب عمل الغير إلى الميت، فيما إذا قام الغير بعمل صالح نيابة عن الميت، و بعث ثوابه إليه، و يدلُّ على ذلك طائفة كبيرة من الآيات و الأحاديث و الأخبار.

عرض المسألة على الكتاب:

لقد صرَّحت الآيات بأنَّ الإنسان المؤمن ينتفع بعمل غيره، و إن لم يكن له فيه

١- كتاب الروح، المسألة السادسة عشره، و نقلها برمتها محمَّد الفقى من علماء الأزهر فى كتابه التوسل و الزيارة: ص ٢٢٦-٢٢٧.

٢- صحيح مسلم ٢: ١٢٨، باب فضل صلاة الجماعة.

سعى، و نحن نشير إلى بعض هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر:

١- استغفار الملائكة للمؤمن، قال تعالى:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (١).

و قال تعالى أيضاً:

«تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

٢- دعاء المؤمنين للذين آمنوا:

«وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (٣).

الأحاديث الداله على انتفاع الميت بفعل الحي:

تدل روايات كثيرة على أن الميت ينتفع بعمل الغير، إما بدعائه فيكفي في ذلك ما تواتر عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله من زيارته لأهل بقيع الغرقد و دعائه لهم، و زيارته لشهداء أحد و تعميمهم بالدعاء، و تكرار ذلك منه، و لو لم ينتفعوا بدعائه لما قام به عليه السلام، و قد عرفت الآيات الداله على انتفاع الميت بدعاء الحي.

إنما الكلام فيما إذا قام بعمل (لا بدعاء) قربي نيابه عن الميت، فالروايات المتضافره تدل على صحه العمل و وصول ثوابه إليه و انتفاع الميت به، و قد وزعت

١- غافر: ٧.

٢- الشورى: ٥.

٣- الحشر: ١٠.

الروايات فى الصحاح و المسانيد فى مختلف الأبواب كالصوم و الحج و العتق و النذر و التصدق و السقى و قراءه القرآن، فنحن نذكر هذه الروايات على هذا الترتيب، و لعل المتتبع فى الصحاح و المسانيد يقف على أكثر من ذلك.

أ- انتفاع الميت بصوم الغير نيابه عنه:

١- روى الشيخان عن عائشه: أن رسول الله قال: «من مات و عليه صيام، صام عنه وليه».

٢- روى الشيخان أيضاً عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبى و قال: يا رسول الله إن أمى ماتت و عليها صوم شهر فأقضى عنها؟ قال: «نعم فدين الله أحق أن يقضى».

٣- و فى روايه: جاءت امرأه إلى رسول الله و قالت: يا رسول الله إن أمى ماتت و عليها صوم نذر فأصوم عنها؟ قال: «أ فرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أ كان يؤدى ذلك عنها؟ قالت: نعم قال: «فصومى عن أمك».

٤- روى بريدة قال: بينا أنا جالس عند رسول الله إذ أتته امرأه و قالت: «إنى تصدقت على أمى بجاريه و إنها ماتت، فقال: «وجب أجرک، و ردّها عليك الميراث».

فقلت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر فأصوم عنها؟ قال: «صومى عنها» قالت: إنها لم تحج قط، أ فأحج عنها؟ قال: «حجى عنها».

ب- انتفاع الميت بحج الغير نيابه عنه:

٥- قال سعد بن عباد: يا رسول الله، إن أم سعد فى حياتها كانت تحج من مالى و تتصدق و تصل الرحم و تنفق من مالى، و إنها ماتت فهل ينفعها أن أفعل ذلك عنها؟ قال: «نعم» (١).

١- هذه الروايات ١- ٥ رواها مسلم فى صحيحه، ج ٣، باب قضاء الصيام عن الميت: ص ١٥٥- ١٥٦.

٦- و قال صلى الله عليه وآله: «لو كان مسلماً فأعتقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك».

و قد مضى جواز الحج نيابه فى الروايه الرابعه.

ج- انتفاع الميت بعق الغير عنه:

٧- عن عطاء بن رباح قال: قال رجل: يا رسول الله أعتق عن أمي؟ قال:

«نعم» قال: أ ينفعها؟ قال: «نعم».

٨- عن عبد الرحمن بن أبى عمره الأنصارى: أن أمه أرادت أن تعتق فأخرت ذاك إلى أن تصبح فماتت؟ قال عبد الرحمن: قلت للقاسم بن محمّد: أ ينفعها أن أعتق عنها؟ قال القاسم: أتى سعد بن عباده رسول الله فقال: إن أمي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله: «نعم».

و قد مضى فى الروايه السادسه ما يدل على جواز العتق عن الغير.

د- انتفاع الميت بعمل الغير فيما إذا نذر و لم يعمل:

٩- جاء سعد بن عباده إلى رسول الله فقال: إن أمي كان عليها نذر، أ فأقضيه؟

قال: «نعم» قال: أ ينفعها؟ قال: «نعم».

و رواه مسلم بلفظ آخر قال: استفتى سعد بن عباده رسول الله فى نذر كان على أمه توفيت قبل أن تقضيه؟ قال رسول الله: «فأقضه عنها».

ه- انتفاع الميت بصدقه الغير نيابه عنه:

١٠- عن أبى هريره: أن رجلاً قال للنبي: إن أبى مات و ترك مالاً و لم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: «نعم».

١١- عن معاذ قال: «أعطانى رسول الله صلى الله عليه وآله عطيه، فبكيت فقال: «ما يبكيك يا معاذ؟» قلت: يا رسول الله كان لأمي من عطاء أبى نصيب تتصدق به و تقدّمه لآخرتها و إنّها ماتت و لم توص بشىء قال: «فلا يبكيك الله عينك يا معاذ، أ تريد أن

تُؤجر أُمِّيكَ فِي قَبْرِهَا؟» قَلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَانظُرِ الذِّي كَانَ يَصِيبُهَا مِنْ عَطَائِكَ فَاْمُضْ لَهَا، وَ قُلِ اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ أُمَّمِ مَعَاذٍ».

فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَعَاذِ خَاصِهِ أُمَّمِ لَأُمَّتِكَ عَامِهِ؟ قَالَ: «لَأُمَّتِي عَامِهِ».

١٢- عَنْ سَعْدِ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ أُمَّيْ قَدْ افْتَلَتَتْ وَ أَعْلَمْتُ أَنَّهَا لَوْ عَاشَتْ لَتَصَدَّقَتْ، أَمْ إِنَّمَا تَصَدَّقْتُ عَنْهَا أَوْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «نَعَمْ» فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَنْفَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمَاءُ»، فَحَفَرَ بَيْتًا، وَ قَالَ: هَذِهِ لِأُمَّمِ سَعْدٍ.

وَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «هَذِهِ لِأُمَّمِ سَعْدٍ» هِيَ اللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي وَجَّهَتْ إِلَيْهِ الصَّدَقَةَ، وَ لَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ اللَّامِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمَعْبُودِ الْمُتَقَرَّبِ إِلَيْهِ، مِثْلُ قَوْلِنَا:

نَذَرْتُ لِلَّهِ، وَ إِن شِئْتَ قَلْتُ: اللَّامُ فِي قَوْلِهِ «لَأُمَّمِ سَعْدٍ» مِثْلُ اللَّامِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ» (١)

١٣- وَ فِيصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنَّ أُمَّيْ افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا وَ لَمْ تَوْصِ، وَ أَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، أَمْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ».

١٤- وَ فِيصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ سَعْدَ بْنَ عَبَّادَةَ تَوَفَّيْتُ أُمَّهُ وَ هُوَ غَائِبٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّيْ تَوَفَّيْتُ وَ أَنَا غَائِبٌ فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُكَ إِنْ حَاطَ الْمَخْرَافُ بِصَدَقَتِهَا. وَ الْمَرَادُ بِالْحَائِطِ الْبِسْتَانُ، وَ الْمَخْرَافُ عِبَارَةٌ عَنْ اسْمِ ذَلِكَ الْحَائِطِ.

١٥- وَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: إِنَّ الْعَاصِمَ بْنَ وَائِلَ نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مَائَةً

بدنه، و إنّ هشام بن العاص نحر خمساً و خمسين، و إنّ عمراً سأل النبي صلى الله عليه و آله عن ذلك فقال: «أمّا أبوك فلو أقرّ بالتوحيد فصمت و تصدّقت عنه نفعه ذلك». و رواه الإمام أحمد.

و- انتفاع الميت بالذكر و الدعاء و القراءة و التحية:

١٦- روى ابن ماجه في صحيحه: إنّ رسول الله قال: «اقرأوا (يس) على موتاكم».

١٧- و عن أبي هريره: «زوروا موتاكم ب (لا إله إلاّ الله)».

١٨- «ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلم عليه و يقعد عنده إلاّ ردّ عليه السلام و أنس به حتى يقوم من عنده».

١٩- «ما من رجل يمرّ بقبر كان فيه (من) يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلاّ عرفه و ردّ عليه السلام».

٢٠- «ما الميت في قبر إلاّ شبه الغريق المتغوّث ينتظر دعوه من أب أو أمّ أو ولد أو صديق ثقّه، فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا و ما فيها، و إنّ الله عزّ و جلّ ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، و إنّ هديه الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم و الصدقه عنهم».

٢١- من حديث أبي هريره رضى الله عنه: قال: قال رسول الله: «إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

٢٢- و في صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: قال رسول الله صلى الله عليه و آله على جنازه، فحفظت دعاءه و هو يقول: «اللهم اغفر له و ارحمه و عافه و اعف عنه، و أكرم نزله و أوسع مدخله، و أغسله بالماء و الثلج و البرد، و نقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، و أبدله داراً خيراً من داره، و أهلاً خيراً من

أهله، و زوجاً خيراً من زوجته، و أدخله الجنة و أعذه من عذاب القبر و عذاب النار».

٢٣- و فى السنن عن وائله بن الأسقع قال: صلى رسول الله على رجل من المسلمين فسمعتة يقول: «اللهم إن فلاناً ابن فلان فى ذمتك و حبل جوارك، فقه فتنه القبر و عذابه، و أنت أهل الوفاء و الحق، فاغفر له و ارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

٢٤- و فى السنن من حديث عثمان بن عفان (رض) كان النبي صلى الله عليه و آله إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم و أسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل».

و لو استقصيت الصحاح و السنن لوقفت على روايات كثيرة من هذا القسم.

أضف إلى ذلك ما نقله عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عند ما زار بقيع الغرقد، من دعائه لأهله و ترحيمه لهم.

إلى غير ذلك من الأحاديث و الأخبار الواردة فى هذا المجال، و من أراد التبسط فليرجع إلى مظانها [\(١\)](#).

موقف المذاهب الإسلامية من هذه المسألة

و هؤلاء هم أئمة المذاهب الثلاثة (الحنبلية و الشافعية و الحنفية) يفتون بانتفاع الميت بعمل الحى حتى إذا لم يوص به و لم يكن له فيه سعى.

فهؤلاء هم فقهاء الحنابلة يقولون: و من توفى قبل أن يحج الواجب عليه سواء

١- لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات: صحيح مسلم، كتاب النذر ٥: ٧٣-٧٨ و كنز العمال ٦: ٥٩٨-٦٠٢ / ١٧٠٥٠-١٧٠٧١، و الروح لابن القيم: ص ١١٨-١٢١ و غيره، و التوسل و الزيارة فى الشريعة الإسلامية للشيخ الفقى: ص ٢٢٩ و غيرها.

أ كان ذلك بعذر أو بغير عذر، وجب عليه أن يخرج من جميع ماله نفقه حجه و عمره و لو لم يوص «(١)».

و هذا هو الفقه الحنفى يقول: أما إذا لم يوص و تبرّع أحد الورثة أو غيرهم فإنه يرجى قبول حجتهم عنه إن شاء الله «(٢)».

و هذا هو الشافعى يقول: فإن عجز عن مباشره الحج بنفسه يحج عنه الغير بعد موته من تركته (و لم يقيد بالإيضاء و عدمه) «(٣)».

و قال ابن القيم: و اختلفوا فى العباده البدنيه كالصوم و الصلاه و قراءه القرآن و الذكر: فذهب الإمام أحمد و جمهور السلف إلى وصولها، و هو قول بعض أصحاب أبى حنيفه، نصّ على هذا الإمام أحمد فى روايه محمّد بن أحمد الكحال قال: قيل لأبى عبد الله: الرجل يعمل الشىء من الخير منصلاه أو صدقه أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو أمه، قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شىء من صدقه أو غيرها، و قال: أيضاً اقرأ آيه الكرسي ثلاث مرات و قل هو الله أحد و قل: اللهم إنّ فضلته لأهل المقابر.

و قال: فقد أخرج ابن أبى شيبه فى مصنّفه و الخلال فى جامعهم عن الشعبى بسند صحيح، قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره، يقرءون القرآن.

و قال النووى فى شرح المهدب: يستحب (أى للزائر للأموات) أن يقرأ ما تيسّر و يدعو لهم عقبها، نص عليه الشافعى و اتفق عليه الأصحاب.

و قال فى الأذكار: قال الشافعى و الأصحاب: يستحب أن يقرءوا عند الميت شيئاً من القرآن قالوا: فإن ختموا القرآن كلّه كان حسناً.

١- الفقه على المذاهب الأربعة للجزرى ١: ٥٧١.

٢- المصدر نفسه ١: ٥٦٧.

٣- المصدر نفسه ١: ٥٦٩.

ثم قال: وقد روى عن بعض الشافعية أنه لا يصل ثوابها للميت.

و نقل عن جماعات من الشافعية أنهم أولوه بحمله على ما إذا لم يقرأ بحضره الميت، أو لم ينو ثواب قراءته له، أو نواه و لم يدع
«(١)».

و هذه الروايات و إن أمكن المناقشه فى إسناد بعضها، لكن المجموع متواتر مضموناً، فلا يمكن ردّ الكل.

أضف إلى ذلك وجود روايات تصحيحه قاطعه للنزاع، و الفقيه إذا لاحظ مع ما أفتى به أئمة المذاهب الثلاثة ينتزع ضابطه كليه، و هو وصول ثواب كل عمل قربي إلى الميت إذا أتى به نيابه عنه، سواء كان العمل داخلماً فيما ذكر من الموضوعات أو خارجاً عنها؛ لأنّ الظاهر أنّ الموضوعات كالصوم و الحج و غيرهما من باب المثال، لا من باب الحصر.

فتلك الآيات و الروايات و هذه الفتاوى يصريحه فى جواز القيام بعمل ما عن الميت من دون إيضاء، و بعبارة أخرى: من دون سعى له فيه، فإذا لم ينتفع الميت بعمل الغير فكيف جاز الحج عنه أو وجب، و كذا فى سائر الأمور الأخرى كالاستغفار و الدعاء له و شفاعته و التصدق و العتق عنه.

و قال الدكتور عبد الملك السعدى: لم يثبت أنّ النبي صلى الله عليه و آله كان يقرأ شيئاً من القرآن إذا زار المقابر سوى ما ورد أنّه صلى الله عليه و آله قال: «يس قلب القرآن اقرأوها على موتاكم» إذا حملنا لفظ الموتى على المعنى الحقيقى و هو خروج الروح من الجسد، لأنّ حمله على حاله النزاع حمل اللفظ على معناه المجازى، و الحمل على الحقيقه أولى، و مع هذا فلا مانع من قراءه القرآن فى المقبره لعدم ورود المنع من ذلك، و لأنّ الأموات يسمعون القراءه فيستأنسون بها، و لأنّ الإمام أحمد كان يرى ذلك حيث قد نهى ضريراً يقرأ عند القبور ثمّ أذن له بعد أن سمع أنّ ابن عمر رضى الله عنه أوصى أن يقرأ

إذا دفن عنده بفاتحه البقره و خاتمها، كما جاء في المغنى لابن قدامه في مسأله زياره القبور «(١)».

أمّا القول بأنّ القراءه عند القبور بدعه، فغير مسلم؛ لأنّ البدعه هي التي لم يرد بها نص خاص أو لم تدخل تحت القواعد العامه للإسلام، و القراءه مشروعته على الإطلاق في الإسلام بغضّ النظر عن مكان القراءه و زمانها ما لم يرد نهى عنها بوقت معين و زمان معين أو مكان معين «(٢)».

١- المغنى ٢: ٥٦٧.

٢- البدعه: ص ١٣٦.

المبحث السادس حول الشبهات المطروحة**إشاره**

لقد وقفت بفضل الآيات الكريمه الناصعه، و التّينّه النبويه المطّهّره، و كلمات العلماء الأبرار على أنّ الموت ليس بمعنى فناء الإنسان و بطلانه، أو القضاء على حقيقته و شخصيته، بل هو قنطره تعبر بالإنسان من دار إلى أُخرى إمّا محفوفه بالنعمة و الراحة، أو ملفوفه بالنقمه و التعذيب.

كما وقفت على أنّ الصله بين الدارين غير منقطعه، و أنّ هناك مبادله كلام بكلام حتى إنّ البرزخيين يسمعون خفق نعال المشييعين.

كما اتّضح أنّ المؤمنين ينتفعون بخير الأعمال التي يقوم بها أقرباؤهم و أصدقاؤهم.

كلّ ذلك بفضل منه سبحانه على عباده حتى ينتفعوا بما يُقدّم لهم إخوانهم - بعد انتقالهم من الدنيا- من أذعيهصالحه، و أعمال طيبه تهدي ثوابها إلى آباءهم و إخوانهم و أساتذتهم الذين وجبت حقوقهم عليهم.

غير أنّ تبعيه الأهواء ربما تصدّد الإنسان عن البخوع للحق، و الخضوع أمام الحقيقه فيقدّم رأيه الساقط على البراهين الواضحه، فتاره يُنكر الحياه البرزخيه،

و أخرى يردّ الصلّه بين الدارين، و ثالثه يجحد انتفاع البرزخيين بأعمال إخوانهم المؤمنين، كلّ ذلك في قوالب شبه ضئيله نَمَقْتَه الأهواء و التقليد الأعمى و لا- يقام له في سوق الاعتبار وزن و لا في مَبْوَأِ الحقّ مَقِيل، «فَطَنٌ خَيْرًا و لا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبْرِ» و إليك تلکم الشبهات مع أجوبتها:

الشبهه الأولى

إنّ الحياه البرزخيه حياه لا- يعلمها إلّا الله، فهي حياه مستقلّه تؤمن بها و لا نعلم ماهيتها، و إن بين الأحياء و الأموات حاجزاً يمنع الاتّصال فيما بينهم، و على هذا فيستحيل الاتّصال بينهم لا ذاتاً و لا صفاتٍ، و الله سبحانه يقول: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١).

الجواب: هذه العبارة تتضمن أمرين قد خلط الكاتب بينهما:

أ- إنّ الحياه البرزخيه لا نعلم حقيقتها.

ب- إنّ البرزخ حاجز مانع عن الاتّصال.

فعلى هامش الأمر الأوّل نقول: إنّ حقيقه الحياه مطلقاً- ماديه كانت أم برزخيه- أمر مجهول لا يعلمها إلّا خالقها، و الذى يعود إلى إمكاننا هو التعرّف على آثارها و خصوصياتها، فكما أنّ الحياه الماديه معلومه لنا ببعض آثارها، و كلّما يتقدّم العلم يتقدّم الإنسان فى ميادين التعرّف على آثارها، فهكذا الحياه البرزخيه فهي مجهوله الحقيقه و لكنّها معلومه بآثارها، و قد ذكر الكتاب العزيز بعضها، و أنّ الشهداء الأحياء بحياتهم البرزخيه يُرزقون، يفرحون بما آتاهم الله، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، و يستبشرون بنعمه من الله، و أنّهم ربّما يتمنون أموراً كتمنى

١- التوصل إلى حقيقه التوسل: ص ٢٦٧، سوره المؤمنون: ١٠٠.

حبيب النجار عرفان قومه بمصيره كما قال سبحانه: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ» (١).

إنَّ الحياه البرزخيه لا تختص بالمؤمنين، بل هناك من المذنبين الكافرين من تعمهم كآل فرعون إذ يعرضون على النار غدواً و عشياً، قال سبحانه: «و حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (٢).

و هذا المقدار من المعرفه يكفينا فى القضاء بأن لهم شعوراً و استشعاراً و دركاً و تعقلاً و ظواهر نفسيه من الفرح و الألم و غير ذلك، و لا تتطلب مسأله التوسل سوى كون المتوسل به عاقلاً حياً مدركاً شاعراً ملتفتاً إلى الدنيا و ما يجرى فيها.

و على هامش الأمر الثانى نقول: إنَّ البرزخ بمعنى الحاجز لا بمعنى انقطاع الصله بين أهل الدنيا و أهل الآخره و من فسره بالمعنى الثانى فإنما أراد دعم مذهبه، و إنما هو مانع من رجوع الناس إلى حياتهم الدنيا.

و يدل على ذلك: أنه سبحانه ذكر أمر البرزخ بعد ما ذكر تمنى العصاه الرجوع إلى الدنيا، قال سبحانه: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» (٣).

فقوله: «كلاً» ردع لتمنى رجوعهم، يعنى لا يستجاب دعائهم، ثم عاد سبحانه يؤكد بقوله: «وَمِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» أى حائل مانع من الرجوع إلى الدنيا إلى يوم يبعثون.

إنَّ اتّخاذ موقف مسبق فى المسأله يشكل مانعاً من الوصول إلى الحقيقه، و يعد

١- يس: ٢٦-٢٧.

٢- غافر: ٤٥-٤٦.

٣- المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

من موانع المعرفة الصحيحة، فبما أنّ القائل يقتضى أثر من يقول لا يصح التوسّل بدعاء النبى الأكرم فى البرزخ، فقد أراد نحت دليل لقوله، ففسّر البرزخ فى الآيه بمعنى المانع عن الاتصال لا-المانع عن انتقال أهل البرزخ إلى الدنيا، فكأنّه يَصوّر أنّ بين الحياتين ستاراً حديدياً أو جداراً ضخماً يمنع من اللقاء و السماع، و ليس لما يتخيله دليل، بل الدليل على خلافه، ترى أنّه سبحانه يحكى عن ماء البحرين أحدهما عذب فرات و الآخر ملح أجاج ثم يقول: «بَيْنَهُمَا بَرْزُخٌ لَا يَبْغِيَانِ» أى مانع يمنع عن اختلاط المائين، يقول سبحانه: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزُخٌ لَا يَبْغِيَانِ» (١) و لم يكشف العلم عن وجود سدّ مادى بين البحرين.

الشبهه الثانيه

إنّ الله سبحانه يقول: «و أن ليسَ للإنسانِ إلّا ما سَعَى» (٢)

فالآيه تحصر الانتفاع فى العمل الذى سعى فيه الإنسان قبل موته، و معه كيف ينتفع بعمل الغير الذى لم يسع فيه؟

و الجواب على هذه الشبهه من وجوه متعدده، و لكننا نذكر قبل الجواب ما يفيد القارئ فى المقام، و هو: أنّه لو كان ظاهر الآيه هو ما يرومه المستدل و هو: أنّ الغير لا ينتفع بعمل الغير ما لم يكن قد تسبب إليه فى الحياه، لعارض هذا ظاهر الآيات الأخر و الروايات المتضافره فى ذلك المجال؛ إذ لو كان كذلك فما معنى استغفار المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان؟! و ما معنى استغفار حمله العرش و من حوله لأهل الإيمان؟! و ما معنى هذه الروايات الواردة فى مجالات مختلفه، الداله على انتفاع الميت بعمل الغير؟

١- الرحمن ١٩ - ٢٠.

٢- النجم: ٣٩.

كل ذلك يعرب عن أنّ لآييه مفاداً آخر وهو غير ما يرومه المستدل، وإليك تفسير الآيه بالإمعان فيها، وذلك بوجوه:

الوجه الأول:

إنّ سياق الآيات المحيطة بهذه الآيه سياق ذمّ و تنديد، و سياق إنذار و تهديد، فإنّ الله سبحانه يبدأ كلامه العزيز بقوله: «أَفَرَأَيْتَ
الَّذِي تَوَلَّى* وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْدَى* أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى* أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِيصُفِّ حُفِّ مُوسَى* وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى* أَلَا تَرَى
وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى* وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى* وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى»
«(١)».

فإنّك ترى أنّ الآيات الحاضره مثل سيبكه واحدهصيغت لغرض الإنذار و التهديد، خصوصاً قوله: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَى» فإنّ هذه الآيه وقعت بين آيتينصريحيتين في التهديد المتقدمه قوله: «أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى» و المتأخره قوله: «وَ أَنْ سَعِيَهُ
سَوْفَ يُرَى» ثمّ قوله: «وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى».

فإنّ كلّ ذلك يعطى أنّ موضوع هذه الآيه و الآيات السابقه و اللاحقه هو العقاب لا الثواب، و السيئه لا الحسنه، فالآيه تصرّح بأنّ
كل إنسان يحمل وزر نفسه و يعاقب بالعمل السيئ الذي سعى فيه، و أمّا العمل السيئ الذي اقترفه الغير و لم يكن للإنسان سعى
فيه فلا يؤخذ به و لا يعاقب عليه.

و على ذلك فاللام في قوله: «للإنسان» ليس للانتفاع بل اللام لبيان الاستحقاق، و هو أحد معانيها «(٢)» مثل قوله: «وَيْلٌ
لِّلْمُطَفِّفِينَ» «(٣)»

و قوله: «لَهُمْ فِي

١- النجم: ٣٣-٤٢.

٢- قال ابن هشام في معنى اللبيب ١: ٢٠٨ و للام الجاره اثنان و عشرون معنى، أحدها: الاستحقاق، و هي الواقعه بين معنى و
ذات.. مثل: «لهم في الدنيا خزي».

٣- المطففين: ١.

الدُّنْيَا حِزْبِيٌّ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (١)

و قول له صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

و على ذلك فالموضوع الذى تركّز عليه الآيات هو العقاب لا الثواب، و لهذا تكون الآية خارجه عن مصبّ البحث، و هذا ظاهر لمن أمعن النظر.

الوجه الثانى:

لو فرضنا أنّ محور البحث فى هذه الآيات هو الأعم من الثواب و العقاب، و أنّ اللّام فى الآية للانتفاع، و لكن الآية مع ذلك لا تنفى انتفاع الإنسان بعمل غيره إذا كان للإنسان المنتفع سعى فيه و لو يبيجاد أرضيه صالحه للانتفاع به فى ذاته، فى قبال من لا توجد فى نفسه و ذاته مثل هذه الأرضيه و الاستعداد و القابليه و المقتضى.

فمثلاً الإنسان ينتفع بشفاعه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يوم القيامة باتفاق جميع المسلمين حتى الوهابيين، و لكن انتفاعه هذا ناشئ من أنّه سعى لهذا الانتفاع حيث دخل فى حظيره الإيمان بالله و آياته.

و كذلك الأمر فى استغفار المؤمنين للمؤمن بعد موته، و كذا الأعمال الصالحه التى يهدى ثوابها إلى أحد و تكون على وجه يرتبط بسعيه فى الدخول فى زمرة المؤمنين.

و لذلك لو كان مشركاً أو ممّن تحبط أعماله، لا يصل إليه ذلك الثواب و لا ينتفع بعمل الغير.

و قد تفتّن لهذا الجواب بعض أئمه أهل السنّه.

قال أبو الوفاء بن عقيل: إنّ الإنسان بسعيه و حسن معاشرته اكتسب الأصدقاء و أولاد الأولاد و تزوّج و أسدى الخير و تودّد للناس، فنشأ عن ذلك أنّهم

ترحموا عليه و أهدوا له العبادات، و قد كان ذلك من آثار سعيه كما قال صلى الله عليه و آله: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ» و يدلّ على ذلك الحديث الآخر: «و إذا مات العبد انقطع عمله إلّا من ثلاث..».

و قال الشيخ الفقى: «هذا جواب يحتاج إلى إتمام؛ فإنّ العبد بإيمانه و طاعته لله و رسوله قد سعى فى انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله، كما ينتفع بعملهم فى الحياه مع عمله؛ فإنّ المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الأعمال التى يشتركون فيها، كالصلاه فى جماعه؛ فإنّ كلّ واحد منهم تضاعفصلاته إلى سبع و عشرين ضعفاً لمشاركه غيره له فى الصلاه، فعمل غيره كان سبباً لزياده أجره، كما أنّ عمله كان سبباً لزياده أجر الآخر.

أضف إلى ذلك أنّ القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره، و إنّما نفى ملكه لغير سعيه، و بين الأمرين فرق كبير، فأخبر تعالى أنّه لا يملك إلّا سعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، و إن شاء أن يبقيه لنفسه، فهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلّا بما سعى «(١)».

الوجه الثالث:

إنّ الآيه بصدد بيان أنّ عمل كل إنسان راجع إليه دون غيره، و أين هذا من عدم انتفاع الإنسان بعمل الغير؟ فإنّه غير داخل فى منطوق الآيه و لا فى مفهومها، و لا الآيه ناظره إلى نفيه.

و إن شئت قلت: إنّ الآيه بصدد بيان أنّ كلّ إنسان رهن عمله، فإن عمل شراً فلا يتحمّله غيره «و لا تَزُرْ وازرّةً و زَرَّ أُخْرَى» «(٢)»

، و إن عمل خيراً فيسعد به و يرى عمله و سعيه ف «الناس مجزؤون بأعمالهم إن خيراً فخير و إن شراً فشر» و «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» «(٣)»، «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»*

١- التوسّل و الزياره: ٢٣٤.

٢- الإسراء: ١٥.

٣- الجاثيه: ١٥.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (١)، وهذه هي الضابطة الأصلية في حياة الإنسان عاجلاً و آجلاً، وليس لأحد رفضها و الاعتماد على غيرها، و لكنّ هذا لا ينافي جواز أن يهدى العامل ثواب عمله إلى غيره و يسعد الغير به، فهو خارج عن مفاد الآية إيجاباً و سلباً.

و هذا مثل قول الوالد لولده: إنّما تنتفع بتجارتك و سعيك، و إنّ سعى كلّ إنسان له نفسه لا للغير، و هذا لا ينافي أن ينتفع هذا الولد بعمل غيره إذا أهدى إليه ذلك الغير شيئاً من الطعام و الفواكه و الألبسة بتيات مختلفه، فليس للولد حينئذ أن يعترض على والده و يقول: إنّك قلت إنّك تنتفع بسعيك مع أنّي انتفعت بسعى الغير؛ إذ للوالد أن يقول: إنّ كلامي في نفس العمل الصادر منك و من غيرك، فكلّ يملك عمل نفسه و لا يتجاوزه، و لكن كلامي هذا ليس ناظراً إلى ما لو وهب أحد حصيله سعيه إليك بطييه نفسه.

و كيف يمكن أن نقول بما يقوله هذا الوهابي و نظراؤه و قد تضافرت الآيات و الأحاديث - كما مر عليك بعضها - بانتفاع الإنسان بعمل الغير في ظروف معيّنه، و تحت شرائط خاصه و إن لم يكن له أدنى سعى فيها.

هذه الآية تشير إلى نكته و هي: أنّه يجب على الإنسان الاعتماد على السعى و العمل لا على الحسب و النسب، و إلّا يكون المسلم مثل اليهود الذين كانوا يتمنون تمنى الحمقى إذ كانوا يعتمدون عليصلتهم و انتمائهم إلى الأنبياء بقولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ و أَحِبَّاءُهُ» (٢).

أو قولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً» (٣).

١- الزلزله: ٨-٧.

٢- المائدة: ١٨.

٣- البقره: ٨٠.

نعم، هذه- كما قلنا- ليست ضابطه أصلية في سعادة الإنسان في دنياه و أخرائه، و ليس له أن يعتمد عليها و يتخذها سنداً، و إن كان أمراً صحيحاً في نفسه، و ليس كل أمر صحيح يصح أن يعتمد عليه الإنسان و يعيش عليه كشفاعات الأنبياء و الأولياء، فلا يجوز ترك العمل بحجه أنهم يشفعون.

الشبهه الثالثه

دلّت السنّه على أنّ الإنسان ينقطع عمله بعد موته إلّا عن أمور ثلاثه؛ إذ يقول صلى الله عليه و آله:

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقّه جارِيه، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولدٌ صالح يدعوه له» و ليس عمل الغير أحد هذه الأمور الثلاثه، فلا ينتفع به.

يلاحظ عليه:

أنّ الحديث يدلّ على أنّ عمل الإنسان ينقطع بموته إلّا عن ثلاثه، و لا يدلّ على أنّه لا ينتفع بشىء من غير هذه الثلاثه، و كم فرق بين القول بالانقطاع و عدم الانتفاع؛ فإنّ الأوّل ناظر إلى الأعمال التى يقوم بها الإنسان فى حال حياته؛ فإنّها تنقطع بالموت بالضرورة إلّا ما كان له وجود استمرارى كالأمور الثلاثه، و أمّا الثانى فهو تعبير أعمّ ممّا يقوم به الإنسان بنفسه، أو يقوم به الغير، فلا ينفى الحديث انتفاع الإنسان بعمل قام به الغير و أهدى ثوابه إليه.

بعبارة أخرى: الموضوع فى الحديث هو الأعمال التى للإنسان فيها دور مباشر، أو تسيبياً كالولد، و أمّا الأعمال الخارجه عن هذا الإطار، التى ليست للإنسان فيها أيه مدخلية إلّا بإيجاد الأرضيه الصالحه فهى خارجه عن موضوع الحديث.

الشبهه الرابعه

الحواله إنما تكون بحق لازم، و هى تتحقق فى حواله المخلوق على المخلوق، و أمّا حواله المخلوق على الخالق فأمر آخر؛ لا يصح قياسه على حواله العبيد بعضهم على بعض.

الجواب: إن هذا الموقف و هذا الكلام اجتهاد فى مقابل النص، فقد تضافت الأدلّه على أنّ الميت ينتفع بعمل الحى، و قد عرفت نصوصه كتاباً و سنّه، و بعد هذا فما معنى هذا الاستدلال؟

أضف إليه أنه ليس هناك حواله مخلوق على الخالق، و إنما هو امثال لأمره سبحانه بأن نستغفر للمؤمنين و نصوم و نصلى عنهم و نحجّ و نحر عنهم، و إنّنا لو فعلنا ذلك لانتفع الأموات، و نحن نقوم بذلك حسب أمر النبى، و ليس هناك حواله مخلوق على الله.

ثمّ هبّ أنّ الثواب على العمل تفضلى لا استحقاقى و له سبحانه أن لا يعطى شيئاً للعامل، و لكنّه سبحانه تفضّل و جعل ثواباً على العمل ثمّ رخص فى أن يؤتى العمل بنيه الميت و من جانبه و أنه سيصل إليه الثواب، بل و تبرأ ذمته، فلا يصح لنا اللجاج و العناد فى مقابل النصوص تعصّباً للمنهج.

الشبهه الخامسه

أنّ العبادات على قسمين: قسم يمكن فيه النيابة كالصدقه و الحج، و قسم لا يمكن فيه النيابة كالإسلام و الصلاه و قراءه القرآن و الصيام، فهذا النوع يختصّ ثوابه بفاعله لا يتعداه و لا ينتقل عنه لغيره.

و الجواب: إنّ هذا أيضاً اجتهاد في مقابل النص، فما الدليل على هذه التفرقة و قد شرّع النبي الصوم عن الميت مع أنّ الصوم لا تدخله النيايه؟ و الله الذي وعد الثواب للحج و الصدقه و العتق يتفضّل بإيصال ثواب الصيام و الصلاه و القراءه و غيرها مما يصح أن يفعله الغير تبرّعاً إلى الميت.

و ما ذا تقولون في قوله صلى الله عليه و آله: «أَيُّمَا مَيِّتٍ مَاتَ وَ عَلَيْهِ صِيَامٌ فَلْيَصِّمِ عَنْهُ وَثِيئُهُ» (١) و هو حديث صحيح.

و قال البيهقي: قد ثبت جواز القضاء عن الميت بروايه سعيد بن جبیر، و مجاهد، و عطاء، و عكرمه، عن ابن عباس، و في روايه بعضهم: «صومي عن أمك».

و قد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله إنّ أمي ماتت، و عليها صيام شهر فأفّضني عنها؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله: «لو كان عليها دين أ كنت قاضيه عنها؟» قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يُقضى».

و أخرج أصحاب السنن، و ابن حبان، و الحاكم في المستدرک، و البيهقي في «الشعب» و الإمام أحمد عنصلى الله عليه و آله: «يس قلب القرآن و لا يقرؤها رجل يريد الله و الدار الآخرة إلّا غفر له و اقرأوها عند موتاكم».

و روى البيهقي: أنّ ابن عمر استحب أن يقرأ على القبر بعد الدفن أول سورة البقره و خاتمتها.

الشبهه السادسة

إشاره

إنّ اللام في قولهم: هذا للنبي أو للإمام أو للولي أو للوالد، هو نفس اللام الموجوده في قولنا: نذرت لله، أو لله عليّ.

و على ذلك فإنّ النذر للأموات شرك و عباده لهم، بحجه اشتراك العاملين فى الصورة.

و لكن المتوهم غفل عن اختلاف معنى اللام فى الموردین: فاللّام فى قوله هذا للنبي، نفس اللام الواردة فى قوله تعالى: «إنّما الصدقاتُ للفقراء و المساكين...» (١)

و يختلف معناها مع الموجود فى قوله: «ربّ إنى نذرتُ لك ما فى بطنى محرّراً» (٢)

، فإن اللام فيه للغايه، و بين المعنيين بون بعيد، و الذى يضىفى على العمل لون العباده كون الشخص هو الغايه و المقصد لا المهدي إليه.

ثمّ يجب أن لا- نحصر جواز إهداء الثواب فى الأعمال المذكوره فى الروايات، بل نعمّم الجواز بحيث يشمل جميع الأعمال، و ذلك بإلغاء الخصوصيه، فكما يجوز إهداء ثواب الصدقه و الحج و العتق يجوز إهداء ثواب قراءه القرآن إلى الموتى.

خاصه و أنّ هناك أحاديث مرويه عن أهل البيت عليهم السلام جوّزت مثل هذا العمل، و سوّغت إهداء ثواب قراءه القرآن إلى الميت، و صرّحت بوصوله إليه و انتفاعه به، فلما ذا يترك رأى أهل البيت عليهم السلام و يكتفى بقول أحد أئمه المذاهب الأربعة؟!

أفلا ينبغى الرجوع إلى قول أهل البيت عليهم السلام إلى جنب أقوال أئمه المذاهب الأربعة على قدم المساواه؟!

و أظن إن للقوم وراء هذا الإنكار أهدافاً خطيره، و هو: أن القول بعدم انتفاع الموتى من عمل الأحياء ذريعه لإنكار حياتهم، و بالتالى فإنّ الأنبياء و الأولياء أموات لا ينتفعون بشىء مما يقدم إليهم من أحبائهم و شيعتهم.

فإذا كانوا كذلك فما معنى التوسل و الاستغاثة بهم و ندائهم؟

١- التوبه: ٦٠.

٢- آل عمران: ٣٥.

كلمه فى الندور

اشاره

قد تفضل رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فضحى عن أُمَّته أحياءً و أمواتاً و ضحى الصحابه و التابعون عن نبيهم، فقد أخرج ابن ماجه و عبد الرزاق و غيرهما عن عائشه و أبى هريره: أن النبي صلى الله عليه و آله كان إذا أراد أن يضحى اشترى كبشين عظيمين سميين أقرنين... فذبح أحدهما عن محمّد و آل محمّد و الآخر عن أُمَّته من شهد لله بالتوحيد و له بالبلاغ.

و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى: أن النبي ذبح بيده و قال: «اللّٰهم هذا عنى و عمّن لم يضح من أُمَّتى» و صريح ذلك وصول الثواب إليهم و انتفاعهم.

روى أبو داود بسنده فى باب الأضحى عن الميت، عن على بن أبى طالب: إنّه كان يضحى عن النبي بكبش و كان يقول: «أوصانى أن أضحى عنه فأنا أضحى عنه» (١)

ما يترتب على هذا الأصل:

و يترتب على هذا الأصل عمله عمل المسلمين؛ حيث يقومون بأعمال حسنه صالحه، و ربما أهدوا ثوابها إلى أحبائهم و أعزّتهم الموتى، و هو أمر يوافق عليه الكتاب و السنّه، بلصرّحاً به تصریحاً.

فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحه لهم، أو ما يفعلونه عند قبور الأنبياء و الأولياء من إطعام الطعام، و تسبيل الماء بتيه أن يصل ثوابها إليهم إنّما يقتدون فيها بسعد بن عباده الذى سأل النبي عن حكم الصدقه عن

١- سنن أبى داود ج ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ٢٧٩٠، كتاب الضحايا.

أُمَّهُ أَيْنَفَعَهَا؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «نَعَمْ»، فَقَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْمَاءُ»، فَحَفَرَ بئْرًا، وَقَالَ: هَذِهِ لِأُمَّ سَعْدٍ.

فَهَمَ فِي هَذَا سَعْدِيُونَ لَا وَثْنِيُونَ، لَا يَرِيدُونَ عِبَادَةَ الْمَوْتَى، بَلْ يَرِيدُونَ إِيْصَالَ الثَّوَابِ إِلَيْهِمْ كَمَا فَعَلَ سَعْدٌ.

الفصل السادس الشفاعة في الكتاب و السنه

اشاره

يَتَّسَمُ الدين الإسلامي في أبرز ما يتَّسَمُ به، بأنَّه دين الدنيا والآخرة، و من هنا يجب على المسلم أن يهتم بالجانبين، فيعمل لآخرته كما يعمل لدنياه، و يتزوّد من حياته الحاضرته لحياته الأبدية المستقبله كما قال تعالى: «وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا» (١)

و لهذا كان من الواجب على المسلم أن يعمل بالفرائض الدينيه، و يتجنّب المحرّمات الإلهيه، و يلتزم بقواعد الشرع الحنيف، جهد إمكانه، فيصلّي الخمس، و يصوم شهر رمضان، و يزكّي ماله، و يحجّ بيت الله الحرام، و يأمر بكل خير قدّر عليه، و يعتمد في تحصيل السعاده الأخرويه على العمل الصالح، و الطاعه لله تعالى، كيف و قد نصّت الآيات القرآنيه على أن كلّ امرئ مرهون بعمله، إن خيراً فخير و إن شراً فشر؟!!

كما نصّت الأحاديث الشريفه المأثوره عن رسول الله صلى الله عليه و آله و عترته الطاهره و صرّحت بضروره العمل و الطاعه للحصول على النجاه و السعاده الأخرويتين.

فقد روى أنّ الإمام الصادق عليه السلام أمر بحضور جميع أقربائه قبيل وفاته، ثمّ التفت إليهم و أكد على أهميه الصلاه. و إليك الحديث بأكمله:

روى أبو بصير عن أصحاب الإمام قال: دخلت على أمّ حميده (زوجه الإمام جعفر الصادق عليه السلام) أعزّبها بأبي عبد الله عليه السلام فبكت و بكيت لبكائها، ثمّ قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله عليه السلام عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه، ثمّ قال:

«اجمعوا كلّ من بينى و بينه قرابه».

قالت: فما تركنا أحداً إلّا جمعناه، فنظر إليهم ثمّ قال: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاه» [\(١\)](#)

فليس للمسلم أن يعول على شىء إذا أهمل الواجبات و ترك الفرائض، أو استهان بها.

نعم، خلق الإنسان ضعيفاً- بحكم جبلته- محاصيراً بالشهوات، محاطاً بالغرائز، و لذلك ربما سها و لها، و ربّما بدرت منه معصيه، و استحوذ عليه الشيطان، و وقع فى شباكه و شراكه، فعصى من حيث لا يريد، و خالف من حيث لا يجب، ثمّ تعرّض لضغط الوجدان، و وخز الضمير، فهل له أن ييأس فى هذه الحاله و يقنط، و قد قال ربّ العزّه: «لا ييأس من رّوح الله إلّا القوم الكافرون» [\(٢\)](#)

كلّا ليس له إلّا الرجاء فى رحمه الله، و الأمل فى عفوه و لطفه، و قد فتح الإسلام نوافذ الأمل و الرجاء أمام العاصى النادم، ليعود إلى ربه، و يواصل مسيره تكامله فى ثقته و طمأنينه.

و من هذه النوافذ: التوبه و الإنابه و الاستغفار، و منها: الشفاعه للمذنبين، الشفاعه التى تنالهم وفق معايير وردت فى الكتاب و السنّه، الشفاعه التى يبعث

١- الوسائل ٣: ٧١.

٢- يوسف: ٨٧.

الأمل فيها بصيصاً من الرجاء فى نفوس العصاه، و يمنع من قنوطهم و يأسهم، و يبعث فيهم روح العمل و النشاط.

و هذا لا- يعنى تمهيد الطريق للعصاه، لما للشفاعه من شروط و قيود، بل هى عمليه زرع الأمل، و الرجاء فى النفوس، ما دام الأصل هو العمل و الإتيان بالواجبات و اجتناب المحرمات.

و توضيحاً لهذه الحقيقه، و تبييناً لهذا المفهوم القرآنى الإسلامى أعددنا هذا الفصل، آملين أن نلقى الضوء على إحدى السبل الإسلاميه لمعالجه اليأس و القنوط الذى يصيب المذنبين و يقع الكلام فى مباحث.

المبحث الأول موقف علماء الإسلام من الشفاعة

أجمع علماء الأئمة الإسلاميه على أنّ النبي صلى الله عليه وآله أحد الشفعاء يوم القيامة مستدلّين على ذلك بقوله سبحانه: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» (١) والذي أُعطى هو حقّ الشفاعة الذي يُرضيه، وبقوله سبحانه: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» (٢) واتفق المفسرون على أنّ المقصود من المقام المحمود، هو مقام الشفاعة.

إنّ الشفاعة من المعارف القرآنيه التي لا يصح لأحد من المسلمين إيجاد الخلاف و النقاش في أصلها، وإن كان يمكن لهم الاختلاف في بعض فروعها، فها نحن نورد آراء كبار علماء الإسلام- من القدامى و الجدد- حتى يُعلم موقفهم من هذا الأصل:

١- أبو منصور الماتريدي السمرقندي (ت ٣٣٣ هـ)، إمام أهل السنّه في المشرق الإسلامى، قال بعد أن أورد قوله سبحانه: «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» (٣)،

١- الضحى: ٥.

٢- الإسراء: ٧٩.

٣- البقره: ٤٨.

و قوله تعالى: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (١) قال: إِنَّ الآيَةَ الأُولَى و إن كانت تنفى الشفاعة، و لكن هنا شفاعه مقبوله فى الإسلام و هى التى تشير إليها هذه الآيه (٢).

٢- تاج الإسلام أبو بكر الكلاباذى (ت ٣٨٠ هـ) قال: إِنَّ العلماء قد أجمعوا على أَنَّ الإقرار بجمله ما ذكر الله سبحانه و جاءت به الروايات عن النبي صلى الله عليه و آله فى الشفاعة واجب، لقوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» (٣) و لقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً» (٤) و قوله: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (٥). و قال النبي صلى الله عليه و آله: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» (٦).

٣- الشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣ هـ) قال: اتفقت الإمامية على أَنَّ رسول الله صلى الله عليه و آله يشفع يوم القيامة لجماعه من مرتكبي الكبائر من أمته، و إن أمير المؤمنين عليه السلام يشفع فى أصحاب الذنوب من شيعته، و إن أئمة آل محمد: كذلك، و ينجى الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين (٧).

و قال فى موضع آخر: إِنَّ رسول الله صلى الله عليه و آله يشفع يوم القيامة فى مذنبى أمته فيشفعه الله عزّ و جلّ، و يشفع أمير المؤمنين فيشفعه الله عزّ و جلّ، و تشفع الأئمة فى مثل ما ذكرناه فيشفعهم الله، و يشفع المؤمن البر لصديقه المؤمن المذنب فتفعله شفاعته، و يشفعه الله. و على هذا القول إجماع الإمامية إلا من شدّ منهم، و قد نطق

١- الأنبياء: ٢٨.

٢- تفسير الماتريدى المعروف بـ «تأويلات أهل السنّة»: ص ١٤٨، و المشار إليه هى الآيه الثانية.

٣- الضحى: ٥.

٤- الإسراء: ٧٩.

٥- الأنبياء: ٢٨.

٦- التعرّف لمذهب أهل التصوّف: ص ٥٤-٥٥ تحقيق د. عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر الأسبق.

٧- أوائل المقالات، ص ١٥.

به القرآن، و تظاهرت به الأخبار، قال الله تعالى في الكفار عند إخباره عن حسراتهم و على الفائت لهم مما حصل لأهل الإيمان: «فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ» (١)؛ و قال رسول الله صلى الله عليه و آله «إِنِّي أَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُشْفَعُ، و يشفع علي عليه السلام فيشفع، و إن أدنى المؤمنين شفاعة يشفع في أربعين من إخوانه» (٢)

٤- الشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠ هـ) قال: حقيقه الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضار دون زياده المنافع، و المؤمنون عندنا يشفع لهم النبي صلى الله عليه و آله فيشفعه الله تعالى و يسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصراط لما روى من قوله عليه السلام:

«أدخرت شفاعة لأهل الكبائر من أمتي، و الشفاعة ثبت عندنا للنبي، و كثير من أصحابه و لجميع الأئمة المعصومين و كثير من المؤمنين الصالحين» (٣)

٥- الإمام أبو حفص النسفي (ت ٥٣٨ هـ) قال: و الشفاعة ثابتة للرسول و الأخيار في حق الكبائر بالمستفيض من الأخبار (٤).

و قد أيد التفتازاني في «شرح العقائد النسفيه» هذا الرأي و صدقه دون أي تردد أو توقف (٥).

٦- الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) قال في تفسير قوله تعالى: «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» (٦): كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا.

ثم أتى بكلام في حد الشفاعة و أنها للمطيعين لا للعاصين، و سنوافيك عن ذلك

١- الشعراء: ١٠٠-١٠١.

٢- أوائل المقالات: ص ٥٣.

٣- التبيان ١: ٢١٣-٢١٤.

٤- العقائد النسفيه: ص ١٤٨.

٥- المصدر نفسه.

٦- البقره: ٤٨.

فى فصل خاص «(١)».

٧- القاضى عياض بن موسى (ت ٥٥٤٤هـ) قال: مذهب أهل السنّه هو جواز الشفاعة عقلاً و وجودها سمعاً بصريح الآيات و بخبر الصادق، و قد جاءت الآثار التى بلغت بمجموعها التواتر بصحّه الشفاعة فى الآخرة لمذنبى المؤمنين، و أجمع السلف الصالح و من بعدهم من أهل السنّه عليها «(٢)».

٨- الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندرى المالكى قال فى كتابه «الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال»: و أمّا من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها، و أمّا من آمن بها و صدّقها و هم أهل السنّه و الجماعة فأولئك يرجون رحمه الله، و معتقدهم أنّها تنال العصاه من المؤمنين و إنما ادّخرت لهم، و ليس فى الآيه دليل لمنكريها؛ لأنّ قوله «يوماً» فى قوله: «(٣)» «وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» أخرجه منكرًا. و لا شك أنّ فى القيامه مواطن، يومها معدود بخمسين ألف سنه. فبعض أوقاتها ليس زمانًا للشفاعة و بعضها هو الوقت الموعود، و فيه المقام المحمود لسيد البشر، عليه أفضل الصلاه و السلام.

و قد وردت آيات كثيره ترشد إلى تعدّد أيامها و اختلاف أوقاتها، منها قوله تعالى: «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ» «(٤)»، مع قوله: «وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» «(٥)»، فيتعيّن حمل الآيتين على يومين مختلفين و وقتين

١- الكشاف ١: ٣١٤-٣١٥.

٢- صحيح مسلم بشرح النووى ٣: ٣٥، ط دار إحياء التراث العربى.

٣- البقره: ٤٨.

٤- المؤمنون: ١٠١.

٥- الصفات: ٢٧.

متغيرين، أحدهما محلل للتساؤل، و الآخر ليس له، و كذلك الشفاعة، و أدله ثبوتها لا تُحصى كثره [\(١\)](#).

٩- البيضاوى قال فى تفسير قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» [\(٢\)](#): ربّما تجعل الآيه ذريعه على نفى الشفاعة لأهل الكبائر. و أُجيبوا بأنّها مخصوصه بالكفّار، للآيات و الأحاديث الواردة فى الشفاعة. و يؤيده أنّ الخطاب هنا مع الكفّار، و الآيه نزلت ردّاً لما كانت اليهود تزعم أنّ آباءهم تشفع لهم [\(٣\)](#).

١٠- الفتال النيسابورى- من علماء القرن السادس الهجرى- قال: لا- خلاف بين المسلمين أنّ الشفاعة ثابتة مقتضاها إسقاط المضار و العقوبات [\(٤\)](#).

١١- الرصاص- من علماء القرن السادس الهجرى- قال فى كتابه «مصباح العلوم فى معرفه الحى القيوم»: إنّ شفاعه النبيصلى الله عليه و آله يوم القيامة ثابتة قاطعه [\(٥\)](#).

١٢- ابن تيميه الحرّانى الدمشقى (ت ٧٢٨ هـ) قال: للنبيصلى الله عليه و آله فى يوم القيامة ثلاث شفاعات- إلى أن قال:- و أمّا الشفاعة الثالثه فيشفع فى من استحقّ النار و هذه الشفاعة لهصلى الله عليه و آله و لسائر النبيين و الصديقين و غيرهم فى من استحقّ النار أن لا يدخلها و يشفع فى من دخلها [\(٦\)](#).

١٣- ابن كثير الدمشقى (ت ٧٧٣ هـ) قال فى تفسير قوله سبحانه: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [\(٧\)](#): هذا من عظمته و جلاله و كبريائه عزّ و جلّ أنّه لا

١- الانتصاف المطبوع بهامش الكشاف ١: ٢١٤، ط ١٣٦٧ هـ.

٢- البقره: ٤٨.

٣- أنوار التنزيل و أسرار التأويل ١: ١٥٢.

٤- روضه الواعظين: ٤٠٦.

٥- مصباح العلوم فى معرفه الحى القيوم المعروف ب ثلاثين مسأله.

٦- مجموعه الرسائل الكبرى ١: ٤٠٣-٤٠٤.

٧- البقره: ٢٥٥.

يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة عن الرسول صلى الله عليه وآله: «أتى تحت العرش فأخّر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك وقل تسمع، و اشفع تشفع. قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة» (١).

١٤- نظام الدين القوشجي (ت ٨٧٩ هـ) قال في شرحه على «تجريد الاعتقاد»: اتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة لقوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» و فسّر بالشفاعة «(٢)».

١٥- المحقق الدواني قال: الشفاعة لدفع العذاب، و رفع الدرجات حق لمن أذن له الرحمن من الأنبياء، و المؤمنين بعضهم لبعض، لقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (٣).

١٦- الشعراني قال في المبحث السبعين: إنَّ محمداً هو أوّل شافع يوم القيامة، و أوّل مشفّع و أولاه فلا أحد يتقدّم عليه، ثم نقل عن جلال الدين السيوطي: إنَّ للنبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة ثمان شفاعات، و ثالثها: فيمن استحقّ دخول النار أن يدخلها (٤).

١٧- العلامة المجلسي (ت ١١١٠ هـ) قال: أمّا الشفاعة فاعلم أنّه لا خلاف فيها بين المسلمين بأنّها من ضروريات الدين و ذلك بأنّ الرسول يشفع لأُمَّته يوم القيامة، بل للأمم الأخرى، غير أنّ الخلاف إنّما هو في معنى الشفاعة و آثارها هل هي بمعنى الزيادة في المثوبات، أو إسقاط العقوبة عن المذنبين؟ و الشيعة ذهبت إلى

١- تفسير ابن كثير ١: ٣٠٩. و الحديث مروى في صحيح البخارى في تفسير سورة الإسراء، ج ٦، لكن بلفظ آخر.

٢- شرح التجريد: ص ٥٠١، ط ١٣٠٧ هـ.

٣- شرح العقائد العضديه: ص ٢٠٧، ط مصر.

٤- اليواقيت و الجواهر ٢: ١٧٠.

أَنَّ الشفاعة تنفع في إسقاط العقاب وإن كانت ذنوبهم من الكبائر، و يعتقدون أيضاً بأنَّ الشفاعة ليست منحصره في النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده، بل للصالحين أن يشفعوا بعد أن يأذن الله لهم بذلك [\(١\)](#).

١٨- محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦ هـ) قال: وثبت الشفاعة لنبينا محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة و لسائر الأنبياء و الملائكة و الأولياء و الأطفال حسبما ورد، و نسألها من المالك لها و الآذن فيها بأن نقول: اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك، أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم - إلى أن قال: - إنَّ الشفاعة حقّ في الآخرة، و وجب على كلّ مسلم الإيمان بشفاعته، بل و غيره من الشفعاء إلا أن رجاءها من الله، فالمتعّين على كل مسلم صرف وجهه إلى ربّه، فإذا مات استشفع الله فيه نبيه [\(٢\)](#).

١٩- السيد سابق قال: المقصود بالشفاعة سؤال الله الخير للناس في الآخرة.

فهى نوع من أنواع الدعاء المستجاب، و منها الشفاعة الكبرى، و لا تكون إلا لسيدنا محمد رسول الله؛ فانه يسأل الله سبحانه أن يقضى بين الخلق ليستريحوا من هول الموقف، فيستجيب الله له فيغبطه الأولون و الآخرون، و يظهر بذلك فضله على العالمين و هو المقام المحمود الذى وعد الله به فى قوله سبحانه: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً» [\(٣\)](#). ثم نقل الآيات و الروايات الخاصة بالشفاعة و المثبتة لها و قد ذكر بعض شروط قبولها [\(٤\)](#).

٢٠- الدكتور سليمان دنيا قال: و الشفاعة لدفع العذاب و رفع الدرجات حقّ

١- بحار الأنوار ٨: ٢٩-٦٣؛ حق اليقين: ص ٤٧٣.

٢- الهدية السنية، الرسالة الثانية: ص ٤٢.

٣- الإسراء: ٧٩.

٤- العقائد الإسلامية: ص ٧٣.

لمن أذن له الرحمن من الأنبياء: و المؤمنين بعضهم لبعض لقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (١) و قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (٢) «(٣)».

٢١- الشيخ محمد الفقى قال: و قد أعطى الله الشفاعة لنبه و لسائر الأنبياء و المرسلين و عباده الصالحين و كثير من عباده المؤمنين؛ لأنه و إن كانت الشفاعة كلها لله كما قال: «لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا» (٤) «إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى يَجُوزُ أَنْ يَتَفَضَّلَ بِهَا عَلَى مَنْ اجْتَبَاهُمْ مِنْ خَلْقِهِ وَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَ كَمَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنْ مَلَكِهِ مَا شَاءَ لِمَنْ شَاءَ وَ لَا حَرَجَ» (٥).

هذا نزر من كثير، و غيض من فيض أوردناه ليكون القارئ على بصيره من موقف علماء الإسلام من هذه المسألة المهمه. و الاستقصاء لكلمات المفسرين و المحدّثين و المتكلمين، يدعونا إلى تأليف مفرد فى خصوص هذا الفصل و الغرض إراءه نماذج من كلماتهم. و هى نصوص و تصريحات لا تترك ريباً لمرتاب، و لا شكاً لأحد بأنّ الشفاعة أصل من أصول الإسلام نطق بها الكتاب الكريم، و صرّحت بها السنّه النبويه و الأحاديث المعتره من العتره الطاهره، و أنّ الاختلاف إنّما هو فى معناها و بعض خصوصياتها و سنوافيك بالتفاصيل.

١- طه: ١٠٩.

٢- البقره: ٢٥٥.

٣- محمد عبده، بين الفلاسفه و الكلاميين ٢: ٦٢٨.

٤- الزمر: ٤٤.

٥- التوسل و الزياره فى الشريعه المقدسه، ص ٢٠٦، ط. مصر.

المبحث الثاني الشفاعة في القرآن الكريم**إشاره**

وردت مادته الشفاعة في القرآن الكريم بصورها المتنوعه ثلاثين مره في سور شتى، و وقعت فيها مورداً للنفي تاره و الإثبات أُخرى. هذا و ينم كثره و رودها و البحث حولها عن مدى اهتمام القرآن بهذا الأصل سواء في مجال النفي أو في مجال الإثبات. غير أن الاستنتاج الصحيح من الآيات يحتاج إلى جمع الآيات عليصعيد واحد، حتى يفسر بعضها بعضاً و يكون البعض قرينه على الأخرى.

و من الواضح أن الآيات المتعلقة بالشفاعة على أصناف، يرمى كلصنف إلى هدف خاص كالآتي:

١- الصنف الأول: ما ينفي الشفاعة

و هو آيه واحده، يقول سبحانه و تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَ لَا خُلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (١):

إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ الْلاحِقَةَ لَهُذِهِ الْآيَةَ تَصْرِّحُ بِوُجُودِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، إِلَّا أَنَّهَا مَشْرُوطَةٌ بِإِذْنِهِ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (١).

قال العلامة الطباطبائي: «إِنَّ لَوَازِمَ الْمُخَالَهَةِ إِعَانَةَ أَحَدِ الْخَلِيلِينَ الْآخَرِ فِي مَهَامِ أُمُورِهِ، فَإِذَا كَانَتْ لَغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ كَانَ نَتِيجَتُهَا إِعَانَهُ عَلَى الشَّقْوَةِ الدَّائِمَةِ وَالْعَذَابِ الْخَالِدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى بِشَأْنِ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۚ ۲۸ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي» (٢). أَمَّا الْأَخْلَاءُ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ خُلَّتْهُمْ تَتَأَكَّدُ وَتَنْفَعُهُمْ يَوْمَئِذٍ. وَفِي الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ: إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ انْقَطَعَتِ الْأَرْحَامُ وَقَلَّتِ الْأَنْسَابُ وَذَهَبَتِ الْإِخْوَةُ إِلَّا الْأَخُوهُ فِي اللَّهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (٣) (٤).

وَعَلَى ذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ الْمُنْفَى هُوَ قِسْمٌ خَاصٌّ مِنَ الْمُخَالَهَةِ دُونَ مُطْلَقِهَا، فَهَكَذَا الشَّفَاعَةُ، فَالْمُنْفَى بِحُكْمِ السِّيَاقِ، قِسْمٌ خَاصٌّ مِنَ الشَّفَاعَةِ. أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الظَّاهِرَ هُوَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ بِدَلِيلِ مَا وَرَدَ فِي ذِيْلِ الْآيَةِ، حَيْثُ قَالَ: «وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

٢- الصنف الثاني: ما يفند عقيدة اليهود في الشفاعة

وَهُوَ الْآيَاتُ الَّتِي خَاطَبَتْ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ وَأَسْلَافَهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَ يَنْجُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ سِوَاءَ كَانُوا عَامِلِينَ بِشَرِيْعَتِهِمْ أَوْ عَاصِينَ، وَ أَنَّ مَجْرَدَ الْإِنْتِمَاءِ وَالْإِنْتِسَابِ يَكْفِيهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَجَالِ. يَقُولُ تَعَالَى: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

١- البقره: ٢٥٥.

٢- الفرقان: ٢٨ - ٢٩.

٣- الزخرف: ٦٧.

٤- تفسير الميزان ١٨: ١٢٨.

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (١).

إنَّ وحده السياق تقضى بأنَّ الهدفَ من نفي قبول الشفاعة هو الشفاعة الخاطئة التي كانت تعتقدها اليهود في تلك الفترة من دون أن يشترطوا في الشفيع و المشفوع له شرطاً أو أمراً. و لاصله لها بالشفاعة المحدوده المأذونه.

٣- الصنف الثالث: ما ينفي شمول الشفاعة للكفار

و هو الآيات التي يستشف منها نفي وجود الشفيع يوم القيامة للكفار الذين انقطعت علاقتهم عن الله لأجل الكفر به و برسله و كتبه، كما انقطعت علاقتهم الروحية عن الشفعاء الصالحين لأجل انهماكهم في الفسق و الأعمال السيئة، فإنه ما لم يكن بين الشفيع و المشفوع له، ارتباطٌ روحى لا يقدر أو لا يقوم الشفيع على إنقاذه و تطهيره و تركيته. يقول تعالى: «يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (٢) و يقول تعالى أيضاً: «إِذْ نَسَوَ كُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَ لَاصِيَ بَدِيقِ حَمِيمٍ» و يقول أيضاً: «وَ كُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» (٣).

١- البقره: ٤٧-٤٨.

٢- الأعراف: ٥٣.

٣- المدثر: ٤٦-٤٨.

٤- الصنف الرابع: ما ينفي صلاحية الأصنام للشفاعة

و هذا الصنف يرمى إلى نفي صلاحية الأصنام للشفاعة، و ذلك لأنّ عرب الجاهليه كانت تعبد الأصنام لاعتقادها بشفاعتها عند الله، و هذه الآيات هي:

أ- «وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّيْنِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» (١).

ب- «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (٢).

ج- «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ» (٣).

د- «أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَ لَا يَعْقِلُونَ» (٤).

هـ- «أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَ لَا يُنْقِذُونِ» (٥).

و الحاصل أنّ القرآن مع أنّه فنّد العقائد الجاهليه و عقائد الوثنيين في باب الشفاعة، و أبطل كون النظام السائد في الآخرة عين النظام السائد في الدنيا، لم ينكر الشفاعة بالمره، بل أثبتها لأولياتها، في إطار خاص و بمعايير خاصه. و على ذلك فالآيات النافيه نزلت بشأن تلك العقيدة السخيفه التي التزمت بها الوثنيه و زعمت

١- الأنعام: ٩٤.

٢- يونس: ١٨.

٣- الروم: ١٣.

٤- الزمر: ٤٣.

٥- يس: ٢٣.

بموجبها وحده النظامين، و أنّ تقديم القرابين و الصدقات إلى الأصنام و الخشوع و البكاء لديهم، يُصَحِّح قيامهم بالشفاعة و أنّهم قادرون على ذلك بتفويض منه سبحانه إليهم، بحيث صاروا مستقلين في الفعل و الترك.

و الآيات المثبتة تشير إلى الشفاعة الصحيحة التي ليست لها حقيقة سوى جريان فيضه سبحانه و مغفرته من طريق أوليائه إلى عباده بإذنه و مشيئته تحت شروط خاصة.

٥- الصنف الخامس: يخص الشفاعة به سبحانه

و هذه الآيات تبين أنّ الشفاعة مختصّه بالله سبحانه لا يشاركه فيها غيره، و الآيات الكريمة هي:

أ- «وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (١).

ب- «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» (٢).

ج- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتِّهِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» (٣).

د- «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (٤).

و جدير بالذكر أنّ الله سبحانه لا يشفع لأحد عند أحد؛ فإنّه فوق كل شيء،

١- الأنعام: ٥١.

٢- الأنعام: ٧٠.

٣- السجده: ٤.

٤- الزمر: ٤٤.

و ذلّ كل شىء لديه، و بذلك يُصبح معنى قوله سبحانه: «لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» رفضاً لعقيدة المشركين التى أشار إليها سبحانه فى آيه سابقه، أعنى: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ» (١)، فىكون المراد أنّ كل شفاعة فإنها مملوكة لله فأنه المالك لكل شىء و منه شفاعتهم، فلا يشفع أحد إلّا بإذنه.

فهنا شفاعتان: إحداهما لله، و الأخرى لعباده المأذونين. فما لله فمعناها: مالكيتها لكل شفاعة مأذونه بالأصالة لا أنه سبحانه يشفع لأحد لدى أحد. و أما ما لعباده المأذونين، فهى شفاعتهم لمن ارتضاه سبحانه: و سنوافيك توضيحه فى الصنف السادس من الآيات.

٦- الصنف السادس: يثبت الشفاعة لغيره سبحانه بشروط

إنّ هذا الصنف من الآيات يصرّح بوجود شفيع غير الله سبحانه و أن شفاعته تقبل عند الله تعالى فى إطار خاص و شرائط معيّنه فى الشفيع و المشفوع له. و هذه الآيات و إن لم تتضمن أسماء الشفعاء، أو أصناف المشفوع لهم، إلّا أنّها تحدّد كلّاً منهما بحدود و ارده فى الآيات:

أ- «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (٢).

ب- «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» (٣).

ج- «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً» (٤).

و الضمير فى قوله «لَا يَمْلِكُونَ» يرجع إلى الآلهة التى كانت تعبد، و أُشير إليه

١- الزمر: ٤٣.

٢- البقره: ٢٥٥.

٣- يونس: ٣.

٤- مريم: ٨٧.

فى قوله سبحانه: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» (١).

د- «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» (٢).

ه- «وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (٣).

و- «وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (٤).

و الضمير المتصل فى «يدعون» يرجع إلى الآلهة الكاذبة كالأصنام فهؤلاء لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق و هم يعلمون، أى شهد بعبوديته ربه و وحدانيته كالملائكة و المسيح.

و يستفاد من هذه الآيات الأمور التالية:

١- إن هذه الآيات تصرّح بوجود شفعاء يوم القيامة يشفعون بشروط خاصة و إن لم تصرّح بأسمائهم و سائر خصوصياتهم.

٢- إن شفاعتهم مشروطه بإذنه سبحانه، حيث يقول: «إِلَّا بِإِذْنِهِ».

٣- يشترط فى الشفيع أن يكون ممن يشهد بالحق، أى يشهد بالله سبحانه و وحدانيته و سائر صفاته.

٤- أن لا يظهر الشفيع كلاماً يبعث غضب الله سبحانه، بل يقول قولاً مرضياً عنده، و يدلّ عليه قوله: «وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا».

١- مريم: ٨١-٨٢.

٢- طه: ١٠٩.

٣- سبأ: ٢٣.

٤- الزخرف: ٨٦.

٥- أن يعهد الله سبحانه له بالشفاعه كما يشير إليه قوله: «إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا».

ثم إن هناك سؤالاً يطرح في هذا المقام، وهو كيف يصح الجمع بين هذا الصنف من الآيات التي تثبت الشفاعة لغيره سبحانه، و الصنف الخامس الذي يخصها بالله سبحانه؟

و الجواب: أن مقتضى التوحيد في الأفعال، و أنه لا مؤثر في عالم الكون إلا الله سبحانه، و لا يوجد في الكون مؤثر مستقل سواه، و أن تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه و مشيئته، و الاعتراف بمثل العلة التابعه لا ينافي انحصار التأثير الاستقلالي في الله سبحانه، و من ليس له إمام بالمعارف القرآنيه يواجه حيره كبيره تجاه طائفتين من الآيات؛ إذ كيف يمكن أن تنحصر شئون و أفعال، كالشفاعه، و المالكيه، و الرازيه، و توفى الأرواح، و العلم بالغيب، و الإشفاء بالله سبحانه، كما عليه أكثر الآيات القرآنيه، بينما تنسب هذه الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله من عباده. فكيف ينسجم هذا الانحصار مع هذه النسبه؟

غير أن الملمين بمعارف الكتاب العزيز يدركون أن هذه الأمور على وجه الاستقلال و الأصاله قائمه بالله سبحانه، مختصه به، في حين أن هذه الأمور تصدر من الغير على وجه التبعية و في ظل قدره الإلهيه.

و قد اجتمعت النسبتان في قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» (١٧). فهذه الآيه عند ما تنسب الرمي بصراحه إلى النبي الأعظم، تسلبه عنه و تنسبه إلى الله سبحانه، ذلك لأن انتساب الفعل إلى الله (الذي منه وجود العبد و قوته و قدرته) أقوى بكثير من انتسابه إلى العبد، بحيث ينبغي أن يعتبر الفعل فعلاً

لله، و لكن شدّه الانتساب لا تسلب المسئوليه عن العبد.

و على ذلك فإذا كانت الشفاعة عباره عن سريان الفيض الإلهي (أعنى: طهاره العباد عن الذنوب و تخلّصهم عن شوائب المعاصي) على عباده، فهي فعل مختصّ بالله سبحانه لا يقدر عليه أحد إلا بقدرته و إذنه. و بذلك تصح نسبته إلى الله سبحانه بالأصالة و إلى غيره بالتبعيه، و لا منافاه بين النسبتين، كالملكيه، فالله سبحانه مالك الملك و الملكوت، ملك السماوات و الأرض بإيجاده و إبداعه، ثم يملكه العبد منه بإذنه و لا منافاه في ذلك، لأنّ الملكيه الثانيه على طول الملكيه الأولى.

و نظيرها كتابه أعمال العباد، فالكاتب هو الله سبحانه، حيث يقول: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ» (١) و في الوقت نفسه ينسبها إلى رسله و ملائكته، و يقول: «بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» (٢). فإذا كانت الملائكه و الأنبياء و الأولياء مأذونين في الشفاعة؛ فلا مانع من أن تنسب إليهم الشفاعة، كما تنسب إلى الله سبحانه، غير أنّ أحدهما يملك هذا الحقّ بالأصالة و الآخر يملكها بالتبعيه.

الصف السابع: يُسَمَّى من تقبل شفاعة

إشارة

و يتضمّن هذا الصف أسماء و خصوصيات من تُقبل شفاعة يوم القيامة. و هذه الآيات هي:

أ- «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَ هُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ» (٣).

١- النساء: ٨١.

٢- الزخرف: ٨٠.

٣- الأنبياء: ٢٦-٢٨.

و هذه الآيات تصرّح بأنّ الملائكة التي اتّخذها المشركون أولاداً لله سبحانه، معصومون من كل ذنب لا يسبقون الله بالقول و هم بأمره يعملون، و لا يشفعون إلّا لمن ارتضاه الله سبحانه، و هم مشفقون من خشيته.

ب- «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى» (١).

و هذه الآية كالأية السابقة تفيد كون الملائكة ممّن ترضى شفاعتهم بإذن الله سبحانه في حقّ من يشاء الله و يرضاه.

ج- «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» (٢).

و هذه الآية تعد حملة العرش و من حوله ممّن يستغفرون للذين آمنوا. و الآية مطلقه؛ تشمل ظروف الدنيا و الآخرة. و هل طلب المغفرة إلّا الشفاعة في حقّ المؤمنين؟

هذه هي الأصناف السبعة من الآيات الواردة في الشفاعة. فهي غير نافيه على وجه الإطلاق، و لا مثبتة كذلك، بل تثبتتها تحت شروط خاصة و تصرّح بوجود شفعاء مأذونين و لا يذكر أسماءهم سوى الملائكة و ذلك للمصلحة الكامنه في هذا الإبهام، و لأجل أن يتميّز المقبول من المرفوض نورد خلاصه الآيات:

الشفاعات المرفوضة:

١- الشفاعة التي كانت تعتقدها اليهود الذين رفضوا كل قيد و شرط في جانب الشافع و المشفوع له، و اعتقدوا أنّ الحياه الأخرويه كالحياه

١- النجم: ٢٦.

٢- غافر: ٧.

الدينيوه، حيث يُمكن التخلّص من عذاب الله سبحانه بالفداء. وقد ردّ القرآن في كثير من الآيات و قال: «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ» (١) و قد أوردنا هذا في الصنف الثاني من الأصناف السبعه المذكوره.

٢- الشفاعة في حقّ من قطعوا علاقاتهم الإيمانيه مع الله سبحانه فلم يؤمنوا به أو بوحدانيته أو بقيامته، أو أفسدوا في الأرض، و ظلموا عباده، أو غير ذلك ممّا يوجب قطع رابطة العبد مع الله سبحانه حتّصاروا أو ضح مصداق لقوله سبحانه:

«نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ» (٢)، و قوله سبحانه: «قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى» (٣)، و قوله سبحانه: «فَمَا لِيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» (٤) إلى غير ذلك من الآيات الوارده في حق المشركين و الكافرين و الظالمين و المفسدين؛ و هؤلاء كما قطعوا علاقاتهم الإيمانيه مع الله سبحانه كذلك قطعوا صلاتهم المعنويه مع الشافع، فلم تبق بينهم و بين الشافعين أيّه مشابهه تصحح شفاعتهم له.

و قد ورد في الصنف الثالث من الأصناف السبعه المذكوره ما يوضح هذا الأمر.

٣- الأصنام التي كانت العرب تعبدها كذباً و زوراً، و قد نفى القرآن أن تكون هذه الأصنام قادره على الدفاع عن نفسها فضلاً عن الشفاعة في حقّ عباده.

(لمزيد من التوضيح راجع الصنف الرابع من الأصناف المذكوره).

هذه هي الشفاعات المرفوضه في القرآن الكريم.

١- البقره: ٤٨.

٢- الحشر: ١٩.

٣- طه: ١٢٦.

٤- الأعراف: ٥١.

الشفاعات المقبولة:

أما الشفاعات المقبولة فهي:

- ١- الشفاعة التي هي من حقّ الله سبحانه، و ليس للمخلوق أن ينازعه في هذا الحق أو يشاركه فيه (لاحظ الصنف الخامس من الأصناف السبعة).
 - ٢- شفاعة فئة خاصة من عباد الله سبحانه، الذين تقبل شفاعتهم عند الله بشروط خاصة ذكرت في الآيات الواردة في الصنف السادس و إن لم تُذكر أسماءهم و خصوصياتهم.
 - ٣- شفاعة الملائكة و حملة العرش و من حوله، حيث يستغفرون للذين آمنوا، فهؤلاء يقبل استغفارهم الذي هو قسم من الشفاعة، و الفرق بين هذا و ما تقدّم، هو أنّه قد ذكرت أسماء الشفعاء و خصوصياتهم في هذه الآيات دون ما تقدمها.
- و بالوقوف على هذه الأصناف السبعة بإمكاننا تمييز الشفاعة المرفوضة عن المقبولة كما نصّ عليها القرآن الكريم.

المبحث الثالث حقيقه الشفاعه

اشاره

إنَّ الشفاعه فى القرآن الكريم على معان أو أقسام ثلاثه:

أ- الشفاعه التكوينيّه.

ب- الشفاعه القياديّه.

ج- الشفاعه المصطلحه.

أ- الشفاعه التكوينيّه

اتَّفَقَ الواعون من المسلمين على أنه لا مؤثر مستقل فى الوجود غيره سبحانه، و أنَّ غيره مفتقر فى الوجود و التأثير إليه سبحانه، و لأجل ذلك صار شعار القرآن فى حق الإنسان و فى حق غيره قوله: «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ* إِنَّ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» (١)

و قوله سبحانه: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» (١) و قال سبحانه على لسان نبيه الكريم موسى عليه السلام: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» (٢).

فبما أنّ عالم الكون عالم إمكاني لا يملك من لدن ذاته وجوداً و لا كمالاً، بل كلّ ما يملك من وجود و كمال فقد أفيض إليه من جانبه سبحانه فهو بحكم الإمكان موجود مفتقر في عامه شئونه و تأثيره و عليّته.

و نظراً لتوقف تأثير كل ظاهره كونيّه على إذنه سبحانه كما جاء في قوله تعالى:

«إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٣) فإنّ الآيه بعد ما تصف الله سبحانه بأنّه خالق السماوات و الأرض في ستة أيام و أنّه استوى بعد ذلك على العرش، و أنّه يدبر أمر الخلق، تُعلن بأنّ كل ما في الكون من العلل الطبيعيه و الظواهر الماديه يؤثر بعضه في البعض بإذنه سبحانه، و أنّه ليست هناك عله مستقله في التأثير، بل كل ما في الكون من العلل، ذاته و تأثيره، قائمان به سبحانه و بإذنه، فالمراد من الشفيع في الآيه هو الأسباب و العلل الماديه و غيرها، الواقعه في طريق وجود الأشياء و تحقّقها و إنّما سمّيت العله شفيعاً؛ لأنّ تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه، فهي (مشفوعه إلى إذنه سبحانه) تؤثر و تعطى ما تعطى.

و على ذلك تخرج الآيه عن الدلاله على الشفاعة المصطلحه بين المفسّرين و علماء الكلام، و إنّما اخترنا هذا المعنى لوجود قرائن في نفس الآيه، فإنّها تبحث في

١- محمد: ٣٨.

٢- القصص: ٢٤.

٣- يونس: ٣.

صدرها عن خلق السماوات والأرض وتحديد مدّة الخلق والإيجاد بسته أيام، ثمّ ترجع الآيه، وتنص على سعه قدرته على جميع ما خلق وإحاطته بهم، وأنّه بعد ما خلق السماوات والأرض، استوى على عرش القدره وأخذ يدبّر العالم. وعند ذلك يتساءل القارئ: إذا كان الله جلّ وعلا هو المدبّر والمؤثر فما حال سائر المدبّرات والمؤثرات التي يلمسها البشر في حياته؟ فلإجابه على هذا السؤال قال سبحانه:

«ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» مصرّحاً بأنّ كل تأثير وتديير في سبب من الأسباب إنّما هو بإذنه ومشئته، ولو لا إذنه ومشئته لما قام السبب بالسببيه، ولا العله بالعليه، وهذه القرائن توجب حمل هذه الجملة على ما جرى في عالم الكون والوجود من التأثير والعليه، وتفسيرها بالشفاعه التكوينيّه، وأنّ كل ظاهره مؤثره كالشمس والقمر والنار والماء لا تؤثر إلّا بالاستمداد من قدرته سبحانه والاعتماد على إذنه ومشئته حتى يتم بذلك التوحيد في الخالقيه والتديير.

ب- الشفاعة القياديّه

وهو قيام قياده الأنبياء والأولياء والأئمه والعلماء والكتب السماويه مقام الشفييع والشفاعه في تخليص البشر من عواقب أعمالهم وآثار سيئاتهم. والفرق بين الشفاعة المصطلحه والشفاعة القياديّه هو أنّ الشفاعة المصطلحه توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له، والشفاعة القياديّه توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاه حتى يستحق. والظاهر أنّ إطلاق الشفاعة على هذا القسم ليس إطلاقاً مجازياً، بل إطلاق حقيقي. وقد شهد بذلك القرآن والأخبار، قال سبحانه: «وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (١). والضمير المجرور في «به» يرجع

إلى القرآن «(١)».

و لا شك أنّ ظرف شفاعه هذه الأمور إنّما هو الحياة الدنيويّة، فإنّ تعاليم الأنبياء و قيادتهم الحُكميه و هدايه القرآن و غيره، إنّما تتحقّق في هذه الحياه الدنيويه، و إن كانت نتائجها تظهر في الحياه الأخرويه، فمن عمل بالقرآن و جعله أمامه في هذه الحياه؛ قاده إلى الجنّه في الحياه الأخرويه.

و لأجل ذلك نرى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله يأمر الأئمّه بالتمسك بالقرآن و يصفه بالشفاعه و يقول: «فإذا التّبت عليكم الفتنة كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفع و ماجل مصدق، و من جعله أمامه قاده إلى الجنّه، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدلّ على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و برهان» «(٢)»

فإنّ قوله: «و من جعله أمامه»، تفسير لقوله: «فإنّه شافع مشفع».

و الحاصل: أنّ الشفاعه القياديّه شفاعه بالمعنى اللغوي، فإنّ المكلفين بضمّ هدايه القرآن و توجيهات الأنبياء و الأئمّه إلى إرادتهم و طلباتهم، يفوزون بالسعاده و يصلون إلى أرقى المقامات في الحياه الأخرويه و يتخلّصون عن تبعات المعاصي و لوازمها.

فالمكلف وحده لا يصل إلى هذه المقامات، و لا يتخلّص من تبعات المعاصي، كما أنّ خطاب القرآن و الأنبياء وحده- من دون أن يكون هناك من يسمع قولهم و يلبي نداءهم- لا يؤثّر ما لم ينضم عمل المكلف إلى هدايتهم، و هدايتهم إلى عمل المكلف فعندئذٍ تتحقّق هذه الغايه.

١- مجمع البيان ٢: ٣٠٤.

٢- الكليني الكافي ٢: ٢٣٨.

ج- الشفاعة المصطلحه

و حقيقه هذه الشفاعة تعنى أن تصل رحمته سبحانه و مغفرته و فيضه إلى عباده عن طريق أوليائه وصفوه عباده، و ليس هذا بأمرٍ غريب؛ فكما أن الهدايه الإلهيه التى هى من فيوضه سبحانه، تصل إلى عباده فى هذه الدنيا عن طريق أنبيائه و كتبه، فهكذا تصل مغفرته سبحانه و تعالى إلى المذنبين و العصاه يوم القيامه من عباده عن ذلك الطريق.

و لا- يبعد فى أن يصل غفرانه سبحانه إلى عباده يوم القيامه عن طريق خيره عباده، فإنَّ الله سبحانه قد جعل دعاءهم فى الحياه الدنيويه سبباً، و نصَّ بذلك فى بعض آياته. فترى أن أبناء يعقوب لما عادوا خاضعين، رجعوا إلى أبيهم، و قالوا له: «قالوا يا أبانا اشتغفرو لنا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» (١) فأجابهم يعقوب بقوله:

«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

و لم يقتصر الأمر على يعقوب فحسب، بل كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مَمَّن يستجاب دعاؤه أيضاً فى حق العصاه، قال سبحانه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (٣). و هذه الآيات و نظائرها ممَّا لم نذكرها مثل قوله: «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّصِلَاتَكَ سَيَكُنْ لَهُمْ» (٤) تدلّ على أن مغفرته سبحانه قد تصل إلى عباده بتوسيط واسطه كالأنبياء، و قد تصل بلا توسط واسطه، كما يفصح عنه سبحانه بقوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَيَّ

١- يوسف: ٩٧.

٢- يوسف: ٩٨.

٣- النساء: ٦٤.

٤- التوبه: ١٠٣.

اللَّهِ تَوْبَهُ نَصُوحًا» (١) و قوله: «وَاسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» (٢). إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن أنّ توبه العبد تجلب المغفرة بلا واسطه أحد و قد تصل بتوسيط واسطه هي من أعز عبادته و أفضل خليقته و بريته.

و تتضح هذه الحقيقة إذا وقفنا على أنّ الدعاء بقول مطلق - و بخاصه دعاء الصالحين - من المؤثرات الواقعة في سلسله نظام العله و المعلول، و لا- تنحصر العله في العلل الواقعة في إطار الحس فإنّ في الكون مؤثرات خارجه عن إحساسنا و حواسنا، بل قد تكون بعيده حتى عن تفكيرنا، يقول سبحانه: «وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا* وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا* وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا* فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» (٣).

فما المراد من هذه «الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» أ هي مختصه بالمدبّرات الطبيعیه الماديه، أو المراد هو الأعم منها؟ فقد روى عن علي عليه السلام تفسيرها بالملائكه الأقوياء الذين عهد الله إليهم تدبير الكون و الحياه بإذنه سبحانه، فكما أنّ هذه المدبّرات يجب الإيمان بها و إن لم تعلم كيفيه تدبيرها و حقيقه تأثيرها، فكذلك الدعاء يجب الإيمان بتأثيره في جلب المغفره، و دفع العذاب و إن لم تعلم كيفيه تأثيره.

١- التحريم: ٨.

٢- هود: ٩٠.

٣- النازعات: ١- ٥.

المبحث الرابع مبررات الشفاعة

أشاره

هناك مبررات لجعل الشفاعة من أسباب المغفرة و رفع العذاب، نورد بعضها على سبيل المثال:

أ- ابتلاء الناس بالذنوب والتقصير

ربما يقال: إذا كان المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة هو عمله الصالح كما صُوِّحَ به في الآيات فلما ذا جعلت الشفاعة وسيله للمغفرة و سبباً لرفع العذاب، أ و ليس الله بقائل: «وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَىٰ» (١)، «فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» (٢)، «وَيُلْقِيكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا» (٣) و على ذلك فلما ذا أُدخِلت الشفاعة في سلسله العلل لجلب المغفرة؟

١- الكهف: ٨٨.

٢- القصص: ٦٧.

٣- القصص: ٨٠.

الإجابة على هذا السؤال واضحة بالفوز بالسعادة و إن كان يعتمد على العمل أشد الاعتماد، غير أن صريح الآيات الأخر هو أن العمل بنفسه ما لم تنضم إليه رحمته الواسعة لا يُنقذ الإنسان من تبعات تقصيره، قال سبحانه: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» (١)، «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ» (٢).

ب- سعه رحمته لكل شيء

إن التدبر في الآيات القرآنية يعطى أن رحمه الله سبحانه واسعه تسع كل الناس، إلا من بلغ حداً لا يقبل التطهر ولا الغفران. قال سبحانه حاكياً عن حمله العرش: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَ عِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (٣) نرى أن حمله العرش يدلون طلب غفرانه سبحانه للتائبين و التابعين لسبيله، بكون رحمته واسعه وسعت كل شيء .

كما نرى أنه سبحانه يأمر نبيه أن يواجه الناس كلهم - حتى المكذبين لرسالته - بقوله: «فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ» (٤) و نرى في آية ثالثة يعد الذين يجتنبون الكبائر بالرحمة و المغفرة و يقول: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ

١- النحل: ٦١.

٢- فاطر: ٤٥.

٣- غافر: ٧.

٤- الأنعام: ١٤٧.

إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ» (١) و هذه الآيات توضح مضامين الأدعية الإسلامية من قوله عليه السلام: «يا من سبقت رحمته غضبه».

كيف لا ونحن نرى أن الله سبحانه يعد القانط من رحمة الله والآيس من روحه كافراً و ضالاً، و يقول: «وَلَا تَتَأَسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» (٢)، و يقول تعالى أيضاً: «وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (٣)، و يقول سبحانه: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٤).

فإذا عرّفنا القرآن أنّ الله سبحانه ذو رحمة واسعة تفيض على كل شىء، فعند ذلك لا مانع من أن تفيض رحمته و غفرانه عن طريق أنبيائه و رسله و أوليائه، فيقبل أدعيتهم فى حقّ عباده بدافع أنّه سبحانه ذو رحمة واسعة، كما لا مانع أن يعتقد العصاه فى شرائط خاصه بغفرانه سبحانه من طرق كثيره لأجل أنّه عدّ القانط ضالاً و الآيس كافراً.

و إجمالاً: فكما يجب على المرئى الدينى أن يذكرّ عباد الله بعقوبته و عذابه و ما أعدّ للعصاه و الكفّار من سلاسل و نيران، يجب عليه أيضاً أن يذكرّهم برحمته الواسعه و مغفرته العامه التى تشمل كل شىء، إلّا من بلغ من الخبث و الرداءه درجه لا يقبل معها التطهير كما قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (٥).

١- النجم: ٣٢.

٢- يوسف: ٨٧.

٣- الحجر: ٥٦.

٤- الزمر: ٥٣.

٥- النساء: ٤٨.

ج- الأصل هو السلامه

دلت التجارب و البراهين العقلية على أن الأصل الأوّلى فى الخليقه هو السلامه، و أنّ المرض و الانحراف أمران يعرضان على المزاج، و يزولان بالمداواه و المعالجه، و ليس هذا الأصل مختصاً بالسلامه من حيث العيوب الجسمانيه، بل الأصل هو الطهاره من الأقدار و الأدران المعنويه، فقد خلق الإنسان على الفطره النقيه السليمه من الشرك و العصيان التى أشار إليها القرآن بقوله: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (١)، و قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «كُلُّ مولود يولد على الفطره ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (٢).

و على ذلك فلا- غرو فى أن تزول آثار العصيان عن الإنسان بالعلاج و المداواه الخاصه فى مواقف شتى حتى تظهر الخليقه الأوّلى التى فُطر عليها؛ فقد جعل الله سبحانه المواقف التى يمرّ بها الإنسان بعد موته فى البرزخ و يوم القيامة؛ وسائل لتطهير الإنسان و تصفيته من آثار الذنوب و تبعاتها. و لا غرو فى أن يكون الشفعاء المرضيون عند الله، أطباء يعالجون أولئك المرضى، بتصرفاتهم و نفوسهم القويّه حتى يزيلوا عنهم غبار المعصيه، و درن الذنب حتى تعود الجوهره الإنسانيه نقيّه صافيه ناصعه، فيستحقّ الإنسان نعيم الآخره و دخول الجنه إلما من بلغ حداً لا- يقبل العلاج و التداوى، لأجل أن ذاته قد انقلبت إلى ما يصاد الجوهره الإنسانيه النقيه التى لا تقبل أيّه مداواه أو علاج، كما لو اتّخذ لربّه شريكاً فاستحقّ الخلود فى النار.

١- الروم: ٣٠.

٢- التاج الجامع للأصول ٤: ١٨٠؛ تفسير البرهان ٣: ٢٦١/٥.

فليس التوقف في البرزخ ولا- في المراحل المتنوعه في يوم القيامة ولا- الدخول في النار مدّة محدوده و لا شفاعة الأنبياء و الأولياء في حقهم، إلّا تصرفاً تكوينياً في حقهم حتى تعود الجوهره الأوليه إلى حالتها الطبيعیه الأولى و تصفو من كل شائبه تعلقت بها نتيجة العصيان و التمرد.

د- الآثار البنّاءة و التربويه للشفاعة

إنّ تشريع الشفاعة، و الاعتراف بها في النظام الإسلامى إنّما هو لأجل غايات تربويه تترتب على ذلك التشريع و الاعتقاد به؛ ذلك لأنّ الاعتقاد بالشفاعة المقيده بشروط معقوله، من شأنه بعث الأمل في نفوس العصاه و أفئده المذنبين، يدفعهم إلى العوده عن سلوكهم الإجرامى، و إعادته النظر في منهج حياتهم.

و لكن هناك من يعترض و يقول: إنّ الشفاعة توجب الجراه و تحيى روح التمرد في العصاه و المجرمين. إلّا أنّ الواقع يفصح أنّ الشفاعة سبب في إصلاح سلوك المجرم و وسيله لتخليه عمّا يرتكبه من آثام و ما يقترفه من ذنوب.

و تظهر حقيقه الحال إذا لاحظنا مسأله التوبه، و هى التى اتفقت عليها الأمه و نصّ عليها الكتاب المجيد و الحديث الشريف؛ فإنّه لو كان باب التوبه موصداً في وجه العصاه و المذنبين، و اعتقد المجرم بأنّ عصيانه مرّه واحده أو مرّات سيخلده في عذاب الله، و لا مناص له منه، فلا شك أنّ هذا الاعتقاد يوجب التمادى في اقتراف السيئات و ارتكاب الذنوب؛ لأنّه يعتقد بأنّه لو غير وضعه و سلوكه في مستقبل أمره لا- يقع ذلك مؤثراً في مصيره و خلوده في عذاب الله؛ فلا- وجه لأن يترك المعاصى و يغادر اللذه المحرّمه، و يتحمّل عناء العباده و الطاعه، بل يستمر في وضعه السابق حتى يوافيه الأجل.

و هذا بخلاف ما إذا وجد الطريق مفتوحاً، و النوافذ مشرعه و اعتقد بأنه سبحانه سيقبل توبته إذا كانت نصوحاً، و أن رجوعه هذا سيغيّر مصيره فى الآخرة، و يُنقّذه من تبعات أعماله، و أليم العذاب، فعند ذاك سيترك العصيان و يرجع إلى الطاعة و يستغفر لذنوبه و يطلب الإغضاء عن سيئاته.

فهذا الاعتقاد له الأثر البنّاء فى تهذيب الناس و الشباب خاصه، و كم من شباب اقترفوا السيئات و أمضوا الليالى فى اللذّه المحرّمه، ثم عادوا إلى خلاف ما كانوا عليه فى ظل التّوبه و الاعتقاد بأنّها تجدى المذنبين، و بأن أبواب الرحمه و الفلاح مفتوحه لم تغلق بعد، فعادوا يسهرون الليالى فى العباده، و يحيونها بالطاعه.

و ليس هذا إلّا أثر ذلك الاعتقاد، و ذاك التشريع. و مثل ذاك، الاعتقاد بالشفاعه المحدوده، فإنّه إذا اعتقد العاصى بأنّ أولياء الله سبحانه قد يشفعون فى حقّه فى شرائط خاصه إذا لم يهتك الستر، و لم يبلغ حدّاً لا تنفع معه شفاعه الشافعين، فعند ذاك سوف يعيد النظر فى سيرته الشخصيه، و يحاول تطبيق سلوكه على شرائط الشفاعه حتى يستحقّها، و لا يحرمها.

نعم، إنّ الاعتقاد بالشفاعه المطلقه، المحرّره من كلّ قيد، من جانب الشفيح و المشفوع له، هو الذى يوجب التجزّى و التمدادى فى العصيان. و هذه الشفاعه مرفوضه فى منطق العقل و القرآن، و كأنّ المعترض قد خلط بين الشفاعه المحدوده و الشفاعه المطلقه من كلّ قيد، و لم يُميز بينهما و بين آثارهما.

فالشفاعه الموجهه للتجزّى و مواصله العناد و التمرد، هى الاعتقاد بأنّ الأنبياء و الأولياء سيشفعون فى حقّه يوم القيامه على كلّ حال و فى جميع الشرائط و إن فعل ما فعل، و ارتكب ما ارتكب. و عند ذلك سيستمر فى عمله الإجرامى إلى آخر حياته رجاء تلك الشفاعه التى لا تخضع لضابط و لا قانون، و لا تقيد بقيد و لا شرط.

و أما الشفاعة التي نطق بها الكتاب و أقرت بها الأحاديث و اعترف بها العقل فهي الشفاعة المحدوده بشرائط في المشفوع له و الشافع. و مجمل تلك الشرائط هو أن لا- يقطع جميع علاقات العبوديه مع الله، و لا- يفصم و شائجه الروحيه مع الشافعين، و لا يصل تمرده إلى حدّ القطيعه و نسف الجسور. فالاعتقاد بهذا النوع من الشفاعة مثل الاعتقاد بتأثير التوبه في الغفران ماهيه و أثراً.

هـ- الأمر بيده سبحانه أولاً و آخراً

ما ذكرناه من الوجوه هي مبررات الشفاعة و الجهات التعليليه لجعلها فيصميم العقائد الإسلاميه، و مع ذلك كله فالأمر إليه سبحانه فهو إن شاء أذن في الشفاعة و إن لم يشأ لم يأذن، و هو القائل سبحانه: «ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١).

وصفوه القول: أن الشفيع إنما يشفع بإذنه، و في إطار مشيئته، و تحت الشروط التي يرتضيها؛ إذ هو الذي يبعث الشفيع على أن يشفع في حق المشفوع له. و عند ذلك فلا تستلزم شفاعة الشافعين خروج الأمر عن يده، و تحديد سلطته (تعالى) و ملكه.

أثر الشفاعة هل هو إسقاط العقاب أو زياده الثواب

المبحث الخامس أثر الشفاعة

هل هو إسقاط العقاب أو زياده الثواب؟

هل إن نتيجة الشفاعة هو حطّ ذنوب المذنبين و إسقاط العقاب و المضار عنهم و العفو عن العصاه، أم هي زياده الثواب و رفع الدرجات للمطيعين؟

لقد ذهب جمهور المسلمين إلى الأوّل، و المعتزله إلى الثاني.

إن فكره الشفاعة كانت عند اليهود و الوثنيين قبل الإسلام، إلّا أنّ الإسلام طرحها مهذباً ممّا علق بها من الخرافات.

و غير خفى على من وقف على آراء اليهود و الوثنيين فى أمر الشفاعة، أنّ الشفاعة الدارجة بينهم - خصوصاً اليهود - كانت مبنيه على رجائهم لشفاعة أنبيائهم و آبائهم فى حطّ ذنوبهم و غفران آثامهم، و لأجل هذا الاعتقاد كانوا يقتربون المعاصى، و يرتكبون الذنوب تعويلاً على ذلك الرجاء.

و فى هذا الموقف يقول سبحانه ردّاً على تلك العقيدة الباعثه على الجرأه: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (١). و يقول أيضاً رفضاً لتلك الشفاعة المحرّره من

كل قيد: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (١). و حاصل الآيتين أنّ أصل الشفاعة التي يدّعيها اليهود و يلوذ بها الوثنيون حقّ ثابتٌ في الشريعة السماوية، غير أنّ لها شروطاً أهمّها إذنه سبحانه للشافع و رضاؤه للمشفوع له.

و لعلّ أوضح دليل على عموميه الشفاعة في الإسلام ما اتّفق على نقله المحدّثون من قول هصلي الله عليه و آله: «ادّخرتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتي» (٢).

فكان دافع المعتزله بتخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة هو الموقف الذي اتخذوه في حقّ العصاة و مقترفي الذنوب في أبحاثهم الكلامية؛ فإنّهم قالوا بخلود أهل العصيان في النار.

و من الواضح أنّ من يتخذ مثل هذا الموقف لا يصح له أن يعمّم آيات الشفاعة إلى العصاة، و ذلك لأنّ التخليد في النار لا يجتمع مع التخلص عنها بالشفاعة.

قال الشيخ المفيد: اتّفقت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود في النار موجهه إلى الكفّار خاصّه، دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى، و الإقرار بفرائضه من أهل الصلاة. و أجمعت المعتزله على خلاف ذلك، و زعموا أنّ الوعيد بالخلود في النار عام في الكفّار و جميع فسّاق أهل الصلاة.

و اتّفقت الإمامية على أنّ من عيّد بذنبه من أهل الإقرار و المعرفة و الصلاة لم يخلد في العذاب و أُخرج من النار إلى الجنة، فينعم فيها على الدوام و وافقهم على ذلك من عددناهم، و أجمعت المعتزله على خلاف ذلك و زعموا أنّه لا يخرج من النار أحدٌ دخلها للعذاب (٣).

نعم، نسب العلّامة الحلّي في «كشف المراد» تلك العقيدة إلى بعض المعتزله لا

١- الأنبياء: ٢٨.

٢- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤١ و غيرها.

٣- أوائل المقالات: ص ١٤.

إلى جميعهم» (١)، و كذلك نظام الدين القوشجي في شرحه على التجريد «(٢)».

و قد خالفهم أئمة المسلمين و علماءهم في هذا الموقف و قالوا بجواز العفو عن العصاه عقلاً و سمعاً.

أما العقل فلأن العقاب حق لله تعالى فيجوز تركه.

و أما السمع، فلآيات الدالّة على العفو فيما دون الشرك، قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (٣).

و الآيه واردة في حق غير التائب؛ لأنّ الشرك مغفور بالتوبه أيضاً، و قال سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ» (٤) أى تشملهم المغفرة مع كونهم ظالمين.

و قال سبحانه: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» (٥)، إلى غير ذلك من النصوص المتضافره على العفو في حق العصاه. و مع ذلك لا مانع من شمول أدلّه الشفاعة لهم.

و أوضح دليل على العفو بدون التوبه قوله سبحانه: «وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» (٦) فإنّ عطف قوله: «وَ يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» على قوله: «يَقْبَلُ التَّوْبَةَ» ب «واو العطف»، يدلّ على التغاير بين الجملتين، و إنّ هذا العفو لا يرتبط بالتوبه و إلّا كان اللازم عطفه بالفاء.

و قال سبحانه: «وَ مَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ»

١- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٢٦١، ط صيدا.

٢- شرح التجريد: ص ٥٠١.

٣- النساء: ٤٨.

٤- الرعد: ٦.

٥- الزمر: ٥٣.

٦- الشورى: ٢٥.

كثير» (١). فإن الآيه وارده في غير حق التائب، وإلا فإن الله سبحانه يغفر ذنوب التائب جميعها لا كثيرها مع أنه سبحانه يقول: «وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ».

فتلخص من ذلك أنه لا مانع من القول بجواز العفو في حق العصاة كما لا مانع من شمول آيات الشفاعة لهم.

نعم، يجب إلفات النظر إلى نكته وهي أن بعض الذنوب الكبيره ربما تقطع العلائق الإيمانيه بالله سبحانه، كما تقطع الأواصر الروحيه مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فصاحب هذه المعصيه لا تشمله الشفاعة، فيجب عليه دخول النار حتى يتطهر بالعذاب و تصفو روحه من آثار العصيان، و يليق لشفاعه الشافعين.

المبحث السادس طلب الشفاعة من المأذونين بالشفاعة

إشاره

قد تجلّت الحقيقه بأجلى مظاهرها و تبين أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و لفيماً من الأولياء و الصالحين يشفعون عند الله في ظروف خاصه و أنّهم مأذونون من جانبه سبحانه يوم القيامه.

كما تبين أنّ المفهوم الواضح لدى العامه من الشفاعة، هو دعاء الرسول و طلبه من الله غفرانَ ذنوب عباده، إذا كانوا أهلاً لها. إذن يرجع طلب الشفاعة من الشفيح إلى طلب الدعاء منه لتلك الغايه، و هل ترى في طلب الدعاء من الأخ المؤمن إشكالاً؟! فضلاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، الذي يُستجاب دعاؤه و لا يُردّ بنص الذكر الحكيم «(١)».

فعند ما كان النبي الأكرم صلى الله عليه و آله حياً في دار هجرته، كان طلب أصحابه الدعاء منه، راجعاً إلى طلب الشفاعة منه و الاختلاف في الاسم لا في الواقع و الحقيقه.

و بعد انتقاله من الدنيا إلى عالم البرزخ، يرجع طلب الشفاعة منه أيضاً إلى

طلب الدعاء منه لا غير.

فلو أنّ أعرابياً جاء إلى مسجده فطلب منه أن يستغفر له، فقد طلب منه الشفاعة عند الله. و لو جاء ذاك الرجل بعد رحيله، و قال له: يا أيها النبي، استغفر لي عند الله. أو قال: اشفع لي عند الله، فالجميع بمعنى واحدٍ لبّاً و حقيقةً، و إنّما يختلفان صورةً و ظاهراً. فالإذعان بصحة أحدهما، و الشك فيصحه الآخر كالتفكيك بين المتلازمين.

نعم، هناك سؤال يطرح نفسه و هو أنّه إذا كان النبي صلى الله عليه و آله حياً يُرزق في هذه الدنيا و يسمع كلام السائل، فلا فرق بين طلب الدعاء و طلب الشفاعة.

و أما بعد رحيله و انتقاله إلى رحمة الله الواسعة، فلا يسمع كلام السائل، بأيّصفه خاطبه و كلمه سواء أ قال: استغفر لي، أم قال: اشفع لي.

و الإجابة واضحة، لأنّ الكلام مرّكز في تبين معنى طلب الشفاعة منه حياً و ميتاً و أنّ حقيقة أمر واحدٍ بجميع صورته، و أمّا أنّه يسمع أو لا- يسمع، أو أنّ الدعوه تنفع أو لا- تنفع، فهو أمرٌ نرجع إليه بعد الفراغ منصميم البحث. و لإيضاح الأمر نورد بعض النصوص من المفسرين في تفسير الشفاعة:

قال الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَ عِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (١) إنّ الآية تدلّ على حصول الشفاعة للمذنبين، و الاستغفار طلب المغفرة، و المغفرة لا تُذكر إلّا في إسقاط العقاب، أمّا طلب النفع الزائد فإنّه لا يسمّى استغفاراً. و قوله تعالى: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» يدلّ على أنّهم يستغفرون لكل

أهل الإيمان، فإذا دللنا على أنصاحب الكبيره مؤمن، وجب دخوله تحت هذه الشفاعة «(١)».

نرى أن الإمام الرازى جعل قول الملائكة فى حق المؤمنين و التائبين، من أقسام الشفاعة، و فسّر قوله: «فَاعْفِرُوا لِلَّذِينَ تَابُوا» بالشفاعة. و هذا دليل واضح على أن الدعاء فى حق المؤمن، شفاعه فى حقّه، و طلبه منه طلب الشفاعة.

و نقل نظام الدين النيسابورى، فى تفسير قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا» «(٢)» عن مقاتل: إن الشفاعة إلى الله إنما هى دعوه الله لمسلم، لما روى عن النبي صلى الله عليه و آله: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، و قال الملك: و لك مثل ذلك» «(٣)».

و الذى يوضح أن شفاعه النبي عباره عن دعائه فى حق المشفوع له، ما رواه مسلم فى «صحيحه» عن النبي الأكرم أنه قال: «ما من ميت يُصلّى عليه أمّه من المسلمين يبلغون مائه كلّهم يشفعون له إلّا شُفّعوا فيه» «(٤)».

و فسّر الشارح قولهلصلى الله عليه و آله: «يشفعون له» بقوله: أى يدعون له، كما فسّر قولهلصلى الله عليه و آله: «إِلَّا شُفّعُوا فِيهِ» بقوله: أى قبلت شفاعتهم.

و روى أيضاً عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلّا شفّعهم الله فيه» «(٥)»

أى قبلت شفاعتهم فى حق ذلك الميت فيغفر له.

فإذا كان مرجع الاستشفاع من الصالحين إلى طلب الدعاء، فكل من يطلب

١- مفاتيح الغيب ٧: ٢٨٥-٢٨٦، ط. مصر، الجزء ٢٧: ٣٤ ط دار إحياء التراث الإسلامى، بيروت.

٢- النساء: ٨٥.

٣- غرائب القرآن بهامش تفسير الطبرى: ٥: ١١٨.

٤- صحيح مسلم ٤: ٥٣، ط. مصر، مكتبه محمد على صبيح و أولاده.

٥- المصدر نفسه.

من النبي الشفاعة لا يقصد منه إلا المعنى الشائع [\(١\)](#).

إلى هنا تبين أن طلب الشفاعة يرجع إلى طلب الدعاء، وهو أمر مطلوب في الشرع من غير فرق بين طلبه من الشفيح في حال حياته أو مماته، فهو لا يخرج عن حد طلب الدعاء، و أما كونه ناجعاً أو لا؟ فهو أمر آخر نرجع إليه كما مر.

و الذي يحقق هذا الأمر هو صدور مثله من السلف الصالح في العصور المتقدمه و إليك نزرأ منه:

السلف و طلب الشفاعة من النبي الأكرم صلى الله عليه و آله

١- الأحاديث الإسلامية و سيره المسلمين تكشفان عن جواز هذا الطلب، و وجوده في زمن النبي صلى الله عليه و آله فقد روى الترمذى في «صحيحه» عن أنس قوله:

سألت النبي أن يشفع لى يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل»، قال: قلت: يا رسول الله فأتى أطلبك، فقال: «اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط» [\(٢\)](#).

فالسائل يطلب من النبي الأعظم، الشفاعة دون أن يخطر بباله أن هذا الطلب يصطدم مع أصول العقيدة.

٢- هذا سواد بن قارب، أحد أصحاب النبي صلى الله عليه و آله يقول مخاطباً إياه:

فكن لى شفيحاً يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب [\(٣\)](#).

٣- روى أصحاب السير و التاريخ، أن رجلاً من قبيلة حمير عرف أنه سيولد

١- لو كان للشفاعة معنى آخر من التصرف التكويني في قلوب المذنبين، و تصفيتهم في البرزخ، و مواقف القيامة فهو أمر عقلى لا يتوجه إليه إلا الأوحى من الناس.

٢- صحيح الترمذى ٤: ٦٢١، كتاب صفه القيامة، الباب ٩.

٣- الإصابه ٢: ٩٥، ترجمه ٣٥٧٦، و قد ذكر طرق روايته البالغه إلى ست، و راجع أيضاً الروض الأنف ١: ١٣٩؛ بلوغ الإرب ٣:

٢٩٩؛ عيون الأثر ١: ٧٢

فى أرض مكة نبى الإسلام الأعظم صلى الله عليه وآله، ولما خاف أن لا يدركه، كتب رساله و سلمها لأحد أقاربه حتى يسلمها إلى النبى صلى الله عليه وآله حينما يبعث، و ممّا جاء فى تلك الرساله قوله: «و إن لم أدرك فاشفع لى يوم القيامة و لا تنسنى» (١) و لمّا وصلت الرساله إلى يد النبى صلى الله عليه وآله قال: «مرحباً بتبع الأخ الصالح» فإنّ وصف النبى صلى الله عليه وآله لطالب الشفاعة بالأخ الصالح، أوضح دليل على أنّه أمر لا يتعارض و أصول العقيدة.

٤- و روى المفيد عن ابن عباس أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما غسل النبى صلى الله عليه وآله و كفّنه كشف عن وجهه و قال: «بأبى أنت و أمى طبت حياً و طبت ميتاً... اذكرنا عند ربك» (٢).

و روى الشريف الرضى فى «نهج البلاغه»: أنّ عليّاً عليه السلام قال عند ما ولى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله: «بأبى أنت و أمى اذكرنا عند ربك و اجعلنا من بالك» (٣).

٥- روى أنّه لمّا توفى النبى صلى الله عليه وآله أقبل أبو بكر فكشف عن وجهه ثمّ أكبّ عليه فقبله و قال: «بأبى أنت و أمى طبت حياً و ميتاً اذكرنا يا محمد عند ربك و لنكن من بالك» (٤).

و هذا استشفاع بالنبى صلى الله عليه وآله فى دار الدنيا بعد موته.

٦- و ختاماً نذكر ما ذكره الدكتور عبد الملك السعدى فى كتابه «البدعه فى مفهومها الإسلامى الدقيق»: أمّا طلب الشفاعة من رسول الله صلى الله عليه وآله بصوره عامّه و بدون قيد بعد أذان أو غيره فقد ورد فى السنّه، حيث قد طلبها منه بعض الصحابه- رضى الله عنهم- دون نكير من رسول الله صلى الله عليه وآله. و الأحاديث الوارده بهذا

١- ابن شهر آشوب ١: ١٢؛ السيره الحلبيه: ٢: ٨٨.

٢- مجالس المفيد، المجلس الثانى عشر: ص ١٠٣.

٣- نهج البلاغه: الخطبه ٢٣٥.

٤- السيره الحلبيه ٣: ٤٧٤، ط دار المعرفه بيروت.

الخصوص و بمواضع و مناسبات عديده كثيره جداً نذكر منها:

عن مصعب الأسمى قال: انطلق غلام منّا فأتى النبي صلى الله عليه وآله و قال: إني سائلك سؤالاً قال: «و ما هو؟» قال: أسألك أن تجعلني ممن تشفع له يوم القيامة، قال: «من أمرك هذا؟» أو «من علمك هذا؟» أو «من دلّك على هذا؟» قال: ما أمرني به أحد إلّا نفسي، قال: «فإنك ممن أشفع له يوم القيامة». أوردته الهيتمى فى مجمع الزوائد و قال: رواه الطبرانى.

و قد أورد الهيتمى بهذا الموضوع كثيراً من الأحاديث «(١)». هذا فى حياتهم صلى الله عليه وآله.

أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فهل يصح طلب الشفاعة منه لا سيما أمام قبره الشريف و عند السلام عليه؟ بما أنه ثبت بما لا يقبل الشك أنّ الأموات يسمعون و يتكلمون و يدعون فى عالم البرزخ و بخاصه هو صلى الله عليه وآله عند ما يسلم عليه تردّ إليه روحه الشريفه، فلا موجب للتفرقه فى طلب الشفاعة بين حياته قبل انتقاله و بين حياته؛ الحياه البرزخيه بعد انتقاله. و من ادعى المنع فعليه بالدليل و الله الموفق «(٢)».

كل هذه النصوص تدلّ على أنّ طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله كان أمراً جائزاً و شائعاً، و ذلك لأنهم يرونه مثل طلب الدعاء منه، و لا فرق بينها و بينه إلّا فى اللفظ، و قد عرفت صحّه إطلاق لفظ الشفاعة على الدعاء، و الاستشفاع على طلب الدعاء، و ممّا يدلّ على ذلك أنّ البخارى عقد بابين بهذين العنوانين، و هما:

١- إذا استشفعوا ليستسقى لهم لم يردهم.

٢- و إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط «(٣)».

فرى أنّ البخارى يطلق لفظ الاستشفاع على الدعاء و طلبه من الإمام فى

١- مجمع الزوائد ١٠: ٣٦٩؛ صحيح مسلم ١: ٢٨٩.

٢- البدعه فى مفهومها الإسلامى: ص ١٠٥-١٠٦.

٣- البخارى الصحيح: الجزء ٢، كتاب الاستسقاء، الباب ١١-١٢.

العام المجذب، من دون أن يخطر بباله أنّ هذا التعبير غير صحيح.

و على العموم أنّ طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه و آله داخل فيما ورد من الآيات التالية:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (١)، «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» (٢).

و قوله سبحانه: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» (٣) فكل ما يدل على جواز طلب الدعاء من المؤمن الصالح يمكن الاستدلال به على صحته ذلك.

١- النساء: ٦٤.

٢- يوسف: ٩٧-٩٨.

٣- المنافقون: ٥.

أستله حول طلب الشفاعة

المبحث السابع أستله حول طلب الشفاعة

أشاره

قد أتضح أنّ طلب الشفاعة بمعنى طلب الدعاء؛ ليس ممّا يرتاب في جوازه مؤمن واع، عارف بالكتاب و السنّه، نعم ربما تُثار هنا شبهات أو أستله يجب رفعها أو الإجابة عليها و ليست الأستله مطروحه عليصعيد واحد، و لأجل ذلك نذكر كلّ واحد بعنوان يُعرّف مغزاه، و الجميع يرجع إلى طلب الدعاء من الشفيح بعد رحيله بعد تجويزه في حياته.

السؤال الأول: الشفيح ميّت كيف يُطلب منه الدّعاء؟

أشاره

إنّ طلب الشفاعة و إن كان طلب الدعاء لكنّه لا جدوى فيه لكون الشفيح بعد الموت لا يستطيع أن يقوم بالدعاء.

على هامش السؤال:

السؤال جدير بالدراسه و التحليل، و هو عالق في ذهن لفييف من الناس فهم يناجون في أنفسهم كيف يُطلب الدّعاء و الشفاعة من النبي الأكرم و هو ميّت

لا يستطيع على إجابته طلب الطالب؟

أولاً: إن الرجوع إلى القرآن المجيد، واستنطاقه في هذا المجال يوقفنا على جليته الحال، وهو يعترف بموتهم مادياً لا موتهم على الإطلاق، بل يصرح بحياه لفيف من الناس الذين انتقلوا من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة من صالح و طالح، و سعيد و شقي، و ها نحن نتلو على القارئ الكريم قسماً منها ليقف على أن الموت أمرٌ نسبي، و ليس بمطلق، و لو صار بدن الإنسان جماداً، ليس معناه بطلانه و انعدام شخصيته، و ليس الموت إلّا انتقالاً من دارٍ إلى دارٍ، و من ضيق الدنيا إلى سعه الآخرة و إليك لفيفاً من الآيات:

١- قال سبحانه: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزقونَ* فَرِحِينَ بما آتاهمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبشرونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزنونَ» (١).

و الأيهصريحه في المقصود، صراحةً لا تتصور فوقها صراحه، حيث أخبرت الآيه عن حياتهم و رزقهم عند ربهم و تبشيرهم لمن لم يلحقوا بهم، و ما يتفوهون به في حقهم بقولهم: «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزنونَ».

و على ذلك فلو كان الشفيع أحد الشهداء في سبيل الله تعالى فهل يكون هذا المطلب لغواً!؟

٢- إن القرآن يعدّ النبي شهيداً على الأمم جمعاء، و يقول سبحانه: «فَكَيْفَ إِذا جِئنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئنا بِكَ على هؤُلاءِ شَهِيداً» (٢).

فالآيه تصرّح بأنّ النبي صلى الله عليه و آله شاهد على الشهود الذين يشهدون على أممهم فإذا كان النبي صلى الله عليه و آله شاهداً على الأمم جمعاء، أو على شهودهم فهل تعقل الشهاده بدون

١- آل عمران: ١٦٩- ١٧٠.

٢- النساء: ٤١.

الحياه، و بدون الاطلاع على ما يجرى فيهم من الأمور من الكفر و الإيمان و الطاعه و العصيان!؟

و لا يصح لك أن تفسّر شهاده النبي صلى الله عليه و آله بشهادته على معاصريه فقط، و ذلك لأنه سبحانه عدّ النبي شاهداً في عداد كونه مبشراً و نذيراً، و هل يتصوّر أحدٌ أن يختص الوصفان الأخيران بمن كان يعاصر النبي!؟

كلّا. فإذن لا وجه لتخصيص كونه شاهداً على الأمة المعاصره للنبي صلى الله عليه و آله.

٣- الآيات القرآنيه صريحه في امتداد حياه الإنسان إلى ما بعد موته، يقول سبحانه في حق الكافرين: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١).

فهذه الآيه تصرّح بامتداد الحياه الإنسانيه إلى عالم البرزخ، و إنّ هذا العالم وعاءٌ للإنسان يعذب فيها من يُعذب و ينعم فيها من ينعم.

أمّا التّنعّم فقد عرفت التصريح به في الآيه الوارده في حق الشهداء.

و أمّا العقوبه، فيقول سبحانه: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يُؤَمُّونَ السَّاعَةَ أَذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (٢).

٤- هذا هو الذكر الحكيم ينقل بياناً عن الرجل الذي جاء من أقصى المدينه، و أيد رسل المسيح، فلما قتل خوطب باللفظ التالي: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» فأجاب بعد دخوله الجنه: «يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» (٣) إلى غير ذلك من الآيات الداله على امتداد الحياه، و استشعار ليف

١- المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

٢- غافر: ٤٦.

٣- يس: ٢٦-٢٧.

من عباد الله لما يجرى هنا وهناك، غير أننا لا نسمع بياتهم ولا نفهم خطابهم، وهم سامعون، عارفون بإذن الله سبحانه.

ثانياً: إن الأحاديث الواردة في هذا المورد فوق الحصر فحدّث عنها ولا حرج، وقد روى المحدثون عنصلي الله عليه وآله: «ما من أحد يسلم على إلا ردّ الله روحى حتى أردد عليه السلام» (١). كما نقلوا قوله: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام» (٢).

ثالثاً: نرى أنه سبحانه يسلم على أنبيائه فى آيات كثيرة، ويقول: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ»، «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ»، «سَلَامٌ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ»، «وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» (٣).

كما يأمرنا بالتسليم على نبيه و الصلوات عليه ويقول بصريح القول: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٤)، فلو كان الأنبياء والأولياء أمواتاً غير شاعرين بهذه التسليمات و الصلوات فأى فائده فى التسليم عليهم وفى أمر المؤمنين فى الصلاة؛ بالسلام على النبي صلى الله عليه وآله؟ و المسلمون أجمع يسلمون على النبي فيصلواتهم بلفظ الخطاب، ويقولون: السلام عليك أيها النبي و رحمه الله و بركاته، و حَمَلُ ذَلِكَ عَلَى الشُّعَارِ الْأَجُوفِ وَ التَّحِيَةِ الْجُوفَاءِ، أَمْرٌ لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مِنْ لَهْ إِمَامٍ بِالْقُرْآنِ وَ الْحَدِيثِ.

١- وفاء الوفا ٤: ١٣٤٩.

٢- المصدر نفسه: ص ١٣٥٠.

٣- الصافات: ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ على الترتيب.

٤- الأحزاب: ٥٦.

السؤال الثاني: الشفيع ميت و هو لا يسمع؟

اشاره

هذا هو السؤال الثاني الذي ربّما يُطرح في المقام، و هو أيضاً جديرٌ بالدراسه، و لكنّه في التحقيق صورهُ صغيره من السؤال السابق، فالتركيز- هنا- على خصوص عدم السماع، و لكنّه في السابق على معنى أعم و هو عدم الاستطاعه على شىء سماعاً كان أو غيره.

و نقول: ربما يقال: ظاهر الذكر الحكيم على أنّ الموتى لا يسمعون، حيث شبه المشركين بهم. و وجه الشبه هو عدم السماع. قال: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» (١)، فالآيه تصف المشركين بأنهم أموات و تشبّههم بها، و من المعلوم أنّصحّه التشبيه تتوقف على وجود وجه الشبه في المشبه به بوجه أقوى و ليس وجه الشبه إلّا أنّهم لا يسمعون، فعند ذلك تُصبح النتيجة: إنّ الأموات مطلقاً غير قابلين للإفهام، و يدل على ذلك أيضاً قوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (٢).

و وجه الدلاله في الآيتين واحد.

على هامش السؤال

القرآن الكريم منزّه عن التناقض و الاختلاف و كيف لا- يكون كذلك و هو يقول: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (٣) و هو يصرّح في

١- النمل: ٨٠.

٢- فاطر: ٢٢.

٣- النساء: ٨٢.

غير واحد من آياته على أن الأنبياء كانوا يكلمون الموتى و يخاطبونهم. و نلمس ذلك بوضوح فى قصتيصالح و شعيب.

أمّا الأولى: فالقرآن يحكى خطابه لقومه- بعد هلاكهم و أخذ الرجفة لهم- فيقول: «فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْرَبُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (١).

أمعن النظر فى قوله: «فَتَوَلَّى» حيث تصدّر بالفاء الداله على الترتيب: أى بعد ما عمهم الهلاك أعرضصالح بوجهه عنهم و خاطبهم بقوله: يا قوم...

أمّا الثانية فهى أيضاً قرينه الأولى و نظيرتها قال سبحانه: «فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْرَبُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ» (٢).

إنّ الأوليين من الآياتصريحتان فى نزول البلاء عليهم و إبادتهم و إهلاكهم جميعاً- فبعد ذلك- يخاطبهم نبيهم شعيب معرضاً بوجهه عنهم، مشعراً بالتبزي و يقول: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي... و ليس لنا، و لا لغيرنا تأويل القرآن لأخذ موقف مسبق فى الموضوع، بل يجب عرض الرأى عليه لا عرض القرآن على الفكر الإنسانى.

و نكتفى من الآيات بما تلوناه عليك و هناك آيات أخرى موحداه فى المضمون نترك نقلها للاختصار.

١- الأعراف: ٧٨-٧٩.

٢- الأعراف: ٩١-٩٣.

السَّنة لا تتفق مع عدم السماع

إشارة

إِنَّ السَّنة الكريمة، عدل القرآن، يُحْتَجُّ بها كما يُحْتَجُّ به، فقد أخذت موقف الإيجاب فهي لا تتفق مع عدم السماع وإليك نزرًا يسيرًا منها:

١- ما أنتم بأسمع منهم

هذه الكلمة ألقاها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند ما كان بمقبره من قتلى قريش، وقد تقدّم ذكرها مفصلاً في فصل: الحياه البرزخية فراجع [\(١\)](#).

٢- روايه الصحابي الجليل: عثمان بن حنيف

روى الحافظ الطبراني عن الصحابي الجليل عثمان بن حنيف: أَنَّ رجلاً كان يَخْتَلِفُ إلى عثمان بن عفان في حاجه له، و كان لا يلتفت إليه و لا ينظر في حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له ابن حنيف: ائت الميضا، فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين، ثم قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ و أتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إِنِّي أتوجه بك إلى ربِّك أن تقضى حاجتي، و تذكر حاجتك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده، فأدخل على عثمان فأجلسه معه على الطنفسه فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته و قضى له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة، و قال: ما كانت لك من حاجه فاذكرها، ثم إنَّ الرجل خرج من عنده فلقى ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما

١- إنَّ تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم مع رءوس الشرك الموتى الذين ألقيت أجسادهم في البئر من مسلمات التاريخ و الحديث، و قد أشار إلى هذا من بين المحدثين و المؤرخين: صحيح البخارى ٥: ٧٦ و ٧٧-٨٧ في معركة بدر؛ صحيح مسلم ٨: ١٦٣ كتاب الجنه باب مقعد الميت؛ سنن النسائي ٤: ٨٩ و ٩٠ باب أرواح المؤمنين؛ مسند الامام أحمد ٢: ١٣١؛ السيره النبويه ١: ٦٣٩؛ المغازى ١: ١١٢ غزوه بدر؛ بحار الأنوار ١٩: ٣٤٦.

كان ينظر في حاجتي و لا يلتفت إليّ حتى كلمته في.

فقال ابن حنيف: و الله ما كلمته، و لكن شهدت رسول الله، و أتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه و آله: إن شئت دعوت أو تصبر، فقال: يا رسول الله إنه ليس لى قائد و قد شقّ عليّ، فقال له النبي: ائت الميضاه فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات. قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر «(١)».

قال الترمذى: هذا حديث حق حسن صحيح.

و قال ابن ماجه: هذا حديث صحيح.

و قال الرفاعى: لا شك أن هذا الحديث صحيح و مشهور «(٢)».

السؤال الثالث: الشفاعة فعل الله

إشاره

الشفاعة فعل الله سبحانه، و لا يُطلب فعله من غيره، قال سبحانه: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» «(٣)».

فاذا كانت الشفاعة مملوكة لله و هو المالك لها، فكيف يُطلب ما يرجع إليه من غيره؟

على هامش السؤال

لا شك أن الشفاعة لله كما هو صريح الآيه و ما يرجع إليه سبحانه لا يُطلب من غيره. مثلاً إن الرزق و الإحياء و الإماتة له لا تُطلب من عباده. غير أن المهم

١- صحيح الترمذى ج ٥ كتاب الدعوات، الباب ١١٩، رقم ٣٥٧٨؛ سنن ابن ماجه ١: ٤٤١ / ١٣٨٥؛ مسند أحمد ٤: ١٣٨ و غير ذلك.

٢- التوصل إلى حقيقه التوصل: ص ١٥٨.

٣- الزمر: ٤٤.

تشخيص ما يرجع إليه سبحانه، و تمييزه ما أعطاه لعباده الصالحين.

إنَّ الشفاعة المطلقة ملك لله سبحانه، فلا شفيع ولا مشفوع له، بلا إذنه و رضاه؛ فهو الذى يسُنُّ الشفاعة و يأذن للشافع، و يبعث المذنب إلى باب الشافع ليستغفر له، إلى غير ذلك من الخصوصيات. فلا يملك الشفاعة بهذا المعنى إلَّا هو، و بذلك يردّ القرآن على المشركين الذين كانوا يزعمون أنَّ أربابهم يملكون الشفاعة المطلقة فالشفاعة بهذا المعنى غير مسئولة و لا مطلوبه من النبيصلى الله عليه و آله.

و المسئول و المطلوب من النبي و الصالحين هو الشفاعة المرخصه المحدده، من الله سبحانه، أى ما رخص لهم فى أن يشفعوا و يطلبوا لعباده الغفران، فمثل هذه الشفاعة المرخصه المأذونه ليست له؛ لأنَّه سبحانه فوق كل شىء، لا يستأذن و لا يؤذن و لا يُحدّد فعله.

و بعبارة واضحة: المراد من قوله سبحانه: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» (١) ليس أنَّه سبحانه هو الشفيع دون غيره؛ إذ من الواضح أنَّه سبحانه لا يشفع عند غيره، بل المراد أنَّ المالك لمقام الشفاعة هو سبحانه و أنَّه لا يشفع أحد فى حقِّ أحد إلَّا بإذنه للشفيع و ارتضائه للمشفوع له، و لكن هذا المقام ثابت لله سبحانه بالأصالة و الاستقلال، و لغيره بالاكْتِسَاب و الإجازة، قال سبحانه: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (٢).

فالآيهصرّيه فى أنَّ من شهد بالحق يملك الشفاعة و لكن تمليكاً منه سبحانه و فى طول ملكه.

و على ذلك فالآيه أجنبه عن طلب الشفاعة من الأولياء الصالحين الذين شهدوا بالحق و ملكوا الشفاعة، و أجزوا فى أمرها فى حقِّ من ارتضاهم لها.

١- الزمر: ٤٤.

٢- الزخرف: ٨٦.

و أنت أيها الأخ المتحرر من كل رأى مسبق، إذا لاحظت ما ذكرته سابقاً في تفسير الآيه، يتضح لك، أنّ طلب الشفاعة من الصالحين، ليس طلب فعله سبحانه من غيره.

السؤال الرابع: طلب الشفاعة يشبه عمل المشركين

إشاره

إنّ طلب الشفاعة يشبه عمل عبده الأصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبه الباطله، وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم، قال سبحانه: «و يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هُوَ لَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» (١) و على ذلك فالاستشفاع من غيره سبحانه عباده لهذا الغير.

على هامش السؤال

ما كنت أفكر أيها الأخ أن تغتر بظواهر الأعمال و تقضى بالبساطه و السداجه، مع أن القرآن أمر بالتدبر و التفكر و الدقه في مصادر الأعمال و جذورها، لا بالاغترار بظاهرها.

فالفرق واضح بين عمل المسلم و المشرك لأنك إذا أمعنت النظر في مضمون الآيه تقف على أنّ المشركين كانوا يقومون بعملين:

١- عباده الآلهه و يدلّ عليه: «و يَعْبُدُونَ...».

٢- طلب الشفاعة و يدلّ عليه: «و يَقُولُونَ...».

و كان علّه اتصافهم بالشرك هو الأول لا الثاني؛ إذ لو كان الاستشفاع بالأصنام عباده لها بالحقيقه، لما كان هناك مبررّ للإتيان بجمله أخرى، أعنى قوله:

«وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءِ شَفَاعَتُنَا» بعد قوله: «وَيَعْبُدُونَ...» إذ لا- فائده لهذا التكرار، و توهم أنّ الجملة الثانية توضيحٌ للأولى خلاف الظاهر؛ فإنّ عطف الجملة الثانية على الأولى يدلّ على المغايرة بينهما.

إذا لا دلالة للآية على أنّ الاستشفاع بالأصنام كان عباده، فضلاً عن كون الاستشفاع بالأولياء المقربين عباده لهم.

و هناك فرق واضح بين طلب شفاعه الموحّد من أفضل الخلقه- عليه أفضل التحيه- و طلب شفاعه المشرك، حيث إنّ الأوّل يطلب الشفاعه منه بما أنّه عبدٌ صالح أذن له سبحانه ليشفع في عباده تحت شرائط خاصه، بخلاف المشرك؛ فإنّه يطلب الشفاعه منه، بما أنّه ربّ يملك الشفاعه يعطيها من يشاء و يمنعها عمّن يشاء.

أفيصح عطف أحدهما على الآخر و الحكم بوحدهما جوهرأ و حقيقه؟!

كيف يصح لمسلم واع اتخاذ المشابهه دليلاً على الحكم، فلوصح ذلك لزم عليه الحكم بتحريم أعمال الحج و العمره فإنها مشابهه لأعمال المشركين، أمام أربابهم و آلهتهم.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» (١).

السؤال الخامس: إن طلب الشفاعه دعاء الغير، و هو عباده له

إشاره

طلب الحاجه من غيره سبحانه حرام؛ فإنّ ذلك دعاء لغير الله و هو حرام. قال سبحانه: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (٢) و إذا كانت الشفاعه ثابتة لأوليائه و كان طلب الحاجه من غيره حراماً فالجمع بين الأمرين يتحقّق بانحصار جواز طلبها

١- ق: ٣٧.

٢- الجن: ١٨.

من الله سبحانه خاصة، و يوضح ذلك قوله سبحانه: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (١)، فقد عبّر عن العبادة في الآية بلفظ الدعوه فيصدرها و بلفظ العباده في ذيلها، و هذا يكشف عن وحده التعبيرين في المعنى. و قد ورد قولهم صلى الله عليه و آله: «الدعاء مخّ العباده».

على هامش السؤال

لا أظن أن أحداً على وجه البسيطة يجعل الدعاء مرادفاً للعباده. و إلا لم يمكن تسجيل أحد من الناس - حتى الأنبياء - في ديوان الموحدين، فلا بد أن يقترن بالدعاء شىء آخر، و يصدر الدعاء عن عقيدته خاصة في المدعو و إلا فمجرد دعوه الغير حياً كان أو ميتاً، لا يكون عباده له.

هل ترى أن الشاعره التي تخاطب شجر الخابور بقولها:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

أنها عبدته؟ كلا ثم كلا.

إن العمل لا يتسم بالعباده إلا إذا كانت في نيه الداعى عناصر تضافى عليهصفه العباده و حدّها؛ و هو الاعتقاد بألوهيه المدعو و ربوبيته و إنّه المالك لمصيره فى عاجله و آجله، و إن كان مخلوقاً أيضاً. و المراد من الدعاء فى قوله تعالى: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحِياداً» ليس مطلق دعوه الغير، بل الدعوه الخاصه المضيقه المترادفه للعباده، و يدلّ عليه قوله سبحانه فى نفس هذه الآية: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ».

و ما ورد فى الحديث من «أنّ الدعاء مُيخُّ العباده» فليس المراد منه مطلق الدعاء، بل المراد دعاء الله مخ العباده. كما أنّ ما ورد فى الروايات من أنّه: من أصغى إلى ناطق فقد عبّده، فإن كان ينطق عن الله فقد عبد الله، و إن كان ينطق عن غير

اللَّهُ فقد عبد غير الله. «(١)»

فليس المراد من العبادة هنا: العبادة المصطلحه، بل استعيرت في المقام لمن يجعل نفسه تحت اختيار الناطق.

و على ذلك فيكون المراد من النهي عن دعوه الغير هو الدعوه الخاصه المقترنه بالاعتقاد، أى كون المدعو ذا اختيارٍ تامٍ فى التصرف فى الكون و قد فُوِّضَ إليه شأن من شئونه سبحانه.

فإذا كان طلب الشفاعة مقترناً بهذه العقيدته فإنه يُعَدُّ عبادةً للمشفوع إليه. و إلا فيكون طلب الحاجه كسائر الطلبات من غيره سبحانه الذى لا يشك ذو مسكه فى عدم كونه عباده.

و بعبارة أخرى: طلب الشفاعة إنما يُعَدُّ عبادةً للشفيع إذا كان مقروناً بالاعتقاد بالوهيته و ربوبيته، و أنه مالك لمقام الشفاعة أو مفوَّض إليه، يتصرف فيها كيف يشاء، و أما إذا كان الطلب مقروناً باعتقاد أنه عبدٌ من عباد الله الصالحين يتصرف بإذنه سبحانه للشفاعة، و ارتضائه للمشفوع له، فلا يُعَدُّ عبادةً للمدعو، بل يكون وزانه و زان سائر الطلبات من المخلوقين، فلا يُعَدُّ عباده بل طلباً محضاً، غاية الأمر لو كان المدعو قادراً على المطلوب يكون الدعاء - عقلاً - أمراً صحيحاً، و إلا فيكون لغواً.

فلو تردى إنسان و سقط فى قعر بئر و طلب العون من الواقف عند البئر القادر على نجاته و إنقاذه، يُعَدُّ الطلب أمراً صحيحاً، و لو طلبه من الأحجار المنضوده حول البئر يكون الدعاء و الطلب منها لغواً مع كون الدعاء و الطلب هذا فى الصورتين غير مقترن بشىء من الألوهيه و الربوبيه فى حق الواقف عند البئر، و لا الأحجار المنضوده حولها.

إِنَّ الْآيَةَ تَحَدَّدُ الدَّعْوَةَ الَّتِي تُعَدُّ عِبَادَةً بِجَعْلِ الْمَخْلُوقِ فِي رَتْبِهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ كَمَا يَفْصَحُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «مَعَ اللَّهِ» (١) و عَلَى ذَلِكَ فَالْمَنْهِيُّ هُوَ دَعْوَةُ الْغَيْرِ، وَ جَعَلَهُ مَعَ اللَّهِ، لَا مَا إِذَا دَعَا الْغَيْرَ مَعْتَقِداً بِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَ لَا لِغَيْرِهِ ضِراً وَ لَا نَفْعاً وَ لَا حَيَاةً وَ لَا - بَعْثاً وَ لَا - نَشُوراً إِلَّا مَا يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِإِذْنِهِ وَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِمَشِيئَتِهِ، فَعِنْدَ ذَاكَ فَالطَّلَبُ مِنْهُ بِهَذَا الْوَصْفِ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَ بِذَلِكَ يَبْدُو أَنَّ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ مِنْ أَنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ مِنَ الْأَصْنَامِ كَانَ شَرْكاً فِي الْعِبَادَةِ، إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنَّ الْمَدْعُوعَ عِنْدَ الدَّاعِي كَانَ إِلَهاً أَوْ رَبِّياً مُسْتَقِلاً فِي التَّصَرُّفِ فِي شَأْنِ مَنْ شِئُونُ وَ جُودُهُ أَوْ فَعْلُهُ. قَالَ سُبْحَانَهُ: «الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَضْرِكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (٢) تَرَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْتَنْكِرُ دَعَاءَهُمْ بِقَوْلِهِ: «لَا يَسْمَعُونَ نَضْرِكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» وَ قَوْلُهُ: «عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ» (٣) مُذَكِّراً بِأَنَّ عَقِيدَتَهُمْ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ عَقِيدَةٌ كَاذِبَةٌ وَ بَاطِلَةٌ فَالْأَصْنَامُ لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ أَحَدٍ، وَ هَذَا يَكْشِفُ عَنِ أَنَّ الدَّاعِينَ كَانُوا عَلَى جَانِبِ النَّقِيضِ مِنْ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ وَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِتَمَلُّكِ الْأَصْنَامِ لِنَصْرِهِمْ وَ قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ.

وَ حَصِيلَةُ الْبَحْثِ: أَنَّ الدَّعَاءَ لَيْسَ مُرَادِفاً لِلْعِبَادَةِ، وَ مَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ وَ الْحَدِيثِ مِنْ تَفْسِيرِ الدَّعَاءِ بِالْعِبَادَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُسْتَدَلُّ، فَالْمُرَادُ مِنَ الدَّعَاءِ فِيهِمَا قِسْمٌ خَاصٌّ مِنْهُ، وَ هُوَ الدَّعَاءُ الْمَقْتَرَنُ بِاعْتِقَادِ الْأُلُوهِيَّةِ فِي الْمَدْعُوعِ وَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْمَطْلُوبِ مِنْهُ كَمَا عَرَفْتَ.

١- النمل: ٦٠ و غيرها.

٢- الأعراف: ١٩٧.

٣- الأعراف: ١٩٤.

المبحث الثامن الشفاعة في الأحاديث الإسلاميه

اشاره

لقد اهتمّ الحديث بأمر الشفاعة و حدودها و شرائطها و أسبابها و موانعها اهتماماً بالغاً لا يوجد له مثيل إلّا في موضوعات خاصه تتمتع بالأهميه القصوى، و أنت إذا لاحظت الصحاح و المسانيد و السنن و سائر الكتب الحديثيه لوقفت على جمهوره كبرى من الأحاديث حول الشفاعة بحيث تدفع الإنسان إلى الإذعان بأنّها من الأصول المسلّمه في الشريعة الإسلاميه. و لأجل هذا التضافر نرى أنفسنا في غنى عن المناقشه في الاسناد.

نعم لو كانت هناك روايه اختصت بنكته خاصه غير موجوده في الروايات الأخر فإثبات النكته الخاصه يحتاج إلى ثبوت صحه سندها كما هو المحقق في علم الحديث.

و لما كانت الأحاديث حول الشفاعة و فروعها كثيره جداً، و مبثوثه في الكتب جمعناها في هذه الصحائف تحت عناوين خاصه، و لسنا ندعى أننا قد أحطنا بكل الأحاديث في هذا المجال، و إنّما ندعى أننا قد جئنا بقسم كبير من الأحاديث «(١)».

١- لقد جمع العلامة المجلسي أحاديث الشفاعة الوارده من طرق أئمه أهل البيت في موسوعته «بحار الأنوار» فلاحظ ٨: ٢٩-٦٣ كما أنّه أورد بعضها في الأجزاء التاليه من موسوعته: بحار الأنوار ١٠٠: ١١٦، ١٦٢، ١٧٠، ٢٦٥، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٧٦، ٣٧٩، و لاحظ ١٠١: ٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٧٢، ٣٧٤، و لاحظ ١٠٢: ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٦، ٤٤، ٤٧، ٧١، ١٧١، ١٨١، ١٨٣، إلى غير ذلك من الموارد. و عقد أحمد بن محمد بن خالد البرقي باباً للشفاعة في موسوعته «المحاسن» فلاحظ ١: ١٨٤.

أحاديث الشفاعة عند أهل السنّة:

«(١)»

١- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «لكلّ نبيّ دعوه مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته و أنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي و هي نائلة من مات منهم لا يشرك باللّٰه شيئاً» «(٢)»

٢- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «اعطيت خمساً... و اعطيت الشفاعة فادّخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك باللّٰه شيئاً» «(٣)»

٣- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «شفاعتي نائلة إن شاء الله من مات و لا يشرك باللّٰه شيئاً» «(٤)»

١- و قد عقد العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندي المتوفى ٩٧٥ هـ باباً خاصاً للشفاعة نقل فيه طائفه من الأخبار، فلاحظ كنز العمال ٤: ٦٣٨-٦٤٠. كما عقد الشيخ منصور على ناصف في كتابه التاج الجامع للأصول أبواباً للشفاعة لاحظ التاج ٥: ٣٤٨-٣٦٠ و قد جاء فيها بأحاديث طوال قد أخذنا موضع الحاجة منها. غير أنّ ملاحظه مجموع الأحاديث لا تخلو عن فائده. و عقد النسائي في سننه أبواباً أربعه خاصه للشفاعة لاحظ ٣: ٦٢٢ ط دار إحياء التراث الإسلامى.

٢- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٠، و بهذا المضمون راجع مسند أحمد ١: ٢٨١، و موطأ مالك ١: ١٦٦، و سنن الترمذى ٥: ٢٣٨، و سنن الدارمى ٢: ٣٢٨، و صحيح مسلم ١: ١٣٠، و صحيح البخارى ٨: ٨٣ و ٩: ١٧٠.

٣- مسند أحمد ١: ٣٠١ و ٤: ٤١٦ و ٥: ١٤٨ و بهذا المضمون سنن النسائي ١: ١٧٢، و سنن الدارمى ١: ٣٢٣ و ٢: ٢٢٤، و صحيح البخارى ١: ٩٢ و ١١٩.

٤- مسند أحمد ٢: ٤٢٦.

٤- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله في تفسير قوله: «عسى أن ينعنك ربك مقاماً محموداً»: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»
«(١)»

٥- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «أنا أول شافع و أول مشفع» «(٢)»

٦- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه و لسانه قلبه» «(٣)»

٧- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي» «(٤)»

٨- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «رأيت ما تلقى أمتي بعدى (أى من الذنوب) فسألت الله أن يوليني شفاعته يوم القيامة فيهم ففعل» «(٥)»

٩- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه» «(٦)»

١٠- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «أنا أول شافع في الجنة» «(٧)»

١١- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «شفاعتي لكل مسلم» «(٨)»

١٢- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين و خطيبهم و صاحب شفاعتهم غير فخر» «(٩)»

- ١- مسند أحمد ٢: ٥٢٨، ٤٤٤، ٤٧٨؛ سنن الترمذى ٣: ٣٦٥.
- ٢- سنن الترمذى ٥: ٤٤٨؛ سنن الدارمى ١: ٢٦ و ٢٧.
- ٣- مسند أحمد ٢: ٣٠٧ و ٥١٨.
- ٤- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤١؛ و بهذا المضمون مسند أحمد ٣: ٢١٣، و سنن أبى داود ٢: ٥٣٧، و سنن الترمذى ٤: ٤٥.
- ٥- مسند أحمد ٦: ٤٢٨.
- ٦- صحيح البخارى ١: ٣٦.
- ٧- صحيح مسلم ١: ١٣٠؛ سنن الدارمى ١: ٢٧.
- ٨- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٤.
- ٩- سنن الترمذى ٥: ٢٤٧؛ سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٣.

١٣- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «أنا سيد ولد آدم و أول شافع و أول مشفع و لا فخر» [\(١\)](#).

١٤- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجره و مدره» [\(٢\)](#).

١٥- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «ليخرجن قوم من أمتي من النار بشفاعتي يسمون الجهنميين» [\(٣\)](#).

١٦- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «خُيرت بين الشفاعة و بين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم و أكفى، أترونها للمتقين؟ لا، و لكنّها للمذنبين الخطّائين المتلوّثين» [\(٤\)](#).

١٧- و حكى أبو ذر: أنّ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ليلى فقرأ آيه حتى أصبح يركع بها و يسجد بها: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [\(٥\)](#) فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها و تسجد بها، قال: «إني سألت ربي عزّ و جلّ الشفاعة لأمتي فأعطاها فهي نائله إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عزّ و جلّ شيئاً» [\(٦\)](#).

١٨- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «يشفع النبيون و الملائكة و المؤمنون، فيقول الجبار:

بقيت شفاعتي» [\(٧\)](#).

١- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٠؛ و بهذا المضمون صحيح مسلم ٧: ٥٩، و مسند أحمد ٢: ٥٤٠.

٢- مسند أحمد ٥: ٣٤٧.

٣- سنن الترمذى ٤: ١١٤؛ سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٣؛ بهذا المضمون مسند أحمد ٤: ٤٣٤، و سنن أبي داود ٢: ٥٣٧.

٤- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤١.

٥- المائدة: ١١٨.

٦- مسند أحمد ٥: ١٤٩.

٧- صحيح البخارى ٩: ١٦٠؛ و بهذا المضمون مسند أحمد ٣: ٩٤.

١٩- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ يَخْرُجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ» (١)

٢٠- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشَّهَدَاءُ» (٢)

٢١- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «فَإِذَا فَرَغَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ وَأَخْرَجَ مِنَ النَّارِ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَالرَّسُلَ أَنْ تَشْفَعُوا فَيَعْرِفُونَ بَعْلَمَاتِهِمْ: إِنَّ النَّارَ تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا مَوْضِعَ السُّجُودِ» (٣)

٢٢- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «... فَيُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيُشْفَعُونَ وَيَخْرُجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ» (٤)

٢٣- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إِذَا مَيَّزَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ، فَدَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ قَامَتِ الرَّسُلُ وَشَفَعُوا» (٥)

٢٤- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «يَشْفَعُ الْأَنْبِيَاءُ فِي كُلِّ مَنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا» (٦)

٢٥- ذَكَرْتُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَعْضُونَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ... وَبِجَنَّتِيهِ الْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ...» (٧)

٢٦- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله في حديث: «أُمَّيَا أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ نَارٌ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً،

٢- سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٣.

٣- سنن النسائي ٢: ١٨١.

٤- مسند أحمد ٥: ٤٣ بتلخيص منّا.

٥- مسند أحمد ٣: ٣٢٥.

٦- مسند أحمد ٣: ١٢.

٧- مسند أحمد ٣: ٢٦.

حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فيخرجون ضبائر ضبائر» (١)

٢٧- قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «... فيشفعون حتى يخرج من قال لا إله إلا الله ممن في قلبه ميزان شعيره» (٢)

٢٨- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يشفع الشهيد في سبعين إنساناً من أهل بيته» (٣)

٢٩- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من تعلم القرآن (من قرأ القرآن) فاستظهره فأحلّ حلاله وحرّم حرامه أدخله الله به الجنة وشفّعه في عشره من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار» (٤)

٣٠- قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «إذا بلغ الرجل التسعين غفر الله ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر و سمى أسير الله في الأرض، و شفّعه في أهله» (٥)

٣١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» (٦)

٣٢- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعه و مضر» (٧)

٣٣- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحنّين أو مثل أحد الحنّين ربيعه و مضر» (٨)

٣٤- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل من أمتي ليشفع للفئام من الناس

-
- ١- مسند أحمد ٣: ٧٩؛ وبهذا المضمون سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤١، و سنن الدارمي ٢: ٣٣٢، و مسند أحمد ٣: ٥.
 - ٢- مسند أحمد ٣: ٣٤٥.
 - ٣- سنن أبي داود ٢: ١٥؛ وبهذا المضمون مسند أحمد ٤: ١٣١، و سنن الترمذى ٣: ١٠٦.
 - ٤- سنن الترمذى ٤: ٢٤٥؛ سنن ابن ماجه ١: ٧٨؛ مسند أحمد ١: ١٤٨ و ١٤٩.
 - ٥- مسند أحمد ٢: ٨٩، وبهذا المضمون ما فى ٣: ٢١٨.
 - ٦- سنن الدارمي ٢: ٣٢٨؛ سنن الترمذى ٤: ٤٦؛ سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٤؛ مسند أحمد ٣: ٤٧٠ و ٣٦٦.
 - ٧- مسند أحمد ٤: ٢١٢.
 - ٨- مسند أحمد ٥: ٢٥٧.

فدخلون الجنة، وإنَّ الرجل ليشفع للقبيله، وإنَّ الرجل ليشفع للعصبه، وإنَّ الرجل ليشفع للثلاثه، وللرجلين، وللرجل» (١)

٣٥- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «يصف الناس (أهل الجنة) صفوفاً: فيمر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استقيت فسقيتك شربه؟ قال:

فيشفع له، ويمرّ الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهوراً؟ فيشفع له» (٢)

٣٦- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله في حديث: «لا يصبر على لأوائها (أى المدينه) وشدتها إلّا كنت له شفيحاً أو شهيداً يوم القيامه» (٣)

٣٧- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله لخادمه: «ما حاجتك؟ قال: حاجتى أن تشفع لى يوم القيامه، قال: و من دلّك على هذا؟ قال: ربي، قال: أما فأعنى بكثرة السجود» (٤)

٣٨- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «منصلى على محمد و قال: اللهم أنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامه، وجبت له شفاعتى» (٥)

٣٩- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوه تامه و الصلاه القائمه آت محمداً الوسيه و الفضيله و ابعته مقاماً محموداً الذى وعدته» حلت له شفاعتى يوم القيامه» (٦)

٤٠- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا علىّ؛ فإنّه من صلّى علىّ صلّى الله عليه عشراً، ثمّ سلوا الله عزّ و جلّ لى

٢- سنن ابن ماجه ٢: ١٢١٥.

٣- موطأ مالك ٢: ٢٠١؛ مسند أحمد ٢: ١١٩ و ١٣٣ و مواضع أخر من هذا الكتاب.

٤- مسند أحمد ٣: ٥٠٠، و بهذا المضمون ما في ٤: ٥٩.

٥- مسند أحمد ٤: ١٠٨.

٦- صحيح البخارى ١: ١٥٩؛ و بهذا المضمون ما في مسند أحمد ٣: ٣٥٤، و سنن ابن ماجه ١: ٢٣٩، و سنن الترمذى ١: ١٣٦، و

سنن النسائى ٢: ٢٢، و سنن أبى داود ١: ١٢٦.

الوسيله؛ فمن سأل الله لى الوسيله حلت عليه الشفاعه» (١)

٤١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من غشَّ العرب، لم يدخل فى شفاعتى و لم تنله موذتى» (٢)

٤٢- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ اللغائين لا يكونون شهداء ولا شفعااء يوم القيامة» (٣)

٤٣- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تعلموا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة» (٤)

٤٤- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ سورة من القرآن ثلاثين آيه شفعت لرجل حتى غفر له و هى: تبارك الذى بيده الملك» (٥)

٤٥- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصيام و القرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى ربى منعتك الطعام و الشهوات بالنهار فشفعنى فيه، و يقول القرآن:

منعتك النوم بالليل فشفعنى فيه، قال: فيشفعان» (٦)

٤٦- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أقربكم منى غداً و أوجبكم على شفاعه:

أصدقكم لساناً و أذاكم لأمانتكم، و أحسنكم خلقاً، و أقربكم من الناس» (٧)

١- سنن أبى داود ١: ١٢٤؛ صحيح مسلم ٢: ٤؛ سنن الترمذى ٥: ٢٤٦ و ٢٤٧؛ سنن النسائى ٢: ٢٢؛ و مسند أحمد ٢: ١٦٨.
 ٢- مسند أحمد ١: ٧٢. و لا يتوهم أن هذا الحديث تكريس للقوميه المبعوضه فى الإسلام؛ لأن من المعلوم أن المراد من العرب المسلمين فىكون بمنزله « من غشَّ مسلماً فليس بمسلم» لأن المسلم يوم ذاك كان منحصرأ فى العرب.
 ٣- مسند أحمد ٦: ٤٤٨؛ صحيح مسلم ٨: ٢٤.

٤- مسند أحمد ٥: ٢٥١.

٥- مسند أحمد ٢: ١٩٩ و ٣٢١؛ سنن الترمذى ٤: ٢٣٨.

٦- مسند أحمد ٢: ١٧٤.

٧- تيسير المطالب فى أمالى الإمام على بن أبى طالب، تأليف السيد يحيى بن الحسين من أحفاد الإمام زيد المتوفى ٤٢٤ هـ، ص

٤٤٢-٤٤٣.

٤٧- روى أنس بن مالك عن أبيه قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله أن يشفع لى يوم القيامة فقال: «أنا فاعل»، قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: «اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «فاطلبنى عند الميزان»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فاطلبنى عند الحوض فأنى لا أخطئ هذه الثلاث المواطن» (١)

٤٨- قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «أنا سيد الناس يوم القيامة... ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه و اشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: يا ربى أمتى يا ربى أمتى يا ربى أمتى، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة» (٢)

٤٩- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا أول الناس يشفع فى الجنة و أنا أكثر الأنبياء تبعاً» (٣)

٥٠- أخرج ابن مردويه عن طلق بن حبيب: كنت أشد الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق أتراك أقرأ لكتاب الله و أعلم لسنة رسول الله منى؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون، و لكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صممتا إن لم أكن سمعت رسول الله يقول: يخرجون من النار بعد ما دخلوا، و نحن نقرأ كما قرأت.

و عن ابن أبى حاتم عن يزيد الفقير، قال: جلست إلى جابر بن عبد الله و هو يحدث، فحدث أن ناساً يخرجون من النار، قال: و أنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت

١- سنن الترمذى ج ٤ الباب التاسع، الحديث ٢٥٥٠.

٢- سنن الترمذى ج ٤ الباب العاشر، الحديث ٢٥٥١.

٣- صحيح مسلم ١: ١٣٠.

وقلت: ما أعجب من الناس و لكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أنّ الله يخرج ناساً من النار و الله يقول: «يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا» (١) فانتهرنى أصحابه و كان أحلمهم، فقال: دعوا الرجل إنّما ذلك للكفار، فقرأ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَرِدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» حتى بلغ «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» (٢) أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته، قال: أليس الله يقول: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» (٣) فهو ذلك المقام فإنّ الله تعالى يحتبس أقواماً بخطاياهم فى النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به... (٤).

*** هذه خمسون حديثاً رواها أهل السنّة عن النّبى الأعظم صلى الله عليه و آله و لو أضفنا إليها الصور المختلفه لكل حديث لتجاوز عدد الأحاديث المائه حديث، و لكن اكتفينا بهذا المقدار و أشرنا إلى المواضع التى نقلت فيها صورها المختلفه و الناظر فيها يدعن بأنّ الاعتقاد بالشفاعه كان أمراً مسلماً بين جماهير المسلمين كما يدعن بأنّها لم تكن عندهم مطلقه عن كل قيد، بل لها شرائط خصوصاً فى جانب المشفوع له، و أنّ هناك شفعاء و سنشير فى خاتمه المطاف إلى فذلكه الروايات و عصارته فى المواضع المختلفه.

هلمّ معى نقرأ ما روته الإماميه فى هذا الباب من الأحاديث الكثيره عن النّبى

١- المائده: ٣٧.

٢- المائده: ٣٦-٣٧.

٣- الإسراء: ٧٩.

٤- تفسير ابن كثير ٢: ٥٤ كما فى حياه الصحابه للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى ٣: ٤٧١-٤٧٢.

الأكرم و الأئمة المعصومين، و لأجل سهوله الإرجاع إليها نحافظ على التسلسل المذكور فى الأحاديث السابقه.

أحاديث الشفاعة عند الشيعة الإماميه

٥١- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إِنِّي لِأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ أَشْفَعُ، وَ يَشْفَعُ عَلِيُّ فَيُشْفَعُ، وَ يَشْفَعُ أَهْلُ بَيْتِي فَيُشْفَعُونَ» (١)

٥٢- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا... أَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ» (٢)

٥٣- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي مَسْأَلَهُ فَادَّخَرْتُ مَسْأَلَتِي لِشَفَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ففَعَلَ ذَلِكَ» (٣)

٥٤- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ سَيَدْخُلُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مِضْرٍ» (٤)

٥٥- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» (٥)

٥٦- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «الشَّفَعَاءُ خَمْسَةٌ: الْقُرْآنُ، وَ الرَّحْمُ، وَ الْأَمَانَةُ، وَ نَبِيِّكُمْ، وَ أَهْلُ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» (٦)

٥٧- قال رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله: «يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّ رَبِّي عَبْدُكَ فَلَانَ سَقَانِي شَرِبَهُ مِنْ مَاءٍ فِي الدُّنْيَا، فَشَفَّعَنِي فِيهِ فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَأُخْرِجْهُ

١- مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٥؛ و بهذا المضمون فى مجمع البيان ١: ١٠٤.

٢- من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٥.

٣- أمالى الطوسى: ص ٣٦.

٤- مجمع البيان ١٠: ٣٩٢.

٥- من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦.

٦- مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٤.

من النار فيذهب فيتجسس في النار حتى يخرج منه» (١)

٥٨- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أدخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (٢)

٥٩- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أدنى المؤمنين شفاعته ليشفع في أربعين من إخوانه» (٣)

٦٠- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيما أمرأهصلت في اليوم والليله خمس صلوات، وصامت شهر رمضان، وحبّت بيت الله الحرام، وزكّت مالها، وأطاعت زوجها، ووالت علياً بعدى دخلت الجنة بشفاعه بنتى فاطمه» (٤)

أحاديث الشفاعه عن الإمام علي عليه السلام:

٦١- قال علي عليه السلام: «لنا شفاعه ولأهل مودتنا شفاعه» (٥)

٦٢- قال علي عليه السلام: «ثلاثه يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء» (٦)

٦٣- قال علي عليه السلام لولده محمد الحنفية: «أقبل من متنّصل عذره، فتناكك الشفاعه» (٧)

٦٤- قال علي عليه السلام: «اعلموا أنّ القرآن شافع و مشفّع، وقائل ومصدّق، وأنّه من شفّع له القرآن يوم القيامه شفّع فيه» (٨)

١- مجمع البيان ١٠: ٣٩٢.

٢- مجمع البيان ١: ١٠٤، و يقول الطبرسي: إنّ هذا الحديث ممّا قبلته الأمة الإسلامية.

٣- مجمع البيان ١: ١٠٤.

- ٤- أمانى الصدوق: ص ٢٩١.
- ٥- خصال الصدوق: ص ٦٢٤.
- ٦- خصال الصدوق: ص ١٥٦.
- ٧- من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٧٩.
- ٨- نهج البلاغه: الخطبه ١٧١.

٦٥- قال على عليه السلام: «قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيشفّعي الله فيهم، والله لا تشفّعت فيمن آذى ذريتي» (١)

٦٦- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النيون والصدّيقون، و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون، و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبّونا فلم أزل واقفاً على الصراط أدعو و أقول: ربّ سلّم شيعتي و محبّي و أنصاري و من تولّاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أُجيبت دعوتك و شفّعت في شيعتك، و يشفع كل رجل من شيعتي و من تولّاني و نصرني و حارب من حاربنى بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه و أقربائه، و باب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله و لم يكن في قلبه مقدار ذرّه من بغضنا أهل البيت» (٢)

٦٧- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سمعت النبي يقول: إذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يا رسول الله إنّ الله جلّ اسمه قد أمكنك من مجازاه محبيك و محبّي أهل بيتك الموالين لهم فيك و المعادين لهم فيك فكافهم بما شئت فأقول: يا ربّ الجنة فأبوئهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به» (٣)

٦٨- عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قالت فاطمه عليها السلام لرسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم و يوم الأهوال و يوم الفرع الأكبر؟ قال: يا فاطمه عند باب الجنة و معي لواء الحمد و أنا الشفيح لأمتي إلى ربّي. قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني على الحوض و أنا أسقى أمتي، قالت: يا أبتاه إن لم

١- أمالي الصدوق: ص ١٧٧.

٢- بحار الأنوار ٨: ٣٩ نقلًا عن أمالي الصدوق: ص ٣٩.

٣- بحار الأنوار ٨: ٣٩-٤٠ نقلًا عن أمالي الصدوق: ص ١٨٧.

ألقك هناك؟ قال: ألقيني على الصراط و أنا قائم أقول: ربِّ سلِّم أُمَّتى، قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني و أنا عند الميزان، أقول: ربِّي سلِّم أُمَّتى، قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني على شفير جهنم أَمنع شررها و لهبها عن امتي فاستبشرت فاطمه بذلك، صلَّى الله عليها و على أبيها و بعلها و بنيتها» (١)

أحاديث الشفاعة عن سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام:

٦٩- قال الحسن عليه السلام: «إنَّ النبي قال في جواب نفر من اليهود سألوه عن مسائل: و أما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر ما خلا أهل الشرك و الظلم» (٢)

٧٠- عن الحسين عليه السلام و هو ينقل كلام جده معه في منامه قائلاً: «حبيبي يا حسين كأنني أراك عن قريب مرماً بدمائك مذبوحاً بأرض كربلاء- على أيدي عصابه من أمتي و أنت مع ذلك عطشان لا تسقى، و ظمآن لا تروى، و هم مع ذلك يرجون شفاعتي، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة» (٣)

٧١- قال علي بن الحسين عليهما السلام في الدعاء الثاني منصحيفته: «عرّفه في أهله الطاهرين، و أُمَّته المؤمنين من حسن الشفاعة، أجل ما وعدته» (٤)

٧٢- قال علي بن الحسين عليهما السلام: «اللهم صلِّ على محمد و آل محمد و شرّف بنيانه و عظم برهانه، و ثقل ميزانه، و تقبل شفاعته» (٥)

٧٣- قال علي بن الحسين عليهما السلام: «فإنني لم آتك ثقة مني بعمل صالح قدمته: و لا شفاعه مخلوق رجوته إلا شفاعه محمد و أهل بيته عليه و عليهم سلامك» (٦)

١- بحار الأنوار ٨: ٣٥ نقلًا عن أمالي الصدوق: ص ١٦٦.

٢- خصال الصدوق: ص ٣٥٥.

٣- مكاتيب الأئمة ٢: ٤١.

- ٤- الصّحيفه السّجّاديه، الدعاء الثّاني.
- ٥- الصّحيفه السّجّاديه، الدعاء الثّاني و الأربعون.
- ٦- الصّحيفه السّجّاديه: الدعاء الثّامن و الأربعون.

٧٤- قال علي بن الحسين عليهما السلام: «إلهي ليس لي وسيله إليك إلّا عواطف رأفتك، و لا ذريعه إليك إلّا عوارف رحمتك، و شفاعه نبيك نبي الأُمّة» (١)

٧٥- قال علي بن الحسين عليهما السلام: «صلّ علي محمد و آله و اجعل توسلي به شافعاً يوم القيامة نافعاً إنك أنت أرحم الراحمين» (٢)

٧٦- قال محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «إنّ لرسول اللّٰه صلى الله عليه و آله شفاعه في أُمَّته» (٣)

٧٧- قال محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «من تبع جنازه مسلم أعطى يوم القيامة أربع شفاعات» (٤)

٧٨- قال محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «يشفع الرجل في القبيله، و يشفع الرجل لأهل البيت، و يشفع الرجل للرجلين على قدر عمله، فذلك المقام المحمود» (٥)

٧٩- قال محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «إنّ أدنى المؤمنين شفاعه ليشفع لثلاثين إنساناً، فعند ذلك يقول أهل النار: فما لنا من شافعين، و لاصديق حميم» (٦)

٨٠- سئل محمد بن علي الباقر عليهما السلام عن أرجى آيه في كتاب الله؟ فقال الإمام عليه السلام للسائل (بشر بن شريح البصرى): «ما يقول فيها قومك»؟ قال: قلت: يقولون:

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»، قال: «لكننا أهل البيت لا نقول بذلك»، قال السائل: قلت: فأى شىء تقولون فيها؟ قال:

«نقول: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ» الشفاعه، و اللّٰه الشفاعه، و اللّٰه الشفاعه» (٧)

- ٢- ملحقات الصحيفة: ص ٢٢٩.
- ٣- المحاسن للبرقي: ص ١٨٤.
- ٤- التهذيب ١: ٤٥٥.
- ٥- مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٤.
- ٦- الكافي ٨: ١٠١، و بهذا المضمون في تفسير فرات الكوفي: ص ١٠٨.
- ٧- تفسير فرات الكوفي: ص ١٨.

٨١- دخل مولى لامرأه علي بن الحسين عليهما السلام على أبي جعفر (الباقر) يقال له أبو أيمن فقال: يغرون الناس فيقولون شفاعه محمد، قال: فغضب أبو جعفر حتى تربد وجهه، ثم قال: «ويحك يا أبا أيمن أغرّك أن عَفَّ بطنك و فرجك، أما والله لو قد رأيت أفزاع يوم القيامة لقد احتجت إلى شفاعه محمد، ويلك و هل يشفع إلّا لمن قد وجبت له النار» (١)

٨٢- عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لفاطمه وقفه على باب جهنم فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن أو كافر فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ بين عينيه محباً، فتقول: إلهي و سيدي سمّيتني فاطمه و فطمت بي من تولّاني و تولّى ذريتي من النار و وعدك الحق و أنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عزّ و جلّ: صدقت يا فاطمه إنّي سمّيتك فاطمه و فطمت بك من أحبك و تولّاك و أحب ذريتك و تولّاهم من النار و وعدى الحق، و أنا لا أخلف الميعاد و إنّما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك ليتبين لملائكتي و أنبيائي و رسلي و أهل الموقف موقفك منّي و مكانتك عندي فمن قرأت بين عينيه مؤمناً فجدبت بيده و أدخلته الجنة» (٢)

٨٣- قال جعفر بن محمد عليهما السلام: «و الله لنشفعنّ لشيعتنا، و الله لنشفعنّ لشيعتنا، و الله لنشفعنّ لشيعتنا حتى يقول الناس فما لنا من شافعين و لاصديق حميم» (٣)

٨٤- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «لكل مؤمن خمس ساعات يوم القيامة يشفع فيها» (٤)

١- المحاسن ١: ١٨٣.

٢- بحار الأنوار ٨: ٥١ نقلًا عن علل الشرائع: ص ١٧٨.

٣- مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٦٤.

٤- صفات الشيعة: ص ٣٦.

٨٥- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، و أما التائبون فإنَّ الله عزَّ و جلَّ يقول: ما على المحسنين من سبيل» [\(١\)](#)

٨٦- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «من أنكر ثلاثه أشياء فليس من شيعتنا: المعراج، و المساءله فى القبر، و الشفاعه» [\(٢\)](#)

٨٧- قال معاوية بن عمار لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «من ذا الذى يشفع عنده إلما بإذنه؟ قال: «نحن أولئك الشافعون» [\(٣\)](#)

٨٨- سئل جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام عن المؤمن هل يشفع فى أهله؟ قال: «نعم المؤمن يشفع فيشفع» [\(٤\)](#)

٨٩- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «إذا كان يوم القيامة نشفع فى المذنب من شيعتنا و أما المحسنون فقد نجاهم الله» [\(٥\)](#)

٩٠- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «نمجد ربنا و نصلّى على نبيّنا و نشفع لشيعتنا فلا يردنا ربّنا» [\(٦\)](#)

٩١- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «إنَّ المؤمن ليشفع لحميمه، إلّا أن يكون ناصباً، و لو أنّ ناصباً شفع له كل نبي مرسل و ملك مقرب ما شفّعوا» [\(٧\)](#)

٩٢- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «إنَّ الجار ليشفع لجاره و الحميم لحميمه، و لو أنَّ الملائكه المقربين و الأنبياء و المرسلين شَفَعُوا في ناصب

- ١- من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦.
- ٢- الأمل للشيخ الصدوق: ص ١٧٧.
- ٣- تفسير العياشي ١: ١٣٦، و بهذا المضمون في المحاسن: ص ١٨٣.
- ٤- المحاسن: ص ١٨٤.
- ٥- فضائل الشيعة للشيخ الصدوق: ص ١٠٩ ح ٤٥.
- ٦- المحاسن: ص ١٨٣، و بهذا المضمون في البحار ٨: ٤١ عن الإمام الكاظم عليه السلام.
- ٧- ثواب الأعمال: ص ٢٥١.

ما شَفَعُوا» (١)

٩٣- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ فَيُشْفَعُ فِيهِمْ حَتَّى يَبْقَى خَادِمَهُ فَيَقُولُ- فَيَرْفَعُ سَبَابَتِيهِ- يَا رَبِّ خَوَيْدُمِي كَانَ يَقِينِي الْحَرَّ وَالْبَرْدَ، فَيُشْفَعُ فِيهِ» (٢)

٩٤- كتب جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام إلى أصحابه: «و اعلموا أنه ليس يغنى عنهم من الله أحد من خلقه شيئاً، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعته الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه» (٣)

٩٥- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللَّهُ الْعَالَمَ وَالْعَابِدَ، فَإِذَا وَقَفَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قِيلَ لِلْعَابِدِ: انْطَلِقْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَقِيلَ لِلْعَالَمِ: قِفْ تَشْفَعُ لِلنَّاسِ بِحَسَنِ تَأْدِيبِكَ لَهُمْ» (٤)

٩٦- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام في تفسير قوله سبحانه: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» «لَا يَشْفَعُ وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ بَوْلَايَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَئِمَّةَ مِنْ وَلَدِهِ فَهُوَ الْعَهْدُ عِنْدَ اللَّهِ» (٥)

٩٧- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ فَلَا تَعُودُونَ وَتَتَكَلَّمُونَ عَلَيَّ شَفَاعَتَنَا، فَوَاللَّهِ لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا إِذَا رَكِبَ هَذَا (الزَّانَا) حَتَّى يَصِيبَهُ أَلَمُ الْعَذَابِ وَيَرَى هَوْلَ جَهَنَّمَ» (٦)

١- المحاسن: ص ١٨٤.

٢- بحار الأنوار ٨: ٥٦ و ٦١ نقلًا عن الاختصاص للمفيد و تفسير العياشي بتفاوت يسير.

٣- الكافي ٨: ١١.

٤- بحار الأنوار ٨: ٥٦ نقلًا عن عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق.

٥- تفسير علي بن ابراهيم القمي ص ٤١٧، و نقل عن الإمام الباقر أيضاً كما في البحار ٨: ٣٧.

٦- الكافي ٥: ٤٦٩؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٨.

٩٨- سئل جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام عن المؤمن هل له شفاعه؟ قال: «نعم»، فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعه محمد؟ قال: «نعم، إنَّ للمؤمنين خطايا وذنوباً و ما من أحد إلَّا يحتاج إلى شفاعه محمد يومئذٍ» (١)

٩٩- قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أو محمد بن علي الباقر عليهما السلام في تفسير قوله: «عسى أن يبعتك ربك مقاماً محموداً» قال: «هي الشفاعه» (٢)

١٠٠- عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن شفاعه النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة؟ قال: «يلجم الناس يوم القيامة العرق و يقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا عند ربّه، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا عند ربك فيقول: إن لي ذنباً و خطيئه فعليكم بنوح، فيأتون نوحاً فيردّهم إلى من يليه، و كلّ نبي يردّهم إلى من يليه حتى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمد رسول الله-صلى الله عليه و على جميع الأنبياء- فيعرضون أنفسهم عليه و يسألونه فيقول: انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة و يستقبل باب الرحمن و يخزّ ساجداً فيمكث ما شاء الله، فيقول عزّ و جلّ:

ارفع رأسك و اشفع تشفع و سل تعط و ذلك قوله: «عسى أن يبعتك ربك مقاماً محموداً» (٣).

١٠١- عن عيسى بن القاسم، عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنَّ أناساً من بنى هاشم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشى و قالوا: يكون لنا هذا السهم الذى جعله للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا بنى عبد المطلب إنَّ الصدقه لا تحل لي و لا لكم و لكنى و وعدت الشفاعه ثم قال: و الله

١- تفسير العياشى المعاصر للشيخ الكليني ٢: ٣١٤، و فى المحاسن ١: ١٨٤ و مع زيادات فى بحار الأنوار ٨: ٤٨.

٢- تفسير العياشى ٢: ٣١٤.

٣- بحار الأنوار ٨: ٣٥-٣٦ نقلًا عن تفسير على بن إبراهيم: ص ٣٨٧. الذنب الذى ورد فى الحديث بمعنى ما يتبع الإنسان لا بمعنى المعصيه، و على كل حال فحسنات الأبرار سيئات المقربين.

أشهد أنه قد وعدنا فما ظنكم يا بني عبد المطلب إذا أخذت بحلقه الباب أ تروني مؤثراً عليكم غيركم، ثم قال: إن الجن و الإنس يجلسون يوم القيامة فيصعيد واحد فإذا طال بهم الموقف طلبوا الشفاعة فيقولون: إلی من؟ فيأتون نوحاً فيسألونه الشفاعة، فقال: هيات قد رفعت حاجتي، فيقولون إلی من؟

فيقال: إلی إبراهيم...» (١)

١٠٢- عن سماعه، عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً» قال: «يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً و يؤمر الشمس فيركب على رءوس العباد و يلجمهم العرق، و يؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً، فيأتون آدم فيتشفعون منه فيدلهم على نوح، و يدلهم نوح على إبراهيم، و يدلهم إبراهيم على موسى، و يدلهم موسى على عيسى، و يدلهم عيسى فيقول:

عليكم بمحمد خاتم البشر، فيقول محمد: أنا لها، فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال له: من هذا- و الله أعلم- فيقول: محمد! فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربه فيخر ساجداً فلا يرفع رأسه حتى يقال له: تكلم و سل تعط و اشفع تشفع، فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجداً فيقال له مثلها فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد احترق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد صلى الله عليه و آله و هو قول الله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً» (٢).

١٠٣- قال موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام: «لما حضر أبي (جعفر بن محمد) الوفاة قال لي: يا بني إنه لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاه» (٣)

١- بحار الأنوار ٨: ٤٧-٤٨ و ذيل الحديث موافق لما تقدمه و لأجل ذلك تركناه.

٢- بحار الأنوار ٨: ٤٨-٤٩ نقلًا عن تفسير العياشي، و المراد من «استقبل ربه»: استقبل رضوانه أو باب رحمته أو ما يناسب ذلك كما ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

٣- الكافي ٣: ٢٧٠ و ٤٠١؛ التهذيب ٩: ١٠٧؛ بهذا المضمون في من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٣، و نقله الشيخ في التهذيب ٩: ١٠٦ عن الإمام الصادق عليه السلام.

١٠٤- قال موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام: «كان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يقول: لا تستخفوا بفقراء شيعه علي؛ فإنّ الرجل منهم ليشفع بعدد ربيعه و مضر» [\(١\)](#)

١٠٥- قال موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام: «شيعتنا الذين يقيمون الصلاه و يؤتون الزكاه و يحجون البيت الحرام و يصومون شهر رمضان و يوالون أهل البيت و يتبرءون من أعدائهم، و إنّ أحدهم ليشفع في مثل ربيعه و مضر فيشفعه الله فيهم لكرامته على الله عزّ و جلّ» [\(٢\)](#)

١٠٦- قال علي بن موسى الرضا عليهما السلام ناقلاً عن علي عليه السلام: «من كذب بشفاعه رسول الله لم تنله» [\(٣\)](#)

١٠٧- قال علي بن موسى الرضا عليهما السلام: «مذنبو أهل التوحيد لا يخلدون في النار و يخرجون منها و الشفاعه جائزه لهم» [\(٤\)](#)

١٠٨- قال علي بن موسى الرضا عليهما السلام ناقلاً عن آبائه عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريّتي، و القاضي لهم حوائجهم، و الساعي في أمورهم عند ما اضطرّوا إليه، و المحبّ لهم بقلبه و لسانه» [\(٥\)](#)

١٠٩- قال علي بن موسى الرضا عليهما السلام، ناقلاً عن آبائه عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي، ثمّ قال عليه السلام: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل»، قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله فما معنى قول الله عزّ و جلّ: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ

١- بحار الأنوار ٨: ٥٩؛ و بهذا المضمون في أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٣، و بشاره المصطفى: ص ٥٥.

٢- صفات الشيعة: ص ١٦٤، الحديث الخامس.

٣- عيون أخبار الرضا ٢: ٦٦.

٤- عيون أخبار الرضا ٢: ١٢٥.

٥- عيون أخبار الرضا ٢: ٢٤، و باختصار يسير في بشاره المصطفى: ص ١٤٠.

ارْتَضَى*؟ قال: «لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه» [\(١\)](#)

١١٠- قال على بن محمد الهادي عليهما السلام كما في زيارته الجامعه: «و لكم المودّه الواجبه و الدرجات الرفيعه و المقام المحمود، و المقام المعلوم عند الله عزّ و جلّ و الجاه العظيم، و الشأن الكبير و الشفاعه المقبوله» [\(٢\)](#)

١١١- قال الحسن بن على العسكري عليهما السلام ناقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في ضمن حديث: «لا يزال المؤمن يشفع حتى يشفع في جيرانه و خلطائه و معارفه» [\(٣\)](#)

١١٢- قال الحجه بن الحسن عليهما السلام في الصلوات المنقوله عنه: «اللّهَمّ صلّ على سيد المرسلين و خاتم النبيين و حجه ربّ العالمين، المرتجى للشفاعه» [\(٤\)](#)

هذه هي الأحاديث الواردة عن طرق الشيعة الإماميه و أنت إذا أضفتها إلى ما رواه أصحاب الصحاح و المسانيد، يتجلّى لك موقف الشفاعه في الشريعه الإسلاميه و انها من الأمور الثابته و القطعيه كما يتجلّى لك معناها إلى غير ذلك من الخصوصيات التي مرّ بيان الخلاف فيها.

ثمّ بقيت في المقام روايات مبعثره في الكتب و الصحاح و المسانيد، يستلزم جمعها أفراد رساله في المقام، و لأجل ذلك اكتفينا بما ذكرناه.

١- أمالي الصدوق: ص ٥.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٦.

٣- بحار الأنوار ٨: ٤٤.

٤- مصباح المتهجد: ص ٢٨٤.

بحث و تمحيص: حول الروايات الواردة في الشفاعة

خاتمه المطاف: بحث و تمحيص حول الروايات الواردة في الشفاعة

قد وقفت على النصوص و الروايات التي نقلناها من الصحاح و المسانيد لأهل السنّه و المجاميع الحديثيه للشيعة الإماميه و الواجب هنا هو الوقوف على مضمون هذه الروايات على وجه الاختصار و إليك ما تدلّ عليه تلك المأثورات:

١- استفاد من الروايات المختلفه أنّ الشفاعة من ضروريات التشيع و أنّ أئمه أهل البيت يجاهرون بذلك، فلاحظ الأرقام التاليه من الأحاديث المتقدمه: ٨٦، ١٠٦، ١٠٩.

٢- إنّ الدقه فيما مرّ من الروايات المتواتره يقضى ببطلان ما ذهب إليه المعتزله في معنى الشفاعة، و أنّ الحقّ في الشفاعة هو ما عليه جمهور المسلمين من أنّه عباره عن غفران الذنوب الكبيره ببركه شفاعة الشفيع و دعائه، فلاحظ الأرقام التاليه من الأحاديث المقدمه: ١، ٧، ١٥، ١٦، ٥٥، ٥٨، ٦٥، ٦٦، ٨٥، ١٠٩ و غيرها من الروايات.

٣- إنّ الشفاعة كما تحفظ من دخول النار توجب خروج المذنب من النار بعد الدخول فيها، فلاحظ الأرقام التاليه: ٢٦، ٥٠، ٥٧، ١٠٧ و غيرها.

٤- إنَّ شفاعه الشافعين مشروطه بوجود مؤهلات فى المشفوع لهم وقد جاءت شروطها فى الروايات. منها: أن لا يكون مشركاً، و منها: أن يكون مسلماً، و منها: أن يكون مؤمناً، و منها: أن يكون محباً لأهل البيت لا- ناصباً لهم العدا، و منها: أن لا يكون مستخفاً بالصلاه، نعم من كان مؤدياً للأمانه، و حسن الخلق، و قريباً من الناس يشفع قبل كل أحد، فلاحظ فى ذلك كلاً الأرقام التاليه: ٢، ٣، ٦، ٩، ١١، ١٧، ٢٤، ٩١، ٩٢، ١٠٣.

٥- إنَّ القرآن و إن أجمل مسأله الشفيع و لم يصرح فى ذلك إلّا فى مورد أو موردين، غير أن الأحاديث أعطتصوره مفضله عن الشفعاء، و إليك أسماءهم مع الإشاره إلى الأحاديث الداله عليها.

أ- الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التاليه من الأحاديث الماضيه: ٤، ٥، ٧، ٨، ١٠، ١٤، ٥٦، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ١٠٠، ١٠١.

ب- الملائكه من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التاليه: ١٨، ٢١، ٢٢.

ج- الأنبياء من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التاليه: ٢٠، ٢١، ٢٢.

د- أهل البيت من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التاليه: ٥١، ٥٦.

ه- على من الشفعاء، فلاحظ الرقم: ٦١.

و- فاطمه من الشفعاء، فلاحظ: ٦٠، ٨٢.

ز- العلماء من الشفعاء، فلاحظ: ٢٠، ٦٢، ٩٥.

ح- الشهداء من الشفعاء، فلاحظ: ٢٠، ٢٢، ٢٨، ٦٢.

ط- القرآن من الشفعاء، فلاحظ: ٤٣، ٤٤، ٥٦، ٦٤.

ى- متعلّم القرآن و العامل به من الشفعاء، فلاحظ: ٢٩.

ك- المؤمن من الشفعاء، فلاحظ: ٧٧، ٧٨، ٨٨، ٩١، ٩٣، ١٠٥، ١١١.

ل- من بلغ التسعين يشفع، لاحظ: ٣٠.

م- من كان حافظاً للرحم مؤدياً للأمانه يشفع، لاحظ: ٥٦.

ما ذكرناه عصاره هذه الروايات، و أمّا الوقوف على الجزئيات فيتوقف على ملاحظتها واحده بعد الأخرى.

الفصل السابع التوسّل

إشاره

مفهومه و أقسامه و حكمه

فى الشريعه الإسلاميه الغراء

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة والسلام على أشرف أنبيائه و أفضل سفرائه محمد و آله الطاهرين و على عباد الله الصالحين.

أما بعد: فقد خلق الله سبحانه العالم التكويني على أساس الأسباب و المسببات، فكل ظاهره في الكون سبب عادي يؤثر فيها بإذنه سبحانه، و ليس للعلم و العالم التجريبي شأن سوى الكشف عن تلك الروابط الموجوده بين الظواهر الكونيه، و كلما تقدّم العلم في ميادين الكشف، تتجلى تلك الروابط بأعمقصوره لدينا و الكل يدلّ على أنه سبحانه خلق النظام الكوني على أساس وسائل و أسباب تتبني مسبباتها بتنظيم منه سبحانه إذ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا» (١) و الماء سبباً للحياه فالكل مؤثرات فيما سواه حسب مشيئته و إذنه، قال سبحانه: «وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» (٢) و الباء في الآيه بمعنى السببيه و الضمير يرجع إلى الماء، و قال أيضاً: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ

١- يونس: ٥.

٢- البقره: ٢٢.

الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ» (١)، فالإيهصريحه فى تأثير الماء على الزرع، و أنه سبحانه أعطى له تلك المقدره و كلُّ من الأسباب جنود له سبحانه، قال: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» (٢) فإذا كانت الملائكه جنوداً لله تبارك و تعالى كما يقول سبحانه: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» (٣) فالأسباب العاديه التى تعتمد عليها الحياه الجسمانيه للإنسان، جنوده سبحانه فى عالم الماده و مظاهر إرادته و مشيئته.

و هذا ليس بمعنى تفويض النظام لهذه الظواهر الماديه، و القول بتأصيلها فى التأثير و استقلالها فى العمل، بل الكل متدلُّ بوجوده سبحانه، قائم به، تابع لمشيئته و إرادته و أمره.

هذا هو الذى نفهمه من الكون و يفهمه كل من أمعن النظر فيه، فكما أن الحياه الجسمانيه قائمه على أساس الأسباب و الوسائل، فهكذا نزول فيضه المعنوى سبحانه إلى العباد تابع لنظام خاص كشف عنه الوحي، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق ملائكته و أنبيائه و رسله و كتبه، فالله سبحانه هو الهادى، و القرآن أيضاً هادٍ، و النبى الأكرم أيضاً هادٍ و لكن فى ظل إرادته الله سبحانه، قال سبحانه: «وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (٤) و قال سبحانه: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (٥) و قال سبحانه فى حق نبيه: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٦).

١- السجده: ٢٧.

٢- المدثر: ٣١.

٣- التوبه: ٤٠.

٤- الأحزاب: ٤.

٥- الإسراء: ٩.

٦- الشورى: ٥٢.

فهدياه الله تعالى تصل إلى الإنسان عن طريق الأسباب و الوسائل التي جعلها الله سبحانه طريقاً لها و إلى هذا الأصل القويم يشير الإمام الصادق عليه السلام في كلامه و يقول: «أبى الله أن تجرى الأشياء إلّا بأسباب فجعل لكل شىء سبباً و جعل لكل سبب شرحاً» (١)

فعلى ضوء هذا الأساس فالعالم المعنوى يكون على غرار العالم المادى فلأسباب سياده و تأثير بإذنه سبحانه، و قد شاء الله أن يكون لها دور فى كلتا النشأتين، فلا ضير على من يطلب رضا الله أن يتمسك بالوسيلة، قال الله سبحانه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٢).

فالله سبحانه حثنا للتقرب إليه على التمسك بالوسائل و ابتغائها، و الآيه دعوه عامه لا تختص بسبب دون سبب، بل تأمر بالتمسك بكل وسيله توجب التقرب إليه سبحانه، و عندئذ يجب علينا التبع فى الكتاب و السنّه، حتى نقف على الوسائل المقربه إليه سبحانه، و هذا ممّا لا يعلم إلّا من جانب الوحى، و التنصيص عليه فى الشريعة، و لو لا ورود النص لكان تسميه شىء بأنه سبب للتقرب، بدعه فى الدين؛ لأنه من قبيل إدخال ما ليس من الدين فى الدين.

و نحن إذا رجعنا إلى الشريعة نقف على نوعين من الأسباب المقربه إلى الله سبحانه:

النوع الأول: الفرائض و النوافل التي ندب إليها الكتاب و السنّه، و منها التقوى، و الجهاد الواردان فى الآيه، و إليه يشير على أمير المؤمنين عليه السلام و يقول: «إنّ أفضل ما توّسل به المتوسّلون إلى الله سبحانه و تعالى، الإيمان به، و برسوله،

١- الكافى ١: ١٨٣.

٢- المائدة: ٣٥.

و الجهاد فى سبيله؛ فإِنَّه ذروه الإسلام، و كلمه الإخلاص؛ فإِنَّها الفطره، و إقام الصلاه؛ فإِنَّها المله، و إيتاء الزكاه؛ فإِنَّها فريضة واجبه، و صوم شهر رمضان؛ فإِنَّه جُنَّه من العقاب، و حجّ البيت و اعتماره؛ فإِنَّهما ينفيان الفقر، و يرحضان الذنب، و صله الرحم؛ فإِنَّها مثراه فى المال، و منسأه فى الأجل، و صدقه السرّ؛ فإِنَّها تكفّر الخطيئه، و صدقه العلانيه؛ فإِنَّها تدفع ميته السوء؛ و صنائع المعروف؛ فإِنَّها تقى مصارع الهوان» (١)

غير أنّ مصاديق هذا النمط من الوسيله لا تنحصر فيما جاء فى الآيه أو فى تلك الخطبه بل هى من أبرزها.

النوع الثانى: و سائل ورد ذكرها فى الكتاب و السنّه الكريمه، و حثّ عليها الرسول و توسّل بها الصحابه و التابعون و كلّها توجب التقرب إلى الله سبحانه، و هذا هو الذى نطلبه فى هذا الأصل حتى يعلم أنّ الوسيله لا تنحصر فى الفرائض و المندوبات الرائجه بل هناك وسائل للتقرب دلّت عليها السنّه، و هى التوسّل بالنبي الأكرم على أشكاله المختلفه التى سنذكرها، فهذا على عليه السلام يقول فى ذكر النبي صلى الله عليه و آله: «اللهم اعل على بناء البانين بناءه، و أكرم لديك نُزله، و شرفّ عندك منزله و آته الوسيله و أعطه السناء و الفضيله، و احشرنا فى زمرة» (٢)

فإذا وقفنا على أنّ النبي هو الوسيله المقربّه إلى الله، فتجب علينا مراجعه السنّه لنطلع على كيفية التوسّل به فهى تبين لنا تلك الكيفيه. فعلى من يطلب استجابته دعائه، أن يتوسّل إلى الله بأسباب جعلها الله سبحانه وسيله لهذا المبتغى.

١- نهج البلاغه: الخطبه ١١٠.

٢- المصدر نفسه: الخطبه ١٠٦.

التوسّل لغه و اصطلاحاً

التوسّل لغه من وسلت إلى ربّي وسيله: عملتُ عملاً أتقربُ به إليه، و توسّلت إلى فلان بكتاب أو قرابه، أى تقربتُ به إليه «(١)».

و قال الجوهرى فى الصحاح: الوسيله ما يتقرب به إلى الغير و الجمع: الوُسل و الوسائل «(٢)».

و نحن فى غنى عن تحقيق معنى الوسيله فى اللغه؛ لأنها من المفاهيم الواضحه لدينا و حقيقتها لا تتجاوز اتّخاذ شىء ذريعه إلى أمر آخر يكون هو المقصود و المبتغى، و هى تختلف حسب اختلاف المقاصد.

فمن ابتغى رضا الله تبارك و تعالى يتوسّل بالأعمال الصالحه التى بها يكتسب رضاه، و من طلب استجابته دعائه يتوسّل بشىء جُعِل فى الشريعه وسيله لها، و من أراد زياره بيت الله الحرام يتوسّل بما يوصله إليها، فوضوح معناه يبعثنا إلى أن نترك نقل أقوال اللغويين فى ذلك المضمّار و إن كانت أكثر كلماتهم فى المقام متماثله.

١- الخليل، ترتيب العين، ماده «وسل».

٢- الصحاح، ج ٥، ماده «وسل».

و المقصود من التوسّل في المقام، هو أن يقدّم العبد إلى ربّه شيئاً، ليكون وسيلةً إلى الله تعالى لأن يتقبّل دعاءه و يجيبه إلى ما دعا، و ينال مطلوبه، مثلاً إذا ذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا و مجده و قدسه و عظمه، ثمّ دعا بما بدا له، فقد اتّخذ أسماءه و سيله لاستجابته دعائه و نيل مطلوبه، و مثله سائر التوسّلات، و التوسّل بالأسباب في الحياه أمر فطرى للإنسان، فهو لم يزل يدق بابها ليصل إلى مسبباتها، و قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن تجرى الأشياء إلّا بأسباب فجعل لكل شىء سبباً» (١).

إنّ الوسيله إذا كانت و سيله عاديه للشىء و سبباً طبيعياً له، فلا يشترط فيها إلّا وجود الصله العاديه بين الوسيله و المتوسّل إليه، فمن يريد الشبع فعليه الأكل و لا- يريحه شرب الماء؛ إذ لاصله بين شرب الماء، و سدّ الجوع، فالعقلاء في حياتهم الدنيويه ينتهجون ذلك المنهج بوازع فطرى، أو بعامل تجريبي، نرى أنّ ذا القرنين عند ما دعى إلى دفع شرّ يأجوج و مأجوج اللّذين كانوا يأتیان من وراء الجبل و يفسدان و يقتلان و يغيران عليهم، لئى دعوتهم و تمسكك بالسبب الطبيعى القويم الذى يدفع به شرّهم فخاطبهم بقوله: «آتونى زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصِّدْفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» (٢).

ففى هذا الموقف العصبى توسّل ذو القرنين - ذلك الإنسان الإلهى - بسبب طبيعى؛ إذ إنّه وقف على الصله بين الوسيله و ما يهدف إليه، و هو سدّ الوديان بقطع الحديد حتى إذا ساوى بين الجبلين أمر الحدّادين أن ينفخوا فى نار الحديد التى أوقدت فيه حتى جعله ناراً، و عند ذلك قال: اتّونى نحاساً مذاباً أو صفراً مذاباً،

١- الكافى ١: ١٨٣.

٢- الكهف: ٩٦-٩٧.

حتى أصبَّه على السد بين الجبلين و ينسد بذلك النقب و يصير جداراً مصمتاً، فكانت حجارته الحديد و طينه النحاس الذائب.

ففى المورد و أضرابه التى بنيت عليها الحياه الإنسانيه فى هذا الكوكب، لا يشترط بين الوسيه و الهدف سوى الرابطه الطبيعيه أو العاديه التى كشف عنها العلم و تجربته و أميا التوسيل فى الأمور الخارجيه عن نطاق الأمور العاديه، فبما أن التعرّف على أسبابه خارج عن إطار العلم و تجربته بل يُعدّ من المكنونات الغيبيه، فلا يقف عليها الإنسان إلّا عن طريق الشرع و تنبيه الوحي، و بيان الأنبياء و الرسل و ما ذاك إلّا لأنهم هم الذين يرفعون الستار عن وجه الحقيقه و يصرّحون بالوسيله و يبينون بأنّ هنا كصله بينها و بين ما يبغيه الإنسان المتوسّل.

و هذا الأصل يبعثنا إلى أن لا نتوسل بشىء فيما نبتغيه من رضا الربّ، و غفران الذنوب و استجابته الدعاء و نيل المنى، إلّا عن طريق ما عينه الشارع و صرّح بأنّه وسيله لذلك الأمر، فالخروج عن ذلك الإطار يسقطنا فى مهاوى التشريع و مهالك البدع التى تعرّفت على مضاعفاتها.

فالمسلمون سلفهم و خلفهم، صحابيّهم و تابعيّهم، و التابعون لهؤلاء بإحسان فى جميع الأعصار ما كانوا يخرجون عن ذلك الخط الذى رسمناه، فما ندب إليه الشرع فى مجال التوسّل يأخذون به، و ما لم يذكره، أو نهى عنه يتركونه، و لا اعتبار بالبدع المحدثه التى ما أنزل الله بها من سلطان.

و ها نحن نتلو عليك التوسيلات المشروعه التى ندب إليها الشرع، و حثّ عليها النبى الأكرم و خلفاؤه مجتنبين عن الإسهاب فى الكلام، مقتصرين على اللبّ تاركين القشر.

اقسام التوسل

(١) التوسل بأسمائه وصفاته

أمر الله سبحانه عباده بدعائه بأسمائه الحسنی فقال تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١).

إنَّ الآيه تصف أسماءه كلها بالحسنى لحسن معانيها، من غير فرق بين ما يرجع إليصفات ذاته كالعالم و القادر، و الحى، و ما يرجع إليصفات فعله كالخالق و الرازق و المحيى و المميت، و من غير فرق بين ما يفيد التنزيه و رفع النقص كالغنى و القدوس، و ما يعرب عن رحمته و عفوه كالغفور و الرحيم، فعلى المسلم دعاؤه سبحانه بها فيقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا خالق السماوات و الأرض، يا غافر الذنوب و يا رازق الطفل الصغير. و ترك عمل الذين يعدلون بأسماء الله تعالى عما هي عليه فيسمون بها أصنامهم بالزيادة و النقصان، فيسمون أصنامهم باللات و العزى أخذاً من الله العزيز، سيجزون ما كانوا يعملون فى الآخرة.

فعند ما يذكره العبد بأسمائه التى تضمّنت كل خير و جمال، و رحمه و مغفره

و عزّه و قدره، ثم يعقبه بما يطلبه من مغفره الذنوب و قضاء الحوائج فيستجيب له سبحانه، و قد دلت على ذلك، الآثار الصحيحه التي نذكر منها ما يلي:

١- أخرج الترمذى عن عبد الله بن بريده عن أبيه أنّ رسول الله سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفواً أحد، فقال النبي: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، و إذا سُئِلَ به أعطى» (١)

و الحديث تضمّن بيان الوسيله، و التوسّل بالأسماء، و إن لم يأت فيه الغرض الذي لأجله سأل الله تعالى بأسمائه.

٢- عن أبي هريره قال: جاءت فاطمه إلى النبي صلى الله عليه و آله تسأله خادماً، فقال لها:

«قولى: اللهم ربّ السماوات السبع، و ربّ العرش العظيم، ربّنا و ربّ كل شىء و منزل التوراه و الإنجيل و القرآن، فلق الحبّ و النوى، أعوذ بك من شرّ كل شىء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شىء، و أنت الآخر فليس بعدك شىء، و أنت الظاهر فليس فوقك شىء، و أنت الباطن فليس دونك شىء، اقض عني الدين و أغنني من الفقر» (٢)

٣- و أخرج أحمد و الترمذى عن أنس بن مالك، أنّه كان مع رسول الله جالساً و رجل يصلّي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، أنت المَنَّان بديع السماوات و الأرض يا ذا الجلال و الإكرام يا حيّ يا قيوم، فقال النبي: «تدرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، و إذا سُئِلَ به أعطى» (٣)

١- الترمذى، الصحيح ٥: ٥١٥ برقم ٣٤٧٥، الباب ٦٥ من كتاب الدعوات.

٢- الترمذى، الصحيح ٥: ٥١٨ برقم ٣٤٨١، الباب ٦٨ من كتاب الدعوات.

٣- الترمذى، الصحيح ٥: ٥٤٩- ٥٥٠ برقم ٣٥٤٤، الباب ١٠٠ من كتاب الدعوات.

و فى روايات أئمه أهل البيت: نماذج من هذا النوع من التوسّل يقف عليها الذى يسبر رواياتهم و أحاديثهم.

٤- فقد روى الإمام الرضا عليه السلام عن جدّه محمد الباقر عليه السلام أنّه كان يدعو الله تبارك و تعالى فى شهر رمضان بدعاء جاء فيه: «اللّهمّ إنّى أسألك بما أنت فيه من الشأن و الجبروت، و أسألك بكلّ شأن وحده و جبروت وحدها، اللّهمّ إنّى أسألك بما تجيبنى به حين أسألك فأجبنى يا الله» (١)

٥- روى الشيخ الطوسى فى مصباحه عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام دعاءً باسم دعاء السمات مستهله:

«اللّهمّ إنّى أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعزّ الأجلّ الأكرم، الذى إذا دُعيتَ به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمه، انفتحت؛ و إذا دُعيتَ به على مضايق أبواب الأرض للفرج، انفرجت؛ و إذا دُعيتَ به على العسير ليسر تيسرت...» (٢)

إنّ ثناء الله و تقديسه و وصفه بما وصف به فى كتابه و سنّه نيّيه، يوجد أرضيهصالحه لاستجابته الدعاء، و يكشف عن استحقاق الداعى لرحمته و عفوه و كرمه.

و بما أنّ هذا القسم من التوسّل اتّفقت عليه الأئمّه سلفها و خلفها و لم يذكر فيه أىّ خلاف فلنقتصر فيه على هذا المقدار.

١- إقبال الأعمال: ٣٤٨، ط ١٤١٦ هـ.

٢- مصباح المتهدج: ص ٣٧٤.

التوسّل بالقرآن الكريم

(٢) التوسّل بالقرآن الكريم

إنّ الإنسان مهما كان مبدعاً في الوصف و التعبير، لا يستطيع أن يصف كلام الله العزيز بمثل ما وصفه به سبحانه، فقد وصف هو كتابه بأنّه نور، و كتاب مبین، و هدًى للمتّقين، نزل بالحقّ تبيّناً لكلّ شىء، إلى غير ذلك من المواصفات الواردة فيه.

و كتابه سبحانه، فعله، فالتوسّل بالقرآن و السؤال به، توسّل بفعله سبحانه و رحمته التي وسعت كل شىء، و مع ذلك كلّه يجب على المتوسّل، التحقّق من وجود دليل على جواز هذا النوع من التوسّل، لما عرفت من أنّ كل ما يقوم به المسلم من التوسّيلات يلزم أن لا يخذش أصل التوحيد و حرمة التشريع، و لحسن الحظ أنّك ترى وروده في الشرع.

روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين، أنّه مرّ على رجل يقصّ، فقال عمران: إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون سمعت رسول الله يقول: «اقرأوا القرآن و اسألوا الله تبارك و تعالى به قبل أن يجىء قوم يسألون به الناس» [\(١\)](#)

. فعموم لفظ الحديث

١- الإمام أحمد، المسند ٤: ٤٤٥. و رواه في كنز العمال عن الطبراني في الكبير، و البيهقي في شعب الإيمان، لاحظ ج ١: ١٦٠٨

يدلّ على جواز سؤاله سبحانه بكتابه المنزل ما شاء من الحوائج الدنيوية والأخروية.

و الإمعان في الحديث يرشدنا إلى حقيقته واسعه و هي جواز السؤال بكل من له عند الله منزله و كرامه، و ما وجه السؤال بالقرآن إلّا لكونه عزيزاً عند الله، مكرماً لديه، و هو كلامه و فعله، و هذا أيضاً متحقّق في رسوله الأعظم و أوليائه الطاهرين عليهم سلام الله أجمعين.

و ورد عن أئمة أهل البيت: أنه يستحبّ في ليله القدر أن يفتح القرآن فيقول:

«اللهمّ إنّي أسألك بكتابك المنزل و ما فيه، و فيه اسمك الأ-كبر و أسماؤك الحسنی و ما يخاف و يرجى أن تجعلني من عتقائك من النار» [\(١\)](#)

١- إقبال الأعمال: ص ٤١. رواه حرّيز بن عبد الله السجستاني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(٣) التوسّل بالأعمال الصالحة

إذا كان التوسّل بمعنى تقديم شىء إلى ساحة الله ليستجيب الدعاء، فلا شك في أنّ العمل الصالح أحسن شىء يتقرّب به الإنسان إلى الله تعالى، و أحسنُ وسيلةٍ يتمسك بها فتكون نتيجة التقرب هي نزول رحمته عليه و إجابته دعائه، و في بعض الآيات الكريمة تلميح إلى ذلك، و إن لم يكن فيها تصريح إلا أنّ السنّة النبويّه صرّحت بذلك، أمّا الآيات فنأتى بنموذجين منها:

١- «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (١).

ترى أنّ إبراهيم و ولده الحليم قدّما إلى الله تبارك و تعالى وسيله و هي بناء البيت، فعند ذلك طلبا من الله سبحانه عدّه أمور تجمعها الأمور التاليه:

تقبّل منّا، و اجعلنا مسلمين لك، و من ذرّيتنا أمة مسلمه لك، و أرنا مناسكنا، و تب علينا.

و الآيه و إن لم تكن صريحه فيما نبتغيه غير أنّ دعاء إبراهيم فى الظروف التى كان يرفع فيها قواعد البيت مع ابنه، ترشدنا إلى أنّ طلب الدعاء فى ذلك الطرف، لم يكن أمراً اعتبارياً، بل كانت هنا كصله بين العمل الصالح و الدعاء، و أنّه فى قراره نفسه تمسك بالأول ليستجيب دعاءه.

٢- قوله سبحانه: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ» (١).

ترى أنّه عطف طلب الغفران بالفاء على قوله: «رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا»، ففاء التفرّيع تعرب عنصله بين الإيمان و طلب الغفران.

و أنت إذا سبرت الآيات الكريمة تقف على نظير ذلك فكّلها من قبيل التلميح لا التصريح، غير أنّ فى السنّه النبويه تصريح على أنّ ذكر العمل الصالح الذى أتى به الإنسان لله تبارك و تعالى، يثير رحمته، فتنزل رحمته على عبده و يُستجاب دعاؤه، و قد روى الفريقان القصّه التاليه و فيها غنى و كفايه:

روى البخارى عن ابن عمران عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «بينما ثلاثه نفر ممّن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غارٍ فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنّّه و الله يا هؤلاء لا ينجيكم إلّا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنّه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللهمّ إن كنت تعلم أنّه كان لى أجير عمّل لى على فرق من أرز، فذهب و تركه، و إنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنّى اشترت منه بقرًا، و أنّه أتانى يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لى: إنّما لى عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنّها من ذلك

الْفَرَقَ، فساقها، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ كَانَ لِي أَبُوَانُ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ آتِيَهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبْنِ غَنَمٍ لِي فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَ قَدْ رَقَدَا، وَ أَهْلِي وَ عِيَالِي يَتَضَاغُونَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أُسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبُوَايَ، فَكْرَهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَ كْرَهْتُ أَنْ أَدْعُهُمَا فَيَسْتَكِنَا لِشَرِبَتِهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنُهُ عَمٌّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَ أَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمَكَّنْتَنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا فَقَالَتْ: أَتَقَى اللَّهَ وَ لَا تَفْضُ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقَمْتُ وَ تَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارًا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا» (١)

لم تكن الغاية من تحديث النبي بما ذكر إلا تعليم أمته حتى يتخذوا ذكر العمل الصالح وسيلة لاستجابته دعوتهم. و لو كان ذلك من خصائص الأمم الماضية لصرح بها. و قد رواه الفريقان باختلاف في اللفظ.

٣- روى البرقي أحمد بن خالد (ت ٢٧٤ هـ) في محاسنه، عن عبد الرحمن بن أبي نجران، عن المفضل بن صالح، عن جابر الجعفي، يرفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«خَرَجَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، فَيَبْنُونَ اللَّهُ فِي كَهْفٍ فِي قَلْبِ جَبَلٍ حَتَّى بَدَتْ صَخْرُهُ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ حَتَّى التَقَمَتْ بَابَ الْكَهْفِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ

١- البخاري، الصحيح ٤: ١٧٣، كتاب الأنبياء، الباب ٥٣؛ و رواه في كتاب البيوع، الباب ٩٨، و اللفظ لكتاب الأنبياء.

لبعض: عباد الله و الله ما ينجيكم مما وقعتم إلا أن تصدقوا الله، فهلموا ما عملتم لله خالصاً، فاتّما أسلمتم بالذنوب.

فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنّي طلبت امرأه لحسنها و جمالها، فأعطيت فيها مالاً ضخماً، حتى إذا قدرت عليها و جلست منها مجلس الرجل من المرأة و ذكرت النار، فقامت عنها فرعاً منك، اللهم فارع عنّا هذه الصخرة، فانصدعت حتى نظروا إلى الصدع.

ثم قال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنّي استأجرت قوماً يحرثون كل رجل منهم بنصف درهم، فلما فرغوا أعطيتهم أجورهم، فقال أحدهم: قد عملت عمل اثنين و الله لا آخذ إلاّ درهماً واحداً، و ترك ماله عندي، فبذرت بذلك النصف الدرهم في الأرض، فأخرج الله من ذلك رزقاً، و جاء صاحب النصف الدرهم فأراده، فدفعت إليه ثمن عشرة آلاف، فإن كنت تعلم أنّما فعلته مخافه منك فارع عنّا هذه الصخرة، قال: فانفرجت منهم حتى نظر بعضهم إلى بعض.

ثم إن الآخر قال: اللهم إن كنت تعلم أنّ أبي و أمي كانا نائمين، فأتيتهما بقعب من لبن، فخفت أن أضعه أن تمج فيه هامه، و كرهت أن أوقظهما من نومهما، فيشق ذلك عليهما، فلم أزل كذلك حتى استيقظا و شربا، اللهم فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك ابتغاء و جهك فارع عنّا هذه الصخرة، فانفرجت لهم حتى سهل لهم طريقهم، ثم قال النبي صلى الله عليه و آله: من صدق الله نجا»
«(١)»

٤- و قال الإمام الطبرسي: أصحاب الرقيم هم نفر الثلاثة الذين دخلوا في

١- نور الثقلين: الجزء ٣ في تفسير قوله: «أم حسبت أنّ أصحاب الكهف و الرقيم كانوا من آياتنا عجباً» الكهف: ٩ نقلًا عن محاسن البرقي في تفسير الآيه.

غار، فانسد عليهم، فقالوا: ليدع الله تعالى كل واحد منّا بعمله حتى يفرج الله عنا، ففعلوا، فنجاهم الله. رواه النعمان بن بشر مرفوعاً «(١)».

و لعل فيها غنى و كفايه و من أراد التوسع فعليه السبر فى غضون الروايات.

التوسّل بدعاء الرسول الأكرم

(٤) التوسّل بدعاء الرسول الأكرم

إنّ للنبي الأكرم مكانه المرموقه عند ربّه ليس لأحدٍ مثلها، فهو أفضل الخلقه، وقد بلغت عنايه القرآن الكريم بيان نواح من مناقبه إلى حد لا ترى مثل ذلك إلّا في حق القليل من أنبيائه، وربما يطول بنا الكلام إذا قمنا بعرض جميع الآيات الواردة في حقّه، و إنّما نشير إلى بعضها.

فقد أشار الذكر الحكيم إلى مكانته المرموقه و لزوم توقيره و تكريمه و أنّه لا يصلح دعاؤه كدعاء البعض للبعض بقوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (١) و قال سبحانه أيضاً: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» (٢).

و إلى كماله الرفيع و إمامته و كونه قدوه و أسوه للمؤمنين يتأسون به في قيمه و مثله العليا، بقوله سبحانه: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

١- الحجرات: ٢.

٢- النور: ٦٣.

يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (١).

و إلى عظمته و كرامته عند الله بحيث يصلّى عليه سبحانه و ملائكته فأمر المؤمنين أن يصلّوا عليه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٢).

و إلى صفاء نفسه و قوه روحه و جمال خلقه بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٣).

و إلى عكوفه على عباده ربّه و تهجده فى الليل و سهره فى طريق طاعه الله بقوله:

«إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ» (٤).

و إلى غزاره علمه بقوله: «وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» (٥).

و إلى أنه صلى الله عليه و آله أحد الأمانين فى الأرض بقوله: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ» (٦).

و قد بلغت كرامه الرسول - عند الله - إلى حدّ يتلو اسمه اسم الله و ينسب إليهما فعل واحد و يقول: «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولَهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» (٧).

و قال سبحانه: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَزْرًا عَظِيمًا» (٨).

١- الأحزاب: ٢١.

٢- الأحزاب: ٥٦.

٣- القلم: ٤.

٤- المزمل: ٢٠.

٥- النساء: ١١٣.

٦- الأنفال: ٣٣.

٧- التوبة: ٩٤.

٨- الأحزاب: ٧١.

و قال الله سبحانه: «وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» (١).

إلى غير ذلك من الآيات التي اقترن فيها اسم نبيه باسمه سبحانه و نسب إليهما فعل واحد و شهدت بكرامته عند الله و قربه منه، فإذا كانت هذه منزلته عند الله، فلا يرد دعاؤه، و تستجاب دعوته، فيكون دعاء مثل تلك النفس غير مردود، و المتمسك بدعائه متمسكاً بركن و وثيق و عماد رصين، و لأجل تلك الخصوصية نرى أنه سبحانه يأمر المذنبين من المسلمين بالتمسك بذيل دعائه، و يأمرهم بأن يحضروا الرسول الأعظم و يستغفروا الله في مجلسه و يسألوه أن يستغفر لهم أيضاً، فكان استغفاره لهم سبباً لنزول رحمته و قبوله توبتهم، قال سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (٢).

كما نرى أنه سبحانه في آية أخرى يندد بالمنافقين بأنه، إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لووا رءوسهم، يقول سبحانه: «وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» (٣).

و ما هذا إلا لأن دعاء الرسول دعاء مستجاب، و دعوته مقبولة، و استغاثته مستجابه، لأنه نابع من نفس طاهره مؤمنه راضيه مرضيه.

إن من الظلم الواضح تسويه دعاء النبي بدعاء سائر المسلمين و التعبير عن دعائهم صلى الله عليه و آله بدعاء الأخ المؤمن! و جعل الجميع تحت عنوان واحد، فإنّ لدعاء الأخ المؤمن مقاماً رفيعاً، و لكن أين هو من دعاء الرسول؟!

إنّ التوسل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجاً في الرسائل السابقة، فنرى أنّ

١- التوبه: ٧٤.

٢- النساء: ٦٤.

٣- المنافقون: ٥.

أبناء يعقوب بعد ما كُشِفَ أمرهم و بان ظلمهم توسلوا بدعاء أبيهم النبي و قالوا له:

«يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (١).

ففى هذه الآيات دلالة واضحة على أنّ رحمة الله الواسعة تارة تنزل على العبد مباشرة و بدون واسطه، و اخرى تنزل عن طريق أفضل خلائقه و أشرف رسله، بل مطلق رسله و سفرائه.

و فى ذلك دلالة على وهن ما يلوكه بعض أشدق الناس فيقولون: إنه سبحانه أعرف بحال عبده و أقرب إليه من جبل الوريد يراه و يسمع دعاءه؛ فلا حاجة لتوسط سبب و التوسل بمخلوق و... هذه الكلمات تصدر عمّن ليس له إمام بالقرآن الكريم و لا بالسنة النبويه و لا بسيره السلف الصالح؛ إذ ليس الكلام فى علمه سبحانه، بل الكلام فى أمر آخر و هو أنّ دعاء الإنسان الظالم لنفسه ربما لا يكون صاعداً إلى الله تبارك و تعالى و مقبولاً عنده، و لكنّه إذا ضمّ إليه دعاء الرسول أصبح دعاؤه مستجاباً و صاعداً إليه سبحانه.

و للشيخ محمد الفقى - من علماء الأزهر الشريف - كلام فى المقام نأتى بملخصه.

لقد شرف الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله بأسمى آيات التشريف، و كرمه بأكمل و أعلى آيات التكريم، فأسبغ عليه نعمه ظاهره و باطنه، و توجه بأعظم أنواع التيجان قدراً و ذكراً، و أرفع الأكاليل شأناً و خطراً. فذكر منزلته منه جلّ شأنه حياً و ميتاً فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٢) فأى تشريف أرفع و أعظم منصلاته سبحانه و تعالى هو و ملائكته عليه صلى الله عليه و آله؟ و أى تكريم أسمى بعد ذلك من دعوه عباده و أمره لهم بالصلاه

١- يوسف: ٩٧-٩٨.

٢- الأحزاب: ٥٦.

و السلام عليه صلى الله عليه و آله؟

و لم يقف تقدير الله تعالى له عند هذا التقدير الرائع، بل هناك ما يدعو إلى الإعجاب و يلفت الأنظار إلى تعظيم على جانب من الأهمية، أ لم ترفى قوله تعالى:

«لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (١) ما يأخذ بالألباب و يدهش العقول، فقد أقسم سبحانه و تعالى بنبيه في هذه الآية: «وَ إِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (٢) قال ابن عباس رضى الله عنه: ما خلق الله و لا ذراً و لا برأ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه و آله.

و ما سمعتُ أنه تعالى أقسم بحياه أحد غيره، و القرآن الكريم تفيض آياته بسمو مقامه، و توحى بعلو قدره، و جميل ذكره، فقد جعل طاعته صلى الله عليه و آله طاعه له تعالى و قوله عز من قائل: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (٣) و علق حبه تعالى لعباده على أتباعه صلى الله عليه و آله فيما بعث به و أرسل للعالمين، إذ يقول سبحانه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (٤).

و ممّا يدل على مبلغ تقديره، و مدى محبه الله تعالى، و تشريفه لرسوله صلى الله عليه و آله قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» (٥) الآية، قال على رضى الله عنه: «لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله عليه و آله لئن بعث و هو حى ليؤمنن به و لينصرنّه و يأخذ العهد».

ففى ملازمه جبريل له صلى الله عليه و آله من مكه إلى بيت المقدس أكبر مظهر من مظاهر الشرف و الفخار، و أسمى آيه من آيات التقدير للرسول الأعظم فى حياه الأمم

١- الحجر: ٧٢.

٢- الواقعة: ٧٦.

٣- النساء: ٨٠.

٤- آل عمران: ٣١.

٥- آل عمران: ٨١.

و تأريخها. فهذه الآيات التي قصصتها و جتكم بها و إن كانت كلها بصائر و هدى و رحمه لقوم يؤمنون لا أرى مانعاً من ذكر ما عداها، ففيها تنبيه الغافلين إلى مزيد من النظر فيما عساه أن يقنعهم و يهديهم إلى الإيمان بما جاءت به الآيات البينات، و ما يوحى به الدين و تعاليمه القويمه، فمن روائع ما يتمتع به من العظمه الصلاه عليه صلى الله عليه و آله عند بدء الدعاء و ختمه؛ فإن في ذلك القبول و الاستجابه، فقد صحَّح عن عمر و عليّ - رضی اللہ عنہما - أنَّهما قالاً لرجل دعا و لم يصلِّ على النبي صلى الله عليه و آله: «إنَّ الدعاء موقوف بين السماء و الأرض لا يرفع و لا تفتح له الأبواب حتى يصلِّي الدعاء على النبي صلى الله عليه و آله»، و مثل هذا لا يقال من قبيل الرأى فهو فى حكم المرفوع، بل قد ثبت هذا مرفوعاً إلى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله.

و أخيراً قد دلّ قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (١) على علوّ مكانته و جليل قدره و عظم شأنه؛ إذ المعنى فى ذلك أننا قرّنا اسمك باسمنا، و جعلنا الإيمان لا يتحقّق إلّا بالنطق بالشهادتين، و غير ذلك من براهين الشريعة و أدلّتها التى لا تحصى و لا يمكن أن تستقصى.

و إليك ما قاله حسان بن ثابت صاحب الرسول و شاعره:

أغزّ عليه للنّبوة خاتم من اللّٰه من نور يلوح و يشهد

و ضمّ الإله اسم النّبىّ إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

و شقّ له من اسمه ليُجَلَّه فذو العرش محمود و هذا محمد (٢)

إنّ السبب الواقعى لاستجابته دعائه إنّما هو روحه الطاهره و نفسه الكريمة

١- الانشراح: ٤.

٢- التوسّل و الزياره ص ١٥٦ - ١٦٠، و قد أورد فى بحثه كثيراً من الآيات التى تشهد على عظمه رسول اللّٰه و مكانته و قربه و قد لخصنا كلامه

و قربها من اللّٰه سبحانه، و هى التى تضىفى على الدعاء أثراً و تجعله صاعداً و مدعماً لدعاء الغير.

نعم هناك كلام فى اختصاص ذلك الأمر بحياه النبى الجسمانيه، أو يعمّ حياته البرزخيه التى فيها يُرزق و يفرح و يستبشر، فهناك من يخص الآيه بحياته الجسمانيه بحجه وروده فيها، و لكن الأدله التى سنبينها توقفك على جلى الحال، فانتظر...

التوسّل بدعاء النبيّ في حياته البرزخيه

(٥) التوسّل بدعاء النبيّ في حياته البرزخيه

اشاره

ذكرنا لك دعوه القرآن الكريم المذنبين للتوسّل بدعاء النبي الأكرم، و هناك من يخصّ مفاد الآيات بحياه النبي الجسمانيه قائلاً بانقطاعه عنّا بموته و انتقاله إلى الحياه البرزخيه، و ما ذلك إلّا أخذاً بظاهر الآيه الوارده في حياته الدنيويه، و هذه الفكره لها قيمتها لدى أصحابها، و لكن للمناقشه فيها مجال واسع. فاذا دلّت الآيات الكريمه و السنّه النبويه على امتداد حياته بعد انتقاله إلى البرزخ و وجود الصله بينه و بيننا، لزم القول بعموم مفاد الآيه و شمولها لما بعد الموت، خصوصاً إذا دعمها عمل السلف الصالح و التابعين لهم بإحسان، فهناك مواضيع من البحث لا يمكن القضاء البات فيها إلّا بعد دراستها في ضوء الكتاب و السنّه، و هذه المواضيع هي:

١- حياه الأنبياء و الأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ.

٢- وجود الصله بيننا و بينهم، حيث يسمعون كلامنا و يجيبون دعوتنا.

٣- سيره السلف الصالح على التوسّل بالنبيصلى الله عليه و آله بعد انتقاله إلى البرزخ.

و إليك دراسه المواضيع واحداً تلو الآخر.

الأول: حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ:

هذا الموضوع هو المهم بين المواضيع التي ذكرت، ويمكن الاستدلال عليه من خلال أمور بعضها يدل على حياتهم بصورة مباشرة و أخرى غير مباشرة، و إذا لاحظنا مجموع الأدلة نقطع بحياتهم البرزخية بلا ريب، و إليك هذه الأمور:

أ- دلت الآيات الشريفة على حياة الشهداء؛ حياة حقيقية مقترنه بآثارها من الرزق و الفرح و الاستبشار و درك المعاني و الحقائق، قال سبحانه: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا- هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

فألايه تدل على حياة الشهداء و ارتزاقهم عند ربهم مقترنه بالآثار الروحية من الفرح و الاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، و تبشيرهم على أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، إلى غير ذلك مما جاء في الآيتين.

إنَّ الله سبحانه يطرح حياتهم لأجل إظهار إكرامه و نعمته عليهم، و بذلك يرد الفكره السائده فيصدر الرساله من أن موت الشهيد انتهاءً لحياته. و إذا كان الشهداء أحياءً لأجل استشهادهم في سبيل دين الله الذي جاء به النبي الأكرم، فهل يتصور أن يكون الشهداء أحياءً، و لا يكون النبي - الأفضل - القائم حياً، و هذا ما لا تقبله الفطره السليمه، و أي مسلم لهج بخلافه فأنما يلهج بلسانه و ينكره بقلبه و عقله.

ب- هذا هو حبيب النجار لم يكن له شأن سوى أنه صدق المرسلين و لقي من قومه أذىً شديداً حتى قضى نجه شهيداً. فنرى أنه بعد موته خوطب بقوله سبحانه: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» ثم إنه بعد دخوله الجنة يتمنى عرفان قومه مقامه و مصيره بعد الموت فيقول: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» (١) فهو يتمنى في ذلك الحال لو أن قومه الموجودين في الدنيا علموا أن الله سبحانه غفر له و جعله من المكرمين، يتمنى ذلك لأجل أن يرغب قومه في مثل ثوابه و ليؤمنوا لينالوا ذلك.

و من المعلوم أن الجنة التي حلّ فيها حبيب النجار كانت قبل يوم القيامة، بشهادة أنه تمنى عرفان أهله مقامه و إكرام الله له و هم على قيد الحياة الدنيوية، و إن لحقهم العذاب بعد ذلك، قال: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ* إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ» (٢) فإذا كان الشهداء و الصالحون - أمثال حبيب النجار المصدق للرسول - أحياءً يرزقون فما ظنك بالأنبياء و الصديقين المتقدمين على الشهداء، قال سبحانه: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (٣) فلو كان الشهيد حياً يرزق فالرسول الأكرم الذي ربي الشهداء و استوجب لهم تلك المنزلة العليا، أولى بالحياة بعد الوفاة و بعدهم الصديقون.

ج- دلت الآيات الكريمة و البراهين العقلية على أن الموت ليس فناء الإنسان و نفاذه، و إنما هو انتقال من عالم إلى آخر، نعم الماديون المنكرون لعالم الأرواح،

١- يس: ٢٦ - ٢٧.

٢- يس: ٢٨ - ٢٩.

٣- النساء: ٦٩.

و النافون لما وراء الطبيعه يعتقدون بأن الموت فناء الإنسان و ضلاله فى الأرض بحيث لا يبقى شىء من بعد ذلك إلا الذرات الماديه المبعثره فى الأرض، و لهذا كانوا ينكرون إمكان إعاده الشخصيه البشريه؛ إذ ليس هناك شىء متوسط بين المبتدأ و المعاد.

و لهذا جاء الوحي يندد بتلك الفكره و يفند دليلهم المبني على قولهم: «أ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» فردهم بقوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (١).

و توضيح الرد أن الموت ليس ضلالاً فى الأرض و أن شخصيه الإنسان ليست هى الضاله الضائعه فى ثنايا التراب، و إنما الضال فى الأرض هو أجزاء البدن المادى، فهذه الأجزاء هى التى تتبعثر فى الأجواء و الأرض، و لكن هذه لا تشكل شخصيه الإنسان، بل شخصيته شىء آخر هو الذى يأخذه ملك الموت، و هو عند الله محفوظ، كما يقول: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» فإذا لا معنى للتوفى إلا الأخذ و هو أخذ الأرواح و الأنفس و نزعها من الأبدان و حفظها عند الله.

و هناك آيه أخرى تفسر لنا معنى التوفى بوضوح و أنه ليس بمعنى الموت و الفناء، بل الأخذ و القبض أى قبض شىء موجود و أخذ شىء واقعى، يقول سبحانه:

«اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (٢) فمفاد الآيه أن الله يقبض الأنفس و يأخذها فى مرحلتين: حين الموت و حين النوم، فما قضى عليها بعدم الرجوع إلى الدنيا أمسكها، و لم يردّها إلى الجسد، و ما لم يقض

١- السجده: ١٠- ١١.

٢- الزمر: ٤٢.

عليها كذلك أرسلها إلى أجل مسمى. كل ذلك يكشف عن أنّ الموت ليس فناءً للإنسانِ و آيه العدم، بل هناك انخلاع عن الجسد و ارتحال إلى عالم آخر.

د- و هناك كلمه قيمه لأبى الشهداء الحسين بن على عليه السلام توضح هذه الحقيقه إذ قال لأصحابه فى يوم عاشوراء: «صبراً يا بنى الكرام فما الموت إلّا قنطره تعبر بكم عن البؤس و الضراء، إلى الجنان الواسعه و النعم الدائمه، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، و ما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن و عذاب، إنّ أبى حدّثنى عن رسول الله: أنّ الدنيا سجن المؤمن، و جنّه الكافر، و الموت جسر هؤلاء إلى جنانهم، و جسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت و لا كُذبتُ» (١).

و فى هذه الآيات غنى و كفايه لثبوت الحياه البرزخيه للأنبياء و الشهداء و الصديقين، بل لغيرهم و قد شهدت بذلك الآيات الكريمه التى لا مجال لنقلها (٢)، و هذه الحقيقه ممّا أجمع عليها أئمه أهل السنّه، فهذا الإمام الأشعرى يقول: «و من عقائدنا أنّ الأنبياء: أحياء» و قد ألفت كتاباً أسماه «حياه الأنبياء» (٣).

فلنقتصر بهذا البيان فى إثبات الموضوع الأول و قد تركنا الاحتجاج على حياتهم بما ورد فى السنّه النبويه و سيوافيك بعضها فى المستقبل.

الثانى: الصله بين الحياه الدنيويه و الحياه البرزخيه:

هذا هو الموضوع الثانى من المواضيع الثلاثه التى يتوقف عليها إثبات ما هو المقصود فى هذا المبحث.

١- بلاغه الحسين: ص ٤٧.

٢- و قد أشبعنا الكلام فى ذلك عند البحث فى الحياه البرزخيه فلاحظ.

٣- طبقات الشافعيه ٣: ٤٠٦.

القول بالحياه البرزخيه للأنبياء و الصديقين لا يفى وحده بما هو المهم هنا ما لم يثبت أنّ هنا كصله بيننا و بينهم فى البرزخ، بحيث يسمعوننا و يستطيعون أن يرّدوا علينا، و هذا هو الموضوع الثانى الذى أشرنا إليه و هنا نكتفى بأبرز الآيات الواردة فى هذا المضمار التى تدلّ على إمكان الاتصال بالأرواح المقدسه الموجوده فى عالم البرزخ، و هذا و إن أثبت علم النفس بعد تجارب كثيره، و لكننا أخذنا على أنفسنا أن نستدلّ بالكتاب و السنّه، و لو كان هناك شىء فى العلم فهو أيضاً يدعم مدلول الكتاب و السنّه.

إنّ الكتاب و السنّه تضافرا على إمكان اتصال الإنسان الموجود فى الدنيا بالإنسان الحى فى عالم البرزخ و قد مرّت البرهنه على وجود الصله بين الحياتين عند البحث فى الحياه البرزخيه فراجع «(١)».

الثالث: سيره السلف الصالح فى التوسّل بدعاء النبى بعد رحيله:

إشاره

النظر إلى سيره المسلمين بعد لحوق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالرفيق الأعلى يثبت أنّهم كانوا يتوسّلون بدعائه، كتوسّلهم به قبل لحوقه به فما كانوا يرون فرقا بين الحالتين، فمن تصفّح سيره المسلمين و رجع إلى غضون الكتب و شاهد عملهم فى المسجد النبوى قرب مزاره الشريف، يلمس بسهولة استقرار السيره على التوسّل بدعائه من غير فرق بين حياته و انتقاله، و ها نحن نذكر من أعمال بعض الصحابه و التابعين شيئا يسيراً و نترك الباقي للمتصفّح فى غضون الكتب.

إنّنا لا يمكننا تصديق جميع ما روى لكنّ بين المرويات قضايا صادقه صدرت

عن أناس صالحين ثم إنَّها بكثرتها تدل على أنَّ التوسُّل كان أمراً رائجاً منذ عصر الصحابة إلى زماننا هذا، و لم يكن أمراً غريباً عند المسلمين.

و لو فرضنا أنَّ بعض هذه القضايا تخالف الواقع، فلا ريب أنَّه من باب استغلال الوضَّاعين لأصل مسَّلم صحيح بين المسلمين، و هو صحَّحه التوسُّل بدعاء النبي الأكرم بعد رحيله؛ فإنَّهم نسجوا بعض القضايا في ظل ذلك الأصل.

و لو فرضنا أنَّه لم يكن أمراً رائجاً بين المسلمين بل كان أمراً غريباً أو محظوراً لما تجرَّأ المستغل أن ينسج قضية كاذبه على نول الشرك أو المحرم، فإنَّ الذي يحفِّز الوضَّاع على نسج الخرافه هو استعداد العامه لقبول تلك الخرافه و لولاه لما تجرَّأ عليه لعدم حصول الغايه المتوخَّاه من نسجها.

فهذه القضايا الكثيره تدلّ - على كلا التقديرين - على المطلوب، فإنَّ كاتتصادقه فبصدقها، و إن كانت كاذبه فلاجل حكايتها عن وجود أصل مسَّلم بين المسلمين و هو التوسُّل بدعاء النبي الأكرم قبل و بعد موته، و كان هذا الأصل ربما يستغل أحياناً من بعض المتاجرين بالدين.

على أنَّ بعضها ممَّا رواه الإمام البخارى و سائر أصحاب الصحاح فلنذكر نماذج:

١- هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسبخ حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشه - رضى الله عنها - فتميم النبي صلى الله عليه و آله و هو مسجى ببرد حبره، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، فقال: بأبى أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين أمَّا الموته التي كتبت عليك فقد مُتَّها [\(١\)](#).

فلو لم تكن هنا كصله بين الحياتين فما معنى قوله: «بأبى أنت يا نبي الله» لو لم يكن سماع فما ذا قصد ذلك الصحابي من قوله: «لا يجمع الله عليك موتتين».

١- البخارى، الصحيح ٢: ١٧، كتاب الجنائز.

٢- روى أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٠٨-٥٨١ هـ) في الروض الأنف:

«دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشه و رسول الله مسجى في ناحيه البيت، عليه برد حبره، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه و آله ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبى أنت و أمى أميا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موته أبداً» (١).

٣- روى الحلبي على بن برهان الدين (٩٧٥-١٠٤٤ هـ) في سيرته و قال:

«جاء أبو بكر من السنخ وعيناه تهملان فقبل النبي صلى الله عليه و آله فقال: بأبى أنت و أمى طبت حياً و ميتاً» (٢).

٤- روى مفتى مكه المشرفه زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكره، و قال: قال أبو بكر: طبت حياً و ميتاً، و انقطع بموتك ما لم ينقطع للأنبياء قبلك، فعظمت عن الصفه و جللت عن البكاء، و لو أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك و لنكن على بالك» (٣).

٥- قال أمير المؤمنين على عليه السلام عند ما ولى غسل رسول الله صلى الله عليه و آله: «بأبى أنت و أمى يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوه و الإنباء و أخبار السماء- إلى أن قال:- بأبى أنت و أمى اذكرنا عند ربك و اجعلنا من بالك» (٤).

و قد أوضح السبكي أمر الإجماع على الزياره قولاً و فعلاً، و سرد كلام الأئمه في ذلك، و بين أنها قربه بالكتاب و السنه، و الإجماع، و القياس.

١- الروض الأنف ٤: ٢٦٠.

٢- السيره الحلبيه ٣: ٤٧٤ ط. دار المعرفه، بيروت.

٣- سيره زيني دحلان بهامش السيره الحلبيه ٣: ٣٩١، ط. مصر.

٤- نهج البلاغه: الخطبه ٢٣٥.

و أما الكتاب فقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُكَ» الآية دأله على الحث بالمجىء إلى الرسول صلى الله عليه وآله، و الاستغفار عنده، و استغفاره لهم و هذه رتبة لا تنقطع بموتهم صلى الله عليه وآله، و قد حصل استغفاره لجميع المؤمنين، لقوله تعالى: «اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» فإذا وجد مجيئهم، فاستغفارهم، كملت الأمور الثلاثة الموجهة لتوبه الله و لرحمته. و قوله: «وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ» * معطوف عليه قوله:

«جاءوك» فلا يقتضى أن يكون استغفار الرسول بعد استغفارهم مع أننا لا نسلّم أنه لا يستغفر بعد الموت، لما سبق الدليل على حياته و على استغفاره لأئمة بعد الموت عند عرض أعمالهم عليه، و يعلم من كمال رحمته أنه لا يترك ذلك لمن جاءه مستغفراً ربّه.

و العلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت و الحياه، و استحَبُّوا لمن أتى القبر أن يتلوها و يستغفر الله تعالى، و حكاية الأعرابي في ذلك نقلها جماعه من الأئمة عن العُتبي، و اسمه محمد بن عبد الله بن عمرو، أدرك ابن عيينه و روى عنه، و هي مشهوره حكاها المصنّفون في المناسك من جميع المذاهب، و استحسَنوها، و رأوها من أدب الزائر، و ذكرها ابن عساكر في تاريخه، و ابن الجوزى في مثير الغرام الساكن، و غيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي صلى الله عليه وآله، فزرتة و جلست بحدائه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ - إلى قوله - رَحِيمًا» و إنى جئتك مستغفراً ربك من ذنوبى، متشفعاً بك، و فى روايه: و قد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربى، ثم بكى و أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهنّ القاع و الأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف و فيه الجود و الكرم

ثم استغفر و انصرف، قال: فرقدت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله فى نومى و هو يقول: احق

الرجل و بشره بأن الله غفر له بشفاعتي، فاستيقظت، فخرجت أطلبه فلم أجده.

قلت: بل قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام»: إن الحافظ أبا سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي صلى الله عليه وآله، و حثا من ترابه على رأسه، و قال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، و وعيت عن الله سبحانه و ما وعينا عنك، و كان فيما أنزل عليك: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ...» و قد ظلمت، و جئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غفر لك، انتهى.

و روى ذلك أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله الكرخي عن علي بن محمد ابن علي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن سلمه بن كهيل، عن ابن صادق، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فذكره، و لا منافاه بين النقلين؛ لإمكان التعدد، و علي فرض الوحده فأحد الناقلين اقتصر؛ و الآخر أسهب في النقل، فنقل جميع القصة. و قد أدرك ذلك الأعرابي بسلامه فطرته أن الآيه الكريمة التي تدعو المسلمين إلى المجيء إلى النبي حتى يطلبوا منه أن يستغفر لهم، ليست خاصه بحياه النبي الدنيويه، بل تعم الحياه الأخرويه، فلاجل ذلك قام يطلب من النبي أن يستغفر له.

و قال عياض في الشفاء بسند جيد عن ابن حميد - أحد الرواه - عن مالك فيما يظهر، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له مالك: «يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوماً فقال: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» الآيه، و مدح قوماً فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» الآيه، و ذم قوماً فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ» الآيه، و إن حرمة ميتاً كحرمة حياً، فاستكان لها

أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة و أدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقال: لم تصرف وجهك عنه و هو وسيلتك و وسيله أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله و استشفع به، فيشفعه الله تعالى قال الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ» الآية (١)».

فانظر هذا الكلام من مالك، و ما اشتمل عليه من أمر الزيارة و التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله و استقباله عند الدعاء و حسن الأدب التام معه.

و قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين السامري الحنبلى فى المستوعب «باب زياره قبر النبى صلى الله عليه وآله» و ذكر آداب الزيارة، و قال: ثم يأتى حائط القبر فيقف ناحيته و يجعل القبر تلقاء وجهه، و القبلة خلف ظهره، و المنبر عن يساره، و ذكر كيفية السلام و الدعاء.

منه: اللهم إنك قلت فى كتابك لنيك عليه السلام: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُكَ» الآية، و إنى قد أتيت نبيك مستغفراً، فأسألك أن توجب لى المغفره كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك صلى الله عليه وآله و ذكر دعاء طويلاً (٢)».

هذه نماذج قدمناها إليك لتكون على بينه من هذا الأمر و أنه لم يكن هناك فرق بين الحياتين، و قد نقل المؤرخون أموراً كثيرة يضيىء الوقت بنقلها و لو كتبنا شاكين فيصدق بعض هذه التوسلات، و لكن نقل علماء السير و التاريخ المقدم الهائل من التوسلات بدعاء النبى - بعد رحيله - يكشف عن أن التوسل بدعاء النبى الأكرم كان أمراً رائجاً بين المسلمين و لم يكن أمراً غريباً و لا محظوراً و إلا لما صح أن ينقل المؤرخ ما يراه المسلمون أمراً مرغوباً عنه. و قد ذكرها بعض من المحققين فى

١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٩٢.

٢- وفاء الوفا ٤: ١٣٦٠ - ١٣٦٢.

كتبهم فراجعها «(١)».

و ليس لنا أن نترك السيره المستمره الهائله التي يلمسها من توقف هنيهة لدى القبر الشريف النبوى و قد قال سبحانه: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» «(٢)».

و قد نقل السمهودى نبذاً مما وقع لمن استغاث بالنبي أو طلب منه شيئاً عند قبره فأعطى مطلوبه و نال مرغوبه مما ذكره الإمام محمد بن موسى بن النعمان فى كتابه «مصباح الظلام فى المستغِيثين بخير الأنام» «(٣)».

التلّون فى الاستدلال

نرى أنّ المانعين عن التوسّل بدعاء النبي فى حياته البرزخيه يتلّونون فى الاستدلال، فتارة ينفون حياه النبي بعد الموت، و أخرى ينفون إمكان الاتصال، و ثالثه يدعون لغويه هذا العمل، و نعوذ بالله من قولهم الرابع إذ يعدّون العمل شركاً و عباده للرسول، أمّا الثلاث الأول فقد ظهرت حالها، و أمّا الشرك فلا يدري كيف يوصف به، مع أنّ هذا عمل واحد يُطلّب فى حياه النبي و يُطلّب بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أ فيمكن أن يكون شىء واحد توحيداً فى حاله و شركاً فى أخرى؟

مع أنّه لا- يسأل الرسول بما أنّه إله أو ربّ، أو بيده مصير الداعى، و إنّما يسأله بما أنّه عبد صالح ذو نفس طاهره و كريمه و هو أفضل الخلائق و أحد الأمانين فى الأرض يستجاب دعاؤه و لا يرد.

١- لاحظ شفاء السقام فى زياره خير الأنام للسبكي، و الدرر السنيه لزينى دحلان، و المبرد المبكى فى ردّ الصارم المنكى لابن علان، و نصره الإمام السبكي برد الصارم المنكى للسمهودى.

٢- النساء: ١١٥.

٣- وفاء الوفا ٤: ١٣٨٠-١٣٨٧. طالع ذلك الفصل تجد فيه حكايات و قضايا كثيره تدل على جريان السيره بين المسلمين على التوسّل بدعاء النبي الأكرم.

التوسل بدعاء الأخ المؤمن

(٦) التوسل بدعاء الأخ المؤمن

التوسل بدعاء الأخ المؤمن تمسك بما جعله الله سبحانه سبباً لاستجابته الدعاء، وقد دلت الآيات على أن الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، وأن المؤمنين اللاحقين يستغفرون للسابقين، وهذا يدل على أن دعاء الأخ في حق أخيه، أمر مرغوب فيه و مطلوب و مستجاب، فإذا كان كذلك فعلى المذنب أن يتوسل بهذا السبب المشروع و يطلب من أخيه الدعاء له، قال سبحانه: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (١).

و قال سبحانه: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (٢).

١- غافر: ٧.

٢- الحشر: ١٠.

فدعاء حملة العرش و اللاحقين من المؤمنين سببصالح لإجابته الدعاء، فعلى المسلم الواعى التمسك بمثل هذا السبب و طلب الدعاء منهم.

و فى السنّه الشريفه ما يدلّ على ذلك، روى مسلم و الترمذى عن عبد الله عن عمرو بن العاص أنّه سمع رسول الله يقول: «إذا سمعتم المؤذّن، فقولوا مثلما يقول، ثمّ صلّوا علىّ؛ فإنّه من صلّى عليّ صلّاه، صلّى الله عليه بها عشراً، ثمّ سلّوا الله لى الوسيله؛ فإنّها منزله فى الجنّه لا تنبغى إلّا لعبدٍ من عباد الله، و أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيله حلّت له الشفاعه» [\(١\)](#).

فهذا الحديث يدلّ بظاهره على أنّ الرسول يتوسّل إلى الله تعالى بدعاء أمته له، أن يؤتیه الوسيله و المقام المحمود فى الجنّه، و يكون جزاؤه شفاعته فى حقّهم. فإذا كان هذا حال النّبى فنحن من باب أولى يحقّ لنا أن نتمسك بهذه الوسيله:

و فى روايات أئمه أهل البيت تصاريح بذلك، نذكر بعضها لتتجلّى الحقيقه بأجلّ مظاهرها، فإنّ العتره الطاهره أحد الثقلين اللّذين أمر النّبى بالتمسك بهما و المتمسك بهما لن يضل:

١- روى أبو بصير، عن أبى جعفر، قال: «إنّ علىّ بن الحسين قال لأحد غلمانه: يا بنى اذهب إلى قبر رسول الله فصلّ ركعتين، ثمّ قل: اللهم اغفر لعلّى بن الحسين خطيئته يوم الدين، ثمّ قال للغلام: اذهب فأنت حرّ لوجه الله» [\(٢\)](#).

٢- روى محمد بن عجلان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «كان على بن الحسين إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له و لا أمه، و كان إذا أذنب العبد يكتب عنده: أذنب فلان، أذنب فلان، أذنب فلان، أذنب فلان، و كذا و كذا و لم يعاقبه، فيجتمع عليهم الأدب

١- مسلم: الصحيح ٢: ٤، كتاب الصلاه، الباب ٦؛ الترمذى الجامع الصحيح ٥: ٥٨٩، كتاب المناقب، الباب الأوّل، و اللفظ للأوّل.

٢- البحار ٤٦: ٩٢، نقلًا عن كتاب الزهد لحسين بن سعيد الأهوازي.

حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ثم أظهر الكتاب، ثم قال يا فلان: فعلت كذا و كذا و لم أُؤدِّبك أتذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا ابن رسول الله، و يقررهم جميعاً، ثم يقوم وسطهم و يقول لهم: ارفعوا أصواتكم و قولوا: يا على بن الحسين إنَّ ربَّيك قد أحصى عليك كل ما عملت كما أحصيت علينا... فاعف و اصفح كما ترجو من المليك العفو، و كما تحب أن يعفو المليك عنك، فاعف عنَّا تجده عفواً ربك رحيماً- إلى أن قال:- فيقول لهم: قولوا اللهم اعف عن على بن الحسين كما عفا عنَّا، فأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، فيقول: اللهم آمين رب العالمين، اذهبوا فقد عفوتُ عنكم و أعتقتُ رقابكم رجاءً للعفو عنِّي و عتق رقبتي» (١)

٣- و كان أصحاب أئمة أهل البيت يتوسَّلون بدعائهم، و هذا هو على بن محمد الحجال كتب إلى أبي الحسن الإمام الهادي و جاء في كتابه: «أصابتنى علَّة في رجلى و لا- أقدر على النهوض و القيام بما يجب فإن رأيت أن تدعو الله أن يكشف عنتي و يعينني على القيام بما يجب عليّ و أداء الأمانة في ذلك...» (٢).

١- البحار ٤٦: ١٠٢، نقلًا عن كتاب الإقبال للسيد ابن طاوس المتوفى عام ٦٦٤ هـ.

٢- كشف الغمہ ٣: ٢٥١.

التوسّل بالأنبياء و الصالحين أنفسهم

(٧) التوسّل بالأنبياء و الصالحين أنفسهم

إشاره

هناك قسم آخر من التوسّل و هو التوسّل بدوات الأنبياء و الصالحين و جعلهم وسيله لاستجابته الدعاء، و التنويه بما لهم من المقام و المنزله عند الله سبحانه، و هذا غير القسم الخامس، ففي القسم الماضي كُنّا نتوسّل بدعاء النبي و نجعل دعاءه وسيله إلى الرب و في هذا القسم نجعل نفس الرسول و كرامته عند الله وسيله إلى الرب.

و من الإمعان في القسم السابق يُعرف مفهوم هذا التوسّل؛ لأنّ التوسّل بدعائه لأجل أنّه دعاء روح طاهره، و نفس كريمه، و شخصيه مثاليه و أفضل الخلائق، ففي الحقيقه ليس الدعاء بما هو دعاء وسيله، و إنّما الوسيله هي الدعاء النابع عن تلك الشخصيه الإلهيه التي كرمها الله و عظّمها و رفع مقامها و ذكرها و قال: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (١).

و أمر المسلمين بتكريمه و تعزيره حيث قال: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ

وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١) فقولهُ «عَزَّوَهُ» بمعنى أكرموه.

فإذا كان رصيد استجابهُ الدعاء هو شخصيته الفذّه المثاليه، و منزلته عند الله فالأولى أن يتوسل بها الإنسان كما يتوسل بدعائه، فمن اعترف بجواز الأول و منع الثاني فقد فرّق بين أمرين متلازمين، و ما دعاهم إلى التفريق بينهما إلّا صيانه لمعتقدهم. و بدورنا نغض النظر عن هذا الدليل و نذكر ما ورد في السنّه النبويه مروياً عن طريق صحيح أقرّ به الأقطاب من أهل الحديث.

توسل الضرير بنبي الرحمة

عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبي فقال: ادعُ الله أن يعافيني فقال صلى الله عليه و آله: «إن شئت دعوتُ و إن شئت صبرت و هو خير».

قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه و يصلّي ركعتين و يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي لتقضي، اللهم شفّعه فيّ».

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرّقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضررٌ (٢).

إنّ الاستدلال بالروايه مبني عليصحتها سنداً و تماميه دلالتها مضموناً.

أمّا الأول: فلم يناقش فيصحتها إلّا الجاهل بعلم الرجال، حتى أنّ ابن تيميه

١- الأعراف: ١٥٧.

٢- الترمذى، الصحيح كتاب الدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٥٧٨؛ و سنن ابن ماجه ١: ٤٤١ برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد ٤: ١٣٨ إلى غير ذلك من المصادر و سيأتي في المتن نصوصهم حول وصف الحديث.

قال: قد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبي أنه علم رجلاً أن يدعو فيقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَآتُوجِّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ. و روى النسائي نحو هذا الدعاء «(١)».

و قال الترمذى: هذا حديث حق حسن صحيح.

و قال ابن ماجه: هذا حديث صحيح.

و قال الرفاعي: لا شك أن هذا الحديث صحيح و مشهور «(٢)».

و بعد ذلك فلم يبق لأحد التشكيك فيصحه سند الحديث إنما الكلام في دلالة و إليك البيان:

إن الحديث يدل بوضوح على أن الأعمى توسل بذات النبي بتعليم منه صلى الله عليه و آله و الأعمى و إن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر إلا أن النبي علمه دعاء تضمن التوسل بذات النبي، و هذا هو المهم في تبين معنى الحديث.

و بعبارته ثانياً: أن الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأول: أن الرجل طلب من النبي صلى الله عليه و آله الدعاء و لم يظهر منه توسل بذات النبي.

الثاني: أن الدعاء الذي علمه النبي، تضمن التوسل بذات النبي بالصراحة التامة، فيكون ذلك دليلاً على جواز التوسل بالذات.

و إليك الجمل و العبارات التي هي صريحه في المقصود.

١- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَآتُوجِّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ:

إن كلمة «بنبيك» متعلقة بفعالين هما «أسألك» و «أتوجه إليك» و المراد من النبي صلى الله عليه و آله نفسه القدسيه و شخصيته الكريمة لا دعاؤه.

و تقدير كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» حتى يكون المراد هو «أسألك بدعاء نبيك أو أتوجه إليك بدعاء نبيك» تحكّم و تقدير بلا دليل، و تأويل بدون مبرّر، و لو

١- مجموعه الرسائل و المسائل ١: ١٣.

٢- التوصل إلى حقيقه التوسل: ص ١٥٨.

أَنَّ محدثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجَهميه و القدرية.

٢- محمد نبى الرحمه:

لكى يتضح أَنَّ المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبى صلى الله عليه وآله و شخصيته فقد جاءت بعد كلمه «بنيك» جمله «محمد نبى الرحمه» لى يتضح نوع التوسل و المتوسل به بأكثر ما يمكن.

٣- يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى:

إن جمله «يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى» تدل على أَنَّ الرجل الضير- حسب تعليم الرسول- اتخذ النبى نفسه، وسيله فى دعائه أى أنه توسل بذات النبى لا بدعائه صلى الله عليه وآله.

٤- و شفعه فى:

إن قوله «و شفعه فى» معناه يا رب اجعل النبى شفيعى، و تقبل شفاعته فى حقى، و ليس معناه تقبل دعاءه فى حقى؛ فإنه لم يرد فى الحديث أَنَّ النبى دعا بنفسه حتى يكون معنى هذه الجملة: استجب دعاءه فى حقى.

و لو كان هناك دعاء من النبى لذكره الراوى؛ إذ ليس دعاؤه صلى الله عليه وآله من الأمور غير المهمه حتى يتسامح الراوى فى حقه.

و حتى لو فرضنا أَنَّ معناه «تقبل دعاءه فى حقى» فلا يضر ذلك بالمقصود أيضاً؛ إذ يكون على هذا الفرض هناك دعاء: دعاء الرسول و لم يُنقل لفظه، و الدعاء الذى علمه الرسول للضير، و قد جاء فيه التصريح بالتوسل بذات النبى و شخصه وصفاته، و ليس لنا التصرف فى الدعاء الذى علمه الرسول للضير، بحجه أنه كان هناك للرسول دعاء.

لقد أورد هذا الحديث النسائى و البيهقى و الطبرانى و الترمذى و الحاكم فى مستدركه، و لكن الترمذى و الحاكم ذكرا جمله «اللهم شفعه فيه» بدل «و شفعه فى».

إجابه عن سؤال

إنَّ من يمنع التوسُّل بشخصية الرسول المثاليه لَمَّا وقع أمام هذا الحديث تعجَّب عاصباً على أنملته، فحمل الحديث على أنه من قبيل التوسُّل بدعاء الرسول لا بشخصه و ذاته الكريمه مستدلاً بقول الضرير «ادع الله أن يعافيني» و قد خلط بين أمرين:

الأول: المحاوره الابتدائيه التي وقعت بين النبي و الضرير، فكان المطلوب بلا شك هو طلب الدعاء من النبي، و هذا ما لا ينكره أحد، إنما الكلام فيما يأتي.

الثاني: الدعاء الذي علمه الرسول للضرير؛ فإنه تضمَّن التوسُّل بذات النبي و لا يمكن لأحد أن ينكر التصريح الموجوده في الحديث.

و التصرّف في النصّ الثاني بحجه أنّ الموضوع في المحاوره الأولى هو طلب الدعاء، تصرف نابع من اتخاذ موقف مسبق قبل النظر إلى الحديث؛ فإنّ الأعمى لم يدر في خلده في البدايه سوى دعاء الرسول المستجاب، و لكن الدعاء الذي علمه الرسول أن يدعو به بعد التوضؤ، مشتمل على التوسُّل بذات النبي.

قال الدكتور عبد الملك السعدى: و قد ظهر في الآونه الأخيره أناس ينكرون التوسُّل بالذات مطلقاً، سواء كان صاحبها حيّاً أو ميتاً، و قد أولوا حديث الأعمى و قالوا: إنّ الأعمى لم يتوسَّل و لم يأمره النبي صلى الله عليه و آله به بل قال له: صلِّ ركعتين ثم اطلب مني أن أدعو لك ففعل.

و أنت يا أخى عليك أن تقرأ نص الحديث هل يحتمل هذا التأويل، و هل فيه هذا المدعى؟ أم أنّه أخذ يطلب من الله مستشفعاً بالنبي صلى الله عليه و آله، و لم يدع له صلى الله عليه و آله. و لو أراد منه ذلك لاستجاب له أول مرّه حيث طلب منه الدعاء بالكشف عن بصره فأبى إلّا أن يصلّى و يتولّى الأعمى بنفسه الدعاء «(١)».

التوسل بذات النبي بعد رحيله

إشاره

إنَّ الصحابيَّ الجليل عثمان بن حنيف فهم من الحديث السابق أنَّ التوسل بذات النبي و شخصه يعمَّ حياته و مماته، فلأجل ذلك عند ما رجع إليه بعض أصحاب الحاجه علمه نفس الدعاء الذي علمه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله للضرير لحسن الحظ كان ما توصل إليه ناجحاً.

روى الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠هـ) عن أبي أمامه بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف، أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه في حاجه له، فكان عثمان لا يلتفت إليه و لا ينظر في حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضاة فتوضاً، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه و آله نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى لي حاجتي» فتذكر حاجتك و رح إليّ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضى الله عنه، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان رضى الله عنه، فأجلسه معه على الطنفسه، فقال:

ما حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة، و قال: ما كانت لك من حاجه فاذكرها.

ثم إنَّ الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي و لا يلتفت إليّ حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: و الله ما كلمته، و لكنني شهدت رسول الله صلى الله عليه و آله و أتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه و آله: أفتبصر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد و قد شقّ عليّ.

فقال النبي صلى الله عليه و آله: ائت الميضاة فتوضاً ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرّقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط «(١)».

إنّ دلالة الحديث على جواز التوسّل بذوات الصالحين و أخصّ منهم الأنبياء أمر لا ستره فيه، نعم بعض من لا يروقه هذا النوع من التوسّل، أراد التشكيك في الروايه بوجهين، فقال:

أولاً: إنّ معنى التوسّل عند الصحابه هو دعاء الشخص المتوسّل به إلى الله تعالى بقضاء حاجه المتوسّل لا كما يعرفه القوم في زماننا هذا من التوسّل بذات المتوسّل به.

ثانياً: لو كان دعاء الأعمى الذى علمه رسول الله دعاءً ينفع في كلّ زمان و مكان لما رأينا أئىّ أعمى على وجه البسيطة «(٢)».

يلاحظ على كلامه الأول: بأنّه من غرائب الكلام فقد جعل من مذهبه دليلاً على ضعف الروايه، و هو أنّ معنى التوسّل عند الصحابه هو التوسّل بدعاء الشخص لا بذاته. فمن أين علم أنّه مذهب الصحابه؟! و هل يعرف مذهبهم إلّا من خلال أحاديثهم، مع أنّ الحديثين المرويين عن طريق الصحابي الجليل عثمان بن حنيف يدلّان على خلافه؟

و أمّا الثانى: فهو اطّراح للوحى، و ازدراء به، و لوصحّ ما ذكره فلقائل أن يقول: لوصحّ قوله سبحانه: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» «(٣)» يجب أن لا يبقى على وجه البسيط ذو عاهه.

و الجواب عن تلك الوسوسه في كلا المقامين واحد، و هو أنّ الدعاء مقتض

١- المعجم الكبير ٩: ١٦-١٧، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف، برقم ٨٣١٠ و المعجم الصغير له أيضاً ١: ١٨٣-١٨٤.

٢- التوصل إلى حقيقه التوسّل: ص ٣٣٥.

٣- غافر: ٦٠.

لنزول الرحمه و دفع الكُربه و لكن ليس السبب تاماً لنجاح المقصود، بل له شروط و له موانع و عوائق، و لأجل ذلك نرى أنّ بعض الأدعيه لا تستجاب، مع أنّه سبحانه يحثّ على الدعاء و أنّه يستجيب دعاء من دعاه، و يقول: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (١).

مناقشه في سند الروايه

لقد تعرّفت على تماميه دلالة الروايه و هناك من يريد المناقشه في سندها، و لا يחדش فيها إلّا لأنّ الروايه تضاد عقيدته فيقول: إنّ في سند هذا الحديث رجلاً اسمه روح بنصلاح و قد ضعّفه الجمهور و ابن عدّيّ و قال ابن يونس: يروى أحاديث منكروه (٢).

أظنّ أنّ الكاتب لم يرجع إلى مصدرها و إنّما تبع تقوّل الآخرين، و نحن نضع أمامك سند الحديث من المصدرين اللذين روى عنهما الحديث و لا ترى فيهما أثراً من روح بنصلاح و إليك السند:

روى الطبراني في المعجم الكبير، قال: حدّثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصري المقرئ: حدّثنا أصبغ بن الفرّج: حدّثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي، عن روح ابن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامه بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف (٣).

و رواه البيهقي بالسند التالي:

أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد رحمه الله: أنبأنا الإمام أبو بكر محمد ابن علي بن الشاشي القفال قال: أنبأنا أبو عروبه: حدّثنا العباس بن الفرّج: حدّثنا

١- غافر: ٦٠.

٢- التوصل إلى حقيقه التوسّل: ص ٢٣٧.

٣- المعجم الكبير ٩: ١٧، و في المعجم الصغير له «أصبغ بن الفرّج» مكان «أصبغ بن الفرّج».

إسماعيل بن شبيب: حدّثنا أبي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المديني... إلخ السند «(١)».

و أنت ترى أنّه ليس فى طريق الروايه روح بنصلاح بل هو روح بن القاسم و الكاتبصرّح بأنّ الروايه رواها الطبرانى و البيهقى، و هذا يعرب عن أنّ الكاتب لم يرجع إلى المصدرين و إنّما اعتمد على تقوّل الآخرين.

نحن نفترض أنّه ورد فى سند الروايه روح بنصلاح و لكن ما ذكره من أنّ الجمهور ضعّفوه أمر لا تصدّقه المعاجم الموجوده فيما بين أيدينا، و إنّما ضعّفه ابن عدى و فى الوقت نفسه وثّقه ابن حبان و الحاكم. قال الذهبى: روح بنصلاح المصرى يقال له ابن سيّابه ضعّفه ابن عدى، يكنّى أبا الحارث و قد ذكره ابن حبان فى الثقات و قال الحاكم: ثقّه مأمون «(٢)».

سيره الأمم فى توّسّلهم بالذوات الطاهره

اشاره

لم يكن التوسّيل بالصالحين و الطيبين و المعصومين و المخلصين من عباد الله أمراً جديداً فى زمن النبى و بعده، بل كان ذلك امتداداً لسيّره الموجوده قبل الإسلام، و نحن نضع أمامك قسماً من هذه التوسلات لتكون على علم بأنّ الفطره السليمه تدعو الإنسان إلى التوسّل بالموجودات الطاهره لجلب رحمته تعالى.

١- استسقاء عبد المطلب بالنبى و هو رضيع

إنّ عبد المطلب استسقى بالنبى الأكرم و هو طفليصغير، حتى قال ابن حجر: إنّ

١- دلائل النبوه ٦: ١٦٨.

٢- ميزان الاعتدال ٢: ٨٥ / ٢٨٠١.

أبا طالب يشير بقوله:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمته للأرامل

إلى ما وقع فى زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش و النبى معه غلام «(١)».

٢- استسقاء أبى طالب بالنبى و هو غلام

أخرج ابن عساکر عن أبى عرفه، قال: قدمت مكه و هم فى قحط، فقالت قریش، يا أبا طالب أقحط الوادى، و أجذب العیال، فهلهم فاستسقى، فخرج أبو طالب و معه غلام یعنى النبى صلی الله علیه و آله كأنه شمس دجى تجلّت عن سحابه قتماء، و حوله أغلیمه، فأخذ النبى أبو طالب فألصق ظهره بالكعبه، و لاذ إلى الغلام و ما فى السماء قرعه، فأقبل السحاب من هاهنا و هاهنا و أغدق و اغدودق، و انفجر له الوادى، و أخصب النادى و البادى، و فى ذلك يقول أبو طالب:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمته للأرامل «(٢)»

و قد كان استسقاء أبى طالب بالنبى و هو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به و هو صبى أمراً معروفاً بین العرب، و كان شعر أبى طالب فى هذه الوقعه ممّا يحفظه أكثر الناس.

و يظهر من الروایات أنّ استسقاء أبى طالب بالنبى صلی الله علیه و آله كان موضع رضا منه صلی الله علیه و آله فأنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس فجاء المطر و أخصب الوادى فقال النبى: لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، و من ينشدنا قوله؟ فقام على علیه السلام و قال: يا رسول الله صلی الله علیه و آله كأنك أردت قوله:

١- فتح البارى ٢: ٣٩٨؛ دلائل النبوه ٢: ١٢٦.

٢- فتح البارى ٢: ٤٩٤؛ السيره الحلبيه ١: ١١٦

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمه للأرامل» (١)

إنَّ التوسُّل بالأطفال في الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع، قال الدكتور عبد الملك السعدى: من السنّه أن نُخرج معنا إلى الصحراء الشيوخ و الصبيان و البهائم لعلَّ الله يسقينا بسببهم» (٢).

و هذا هو الإمام الشافعى يقول فى آدابصلاه الاستسقاء: «و أحب أن يخرج الصبيان، و يتنظفوا للاستسقاء، و كبار النساء، و من لا هيبه منهنّ، و لا أحبّ خروج ذات الهيبه، و لا أمر بإخراج البهائم» (٣).

فما الهدف من إخراج الصبيان و النساء الطاعنات فى السن، إلّا استنزال الرحمه بهم و بقداستهم و طهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أنّ التوسُّل بالأبرياء و الصلحاء و المعصومين مفتاح استنزال الرحمه و كأنّ المتوسُّل يقول: ربّى و سيدي!! الصغير معصوم من الذنب، و الكبير الطاعن فى السن أسيرك فى أرضك، و كلتا الطائفتين أحقّ بالرحمه و المرحمه. فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتى تعمّنا فى ظلهم.

إنّ الساقى ربّما يسقى مساحه كبيره لأجل شجره واحده، و فى ظلّها تُسقى الأعشاب و سائر الخضراوات غير المفيده.

٣- توسُّل الخليفه بعَمّ النبى: العباس

روى البخارى فيصحيحه قال: كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه و قال: اللهمّ إنا كنّا نتوسُّل إليك بنبيّنا فتسقيننا، و إنا نتوسُّل إليك بعَمّ نبيّنا فاسقنا، قال: فيُسقون» (٤).

١- إرشاد السارى ٢: ٣٣٨

٢- البدعه: ص ٤٩.

٣- الأم ١: ٢٣٠.

٤- البخارى، الصحيح ٢: ٣٢ باب صلاه الاستسقاء.

و الحدِيثُ صَحِيحُ السَّنَدِ، فَمَا ظَنُّكَ بِرَوَايَةِ رَوَاهَا الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ، لَكِنْ مِنْ لَا يَرُوقُ لَهُ التَّوَسُّلُ بِالذَّوَاتِ الطَّاهِرَةِ أَخَذَ يُؤَوِّلُ الْحَدِيثَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ تَوَسَّلَ بِدَعَاءِ الْعَبَّاسِ لَا بِشَخْصِهِ وَ مَنَزَلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ. وَ أَضَافَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَصْدُهُ ذَاتَ الْعَبَّاسِ لَكَانَتْ ذَاتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ أَفْضَلَ وَ أَعْظَمَ وَ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَاتِ الْعَبَّاسِ، بَلَا شَكَّ وَ لَا رَيْبَ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْقَصْدَ كَانَ الدَّعَاءَ «(١)».

لَا- أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا يَحْمَلُ شَيْئًا مِنَ الْإِنْصَافِ، يَسُوِّغُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَفْسِرَ الْحَدِيثَ بِمَا ذَكَرَهُ أَيْ التَّوَسُّلَ بِالدَّعَاءِ؛ لِأَنَّ فِي الْمَوْضُوعِ نِصْوَصًا تَرَدُّ ذَلِكَ، وَ إِلَيْكَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا:

١- قَوْلُ الْخَلِيفَةِ عِنْدَ الدَّعَاءِ... قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا». وَ هَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَامَ بِالدَّعَاءِ فِي مَقَامِ الْاسْتِسْقَاءِ، وَ تَوَسَّلَ بِعَمِّ الرَّسُولِ فِي دَعَائِهِ، وَ لَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ هُوَ التَّوَسُّلَ بِدَعَائِهِ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نَطْلُبُ الدَّعَاءَ مِنَ الرَّسُولِ فَيَسْقِينَا اللَّهُ، وَ الْآنَ نَطْلُبُ مِنْكَ الدَّعَاءَ فَادْعَ لَنَا.

٢- رَوَى ابْنُ الْأَثِيرِ كَيْفِيهِ الْاسْتِسْقَاءَ فَقَالَ: اسْتَسْقَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْعَبَّاسِ عَامَ الرَّمَادِ لَمَّا اشْتَدَّ الْقَحْطُ، فَسَقَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَ أَحْصَبَتِ الْأَرْضُ، فَقَالَ عُمَرُ:

هَذَا وَ اللَّهُ الْوَسِيلَةَ إِلَى اللَّهِ وَ الْمَكَانَ مِنْهُ. وَ قَالَ حَسَّانُ:

سَأَلَ الْإِمَامَ وَ قَدْ تَتَابَعَ جَدْبُنَا فَسَقَى الْغَمَامُ بَعْزَهُ الْعَبَّاسِ

عَمَّ النَّبِيِّ وَ صَنُوهُ وَالِدَهُ الَّذِي وَرَثَ النَّبِيَّ بِذَاكَ دُونَ النَّاسِ

أَحْيَا إِلَهًا بِهِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحَتْ مَخْضَرَّةَ الْأَجْنَابِ بَعْدَ الْيَاسِ

وَ لَمَّا سُقِيَ طُفُفُوا يَتَمَسَّحُونَ بِالْعَبَّاسِ وَ يَقُولُونَ: هَنِيئًا لَكَ سَاقِي الْحَرَمِينَ «(٢)».

١- التَّوَسُّلُ إِلَى حَقِيقَةِ التَّوَسُّلِ: ص ٢٥٣.

٢- اسد الغابه ٣: ١١١ ط مصر.

أمعن النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيله.

٣- و يظهر من شعر حسان أنّ المستسقى كان هو نفس الخليفة و هو الداعي حيث قال: «سأل الإمام...» و كان العباس وسيلته لاستجابته الدعاء.

قال الدكتور عبد الملك السعدى: و قد أولوا حديث العباس بأنّ عمر طلب من العباس أن يدعو لأنهم كانوا إذا أجدبوا طلبوا من رسول الله صلى الله عليه و آله أن يدعو لهم فكذا هنا طلب الدعاء من العباس. و هذا التأويل غير مقبول لوجهين:

الوجه الأول: إنّ السنّه أن يدعو الإمام نفسه و القوم يؤمنون و هذا ما حصل حيث كان الداعي هو سيدنا عمر لا العباس.

الوجه الثانى: إنّ نص الحديث لا يدلّ على أنّ عمر طلب الدعاء من العباس بل كان هو الداعي، بدليل قوله: اللهمّ إنّنا كنّا نتوسّل... و هذا عين الدعاء و لم يرد أى لفظ يشير إلى أنّه قال للعباس: ادع لنا بالسقيا.

و مع ذلك فأىّ خلل يحصل فى الدين أو العقيدة إذا أجرينا النص على ظاهره و تركنا العناد و التعصّب؟

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: و يستبين من قصه العباس استحباب الاستسقاء بأهل الخير و الصلاح و أهل بيت النبوه و فيه فضل العباس، و فضل عمر لتواضعه للعباس و معرفته بحقه «(١)».

و أظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحه لا تبقى شكّاً و لا ريباً فى خلد أحد فى جواز التوسّل بالصالحين.

و أمّا ما ذكره من أنّه لو كان المقصود التوسّل بذات العباس لكان النبى بذلك أفضل و أعلم، فيلاحظ عليه أنّ الهدف من إخراج عمّ النبى إلى المصلّى و ضمّه إلى

الناس هو استنزال الرحمه، فكأنّ المصلين يقولون ربنا إذا لم نكن مستحقين لنزول الرحمه، فإنّ عمّ النبيّ مستحقّ لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمه القحط و الغلاء و عندئذٍ تعمّ الرحمه لغير العباس، و من المعلوم أنّ هذا لا- يتحقق إلّا بالتوسيل بإنسان حيّ يكون شريكاً مع الجماعه في المصير و في هناء العيش و رغده لا مثل النبيّ الراحل الخارج عن الدنيا و النازل في الآخره، نعم يجوز التوسل بشخصه أيضاً و لكن لا بهذا الملاك بل بملاك آخر لم يكن مطروحاً للخليفه في المقام.

و لو افترضنا صحّه ما يُدعى من أنّ الخليفه توسّل بدعاء عمّ النبيّ صلى الله عليه و آله فهو عباره أُخرى عن التوسل بذات النبيّ لبأ؛ إذ لو لاصلته به لما قُدّم للدعاء.

التوسّل بحقّ الصالحين و حرمتهم و منزلتهم

(٨) التوسّل بحقّ الصالحين و حرمتهم و منزلتهم

إشاره

إنّ من التوسّلات الرائجه بين المسلمين منذ وقعوا فى إطار التعليم الإسلامى، التوسّيل بمنازل الصالحين و حقوقهم على الله، و هناك سؤال يطرح نفسه و هو أنّه:

كيف يمكن أن يكون لإنسان حقّ على الله؟

بل الحقوق كلّها لله على العباد، و لكن الإجابة على السؤال واضحه؛ إذ ليس معنى ذلك أنّ للعباد أو لبعضهم على الله سبحانه حقّاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه الخروج عنه، بل لله سبحانه الحقّ كلّ، فله على الناس حقّ العباده و الطاعه إلى غير ذلك، بل المراد المقام و المنزله التى منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، و ليس لأحد على الله حقّ إلّا ما جعله الله سبحانه حقّاً على ذمّته لهم تفضّلاً و تكريماً، قال سبحانه: «وَ كَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

روى مسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه و آله: «هل تدرى ما حقّ الله على العباد؟» قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «فإنّ حقّ الله على العباد أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً»، ثمّ سار ساعه قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله

و سعديك قال: «هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «أن لا يعذبهم» (١)

و روى الترمذى و قال: حديث حسن صحيح، و ابن حبان في صحيحه، و الحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم، عن أبى هريره رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، و المكاتب الذى يريد الأداء، و الناكح الذى يريد العفاف» (٢)

فهذان الحديثان قد ثبت بهما وجود حقّ للعباد على الله تعالى، إلّا أنّه حقّ تكريم لا حقّ إلزام و إيجاب.

إنّ للإمام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كلمة قيّمه فى تفسير حقّ العباد على الله، و أنّ هذا الحقّ ممّا منحه سبحانه تفضلاً على عباده، قال: «فالحقّ أوسع الأشياء فى التواصف و أضيقها فى التناصف لا يجرى لأحد إلّا جرى عليه، و لا يجرى عليه إلّا جرى له، و لو كان لأحد أن يجرى له و لا- يجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده، و لعدله فى كل ما جرتصروف قضائه، و لكّنه سبحانه جعل حقّه على العباد أن يطيعوه، و جعل جزاءهم عليه مضاعفه الثواب تفضلاً منه و توسعاً بما هو من المزيد أهله» (٣)

و قد أوضح الإمام معنى حقّ الناس على الله و أنّه ليس حقّاً ذاتياً للناس عليه بل كلّها تفضّل منه سبحانه: و ترى مثله فى سائر المواضع حيث نرى أنّه يقتضى من العباد و هو مالك للعباد و ما فى أيديهم و يقول: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» (٤).

١- و ٢ الترغيب و التهيب ٣: ٤٣؛ و شرح النووى على صحيح مسلم ١: ٢٣١.

٢- الترغيب و التهيب ٣: ٤٣؛ و شرح النووى على صحيح مسلم ١: ٢٣١.

٣- نهج البلاغه: الخطبه ٢١٦.

٤- البقره: ٢٤٥ و الحديد: ١١.

فبعد هذه التصاريح على أنّ حقّ الناس على الله مقتضى تفضّله سبحانه و تكوّمه على عباده ليس لنا أن نستشكل في تصوير حقّ الناس على الله.

على أنّ هذا النوع من التوسّل لا يفترق عن التوسّل بذات النبي و شخصه فإنّ المنزله و المقام مرآه لشخصه، و إنّ حرمة الشخص و كرامته نابعه من كرامه ذاته و فضيلتها، فلوصحّ التوسّل بالأوّل كما تعرّف عليه من خلال الأحاديث يصح بالثاني بدون إشكال، و يدل عليه من الأحاديث ما نذكره:

١- التوسّل بحقّ السائلين

روى عطيه العوفى عن أبى سعيد الخدرى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: «اللهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك، و أسألك بحقّ ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً و لا بطراً و لا رياءً و لا سماعاً إنما خرجت اتقاء سخطك و ابتغاء مرضاتك أن تعيذنى من النار و أن تغفر ذنوبى إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت»، إلّا أقبل الله عليه بوجهه و استغفر له سبعون ألف ملك» (١).

إنّ دلالة الحديث واضحة لا يمكن لأحد التشكيك فيها، و سند الحديث صحيح و رجاله كلّهم ثقات، نعم اشتمل السند على عطيه العوفى و قد وثّقه لفييف من أهل الجرح و التعديل.

قال أبو حاتم: يكتب حديثه، و قال ابن معين: صالح، و قال ابن حجر: عطيه بن سعيد بن جنادة العوفى الجدلى الكوفى أبو الحسن صدوق، قال ابن عدى: قد روى عن جماعه من الثقات، توفّى سنه إحدى عشره و مائه، قال ابن سعد: خرج عطيه مع ابن الأشعث فكتب الحجّاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبّ على - إلى

١- ابن ماجه، السنن ١: ٢٥٦ / ٧٧٨؛ الإمام أحمد، المسند ٣: ٢١.

أن قال:- كان ثقّه، و له أحاديثُصالحه، و كان أبو بكر البرّاز يعدّه في التشيع، روى عن جلّه الناس [\(١\)](#).

نعم، هناك من ضعّفه لا لأنّه غير صدوق، بل لأنّه كان يتشيع، و ليس تشيعه إلّا ولاؤه لعلّى و أهل بيته، و هل هذا ذنب!؟

إنّ لوضع الحديث دوافع خاصه توجد أكثرها في أبواب المناقب و المثالب و خصائص البلدان و القبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود و النصارى في أبواب التجسيم و الجبهه وصفات الجنه و النار، و أمّا مثل هذا الحديث الذي يعرب بوضوح عن أنّه كلام إنسان خائف من الله سبحانه ترتعد فرائضه من سماع عذابه فبعيد عن الوضع.

٢- التوسّل بحقّ النبي و بحقّ من سبقه من الأنبياء

روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنّه لما ماتت فاطمه بنت أسد أمّ عليّ - رضى الله عنها- دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها فقال: «رحمك الله يا أمّي كنتِ أمّي بعد أمّي تجوعين و تشبعينى، و تعرين و تكسيننى، و تمنعين نفسك طيب الطعام و تطعميننى، تريدن بذلك وجه الله و الدار الآخرة».

ثمّ أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكب رسول الله بيده، ثمّ خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه و كفنها ببرد فوقها، ثمّ دعا رسول الله أسامه بن زيد و أبا أيوب الأنصارى و عمر بن الخطاب و غلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفروا رسول الله بيده و أخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه و قال: «الله الذي يحيى و يميت و هو حي لا يموت

١- تقريب التهذيب ٢: ٢٤ / ٢١٦، و تهذيب التهذيب ٧: ٢٢٧ / ٤١٣.

اغفر لأُمِّي فاطمه بنت أسد ولقَّنها حجتها، ووسَّع عليها مدخلها بحق نبيِّك و الأنبياء الذين من قبلي فإنَّك أرحم الراحمين» و كبر عليها أربعاً و أدخلها اللحد و العباس و أبو بكر.

و الاستدلال بالروايه يتوقف على تماميه الروايه سنداً و مضموناً.

أمَّا المضمون فلا مجال للجدشه فيه، و أمَّا السند فصحيح، رجاله كلَّهم ثقات؛ لا يغمز في حقَّ أحد منهم، نعم فيه روح بنصلاح وثقه ابن حبان و الحاكم؛ و قد عرفت كلام الذهبي فيه «(١)».

و قد رواه أئمه الحديث و أساتذته، و إليك أسماء من وقفنا على روايتهم:

١- رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في المعجم الأوسط ٣٥٦-٣٥٧.

٢- رواه أبو نعيم عن طريق الطبراني في حليه الأولياء ٣: ١٢١.

٣- رواه الحاكم في مستدرکه ٣: ١٠٨ و هو لا يروى في هذا الكتاب إلَّا الصحيح على شرط الشيخين البخارى و مسلم.

٤- رواه ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابه ٤: ٣٨٢.

٥- نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢: ١١٨ برقم ٧.

٦- رواه الحافظ نور الدين الهيثمي المتوفى ٧٠٨ في معجم الزوائد و منبع الفوائد ٩: ٢٥٦-٢٥٧، و قال: و رواه الطبراني في الكبير و الأوسط و فيه روح بنصلاح وثقه ابن حبان و الحاكم.

٧- رواه المتقى الهندي في كنز العمال ١٣: ٦٣٦ برقم ٣٧٦٠٨.

هؤلاء الحفَّاظ نقلوا الحديث في جوامعهم، وصرَّحوا بأنَّ رجال السند رجال الصحيح، و لو كان هناك شىء ففى روح بنصلاح و قد عرفت توثيقه من أساتذه

١- لاحظ للوقوف على حال روح بن صلاح المصرى ميزان الاعتدال ٢: ٨٥ / ٢٨٠١.

الفن كابن حبان و الحاكم.

و أمّا التوسّل بحقّ الأولياء و الشخصيات الإلهية ففي أدعيه أئمه أهل البيت نماذج من أدعيه التوسّل، و هي كثيرة و موزعه في الصحيفه العلويه «(١)» و دعاء عرفه «(٢)» و الصحيفه السجادية «(٣)» و غيرها من كتب الدعاء.

و فيما يلي نذكر نماذج من تلك الأدعيه:

١- يقول الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء له:

«... بحقّ محمّد و آل محمّد عليك، و بحقّك العظيم عليهم أن تصلّي عليهم كما أنت أهله، و أن تعطيني أفضل ما أعطيت السائلين من عبادك الماضين من المؤمنين و أفضل ما تعطى الباقين من المؤمنين..» «(٤)»

٢- و يقول الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام في دعاء عرفه:

«... اللهمّ إنّنا نتوجّه إليك- في هذه العشيّه التي فرضتها و عظمتها- بمحمد نبيّك و رسولك و خيرتك من خلقك».

٣- و يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان:

«... اللهمّ إنّني أسألك بحقّ هذا الشهر و بحقّ من تعبد فيه» «(٥)»

إلى هنا تمّت بعض الأدلّه على جواز التوسّل بالشخصيات الطاهره التي لها منزله و مكانه، و هناك روايات أخرى في هذا الصدد نتركها لئلا يطول بنا الكلام؛ فإنّ الغرض الإيجاز لا الإطناب.

١- و هي المجموعه التي تضم بعض أدعيه الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام جمعها الشيخ عبد الله السماهيجي.

٢- و هو دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفات، يوم عرفه.

٣- هي بعض أدعيه الإمام زين العابدين عليه السلام.

٤- الصحيفه العلويه: ٥١.

٥- الصحيفه السجادية: دعاء رقم ٤٤.

٣- توسل آدم بحق النبي

إشارة

قد تعرّفت على حقيقته حقّ العبد على الله و ربّما يحتمل أن يراد منه منزلته و جاهه عند الله و كرامته لديه قال نور الدين السمهودي:

اعلم أنّ الاستغاثه و التشفّع بالنبي صلى الله عليه و آله و بجاهه و بركته عند ربّه تعالى من فعل الأنبياء و سير السلف الصالح، واقع في كلّ حال، قبل خلقه صلى الله عليه و آله و بعد خلقه صلى الله عليه و آله في حياته الدنيويه و مدّه البرزخ و عرصات القيامة.

«و إذا جاز السؤال بحق الأعمال - كما في حديث الغار الصحيح و هي مخلوقه - فالسؤال بالنبي صلى الله عليه و آله أولى. و في العاده أنّ من له عند شخص قدر فتوسّل به إليه من غيبته فإنّه يجب إكراماً للمتوسّل به و قد يكون ذكر المحبوب أو المعظم سبباً للإجابة» (١).

قال الدكتور عبد الملك السعدى: «إذا قلت: اللهمّ إنّى توسّلت إليك بجاه فلان، لنبي أو صالح فهذا أيضاً مما ينبغي أن لا يحصل بجوازه خلافاً؛ لأنّ الجاه ليس له ذات المتوسّل به بل مكانته و مرتبته عند الله و هي حصيله الأعمال الصالحة؛ لأنّ الله تعالى قال عن موسى - عليه الصلاة و السلام - «وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً» (٢) و قال عن عيسى - عليه الصلاة و السلام - «وَ جِيهاً فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ» (٣) فلا ينكر على من يتوسّل بالجاه إذا كنّا منصفين؛ لأنّه لا يحتمل نسبه التأثير إلى المتوسّل به إذ ليس هو المقصود بل المتوسّل به جاهه و مكانته عند الله لا غير» (٤).

١- وفاء الوفا ٤: ١٣٧٢.

٢- الأحزاب: ٦٩.

٣- آل عمران: ٤٥.

٤- البدعه: ص ٤٥.

وقال أيضاً في قصه استسقاء الخليفة بالعباس: «إنَّ عمر لم يقل و اليوم نستسقى بالعباس بن عبد المطلب بل قال: بالعباس عمَّ نبيِّك، فالوجهه حصلت له لأنَّه عمَّ النبيصلى الله عليه و آله الميِّت، و هذا اعتراف بأنَّ جاه النبيصلى الله عليه و آله بعد موته ما زال باقياً حتى سرى إلى عمِّه العباس» (١).

و نحن نضيف إلى ذلك: أنه إذا جاز التوسُّل بالقرآن - كما مرَّ في الفصل الثاني - لمكانته عند الله و منزلته لديه و هو كلام الله الصامت، فالتوسُّل بالنبي الأكرم و هو كلام الله الناطق بطريق أولى.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «اقترب آدم الخطيئه قال: ربِّي أسألك بحقِّ محمَّد لما غفرت لي، فقال الله عزَّ و جلَّ: يا آدم، كيف عرفت محمَّداً و لم أخلقه؟ قال: لأنَّك يا ربَّ لما خلقتني بيدك و نفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله، فعلمت أنَّك لم تُضِفْ إلى اسمك إلاَّ أحبَّ الخلق إليك، فقال الله عزَّ و جلَّ:

صدقت يا آدم إنَّه لأحبُّ الخلق إليّ، و إذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، و لو لا محمَّد لما خلقتك» (٢).

يقع الكلام في سند الحديث أولاً و متنه ثانياً.

أمَّا الأول: فرجاله ثقات، نعم وقع الكلام في واحد منهم و هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقد قال البيهقي: و هو ضعيف، و لكن الحاكمصحَّ الحديث على شرط الشيخين، و لو قلنا بأنَّه لا يعتمد على تصحيح الحاكم وحده فتكون الروايه مؤيَّده؛ إذ ليس معنى كون الراوى ضعيفاً أن الروايه مكذوبه.

١- المصدر نفسه: ٤٩.

٢- دلائل النبوه و معرفه أحوال صاحب الشريعة، ٥: ٤٨٩ ط دار الكتب العلميه بيروت. لاحظ الدر المنثور ١: ٥٩، و نقله كثير من المفسرين في قصه توبه آدم.

و هناك نكته أشرنا إليها سابقاً، و هي أن لو كان التوسّل بشخص النبي أمراً منكرّاً بين المسلمين لما تجرّأ الواضع بوضع الحديث الذي يتضمّن ذلك الأمر المنكر؛ لأنّ هدفه من الوضع إقبال الناس إلى كلامه و تسليمهم بالروايه، و هذا لا يجتمع مع كون المضمون أمراً مخالفاً لما عليه المسلمون في ظرف النقل، و بذلك يُعلم أنّ الروايه سواء أ كانت صحيحه أم لا، تُثبت ما بيّناه في جواز التوسّل بذات النبي.

نعم هنا شبهات حول الروايه، تجب الإجابة عنها:

الشبهه الأولى

إنّ الحديث يتضمّن الإقسام على الله بمخلوقاته، فالأقسام على الله بمحمد و هو مخلوق بل و أشرف المخلوقين لا يجوز؛ لأنّ حلف المخلوق لمخلوق حرام، فالحلف لله بمخلوقاته من باب أولى.

يلاحظ عليه: أنّ ما استدللّ به على حرمه الإقسام على الله بمخلوقاته عن طريق أنّ الحلف بمخلوق لمخلوق حرام، مردود جداً، لأنّ القرآن ملئ بالهلف بمخلوق لمخلوق، قال سبحانه:

«وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ* وَ طُورِ سِينِينَ* وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (١).

«وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى» (٢).

«وَ الْفَجْرِ* وَ لَيَالٍ عَشْرٍ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ* وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ» (٣).

ففي هذه الآيات حلف بمخلوق على مخلوق، و الحالف هو الله و المحلوف به هو هذه الموجودات و المحلوف لهم هم الناس أو المسلمون قاطبه.

فلو كان الحلف بمخلوق لمخلوق أمراً خطيراً و بمقربه من الشرك أو هو نفسه كما

١- التين: ١- ٣.

٢- الليل: ١- ٢.

٣- الفجر: ١- ٤.

يقوله بعض الناس [\(١\)](#) «لما حلف به سبحانه؛ لأنّ ماهيه العمل إذا كانت ماهيه شركيه فلا يفرق بينه و بين عباده كما أنه إذا كانت ماهيه الشىء ظلماً و تجاوزاً على البرىء، فالله و عباده فيه سيان، قال الله تعالى: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَوْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [\(٢\)](#)».

إنّ الحلف بهذه العظام ذات الأسرار إنّما لأجل أحد الأمرين: إمّا للدعوه إلى التدبّر و الدقه فيصنعها و النواميس السائده عليها و اللطائف الموجوده فيها، أو لإظهار عظمه المحلوف به و كرامته عند الله كما هو الحال في حلفه سبحانه بحياه النسي، قال: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» [\(٣\)](#)».

و لا عتب علينا إذا عرضنا المسأله على السنّه النبويه، فقد جاءت فيها موارد قد ورد فيها الحلف بمخلوق على مخلوق، نكتفى بما رواه مسلم فيصحيحه، و ما ظنّك بروايه مسلم في جامعه!

١- روى مسلم فيصحيحه:

جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله أى الصدقه أعظم أجراً؟ فقال: «أما و أبيضك لتتبانّه: أن تصدّق و أنتصحيح شحيح، تخشى الفقر و تأمل البقاء» [\(٤\)](#)»

٢- روى مسلم أيضاً:

و جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و آله- من نجد- يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله: «خمصلوات فى اليوم و الليل».

فقال: هل على غيرهنّ؟

١- التوصل إلى حقيقه التوسّل: ص ٢١٧.

٢- الأعراف: ٢٨.

٣- الحجر: ٧٢.

٤- صحيح مسلم ٣: ٩٤ كتاب الزكاه، باب أفضل الصدقه.

قال: «لا... إلّا أن تطّوع، وصيام شهر رمضان».

فقال: هل عليّ غيره؟

قال: «لا... إلّا أن تطّوع»، و ذكر له رسول الله الزكاه.

فقال الرجل: هل عليّ غيرها؟

قال: «لا... إلّا أن تطّوع».

فأدبر الرجل و هو يقول: لا أزيد على هذا و لا أنقص.

فقال رسول الله: «أفّح و أبيه» (١) «إنصدق».

أو قال: «دخل الجنة- و أبيه- إنصدق» (٢)

فإذ بطل الأصل: حرمه الحلف بمخلوق على مخلوق، بطل ما بُني عليه من حرمه الإقسام على الله بحق مخلوقه.

إلى هنا تمّ بيان أنّ الشبهه شبهه غير صحيحه، و إنّما دعا القائل إلى التمسك بها لدعم رأيه المسبق.

الشبهه الثانيه

إنّ الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقرار الخاطئه و لكنّه قبل أن يخطأ، علّمه الله الأسماء كلّها، و من جمله الأسماء اسم محمد و علّم أنّه نبيّ و رسول و أنّه خير الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربّي إنّك أعلمتني به أنّه كذلك لما علّمتني الأسماء كلّها» (٣).

نقول على هامش الشبهه: إنّ ردّ السنّه الشريفه بمثل هذه التشكيكات جرأه عليها؛ إذ أيّ مانع أن يكون هنا علّمان: علم جزئي و وقف عليه عند ما فتح عينيه على

١- أي حلفاً بأبيه، فالواو للقسم.

٢- صحيح مسلم ١: ٣٢، باب ما هو الإسلام.

٣- التوصل إلى حقيقه التوسّل: ص ٢١٨.

الحياه فى الجئه، و علم واسع علمه سبحانه بعد ذلك الظرف، عند ما أراد سبحانه إثبات كرامته على الملائكه.

إن هذا النوع من التشكيك يستمد من إثبات الرأى و الصمود على العقيدته و إن كان الحديث على خلافها.

و هناك نكتتان نتبه عليهما:

الأولى: إن أحاديث التوسل و إن كانت تتراوح بين الصحيح و الحسن و الضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون و تواتره، فعند ذلك تسقط المناقشه فى أسنادها بعد ملاحظته ورود كميته كبيره من الأحاديث فى هذا المجال، و أنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، و ما يوافقك تدعن بتضافر المضمون أو تواتره.

الثانيه: نحن نفترض أن الحديث الراهن مجعول موضوع، و لكنّه يعرب عن أن التوسل بالمخلوق و الإقسام على الله بمخلوقاته ليس شركاً و لا ذريعه إليه، بل و لا حراماً. و ذلك لأنه لو كان شركاً و ذريعه إليه أو حراماً، لما رواه الثقات واحد عن واحد، و هم أعرف بموازين الشرك و معايره، و لما أورده الأكابر من العلماء فى المعاجم الحديثيه، كالبيهقى فى دلائل النبوه و الحاكم فى مستدركه، و السيوطى فى تفسيره، و الطبرانى فى المعجم الصغير، و أكابر المفسرين فى القرون الغابره؛ لأنّ الشرك أمر بين الغى، فلا معنى و لا مسوغ لنقله بحجه أنه روايه.

فكل ذلك يعرب عن الفكره الخاطئه فى الحكم على الحلف على الله بمخلوقاته شركاً.

التوسّل بمقام النبى و منزلته عند الله

(٩) التوسّل بمقام النبى و منزلته عند الله

اشاره

إنّ هذا النوع من التوسّل ليس قسماً آخر بل يرجع إلى التوسّل بحقّهم، بل التحقيق هو: أنّ التوسّل ليس له إلّا قسم واحد و هو توسيط قداسه النبى و شخصيته و حرمة عند الله تبارك و تعالى، حتى يستجيب دعاء الإنسان لأجلها، و لو كان لدعاء النبى أثر هو الإجابة فإنّما هو فى ظلّ قداسته و شخصيته، و هناك كلمه قيمه للشيخ محمد الفقى على هذا الصعيد نأتى بنصّها:

يمتاز الأنبياء و الرسل عن سواهم بمميزات لها خطورتها و عظم شأنها، و يتمتعون بخصوصيات تجل عن التقدير و التعبير، فهم يتفاوتون عن الخلائق بشتى الخوارق، و يختصّون بأنواع رائعه من المعجزات و أسمى المقامات: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (١).

و الذى وهبهم هذه العطايا و أنعم عليهم بهذه الامتيازات، كتب لهم فى سجل الحوائج قضاء ما يطلبون و ما يرجون؛ لأنّهم رسله إلى خلقه يلجأ إليهم عند الشدائد، و يستغاث بهم فى الملمات، و قد أكرم الله كذلك من بين خلقه رجالاً لا

تلهيهم تجاره ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلهم الحظوه لديه، والقبول عنده بتفضيل عليهم بالاستجابة لدعائهم وقبول الاستغاثة منهم.

و في جواز التشقق والاستغاثة بجاهه تواترت الأحاديث، واستفاضت الأخبار، خصوصاً عند ما يطول الموقف و يشتد الكرب و يعظم الهول، يوم تذهل كل مرضعه عما أرضعت، و تضع كل ذات حمل حملها، و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى. فتطلب الخلائق في هذا الموقف من الأنبياء إغاثتهم، و الاستشفاع بهم، فيحيلونهم كل بدوره إلى خير شفيع، و أعظم مغيث فيقصدون كعبه الشفاعة و قبله الإغاثة، فيستجيب لرغباتهم و يسارع لإغاثتهم و إنقاذهم و يهّم لمرضاتهم بما عهد فيه من فضل، و ما عرف عنه من كرم [\(١\)](#).

روى البخارى و مسلم عن أبى هريره قال: قال رسول الله: «أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بَمَ ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين و الآخرين فيصعيد واحد و يسمعهم الداعى و ينفذهم البصر و تدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغمّ و الكرب ما لا يطيقون و لا يحتملون فيقول الناس: أ لا ترون ما قد بلغكم؟

أ لا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه و أمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك أ لا ترى إلى ما نحن فيه؟ أ لا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله و لا يغضب بعده مثله، و إنّه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض و قد سمّاك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّي عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و إنّّه قد كانت لى دعوه دعوتها على قومي، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيّ الله و خليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعد مثله (و إنّى قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهنّ أبو حيان (١) -) فى الحديث، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالته و بكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله، و إنّى قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه، و كلمت الناس فى المهديصبيّاً، اشفع لنا، أ لا ترى إلى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى: إنّ ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله (و لم يذكر ذنباً)، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمدصلى الله عليه و آله.

فيأتون محمداً صلى الله عليه و آله فيقولون: يا محمد أنت رسول الله و خاتم الأنبياء، و قد

١- ما تفرّد به أبو حيان مخالف للكتاب و العقل فلا عبره به.

غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربّي عزّ و جلّ ثمّ يفتح الله عليّ من محامده و حسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثمّ يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه و اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا ربّ أمّتي يا ربّ، فيقال: يا محمد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنه، و هم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثمّ قال: و الذي نفسى بيده إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنّه كما بين مكه و حميرا و كما بين مكّه و بصرى» (١)

فالحديث يدلّ على جواز التوسّل بالمقام و المنزله لقولهم: يا من أنت رسول و خاتم الأنبياء، كما أنّ فيه دلالة على طلب الشفاعة منه لقولهم اشفع لنا إلى ربك.

إنّ التوسّل بالأنبياء و الأولياء ليس بملاك جسمانيتهم فإنّهم و غيرهم في ذلك المجال سواسيه، و إنّما يتوسّل بهم بروحانيتهم العاليه؛ و هي محفوظة في حال الحياه و بعد الارتحال إلى البرزخ و إلى الآخرة.

فالتفريق في التوسّل بين الحياه و الممات ينشأ من نظره ماديّه تعطى الأصاله للجسم و الماده و لا تقيم للمعنى و الروحانيه وزناً و لا قيمه.

فالنبى الأكرم مدار الفضائل و الكمالات و هو يتمتع بأروع الكرامات و كلّها ترجع إلى روحانيته و معنويته القائمه المحفوظه في جميع الحالات.

فما هذا التفريق بين الحياه الماديّه و البرزخيه و الأخرويه؟

فمن اتّخذ الأنبياء و الأولياء و غيرهم ممّن باتوا لربّهم سجداً و قياماً، أسباباً حال حياتهم أو بعد مماتهم، و وسائل لقضاء حوائجهم و وسائل لجلب الخير و دفع

١- البخارى، الصحيح ٦: ٨٤-٨٥، صحيح مسلم ١: ١٢٧-١٣٠، مسند أحمد ٢: ٤١٢.

الشر، لم يحددوا عمّا تهدف إليه الشريعة و لم يتجاوزوا الخط المشروع و لم يتعدّوا مقصود الرساله النبويه و غاياتها.

فالأسباب لا- يمكن إنكارها، و لا- يعقل تجاهلها، و لا يتأتى جحودها؛ لأنّه تعالى هو الذى خلق الأسباب و المسببات و رتب النتائج على المقدمات فمن تمسك بالأسباب فقد تمسك بما أمر الله سبحانه.

خاتمه المطاف: آيتان على مائده التفسير

خاتمه المطاف: آيتان على مائده التفسير

اشاره

قد تعرّف على أدلّه جواز التوسّل بالأنبيا و الصالحين، بأقسامه المختلفه، و ربّما تشار شبهه حول التوسّل يُتمسك لها ببعض الآيات، فإكمال البحث يقتضى توضيح بعض هذه الآيات التى وقعت ذريعه للشبهه لأجل التفسير بالرأى، فحاشا أن يكون بين الآيات تهافت و اختلاف بأن يدلّ بعضها على جواز التوسّل و بعضها الآخر على المنع، و حاشا أن تكون السنّه المتواتره على جواز التوسّل مضادّه للقرآن الكريم و إنّما استغلّهما القائل إذ ولج فى تفسير الآيه من غير بابها و إليك بعض هذه الآيات:

الآيه الأولى

قوله سبحانه: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا» * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» (١).

و توضيح الآيتين على وجه يقلع الشبهه من رأس:

تردّ الآيتان على الذين كانوا يعبدون الوسائط و الوسائل بتخيّل أنّها تستطيع كشف الضرّ و تحويله عنهم، و أنّها تملك ذلك، فلأجل تلك الغايه كانوا يعبدون الجنّ و الملائكه و غيرهم، و كانوا يسمّونهم آلهه، و الآيتان تحتجان على نفى ألوهيتهم بحجه أنّ الإله المستحقّ للعباده يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع و دفع الضرر، إذ هو لازم ربوبيه الربّ، لكن الذين يدعون هؤلاء و يعبدونهم لا

يستطيعون ذلك، أى كشف ضُرِّ مَسِيهِمْ أو تحويله عنهم إلى غيرهم، فعند ذلك تبطل ربوبيتهم فلا يستحقون العبادة، و إلى ذلك المعنى يشير سبحانه بقوله: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا».

هذا هو الدليل الأول الذى أبطل به سبحانه ألوهيتهم و ربوبيتهم و استحقاتهم للعبادة.

ثم إنه سبحانه عاد إلى الاحتجاج عليهم بدليل آخر و حاصله: أن الذين تعبدونهم و تزعمون أنهم يستطيعون كشف الضر و تحويله - نفس هؤلاء - يدعون الله تعالى و يطلبون القربه إليه بفعل الخيرات حتى أن الأقرب منهم يتغى الوسيله إلى الله فكيف بغير الأقرب، و الجميع يرجون رحمه الله و يخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذورا، فإذا كان الحال كذلك فاللازم عليكم ترك عباده هؤلاء و رفضهم و الإقبال على عباده الله تبارك و تعالى و إلى ذلك يشير قوله سبحانه فى الآيه الثانيه:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا».

فأشار «بأولئك» إلى آلهتهم، و بقوله: «الذين يدعون» إلى عبادتهم لهم، ثم وصف آلهتهم بالجمل التاليه و هى، هؤلاء الآلهه:

١- يتبعون إلى ربهم الوسيله.

٢- الذى هو أقربهم إلى الله يبعى الوسيله فكيف بغير الأقرب.

٣- و الجميع الأقرب و غير الأقرب «يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» فالآيتان بصدد إبطال ألوهيه هؤلاء و عدم استحقاتهم للعباده لعدم ثبوت ملاك العباده فيهم.

فأصله للآيتين بنفى التوسل، أى التوسل بعباد صالحين لا يعتقد التوسل

فيهم شيئاً من الربوبية ولا استطاعه لكشف الضر و تحويله، بل هم عباد صالحون تستجاب دعوتهم، فلو كانت الآية عامه لصوره التوسل بدعائهم يلزم التهافت بينها وبين قوله سبحانه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (١).

فالإنسان المصر على عقيدته الذي لا يريد أن يعدل عنها أمام الآيات البينات ليس له إلا إخراج الآية عن مفادها و تفسيرها لأجل رأى مسبق، فشتان بين مفاد الآية، أى عباده الوسائط بزعم أنهم آلهه يستطيعون كشف الضر و تحويله و قضاء الحاجه، و بين توسط الشخصيات الصالحه بما هم عباد الله، و بما لهم من منزله و كرامه عند الله حتى يدعوا للمتوسل أو يستجيب الله تعالى دعاءه لأجل قربهم و كرامتهم عنده، فالآيه ناظره إلى المعنى الأول دون الثاني.

الآيه الثانيه

قال سبحانه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (٢).

ربما يقال: إن التوسل نوع من الاستعانه بغير الله سبحانه، و هو ينافى الحصر الموجود فى قوله: «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

و الجواب: أن الاستعانه بالناس و الاستغاثه بهم لا- يتنافى مع حصر الاستعانه بالله فى قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» لأن الاستعانه بهم (باعتماد أنه سبحانه هو الذى جهزهم بالقوه، فلو قاموا بعمل فإنما يقومون به بحوله و قوته سبحانه) يؤكد حصر الاستعانه فيه عز و جل.

و إنما ينافى الحصر لو اعتقدنا بأنّ للأسباب و الوسائط أصاله و استقلالاً فى

١- النساء: ٦٤.

٢- الفاتحه: ٥.

العمل و التصرف، و هذا ما لا يليق أن ينسب إلى موحد أبداً.

إنّ القرآن حافل بحصر أفعال بالله سبحانه، فينسبها إليه فيصوره الحصر، و لكنّه يعود فينسبها في نفس الوقت إلى غيره و ليس هناك تهافت و تضادّ بين الإسنادين و النسبتين؛ لأنّ المحصور في الله سبحانه غير المنسوب إلى غيره.

يقول سبحانه: «إِيَّاكَ نَشْتَعِينُ» و في الوقت نفسه يقول عزّ و جلّ: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»^(١).

قال الدكتور عبد الملك السعدى: أما من يمنع ذلك و يستدلّ بقوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَشْتَعِينُ» و بقوله صلى الله عليه و آله لابن عباس: «و إذا استعنت فاستعن بالله» و بقوله: «لا يستغاث بى و إنّما المغيث هو الله».

فالجواب عنه: أنّ الإعانة تكون حقيقه و مجازيه، فالمعين الحقيقى هو الله و طلب الإعانة من غيره مجاز، و لو لا إمداد الله له بالعون و القوه لما استطاع أن يعينك، فالاستعانة بالإنسان هى استعانه بالقوه و الملكه و السلطه التى منحه الله إياه إذ لا حول و لا قوه إلّا بالله، فالآيه حصرت الاستعانه الحقيقه بالله تعالى، و كذا وصيه النبي صلى الله عليه و آله لابن عباس من هذا القبيل، و الآيه و الحديث فيهما توجيه للعبد، أن لا ينسب إلى المخلوق حولاً و لا قوه، و لو طلب العون المجازى منه و إذا لم توجه الآيه و الحديث هذا التوجيه فأنه ستتعارض مع قوله تعالى: «وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى»^(٢) و قوله صلى الله عليه و آله: «و الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».

أمّا الحديث الأخير فأنه ضعيف؛ لأنّ فى سنده ابن لهيعة فلا يقاوم الأحاديث الصحاح و لا مدلول الآيه «(٣)».

١- البقره: ٤٥.

٢- المائده: ٢.

٣- البدعه فى مفهومها الإسلامى الدقيق: ص ٥٣-٥٤.

و الأولى أن يعبر عن الحقيقي و المجازى بالاستقلال و عدم الاستقلال، بالأصالة و التبعية، فالله سبحانه يملك كل شىء استقلالاً و أصالة و العبد يملك العون و القدره، و لكن بإذنه و مشيئته فى كل آن، فهو الذى أراد أن يقدر العبد و يستطيع على إقامه الفرائض و السنن.

فالعون القائم بالذات غير المفاض هو عون الله سبحانه، و أما العون المفاض المحدود فهو عون العبد، فلو استعان بالعبد بما أنه معين مستقل و بالأصالة فهو مشرك، لأنه جعل المخلوق مكان الخالق، و لو طلب منه بما أنه أقدر الله عليه و أجاز له أن يعين أخاه، فقد طلب شيئاً مشروعاً و هو نفس التوحيد.

هذا من غير فرق بين من يستعين بالأحياء و بالأموات، غايه الأمر إذا كان الميت غير مستطيع على الإعانه تكون الاستعانه لغواً، و إن كان قادراً فتكون الاستعانه عقلائيّه، فالحياء و الموت ليسا ملاكاً للتوحيد و الشرك، بل ملاكان للجذوى و عدمها.

التوسّل بالنبي متواتر إجمالاً

(١٠) التوسّل بالنبي متواتر إجمالاً

إشارة

إنّ هناك لفيماً من التوسّلات المبنوثة في كتب التاريخ و التفسير و السيره و غيرها؛ و هي بأجمعها تدلّ على جريان السيره على التوسّل بالرسول؛ و هي تدلّ على جواز التوسّل بدعاء الرسول أو بذاته أو بمنزلته حيّاً و ميتاً، و الكل يعرب عن كونه أمراً رائجاً بين المسلمين غير منكر، و أنّما حدث الإنكار في الآونة الأخيره أى بعد سبعة قرون متكامله، فلم ينبس فيها أحد ببنت شفه بالإنكار أبداً.

نعم هناك بعض يمنعون التوسّل، و لكنّهم لمّا وقعوا أمام هذه الروايات الهائله الدالّه على جواز التوسّل بدعائه أو بذاته و شخصه حيّاً و ميتاً، حاولوا أن يناقشوا في أسناد هذه الروايات، غافلين عن أنّ هذه الروايات مستفيضه، بل متواتره في مفادها الإجمالي؛ أى جواز التوسّل بنفسه، و لا وجه للمناقشه في اسنادها و قال ابن تيمّيه: «و المراسيل إذا تعدّدت طرقها و خلت عن المواطنه قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانتصحيحه قطعاً» (١).

١- مقدمه في أصول التفسير: ص ٢٤.

و أنت إذا لاحظت ما سبق من الصحاح و الحسان و ما ذكره الآن تدعن لتواترها الإجمالى:

١- توصل الأعرابي بالنبي نفسه

إشاره

روى جمع من المحدثين أنّ أعرابياً دخل على رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله و قال: لقد أتيناك و ما لنا بغير يئط، و لا صغير يغط، ثمّ أنشأ يقول:

أتيناك و العذراء تدمى لبانها و قد شغلت أمّ الصبي عن الطفل

و لا شىء ممّا يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامى و العلهز الفسل

و ليس لنا إلّا إليك فرارنا و أين فرار الناس إلّا إلى الرسل؟

فقام رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله يجر رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه و قال: اللّٰهم اسقنا غيثاً مغيثاً... فما ردّ النبي يديه حتى ألقت السماء... ثمّ قال: لله درّ أبى طالب، لو كان حياً لقرّت عيناه. من ينشدنا قوله؟

فقام على بن أبى طالب عليهما السلام و قال: كأنك تريد يا رسول الله قوله:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمه للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمه و فواضل

فقال النبي صلى الله عليه و آله: أجل.

فأنشد على عليه السلام أبياتاً من القصيده، و الرسول يستغفر لأبى طالب على المنبر، ثمّ قام رجل من كنانة و أنشد يقول:

لك الحمد و الحمد ممّن شكر سقينا بوجه النبي المطر «(١)»

دلالة الحديث:

إنَّ الإمعان في مجموع الروايه يعرب عن أنَّ الأعرابي توَّسل بشخص النبي و طلب منه قضاء حاجته، و الدليل على ذلك الأمور الآتيه:

أ- أتيناك و ما لنا بعير يئط.

ب- أتيناك و العذراء تدمى لبانها.

ج- و ليس لنا إلَّا إليك فرارنا.

د- و أين فرار الناس إلَّا إلى الرسل؟

ه- إنشاء على بن أبي طالب شعر والده، و هو يتضمَّن قوله: و أبيض يستسقى الغمام بوجهه.

٢- شعر صفيه في رثاء النبي

أنشدتصفيه بنت عبد المطلب عمه النبي قصيده بعد وفاه النبي في رثائه صلى الله عليه و آله و جاء فيها قولها:

ألا يا رسول الله أنت رجأؤنا و كنت بنا برّاً و لم تك جافيا

و كنت بنا برّاً رءوفاً نبينا ليك عليك اليوم من كان باكيا ^(١)

إننا نستنتج من هذه المقطوعه الشعريه- التي أنشدت على مسمع من الصحابه و سجلها المؤرّخون و أصحاب السير- أمرين:

الأول: إنَّ مخاطبه الأرواح- و بالخصوص مخاطبه رسول الله بعد وفاته- كان

١- ذخائر العقبى: ص ٢٥٢؛ مجمع الزوائد ٩: ٣٦؛ و نشير إلى أنّ جملة: «أنت رجأؤنا» في الشطر الأوّل جاءت في هذا المصدر

هكذا كنت رجأؤنا

أمراً جائزاً و جاريماً و قولها: «يا رسول الله» لم يكن لغواً و لا شركاً.

الثانى: إن قولها: «أنت رجاؤنا» يدل على أنّ النبي صلى الله عليه و آله هو أمل المجتمع الإسلامى فى كل العصور و الأحوال، و لم تنقطع الروابط و العلاقات مع النبي صلى الله عليه و آله حتى بعد وفاته.

٣- خبر العتيق

روى الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنيه: وقف أعرابى على قبره الشريف صلى الله عليه و آله و قال: اللهم إنيك أمرت بعق العبيد و هذا حبيبك و أنا عبدك فأعتقني من النار على قبر حبيبك، فهتف به هاتف: يا هذا سألت العتق لك وحدك؟ هلاً سألت العتق لجميع المؤمنين اذهب فقد أعتقتك.

ثم أنشد القسطلانى البيتين المشهورين و هما:

إن الملوک إذا شابت عبيدهم فى رقهم أعتقوهم عتق أحرار

و أنت يا سيدى أولى بذنا كرمأ قد شبت فى الرق فاعتقني من النار [\(١\)](#)

٤- خبر حاتم الأصم

نقل فى المواهب عن الحسن البصرى، قال: وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه و آله فقال: يا رب إنا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه و آله فلا تردنا خائبين، فنودى: يا هذا ما أذنا لك فى زياره قبر حبيبنا إلاً و قد قبلناك فارجع أنت و من معك من الزوار مغفوراً لكم.

ثم ذكر فى المواهب كثيراً من البركات التى حصلت له ببركه توصله بالنبي [\(٢\)](#).

١- المواهب اللدنيه بالمنح المحمديه ٤: ٥٨٤ ط. دار الكتب الإسلامى

٢- المصدر نفسه.

٥- اللهم ربّ جبرئيل و ميكائيل

روى النووى أنّ النبى أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر: «اللهم ربّ جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و محمد أجرنى من النار» (أو) «أعوذ بك من النار». و خصّ هؤلاء بالذكر للتوسّل بهم فى قبول الدعاء و إلّا فهو سبحانه ربّ جميع المخلوقات.

و الحديث صحّحه الحاكم، و قال ابن حجر: إنه حسن «(١)».

٦- حديث السؤال بالأنبياء

يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنتره عن أبيه عن جدّه أنّ أبابكر الصديق أتى النبى صلى الله عليه و آله قال: إني أتعلّم القرآن و ينفلت منى. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«قل: اللهم إني أسألك بمحمد نبيّك، و إبراهيم خليلك، و موسى نبيّك، و عيسى روحك و كلمتك، و بتوراه موسى، و إنجيل عيسى، و فرقان محمد و بكل وحى أوحيته و قضاء قضيته...».

قال ابن تيمية: هذا الحديث ذكره زرير بن معاوية العبدري فى جامعه. و نقله ابن الأثير فى جامع الأصول، و لم يعزه لا هذا، و لا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين، لكنّه رواه منصف فى عمل يوم و ليله كابن السنّى، و أبى نعيم. و قد رواه أبو الشيخ الاصبهانى فى كتاب «فضائل الأعمال» «(٢)».

١- الدرر السّيته: ص ٣٠؛ التوصل إلى حقيقه التوسّل: ٣٠٦ عن كتاب الأذكار للنووى.

٢- التوصل إلى حقيقه التوسّل: ص ٣١٠.

٧- حديث دعاء حفظ القرآن

ذكر موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير باسناده عن ابن عباس مرفوعاً، أنه قال: من سرّه أن يوعيه الله القرآن فليكتب هذا الدعاء: «... اللهم إني أسألك بأنك مسئول لم يسأل مثلك ولا يسأل وأسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وموسى نجيّك، وعيسى روحك وكلمتك ووجهك...» (١)

٨- حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد صلى الله عليه وآله

يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنتره، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان... فكلما التقوا هزمت يهود، فعادت بهذا الدعاء: «اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلما نصرتنا عليهم، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان... فلما بُعث النبي صلى الله عليه وآله كفروا به فأنزله الله تعالى: «وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...» (٢).

٩- توسل الشافعي بآل البيت

ذكر ابن حجر المكي في كتابه المسمى ب «الصواعق المحرقة» من أشعار الإمام الشافعي هذين البيتين:

١- التوصل إلى حقيقه التوسل: ص ٣١٠.

٢- المصدر نفسه، نقلًا عن الحاكم في المستدرک على الصحيحين. و لم نعر عليه فيه بعد الفحص الأكيد. والآيه في سوره البقره: ٨٩.

آل النبي ذريعتي و هم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمينصحيقتي «(١)»

١٠- استسقاء بلال بن حرث

روى البيهقي و ابن أبي شيبه أنّ الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضى الله عنه، فجاء بلال بن الحرث رضى الله عنه و كان من أصحاب النبي إلى قبر النبي، و قالوا: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه و آله في المنام و أخبره بأنهم سيسقون «(٢)» ففيه النداء بعد وفاته صلى الله عليه و آله و الخطاب بالطلب منه أن يستسقى لأُمَّته.

و مراده من الاستسقاء بقريته الحال دعاؤه سبحانه أن ينزل رحمته، إليهم، لا أن يصلّيصلاه الاستسقاء، و ليس العبره بنوم بلال، و إنّما العبره بعمل ذلك الصحابي الذي كان في بعض غزواته «(٣)».

قال زيني دحلان: و من تتبع أذكار السلف و الخلف و أدعيتهم و أورادهم وجد فيها شيئاً كثيراً في التوسّل و لم ينكر عليهم أحد في ذلك حتى جاء هؤلاء المنكرون، و لو تتبعنا أكابر الأئمة في التوسّل لامتلأت بذلك الصحف، و فيما ذكر كفايه و مقنع لمن كان بمرأى من التوفيق و مسمع «(٤)».

تلك عشره كامله

و نلفت نظر القارئ بأنّ الاحتجاج بهذه الأحاديث العشره الكامله و ما قبلها مبنى على أمرين أُشير إليهما فيما سبق:

١- الصواعق المحرقة: ص ١٨٠، ط. مكتبه القاهره، تحقيق عبد الوهاب

٢- الدرر السنيه: ص ١٨.

٣- تهذيب الكمال ٤: ٢٨٢؛ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٣: ٣٠١-٣٠٣.

٤- الدرر السنيه: ص ٣١.

١- إنَّ أصل التوسُّل إذا كان شركاً أو محرماً لم يتجرأ الوضَّاع على أن يجعله أساساً لما يريد من الوضع و الدس، فهذا يعرب عن أنَّ أساس (جواز التوسُّل) كان أمراً مسلماً فبنى عليه ما بنى من القصص و الروايات لو افترضنا عدمصحتها، لكن أنى لنا هذه الفريه.

٢- إنَّ مجموع الروايات العشره و ما تقدّم عليها من الصحاح و الحسان يثبت كون التوسُّل بالنبي الأعظم صلى الله عليه و آله بعامهصوره أمر استُفيض جوازه من النبي و الصحابه، بل تواتر إجمالاً و إن كانت الخصوصيات غير متواتره.

و ليس المورد ممّا يقبل الجرح و الدقّه في إسناد الروايات؛ إذ ليس المقصود الإذعان بصحه كل ما جاء فيها من الخصوصيات، و إنّما المقصود ثبوت جواز التوسُّل بصورة عامه ببركه هذه الحكايات و القصص و إن كان بعضها ضعيف السند عند البعض و صحيحاً عند آخر.

و من أراد ردّ هذه الروايات بضعف السند، فقد ولج البيت من غير باب.

حكم التوسل

ما أُلّف حول التوسُّل بقلم علماء الإسلام

لقد أُلّف حول التوسُّل بخير الأنام و أولياء الله الكرام كتبٌ و رسائل قام بتأليفها لفيف من علماء الإسلام و أكابرهم الذين يعتمد على أقوالهم و آرائهم، فأحببت أن أنوّه ببعض أسمائها حتى يقف القارئ عليها، و إذا أراد التوسُّع فعليه الرجوع إليها:

١- كتاب الوفا في فضائل المصطفى: لابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) و قد أفرد باباً حول التوسُّل بالنبي صلى الله عليه و آله و باباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢- مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمد بن نعمان

المالكي (المتوفى سنة ٤٧٣ هـ) وقد نقل السمهودي في كتاب وفاء الوفا، باب التوسّل بالنبى صلى الله عليه وآله عن هذا الكتاب نقلًا كثيرًا.

٣- البيان و الاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، و قد ذكر فيه توسّل العلماء و الصلحاء بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المحن و الأزمت.

٤- شفاء السقام: لتقى الدين السبكي (المتوفى عام ٧٥٤ هـ) و قد تحدّث عن التوسّل بالنبى صلى الله عليه وآله بشكل تحليلي رائع منص ١٢٠-١٣٣.

٥- وفاء الوفا لأخبار دار المصطفى: للسيد نور الدين السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) و قد بحث عن التوسّل بحثًا واسعًا في الجزء الرابع منص ٤١٣-٤١٩.

٦- المواهب اللدنيه: لأبي العباس القسطلاني (المتوفى سنة ٩٣٢ هـ) و سيوافيك كلامه في التوسّل.

٧- شرح المواهب اللدنيه: للزرقاني المالكي المصري (المتوفى سنة ١١٢٢ هـ) في الجزء الثامن، ص ٣١٧.

٨- صلح الإخوان: للخالدي البغدادي (المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ) و له أيضاً رساله خاصه في الردّ على الآلوسى حول موضوع التوسّل بالنبى صلى الله عليه وآله و قد طبعت رساله في سنة ١٣٠٤ هـ.

٩- كنز المطالب: للعدوي الحمزاوى (المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ).

١٠- فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعى، و قد طبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء و الصفات للبيهقي في ١٤٠ صفحه.

أيها القارئ الكريم: إنّ مطالعه هذه الكتب- و خاصه تلك التى تحدّثت بالتفصيل عن التوسّل، و يأتى كتاب صلح الإخوان و فرقان القرآن فى طليعتها- تثبت جريان سيره المسلمين- فى كلّ عصر و مصر- على التوسّل بالنبى صلى الله عليه وآله و لنقتصر على هذا المقدار فففيه كفايه لمن ألقى السمع و هو شهيد.

كلام لابن حجر حول التوسل

قال: و ينبغي للزائر أن يكثّر من الدعاء و التضرّع و الاستغاثه و التشفّع و التوسل بهصلى الله عليه و آله فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه.

و اعلم أنّ الاستغاثه هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ: الاستغاثه أو التوسل أو التشفّع أو التجوّه أو التوجّه، لأنّهما من الجاه و الوجاهه، و معناه: علو القدر و المنزله.

و قد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه، ثم إنّ كلّاً من الاستغاثه و التوسل و التشفّع و التوجّه بالنبى صلى الله عليه و آله كما ذكره في «تحقيق النصره» و «مصباح الظلام» واقع في كل حال، قبل خلقه و بعد خلقه، في مده حياته في الدنيا و بعد موته في مدّه البرزخ، و بعد البعث في عرصات القيامة.

فأمّا الحاله الأولى فحسبك ما قدّمته في المقصد الأول من استشفاع آدم عليه السلام به لما أُخرج من الجنّه، و قول الله تعالى له: «يا آدم لو تشفّعت إلينا بمحمد في أهل السماوات و الأرض لشفّعناك».

و في حديث عمر بن الخطاب عند الحاكم و البيهقي و غيرهما: و إن سألتني بحقه فقد غفرت لك. و يرحم الله ابن جابر حيث قال:

به قد أجاب الله آدم إذ دعا و نجا في بطن السفينه نوح

و ما ضرت النار الخليل لنوره و من أجله نال الفداء ذبيح

وصحّ أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «لما اقترف آدم الخطيئه قال: يا ربّ، أسألك بحقّ محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، و كيف عرفت محمّداً و لم أخلقه؟ قال: يا ربّ إنّك لما خلقتني بيدك و نفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوباً عليها لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فعرفت أنّك

لا- تضيف إلى اسمك إنما أحبّ الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنّه لأحبّ الخلق إليّ، و إذ سألتني بحقّه، فقد غفرت لك و لو لا محمّد ما خلقتك».

ذكره الطبري، و زاد فيه: «و هو آخر الأنبياء من ذريتك» (١)

و أمّا التوسّل بعد خلقه في مدّه حياته، فمن ذلك الاستغاثه بهصلى الله عليه و آله عند القحط و عدم الأمطار، و كذلك الاستغاثه به من الجوع و نحو ذلك ممّا ذكرته في مقصد المعجزات و مقصد العبادات في الاستسقاء، و من ذلك استغاثه ذوى العاهات به، و حسبك ما رواه النسائي و الترمذى عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً ضريراً أتى النبيصلى الله عليه و آله فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه و يدعو بهذا الدعاء: «اللهمّ إنّي أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إنّي أتوجه بك إلى ربّك في حاجتي لتقضى، اللهمّ شفّعه في» و صحّحه البيهقي و زاد: «فقام و قد أبصر».

و أمّا التوسّل بهصلى الله عليه و آله بعد موته في البرزخ و هو أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء و في كتاب «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» للشيخ أبي عبد الله ابن النعمان طُرف من ذلك.

إنّ لابن حجر العسقلاني مقاماً شامخاً عند أهل الحديث، لا يعدل عنه إلى غيره إلّا بدليل و هو خريّت فنّ الحديث و أستاذه، فكلامه يعرب عن تسليمهصححه ما نقل من الأحاديث التي تقدّمت في الفصول السابقه.

***أخي العزيز: لقد عالجت في هذا الفصل مسأله التوسّل التي قد أثارت في بعض الأجواء قلقاً و اضطراباً، و لو أنّ إخواننا نظروا إلى كتاب الله و سنّه نبيّه نظره

فاحصه متجرده عن كل رأى مسبق لوجدوا فيهما بياناً شافياً، لا يدع شكاً لشاك ولا ريباً لمرتاب، و بما أنّ بعضهم - سامحه الله - ربّما يرمى المتوسّل بتأليه المتوسّل به، أو يعد عمله بدعه؛ وضعنا أمامك بحثاً موجزاً حول التوسّل ليقف القارئ على أنّ المتوسّل بالأسباب - ماديه كانت أم معنويه - يؤمن بالتوحيد فى العباده و حرمة البدعه أتمّ الإيمان، و أنّه مع إيمانه و تسليمه بهما يتوسل بما سُوِّغ فى الشريعة الإسلاميه التمسك به.

نسأله سبحانه أن يرزقنا توحيد الكلمه، كما تفضّل علينا بكلمه التوحيد إنّه على ذلك قدير و بالإجابته جدير.

تمّ الكتاب بيد مؤلّفه الفقير الى الله الغنى

جعفر السبحانى

عُفى عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩